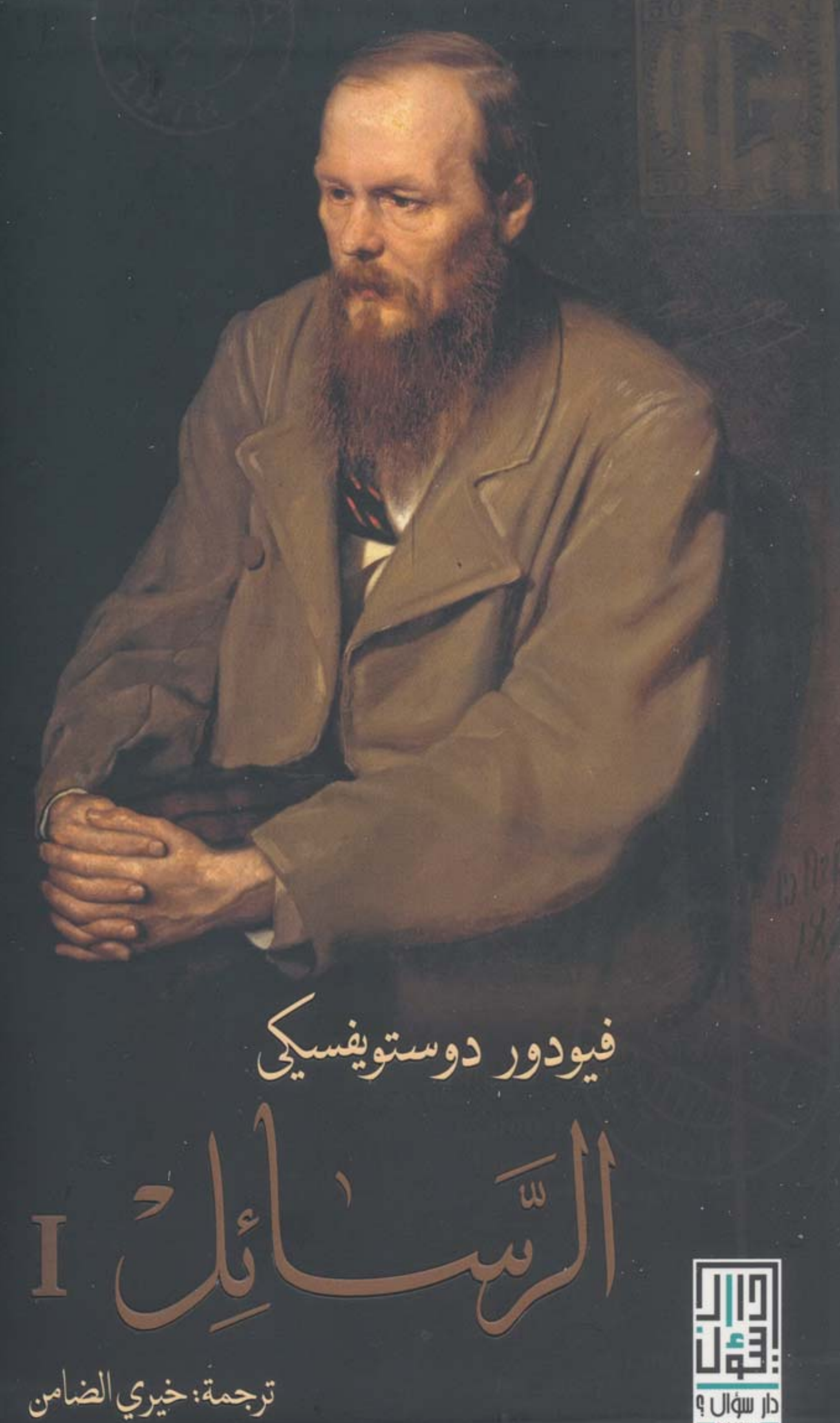

فيودور دوستويفسكي
الرسائل I
ترجمة: خيري الضامن
دار سؤال؟

رسائل دوستويفسكي

الجزء الأول

ترجمة

خيري الضامن



رسائل دوستويفسكي

رسائل دوستويفسكي

Федор Михайлович Достоевский
Том 15. Письма 1834-1881

تنشر في مجلدين بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية



الطبعة الأولى، 2017
عدد الصفحات: 480
القياس: 14.5 × 21.5

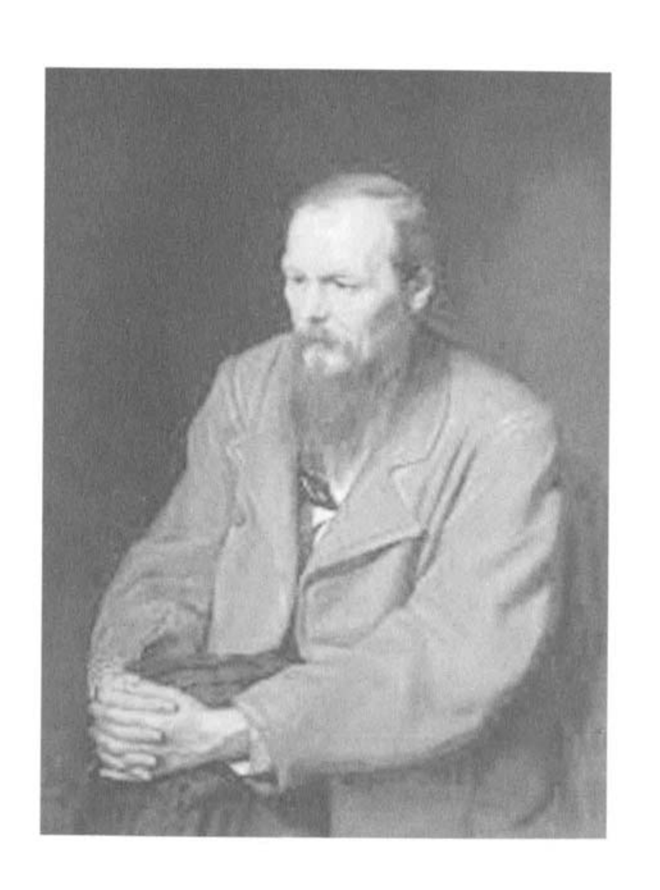
دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com
@darsouall2014
dar_souaal@outlook.com
Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-36-0

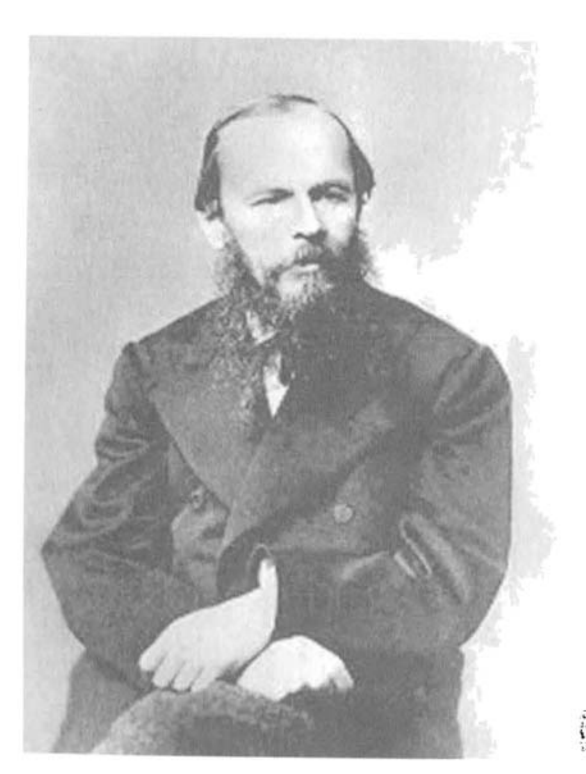
تصميم الغلاف: محمد النبهان
زيتية الغلاف للرسام الروسي فاسيلي بيروف (1834-1882)


أهم رسائل
الفترة 1834-1881
مترجمة عن الأصل الروسي





(*) التبويب التقريبي، وكذلك ترقيم الرسائل، خاص بطبعة دار سؤال.



1. إلى ماريا دوستويفسكايا[1]

موسكو، أواخر أبريل- أوائل مايو 1834

والدتي العزيزة!

عندما سافرتِ من طرفنا، يا والدتي الحبيبة، شعرتُ بملل بالغ، وما إنْ أتذكرك، يا والدتي الحنون، حتى تنهال عليَّ أحزان لا أقوى على الفكاك منها. ليتك تعلمين ما أشد تشوقي لرؤيتك وما أقل صبري على انتظار اللحظة التي سأراك فيها من جديد. كلما أتذكرك أبتهل إلى اللّه أن يمنحك موفور الصحة والعافية. أخبرينا يا والدتي العزيزة هل وصلتِ بسلام؟ قبّلي أندريه وفيرا نيابة عني.

أقبّل يديك وسأظل دوماً ابنك البار[2].

ف. دوستويفسكي

---

(1) والدة الكاتب توفيت في سن مبكرة (1800-1837).

(2) كتب دوستويفسكي هذه الرسالة وهو في الثانية عشرة من العمر.

2. إلى ماريا دوستويفسكايا

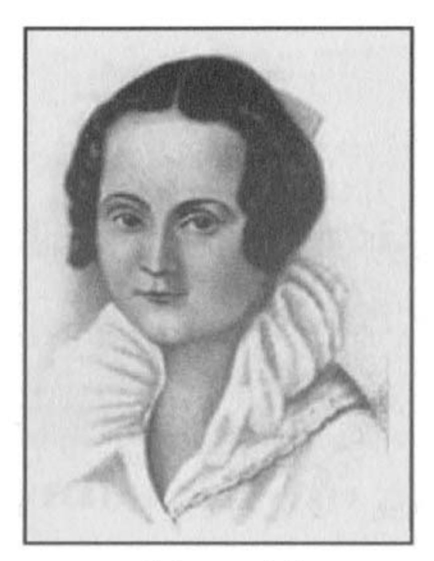
موسكو، 9 مايو 1835

الوالدة العزيزة!

للمرة الثالثة نبلغكم تحريرياً أننا بخير وبصحة جيدة والحمد للّه. واليوم، الخميس، أخذنا الوالد إلى البيت بمناسبة العيد، وها نحن معاً، من دونك يا أمنا الحنون. وللأسف أننا سنبقى مفترقين عنك أمداً طويلاً، ونأمل أن يمضي الوقت سريعاً إن شاء اللّه. الطقس عندنا سيّئ للغاية، وأظن أنه عندكم أيضاً بنفس السوء وأعتقد أنك لا تتمتعين بالربيع، فما أسوأ أن يكون المرء في الريف عندما تعتكر الأحوال الجوية. كما أعتقد أن فيرا ونيكولاي يشعران بضجر أكبر، وأن نيكولاي لا يمارس لعبة الحصن كما كان يفعل معي أحياناً. نحن نشفق كثيراً على أليونا فرولوفنا المسكينة، فهي تعاني الكثير وستلقى حتفها من السل الذي يلاحقها.[1]

مع السلامة يا ماما. في انتظار فرصة اللقاء القريب. ولداك المطيعان

فيودور وأندريه دوستويفسكي



والدة دوستويفسكي

(1) أليونا فرولوفنا كريوكوفا مربية العائلة، وهي امرأة طيبة، بدينة وبصحة جيدة. والكلام عنها هنا جاء على سبيل المزاح.

3. إلى ماريا دوستويفسكايا

موسكو، 26 مايو 1835

الوالدة الحبيبة!

يسرّني جداً أنك في صحة جيدة بمشيئة العلي القدير. نحن نقضي هذين اليومين، يوم الثالوث ويوم الروح القدس، في البيت مع الوالد العزيز. الطقس عندنا كما هو عندكم باعتقادي متقلب كل هذه الأيام. إلا أن هذا السبت رائع رغم تساقط المطر، فقد بات الجو نقياً صافياً بل ورائعاً في الليل. ولا أظن أن هذا المطر قد فاتكم، فهو ليس مقيداً أو محدوداً. امتحاننا سيتم، كما في العام الماضي، أواخر يونيو، ولذا لا أمل في رؤيتك في القريب العاجل. تقولين إن الأطفال يمرحون حتى أن بدن نيكولاي اكتنز، أليس الطقس هو الأفضل الآن؟ وبالتالي يمكنه أن يتمتع به في الهواء الطلق. قبّليهم نيابة عني وقولي لهم أن يتحلوا بالفطنة والرشاد، وبلّغيهم أننا سنعود إليهم في القريب العاجل. وداعاً يا أمنا العزيزة، ليس عندي ما أكتبه أكثر.

نبقى ولديك المخلصَين

فيودور وأندريه دوستويفسكي

4. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)[1]

بطرسبورغ، 23 يوليو 1837

الوالد المحترم!

اليوم سبت، ولدينا، والحمد للّه، فرصة تحرير بضعة سطور إليك، وفيما عدا ذلك نحن مشغولان طول الوقت. سبتمبر يقترب وتقترب معه الامتحانات، وليس بوسعنا أن نضيع ولا دقيقة خلال الأسبوع. في السبت والأحد فقط نتفرغ، بمعنى أن كوروناد فيليبوفيتش لم يكلفنا بواجب بيتي في هذين اليومين، وبالتالي تمكنّا أن نجد وقتاً للتحدث إليك تحريرياً.

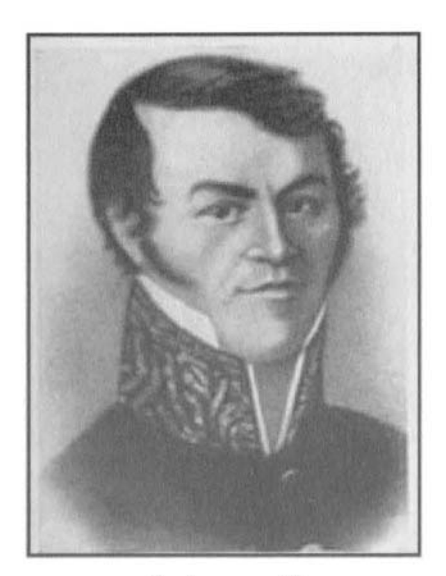
الرياضيات والعلوم تتلاحق علينا الآن، وكذلك التحصينات والمدفعية. وفي الآحاد وأيام السبت نرسم المخططات البيانية. كل يوم تقريباً يقوم كوروناد فيليبوفيتش بتدريس الجميع، ويدرّسنا نحن الاثنين خصيصاً لأننا الوحيدان من بين جميع تلاميذه الراغبان في دخول الصف الثاني، بينما الباقون يريدون دخول صف أوطأ. المعلم كوروناد يعلق آماله علينا أكثر من باقي التلاميذ الثمانية الذين يشرف على إعدادهم. وقريباً سندرس شؤون الجبهة على يد ضابط صف

استدعاه كورروناد لهذا الغرض وسنظل ندرسها لحين موعد الالتحاق، أي حتى شهر ديسمبر. دروس الجبهة تحظى باهتمام بالغ، وحتى إذا تضلع التلميذ في كل المواد يمكن أن ينسبوه إلى الصفوف الأوطأ بسبب درس الجبهة. علماً بأن ذلك يجعلنا نفوز في أنظار معالي ميخائيل بافلوفيتش، فهو متيَّم بالنظام. وهكذا يمكنك أن تقدر مدى دراستنا لهذه المادة، رغم أن الجميع، بعد امتحان سبتمبر، يجب أن يترددوا على الحصن الهندسي ليتعلموا شؤون الجبهة. فهل نحقق شيئاً؟ حسبنا اللّه ونعم الوكيل. سوف نبذل قصارى جهدنا.

حالياً يجري عندكم في الريف جني محصول القمح، ونحن نعرف أن هذا هو العمل المحبب لديكم. لكننا لا نعرف حجم المحصول في طرفكم، ولا نعرف أحوال الطقس عندكم. وفيما يخص طقس بطرسبورغ فهو في منتهى الروعة، كما في إيطاليا. لم نلتق شيدلوفسكي بعد، ولم نبلغه تحياتك بالطبع.

هل يفعل إخوتنا وأخواتنا شيئاً في القرية؟ لا بد أنهم شبعوا من اللهو والتراكض، وتمتعوا بطعم الثمار، واسمرّت بشرتهم ووجوههم. نعتقد أن ساشا (ألكساندرا) قد ترعرعت كثيراً. والهواء المنعش مفيد لها. فاريا (بربارة) ربما تقوم ببعض الأشغال اليدوية. وأكيد أنها لا تنسى دراسة العلوم ومطالعة مدوّنة كارامزين عن «تاريخ روسيا». لقد وعدتنا بقراءة الكتاب.

أما أندريه فلعله، وسط مباهج القرية، لا ينسى التاريخ الذي كان يتوانى أحياناً في الاطلاع عليه. ونظن أنك ستأخذه في الخريف إلى موسكو ليتعلم على يد تشيرماك. وهكذا ستبقى أمداً طويلاً مهتماً بتربية أولادك، فنحن كثيرون . فاحكم بنفسك على مدى ابتهالنا



والد دوستويفسكي

للخالق كي يصون صحتك الغالية. قبلاتنا إلى جميع الإخوة والأخوات.

مع أسمى آيات الاحترام والإخلاص والمودة من ولديك المحبين

ميخائيل وفيودور دوستويفسكي

---

(1) رسائل دوستويفسكي وأشقائه المشتركة إلى والدهم الطبيب العسكري المتقاعد ميخائيل أندريفيتش دوستويفسكي (1788-1839) ثمان، ثلاث منها بخط الكاتب وخمس بخط أخيه ميخائيل. كانت العلاقة متوترة بين الكاتب ووالده الذي مات مقتولاً على يد فلاحيه الأقنان، حسب رواية غير موثقة.

5. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)

بطرسبورغ، 6 سبتمبر 1837

الوالد الكريم!

لم نكتب لك من زمان، ولعل صمتنا الطويل يقلقك كثيراً، وخصوصاً في مثل هذه الملابسات. وجدنا الآن فقط فرصة إبلاغك بمشغوليتنا العالية. فالامتحان قريب. والوظائف الدراسية المتواصلة، كل ذلك يربكنا أشد الإرباك.

في الأول من سبتمبر، كما أعلن في منهاج ثانوية الهندسة، تعيَّن علينا أن نتوجه إلى الحصن. وقد وصلنا جميعاً في الموعد المحدد وقدَّمنا كوروناد فيليبوفيتش إلى المفتش لومنوفسكي والجنرال شارنغورست آمر ثانوية الهندسة. كانت معاملة الجنرال للجميع لطيفة حميمة، وقد أمرنا بالاستعداد، لأنهم سيدعوننا كثيراً إلى ثانوية الهندسة. فما أشد ضجرنا. الآن وصلت قصاصة من الجنرال إلى كوروناد يدعوه فيها لمرافقتنا جميعاً إلى الثانوية. ولا أدري لماذا. ربما لتقييم التأهيل. ذلك لأن الجنرال أمر بأن يجلب التلاميذ شهادات الدراسة في المدارس السابقة. وأخيراً، بعد العناء، حل

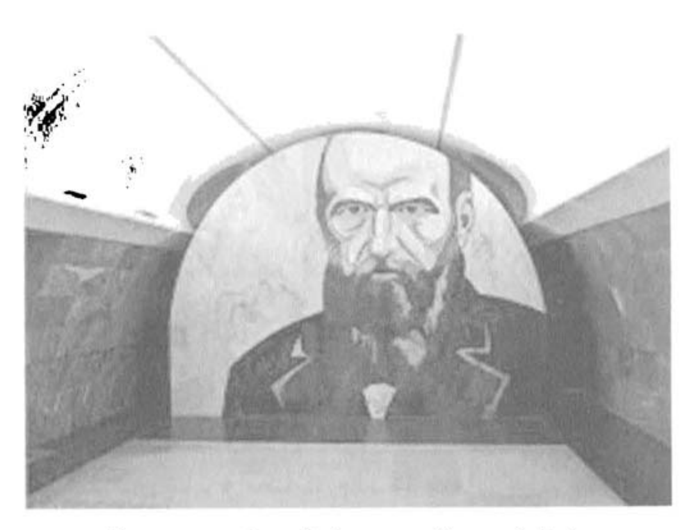
موعد الامتحان الرئيسي المقرر في الخامس عشر من الشهر. مجموع المرشحين 45. ونحن مسرورون جداً لقلة العدد. في العام الفائت كان عددهم 120، وفي الأعوام التي قبله كان 150 وأكثر. تلاميذ كوستوماروف في المقدمة دوماً. فما الذي سيحصل الآن والعدد قليل؟ صحيح أن التشكيلة المطلوبة هي 25. ولكننا نظن أنهم سيرفضون الكثيرين من المرشحين، لأن الجميع، على ما يبدو، أدمغة فارغة، وكلهم يريدون الصف الرابع. يبدو أنهم يخشون كثيراً تلاميذ كوستوماروف. وذلك دليل على الاحترام لنا. فما الذي سيحصل على أية حال؟

مرّت فترة ولم نحصل نحن أيضاً على علم وخبر من طرفكم. لكننا لا نجرؤ على تكليفكم أكثر مما تستطيعون نظراً لانشغالكم. ستصلكم هذه الرسالة في الوقت الذي يتقرر فيه مصيرنا، عندما يتعيَّن أداء الامتحان الحقيقي. وفي الرسالة القادمة سنحاول إبلاغكم بكل التفاصيل. أما الآن فقد تزايدت دروسنا ثلاث مرات. الوقت نفسه عاجز عن اللحاق بنا. والكتاب جليسنا دوماً. نحن ننتظر الامتحان على أحر من الجمر. والآن أكتب لكم على ظهر خرائط البريد. ولكن ما أكثر العمل بعد الرسالة. لم أصرف سوى ربع ساعة في كتابتها لكم. وأضيف أننا اضطررنا لشراء قبّعتين جديدتين لمناسبة الامتحان وأنفقنا عليهما 14 روبلاً.[1] لم نتمكن من مقابلة شيدلوفسكي أمداً طويلاً. والتقيناه الآن فقط في كاتدرائية قازان. كنا نطمح إلى لقائه من زمان، وخصوصاً قبيل الامتحان. وهو مع كوروناد يخصّانك بالسلام. إلى اللقاء في الرسالة القادمة.

يشرفنا أن نبقى دوماً ولديك المحبَّين

ميخائيل وفيودور دوستويفسكي

(1) كان سعر صرف الروبل الروسي في ستينات القرن العشرين 63 سنتاً، فيما تجاوز سعر صرف الدولار الأميركي في العام 2016 م 75 روبلاً.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

6. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)

بطرسبورغ، 4 فبراير 1838

والدي الفاضل!

أخيراً تم قبولي في ثانوية الهندسة الرئيسية، فارتديت البزة ونسبت بالتمام والكمال إلى الخدمة القيصرية. ووجدت بشق الأنفس لحظة فراغ من الدروس والتطبيقات والخدمة، وهي لحظة ثمينة أستطيع أن أتحدث إليك فيها ولو تحريرياً يا والدي الكريم. فكم مضى من الوقت دون أن أكتب إليك؟ عندما سمعت في لقائي الأخير مع أخي أنك غاضب عليَّ بسبب ذلك رغبت أشد الرغبة في تصحيح خطأي رغم أنني لا ذنب لي فيه. وفي هذه الأثناء استلمت رسالتك، ويصعب عليَّ أن أجد ما أقارن به حبك لنا، فالكلمات تعجز عن وصفه. لقد بعثت لي، يا والدي العزيز، رسالة دون أن تعرف حتى عنواني، بينما لم أكتب أنا ولا سطراً واحداً طوال أكثر من شهر، وذلك لسبب واحد هو أنني لم أجد لحظة فراغ. تصور أننا منذ الصباح الباكر وحتى المساء في الصف لا نكاد نلحق بالمحاضرات. وبعد ذلك لا وقت لنا، بل ولا دقيقة لنتابع جيداً ونستوعب في أوقات الراحة ما استمعنا إليه في

الصف أثناء محاضرات النهار. يرسلوننا لممارسة التدريبات الجبهوية، ويقومون بتدريسنا المبارزة والرقص والإنشاد، ولا أحد منا يتجرأ على التغيب عنها. وإلى ذلك يكلفوننا بالخفارة والمناوبة التي تشغل كل أوقاتنا. ولكنني عندما استلمت رسالتك تركت كل شيء لأعجل في الجواب عليها يا والدي الكريم. أنا والحمد للّه بدأت أتعوّد على الحياة هنا. وليس بمقدوري أن أمتدح الزملاء. رأي الرؤساء والآمرين بخصوصي جيد جداً على ما أعتقد. ولدينا مفتش جديد للصفوف. فالمفتش السابق لومنوفسكي أخلى موقعه للبارون دالفيتس. ولا بد أن يحدث تغير. فيما كان المفتش السابق راضياً عني. وكنت أستلم 50 روبلاً. وهي الآن عند شقيقي. ما أعظم شكري لك يا والدي. فأنا بحاجة إليها حقاً لأسارع في اقتناء كل ما أحتاج إليه. في الآحاد والعطل الأخرى لا أغادر إلى أي مكان، لأن أحداً من الأهل ينبغي أن يوقّع تعهداً خطياً بأنه يأخذني إلى البيت. وما دمتُ لا أمتلك الوسيلة للاتصال بأخي فلم أتمكن من قراءة رسائلك الأخيرة. مرة واحدة فقط طلبت مقابلة كوستوماروف وعلمت بالخبر السار جداً بشأن قبول أخي في كلية الهندسة العسكرية. لقد تحققت والحمد للّه أمنيتنا القديمة المشتركة، فوجد شقيقنا سبيله القويم في آخر الأمر. ونأمل الآن أن يسير كل شيء بشكل أفضل. في رسالتك إليّ كنتَ على أية حال لا تزال تشكك في ذلك. إلا أن تلك قضية محسومة لم يعد فيها مجال للجدال. وكان بالإمكان دوماً انتظار هذه الخاتمة لولا كوستوماروف الذي مارس التسويف وحاول إرجاء النتيجة ليحتفظ بشقيقي لديه أمداً أطول حتى يمتص منا الـ 300 روبل بكل خسة. ولعلك تعلم من رسائل شقيقي الأخيرة أن كوستوماروف قدم نفسه لجنراليه المرتقبين- هيروا وتروسون. وقد استقبلاه بمنتهى اللطف بوصفه قد باشر الخدمة،

وبالتالي فإن هذا القرار لا ريب فيه ولم يبقَ ما يستحق الشك والارتياب. كما وعد تروسون بأنه سيتشفع لأخي بخصوص التعيين في سلك الضباط ، ونأمل أن يفي بوعده. قبل فترة عرفت أن الجنرال حاول بعد الامتحان أن يوظف أربعة من المنتسبين الجدد على حساب الدولة بالإضافة إلى المرشح الذي تقدم به كوستوماروف، وبذلك سد الشاغر الذي كنت أنا أنتظره. فهل هناك خسة أكثر من هذه؟ لقد صعقني هذا الأمر. فنحن الذين نعيش على آخر روبل ملزمون بأن ندفع، فيما يُقبَل الآخرون من أبناء الأثرياء مجاناً. حسبي اللّه ونعم الوكيل. تسألني يا والدي عما إذا كنت بحاجة إلى شيء. انا الآن لست بحاجة. ملابسي الداخلية وبزتي عند شقيقي، وأنا أنتظر بفارغ الصبر اكتمال تنسيبه. وسنكون، على الأقل، أكثر تقارباً. وداعاً يا والدي العزيز متمنياً لك كل خير من العلي العظيم.

يشرفني أن أبقى ولدك البار المطيع.

فيودور دوستويفسكي

ملحوظة: يقال إن شقيقي سيقيم قرابة أسبوعين في القلعة قبل دخول حصن الهندسة.

بخصوص القرار الجديد الذي كتبت لي عنه لا موجب للقلق. نحن لم نسمع به. وليست له مبررات كافية، إنه شائعة فارغة لا أكثر.

قبّل جميع إخوتي وأخواتي بالنيابة عني. وسنلتقي في وقت ما. أندريه لم يكتب لنا حتى الآن ولا نصف سطر.

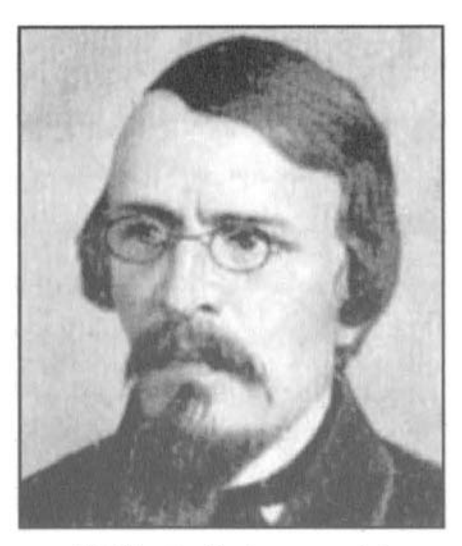
طلبتَ مني أن أبعث عنوان شيدلوفسكي، إلا أنه يغادر بطرسبورغ إلى كورسك مؤقتاً لزيارة أهله. ولربما تستطيع مقابلته في موسكو. وهو يمكن أن يجدك بنفسه عن طريق عائلة كومانين.

7. إلى ميخائيل ميخائيلوفيتش دوستويفسكي (شقيق الكاتب)

بطرسبورغ، 9 أغسطس 1838

أخي!

ما أشد دهشتي لرسالتك، يا أخي العزيز. فهل يعقل أنك لم تستلم مني ولا كلمة، فيما بعثت إليك من لحظة سفرك ثلاث رسائل، الأولى بعد رحيلك مباشرة، والثانية لم أتمكن من إرسالها في الحال لعدم توفر قيمة طابع البريد (لم يكن لدي ولا كوبيك واحد، ولم أستلم من عائلة ميركولوف). استمر الحال هكذا إلى العشرين من يوليو حيث استلمت من الوالد 40 روبلاً، وأخيراً الرسالة الثالثة. وبالتالي لا يمكنك أن تتباهى بأنك لم تنسني وبأنك كتبت إليَّ أكثر. والحقيقة أني أنا أيضاً كنت متقيداً دوماً بكلمة الشرف. صحيح أنني كسول، كسول جداً. ولكن ماذا عليّ أن أفعل ولم يبقَ لي في الدنيا سوى شيء واحد هو أن أستمتع بالكيف دوماً؟ ولا أدري هل ستخفت يوماً أفكاري الحزينة؟ الشيء الوحيد الذي هو من نصيب الإنسان أن يتحكم بأحواله. جوه الروحي يقوم على اندماج السماء والأرض. قانون الطبيعة الروحي يتعرض للانتهاك على يد الإنسان، ذلك الطفل



شقيق دوستويفسكي (ميخائيل)

المتطاول على السنن والقوانين... يخيل إليَّ أن عالمنا هو مطهر أو أعراف جهنم للأرواح السماوية التي تشوشت أذهانها بخطيئة التفكير. وأظن أن عالمنا بات مرادفاً للمعنى السلبي، ولذا تحول الصفاء الروحي الأنيق السامي إلى سخرية وتهكم. وإذا ولج هذه اللوحة شخص لا يؤمن بهذا التأثير ولا يفكر هذا التفكير، شخص غريب لا علاقة له بالموضوع على أية حال... فماذا تكون النتيجة؟ تتفكك اللوحة ولن تدوم.

ولكن ما أفظع أن تقتصر الرؤية على الغلاف الخشن الجاسئ الذي يلفع الكون المتعب. ما أفظع أن يعرف المرء بأن انفجاراً واحداً لإرادته يكفي لتمزيق ذلك الغلاف وملاقاة الأبدية كآخر مخلوق في هذا الكون... ما أشد وضاعة الإنسان! وأنت يا هاملت؟! آهٍ يا هاملت! عندما أتذكر هذه الخطب الطنانة الوحشية التي يتعالى فيها أنين عالمنا

الحائر لا ينقبض صدري حزناً أو تذمراً أو ملامة. فالروح منسحقة تحت وطأة الأحزان لدرجة تخشى فيها استيعابها وفهمها، وبخلاف ذلك ستمزق نفسها بنفسها. ذات مرة قال باسكال: من يعترض على الفلسفة هو نفسه فيلسوف. تلك فلسفة بائسة! لا مؤاخذة، لقد تماديت في الثرثرة. من بين رسائلك استلمت رسالتين فقط (إضافة إلى الأخيرة). ولكنك، يا أخي، تشكو من الفقر، فماذا عساي أن أقول؟ أنا نفسي لست غنياً. هل تصدق بأنني خلال خروجنا من المعسكرات لم أكن أمتلك ولا كوبيكاً واحداً حتى أنني مرضت بسبب الاستبراد في الطريق (المطر ظل يتساقط طول النهار وكنا تحت رحمته مكشوفين)، وليس لدي ما أسد به رمقي من الجوع أو أبلل حنجرتي بجرعة شاي. ولكنني تماثلت للشفاء وظلت أوضاعي مزرية في المعسكر إلى أبعد الحدود حتى استلمت من الوالد النقود. فسددت ديوني واحتفظت بالباقي. إلا أن توصيف حالتك يفوق التصور. فهل يستطيع من لا يملك خمسة كوبيكات ويقتات على ما لا يعرفه إلا اللّه أن يمتع أنظاره التواقة بحلاوة الثمار الزاهية التي كنت دوماً ترغب فيها أشد الرغبة؟ ما أعظم إشفاقي لك وعليك. وإذا سألتني عن عائلة ميركوروف وعما حصل لنقودك أقول لك إن ما حصل هو التالي: زرتهم عدة مرات بعد رحيلك. ثم عجزت عن زيارتهم لأنني أمضيت فترة الجزاء. وعندما دعت الحاجة بعثت لهم رسولاً، لكنه جلب لي مبلغاً زهيداً جعلني أشعر بالخجل من مطالبتهم. وبعد ذلك استلمت منك على عنواني رسالة موجهة إليهم. ولم يكن لدي ثمن طابع البريد فطلبت منهم أن يضعوا رسالتي مع رسالتهم، وأنت لم تستلم شيئاً. يبدو أنهم لم يكتبوا إليك. قبيل المعسكرات، ولأني لا أمتلك نقوداً لأبعث إلى الوالد الرسالة التي كتبتها له من زمان، طلبت منهم أن يبعثوا لي أي شيء.

فأرسلوا كل حاجياتنا من دون كوبيك واحد، ولم يردّوا على رسالتي. وكنت ساعتها كأبي الجنيب في سبخة غاض ماؤها. واستنتجت من هذا الموقف أنهم يريدون التخلص من طلباتنا اللجوجة. ورغبت في توضيح الأمور برسالة إليهم ، لكنني أقضي فترة ما بعد المعسكر، فيما غيروا هم مكان إقامتهم. أعرف الدار التي استأجروا شقة فيها، لكنني لا أعرف العنوان. وسأبلغك به فيما بعد. إلا أن الوقت قد حان من زمان لتغيير موضوع الحديث. أنت تتباهى بمطالعة العديد من الكتب. . . لكنني أرجوك أن لا تتصور بأني أحسدك. أنا نفسي طالعت في بيترهوف[1] ما لا يقل عما قرأته أنت من كُتُب. طالعت هوفمان كله بالروسية والألمانية (أقصد رواية «القط مور» غير المترجمة)، وكل مؤلفات بلزاك تقريباً (بلزاك كاتب عظيم! شخوصه نتاجات للفكر الكوني! ليس روح العصر، بل آلاف السنين هي التي مهدت، بتصارعها، التربة اللازمة لحل العقدة الدراماتيكية في روح الإنسان)، و«فاوست» غوته وقصائده القصيرة و«تاريخ» بوليفوي و«الكونت أوغولينو» و«أوندينا» (سأكتب لك شيئاً فيما بعد عن «أوغولينو»)، وكذلك فيكتور هيغو ما عدا «كرومويل» و«هيرناني». والآن وداعاً. اكتبْ لي، اعمل معروفاً ليهدأ بالي، فاكتب أكثر على قدر الإمكان. وابعث لي رداً عاجلاً على هذه الرسالة. آمل أن أستلم جوابك في غضون 12 يوماً. هذا أبعد موعد. اكتبْ لي وإلا سأتعذب.

أخوك ف. دوستويفسكي

ملحوظة: عندي مشروع. أريد أن أتقمص سربال المجنون. فلينشغل الآخرون في علاجي وتحويلي إلى عاقل. ما دمتَ قرأتَ هوفمان فلعلك تتذكر طباع آلبان. هل يعجبك؟ فما أفظع أن نرى

شخصاً يتمتع بسلطة ما بعدها سلطة ولا يدري ماذا يفعل، سوى ممارسة اللعبة التي لديه بصورة إله.

هل تكتب كثيراً إلى عائلة كومانين؟ اكتبْ لي هل أبلغك كودريافتسيف شيئاً عن تشيرماك؟ باللّه عليك اكتبْ لي عن ذلك أيضاً، فأنا أريد أن أعرف أخبار أندريه.

اسمع يا أخي. إذا كانت مراسلاتنا ستسير بهذه الصورة فالأفضل، على ما أعتقد، أن لا نتراسل. لنتفق على الكتابة أحدنا للآخر بعد أسبوع كل يوم سبت. فذلك أفضل. استلمت رسالة أخرى من شرينك ولم أردّ عليه طوال ثلاثة أشهر. ما أفظع أن نفتقد حتى ثمن طابع البريد!

---

(1) ضاحية أثرية في بطرسبورغ.



8. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 31 أكتوبر 1838

آه، يا أخي الحبيب، ما أطول الفترة التي لم أراسلك فيها... الامتحان المقيت أعاقني عن الكتابة إليك وإلى الوالد وعن مقابلة إيفان نيكولايفيتش. وماذا كانت النتيجة؟ لم أنجح في الانتقال. يا للفظاعة. أمامي سنة أخرى، طويلة لا موجب لها. وما كنت سأنفعل إلى هذا الحد لولا علمي بأن الخسة والنذالة تسببتا في رسوبي. وما كنت سأشعر بالأسف والمرارة لو لم تحرق دموع أبي روحي المتلهفة. لم أكن أعرف لحد الآن معنى إهانة المشاعر والكرامة الشخصية. كان وجهي سيحتقن لو سيطر عليّ هذا الشعور... هل تعلم؟ كنت سأرغب في سحق العالم كله دفعة واحدة... لقد ضيعت، قتلت أياماً طويلة قبل الامتحان، ومرضت ونحل جسمي وأدّيت الامتحان بالتمام والكمال وبدرجة ممتاز بكل ما في هذه الكلمة من معنىً. لكنني بقيت في نفس الموقع... هكذا أراد أحد مدرِّسي مادة الجبر الذي تعاملت معه بخشونة خلال السنة الدراسية. وها هو الآن يذكّرني، بخسة ونذالة، بما حصل بيننا. وهو

يفسر سبب رسوبي كالآتي: المطلوب عشر درجات كاملة، ولدي تسع ونصف. هذا هو سبب بقائي... فلتذهب كل هذه الأمور إلى الشيطان. سأصبر ما دام عليَّ أن أصبر. لن أنفق الورق جزافاً. فأنا قلّما أكتب إليك.

أنت، يا صديقي العزيز، تتفلسف كشاعر. وكما تتحمل الروح عبء الإلهام بلا توازن، كذلك هي فلسفتك تفتقر إلى التوازن وتقع في أخطاء. فلكي تعرف المزيد لا بدّ لك أن تقيد فيض المشاعر، وبالعكس تأتي القاعدة مغلوطة، مجرد هذيان الفؤاد. فماذا تقصد بمفردة المعرفة؟ اكتناه الطبيعة والروح والخالق والحب... ذلك كله يُعرف من خلال الفؤاد وليس العقل. ولو كنا أرواحاً أو جناً لعشنا ورفرفنا في جو تلك الفكرة التي تحلّق فوقها روحنا عندما تريد أن تكتشف حقيقتها. لكننا رميم لا غير. البشر يجب أن يكتنهوا جوهر الفكرة، لكنهم لا يستطيعون الإحاطة بها وإحتواءها فجأة. العقل هو موصل الفكرة عبر الغلاف الفاني إلى قوام الروح. العقل قدرة مادية... فيما الروح، أو النفس، تعيش على الفكرة التي تتلقفها بهمس الفؤاد... الفكرة تولد في الروح. بينما العقل أداة، آلة يحركها اللهيب الروحي... علماً بأن العقل البشري، المادة الثانية، المنهمك في فقه المعرفة يعمل بصورة مستقلة عن المشاعر والعواطف، وبالتالي يعمل بمعزل عن القلب أو الفؤاد. أما إذا كان هدف المعرفة هو الحب والطبيعة فأمام الفؤاد تنبسط صفحة بيضاء... لا أريد هنا أن أتجادل معك، إلا أنني أخالفك الرأي في ما يخص الشعر والفلسفة... لا يجوز اعتبار الفلسفة مسألة رياضية المجهول فيها هو الطبيعة. ألا تلاحظ أن الشاعر في فورة الإلهام يكتشف الخالق، وبالتالي يؤدي وظيفة الفلسفة؟ ومن ثم فإن الإشراق الشاعري

هو إشراق فلسفي... ما يعني أن الفلسفة هي نفس الشعر، ولكن في أعلى ذروته!.. ومن الغريب أنك تفكر بروحية الفلسفة الراهنة. فما أكثر المنظومات الركيكة المتهافتة التي تمخضت عنها الأدمغة الذكية المتحمسة ليصار إلى الخروج بالثمرة الأولى لهذه الأكوام المتنوعة ووضع صيغة مادية لتلك الثمرة. تلك هي قواعد الفلسفة المعاصرة... ولكنْ عليَّ أن أتَّقي اللّه ولا أتمادى في الأحلام معك... فأنا لا أتقبل فلسفتك الواهية، إلا أني لا أعترض على وجود صيغة واهية لها، كوني لا أريد أن أثقل عليك...

العيش بلا أمل مبعث للحزن، يا أخي... أنظرُ إلى الأمام والمستقبل يرعبني... أتراكض في جو قطبي بارد لم يبلغه شعاع الشمس... لم أتحسس من زمان فورات الإلهام... فيما أجد نفسي غالباً في حالة سجين شيلون[1] بعد وفاة إخوته في غياهب القلعة، كما تتذكر. لن يصلني وحي الإلهام على جناح طائر الجنة ولن يدفئ الروح المتجلدة... تقول إنني انطوائي، ولكن حتى أمنياتي وأحلامي السابقة فارقتني، وحتى المنمنمات الرائعة التي أبدعتها في فترة ما نزعت طلاءها الذهبي. والأفكار التي ألهبت الروح والفؤاد بأشعتها لم تعد تحتفظ بلهيبها ودفئها، فإما قلبي تحشف، وإما... أنا أخشى مواصلة هذا الكلام ... يفزعني الكلام إذا كان كل ما مضى مجرد أضغاث أحلام أو أمنيات عِذاب...

قرأت قصيدتك يا أخي... وقد اعتصرت دمعات من روحي وهدّأت روعي مؤقتاً بهمس الذكريات والتحيات. تقول لديك فكرة لمسرحية... شيء مفرح... اكتبْها. فلو كنتَ محروماً أيضاً من آخر نفحات ريش طائر الجنة فماذا يبقى لك؟ يؤسفني أنني لم أستطع في الأسبوع الماضي أن ألتقي إيفان نيكولايفيتش. كنت متوعكاً. اسمع،

يخيل إليَّ أن الشهرة أيضاً تحفز إلهام الشاعر. بايرون كان أنانياً، فكرته عن الشهرة والأمجاد ضئيلة متنرفزة... (ويحضرني هنا قول بوشكين عن الشاعر وجمهوره الذي يبصق على شمعته في المذبح)[2]. أليس هذا توصيفاً رائعاً للمسألة؟ وداعاً!

صديقك وأخوك ف. دوستويفسكي

ملحوظة: تذكرت. اكتبْ لي عن الفكرة الرئيسية في مؤلَّف شاتوبريان «عبقرية المسيحية». قرأت مؤخراً في «ابن البلد» مقالة الناقد نزار عن فيكتور هيغو. ما أوطأ المنزلة التي يحتلها في نفوس الفرنسيين، بحسب الناقد، وما أوطأ المرتبة التي يفردها لمسرحياته ورواياته. لقد ظلموه. ومع أن هذا الناقد شخص ذكي لكنه يكذب ويتجنى. اكتبْ لي أيضاً عن الفكرة الرئيسية لمسرحيتك. وهل أنت واثق بأنها رائعة؟ فإن عشر سنوات لا تكفي لرسم الشخوص الدرامية الجيدة. هكذا أعتقد أنا على الأقل. آه، يا أخي، ما أشد أسفي لأنك لا تمتلك نقوداً. الدموع ترقرق في العينين. فمتى كنا بمثل هذه الحال؟ بالمناسبة، أهنئك يا عزيزي بالميلاد، ولو متأخراً، وكذلك بعيد الملاك الحارس.

في قصيدتك «رؤى الأم» لا أفهم الخطوط العريضة التي رسمتها لروح المرحومة. هذه الصورة العابرة للقبور غير مكتملة. إلا أن الأبيات جيدة رغم وجود زحاف في شطر منها. لا تزعل من هذا التحليل. انظم المزيد وسأكون أكثر تساهلاً.

أتطلع بفارغ الصبر لإعادة قراءة قصائد إيفان نيكولايفيتش الجديدة. فما أعظم الشاعرية فيها وما أكثر الأفكار العبقرية!.. ثم إني نسيت أن اقول لك إنك تعرف، على ما أظن، أن سميردين يعدّ

معبداً (أو مدفناً) لأدبائنا بشكل كتاب يضم 100 صورة بورتريه مع نموذج من نتاج كل أديب. تصور أن من بينهم زوتوف وألكسندر أورلوف. يا للسخرية! اسمع، أرسلْ لي قصيدة أخرى. فتلك رائعة. عائلة ميركوروف سترتحل قريباً إلى بينزا، وربما ارتحلت نهائياً، على ما أظن.

أسفي على والدي المسكين. طباعه غريبة. وما أكثر المصائب التي تحمَّلها. يحز في نفسي لحد البكاء أننا لا نستطيع أن نواسيه. وهل تعلم أن الوالد العزيز لا يعرف العالم وعلية القوم. أمضى بين الناس 50 عاماً، ومع ذلك ظل على رأيه بشأنهم كما كان قبل 30 عاماً. تلك جهالة سعيدة. لكنها مخيبة للآمال. فقد خيبت أمله. ويبدو أن ذلك هو مصيرنا المشترك جميعاً. وداعاً مرة أخرى.

---

(1) ملحمة بايرون.

(2) ما يرد في الكتاب بين هلالين كبيرين ترجمة بشيء من التصرف.



9. إلى ميخائيل دوستويفسكي (الأب)

بطرسبورغ، 5 - 10 مايو 1939

الوالد الحنون!

يقيناً أنك الآن أيضاً قلق عليّ لأنك لم تستلم في الحال رداً على رسالتك. والدي العزيز! أريد أن أهدئ خاطرك، وأحاول أن أبرر صمتي هذه المرة على قدر الإمكان. الآن حلّت فترة الامتحانات، ولا بد من المراجعة، فيما تلتهم التدريبات الجبهوية كل أوقات الفراغ، لأن استعراض مايو العسكري على الأبواب. ولم تبق فرصة لتحيّن الوقت إلا في الليل. ويسرّني جداً أنني وجدت في الأخير سويعة للكتابة إليك. ما أشد التأنيب الذي أعاني منه لأنني سبّبت لك حزناً واكتئاباً. سأحاول التكفير عن ذنبي قدر ما أستطيع. استلمت رسالتك وأنا شاكر لك على الطرد من صميم الفؤاد. تقول يا والدي العزيز أنْ ليس معك نقود ولن تتمكن من إرسال شيء لي بمناسبة رحيلنا إلى المعسكرات. الأولاد الذين يفهمون مواقف والديهم يجب أن يشاطروهم الأفراح والأتراح، وعلى الأولاد أن يتولوا تلبية حاجات الوالدين. وأنا لن أطالبك بالكثير.

لا بأس، لن يموت الشخص من الجوع إذا كف عن احتساء الشاي. وسأدبر حالي على نحو ما. لكنني أرجوك أن تبعث لي قيمة جزمة للمعسكرات. جزمة احتياطية لا بد منها. فلننتهِ من هذه المسالة. بدأتُ بأداء الامتحانات على أحسن ما يكون. وستأتي النتيجة بهذه الصورة أيضاً. أنا واثق من ذلك. حالياً الكثيرون من المدرسين الذين لم يتعاطفوا معي في العام الماضي باتوا يميلون إليَّ تماماً. وعلى العموم ليس لدي ما يدفعني للتذمر من الإدارة. أنا لا أنسى واجباتي، والإدارة عادلة نسبياً في معاملتي. لكنني لا بد أن أكمل أداء تلك الواجبات في وقت ما.

كتبتَ، يا والدي الكريم، توصيني بأن لا أنسى واجباتي. وأكرر إنني أتذكرها جيداً. فأنا مرتبط بالخدمة من خلال اليمين القانونية التي أقسمتها في يوم انتسابي للمدرسة العسكرية. لم أستلم رسائل من أخي منذ فترة طويلة. لعله نسيني. لكنني استلمت مؤخراً على أية حال قصاصة مشحونة يتهجم فيها عليَّ بقسوة بسبب صمتي المزعوم تجاهكم، وأعترف بأنه أهانني في هذه الرسالة من الصميم ، فصوَّرني بالمقارنة معه كائناً وضيعاً. لم أعبأ بهذا الكلام لأن رسالته لا تستهدفني. فأنا أعتبر نفسي أفضل بكثير ممن يتراسل معهم بهذه الصورة. على فكرة، بدأت أنسى هذه الإهانة، وأستعد للكتابة إليه هذا الأسبوع رداً على رسالته. أوضاعه الآن ليست سيئة بحال. كان بوسعه أن يؤدي الامتحان في مدرستنا لدخول صف الضباط الأوطأ. إنصحه أنت أن يفعل. الكثيرون من المستجدين في هندسة التحصين يفعلون ذلك. والأمثلة موجودة سنوياً. بعد عام واحد يكون مؤهلاً. وانا أتعهد بتزويده بتسجيلات المحاضرات وكل ما يلزم. وهو الآن يعرف الكفاية في الرياضيات. ولكنْ عليه أن يعرف بشكل أفضل

هندسة التحصين التي هي المادة الرئيسية في صفوف المستجدين وكذلك المدفعية، لأنها هي أيضاً تدرس عندنا بتفصيل كبير بوصفها من مكونات هندسة التحصين. ما أشد فرحتى وأنا أقرأ قولك بأنك في صحة جيدة والحمد للعلي القدير. فيما كنت أظن أن متاعبك الصحية المتواصلة ازدادت بسبب مرارة عدم استلام رسائلي. أقبّل أخواتي وإخوتي الصغار. هل يفعل أندريه شيئاً؟ هل يدرس أم ماذا؟ ألا تريد له أن يلتحق بنا في المدرسة؟ فالقبول سهل نسبياً. كوستوماروف أحزنك وأخذ منك نقوداً مقابل إعدادنا للمدرسة، بينما كان بإمكاننا أن ندخلها من دون جهوده. وأخيراً، وداعاً يا والدي الحبيب. أتمنى لك السعادة دون عد أو حصر.

ولدك المحب المطيع
ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أهنئك بعيد القيامة الفائت. وأنا أتذكر بحزن واكتئاب كيف كنت أقضي هذا العيد بين أهلي وأحبائي. فماذا الآن؟ لا أطمح إلى أكثر من مغادرة المدرسة في هذا اليوم.

عندما أنتقل إلى الصف التالي أجد ضرورة قصوى للتسجيل في المكتبة الفرنسية للمطالعة هنا. فما أكثر النتاجات العظمى لعباقرة الرياضيات والعسكريين النوابغ باللغة الفرنسية. أرى أن قراءتها ضرورية، لأنني متيّم بمطالعة العلوم العسكرية، رغم أنني لا أطيق الرياضيات. فما أغرب هذا العلم، وما أشد الحماقة في الانكباب عليه! يكفيني ما يحتاج إليه المهندس وربما أكثر.

ولكن ما نفع أن أتحول إلى باسكال أو أوستروغرادسكي؟ الرياضيات من دون تطبيقات صفر على اليسار، ونفعها لا يزيد عن

نفع فقاعة الصابون. وأقول لك أيضاً إنني آسف لترك اللغة اللاتينية. فما أروعها. أنا الآن أقرأ يوليوس قيصر وأفهم كل شيء رغم انقطاع دام سنتين.

10 مايو.

ما أغرب الأمر. الملابسات الحمقاء لحياتي الراهنة تحرمني من الكثير. اضطررتُ إلى تأجيل إرسال رسالتي خمسة أيام. أرجئ الاستعراض العسكري إلى 10 مايو. وأردت أن أكتب لك عن هذا التعديل، ولكنْ هل تصدق يا والدي العزيز أنني لم أتمكن بسبب التدريبات الجبهوية التي يعذبوننا فيها وبسبب الامتحانات؟ وها أنا الآن أكتب لك على ظهر خرائط البريد.

والدي الطيب العزيز. هل يعقل أنك تظن أن ابنك عندما يطلب منك معونة مالية إنما يطلب أكثر من اللزوم؟ يشهد اللّه بأنني لا أقتطع من إمكانياتك إلا للضرورة، وليس لمنفعتي فقط. نقودي الضرورية تنوء بمرارة الديون. لدي دماغ ويدان، ولو كنت حراً طليقاً، أفعل ما أشاء، لما كلفتك بكوبيك واحد ولعشت رغم الحاجة الماسة. ولكانَ يخجلني أن أتفوّه ببنت شفة عن المعونة. الآن أنا أعبر عن وعود للمستقبل، وهذا المستقبل ليس ببعيد. وسيرضيك سلوكي بمر الزمن.

والآن تذكّر يا والدي العزيز أنني في الخدمة العسكرية بكل ما في كلمة الخدمة من معنى. فيجب عليّ، شئتُ أم أبيت، أن أتكيَّف مع الأنظمة الداخلية للوسط الذي أتواجد فيه. فما الذي يستثنيني من القاعدة؟ مثل هذه الاستثناءات تقود أحياناً إلى متاعب لا تحمد عقباها. وأنت تفهم ذلك يا والدي العزيز كونك عشت بين هؤلاء الناس. حالياً باتت المعيشة في المعسكرات تكلف كل تلميذ من

تلاميذ المؤسسات التعليمية العسكرية ما لا يقل عن 40 روبلاً. أنا أكتب لك كل هذه التفاصيل لأنني أكتب إلى أبي وليس غيره. وأنا لا أدرج ضمن هذا المبلغ احتياجات مثل الشاي والسكّر وغيرهما. وهي أمور ضرورية أصلاً، ضرورية بسبب الحاجة وليس من أجل اللياقة وحدها. عندما نبتل حتى العظام تحت المطر في اليوم المعتكر ونحن في الخيام القماشية الخفيفة أو عندما نعود في مثل هذا الطقس من التدريبات متعبين مرتجفين لا بد من الشاي، وإلا سنمرض، كما حصل لي في مسيرة العام الماضي. ومع ذلك أنا آخذ بنظر الاعتبار أوضاعك المالية التعبانة ولن أشرب الشاي. كل ما أطلبه هو ثمن زوجين من الجزمات البسيطة - 16 روبلاً. ثم إن حاجياتي الشخصية: الكتب والجزمة وريش الكتابة والورق وما إلى ذلك يجب أن تستقر في مكان ما. وهذا يحتم عليَّ شراء صندوق أو خزانة، لأن المعسكر لا يحتوي على أية مشتملات ما عدا الخيام. أسرَّة النوم فيها عبارة عن أكوام أو عليات من القش مغطاة بشرشف. وبالتالي فأين أضع حاجياتي وليس عندي صندوق لها؟ ولعلكم تعلمون أن الخزينة لا تفكر في ما إذا كنتُ محتاجاً إلى مكان ما لحفظ الحاجيات ولا يهمها هل يوجد لي صندوق أم لا. ذلك لأن الامتحانات تنتهي ولا لزوم للكتب بعدها. الخزينة توفر لي الملابس، وبالتالي قد لا أحتاج إلى جزمة، ولكنْ كيف أقضي الوقت من دون كتب؟ ثلاث جزمات لا تكاد تكفي في المدينة لنصف عام. وليس لدي مكان أضع فيه الصندوق الذي يلزمني. في الخيمة المشتركة سأضيّق على زملائي. وهذا الأمر يؤذيهم، ثم إن المسؤولين لن يسمحوا لي بوجود الصندوق في الخيمة، لأن أحداً لا يحتفظ بصندوق فيها. ما يعني ضرورة وجود مكان ما له. وسأجد ذلك المكان بالاتفاق مع أحد الجنود القائمين

على خدمة المعسكر، كما يفعل الجميع، لأترك الصندوق في عهدته. ولا بد من دفع الثمن. (قد يبلغ 13 روبلاً على وجه التقريب ثلاثة منها فضية). الأمر مختلف في المدينة، أما في المعسكر فينبغي الدفع على كل خطوة. والإدارة لا تتدخل.

تمكنت أن أوفر من حوالتك السابقة 15 روبلاً، (ومبلغ حاجتي الآن 40 روبلاً)، لذا أرجوك، يا والدي العزيز، أن تبعث لي 25 روبلاً. في بداية يونيو سننتقل إلى المعسكرات، ولذا أرسلْ هذه النقود إليّ قبيل 1 يونيو إذا كنت ترغب في معونة ابنك الذي يعاني من ضائقة خانقة. انا لا أتجرأ على المطالبة، ولا أريد أكثر من اللازم، لكن امتناني لك لن يعرف الحدود. ابعث الرسالة هذه المرة أيضاً على عنوان شيدلوفسكي. وداعاً يا والدي الكريم.

خادمك المطيع

ف. دوستويفسكي



10. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 16 أغسطس 1839

أجل، يا أخي الحبيب، هكذا يحصل لنا دوماً، نطلق الوعود ولا ندري هل نستطيع الوفاء بها أم لا؟ من حسن حظي أنني لا أعطي الوعود جزافاً. على سبيل المثال: ما رأيك في صمتي؟ تظن أنني كسول... أو أنني أنساك وما إلى ذلك. كلا. المشكلة أنني لم أكن أمتلك كوبيكاً واحداً. وها قد استلمت نقوداً، ففرحت بها أعظم الفرح كضيف عزيز لم يزرني من زمان.

وأخيراً هذه رسالتي إليك أنت أيضاً!

فلنتحدث عن كيت وكيت!

أخي الحبيب! ذرفت الدموع مدراراً على وفاة الوالد، وقد صارت حالنا الآن أسوأ وأفظع. أنا لا أتكلم عن نفسي ، بل عن عائلتنا. أبعث رسالتي هذه إلى ريفيل[1] ولا أدري هل ستصلك أم لا... يخيل إليَّ أنك لن تكون هناك لدى وصولها... حبذا لو كنت في موسكو إن شاء اللّه، لأكون أكثر اطمئناناً على عائلتنا. ولكنْ قل رجاءً هل يوجد في العالم أناس أكثر تعاسة من أخواتنا وإخوتنا

المساكين؟ تقتلني فكرة كونهم سيتربّون على أيدي الغير. ولذلك أعتقد أن فكرتك حول السفر إلى القرية والعيش فيها بعد حصولك على وظيفة رسمية فكرة رائعة حقاً. فهناك يمكن أن تسهر على تربيتهم يا أخي الحبيب، وستكون تلك التربية هي السعادة بعينها لهم. وستتمخض مثل هذه التربية عن تنظيم قويم للروح بين أفراد عائلتنا العزيزة وعن تنمية كل الطموحات القائمة على العقيدة المسيحية والتحلي بالفضائل العائلية وخشية الخطايا وسوء الصيت. وعندذاك يغفو رفات والدينا بهدوء واطمئنان في أديم الأرض الرطبة. ولكنك، يا صديقي الحبيب، لا بد أن تتحمل الكثير. فعليك إما أن تعلن القطيعة التامة أو التصالح المتين مع الأهل. القطيعة تعني الهلاك، إنها حتف أخواتنا. وإذا تصالحت يجب عليك أن ترعاهن. وسيعتبرن استهانتك بالخدمة كسلاً وتهاوناً. ولكنْ، تحمَّلْ ذلك، يا أخي العزيز. ابصقْ على النفوس التافهة واعملْ معروفاً لإخوتك. أنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينقذهم... أنا أعرف أنك تفقه المسألة الآن، فحقق طموحك المنقطع النظير. وليكن اللّه في عونك. ومن ناحيتي أعلن لك سلفاً أنني سأوافقك في كل شيء.[2]

هل تفعل شيئاً الآن؟ أنت أكثر صراحة مع إيفان نيكولايفيتش مني. قلت له إن عملك كثير وليس لديك وقت. نعم، شغلك فظيع. فما العمل؟ تخلص منه بأسرع ما يمكن.

ماذا عساي أن أقول لك عن نفسي؟...من زمان لم أتحدث معك على المكشوف. ولا أدري هل أنا الآن في مزاج يمكنني أن أتحدث معك بهذا الخصوص. لا أدري. لكنني صرت غالباً ما أنظر إلى ما يحيط بي بمنتهى اللاأبالية. إلا أن الصحوة، بالمقابل، تغدو أشد لدي. هدفي الوحيد أن أكون حراً طليقاً. وأنا أضحّي بالغالي والنفيس

في سبيل الحرية. لكنني كثيراً، كثيراً ما أفكر فيما ستمنحني إياه هذه الحرية... هل تجعلني وحيداً وسط حشود مجهولة؟ أستطيع أن أتخلص من كل هذه الأمور، لكنني أعترف بالحاجة إلى إيمان راسخ بالمستقبل ووعي عميق للذات لأعيش على طموحاتي الراهنة. على أية حال، لا فرق هل ستتحقق أم لا. فأنا سأقوم بما أريد. أنا أبارك اللحظات التي أتهادن فيها مع الحاضر، وهي لحظات أخذت تطل عليّ أكثر فأكثر، وفيها أعي حالتي بمزيد من الوضوح، وأنا متيقن بأن هذه الأمنيات الصافية ستتحقق.

الروح غير مستقرة اليوم. إلا أن في صراعها هذا تنضج، عادة، الطباع والشكيمة القوية، وتنجلي الرؤية الضبابية، فيما يحصل الإيمان بالحياة على منبع أنقى وأكثر تسامياً. لم تعد روحي سهلة المنال كما كانت أمام الفورات الشعورية الجامحة السابقة. كل شيء فيها هادئ، كما في فؤاد شخص يحتفظ بسرّ دفين. أنا أتعلم «ماذا تعني مفردة الإنسان والحياة». ولعلّي أفعل ذلك بالقدر المطلوب. أستطيع أن أتعلم الطباع من الكتّاب الذين يمضي أفضل شطر من حياتي معهم بطلاقة وفي فرح وسرور. وليس لدي ما أذكره لك عني أكثر من ذلك. أنا واثق بنفسي. الإنسان لغز لا بد من فكه. وإذا أمضيت حياتك كلها في فكه لا تقل إن تلك مضيعة للوقت. أنا أعكف على اكتناه هذا السر، هذا اللغز، لأني أريد أن أغدو إنساناً. وداعاً.

صديقك وأخوك

ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أنا مشغول بأفكاري المحببة طول الوقت. والحياة تسير عفوياً في الأماني والأفكار. وثمة نقطة أخرى: أنا أستطيع أن أحب

وأكون صديقاً. وما أكثر القداسة والعظمة والطهارة في هذه الدنيا. النبي موسى وشكسبير. . .

الحب وما أدراك ما الحب. تقول إنك تقطف الزهور من أجلها. أعتقد أن لا وجود لقدسية أكثر من قدسية الشاعر في نكران الذات. كيف يجوز تقاسم الإشراق بين الإنسان والورق. الروح تنطوي دوماً على أكثر من قدرة التعبير بالكلمات والألوان والأنغام. وبناءً على ذلك يصعب تحقيق فكرة الإبداع.

عندما يربط الحب بين فؤادين لا تلوح الدموع في العيون، وإنما في الصدر وحده. يمكن للمرء أن يبكي وحده، وعليه أن يتحلى بالعزة والإيمان المسيحي. . . ماذا؟ هل أنت في مو. . .؟

إذا لم أستلم جواباً بعد أسبوع من تاريخ اليوم فسأستنتج أنك في موسكو وسأكتب لك على عنوان كومانين. اكتبْ لي، يا أخي، بالتفصيل كيف تداركت أنت والآخرون كل هذه الأمور. أنتظر الجواب بفارغ الصبر. من الآن فصاعداً لن تتوقف المراسلات بيننا يا عزيزي. سأبعث إليك قائمة الكتب قريباً. اكتبْ لي. لم يبقَ لدي وقت.

---

(1) مدينة على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق.

(2) بعد وفاة والد فيودور دوستويفسكي تولى خاله ألكسندر كومانين رعاية إخوته الخمسة الأصغر (ألكسندرا ونيقولاي وفيرا وأندريه وبربارة) من دون إجراءات الوصاية الرسمية.

11. إلى الزوجين كومانين

بطرسبورغ، 25 ديسمبر 1839

السيد الكريم خالي العزيز (ألكسندر كومانين)
السيدة الكريمة زوجة خالي العزيزة (ألكسندرا كومانينا)

قد يبدو لكما، أيها العزيزان، صمتي الطويل الذي لا يغتفر أمراً غريباً غير مفهوم وليس له ما يبرره ولا يجوز التسامح معه لخشونته وكونه نكراناً فظيعاً للجميل. ها أنا آخذ الريشة أخيراً لا لأسطر المبررات والأعذار. كلا. فأنا أعرف أن الذنب ذنبي مهما كانت الملابسات التي تتشفع لي وأن هذا الذنب أوطأ وأخس من كل المبررات. ثم هل يحق لي الأمل بقبول تبريراتي؟ لكنني أقول: إذا كان اعترافي الصريح الصادق ومحاولة توضيح تصرفي الذميم تجاهكما يحظيان ولو بأقل اهتمام منكما فسأعتبر نفسي سعيداً، لأني سأستعيد ما لم أكن آمل باستعادته، وأعني أدنى قدر من اهتمامكما بي وميلكما إليّ.

عندما التحقت بمدرسة الهندسة الرئيسية شغلتني الدروس

والأخبار وتنوع نمط المعيشة الجديد لبعض الوقت. وها هي اللحظة الوحيدة التي يؤنبني فيها الضمير بشدة على نسياني واجبي ويذكّرني بتصرفي المستنكر تجاهكما، بصمتي الذي لا أستطيع أن أفسره. فلا مفسر ولا مبرر. ربما ما عدا ذهولي وشرود البال العجيب الغريب. . .

أنا أعرف أن اعترافي بشرود البال يقلل من قيمتي كثيراً في أنظاركما. لكنني يجب أن أتحمل عاري وشناري، وسأتحمل طالما جنيت على نفسي بنفسي. ذكريات المرحوم والدي وأوامره بأن أقطع صمتي الغريب مع أقربائنا الذين كثيراً ما تفضلوا علينا بمعروفهم ومبراتهم جعلتني أتعمق في فهم تصرفي، فنظرت إلى نفسي على ضوء ليس في صالحي إطلاقاً من حيث موقفي تجاه خالي العزيز وزوجته الكريمة. وإلى جانب ذنبي الجسيم في شرود البال رأيت أن تصرفي يمكن أن يتخذ شكلاً أكثر حلوكة وسواداً، شكل الخشونة الفظة ونكران الجميل. . . وهذا ما حيرني وأربكني كثيراً. . .

بديهي أن هذا الارتباك ما كان ليستمر أمداً طويلا. فأول ما كنت أفكر فيه هو التكفير عن ذنبي، وتصحيح الخطأ. إلا أن فكرة كوني خالفت أول التزاماتي ولم أنفّذ الواجب الذي كلفتني به الطبيعة نفسها، هذه الفكرة بحد ذاتها دمّرتني. أنا لم أتمسك بقاعدة الكثيرين ممن يقولون إن الورق لا يحتقن من الخجل وإن الاعتذار الرخيص مرة أو مرتين، بذريعة لا وقت لي وما إلى ذلك، يكفي لتصحيح الخطأ. لقد استولى عليَّ الخجل من بعيد وانتابتني الكآبة عن بعد، ولم أكن أعرف ماذا وكيف وبأي وجه أكتب لكما. التقطتُ الريشة ثم رميتها جانباً، دون أن أكمل رسالتي. أرجوكما يا عزيزيّ، أستعطفكما أن تصدقا ما أقول. إنه فيض صاف من ضمير يرزح تحت التأنيب. سبب صمتي الطويل هو الحيرة والارتباك والخجل الشديد منكما.

فاجعة وفاة والدي وفضلكما على عائلتنا الذي لا أعرف كيف أتعلم أن أشكركما عليه أثارا في نفسي مشاعر استثارت بدورها وبقدر أكبر مزيداً مما كان ينتابني في السابق، مزيداً من الخجل وعذابات التوبة. أنا أشعر بذنبي، ولا أتجرأ على الأمل بالصفح والمسامحة. ولكنكما سترأفان بحالي أعظم رأفة لو سمحتما بالكتابة إليكما أو على الأقل إلى شقيقتي لأعرف منها عن كل ما هو عزيز على قلبي. وسيكون رأس السنة الذي أتمنى لكما فيه الخير والسعادة، يا عزيزيّ، دليلاً على صلاحي.

سأحاول خلاله أن أحظى باهتمامكما من خلال تعلقي الخالص بكما وامتناني على أفضالكما ومعونتكما لعائلتنا وحرصي الدائم على المودة والاحترام والتقدير والإخلاص لكما. ويشرفني أن أبقى ابن أختكم المطيع المخلص.

ف. دوستويفسكي



12. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 يناير 1840

أشكرك من صميم القلب، يا أخي الطيب، على رسالتك الرقيقة. كلا، أنا لست مثلك. أنت لا تصدق مدى عمق خلجات الفؤاد الدافئة التي تعتريني حينما يأتونني برسالة منك، ولذا ابتدعت أسلوباً جديداً - عجيباً- للمتعة والتلذذ هو «تعذيب» النفس بالانتظار.

أتلقف رسالتك متلهفاً، أقلّبها بضع دقائق، أتلمسها، لأقتنع باكتمال وزنها، وبعد أن أشبع من فحصها والتمتع برؤية مظروفها أدسها في جيبي. . . أنت قد لا تصدق بفرحة الروح والمشاعر والفؤاد بالرسالة. أحياناً أبقى في حالة الانتظار هذه ربع ساعة، ثم أعمد بنهم وتشوق إلى فتح ختم المظروف وألتهم سطورك، سطورك الرقيقة. ما أكثر المشاعر التي تكتنف القلب عندما أقرأ هذه السطور. وما أكثر ما تزدحم به الروح من إحساسات بهيجة وغير بهيجة، حلوة ومُرّة. نعم، يا أخي الحبيب، بعضها إحساسات مُرّة غير بهيجة. ولن تصدق مدى المرارة والأسف عندما لا يفهمك الآخرون ولا يدركون مقصدك ويصورون الأمر على خلاف ما هو عليه، ليس كما قلت، بل بشكل

آخر بشع ومشوَّه... عندما قرأت رسالتك الأخيرة استولت عليَّ حالة من (الهياج الشديد)[1] لأنني لم أكن معك: أجمل خلجات الفؤاد وأكثر القواعد قدسية مما كسبته بالتجربة، بالخبرة العسيرة المضنية، تعرَّض للتشويه والتزوير وارتدى لبوساً مزرياً بائساً. فأنت نفسك كتبت في رسالتك لي تقول: «اكتبْ، اعترضْ، تجادلْ معي». وترى أن في ذلك منفعة ما. لا نفع في ذلك إطلاقاً، يا أخي الحبيب، لا شيء سوى أن أنانيتك التي هي أنانيتنا جميعاً، نحن البشر الخاطئين، ستجعلك تخرج باستنتاج نافع عن شخص آخر وليس أنا، عن آرائه وقواعده وطباعه وقلة عقله... وهذا مؤسف جداً ومهين يا أخي. كلا. الجدل في رسائل المودة سم زعاف مُحلّى قليلاً. هل سيحصل شيء عندما نلتقي وإياك؟ يخيل إليَّ أن ما سيحصل هو التحجج الأبدي لإثارة الخلاف بيننا... ولكنني أترك هذا الموضوع الآن، على أن أعود إليه في الصفحات الأخيرة من الرسالة.

الأكاديمية العسكرية ذات هالة متسامية وهّاجة. لعلك تدري أن هذا مشروع لا أروع منه. ولقد فكرت طويلاً في مصيرك لكي أوفق بينه وبين الملابسات التي نعيشها. واستقر رأيي على الأكاديمية العسكرية. إلا أنك سبقتني، ما يعني انها تعجبك أيضاً... ولكنْ ينبغي أن تخدم ما لا يقل عن سنة قبيل الالتحاق بالأكاديمية. فابقَ في قسم التخطيط هذا العام.

لماذا تشغل بالك بدفاتر الملخصات وأنا لا أعرف مناهجك؟ فماذا أرسل إليك والحال هذه؟ على فكرة، المدفعية مادة للصفوف المبتدئة. وهذا تحديداً ما أنتم بحاجة إليه. وسأرسل لك حتماً ملخص محاضرات الميجر- جنرال ديادين الذي سوف يختبرك بنفسه. لكنني سأبعث إليك هذه الدفاتر لمدة شهر لا غير، فهي ليست لي.

وقد حصلت عليها بصعوبة. شهر واحد ولا يوم أكثر. استنسِخْها أو اطلب من شخص ما ليستنسخها لك. ديادين غريب الأطوار، يطالب بحفظ محاضراته عن ظهر قلب أو عرضها بنفس مفردات كتابه. هندسة التحصين الميدانية تافهة يمكن حفظها عن ظهر قلب في 3 أيام. وسأرسلها إليك هي أيضاً في مايو. أما المحاضرات التي تتطلب وقتاً فهي مسألة أخرى سأحاول معالجتها. ولدينا دفاتر ليثوغرافية في مجال التحليل. إلا أنها منقولة حرفياً عن براشمان وباختصار طبعاً. إذن، نحن ندرس براشمان، فاحفظْ محاضراته عن ظهر قلب. اشترِ لنفسك نسخة. هل أنت مطَّلع على الجيوديسيا؟ منهج بولوتوف (في علم المساحة) يدرس عندنا. كما يدرس منهج أوزيموف في الفيزياء. وسأحاول توفير دفاتر التفاضل الليثوغرافي. منهج التاريخ عندنا في منتهى الضخامة والاكتمال، بطبعة ليثوغرافية لا أستطيع الحصول عليها. منهج اللغة والأدب الروسي من تأليف بلاكسين، وهو نفسه يدرسنا. وأفيدك بأن امتحانكم لكلية المهندسين الميدانيين في منتهى السهولة. الجميع متساهلون وملتزمون بمنطق لا يضيق الخناق على المهندسين. وهذا ما أرى أمثلة كثيرة عليه.

بعثت إلى كومانين وزوجته رسالة مؤدبة للغاية. فلا تقلق. وأنا أنتظر نتائج طيبة. لم أكتب للوصي[2] حتى الآن. فلا وقت لدي، واللّه العظيم.

أهنئك برأس السنة يا حبيبي. سيحمل لنا شيئاً ما. كيف لا وقد كانت السنوات الخمس الأخيرة فظيعة بالنسبة لعائلتنا. قرأت تهنئتك برأس السنة الفائتة. فكرتها جيدة. الروح المعنوية وتعبيرية الأشعار جاءت بتأثير أوغست باربيه[3]. وأنت، على فكرة، تتذكر تهكمه على نابليون.

والآن فلنتحدث عن أشعارك. اسمعني يا أخي الحبيب. أنا على يقين بأن حياة الإنسان مشحونة بالمصائب والأحزان، والأفراح أيضاً.

حياة الشاعر مفروشة بالأشواك والورود. فيما الموهبة الغنائية رفيقة الشاعر الدائمة. لأنه كائن ناطق. أشعارك الغنائية رائعة، ومنها «النزهة» و«الصباح» و«رؤيا الأم» و«الوردة»، على ما أتذكر، و«جياد فيبي» وكثير غيرها[4]. ما أروع هذه القصة الحية عنك يا عزيزي. وما أحبها إلى قلبي. آنذاك كنت أستطيع أن أفهمك، لأن تلك الأشهر مشهودة وعالقة في الذاكرة. فما أكثر ما حصل في حياتي آنذاك من غرائب الأمور وعجائبها الرائعة. تلك قصة طويلة لن أبوح لأحد بتفاصيلها.

شيدلوفسكي عرض عليَّ آنذاك أشعاره... فما أقساك على شيدلوفسكي. لقد ظلمته وتجنيت عليه. أنا لا أريد أن أدافع عما لن يراه إلا من لا يعرفه ومن لا يغيّر رأيه بسهولة، أقصد معارفه وقواعده. ولكنك لم تره في العام الفائت، حيث أمضى السنة كلها في بطرسبورغ بلا عمل ولا وظيفة. اللّه يعلم لماذا أقام هنا. لم يكن متمكناً من الناحية المادية لكي يعيش في بطرسبورغ من أجل اللهو والتسلية. وكان واضحاً أنه جاء إلى بطرسبورغ ليفر منها إلى جهة ما. لو نظرت إليه لرأيت عذاباته. أصابه النحول وانخسفت وجنتاه والتهب محجرا عينيه وجفّا بعد بلل، وتعمّق الجمال الروحي لمحياه مع تدهور مظهره البدني. كان يعاني. ومعاناته شديدة مرهقة. يا إلهي، ما أعظم حبه لفتاة اسمها ماري على ما أظن. تزوجت من غيره. من دون ذلك الحب ما كان بوسعه أن يغدو كاهناً للشعر متسامياً طاهراً نزيهاً...
عندما أتردد عليه أحياناً في شقته المتواضعة في مساء شتوي قبل عام بالتمام والكمال كنت أتذكر عفوياً شتاء أونيغين الحزين في

بطرسبورغ.[5] ولكن الذي كان أمامي ليس شخصاً بارد الأعصاب ولا حالماً متحمساً بالفطرة، وإنما هو كائن رائع متسامٍ. إنه لمحة قلمية متناغمة للإنسان، كالتي قدمها لنا شكسبير وشيلر. ولكنه كان آنذاك على وشك الولوج في كآبة شخوص بايرون. وكنت كثيراً ما أقضي معه أمسيات كاملة نتجاذب أطراف الحديث في أمور ما أنزل اللّه بها من سلطان. ما أشد صراحة هذه الروح النقية. دموعي تسيل عندما أتذكر ما مضى. لم يكن يخفي عليّ شيئاً. وما قيمتي أنا بالنسبة له؟ كان يريد أن يفضي لأحد ما بما في نفسه. فما أشد أسفي لعدم وجودك معنا. كان يتوق إلى رؤيتك، ليسميك صديقاً شخصياً يعتز بصداقته. أتذكر كيف سالت دموعه أثناء تلاوة أشعارك، وهو يحفظها عن ظهر قلب. فكيف تقول عنه إنه كان يسخر منك؟ ما أشد إشفاقي على هذا البائس المسكين. روح طاهرة كالملاك. وحتى في هذا الشتاء العصيب لم ينس حبه، فقد تأجج من جديد وبأشد من السابق.

حل الربيع. وأنعشه. تصوراته أخذت تبدع دراما ومسرحيات، ولكنْ أي مسرحيات يا أخي! لعلك كنت ستغير رأيك فيه لو قرأت «ماريا سيمونوفا» بعد تنقيحها. انكبَّ على تعديلها طول الشتاء. وكان قد اعتبر صيغتها السابقة بالمشوهة. ثم ما أروع قصائده الغنائية. يا ليتك تعرف القصائد التي نظمها في الربيع الماضي. كالقصيدة التي يتحدث فيها عن الشهرة والأمجاد. يا ليتك تقرأها يا أخي![6]

عندما عدت من المعسكر قضينا معاً فترة قصيرة. في اللقاء الأخير تمشينا في يكاترينهوف. وما أروع تلك الأمسية. تذكرنا حياتنا في الشتاء عندما كنا نتحدث عن هوميروس وشكسبير وشيلر وهوفمان الذي تكلمنا عنه قدر ما قرأناه. كما تحدثت معه عن حياتنا، نحن الاثنين، عن حياتنا الماضية والقادمة. وتحدثنا عنك يا حبيبي. أما

الآن فهو قد غادر من زمان، ولا علم لي بأخباره. فهل هو على قيد الحياة؟ كان يعاني من الناحية الصحية أيضاً. أرجوك، اكتبْ له.

خلال الشتاء الماضي كنت مبتهجاً جداً. تعرفي على شيدلوفسكي منحني ساعات عديدة من حياة أفضل. إلا أن ذلك لم يكن هو سبب ابتهاجي آنذاك. ربما كنتَ ولا تزال تلومني على عدم مراسلتك. والسبب هو الملابسات الحمقاء في السرية العسكرية. ولكني أقول لك يا عزيزي إنني لم أكن أبداً لاأبالياً تجاهك، وإنني أحبك لقصائدك ولشاعرية حياتك ولمصائبك، ولا شيء آخر. لم يكن هذا الحب مودة أخوية خالصة... فقد كان عندي صديق حميم أودّه ويودّني.(7) كتبت لي، يا أخي، تقول إنني لم أقرأ شيلر. أنت على خطأ يا أخي. فقد حفظت شيلر عن ظهر قلب وكنت أترنم به لحد الهلوسة والهذيان. وأعتقد أن أفضل ما فعلته الأقدار في حياتي هو أنها مكّنتني من معرفة شيلر في تلك الحقبة التي ما كان بوسعي أن أعرفه بأفضل منها في أوقات أخرى. كنت أقرأ شيلر مع صديقي وأجرب عليه خصال دون كارلوس النبيل النشيط والمركيز بوزا ومورتيمير(8). هذه الصداقة حملت لي الكثير من الأفراح والأتراح. وسألزم الصمت بشأنها إلى الأبد. فيما بات اسم شيلر عزيزاً عليَّ، وصار بمثابة صوت سحري يستثير كماً هائلاً من الطموحات. وهي طموحات عسيرة ومريرة، يا أخي ، ولذا لم أحدثك عن شيلر وعن الإنطباعات التي خلفها في نفسي، فأنا أشعر بألم تلك الانطباعات حتى من مجرد سماع اسمه.

كنت أريد أن أكتب الكثير في الرد على تهجماتك عليّ، كونك لم تفهم كلماتي. كما أردت أن أتحدث عن بعض الأمور. إلا أن رسالتي هذه إليك منحتني لحظات حلوة وأمنيات لذيذة وذكريات كثيرة جعلتني أعاف الكلام عن أية أمور أخرى. وعذري انني لم أعمد إلى تصنيف

الشعراء العظام، خاصة إذا كنت لا أعرفهم. أنا لم أعمد إلى المقاربة أو المقارنة بين الشعراء، بين بوشكين وشيلر على سبيل المثال. لا أدري ما الذي جعلك تتصور ذلك. أرسلْ لي، رجاءً، كلماتي بهذا الخصوص وسأتبرأ من مثل هذه التصنيفات. ربما كنت أتكلم عن أمر ما، فوضعت بوشكين وشيلر جنباً إلى جنب، ولكنني أظن أن ثمة فاصلة بين هاتين الكلمتين. إنهما لا يتشابهان من نواح كثيرة. بوشكين وبايرون صحيح. وفيما يخص هوميروس وفيكتور هيغو يخيل إليَّ أنك تعمّدت عدم فهمي. إليك ما أقوله: هوميروس، ذلك الإنسان الملحمي الذي خلقه اللّه وأرسله إلينا كالمسيح، لا يمكن أن يقارن إلا بالمسيح وليس بغوته. تعمق فيه، يا أخي، افهم «الإلياذة»، إقرأها جيداً، أنت لم تقرأها؟ أليس كذلك؟ اعترف. في «الإلياذة» قدم هوميروس للعالم القديم بمجمله تنظيماً للحياة الروحية والدنيوية بنفس القوة التي قدم فيها المسيح تنظيمه للعالم الجديد. فهل تفهمني الآن؟ فيكتور هيغو شاعر غنائي بطباع الملائكة وتوجهات الشعر الطفولية النصرانية، ولا أحد يفوقه في ذلك، لا شيلر، مهما كانت نصرانية شعره، ولا شكسبير بشاعريته الغنائية، وقد قرأت السوناتات بالفرنسية، ولا بايرون ولا بوشكين. هوميروس برسالته الراسخة وإيمانه الطفولي بإله الشعر الذي يعبده هو الوحيد الذي يشبه فيكتور هيغو من حيث وجهة ينابيع الشعر، ولكنْ من حيث الوجهة فقط، وليس الفكرة التي وهبته إياها الطبيعة وعبَّر عنها. ولعلّي أقول إن ديرجافين[9] يمكن أن يتجاوزهما كليهما من حيث الشاعرية. وداعاً يا عزيزي.

صديقك وأخوك

ف. دوستويفسكي

ملحوظة: هذا توبيخ تستحقه. فعندما تحدثت عن الشكل فقدت عقلك تقريباً. وأنا من زمان أظن أن اضطراباً طفيفاً حصل في دماغك. أنا لا أمزح. فقد قلتَ مؤخراً عن بوشكين ما لا يليق. أنا أهملت ذلك، وليس من دون سبب. وسأتحدث في الرسالة التالية عن الشكل. فلم يبق الآن مجال ولا وقت لهذا الحديث. ولكنْ خبرني رجاءً من أين جئت بهذا الكلام، أثناء حديثك عن الشكل، وكأن راسين وكورناي لا يمكن أن يروقا لنا بسبب رداءة الشكل عندهما؟ ما أتفهك من إنسان. وإلى ذلك تسألني بفطنة: «هل يعقل أنك تظن أنهما لا يمتلكان شعراً؟» ليس لدى راسين شعر؟ راسين المتحمس الفوّار المتيم بمُثُله العليا لا يمتلك شعراً؟ وأنت تسأل عن ذلك؟ فهل قرأت «أندروماك» يا ترى؟ ماذا، يا أخي، هل قرأتها؟ هل قرأت «إفغينيا»؟ هل يمكنك أن تنكر روعتهما؟ أليس أخيل راسين هو أخيل هوميروس؟ راسين انتحل هوميروس، ولكنْ كيف؟ ما طبيعة نسائه؟ حبذا لو تفهمته. راسين لم يكن نابغة، وهل كان بوسعه أن يؤلف الدراما! كان عليه أن يحاكي ويقلد كورناي. و«فيدرا»، يا أخي، هل بوسعك أن تنكر روعتها؟ اللّه يعلم من ستكون أنت إذا لم تقل إنها تجسيد للطبيعة الصافية والشعر المتسامي. إنها بصمة شكسبير مع أن التمثال من الجبس وليس من الرخام.

وهذه المرة عن كورناي؟ اسمع يا أخي، لا أدري كيف أتكلم معك. لعلك تشبه إيفان نيكيفوريتش «الذي أكل الكثير من الحمص»[10]. كلا، أنا لا أصدق، يا أخي! أنت لم تقرأه، ولذا أخطأت الهدف. هل تعلم أنه بمستوى شكسبير تقريباً من حيث الطباع الجبارة والروح الرومانسية. يا لك من مسكين. لديك معيار واحد ترد به، ألا وهو «الشكل الكلاسيكي». هل تعلم، يا مسكين، أن كورناي

ظهر لـ 50 عاماً فقط بعد جوديل البائس الحزين غير الموهوب في تراجيديته الهجائية «كليوبطرة»، وبعد رونسار الذي يشبه تريدياكوفسكي عندنا، وبعد النظّام الباهت مالهيرب المعاصر له تقريباً؟ فمن أين له فرصة ابتداع الشكل اللازم لمخطط المسرحيات؟ ومن حسن الحظ أنه اقتبسه من سينيكا. ثم هل قرأت مسرحيته «سينا»؟ إذا لم تكن قد قرأتها، يا مسكين، فاقرأ منها خصيصاً حوار أوغسطس مع سينا عندما عفا عن خيانته، ولكنْ كيف عفا؟ وسترى أن ذلك حوار لا يلازم إلا الملائكة المهانين. وخصوصاً عندما قال أوغسطس: «فلنكن صديقين، يا سينا، ونطوي ما جرى منا». (. . .).

لا تزعل، يا عزيزي، بسبب تعابيري الخشنة. ولا تكن مثل إيفان إيفانيتش (في قصة غوغول).

هذه الرسالة جعلتني أبكي لذكريات الماضي.

حبكة مسرحيتك رائعة، وفكرتها الصحيحة واضحة، ويعجبني فيها خصوصاً أن بطلك فاوست عندما يبحث عما لا حدود له ولا يمكن الإحاطة به إنما يتحول إلى مجنون ما إنْ يعثر على بغيته ويبلغ ما لا حدود له، فيجد ضالته في الحب. هذا رائع. يسرّني أنك تعلمت شيئاً من شكسبير.

أنت مستاء لأني لا أجيب عن جميع التساؤلات. كان بودّي أن أجيب عنها، ولكنْ ليس عندي لا ورق ولا وقت. على فكرة، إذا كنت سأجيب عن كل الأسئلة، كالسؤال التالي: «هل نبت لديك شارب؟»، لن أجد أبداً مجالاً لكتابة ما هو أفضل. وداعاً يا أخي الطيب الحبيب. وداعاً مرة أخرى. اكتبْ لي.

(1) في الأصل بالفرنسية.
(2) المقصود السيد ن. يلاغين. رسائل دوستويفسكي إليه مفقودة.
(3) أسماء العديد من الكتّاب وعناوين مؤلفاتهم وردت في هذه الرسالة بالفرنسية.
(4) قصائد ميخائيل دوستويفسكي هذه مفقودة، ما عدا «رؤيا الأم».
(5) ملحمة بوشكين «يفغيني أونيغين». الفصل الثامن.
(6) مسرحية «ماريا سيمونوفا» وقصيدة «الشهرة» مفقودتان.
(7) يفترض النقاد أنه عسكري كان في الخدمة مع دوستويفسكي.
(8) من أبطال مسرحيتَي شيلر «دون كارلوس» و«ماري ستيوارت».
(9) جبريل ديرجافين شاعر روسي (1743-1816).
(10) بطل قصة غوغول «شجار بين إيفان إيفانيتش وإيفان نيكيفوريتش» (1834).



13. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بيترهوف، 19 يوليو 1840

ألتقط الريشة من جديد، يا أخي الحبيب، اللطيف والعنيد في الوقت ذاته. وعليّ أن أبدأ الرسالة من جديد برجائي أن لا تضمر غيظاً، وهو رجاء أشدد عليه كلما تماديت في عنادك وزعلك. كلا، يا أخي العزيز الطيب، لن أتركك وشأنك ما لم تمد لي يد المودة كالسابق. ولا أدري، يا عزيزي، لقد كنتَ دوماً عادلاً في معاملتي، إلا فيما ندر، ومتسامحاً معي دوماً في حالة صمتي الطويل، والآن حيث أقدّم السبب الوجيه أراك، وأنت تعرف ذلك، وكأنما أصبت بالصمم ولا تسمع كلامي. سامحني على هذه الملامة، يا صديقي الطيب، وأنا لا أخفي عليك أنها نابعة من الفؤاد، وأنا أحبك، يا عزيزي، ويولمني أن ألمس هذه اللامبالاة تجاهي. لو كنت مكانك لنسيت كل شيء من زمان لأغفر لصديقي بأسرع ما يمكن بدلاً من جعله يلحّ فترة أطول في طلب المغفرة. من ناحيتي، على الأقل، وأنا أجد نفسي في ملابسات مقبولة، أي بوجود النقود التي أرسلها الوصي إليّ، رغم قلّتها، أعدك بالتأكيد أنني سأكتب إليك كل أسبوع حتماً.

إلا أنني حالياً أكتب على عجل، لأنني لا أجرؤ على الإفاضة في رسالة مطولة ونحن ننتظر في كل لحظة صفارات الإنذار والمناورات التي ستستمر ثلاثة أيام.

آه، يا أخي العزيز، اكتبْ لي باللّه عليك ولو قصاصة. ليتك تعرف مدى قلقي على مستقبلك وعلى قراراتك ونواياك، وعلى امتحانك يا أخي الحبيب لأنه هو أيضاً على الأبواب. اللّه يعلم هل ستصلك هذه الرسالة وأنت في ريفيل. آمل أن تصلك يا صديقي العزيز إن شاء اللّه. لو استمرت هذه الخلافات وهذا الخلل في أواصر صداقتنا فلا أدري بأية شدة سيحز الألم في نفسي بسبب صمتك. ها هو الوقت قد حان لحل العقدة الحمقاء والحاسمة في الوقت ذاته في مصيرك ومستقبلك، وهو الحل الذي كنت أنتظره دوماً بشيء من الخوف والهلع. حقاً ما الذي يتوقف على ذلك؟ تذكّر يا عزيزي. حياتك وراحتك وسعادتك، نعم سعادتك. لأنك لو لم تتغير بنفسك أو لم يتغير مصيرك منذ أن كتبت لي متحمساً عن أمانيك وعن فتاة أحلامك إيميليا فيمكنك طبعاً أن تتأمل في نوعية التغيير الذي يمكن أن يجريه نجاح الامتحان على مستقبلك. وبناءً على هذه الملابسات المتعلقة بمستقبلك أليس من القساوة البالغة حجب ثقتك عن أخيك في وقت أستطيع فيه أن أتقاسم معك صداقتي وسعادتي أو تعاستي يا حبيبي؟ آه يا صديقي العزيز. لك اللّه على ما تركتني فيه من جهالة مضنية لا تطاق.

نعم، لقد حصل لك شيء ما يا أخي. الزمن هو المحك. الزمن سيبين هل تحققت، لا أقول أحلامك، هل تحقق ما ومض في عينيك من بريق القدر حينما أضاء في أفق حياتك الحالك ركن منير شحن الفؤاد بالأمل والسعادة. الزمن وحده يمكن أن يقيّم ويحدد بوضوح

مجمل أهمية مراحل حياتنا هذه. الزمن يمكن أن يحدد، اعذرني يا أخي على كلماتي، يمكن أن يحدد هل كان هذا النشاط روحياً من الصميم وصافياً صحيحاً وواضحاً نيراً، شأن طموحنا الطبيعي في الحياة المكتملة للإنسان، أم أنه كان نشاطاً عبثياً خاطئاً من دون هدف وضلالاً اضطرارياً لقلب شخص يشعر بالوحدة والوحشة ولا يفهم نفسه ولا يزال في الغالب بلا وعي ناضج كالطفل الصغير، لكنه أيضاً متحمس مندفع بلا إرادة يبحث لنفسه عن قوت فيما حواليه ويهدر طاقاته في طموح غير طبيعي إلى «حلم وضيع». حقاً، من المحزن أن يعيش المرء حياة تعشش الكآبة في ثناياها عندما يتلمس المتاهات التي ولجها ويدرك الطاقات اللامحدودة التي يمتلكها ويرى أنها تعرضت للهدر والتبذير في نشاط زائف مناف للطبيعة، نشاط لا يليق بأرومة مثل أرومتك، ويفهم أن لهيب الروح مخنوق أطفأته أمور لا يعلم بها إلا اللّه، وأن القلب ممزق شذر مذر، وبأي سبب؟ بسبب حياة لا تليق حتى بالأقزام، وليس بالطفل العملاق، الإنسان بأوسع معنى للكلمة.[1]

وهنا أيضاً تدعو الحاجة إلى الصداقة، لأن القلب عندئذ يشبّك نفسه ويقيدها بأواصر ونياط خشنة، وتنهار معنويات الإنسان وتخبو جذوته أمام الأحداث وأمام تقلُّب أطوار فؤاده وكأنما هي من مقدرات المصير، فيعتبر خيوط العنكبوت التافهة شباكاً فظيعة لا فكاك منها ولا أحد يفلح في التملص منها وتذوي بوجودها كل الأحياء، بينما المصير هو القدر الحقيقي للمشيئة الإلهية، بمعنى أنه يؤثر فينا بقوة طبيعتنا المتكاملة التي لا تقف في وجهها أية قوة أخرى.

قطعتُ رسالتي لبعض الوقت بسبب الخدمة التي شغلتني. آه ، يا أخي، ليتك تعرف كيف نعيش. تعال إلينا بأسرع ما يمكن،

يا صديقي العزيز، باللّه عليك تعال. ليتك تدرك مدى ضرورة تواجدنا معاً، يا صديقي العزيز. سنوات كاملة مرت على فراقنا. قصاصة الورق التي أبعثها من شهر لآخر هي الوسيلة الوحيدة للتواصل بيننا، فيما يمر الوقت وينقضي ويكدس الغيوم على رؤوسنا ويريق الدلاء. كل ذلك يمر بالنسبة لنا في وحدة كئيبة مضنية. آه، لو كنت تعلم كم توحشتُ هنا، يا صديقي الطيب العزيز. حبي لك حاجة مفهومة تماماً. فأنا حر طليق بالكامل، لا أعتمد على أحد، لكن الروابط بيننا، يا حبيبي، تجعلني أبدو وكأنني أعتمد بنيوياً على حياة شخص آخر.

ما أكثر ما انفلت وتبدد من تبدلات في عمرنا وأحلامنا وأمانينا وأفكارنا دون أن نلاحظه ولم يبق منه سوى المخزون في الفؤاد. عندما أراك سأشعر بأن كياني يتجدد، وأنا الآن لا أعرف الاستقرار على أية حال، وسير أوقاتي غير صحيح... أنا نفسي لا أدري ماذا جرى لي. تعال، باللّه عليك، يا صديقي وأخي الحبيب، تعال.

لا أدري هل ينبغي لي أن أخشى عليك من الامتحان؟ هل أنت مستعد له؟ بخصوص أساتذتنا الذين يديرون الامتحانات أنا واثق بهم. سيجرون امتحانك عندنا، كالعادة، ببساطة وسهولة لدرجة أنك ستؤدي الامتحان[2] حتى لو لم تراجع بعض المواد. والأمثلة كثيرة على هذه الحالة. أظن انك لست زعلاناً عليّ بسبب دفاتر الملخصات. أكرر هنا انك لست بحاجة إليها نظراً لقلة أهميتها. إنها مجرد تلخيصات بائسة لحد مخجل. ثم إنها غير متوفرة.

أختي[3] لم تكن موجودة في بطرسبورغ. ونحن سنغادر بيترهوف قريباً، إلى عنواننا في بطرسبورغ. وداعاً يا صديقي الطيب العزيز. هذه السطور كتبتها في أوقات مختلفة. يا ليتك تعرف بحياتنا التي لا تطاق الآن.

إذن، إلى اللقاء يا صديقي الطيب وأخي العزيز. اكتبْ لي بسرعة من كل بد.

ف. دوستويفسكي

---

(1) هنا يتجلى تأثير ميخائيل ليرمونتوف وروايته «بطل من هذا الزمان» على دوستويفسكي .

(2) وهذا ما حصل بالفعل، وقبل ميخائيل دوستويفسكي برتبة ملازم ثان هندسة عام 1841.

(3) يرجح أن المقصود الأخت الكبرى بربارة التي تزوجت آنذاك.



14. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 22 ديسمبر 1841

كتبت لي، يا صديقي الغالي، عن الألم الذي يحزّ في نفسك وعن مصيبتك، وقلت إنك، يا أخي الطيب الحبيب، في يأس وقنوط. ولكن تصور مدى حزني واكتئابي وألمي وأنا أسمع منك هذا الكلام. لقد اشتدت عليَّ الأحزان لدرجة لا تطاق. إنك تقترب من لحظة الحياة التي تزدهر فيها كل آمالنا وأمانينا، فتغرس السعادة في الفؤاد وهو مفعم بالغبطة والسرور. ولكن. . . ماذا نرى؟ هذه اللحظات يفسدها ويعكرها الحزن والضنى والهموم. يا عزيزي، يا حبيبي. يا ليتك تعلم كم أنا سعيد لأني أستطيع مساعدتك ولو بشيء طفيف. أرسل إليك بارتياح هذه «الحاجة» الزهيدة لعلها تعيد إليك بعض الهدوء. وانا أعرف أن هذا قليل. ولكن ما العمل إذا كنتُ، واللّه، لا أستطيع أكثر؟ حكّم عقلك يا أخي. لو كنت وحدي لأعطيتك كل شيء يا حبيبي. ولكنني أعيل أخي[1] ولا أريد أن أكتب عاجلاً إلى موسكو. كي لا يظنوا بي الظنون. هكذا إذن، أرسل لك هذه «الحاجة» وما فيها. ولكن ، يا إلهي، كم أنت مجحف، يا صديقي

الطيب الغالي، عندما تكتب كلاماً مثل: «سأسدد لك الدين». ألا تشعر بالخجل؟ حرام هذا الكلام بين الإخوة. هل يعقل أنك، يا صديقي ويا أخي، لا تعرفني على حقيقتي. إنني أستطيع أن أضحّي من أجلك ليس بهذا!! كلا، لقد كنتَ معتكر المزاج، ولذا أسامحك.

متى الزفاف؟ أتمنى لك السعادة وأنتظر منك رسائل مطولة. أنا حتى الآن لا أستطيع أن أكتب الكثير. هل تصدق بأني أكتب إليك الآن في الثالثة فجراً، ولم أذق طعم النوم ليلة البارحة. الامتحانات والدروس فظيعة. يسألون عن كل شيء، ولا أريد المجازفة بسمعتي. ولذا أحضّر الواجبات وأحفظ عن ظهر قلب «باشمئزاز».

أنا مقصّر كثيراً جداً بحق خطيبتك العزيزة، أختنا الطيبة الغالية، مثلك يا صديقي الطيب، ولكنْ ذات الطباع غير المفهومة.

هل يعقل أن ثقة الأقرباء بي قليلة لهذا الحد؟ أو أن هناك فكرة سيئة عني وكأنني عديم الاحترام ومعدوم اللياقة وشديد النفور، بل وأنوء بثقل جميع العيوب والخطايا لتكون هي متحيزة ضدي ولا تصدق بأنني لا أملك الوقت إطلاقاً وتزعل مني بسبب صمتي. لكنني لا أستحق ذلك، واللّه لا أستحقه. اعتذر لي منها لتصفح عني وتتساهل وتغفر لي، أنا الخاطئ اللعين، كل خطاياي وذنوبي. يطيب لي أن أسمّي نفسي أخاً لها محباً صادقاً طيباً، ولكن ما العمل؟ ليس في الأمر حيلة. أنا دوماً أعلل النفس وسأظل أعللها ببلوغ ذلك الطموح في آخر المطاف.

لن أكتب شيئاً عن نفسي وأحوالي في هذه الرسالة. لا أستطيع، لا وقت لدي. إلى حين آخر. أندريه تمرّض، وأنا في غاية القلق. ما أكثر متاعب السهر عليه. هذه مصيبة إضافية. تربيته ومعيشته معي، أنا الوحيد الحر الطليق المستقل، أمر يفوق طاقتي على التحمل. لا

مجال لممارسة شيء ولا الانشغال عنه. هل تفهمني؟ وإلى ذلك لديه طباع غريبة خاوية ومنفّرة تبعد عنه أياً كان. أنا آسف جداً لمحاولتي الغبية في إعالته. وداعاً يا صديقي الغالي. رافقتك السعادة!

المخلص

دوستويفسكي

ملحوظة: أبعث إليك 150 روبلاً. أكرر 150.

(1) كان دوستويفسكي آنذاك يستأجر شقة ومعه أخوه الأصغر أندريه.



15. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 31 ديسمبر 1843

لم نتراسل من زمن بعيد يا أخي الحبيب. ولا جدال أن ذلك لا يليق بنا كلينا. أنت متكاسل بطيء الحركة يا حبيبي. وما دام الأمر كذلك فلا يبقى سوى التشبث بذيل المستقبل، فيما أتمنى لك السعادة في رأس السنة، لك وللصغيرة. إذا ولدت لك بنت سمِّها ماريا[1].

احتراماتي وتقديري لإيميليا متمنياً لها عيداً سعيداً في رأس السنة وكل التهاني لها بهذه المناسبة. أتمنى لها موفور الصحة، وقبِّل فيودور نيابة عني، أتمنى له أن يتعلم السير على القدمين.

والآن فلنتحدث عن أمور الدنيا يا حبيبي. على الرغم من أن كاريبين أرسل لي 500، إلا أنني، بناءً على الطريقة المنزلية القديمة، لا أزال مديناً بـ 200 روبل فضي. ولا بد من التخلص من الديون على أية حال. مَن جدّ وجد، والماء الراكد لا يحرك الجلاميد الساكنة. لقد باركني المصير بفكرة أو بشغلة، سمِّها ما شئت. المهم أنها مفيدة جداً وأنا أسارع لأعرض عليك اقتراحاً بالمشاركة في العمل وفي المجازفة والمنافع. ذلك هو منبع القوة.

قبل عامين ظهرت باللغة الروسية ترجمة نصف المجلد الأول من رواية «ماتيلدا» لإيجين سيو، أي جزء واحد من 16 جزءاً من الكتاب. ومنذ ذلك الحين لم يصدر شيء آخر منها. على الرغم من اهتمام جمهور القراء. فقد ورد من إحدى المحافظات 500 طلب لمواصلة إصدار الرواية.[2]

(. . .). باتون وأنا، وأنت إذا أردت، نوحد جهودنا ونصدر ترجمة الرواية لمناسبة أسبوع الآلام (. . .) نقسم الترجمة إلى ثلاثة أجزاء متساوية ونواظب على إنجازها بجد. (. . .) تكاليف الطباعة في حدها الأدنى. (. . .) والرواية ستحظى برواج. الموزعون يتوقعون نفاد نسخها في ستة أشهر. هذه هي مبادرتنا، فهل ترغب في المشاركة؟ منافع المشروع بادية للعيان. يمكنك أن تبدأ الترجمة من الفصل «la cinquième partie». اكتبْ لي رأساً، هل ترغب في المشاركة أم لا؟

دوستويفسكي

ملحوظة: أجبني فوراً. وداعاً.

---

(1) تيمناً باسم والدة الكاتب ماريا دوستويفسكايا.

(2) لم يفلح دوستويفسكي في إصدار هذا الكتاب الهام، لكنه تأثر به دون ريب.

16. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، منتصف يناير 1844

أخي العزيز!

سررت لاستلام جوابك، وأسارع لأكتب لك بضعة سطور. تقول إنك ما كنت تعرف عنواني. لكنك، يا حبيبي، تعرف أنني أخدم في مديرية التخطيط الهندسي. فهل يقع خطأ إذا كتبت إلى مكان الخدمة؟ العنوان صحيح تماماً. لكنني فرح لحجتك، وأتقبلها. فأنت، على الأقل، لم تنسني تماماً يا عزيزي. مسرور جداً لسعادتكما. أتمنى لابنتك وفيودور الصحة والعافية. وإذا تعين عليّ التعميد عندك، فتلك مشيئة اللّه، فلينعم اللّه على الطفلين بالسعادة. أقبِّل يدي إميليا وأشكرها على الهدية التذكارية. بخصوص ريفيل سنفكر في الموضوع، مَن يعشْ يَرَ، على حد تعبير الأب غراندي.[1]

والآن أنتقل إلى شؤوننا. وهذه رسالة عمل. الملابسات عندنا تسير جيداً، ولأقصى حد. أنا مكلف بالتحرير، وستكون الترجمة جيدة. باتون إنسان يفوق التقدير عندما تصل الأمور إلى المصالح. وأنت تعرف أن أمثال هؤلاء الرفاق أفضل من أكثر الأصدقاء نزاهة

فيما يخص الغش والاحتيال. لا مناص من مساعدتك لنا، فحاول أن تترجم برشاقة وأناقة. أردت أن أبعث إليك الكتاب بهذا البريد، إلا أن النسخة موجودة عند باتون، وباتون أختفى. سأبعثه مع البريد التالي. ولكن، باللّه عليك، يا عزيزي، لا تخذلني. ترجمْ ونقِّح. حبذا لو أرسلت لي الترجمة في الأول من مارس كموعد أقصى. وسننجز بأنفسنا القسم المخصص لنا، ونسلم الترجمة إلى الرقابة. باتون على معرفة بالرقيب نيكيتنكو، وقد وعده بتمرير الرواية في أسبوعين. وسنطبعها دفعة واحدة في 15 مارس. ولعلك تسأل عن مصدر النقود، أنا استجمعت ما لدي، وسأقدم 500 روبل، وباتون يقدم 700، وهي متوفرة لديه، ووالدة باتون تعطينا 2000. إنها تقرض ابنها بفائدة 40% . هذه النقود كافية تماماً للطباعة، والباقي بالآجل.

تجولنا على جميع بائعي الكتب والناشرين، واتضح لنا ما يلي:

تشيرنوغلازوف، مترجم «ماتيلدا» لا يمتلك مالاً ولا فكرة عن الموضوع. ترجمته جاهزة، ونحن سنعلن عن ترجمتنا عندما يكون نصفها جاهزاً، وفي هذه الحالة يروح تشيرنوغلازوف في داهية. وهو نفسه مذنب، فلماذا فوَّت ثلاثة أعوام بين الجزءين الأول والثاني. كما يحق لأي كان أن يقدم ترجمتين أو ثلاثاً لنتاج أدبي واحد. الباعة يتعهدون بتوزيع ألف نسخة في المحافظات، ويتقاضون 40 كوبيكاً للروبل الواحد. قالوا لنا أن ليس من الحكمة إصدار الكتاب بأقل من ستة روبلات فضية للنسخة الواحدة، سعر طبعة بروكسل الفرنسية. وبالتالي سنستلم رأساً في مايو 3500 روبل فضي (. . .) وفي بطرسبورغ يؤكد الناشرون أنفسهم أن 350 نسخة ستعرض في السوق حتماً، ومنها 20% لأصحاب الأكشاك والمكتبات. ولن يقل ما

سنحصل عليه عن 5000 روبل فضي، منها 1000 ديون علينا، والـ 4 آلاف المتبقية ربح صاف لنا. قررنا أن نتقاسمها كثلاثة أخوة، وستحصل أنت على حصتك بالتأكيد (. . .) فابدأ الترجمة الآن.

يا شقيقي الحبيب! لدي رجاء ملحّ إليك. ليس معي نقود. وأحيطك أنني ترجمت في فترة الأعياد «أوجين غراندي» لبلزاك. روعة بكل معنى الكلمة. ترجمة منقطعة النظير. أكثر ما سيعطونني مقابل الترجمة 350 روبلاً. وأنا حريص جداً على بيعها. إلا أن الثري المرتقب لا يمتلك نقوداً ولا وقتاً. فلوجه ملائكة السماء ابعثْ لي 35 روبلاً لأنفق على المكاتبات. وأُقسم لك بآلهة الأولمب وبمسرحيتي الناجزة «اليهودي يانكل»[2] وبكل ما تريد، حتى بشاربيَّ اللذين سينبتان في زمن ما وأتعهد بأن أعطيك نصف الأجر الذي سيدفعونه لي على ترجمة «أوجين». كلمة شرف.

إلى اللقاء.

دوستويفسكي

مع أول بريد. مفهوم؟

---

(1) بطل رواية بلزاك «أوجين غراندي» بترجمة فيودور دوستويفسكي (1844).

(2) دراما مفقودة ألّفها دوسويفسكي متأثراً بما كتبه شكسبير ونيقولاي غوغول عن اليهودي الجشع.

17. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، يوليو - أغسطس 1844

أخي العزيز! الفترة بين رسالتك الأخيرة وردّي عليها كانت حبلى بأحداث كثيرة. لم ننجح في كل شيء، إلا أن بعض ما حدث كان موفقاً على أية حال.

استلمت «قطاع الطرق» وعكفت على المراجعة رأساً، وإليك رأيي في الترجمة: الأناشيد مترجمة بأروع صورة، وهي ذات قيمة نقدية تفوق التقدير. والنص النثري مترجم بشكل رائع أيضاً. من حيث القوة التعبيرية والدقة والأمانة. أنت تتشكى من لغة شيلر، ولكن لاحظ يا عزيزي أن هذه اللغة ما كان بوسعها أن تأتي على نحو آخر. وقد رأيت، في حالات متكررة، أنك أولعت كثيراً بلغة الحوار وكثيراً ما ضحيت بصواب المفردة الروسية من أجل الحفاظ على لهجة الحوار التقليدية. وإلى ذلك تظهر في بعض المواضع مفردات غير روسية، علماً بأن استعمال مثل هذه المفردات على الوجه المطلوب أمر في غاية الصعوبة من الناحية الفنية والإبداعية. وأخيراً نجد بعض العبارات مترجمة بمنتهى الإهمال. إلا أن الترجمة عموماً مدهشة بكل

ما في الكلمة من معنى. أجريت بعض التنقيحات وبدأت العمل رأساً. راجعت بيسوتسكي وميجيفيتش. الحقيران لا يفكران في نشر شيلر كله في مجلتهما. إنهما لا يفهمان الأفكار الجيدة، همّهما الوحيد هو المتاجرة. ولا يريدان نشر «قطاع الطرق» وحدها خوفاً من الرقابة. (وفكرت أن ننشر في مجلتهما «دون كارلوس» مع إعلان عن قرب صدور شيلر كله) وسيثير ذلك اهتمام القراء، وسيدفعان لنا مقابل «دون كارلوس»، وأصر من جانبي على أن يكون المبلغ مجزياً. ولذا باللّه عليك أكمل الترجمة بأسرع ما يمكن. في الخريف سنطبع رأساً «قطاع الطرق» و«فيسكو» و«دون كارلوس» و«ماري ستيوارت» ، باللّه عليك «ماري ستيوارت» أيضاً. ولا بد من الأشعار إذا كنت ترغب في النجاح. (اكتبْ يا صديقي، ترجم). أنا أتعهد بالنجاح، ولن أتركك بلا نقود. سترى أنهم سيتهافتون علينا كالذباب عندما يرون التراجم في أيدينا. وستنهال علينا العروض والطلبات من الموزعين والناشرين، هؤلاء الكلاب الذين صرت أعرفهم نوعاً ما.

إذن، عجِّل في ترجمة «دون كارلوس»، عجّل. فهذا يعطينا نقوداً نبدأ بها طبعتنا. آمل أنك لم تتكاسل، بل كنت تترجم طول هذه الفترة. ولو كنت تريد نقوداً كثيرة منذ البداية لكان عليك أن تبدأ من «دون كارلوس» مباشرة وليس بالتعاقب. لكنْ الأفضل هو تأمين جودة العمل.

ميجيفيتش يرجونا أن نوافيه على جناح السرعة بكل ما هو جاهز من كتابات شيلر في الدراما وفن المسرح. وخصوصاً المواضيع العاطفية الساذجة. أنصحك بترجمتها لتتوفر النقود، فأسرع في الترجمة. ولا تخش شيئاً. أنا لن أسلم الترجمة من دون نقود. إذن، واظب على العمل. على «دون كارلوس» والنصوص النثرية الآن.

و«فيسكو» و«ماري ستيوارت» فيما بعد. كل أملي فيك، يا أخي، فلا تصعر خدك. أنت تتذكر «سيميلا» و«غيرمان ودوروتيا». عندما رفضوا «سيميلا» في إحدى دور النشر أهملتَ الترجمة. بينما ظهرت مؤخراً في مجلة «مذكرات الوطن» بأتعس ترجمة. وكذلك «غيرمان ودوروتيا» وكلتاهما حققتا نجاحاً. فلماذا؟ لأنك، يا عزيزي، صعرت خدك في وقت غير مناسب. باللّه عليك، سارع واشتغل. النفع سيكون مجزياً. «فيسكو» و«ماري» في البداية ثم يمكنك العمل على مهل. وسنطبعهما حالما يتوفر المال. وسيتوفر. يمكننا في هذه الحالة أن نضغط على الناشرين في موسكو.

والآن لن تحزر، يا أخي الحبيب، حتى لو ساعدتك كل الشياطين، من التقيتُ في بطرسبورغ. عائلة ميركوروف!! التقيتهم بالصدفة، واستأنفت العلاقة معهم طبعاً. أحدثك بالتفاصيل. أقول أولاً، يا أخي، إنهم أناس طيبون. ماريا كريسكينتيفنا امرأة مدهشة. أحترمها من كل قلبي. ميركوروف فيه شيء من خشونة البيكارديين، إلا أنه رجل محمود. لقد حققا ثراءً، دخلهم السنوي يناهز السبعة آلاف. الشيخ ميركوروف توفّي على ما أظن. فانفصلا بعضهما عن بعض من بعده. ولستَ محقاً عندما اعتبرته من الدرك. لقد خدم في الدرك ستة أشهر فقط. ثم انتقل إلى فوج الخيالة في أولفيوبولسك في الجنوب. ثم أوفد إلى بطرسبورغ للخدمة في الفوج النموذجي. حصل ذلك عندما جرى ترفيعك إلى سلك الضباط ولم نكن نعلم به. وأخيراً بات يخدم من جديد ضابط أركان، وأحيل على التقاعد التام، ويقيم في بطرسبورغ. استقبلاني بمنتهى الحفاوة. وهما على عاداتهما القديمة، لكنهما لم يتطرقا إلى النقود في اللقاءات الأربعة الأولى. وأنا أيضاً لم أتطرق إليها. كنت أشعر بالخجل. إلا أن حادثاً مؤسفاً

جرى لي بالصدفة. كنت أفتقر إلى النقود. إلا أن ترجمتي لرواية جورج صاند «ألديني الأخيرة» أوشكت على الانتهاء، فيما عرفت مرتعباً أن الرواية مترجمة في عام 1837. ارتبكتُ كثيراً ووقعت في أشد حال من الانفعال. كتبتُ إلى موسكو، فيما بقيت أتلوى ألماً في بطرسبورغ. ودفعتني الحاجة إلى الاقتراض من ميركوروف. وبدلاً من الرد المباشر دعاني لاحتساء الشاي. وقال لي إنه يشعر بالخجل من رسالتي، لأنني ينبغي أن أطلب مستحقاتي. وإنه كان صامتاً لعدم توفر السيولة، وقد رأيته ذات مرة بالفعل ينفق 2000 على بعض المشتريات. وأنه ينتظر استلام مبلغ في القريب العاجل وكان يريد أن يعطينا المال دون طلب منا، ليثبت احترامه لنفسه. إلا أنه يشعر بالخجل الآن لأنني ذكّرته بالموضوع. ولعدم توفر النقد رجاني أن أقبل منه 50 روبلاً ورقياً. فقبلتها، لأنك لا تعرف ، يا أخي، مدى حاجتي إليها. هما يبلغانك تحياتهما، اكتب لهما، يا أخي، فهما مهتمان كثيراً بأحوالك. وقد دهشا لنبأ زواجك. ما أجمل السعادة. النقود باتت أكيدة. في السابق ما كان يريد أن يدفع، وعندما رآني من جديد تأكد لي منذ اللقاء الأول أنه ينوي أن يدفع، خاصة وأن لديه نقوداً. اكتبْ له، رجاء، بمزيد من المودة، ولا تطلب المزيد من النقود. فهي ستصل في كل الأحوال بأقرب وقت ممكن.

ولكنْ يمكنك أن تذكر عرضاً وتشير إلى مجمل الدين لا على التعيين. فهو قد نسي المبلغ. وأنا لا أعرفه تحديداً. وداعاً، يا حبيبي، أهنئك بالأكلة غير المتوقعة. أعطه عنوانك في ريفيل. وبلّغني. عندما يدفع لك. فالنقود ليست لي، وأنا لن أستلمها. إنه يقيم على مقربة مني، جنب كنيسة فلاديمير. شارع فلاديمير، منزل ناشوكين، صاحب السعادة.

وداعاً. بلّغ تحياتي لزوجتك الرقيقة وقبِّل الطفلين، رافقتك السعادة والأناقة.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: أحيطك بأن أويودوفسكي ترجم «دون كارلوس». تنبه يا أخي، خذ بالك، وعجّل. أويودوفسكي لم ينشر الترجمة بعد، بل ولا ينوي نشرها حتى الآن.

قد أكسب قرابة 500 روبل في مقابل«دون كارلوس». لا يمكننا نشر الترجمة جزءاً جزءاً. جمهور القراء لا يزال يتذكر غوته. كلا، لن نستطيع.



18. إلى بطرس كاريبين[1]

بطرسبورغ، 7 سبتمبر 1844

السيد بطرس أندريفيتش الموقر!

في رسالتي الماضية إلى أخي ميخائيل طلبت منه أن يتعهد لعائلتنا كلها بالنيابة عني بأنني حالما أتسلم المبلغ المطلوب لن أخالف الاتفاق الذي ترغبون في عرضه عليَّ باسم جميع أهلنا، وأن أخي ميخائيل ينبغي أن يستجيب بنفسه لمطالبي المستقبلية أو يدفع لي في النهاية بنفسه جزءاً من حصته. ولكوني على يقين بأن أخي ميخائيل سيؤدي ما طلبته منه رأيت من الضروري أن أشغل بالكم مرة أخرى بهذه الرسالة.

يخيل لأخي، كما كان يخيل إليَّ من زمان، أن التقسيم العائلي بالتراضي أسهل بكثير من القسام الشرعي، ويمكن التقيد به من الجانبين أولاً، ثم يصار إلى التقيد بالقوانين. وطبيعي أنني لست أنا الذي يمكن أن يعرض عليكم هذا المقترح، فإن وكالة شقيقي تستطيع طبعاً أن تعجل في سير الإجراءات. نظراً ليقيني بأن التدبير الذي اتخذتُه الآن، أي الاستقالة بسبب الديون وسوء الحال، سيقابل

بصيحات واتهامات وكأنني أريد أن أعيش عالة على إخواني وأخواتي، ولذا أرى أنني ملزم بأن أتميز، رغم أن القضية مهمة في الملابسات التي أعيشها. وللأسباب المذكورة أعلاه أحدد المبلغ بـ 1000 روبل فضي الذي يعتبر، على خلفية تسديد الديون الرسمية والشخصية وغيرها ، مقبولاً تماماً، بل هو بالتأكيد أقل من المطلوب إذا أخذنا بالاعتبار تقديراتكم السابقة.

من هذا الألف الفضي أرجو تسديد 500 روبل دفعة واحدة، وتسديد الباقي على أقساط بمقدار عشرة روبلات في الشهر. (. . .). ولا بد من الاعتراف، يا بطرس أندريفيتش، بأن الموافقة والقرار يعودان لك. ويمكنك أن ترفض كل هذه المقترحات بآلاف الحجج والأعذار. (. . .) إلا أن حكمتكم ونبلكم ومشاطرتكم التي ترافق كل خطوة تخطونها إنما تساعد، في اعتقادي، على تخفيف مرارة ما أكتبه من سطور بمقتضيات الضرورة.

(فهل يعقل أن غضبكم عليَّ يبقى دون تغيير بعد هفوات الشباب من جانبي تجاهكم؟).

ملابسات حياتي الحالية كالآتي: في منتصف أغسطس قدمت استقالتي لكثرة ديوني ولا يكفي الإيفاد لتسديدها ، ما يعني أن الضابط المعروف بدأ خدمته بشكل غير حميد. ثم إن معيشتي نفسها ليست هي الجنة. فالديون التي تتجاوز الإمكانيات أمر مسموح به للأثرياء. وحتى في الملابسات غير المقبولة ينظر الناس إلى ذلك بعين الاحترام. أما الفقير فيواجهونه بالصد والرد. كان من الأفضل مواصلة الخدمة وتوزيع الشكاوى ذات اليمين وذات الشمال. ثم إن استقالتي جاءت بسبب التسرع. الديون تعذبني ولا أستطيع سدادها منذ ثلاث سنوات. وكان يعذبني غياب أمل التسديد في المستقبل. ولذا أقدمت على

الاستقالة لغرض واحد هو تسديد الديون بالطريقة المعروفة، بتقسيم المزرعة التي هي صغيرة جداً، على حد تعبيركم، لكنها تصلح لهذا الغرض. أما احترام ذكرى الوالدين فلأجل هذه الملابسات تحديداً أريد أن أستخدم تركتهما لهدف ما كان والدي سيبخل باستخدامها من أجله. أي من أجل استقرار ابنه ومن أجل الصرف على الطريق الجديد والتخلص من سبة الدنيء على الرغم من أن أحداً لم يشتمني بها صراحة. طلبات التقسيم وفق الملابسات العائلية يتخذ بشأنها القرار السامي في الأول من أكتوبر. ولا يحتاج النظر في القضية إلى أكثر من عشرة أيام، وربما أسبوعين. منتصف الشهر يقترب. وسأقال. وسيتهافت عليَّ الدائنون بلا رحمة، لاسيما وانني لن أكون في البزة (الرسمية)، وسأتعرض لأشد أنواع الأذى. ومع أنني توقعت شيئاً من هذا القبيل، وإذا صدقت توقعاتي وافتراضاتي، وأنا مستعد لها، إلا أنني، وأظنكم توافقونني، لن أذهب إلى السجن مترنماً بأنشودة الشجاع الأحمق. فهذا مبعث للضحك والسخرية على أية حال. ولذلك أكتب إليك، يا بطرس أندريفيتش، هذه الرسالة لآخر مرة. لأعرض حاجتي الملحة لآخر مرة، وأرجوك أن تساعدني بأسرع ما يمكن، ولآخر مرة، وفقاً للشروط المقترحة، ولو ليس دفعة واحدة، بل على الأقل بالقدر الذي يكفي لسد الرمق وستر البدن. وأخيراً، أقول، ولآخر مرة، وأنا جاهل تماماً بقرارك، إن الأفضل لي أن يتعفن بدني في السجن من أن أعود إلى الخدمة قبل انتهاء مشاكلي وديوني.

ف. دوستويفسكي

---

(1) الوصي على تركة دوستويفسكي (الأب) اعترض على بيع حصة الكاتب من المزرعة بالتراضي عائلياً.

19. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 30 سبتمبر 1844

أخي الحبيب!

استلمتُ «دون كارلوس» وأسارع إلى رد عاجل، ليس عندي وقت. الترجمة جيدة جداً، بل مدهشة في بعض المواضع من حيث جودتها. وفي بعض السطور رديئة، لأنك ترجمت على عجل. ولكن لا أكثر من ستة سطور رديئة. تجرأتُ على تصحيح بعض المواضع، كما نقحت بعض الأشعار لتأتي طنانة. وأكثر ما يثير الأسف أنك استخدمت مفردات أجنبية لا مبرر لاستخدامها. كما أنك استخدمت مفردة «سير»، ولا أدري كيف هي في الأصل، لكنني أعرف أنها غير مستعملة في إسبانيا، بل كانت في أوروبا الغربية فقط، في الدول ذات الأصول النورماندية. إلا أن تلك هفوات طفيفة. الترجمة جيدة لحد مدهش. أفضل مما كنت أتوقع. وسأحملها إلى الأحمقين في «المسرح الروسي والأوروبي». فليفغرا فاهيهما دهشة. وإذا كانت لديهما ترجمة أوبودوفسكي، وهذا ما أخشاه، فسأحمل ترجمتك إلى «مذكرات الوطن». ولن أبيعها رخيصاً. فلا تقلق. وحالما أبيعها

أبعث إليك النقود. وفيما يخص إصدار شيلر فأنا أوافقك طبعاً، حتى أني أردت أن اقترح عليك بنفسي تقسيم العمل على ثلاثة أعداد أو إصدارات. في البداية ننشر «قطاع الطرق» و«فيسكو» و«دون كارلوس» و«الغدر». والرسائل عن كارلوس والسذاجة. وسيكون ذلك أكثر من جيد. وسنفكر في موضوع الناشرين. إلا أن الأفضل أن نتولى المهمة بأنفسنا، وإلا لن نكسب شيئاً. أنت واظب على الترجمة ولا تفكر في النقود. سنجدها على أية حال، بصورة أو بأخرى. ولكن، يا أخي، ينبغي أن ننجز العمل بعد شهر، أي نعزم على الإنجاز، فلا يمكننا الإعلان بعد ذلك. ومن دون الإعلان نعود بخفَّي حنين. ولذا سأصر على نشر بضع كلمات حول الموضوع في «المسرح الروسي والأوروبي».

الترجمة ستثير ضجة. والكسب سيكون مذهلاً حتى في أدنى درجات النجاح. ولكنني أنا نفسي، يا أخي، أعرف أنني في ظروف جهنمية، ولذا أوضح لك:

قدمت استقالتي، لأنني، أقسم لك بأغلظ الأيمان، لم أتمكن من مواصلة الخدمة. لا أجد مسرّة في الحياة عندما ينتزعون مني عبثاً أفضل الأوقات. والحقيقة أنني لم أكن أبداً أرغب في خدمة طويلة، وبالتالي فما الداعي لتضييع أفضل السنوات؟ والأهم أنهم أرادوا أن يوفدوني، فقل لي رجاءً ماذا أستطيع أن أفعل من دون بطرسبورغ؟ وهل أصلح لشيء بعدها؟ هل تفهمني؟

بخصوص حياتي لا تشغل بالك. سأجد لقمة العيش قريباً. سأعمل كالمجنون. فأنا حر طليق الآن. ولكن ماذا أفعل حالياً، في الوقت الحاضر؟ تلك هي المسألة. تصور جيداً يا أخي إنني مدين بـ 800 روبل، منها 525 روبلاً ورقياً لصاحب البيت. وقد كتبت

لأهلي أن ديوني 1500 روبل، لعلمي أنهم تعودوا دوماً على إرسال ثلث ما أطلب.

لا أحد يعرف أنني قدمت الاستقالة. فماذا سأفعل إذا قُبلت؟ ليس لدي ولا كوبيك واحد لشراء بدلة. استقالتي ستتم في 14 أكتوبر. وإذا تباطأ خنازير موسكو فسأقع في داهية. وواضح أن السجن ينتظرني. من سخرية المصادفات أنك تتحدث عن التقسيم العائلي للتركة. ولكن هل تعرف كم أطلب في مقابل حصتي منها؟ في مقابل تنحيتي من المشاركة في شؤون المزرعة حالياً ثم سحب حقوقي منها عندما تتوفر الفرصة، أي في مقابل التنازل لهم عن مزرعتي الآن، أنا أطلب 500 روبل فضي إلى جانب 500 روبل فضي تسدد على أقساط بـ 10 روبلات في الشهر. هذا كل ما أطالب به. ألا توافقني بأن ذلك قليل ولا يسيء إلى أحد؟ ومع ذلك لا يصغون إليّ. ألا توافقني بأنني لست ملزماً أن أقترح عليهم هذا الحل الآن؟ إنهم لا يثقون بي. يظنون أنني سأغدر بهم. فتعهد لي عندهم، يا روحي، رجاءً. قل لهم إنك تتعهد بكل ما تملك نيابة عني، وإنني لن أوسع مطالبي لاحقاً. وإذا لم يتوفر لديهم المبلغ المطلوب، فيمكنني أن أكون مسروراً لـ 700 أو حتى 600 روبل ورقي وأكتفي بذلك حالياً، فتشفّع لي وتعهّد بأنني سأقبلها على حساب المبلغ الإجمالي وهو500 روبل فضي نقداً و500 روبل فضي بالتقسيط.

تقول إن الدراما هي سفينة النجاة بالنسبة لي. ولكن الإخراج يتطلب وقتاً، كما يتطلب أجوراً. وقبول الاستقالة على الأبواب. بالمناسبة لو كنت لم أقدم استقالتي حتى اليوم لقدمتها الآن. ولست نادماً.

لدي أمل. فأنا أوشك على إنجاز رواية بحجم «أوجين

غراندي»[1]. وهي رواية أصيلة تماماً. أعكف الآن على تبييض المسودة، ولعلّي سأستلم رداً عليها في 14 يناير. سأقدمها إلى «مذكرات الوطن». وأنا راض عن الرواية، وربما سأتقاضى 400 روبل عنها. تلك هي كل آمالي. كان بودّي أن أحدثك أكثر عن روايتي، ولكن لا وقت عندي. كما سأعمل في الدراما كمورد للرزق.

الخنزير كاريبين غبي كحصان مخصي أدهم[2]. أهالي موسكو من أمثاله معتدّون بأنفسهم لحد يفوق الوصف. إنهم بُلْهٌ، طبول طنانة جوفاء. في رسالته الأخيرة نصحني كاريبين دون مناسبة أن لا أولع بشكسبير. يقول إن شكسبير وفقاعة الصابون شيء واحد. أريد لك أن تفهم هذا التحامل المضحك على شكسبير. ما علاقة شكسبير في الموضوع؟ أجبته برسالة توقفه عند حده. باختصار أجبته بنموذج للجدل الحقيقي. لو تعلم كيف ألقمته حجراً. وأنت تعرف لهجة رسائلي.

اكتبْ إلى الأهل بسرعة يا أخي، باللّه عليك. أنا في وضع عصيب وفظيع. فالرابع عشر من الشهر هو الموعد الأقصى بعد أن قدمت الاستقالة قبل شهر ونصف. أرجوك، لوجه مالك السموات والأرض، اطلبْ منهم أن يرسلوا إليَّ نقوداً. لأشتري بدلة على الأقل. فسأكون من دون البزة العسكرية. خليستياكوف[3] لم يوافق على دخول السجن إلا في هندام مقبول. وإذا لم يبق لي بنطال فهل أدخل السجن مهندماً؟!

... كاريبين يحتسي الفودكا، ويشغل وظيفة في الدولة ويؤمن باللّه. بمعنى أنه اعتمد على نفسه وفطنته.

عنواني: منزل بريانشكيوف قرب كنيسة فلاديمير في زقاق غرافسكي. لعناية دوستويفسكي.

أنا راض تماماً على روايتي، ومسرور لها جداً. وأظن أنني سأستلم نقوداً منها، ولكن اللّه أعلم.

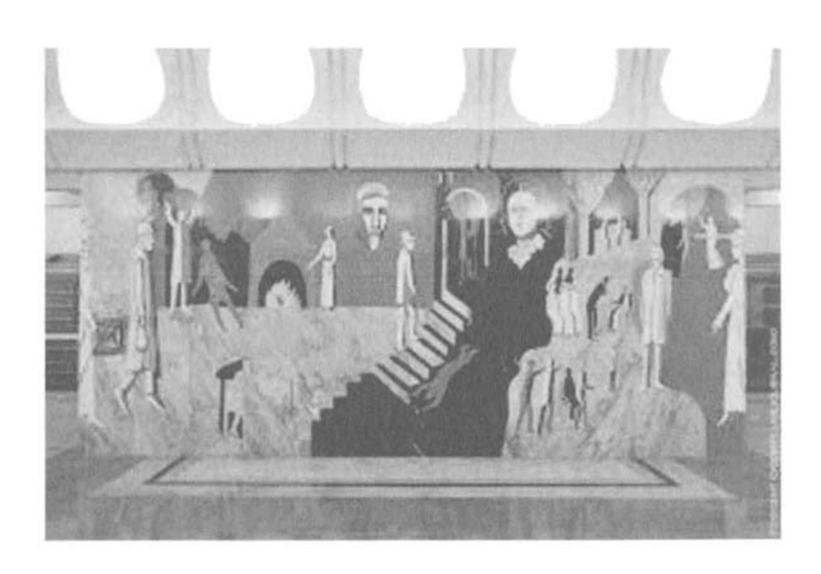
لا مؤاخذة على عدم ترابط الرسالة.

---

(1) يرجح الباحثون أن دوستويفسكي أوشك آنذاك على إكمال المسوّدة الأولى من روايته «المساكين» (أو «الفقراء» حسب ترجمة سامي الدروبي).

(2) التوصيف مقتبس من كوميديا غوغول «المفتش العام».

(3) بطل مسرحية «المفتش العام».



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

20. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ ، 24 مارس 1845

أخي الكريم!

أكيد طال انتظارك لرسالتي يا أخي العزيز. أوضاعي المتقلقلة هي التي أعاقتني عن الكتابة إليك. لا أستطيع القيام بشيء عندما لا ترى عيناي سوى المجهول وضعف العزيمة. ومع أنني لم أحقق حتى الآن ما هو إيجابي بشأن أوضاعي الشخصية فأنا أكتب لك، لأنه كان من اللازم أن أكتب من زمان.

استلمت من موسكو 500 روبل فضي. لكن ديوني القديمة والجديدة المتراكمة التهمتها ولم يبقَ منها ما يكفي للطباعة. ولا ضير كبيراً في ذلك، لأن بالإمكان الاقتراض من المطبعة أو عدم تسديد بعض الديون المنزلية، إلا أن الرواية لم تكن جاهزة تماماً. أنهيتها في نوفمبر تقريباً، لكنني صممت في ديسمبر أن أعيد هيكليتها، فعكفت على الإعادة، إلا أنني عمدت في فبراير إلى تنقيحها من جديد بحذفٍ وإضافة وما إلى ذلك. وفي منتصف مارس على وجه التقريب كنت جاهزاً وقانعاً. إلا أن ثمة مسألة أخرى. فالرقابة لا تقبل بأقل من

شهر. ولا تقوم بفحص الكتاب قبل هذه المدة. أشغالهم كثيرة كما يقولون. أخذت المخطوطة منهم ولا أدري ماذا أفعل. فبالإضافة إلى الرقابة التي تستغرق أربعة أسابيع تلتهم الطباعة ثلاثة أسابيع أخرى. وستصدر في مايو، وهو موعد متأخر. بدأت عليَّ ضغوط ذات اليمين وذات الشمال لأسلم المخطوطة إلى «مذكرات الوطن». وتلك مسألة ميئوس منها. لن أكون مسروراً إذا سلمتها. فهم لن يقرأوها. هذا أولاً، وإذا قرأوها فبعد نصف عام. لديهم مخطوطات كثيرة حتى من دونها. ويطبعونها دون أن يدفعوا شيئاً. تلك أشبه بمؤسسة أوليجاركية. وما حاجتي إلى الشهرة إذا كنت أكتب من أجل القوت؟ ولذا قررت القيام بخطوة مستميتة هي أن أنتظر وأقترض من جديد، حتى الأول من سبتمبر عندما ينتقل الجميع إلى بطرسبورغ ويبدأون، ككلاب السباق، يتشمّمون بمناخيرهم للعثور على شيء مستحدث ويدسّون روايتي على آخر الفتات التي يمكن أن لا تبلغها. دفع الكتاب إلى المجلة يعني الانحدار إلى الوهدة التي يتحكم فيها ليس الموظف الرئيسي فقط، بل وكذلك جميع المسؤولين الصغار ومساعديهم المعششين في أعشاش الثقافة والتنوير. المدراء لا أقل من عشرين، وليس مديراً واحداً. أما إذا طبعنا الرواية بالاعتماد على أنفسنا فسنشق الطريق بصدورنا، وإذا كانت الرواية جيدة فلن تفشل، بل ستخلصني من ربقة الديون وتطعمني.

والآن أكتب عن الطعام. أنت تعرف، يا أخي، أن الحبل عندي متروك على الغارب من هذه الناحية. ومهما يكن من أمر فقد أقسمت أن أصمد ولا أكتب حسب الطلب حتى لو مت جوعاً. فالطلب يقتل كل المبادرات. وأنا أريد لكل ما أكتبه أن يكون جيداً بلا جدال. انظر إلى بوشكين، وإلى غوغول، كتبا القليل لكن تمثالين ينتظرانهما.

ويتقاضى غوغول الآن على الملزمة الواحدة 1000 روبل فضي. أما بوشكين، وأنت تعرف ذلك، فقد باع البيت الشعري الواحد بوزن الذهب (عشرة روبلات). إلا أنهما دفعا ثمن تلك الأمجاد، وخصوصاً غوغول، بسنوات من البؤس والجوع. المدارس القديمة تندثر. والمدارس الحديثة تتعثر ولا تكتب. كل المواهب تنفق على نطاق واحد واسع تلوح فيه أفكار رهيبة مبتورة وعضلات مفتولة لا جدوى منها، فالعمل الحقيقي نزر يسير. قال فيرانجيه عن الكتّاب الفرنسيين الفكاهيين المعاصرين إنهم لا أكثر من قنينة نبيذ في دلو من الماء. وعندنا يقلدونهم أيضاً. رافائيل كان يرسم طوال سنوات يصقل ويشذب ويهذب خلالها فتخرج المعجزات من بين يديه. الآلهة خرجوا من بين يديه. فيما كان فيرنيه يرسم لوحة في الشهر تعرض في قاعات خصوصية بالغة الاتساع وسط آفاق عريضة ولمسات فرشاة متباعدة، والنتيجة لا شيء. إنهم لا أكثر من رسامي ديكورات!

أقول بكل جد أنا راض عن روايتي. إنها ذات حبكة قويمة ملتزمة. وهناك، على فكرة، نواقص فظيعة، والنشر سيكافئني. لكنني لا أزال خالي الوفاض. أفكر في كتابة شيء ما كبداية أو كوسيلة للكسب. إلا أنني لا أريد أن أكتب تفاهات، فيما يتطلب العمل الحقيقي وقتاً طويلاً.

يقترب الموعد الذي وعدت بزيارتكم فيه يا أصدقائي الأحبة. وطالما تنعدم الوسيلة، أي النقود، فقد رأيت أن أبقى في الشقة القديمة. وقَّعت هنا على الأقل عقد إيجار لمدة ستة أشهر لن أفكر خلالها في هذا الموضوع. والقضية أنني أريد أن أسدد الديون من خلال الرواية. وإذا فشلت لربما أنتحر.

أطمح إلى توفير 300 روبل على الأقل قبل أغسطس. فبهذا

المبلغ أيضاً يمكن طبع الكتاب. إلا أن النقود تزحف كسرطان البحر في جهات مختلفة. كانت ديوني قرابة 400 روبل فضي، مع المصروفات والبدلة. بمعنى أن لدي ما أرتديه مدة سنتين على الأقل بهندام مقبول. عموماً سآتي إليكم من كل بد. اكتبْ لي على جناح السرعة ما رأيك بخصوص شقتي. تلك خطوة حاسمة. فما العمل؟

كتبتَ لي تقول إنك خائف من مستقبل بلا نقود. إلا أن شيلر سيعوض عن كل النفقات، وإلى ذلك لا يعرف أحد كم سيباع من نسخ روايتي. وداعاً، أجبني بأسرع وقت. سأطلعك في البريد القادم على كل قراراتي.

أخوك دوستويفسكي

ملحوظة: قبّل الأطفال وبلّغ تحياتي إلى إميليا. إنني أفكر فيكم كثيراً. ولعلك تريد أن تعرف ماذا أعمل أنا عندما لا أكتب؟ أنا أقرأ. أقرأ بنهم فظيع. والقراءة تؤثر عليَّ بشكل غريب. أقرأ من جديد شيئاً مما كنت قد قرأته من زمان، فأنفعل لقوى وطاقات جديدة، وأتبحر في كل التفاصيل، وأفهمها بوضوح وأنتزع منها القدرة على الكتابة.

كيف تتحدث (بهذه البساطة) عن كتابة الدراما يا أخي. تلك مسألة تحتاج إلى سنوات من العمل والهدوء، بالنسبة لي على أية حال. الكتابة المسرحية الآن شيء جيد. الدراما انضوت تحت لواء الميلودراما. تألق شكسبير يخفت في الغسق ويلوح كالإله عبر غبش الكتّاب المسرحيين العشوائيين وكأنه الروح القدس يطل من فوق جبل بروكين هارتس. على فكرة، في الصيف ربما سأكتب (الدراما). عامين أو ثلاثة، وسنرى. أما الآن فلننتظر!

يا أخي، من ناحية الأدب أنا لم أعد ذاك الذي كان قبل عامين.

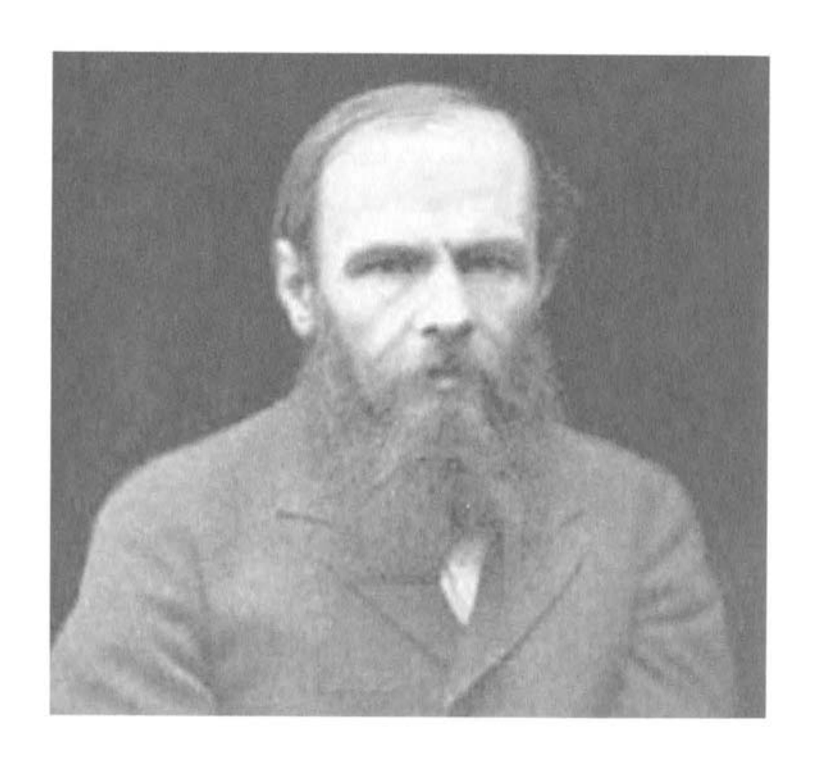
آنذاك كانت هناك صبيانية وهذر. عامان من الدراسة جاءا بالكثير وأخذا الكثير.

قرأت تواً في «الإنفليد» مقالة في الهجاء الاجتماعي عن الشعراء (والملحنين) الألمان الذين لقوا حتفهم بسبب المجاعة والبرد وفي دار المجانين. عددهم 20 تقريباً، وبينهم أسماء شهيرة.[1] لا أزال حتى الآن أشعر بالرعب. لا بد لجماعة «الإنفليد » أن يكونوا نصّابين ليكتبوا عن أشياء كهذه....

---

(1) منهم ، بحسب المجلة الروسية، ليسنغ وشيلر وموزارت وبتهوفن.



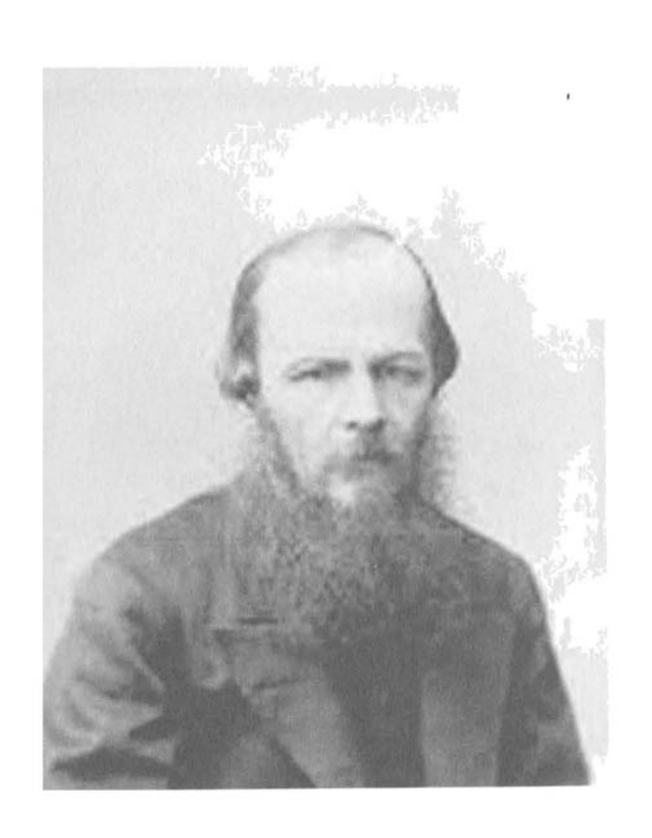




ثانياً:

ما قبل «مذلون مهانون»

(1861)



21. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 3 سبتمبر 1845

صديقي الغالي!

أكتب إليك فور وصولي، كما اتفقنا. وأذكر لك يا صديقي الحبيب ما أكثر المنغصات والضجر والأحزان والدناءات التي تحمّلتها في الطريق وفي اليوم الأول من مكوثي في بطرسبورغ. إنها أكثر مما تتحمّل ريشتي كتابته. أولاً، عندما ودعتك مع إميليا العزيزة ركبت الباخرة بمزاج معتكر للغاية. الزحام رهيب. وأحزاني لا تطاق. تحركنا في بداية الواحدة ظهراً. وكانت الباخرة تزحف ولا تسير. والريح مؤذية والأمواج تصفع المتن كله، وانتابني برد شديد فأمضيت الليل جالساً فاقد المشاعر تقريباً ومن دون قدرة على التفكير. وأتذكّر الغثيان الفظيع الذي انتابني وجعلني أتقيأ ثلاث مرات. في اليوم التالي وصلنا إلى كرونشتادت في الرابعة بعد الظهر، أي بعد 28 ساعة. انتظرنا حوالى ثلاث ساعات ثم ركبنا في الغسق باخرة صغيرة مزعجة أخرى اسمها «أولغا» سارت بنا قرابة ثلاث ساعات ونصف في ظلام الليل والضباب. ما أشد حزني وأنا أدخل بطرسبورغ. كنت

أقلّب مستقبلي بغموض ونحن في تلك الساعات الثلاث المميتة لوصولنا. خصوصاً بعد أن تعودت عليكم وتعايشت معكم وكأنني موجود في ريفيل من مئة عام. وبدت لي بطرسبورغ والحياة القادمة فيها فظيعة خالية لا تبعث على السرور.

إلا أن الضرورة قاسية، لدرجة أنني قد أفضّل إنهاء الحياة في هذه اللحظات وأتقبل الموت بارتياح على ما أظن. أنا لا أبالغ. كل هذه التمثيلية لا تساوي شروى نقير. أنت، يا أخي، ترغب في المكوث في بطرسبورغ. فإذا جئت تعال بالطريق البري. إذ لا أفظع من دخولها، وخصوصاً في الليل، من جهة نيفا[1] هكذا خيل إليَّ على الأقل. وأنت محق عندما لاحظت أن أفكاري لا تزال حتى الآن تتأرجح كاهتزازات الباخرة.

عندما وصلت إلى الشقة في الثانية عشرة ليلاً لم أجد صاحب البيت، كان يخدم مؤقتاً في مكان آخر. استقبلني الفراش فرحاً، ولا أدري لماذا، وسلمني المفتاح اليتيم للشقة التي استأجرتها بـ 600 روبل والدفع بالآجل. ولم أستطع حتى أن أحتسي الشاي بالقدر الذي أريد، فأويت إلى النوم في مزاج معتكر جداً. عندما استيقظت اليوم في الثامنة رأيت صاحب البيت واقفاً أمامي. أجاب على تساؤلاتي مؤكداً أن كل شيء باق على حاله. في الشقة شيء من التصليح. غريغوريفيتش ونكراسوف غير موجودين بعد في بطرسبورغ. ثمة إشاعة بأنهما سيأتيان على الأرجح في 15 سبتمبر. وحتى هذه الإشاعة مشكوك فيها. وبعد مقابلة قصيرة وحاسمة جداً مع بعض الدائنين مضيت لأعمالي دون أن أحقق شيئاً. تصفحت المجلات وتناولت طعاماً على عجل واشتريت ورقاً وريش كتابة. هذا كل شيء. لم أذهب إلى بيلينسكي، غداً أنوي الذهاب إليه. فاليوم مزاجي معتكر

إلى أبعد الحدود. في المساء جلست لأحرر الرسالة، وأنا على وشك الانتهاء منها. فجاءت باهتة كئيبة تعكس حالتي العصبية الراهنة. «دنيا اللّه مملة، يا سادة»[2].

أكتب لك هذه الرسالة لأني وعدتك بالكتابة سريعاً. هذا أولاً، وثانياً الكآبة نفسها دفعتني لكتابتها. ما أشد أحزان الوحدة يا أخي. وقد أخذت أحسدك أو أغبطك الآن. أنت سعيد يا أخي. حقاً، سعيد ولا تدري بذلك. مع البريد القادم سأكتب لك أيضاً. يشغل بالي بعض الشيء أنني بلا نقود تقريباً حتى منتصف الشهر. انشغال البال بهذا الأمر ليس كبيراً، لأنني في الحال الحاضر لا أستطيع أن أفكر في شيء. عموماً، تلك سخافات. أنا مرهق جداً، وأريد أن أنام، لأن الليل قد حل. وسيقول المستقبل شيئاً. للأسف الشديد لا بد من العمل لنعيش. عملي لا يتحمل الإكراه.

لن تصدق، يا أخي، إذا قلت لك إنني أتوق إلى العيش معكم ولو ساعتين أخريين. فهل ينطوي المستقبل على شيء، هل سيأتي بشيء؟ أنا الآن مثل غوليادكين[3] الذي سأبدأ به، على فكرة، غداً. أما الآن فوداعاً. حتى البريد التالي. وداعاً يا صديقي الحبيب، تحياتي لإميليا وقبلاتي للصغيرين. ألا يزال فيودور يتذكرني أم أنه يبدي لامبالاة؟ وداعاً يا أعز أعزائي، إلى اللقاء!

المخلص دوستويفسكي

غوليادكين انتفع من كآبتي. فولدت لدي فكرتان ووضع جديد. ولكن، وداعاً يا عزيزي. ماذا؟ هل سيحصل لنا شيء بعد عشرين عاماً؟ أنا لا أدري ماذا سيحصل لي. الشيء الوحيد الذي أعرفه أنني أتعذب الآن كثيراً.

تحياتي واحتراماتي لعائلة ماريا وألكسندر بيرغمان . بطرسبورغ لا تزال خالية. ذوى وذبل كل شيء فيها.

---

(1) نهر يصب في بحر البلطيق

(2) تحوير لآخر عبارة في قصة غوغول «الشجار...»

(3) بطل رواية دوستويفسكي «الشبيه» التي كان يعمل عليها آنذاك.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

22. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 8 أكتوبر 1845

أخي الحبيب!

لم يكن لدي حتى الآن وقت ولا مزاج لأبلغك عن شؤوني. كل شيء كان مؤذياً مقيتاً لدرجة كنت أشعر فيها بالغثيان وأنا أنظر إلى دنيا اللّه. أولاً، كنت كل هذا الوقت، يا صديقي الوحيد العزيز، بلا نقود، أعيش على الاقتراض. وذلك أمر مقرف للغاية. وثانياً، كان الحزن ينتابني عموماً حتى تتضاءل معنوياتي عفوياً ولا أعتني بنفسي بل أتحول إلى لاأبالي لا عقل له، بل وإلى أسوأ من ذلك، حيث أندفع متجاوزاً الحدود وأغضب لأتفه الأسباب. في بداية هذا الشهر ظهر نكراسوف (في بطرسبورغ) وسدد لي جزءاً من الدين، وسأستلم الجزء المتبقي بعد أيام. ولعلمك ألقى عليَّ بيلينسكي قبل أسبوعين موعظة مستفيضة عن كيفية التعايش في عالمنا الأدبي، وأبلغني في الختام بأنني يجب أن أطالب بما لا يقل عن 200 روبل ورقي للملزمة الواحدة، سعياً لإنقاذ نفسي. وبالتالي سيباع غوليادكين بـ 1500 روبل ورقي في أقل تقدير. وكان نكراسوف بدافع من تأنيب

الضمير قد سارع ووعدني بمئة روبل فضي في منتصف يناير مقابل رواية «الفقراء» التي اشتراها مني. ذلك لأنه أدرك بنفسه أن الـ 150 روبلاً الفضية لا يجمعها بالتعاليم المسيحية جامع، ولذا قرر، على ما يبدو، أن يضيف لي مئة روبل دليلاً على التوبة. كل ذلك أمور جيدة حتى الآن. إلا أن المزعج فيها أننا لم نسمع شيئاً من الرقابة اللاأبالية بخصوص «الفقراء». إنهم يتكالبون على هذه الرواية البريئة ولا أدري ما ستكون النتيجة. هل سيمنعونها، أم يختزلونها طولاً وعرضاً؟ تلك مصيبة، مصيبة بكل معنى الكلمة. فيما يلمح نكراسوف أن الوقت لم يعد يكفي لإصدار حوليته[1] بعد أن أنفق عليها 4000 روبل ورقي.

يعقوب غوليادكين اسم على مسمى. سافل دنيء لا أحد يصل إلى مقامه، ولا يريد أن يمضي إلى الأمام مؤكداً أنه غير مستعد للتقدم بعد، وأنه لا يزال يدور في فلك ذاته، وأن وضعه هذا لا يشغل باله على الرغم من أنه قادر، هو أيضاً، على زحزحة الجبال إذا اقتضت الضرورة. نعم. لم لا؟ فهو لا يختلف عن الآخرين. لا بأس به، ولا يختلف عن أولئك الآخرين. ماذا يهمه؟ إنه سافل في أبعد حدود الخسة والدناءة. لا يوافق على إنهاء وظيفته قبل منتصف نوفمبر. لكنه أوضح لصاحب السعادة وأقنعه، ولم لا؟ بأنه مستعد لتقديم استقالته. هكذا فعل ووضعني، أنا المؤلف، في موقف حرج للغاية[2].

أنا كثيراً ما أتردد على بيلينسكي. وهو يميل إليّ تماماً ويرى جاداً أن لوجودي أمام الجمهور دلالة وأن آراءه بخصوصي مبررة. كما تعرفت قبل أيام على كرونبيرغ ، مترجم شكسبير، ابن البروفيسور العجوز كرونبيرغ من خاركوف. عموماً المستقبل المؤمل، وغير البعيد، يمكن أن يكون جيداً، ويمكن أن يكون رديئاً لحد مرعب.

بيلينسكي يحثني على إنجاز صورة غوليادكين. وقد أذاع سره في العالم الأدبي كله وكاد يبيعه إلى كرايفسكي. أما «الفقراء» فنصف أهالي بطرسبورغ يتحدثون عنها. موقف غريغوريفيتش وحده يفوق التقدير. قال لي بنفسه: «أنا بوق للدعاية لك».

نكراسوف نصّاب بالفطرة، وإلا لما استطاع أن يحافظ على وجوده. ولد على هذه الشاكلة، ولذا قدم في يوم وصوله، خلال المساء عندي، مشروع مطبوعة صغيرة عاجلة يعمل جميع الأدباء وبقدر المستطاع على إصدارها، بحيث أتولى أنا مهمة رئاسة التحرير وكذلك غريغوروفيتش ونكراسوف. فيما يتعهد الأخير بالنفقات على حسابه. المطبوعة ستصدر في ملزمتين مرة كل أسبوعين، في 7 و21 من كل شهر. عنوانها سيكون «الأنياب المكشرة» بهدف تشديد التهكم والسخرية من الجميع بلا استثناء والتشبث بالكلمة والمجلات والمجتمع والأدب وأحداث الشارع والمعارض وأخبار الجرائد والأخبار الأجنبية، باختصار التشبث بكل هذه الأمور على وتيرة واحدة وباتجاه واحد. البداية ستكون في 7 نوفمبر. وقد وضعنا لها توليفة رائعة. فهي ستكون مصورة، شعارها مقتبس من هجائية بولغارين المنشورة في «نحلة الشمال»: «نحن مستعدون للموت دفاعاً عن الحقيقة، فلا حياة لنا من دونها». وسيوقّعها فادي بولغارين. وسنكتب الشيء ذاته في الإعلان الذي سننشره في الأول من نوفمبر. مقالات العدد الأول ستكون لنكراسوف عن بعض الدناءات التي ستحصل طبعاً في بطرسبورغ خلال هذه الأيام. وثانياً الرواية المرتقبة لأوجين سيو «الخطايا الفتاكة السبع» في ثلاث صفحات[3]، وكذلك استعراض جميع المجلات. المحاضرة التي القاها شيفيريف بجامعة موسكو عن تناغم أشعار بوشكين قبل أن يرتقي المدرج الروماني ويتلو

على سيدتين جاءتا معه إلى هناك أبياتاً جعلت الضفادع والعضايا تتحشد لتنصت إليه!!

ثم تفاصيل الجلسة الأخيرة لدعاة النزعة السلافية الذين أكدوا على رؤوس الأشهاد أن آدم كان صقلبياً يعيش في روسيا، ولذا يتسم بأهمية بالغة ونفع كبير حل هذه المسألة الاجتماعية العظمى من أجل خير الأمة الروسية وازدهارها. ثم تكرس «الأنياب» قسم الفنون التشكيلية بالكامل لتبيان مصداقية «رسوم» كوكولنيك (. . .)، فيما يتولى غريغوريفتش كتابة «حصاد الأسبوع» وينشر بعض متابعاته الشخصية. وأنا سأكتب «مذكرات خادم عن سيده»[4] وما إلى ذلك. وهكذا يمكنك أن تلاحظ أن المجلة ستكون مرحة جداً مثل «لا غوبيس»[5]. وتلك مبادرة طيبة، لأنها يمكن أن توفر لي كسباً بـ 100-150 روبلاً في الشهر على أقل تقدير. وستحظى المجلة بالرواج. نكراسوف سينشر فيها أشعاراً أيضاً.

وداعاً، إذن. في المرة القادمة سأكتب لك أكثر. أما الآن فأنا مشغول جداً. ومع ذلك حررت لك كما ترى رسالة كاملة، وأنت لن تكتب لي نصف سطر من دون رسالتي، وتحسب الحساب للزيارات، كسول أنت واللّه كسول![6]

اقرأ «تيفيرينو» لجورج صاند في عدد أكتوبر من «مذكرات الوطن». إنها ظاهرة غير مسبوقة في القرن الحالي. هذه هي النماذج البشرية المثلى.

وداعاً يا صديقي. تحياتي إلى إميليا. أقبِّل يديها. كيف صحة الصغيرين؟ اكتبْ لي تفصيلاً.

ترجم شيلر خلسة، مع أننا لا ندري إطلاقاً متى سيصدر. أنا الآن أتشمم عملاً لك كي تترجمه. لكن الطامة الكبرى هي وجود ثلاثة

مترجمين رسميين في «مذكرات الوطن». عسى أن نفلح في إصدار شيء ما أنا وأنت معاً. المستقبل مفتوح على كل الاحتمالات. والشيء الأكيد الذي أعرفه أن مسرح شيلر سينجح إذا مضيت أنا فيه.[7]

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) نشرت «الفقراء» لأول مرة في حولية نكراسوف «مجموعة بطرسبورغ» في 15 يناير 1846

(2) هذه إشارة إلى مشهد في الفصل ما قبل الأخير من «الشبيه»، وكان دوستويفسكي على وشك إنهائها في أكتوبر 1845.

(3) المقصود مقالة نقدية لاذعة لروايات سيو.

(4) عدل دوستويفسكي عن «مذكرات خادم» وكتب بدلاً منها «رواية في تسع رسائل».

(5) جريدة الكاتب الفرنسي ألفونس كار الهزلية 1839.

(6) في إشارة إلى نوزدروف بطل رواية غوغول «النفوس الميتة».

(7) في البداية كان إصدار تراجم دوستويفسكي لمسرحيات شيلر متعثراً.

23. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 16 نوفمبر 1845

أخي الكريم!

أكتب إليك هذه المرة باستعجال، فليس لدي كثير من الوقت. لم أكمل غوليادكين حتى الآن. ولا بد لي أن أفرغ منه في 25 من هذا الشهر. لم تردّ على رسائلي فترة طوَيلة، فانتابني قلق شديد عليك. اكتبْ أكثر. لماذا تتحجّج بغياب الوقت وهذه حجة سخيفة، لأن الرسالة تحتاج إلى قليل من الوقت. كسل المدن الهامشية يقتلك في عز الشباب يا عزيزي، الكسل وليس غيره.

ولكن، يا أخي، لا أعتقد أن شهرتي ستبلغ في أي زمن مثل ما هي عليه الآن. احترام بالغ في كل مكان، وفضول شديد بخصوصي. تعرفت على عدد كبير من أحسن الناس خلقاً. الأمير أودويفسكي يرجوني أن أسعده بزيارة، والكونت سولوغوب ينشب أظفاره في شعره من اليأس والقنوط. فقد أبلغه بانايف بوجود كاتب موهوب سيفوقهم جميعاً. عرج سولوغوب على الجميع وعرج على كرايفسكي وسأله بصورة مباغتة: «من هو دوستويفسكي هذا؟ أين أجد

دوستويفسكي؟». فأجابه كرايفسكي بحدّته المعروفة وصراحته المعهودة: «دوستويفسكي لن يرغب في إسعادكم بزيارته». بالفعل تحوّل الأمر وكأنهم تلك الأرستقراطية المتعالية على عكاز وتفكر في تدميري بملاطفاتها الممجوجة. الجميع يستقبلونني وكأني أعجوبة. لا أتفوّه بكلمة إلا وأجد أصداءها في الأنحاء: قال دوستويفسكي كذا ويريد أن يفعل كذا. بيلينسكي يحبني إلى أبعد الحدود. قبل أيام عاد من باريس الشاعر تورغينيف، لا بد أنك سمعت الخبر، وارتبط بي منذ الوهلة الأولى بصداقة يعزوها بيلينسكي إلى أن تورغينيف أحبني. ولكن أي إنسان هو يا أخي؟ ما أروعه! أنا أيضاً كدت أقع في حبه. شاعر موهوب أرستقراطي وسيم ثري وذكي، ومثقف في الخامسة والعشرين من العمر. لا أعرف أي صفة حميدة حجبتها الطبيعة عنه. ثم إن طباعه متفتحة بمنتهى الصراحة والروعة، متمرسة في مدرسة الطيبة والبشاشة. اقرأ قصته «أندريه كولوسوف» في «مذكرات الوطن». إنها صورة شخصية مع أنه ما كان يريد الكتابة عن نفسه.

لا أزال حتى الآن قليل النقود، لكنني لست في عوز. قبل أيام كنت في عوز شديد. نكراسوف بادر إلى إصدار مجلة «الأنياب» الهزلية الرائعة التي كتبت أنا إعلاناً عنها أثار ضجة لأنها أول ظاهرة خفيفة وفكاهية في مثل هذه الأشياء. وذكرني ذلك بالمقالة الهجائية الأولى للوسين دي روبمريه (بطل روايات بلزاك). إعلاني نشر في «مذكرات الوطن» في ركن «أخبار متفرقة». وقد تلقيت 20 روبلاً فضياً بالمقابل. أكمل الحديث: قبل أيام، وكنت بلا نقود، عرجت على نكراسوف. وأنا جالس عنده وردت على بالي فكرة كتابة رواية في 9 رسائل. عدت إلى البيت وكتبتها في ليلة واحدة بنصف ملزمة. وفي الصباح حملتها إلى نكراسوف واستلمت لقاءها 125 روبلاً ورقياً.

بمعنى أن سعر ملزمتي في «الأنياب» 250 روبلاً ورقياً. وفي المساء، عند تورغينيف، تمت تلاوة قصتي بحضور كل أفراد حلقتنا، أي 20 شخصاً في أقل تقدير. وأثارت دهشة الجميع. وستنشر في العدد الأول من «الأنياب». سأبعث إليك الكتاب في 1 ديسمبر، وسترى بنفسك هل هو أسوأ من «الدعوى» لغوغول على سبيل المثال؟ بيلينسكي قال إنه بات واثقاً مني كلياً، لأنني أستطيع أن أتناول عناصر متنوعة للغاية. وقبل أيام عندما سمع كرايفسكي أنني خالي الوفاض ترجاني أن أتقبل منه قرضاً بـ 500 روبل. وأعتقد أنني سأبيعه الملزمة بسعر 200 روبل ورقي.

لدي أفكار لا نهاية لها. ولا يجوز أن أتحدث عنها، حتى لتورغينيف، مثلاً. لأن الجميع في كل أرجاء بطرسبورغ تقريباً سيعرفون غداً، والحال هذه، بأن دوستويفسكي يكتب كذا وكذا. ولكن، يا أخي، لو عددت لك كل نجاحاتي لما وجدت الورق الكافي للكتابة. وأعتقد أنني سأكسب نقوداً. غوليادكين يصدر بشكل رائع. (. . .) . أمس زرت باناييف لأول مرة، ويخيل إليَّ أنني وقعت في غرام زوجته[1]. فهي ذكية مليحة، إضافة إلى كونها مؤدبة وصريحة للغاية. أقضي الوقت بسرور. حلقتنا كبيرة جداً. أنا أكتب لك طول الوقت عن نفسي. لا مؤاخذة. يا عزيزي، أقول لك صراحة بأنني الآن مغمور بالأمجاد. أمجادي الشخصية. سأبعث لك مع الرسالة المقبلة مجلة «الأنياب». يقول بيلينسكي إنني أستخف بسمعتي عندما أنشر مقالاتي في «الأنياب».

وداعاً يا عزيزي، أتمنى لك موفور السعادة. وأهنئك بالمنصب. أقبِّل يدي إميليا وأقبِّل طفليك. كيف حالهما؟

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: بيلينسكي يحميني من ملاحقة متعهدي الحفلات المسرحية. أعدت قراءة رسالتي واكتشفت أني، أولاً، أميّ، وثانياً معتدّ بنفسي.

وداعاً، اكتبْ لي باللّه عليك!

ستتحسن أمور ترجماتنا لشيلر من كل بد. بيلينسكي يمتدح موضوع المؤلفات الكاملة. أظن أن بالإمكان بيعه بنفع كبير بمرور الزمن على نكراسوف مثلاً. إلى اللقاء.

العرائس والخطيبات وغيرهن صرن أكثر جمالاً، لكن الكلفة تفوق التصور. قبل أيام انهال عليَّ تورغينيف وبيلينسكي باللوم بسبب حياة العزوبة المرتبكة. هذان السيدان لا يريدان أن يعترفا بأنهما يحبانني كلاهما. ديوني لا تزال على المستوى نفسه.

---

(1) لم يدم غرام دوستويفسكي طويلاً. وكانت تلك هي الحالة الوحيدة التي صادفها في شبابه ولم تتكرر.

24. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 فبراير 1846

أخي الكريم!

أولاً، لا تزعل لأني لم أكتب طويلاً. واللّه لم يكن لدي وقت، وسأثبت لك الآن. أهم ما أخّرني هو أنني كنت، حتى الآونة الأخيرة، أي حتى 28 من الشهر، أواصل العمل لإنهاء غوليادكين، صاحبنا السافل. شيء فظيع. تلك هي الحسابات البشرية: أردت أن أنجز الرواية قبل أغسطس واستطال الأمر حتى فبراير. والآن أبعث إليك المجلة. «الفقراء» صدرت في 15 منه، ولكن، يا أخي، ما أشد حملة التهجم التي واجهتها في كل مكان. في «المصور» قرأت قذفاً وشتائم بدلاً من الانتقاد. وما جاء في «نحلة الشمال» أسوأ. لكنني أتذكر كيف استقبل أولئك الأشخاص أنفسهم غوغول، ونحن نعرف كيف استقبلوا بوشكين. حتى الجمهور في هياج: ثلاثة أرباع القراء يتهجمون، وربع، وربما أقل من الربع، يفرطون في المديح. واحتدت المجادلات إلى اقصى درجة. يتهجمون ويطيلون التهجم، لكنهم يقرأون على أية حال. المجلة لقيت رواجاً غير مسبوق، ولن

يبقى منها ربما ولا عدد واحد بعد أسبوعين. مثل هذا حصل لغوغول. هاجموه بكل شدة، لكنهم قرأوه على أية حال وانقادوا له وراحوا يمتدحونه الآن. قدمتُ لهم عظمة كلب فليتمصمصوا. والشهرة لي، فيما يتصرفون كالحمقى. وقد بلغت بهم قلة الحياء حداً جعل انتقاد «نحلة الشمال» عديم الحياء بالمطلق. ما أسخف هذه الحماقات. ولكن من ناحية أخرى، يا أخي، ما أجمل الثناء الذي أتلقاه. تصور أن أفراد حلقتنا، وحتى بيلينسكي، يعتقدون بأنني سبقت غوغول أشواطاً. «مكتبة المطالعة» التي يكتب قسم النقد فيها نيكيتينكو ستنشر تحليلاً مستفيضاً «للفقراء» في صالحي. وسيدق بيلينسكي الأجراس في شهر مارس[1]. فيما كتب أوديفسكي مقالة منفصلة عن «الفقراء»، كما كتب زميلي سولوغوب عنها أيضاً.[2] أنا، يا أخي، ولجت المجتمع الراقي وسأحدثك شخصياً عن جميع مغامراتي بعد شهر.[3]

يمتلك جمهورنا غريزة فطرية كما في أي جمع من الجموع لكنه يفتقر إلى الثقافة. ولا يفهم كيف يمكن الكتابة بمثل هذه المفردات. لقد اعتادوا أن يروا في كل شيء بوز المؤلف، بينما أنا لا أعرض بوزي (في ما أكتب). ولا يتصورون أن المتكلم هو ديدوشكين ولست أنا، وأن ديدوشكين هذا لا يستطيع أن يتكلم على نحو آخر. يجدون في الرواية إسهاباً وتمطيطاً. وليس فيها كلمة واحدة نافلة. بيلينسكي وآخرون يجدون في كتاباتي نفحة أصيلة جديدة تقوم على التحليل وليس التركيب، أي أنني أتعمق بحثاً عن الكل من خلال تفكيك ذراته وجزيئاته. أما غوغول فهو يتناول الكل رأساً، ولذا لا يتعمق كما أتعمق. سترى ذلك بنفسك عندما تقرأ الرواية. أمامي، يا أخي، مستقبل باهر!

اليوم يصدر غوليادكين («الشبيه»). قبل أربعة أيام كنت لا أزال أضع اللمسات الأخيرة عليه. وستشغل الرواية في «مذكرات الوطن» 11 ملزمة. غوليادكين أرقى من «الفقراء» بعشر مرات. يقول البعض في حلقتنا إن روسيا لم تشهد، بعد «النفوس الميتة»، رواية كهذه. يقولون إن الكتاب عبقري وأكثر. ويتطلعون إليَّ بآمال عريضة. بالفعل جاء غوليادكين موفقاً إلى أبعد الحدود. وسيعجبك كل الإعجاب، بل سيعجبك أكثر من «النفوس الميتة». أنا على يقين من ذلك. هل توزع «مذكرات الوطن» عندكم؟ ولا أدري هل سيعطيني كرايفسكي نسخة.

اعذرني، يا أخي، لم أكتب لك من زمان، حتى أني لا أتذكر أين توقفت آنذاك. وقت طويل مضى، وأحداث جرت. سنلتقي قريباً. في الصيف سآتي إليكم حتماً يا أصدقائي وأمضي الصيف كله في الكتابة. الأفكار جاهزة. وأنا أكتب الآن أيضاً. استلمت 600 روبل فضي بالتمام والكمال مقابل غوليادكين وإلى ذلك استلمت نقوداً كثيرة حتى أني أنفقت 3 آلاف بعد مفارقتك. معيشتي غير منتظمة. تلك هي المشكلة. انتقلت من الشقة وأستأجرت غرفتين مؤثثتين بامتياز. حياتي جيدة جداً.

عنواني: مقابل كنيسة فلاديمير، في الركن بين شارع غريبتسكايا وزقاق كوزنيتشني. دار التاجر كوتشين رقم 9. اكتبْ لي رجاءً، باللّه عليك. اكتبّ لي هل أعجبتك «الفقراء». تحياتي إلى إيمليا وقبلاتي للصغيرين. كنت واقعاً في غرام بانايفا بكل جد. حالياً هان الأمر. ولا أدري ماذا بعد. صحتي متوعكة جداً. أعصابي مريضة. وأخشى السخونة والحمى العصبية. لا أستطيع أن أعيش بانتظام. أنا متهور ضال. والطامة الكبرى ستأتي إذا لم أوفق في الاستجمام على البحر

صيفاً. وداعاً، اكتبْ لي باللّه عليك. لا مؤاخذة على لهجة الرسالة. فأنا مستعجل. أعانقك. وداعاً.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: اعذرني، يا أخي، باللّه عليك، لأنني لم أبعث لك شيئاً حتى الآن. في الصيف سأجلب كل ما يلزم. وداعاً، الساعة تقترب من الثالثة ليلاً.

سأجلب هدايا للجميع.

سنقضي الصيف معك، يا صديقي الكبير، بسرور أكثر. لن يكون مالي وفيراً، لكنني آمل في 800 أو 1000 روبل. وهذا مبلغ كاف للصيف.

فيرا مخطوبة وستتزوج.[4] هل تعرف ذلك؟

---

(1) أشار بيلينسكي إلى اعتماد دوستويفسكي في «الفقراء» و«الشبيه» على غوغول، لكنه شدد على أصالة موهبته.

(2) المقالتان لم تريا النور.

(3) لا أحد يعرف عن «مغامرات» لدوستويفسكي في المجتمع الراقي. المعروف أنه كان متردداً في التواصل معه.

(4) أخت دوستويفسكي الوسطى.

25. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 أبريل 1846

أخي العزيز

أرسل إليك خوذة ومستلزماتها وزوجاً من الكتافيات. الخوذة غير ملبسة لأن العارفين يقولون إن ريشتها العالية يمكن أن تتلف في الطريق. ولا أدري هل قدمت لك خدمة جيدة أم لا. إذا كان العكس فلست أنا المذنب، لأنني لا أفقه شيئاً بالمطلق في هذه الأمور. أنا تخلفت عن الزمن يا صديقي.

والآن المسألة الثانية. يمكنك أن تسأل لماذا كل هذا التأخير؟ إنني، يا حبيبي، في أشغال شاغلة قد يبدو غريباً معها، في رأيك، أنني لم أجد الوقت اللازم للجنتك. صحيح أنني أضعت فرصتين للبريد بسبب أخطائي. أعتذر، لا تزعل.

ثم إنك، يا صديقي المخلص، على حق عندما تلومني على تأخري في الكتابة إليك. لكنني موافق بالكامل على رأي بوبريشين، بطل غوغول، الذي قال: «الرسالة سخافة. ولا يكتب الرسائل إلا الصيادلة»[1]. فماذا عساي أن أكتب لك؟ كان عليّ أن أحبّر مجلدات

لو بدأت بالكتابة كما أريد. ففي حياتي يومياً كثير من المستجدات والتبدلات والانطباعات وكثير من الأمور الطيبة والنافعة بالنسبة لي بقدر ما هي مؤذية وغير نافعة لدرجة لا تترك لي وقتاً للتأمل والتفكير. فأنا مشغول بالكامل. هذا أولاً. الأفكار تتوالى وأنا أكتب بلا انقطاع. فلا تظن أنني كنت في جنينة من الورود. كلا. وثانياً، أنفقت نقوداً كثيرة، وتحديداً 4500 روبل منذ أن افترقنا، وبعت بضاعتي سلفاً بـ 1000 روبل ورقي، وبالتالي، ونتيجة لما تعرفه عني من سوء التدبير سرقت نفسي بنفسي وعدت كالسابق إلى الجيوب الخالية.

ولكن، لا بأس، لا ضير في ذلك. شهرتي بلغت الذروة. وفقاً لحساباتي تحدثت مختلف المطبوعات عني 35 مرة تقريباً. بعضها رفعتني بمديحها إلى عنان السماء وبعضها باعتدال، والبعض الثالث جللتني بالعار والشنار. فما الأفضل والأعلى؟ إلا أن المؤذي والمؤسف أن رفاقنا، بيلينسكي والآخرين، غير راضين عني بسبب غوليادكين. الانطباع الأول ملؤه الإعجاب بلا حساب، والمديح والصخب والضجيج. والانطباع الثاني هو الانتقاد. فالجميع، رفاقنا والجمهور، وكأنهم تواطأوا على قاسم مشترك، يرون أن غوليادكين شخصية مملة وباهتة ومهلهلة لدرجة لا تترك رغبة في مواصلة القراءة. والمهزلة الأكثر أنهم جميعاً غاضبون عليَّ بسبب الإطالة والإطناب، لكنهم في الوقت ذاته يقرأون ويطيلون القراءة ويعيدونها. حتى أن أحد رفاقنا يعكف على قراءة فصل كل يوم كي لا يجهد نفسه، بل يتلمظ من الارتياح. والبعض الآخر من الجمهور يصرخ ويجأر أن من الغباء نشر مثل هذه الأشياء، فيما يصيح آخرون أن الرواية تصورهم وتتحدث عنهم، بل إني سمعت من البعض مدائح مطولة من المخجل استعراضها.

أما بخصوصي أنا فقد انتابني الاكتئاب بعض الوقت. أنا أعاني من عيب فظيع هو حب الذات والمباهاة. وقد آلمتني، بل قتلتني، فكرة أنني خيبت الآمال وأتلفت نتاجاً كان يمكن أن يكون عظيماً. لقد كرهت غوليادكين. الكثير فيه مكتوب على عجل وفي تعب وضنى. النصف الأول من الرواية أفضل من نصفها الأخير. وإلى جانب الصفحات المتألقة هناك غث وقذى يدفعان إلى الغثيان ويشطبان الرغبة في القراءة. هذا ما جعل حياتي جحيماً لبعض الوقت وأحزنني لحد المرض. سأبعث لك، يا أخي، غوليادكين بعد أسبوعين. وستقرأه، فاكتبْ لي عن رأيك كاملاً فيه.

أترك حياتي وتدريباتنا جانباً وأحدثك عن بعض أخبارنا. الخبر الأول والأكبر أن بيلينسكي يترك «مذكرات الوطن». تدهورت صحته وينوي الذهاب إلى المياه (المعدنية) وربما إلى الخارج. ولن يكتب نقداً قرابة عامين. إلا أنه سيصدر حولية ضخمة (60 ملزمة) لدعم أحواله المالية. أنا أكتب له قصتين غير طويلتين: 1. «حليق الفودين»، و2. «قصة المكاتب المدمرة»، وكلتاهما بمضمون مأساوي مثير ومكثف للغاية. الجمهور ينتظرني بفارغ الصبر. وإلى ذلك أكتب شيئاً ما لكرايفسكي ورواية لنكراسوف. كل ذلك سيشغلني عاماً. أنا الآن على وشك الانتهاء من «حليق الفودين»[(2)].

الخبر الثاني: ظهر لفيف كبير من الكتّاب الجدد. منافسون لي من نوع آخر. ومن أبرزهم اسكندر هيرتسين وغونتشاروف. الأول نشر، والثاني بادئ لم ينشر بعد شيئاً. يحظيان بثناء كبير. قصب السبق لا يزال في يدي، وآمل أن يبقى في يدي إلى الأبد. عموماً لم يكن الأدب يغلي في فترة ما كما يغلي الآن. وهذا من بشائر الخير.

ثالثاً، سآتي إليكم إما في وقت مبكر جداً أو في وقت متأخر

جداً، أو لا آتي عموماً. أنا مدين، ولن تكون لدي نقود، من دون نقود لن آتي إليكم مطلقاً، ثم إنني غارق في العمل. القول الفصل للمستقبل.

رابعاً. شيدلوفسكي استجاب. أخوه زارني. وقد بدأت المكاتبات معه.

خامساً. إذا أردت يا صديقي الحبيب أن تكسب شيئاً في مضمار الأدب فثمة فرصة للظهور والتأثير من خلال ترجمة «رينيكه فوكس» لغوته. طُلب منّي أن أكلفك بالترجمة لأنها ضرورية لحولية نكراسوف. ترجمْها إذا أردت. ولا تستعجل. وحتى لو لم أصلكم في 15 مايو أو 1 يونيو يمكنك أن ترسل الترجمة إذا كانت جاهزة. الجميع يتفرقون للاصطياف. وإذا توفرت الفرصة يمكن أن أنشرها في الربيع، وأجلب لك النقود. وإذا لم أوفق في الربيع ففي الخريف حتماً. وستتوفر النقود حتماً أيضاً. نكراسوف ناشر يشتري، وبيلينسكي يشتري، وبيوتر راتكوف يشتري كذلك، أما كرايفسكي فهو تحت تصرفي. والقضية مربحة. دار بيننا حديث عن هذه الترجمة. ولذا ابدأ إذا أردت، وأنا أتعهد بالنجاح الباهر. إذا ترجمت ثلاثة فصول أرسلها لي، لأعرضها على السادة ، ولعلهم يدفعون الأجر سلفاً.

لم يحصل حتى الآن أن كنت مشغولاً بالنشاطات لهذا الحد. كل شيء يجري، كل شيء يغلي... ولكن هل سيحصل المنشود؟ وداعاً يا حبيبي!

إلى اللقاء يا عزيزي. أقبّلكم جميعاً وأتمنى لكم كل خير. وأقبّل كلتا يدي إميليا. والطفلين أيضاً. وأنت، كيف حالك؟ اكتبْ لي عن صحتك. ما أشد رغبتي في رؤيتك يا صديقي. ولكن ما العمل؟

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: فيرا تزوجت منذ ثلاثة أشهر. ويقال إنها سعيدة. الخال (كومانين) أعطاها بقدر ما أعطى باربارة. اكتبْ له. تزوجت من إيفانوف، صاحب السعادة، وهو في الثلاثين من العمر. بروفيسور في الكيمياء. فيرا كتبت لي، وتقول إنها كتبت لك أيضاً.

---

(1) من «مذكرات مجنون» لغوغول.

(2) لم يكمل دوستويفسكي هاتين القصتين. وفيما بعد انعكست جوانب منهما في مؤلفات أخرى.



26. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 26 أبريل 1846

أخي الكريم!

لم أكتب لك لأنني لم أتمكن حتى اليوم أن ألتقط الريشة، فقد كنت مريضاً، على شفا الموت بكل معنى الكلمة. كنت مريضاً بأشد درجة من حساسية النظام العصبي كله، فيما اتجه المرض صوب القلب وأحدث فيضاً في الدم والتهاباً في القلب أمكن وقفه بشق الأنفس بواسطة ديدان العلق والفصد مرتين. وإلى ذلك أنفقت كل ما لدي على مختلف النقوع والقطرات والمستحضرات والمخاليط وما يماثلها من الأشياء المقيتة. حالياً لا خطر عليَّ. ولكن المرض بقي معي، لأن الطبيب يقول إن ممهدات المرض موجودة من قبل ثلاث أو أربع سنين، ولذا فإن الشفاء منه يتطلب وقتاً. والعلاج يجب أن يكون بدنياً ومعنوياً. 1) حمية وحرمان بدني متواصل كما وصف الطبيب. 2) استبدال الأمكنة، وتحاشي كل الانطباعات والهزات المؤثرة وتأمين حياة متوازنة هادئة وأخيراً التقيد بالنظام في كل شيء. هذه المرة الرحلة إلى ريفيل، ليس للاستحمام، فهو يعتبر مضراً بالنسبة

لي، بل لتغيير المكان ونمط المعيشة، إنما ستغدو وسيلة علاجية ناجعة. ولمّا كنت خالي الوفاض، وهذه الرحلة تحتاج إلى مبلغ كبير جداً ، ليس من أجل ريفيل، بل على الأكثر للنفقات وتسديد الديون في بطرسبورغ، ولذا، على ما يبدو ، تتوقف حياتي كلها تقريباً وكذلك صحتي على كرايفسكي. فإذا أعطاني النقود سلفاً سأجيء إليكم، وإن لم يعطني لن أجيء. ولذا لن أكتب بعد هذه الرسالة ثلاثة أسابيع تقريباً أكون بعدها عندكم بشخصي الكريم أو لا أراكم طول الصيف.

أكتب إليك باستعجال وبهدف معيَّن. لدي رجاء إليك أنتظر منك أن تلبيه وتحاول بكل الجهود. ألا وهو: بيلينسكي مسافر إلى موسكو لقضاء الصيف. توجه اليوم. ثم يقوم مع صديقه الممثل شيبكين وآخرين بجولة في جنوب روسيا، وفي روسيا الصغرى (أوكرانيا) وأوديسا والقرم. وسيعود في سبتمبر ويهتم بمجلته الدورية. فيما تتوجه زوجته مع أختها ورضيعتها البالغ عمرها عاماً واحداً إلى هابسال[1]. ربما سآتي معهما، أو لا آتي. الباخرة تتوقف عندكم في ريفيل بضع ساعات. والمشكلة أنه لم يعد هناك من يسافر معهما إلى جهة غريبة وإن كان لفترة الصيف فقط. ولذا بقيتا من دون حاضنة. ولا يمكن تكليف حاضنة من هنا، لأنها عاجزة عن تسديد المبلغ الكبير عند الحدود. ولذا طلبتا مني أن أكتب إليك عن رجائهما التالي: اعتباراً من تاريخ استلام رسالتي هذه أن تحاول جهدك ، وأنا أرجوك أيضاً، للبحث عن حاضنة في ريفيل ألمانية حتماً وليس إستونية، في سن متقدمة إن أمكن، توافق على السفر معهما إلى هابسال حتى سبتمبر. الراتب المقترح 15 روبلاً ورقياً في الشهر، وإذا وافقت على الذهاب معهما فيما بعد إلى بطرسبورغ يكون الراتب 25

روبلاً، فليس بوسعهم الدفع أكثر. ومفهوم أن المطلوب هو البحث عن امرأة ذات سمعة طيبة، باختصار حاضنة معتبرة. وبالعثور عليها ينبغي تهيئتها للرحيل في أية لحظة اعتباراً من 5 مايو، ذلك لأن الباخرة تتوقف في ريفيل 4 ساعات وخلالها تأتيك السيدة بيلينسكايا وتبعث أنت في طلب الحاضنة فيتم ترتيب الأمر. هذا ما يقترحونه. والمشكلة هل ستوافق أنت، بينما أبتهل أنا إليك ساجداً من أجل ذلك. أرجوك وأستعطفك من أجلي شخصياً. فأنا أحب هؤلاء الناس وأحترمهم. أرجوك كل الرجاء. أرجوك مع إميليا، فحاولا. السيدة بيلينسكايا ضعيفة جداً ومتقدمة في السن ومريضة مضطرة للسفر وحدها مع طفلتها. ولا أفضل من الخدمة عندها. خاصة وأنهم أناس طيبون ومكتفون وحسنو المعشر. والحاضنة عندهم حاضنة فقط، لا تؤدي أي أعمال أخرى. حاول، يا أخي، باللّه عليك. وإلى ذلك أجبني بأسرع ما يمكن. عائلة بيلينسكي يمكن أن تصل إلى ريفيل في العاشر من الشهر. اكتبْ لي بسرعة وأوضح ما إذا كانوا يقبلون ركاباً على الباخرة المتجهة من بطرسبورغ إلى هابسال عبر ريفيل؟ وإلا لن ينقلوا الحاضنة بالباخرة.[2]

عليّ أن أنهي إحدى القصص غير الطويلة قبل السفر، مقابل المبلغ الذي أخذته من كرايفسكي، ثم أستطيع أن أستدين.

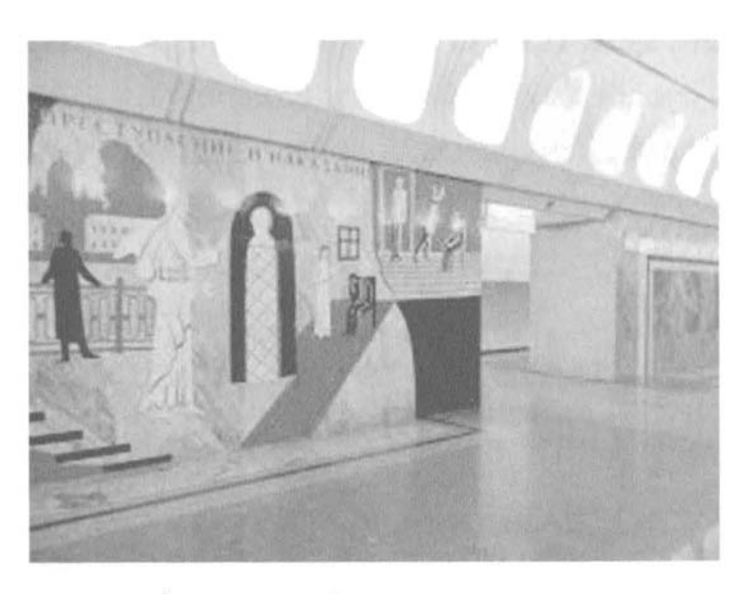
الحياة في أدبنا تغلي على قدم وساق. الجديد لا يحيطه الوصف. والآمال عريضة. سأحدثك عندما نلتقي. والآن وداعاً.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أنتظر رسالتك بفارغ الصبر. كل الحب والاحترام إلى إميليا، وإلى (الصغيرين) فيودور وماريا.

---

(1) مدينة في إستونيا على بحر البلطيق.
(2) رسالة ميخائيل دوستويفسكي الجوابية مفقودة.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

27. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 5 سبتمبر 1846

ها أنا، يا أخي الحبيب، أخبرك بأني وصلت على أية حال إلى بطرسبورغ ونزلت، كما أردت، عند تروتوفسكي. لم أشعر بغثيان البحر، لكنني تبللت حتى العظام في الطريق وهنا في بطرسبورغ وأصابني الاستبراد، مع السعال والرشح. كل ذلك في أشد درجاته. في البداية شعرت بضجر لا يطاق. مضيت لأستأجر شقة واستأجرت من الأهالي غرفتين صغيرتين مؤثثتين مع خادمة بـ 14 روبلاً فضياً. لكنني لم انتقل بعد. العنوان: مقابل كاتدرائية قازان في دار كوخيندورف رقم 25. اكتبْ لي سريعاً على هذا العنوان، لأنني أتشوق إلى رسالة منك. فأنا في حزن شديد.

عائلة بيلينسكي[1] وصلت (معي) بسلام، ولم أرهم منذ (توديعهم في) المرفأ. خلال اليوم التالي عرجت على نكراسوف. وهو يعيش في شقة واحدة مع باناييف، ولذا التقيت الجميع. الحولية في طريقها إلى الصدور، ولا بد من الإستعجال. ولم أرغب في السؤال عن الكشك ولا أدري، ربما أموره تسير أيضاً. وإليك هذا الخبر الجديد:

لكي أعرف عنوان نكراسوف ذهبت إلى بروكوبوفيتش، فأوضح لي سبب رحيل الرجل إلى ريفيل. وكان يحتفظ بهذا السبب بين الأسرار، لمختلف المبررات السياسية، ولم يخبر حتى بروكوبوفيتش الذي حزر بالأمر بناء على معطيات متنوعة. جاء ليلتقي مع ماسالسكي كي يشتري منه «ابن الوطن». ويبدو أن الأمر يسير كما ينبغي، وقد تظهر عندنا مجلة جديدة مع حلول العام الجديد.

لم أحدثك بشيء عن غوغول. فإليك هذه المعلومة. في الشهر القادم ستنشر «المعاصر» مقالة لغوغول هي وصيته الروحية التي يتبرأ فيها من جميع مؤلفاته ويعتبرها بلا فائدة، بل وأدهى من ذلك. ويقول إنه لن يلتقط الريشة مدى العمر، لأن مهمته هي الصلاة والابتهال. ويوافق على جميع انتقادات خصومه. ويأمر بنشر صورته بأكبر قدر من النسخ وتخصيص عائداتها لمساعدة الحجاج المتوجهين إلى القدس وغيرها. تلك هي المسألة. فتأمل!

زرت أيضاً كرايفسكي. بدأ بتنضيد «بروخارتشين» وستصدر في أكتوبر. ولم أتطرق بعد إلى النقود. يازيكوف افتتح مكتباً وعلق رقعة. في الشارع مطر مدرار، والخروج صعب. لا أزال أقيم عند تروتوفسكي، وغداً سأنتقل إلى الشقة الأخرى. بخصوص المعطف لم أفعل شيئا بسبب الأشغال والأمطار. أريد أن أعيش بمنتهى التواضع. وأتمنى لك الشيء ذاته. ينبغي المضي في العمل رويداً رويداً. مَن يعشْ يَرَ. والآن وداعاً. أنا مستعجل. بودّي أن أكتب الكثير، لكن الصمت أفضل أحياناً. اكتبْ لي. أنتظر منك جواباً بأسرع ما يمكن. أقبِّل الصغيرين. تحياتي إلى إميليا. كما أحيي الآخرين أيضاً. في البريد القادم سأكتب أكثر. هذه الرسالة مجرد تبليغ. وداعاً. أتمنى

لك كل خير، يا صديقي الغالي. وأهم ما أتمناه لك الآن هو الصبر والصحة الجيدة.

المخلص

أخوك ف. دوستويفسكي

---

(1) أمضت زوجة بيلينسكي ورضيعتها وأختها الصيف في ريفيل ولم تواصل رحلتها، وتعرفت على عائلة ميخائيل دوستويفسكي.



28. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 17 سبتمبر 1846

أخي العزيز!

أبعث إليك المعطف. واعذرني على التأخير. وهو ليس من جانبي. كنت أبحث عن الشخص الذي أعرفه، إلى أن وجدته. وما كان بوسعي أن أشتريه من دونه. فللمعطف مزاياه وعيوبه. من مزاياه أنه كامل تماماً وكأنه مزدوج، ولونه مقبول، رمادي، معتدل. ومن عيوبه أن قماشه بسعر 8 روبلات ورقية للمتر. لم نجد أفضل. وبالمقابل بلغ ثمنه 82 روبلاً ورقياً لا غير. باقي النقود أنفقت على الطرد. (. . .)

لم أكتب لك لحد الآن بسبب المعطف. وقد أخبرتك بأني استأجرت شقة. أموري ليست سيئة. لكنني لا أمتلك نقوداً تقريباً للمستقبل. كرايفسكي أعطاني 50 روبلاً فضياً، ومن تعابير وجهه يبدو أنه لن يعطيني أكثر. وعليّ أن أصبر وأتحمَّل.

«بروخارتشين»[1] تشوّهت لحد مرعب في المكان المعهود. فالسادة هناك منعوا حتى استخدام مفردة الموظف وشطبوها في كل

مكان، واللّه وحده يعلم لماذا، رغم أن كل شيء (في المتن) بريء تماماً. واختفى كل ما هو حي. لم يبق سوى هيكل عظمي لما قرأته عليك. (أريد أن أتبرأ من قصتي).

ليس لدينا جديد. كل شيء على حاله. ننتظر بيلينسكي. السيدة بيلينسكايا تبلغك تحياتها. كل المشاريع تراوح في مكانها، أو ربما تحيط بها غلالة من الكتمان. الشيطان وحده يعلم.

أنا أتناول طعامي مع الجماعة. في عائلة بيكيتوف ستة أشخاص من معارفهم، وأنا منهم، وكذلك غريغوريفيتش، كل منا يدفع 15 كوبيكاً فضياً في اليوم الواحد ونحصل على غداء صاف جيد من طبقين. والجميع مسرورون. بمعنى أنني أنفق على وجبة الغداء 16 كوبيكاً.

أكتب لك مستعجلاً. لأنني تأخرت. والساعي ينتظر حاملاً الطرد ليوصله إلى البريد. لدي إشكالات أكثر مما كانت لديك عندما تألمت أسنانك. أخشى أن يصلك المعطف متأخراً. ما العمل؟ لقد بذلت جهدي قدر ما أستطيع.

لا أزال أكتب «حليق الفودين». ببطء شديد. وأخشى أن أتخلف عن الموعد. سمعت من سيدين (. . .) أن أهالي المحافظات يسمون حولية «مجموعة بطرسبورغ» لا باسمها بل «بالفقراء». ولا يقرأون مما في المجموعة سوى الرواية، رغم التنافس على شرائها بثمن مرتفع. وفي أكشاك الكتب في بينزا وكييف مثلاً بلغ ثمن النسخة الواحدة رسمياً 25 و30 روبلاً ورقياً. حالة غريبة. (المجلة) مهملة هنا، وهناك يتهافتون عليها.

كتب غريغوريفيتش قصة جيدة للغاية بتشجيع مني ومن مايكوف. والأخير، على فكرة، ينوي كتابة مقالة وافية عني لمناسبة الأول من

أبريل. قصة غريغوريفيتش[2] ستنشر في «مذكرات الوطن» التي باتت فقيرة تماماً، وليس في حقيبتها ولا قصة واحدة.

أنا هنا في حالة من الكآبة القاتلة. وأنا أعمل بشكل أسوأ. عشت عندكم كما في الجنة. لكنني بطباعي، يا للشيطان، أحول كل الطيبات إلى أدران. أتمنى لإميليا صادقاً الراحة والرفاه وموفور الصحة والعافية. أنا أفكر فيكم كثيراً. أجل، يا أخي، المال والرفاه شيء جيد. أقبِّل ابنك وابنتك. وداعاً. في الرسالة القادمة سأكتب أكثر. أما الآن فلا تزعل مني باللّه عليك. أتمنى لك الصحة، ولا تأكل بهذا القدر الكبير من لحم البقر.

عنواني:

قرب كاتدرائية قازان، في ركن شارع ميشانسكايا الكبير وساحة الكاتدرائية، دار كوخيندورف 25.

وداعاً.

أخوك ف. دوستويفسكي

رجاءً حاول أن تأكل طعاماً صحياً، من دون فطر ولا خردل وما يماثلهما من أدران، باللّه عليك.

---

(1) قصة «السيد بروخارتشين» لم ترأف بها الرقابة.

(2) «القرية».

29. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 26 نوفمبر 1846

كيف استطعت، يا صديقي الغالي، أن تكتب بأنني زعلان منك لعدم إرسال النقود، ولذلك لا أتواصل معك؟ كيف تخطر فكرة كهذه في بالك؟ ثم ما هي الذريعة التي جعلتك تفكر فيّ بهذه الصورة؟ إذا كنت تحبني فاعمل معروفاً وامتنع في المستقبل عن مثل هذه الأفكار إلى الأبد. حاولْ أن يكون كل شيء فيما بيننا صريحاً بسيطاً. وأقول لك علناً وبصراحة إنني مدين لك بالكثير وإن عدم الاعتراف بذلك من جانبي دناءة وسفالة ومثارة للسخرية. فيكفي الكلام عن ذلك. الأفضل أن أكتب الآن عن ظروفي وأحاول إطلاعك على كل شيء بمزيد من الوضوح.

أولاً- كل مشاريعي للنشر فشلت. لم تكن تستحق الاهتمام، وشغلت وقتاً كثيراً وكانت سابقة لأوانها. ولربما ما كان الجمهور سيستجيب. سأقوم بالطباعة في الخريف القادم. حتى ذلك الحين سيتعرف الجمهور عليّ أكثر، وسيكون موقفي واضحاً. زد على ذلك أنني أنتظر استلام عدة سلف. «الشبيه» تم تزيينها من قبل أحد رسامي

موسكو. «الفقراء» يجري تزيينها هنا في مؤسستين على أساس التنافس. برناردسكي يقول إنه لا يمانع في بدء محادثات معي في فبراير وتسليمي مبلغاً معيناً مقابل حق النشر في «المصور». وحتى ذلك الحين ينشغل مع «النفوس الميتة». باختصار لم أعد أبالي بالإصدارات لحين من الوقت. ثم إنني في شغل شاغل عن هذه الأمور. العمل والطلبيات الموجهة إليّ بلا نهاية. وأقول لك إنني تشاجرت نهائياً للأسف الشديد مع «المعاصر» بشخص نكراسوف. فقد أحزنه أنني أعطي كرايفسكي قصة على أية حال، فأنا مدين له، وانني لا أريد أن أعلن على الملأ أنني لا أنتمي إلى «مذكرات الوطن»، ويئس من الحصول على قصة مني في القريب العاجل، فأغلظ لي الكلام وطالبني بإعادة النقود. ولقد أدنته من لسانه ووعدته في رسالة مقابلة بأني سأسلمه المبلغ في 15 ديسمبر. أريد لهم أن يأتوا إليَّ بأنفسهم. إنهم جميعاً أنذال وحساد. عندما سلطت اللوم على نكراسوف أخذ يجرجر قدميه ومضى كيهودي سرقت نقوده. باختصار، تلك حكاية قذرة. والآن يشيعون بأنني مصاب بحب العظمة أفكر في نفسي وأنساق إلى كرايفسكي لأن مايكوف يمتدحني. نكراسوف ينوي ملامتي. أما بيلينسكي فهو شخص ضعيف لا يستقر له رأي حتى في المداولات الأدبية. معه فقط حافظت على العلاقات الطيبة السابقة. فهو إنسان نبيل. فيما فرح كرايفسكي للمناسبة وأعطاني نقوداً ووعد، فضلاً عن ذلك، بتسديد كل ديوني حتى 15 ديسمبر. وبالمقابل أنا أعمل له حتى الربيع. لاحظ، يا أخي، أنني استخلصت من ذلك كله قاعدة حكيمة. أول تصرف خاسر بالنسبة للموهبة الناشئة هو الصداقة مع دهاقنة المطبوعات، والتي تنجب المحسوبية وتعقبها مختلف الفواحش. ثم التبعية، وأخيراً العمل في

سبيل «الفن للفن»، وهو عمل طاهر مقدس من صميم القلب الذي لم ينبض في السابق أبداً ولم يتحرك كما ينبض عندي الآن أمام كل الصور الجديدة التي ترتسم في روحي. إنني ، يا أخي، في حالة إحياء وإنعاش بدني، إضافة إلى المعنوي. لم يكن لدي مثل هذا القدر من الوفرة والوضوح والهدوء في الطباع والصحة البدنية. وأنا مدين بذلك كثيراً لأصدقائي الطيبين من عائلة بيكيتوف وكذلك زالوبيتسكي وآخرين ممن أعيش معهم. إنهم أناس أذكياء جادون بأريحية عالية وطبع نبيل. لقد شفيت بفضل وجودهم حولي. وأخيراً اقترحت عليهم أن نقيم معاً. فوجدنا شقة كبيرة كل نفقاتها على جميع الجوانب المعيشية لا تتجاوز 1200 روبل ورقي للشخص الواحد في العام. تلك هي ثمار الروابط الاجتماعية. لدي غرفتي الخاصة، أعمل فيها طول الوقت. عنواني جديد أرجوك أن تكتب لي عليه: جزيرة فاسيليفسكويه، الخط الأول، جنب الطريق العام ، في دار سولوشيتش 26 مقابل الكنيسة اللوثرية.

أهنئك، يا صديقي العزيز، بالمولود الثالث، وأتمنى لك وله ولإميليا كل خير. أنا الآن أحبكم ثلاث مرات أكثر. ولكنْ لا تزعل مني، يا أخي الغالي، لأنني أكتب قصاصة ورق، وليس رسالة معتبرة. لا وقت لدي. ينتظرونني. وسوف أكتب لك مرة أخرى يوم الجمعة. فاعتبر هذه الرسالة غير مكتملة.

صديقك ف. دوستويفسكي

30. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، 17 ديسمبر 1846

ماذا حدث لك، يا أخي الحبيب، حتى لزمت الصمت؟ مع كل بريد أنتظر شيئاً منك، ولا كلمة. أنا قلق. كثيراً ما أفكر فيك، وفي أنك تمرض أحياناً وأخشى أن أخرج باستنتاجات. اكتبْ لي ولو سطرين، باللّه عليك. اكتبْ لي رجاءً وهدئ أعصابي. ربما كنت تنتظر بقية رسالتي الأخيرة، ولكن لا تزعل مني لأني غير منضبط من حيث تنفيذ الوعود. أنا الآن غارق في العمل. وقد التزمت أن أسلّم إلى كرايفسكي في 5 يناير الجزء الأول من رواية «نيتوشكا نيزفانوفا» التي ربما قرأت خبر نشرها في «مذكرات الوطن». أكتب هذه الرسالة على فترات متقطعة، لأنني مشغول في التأليف ليل نهار، ما عدا الساعة السابعة مساءً حيث أتردد على «الأوبرا الإيطالية» للترفيه عن النفس وأستمع في الجاليري إلى إنشاد مغنينا الذين لا يجاريهم أحد. صحتي جيدة. ولا داعي للكتابة عنها أكثر. أكتب بحماس كبير. ويخيل إليَّ أنني دخلت في عملية مع أدبنا كله، مع المجلات والنقاد وثلاثة أجزاء من روايتي في «مذكرات الوطن»، وأرسم أسبقيتي

وتفوّقي لهذا العام أيضاً رغم أنف خصومي. كرايفسكي صعر خده. وهو يكاد يهلك. أحوال «المعاصر» ليست باهرة. وقد بدأ تبادل إطلاق النار فيما بينهم.[1]

اسمع يا أخي، أنا لن أسافر إلى الخارج في هذا الشتاء ولا في الصيف، بل سآتي من جديد إليكم في ريفيل. وأنتظر الصيف بفارغ الصبر. في الصيف سأعيد تنقيح المكتوب، وأستعد للنشر في الخريف، وآنذاك لكل حادث حديث. هل الجميع عندكم في صحة جيدة يا أخي؟ أليست إميليا متوعكة؟ أطالبك بالجواب على هذه الرسالة فوراً. أنا أقيم، كما أبلغتك يا أخي، عند بيكيتوف في جزيرة فاسيليفسكويه. ليس هناك ملل، الموقف طيب، والكلفة ليست عالية. أزور بيلينسكي أحياناً. وهو مريض طول الوقت. ولكن بآمال عريضة. السيدة بيلينسكا وضعت مولوداً جديداً.[2]

أنا أسدد كل ديوني من خلال كرايفسكي. ومهمتي هي أن أعمل من أجله طوال الشتاء كيلا أكون مديناً ولا بكوبيك واحد في الصيف. سأتخلص من الديون في وقت ما. فالمصيبة هي العمل أجيراً عند أحد. إنه يفتك بكل شيء، بالموهبة والفتوة والأمل، فتتردى الجهود ويتحول الشخص في الأخير إلى متأدب ملوث وليس كاتباً حقيقياً.

وداعاً يا أخي. لقد شغلتني عن الصفحة الأكثر إثارة في الرواية، فيما ينتظرني عمل كثير. آه، يا عزيزي! حبذا لو وُفقتَ. يشدني الشوق إلى رؤيتك بأسرع ما يمكن، إلى رؤيتك بعد أن نحدد موقفي ونحل مشكلتي. لقد قيدت يدي وقدمي بسلاسل متعهدي نشر مؤلفاتي، بينما تأتيني من جهات أخرى عروض مغرية. «المعاصر» التي تريد أن تنتقدني بريشة نكراسوف إنما تعرض عليَّ 60 روبلاً فضياً، ما يعادل 300 روبل ورقي في «مذكرات الوطن» و250 روبلاً

في «مكتبة المطالعة» وهلمجرا مقابل كل ملزمة من مؤلفاتي وأنا لا أستطيع أن أعطيهم شيئاً لأن كرايفسكي وضع يده على كل شيء مقابل 50 روبلاً فضياً أعطاني إياها سلفاً. على فكرة: غريغوريفيتش نشر روايته «القرية» في «مذكرات الوطن» وأثارت الإعجاب عندنا. وداعاً يا أخي الوفي تحياتي إلى إميليا و(الصغار) فيودور وماريا وميخائيل. هل نسيني الأطفال أم لا؟ تحياتي إلى رينهارت والآخرين. هل تتردد عليكم آنا إيفانوفنا؟[3] تحياتي أيضاً إلى جميع المعارف القدامى..

المخلص لك دوماً

ف. دوستويفسكي

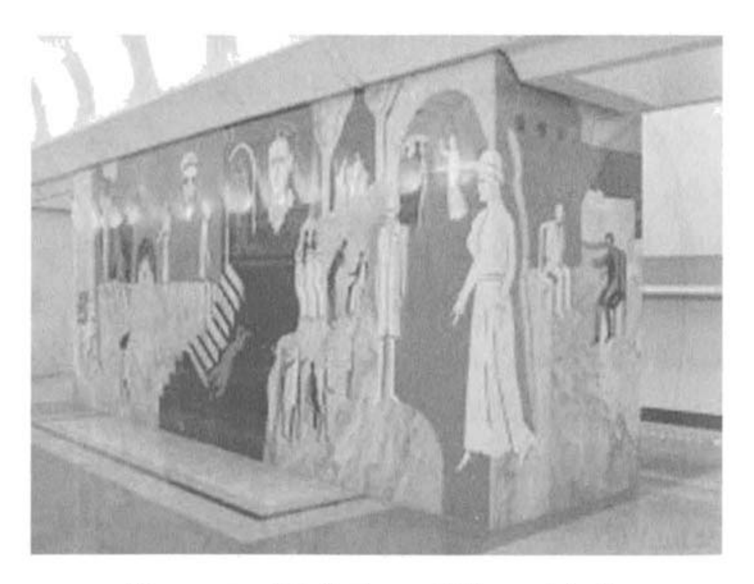
ملحوظة:

عنواني جزيرة فاسيليفسكويه، الخط الأول، على الشارع العام، دار سولوشيتش 26، شقة بيكيتوف.

والآن يا أخي تعال إلى بطرسبورغ في عيد المرافع لهذا العام. ولو لأسبوعين. تعال من كل بد. السكن والغذاء لن يكلفانك شيئاً. الشاي والسكر وباقي المؤونة أيضاً. ولن تنفق على النثريات تقريباً. وستكون الرحلة كلها زهيدة للغاية. فما رأيك؟ ها..؟ فكر في الموضوع. فماذا يكلفك؟ سأكون مسروراً جدًا لرؤيتك. وسيسرك أنت أيضاً المكوث في بطرسبورغ. بل إنك لا تحتاج إلى أية نقود لتأتي إلى هنا. أنا مدين لك وسأدفع ثمن كل المتطلبات. وسنحصل على نقود. تعال يا أخي باللّه عليك. أنت. هل يعقل أنك تريد أن تصل إلى حالة يحتاج فيها سحبك من ريفيل إلى كماشة؟ تعال في أسبوع المرافع. أقولها بلا مزاح.

---

(1) لعل دوستويفسكي يقصد السجال بين مايكوف وبيلينسكي. في تلك الفترة.
(2) ولدت زوجة بيلينسكي صبياً سرعان ما توفي.
(3) ربما المقصودة خطيبة مايكوف.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

31. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، يناير - فبراير 1847

أخي الكريم!

من جديد أستميحك عذراً لأنني لم أف بوعدي ولم أكتب لك مع البريد التالي. كل هذا الوقت استولت عليَّ كآبة شديدة أعاقتني عن الكتابة. فكرت فيك كثيراً وبألم هو العذاب بعينه. مصيرك صعب، يا أخي الحبيب. الحياة لا تطاق بمثل صحتك وأفكارك من دون أناس حواليك، وبالملل بدلاً من الأفراح، وبالعائلة التي تشكل عبئاً تقيلاً رغم قدسية السهر عليها وفرحة رعايتها. ولكن ليس لك، يا أخي، أن تنساق للأحزان. فستنكشف الغمة. وكلما كانت الروح فينا وفيرة زاخرة، وكلما كان محتوانا الداخلي غنياً، بدا ركننا في الحياة أكثر بهاءً وجمالاً. بديهي أن عدم التناغم وغياب التوازن في المجتمع شيء رهيب. واللازم أن يكون المحيط الخارجي متوازناً مع الباطن الداخلي. وإلا يعلو الباطن إلى درجة خطيرة جداً في ظل غياب الظواهر الخارجية. وتشغل الأعصاب والخيال مجالاً واسعاً جداً في الكائن الحي. وتبدو كل ظاهرة خارجية، بسبب عدم التعود عليها،

ضخمة ومخيفة بعض الشيء. وينتاب المرء خوف من الحياة. وقد حالفك الحظ حيث منحتك الطبيعة حباً غامراً وطباعاً قوية. ولا يزال فيك فكر سليم متين وبوارق من الفكاهة والمرح كالمجوهرات. وهذا كفيل بإنقاذك. أنا أفكر فيك كثيراً. ولكن، يا إلهي، ما أكثر الحكماء والعرافة الطاعنين في السن وفقهاء الحياة المرائين من ضيقي الأفق المقيتين الغدارين الذين يتباهون بالخبرة والحنكة، أي بغياب الهوية، لأنهم مصهورون بمقياس واحد، ويروجون طول الوقت للقناعة بالمصير والإيمان بشيء محدود في الحياة والرضا بالمكانة التي هم فيها دون أن يتفهموا مغزى هذه الكلمات، وهي قناعة أشبه بعذاب وقيود الاعتكاف في الأديرة، ويستنكرون بغضب تافه لا ينضب الروح القوية الفوارة التي لا تطيق توقيتاتهم اليومية المبتذلة وتقويم حياتهم الخاوي. إنهم سفلة أنذال بما يتحدثون عنه من سعادة دنيوية أسطورية. أنذال ولا شيء آخر. نصادفهم أحياناً فنشتاط غضباً ونتضور ألماً.

حالياً على سبيل المثال عكّر عليَّ عملي الثرثار الثقيل الظل سفيريدوف بزيارة مما اعتادت عليه النخبة الفطينة. ويخيل إليَّ، يا أخي، أنه أكثر الحمقى لجاجة وثقلاً. جاء بسؤال من كتابات المحللين وبصفحات عتيقة متنوعة تبدو تافهة لا نفع فيها. ويرجوني أن أتوسط له عند بيكيتوف بشأن تنقيح هذه الصفحات. إنه إنسان مضحك. هو نفسه لا يفقه شيئاً في هذه الأوراق ويريد من الآخرين أن يجربوا حظهم لعلهم يفهمون. (. . .)

إلا أن الوقت يمضي. وكان بودّي أن أكتب لك الكثير. وللأسف الشديد تعثّر كل شيء. ولذا أكتفي بكتابة شيء ما عن نفسي. أنا أعمل، يا أخي، ولا أريد تقديم شيء قبل أن أنتهي منه. والحال

النقود غير متوفرة. ولولا وجود الطيبين من الناس لهلكت. ظهور شهرتي في المجلات يمنحي منافع أكثر من الأضرار. ما يدفع المعجبين بي، وهم كثيرون جداً على ما أعتقد، إلى تلقف الجديد والدفاع عني. أنا أعيش في فقر مدقع. ومنذ أن غادرتك أنفقت 250 روبلاً فضياً بالإضافة إلى 300 روبل فضي على تسديد الديون. وكانت ضربة نكراسوف هي الأشد. فقد أعدت له سلفة الـ 150 روبلاً فضياً لعدم رغبتي في التواصل معه. وفي الربيع سآخذ من كرايفسكي قرضاً كبيراً وأرسل إليك حتماً 400 روبل. وهذا عهد أمام اللّه. لأن انشغال بالي بك يؤرقني أكثر من أي شيء آخر. ومن المستبعد أن أصل إلى هلسينغفورست مبكراً. لأنني ربما سآخذ علاجاً بالماء البارد للشفاء النهائي على طريقة بريسنيتس. ولذا سآتي في يوليو على الأرجح. والحقيقة، يا عزيزي، أنني لا أدري بعد. مستقبلي بعيد. ولكنني لن أتزحزح الآن حتى لو أرعدت الدنيا وأبرقت فوق رأسي. أنا أعرف كل ما أستطيع القيام به ولن أقصر في عملي وسأصحح أوضاعي المالية بالنجاح في تسيير أمور الكتاب الذي سأصدره في الخريف[1]. سفيريدوف اللعين! حوالى ساعتين. حاولت بكل السبل أن ألمح له بأن لا وقت لدي. لكنه ظل جالساً يثرثر عن كيفية طرحه لسؤالك وعن أهمية مساعدتك له وكيف سيسافر إلى القوقاز ويؤلف عن عالم النبات هناك كتاباً غير مسبوق. فليذهب إلى الشيطان. إنه مهرج. صحيح أنني أتكلم مع أشخاص آخرين أحياناً وكأنني خرجت تواً من أحد المكاتب الإدارية. لكنه شغلني عنك يا حبيبي. حافظ على نفسك يا أخي. وخصوصاً على صحتك. خذ قسطاً من الترفيه، ولا تنس أن تتمنى لي إنجاز العمل بأسرع ما يمكن. فبعده تأتي النقود وأستطيع عندئذ أن أكون عندك. العلاج بطريقة بريسنيتس مجرد فكرة.

فالأطباء ربما لن ينصحوا به. ما أشد رغبتي في رؤيتك. أحياناً تنتابني كآبة قاتلة. وأتذكر أحياناً كم كنتُ فظاً ثقيلاً عليكم في ريفيل. لقد كنت مريضاً يا أخي. وأتذكر كيف قلت لي مرة إن تعاملي معك يشطب المساواة فيما بيننا. يا أخي الحبيب، لم يكن في ذلك شيء من العدالة. إلا أن طباعي مقيتة منفّرة. وأنا دوماً أقدرك أكثر وأفضل مما أقدر نفسي. أنا مستعد أن أضحّي بحياتي من أجلك ومن أجل أسرتك، ولكنني أحياناً، وعندما يكون قلبي مفعماً بالمحبة، بخيل ولا تحصل مني على كلمة ملاطفة. أعصابي لا تنصاع لي في تلك اللحظات. أنا كريه مثير للضحك والسخرية ولذا أعاني دوماً من التقويمات المجحفة بحقي. يقال إنني متخشب لا قلب لي ولا عواطف. فما أكثر ما أخشنتُ القول لإميليا، تلك المرأة النبيلة التي هي أفضل مني ألف مرة. وأتذكر كيف كنت أحياناً أغضب متعمداً على فيودور الصغير الذي كنت أحبه في الوقت ذاته حتى أكثر منك. أنا لا أستطيع أن أبدو إنساناً ذا فؤاد وعواطف ومحبة إلا عندما تنتزعني الملابسات الخارجية والمصادفات عنوة من دناءة الأيام. وحتى ذلك الحين أبقى حقيراً مقيتاً. وأنا أنسب سبب هذه اللامساواة إلى المرض. هل قرأت «لوكريتسيا فلورياني»[2] لاحظ (شخصية البطل) كارول. إلا أنك ستقرأ قريباً (روايتي) «نيتوتشكا نيزفانوفا». وهي عبارة عن اعتراف مثل غوليادكين، ولو بلهجة أخرى ومن نوع آخر. بشأن غوليادكين سمعت من الكثيرين بصورة غير مباشرة إشاعات تثير الهلع. البعض يقولون صراحة إن هذه الرواية أعجوبة لم يفهمها القراء. وسيكون لها دور خطير في المستقبل. ولو أني كتبت غوليادكين وحدها لكان ذلك كافياً، وإن اهتمامهم بها أكبر من اهتمامهم بكتابات دوماس. وهكذا انتفض غروري. ولكن يا أخي،

ما أجمل أن يفهمك الآخرون. لماذا تحبني يا أخي؟ سأحاول أن أعانقك قريباً. وسنحب بعضنا بعضاً حباً جماً. ادعُ لي بالنجاح. أواصل كتابة «ربة المنزل». ولعلها أفضل من «الفقراء». وهي في السياق نفسه. ريشتي يوجهها منبع إلهام منبجس من الروح مباشرة. ليس كما كان الحال مع «بروخارتشين» التي عانيت منها طول الصيف. ما أشد رغبتي في مساعدتك، يا أخي، بأسرع ما يمكن. علق آمالك، يا أخي، على النقود التي وعدتك بها، فالوعد راسخ كالجدار، كالجبل. قبلاتي للجميع. (. . .)

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: هل سنلتقي في وقت ما، يا أخي، في بطرسبورغ؟ ما رأيك في الخدمة المدنية براتب محترم؟.

(. . .)

---

(1) المقصود الطبعة الثانية من «الفقراء».

(2) رواية جورج صاند وبطلها كارول.

32. إلى يفغينيا مايكوفا

بطرسبورغ، 14 مايو 1848

السيدة الفاضلة يفغينيا بيتروفنا (مايكوفا)

أسارع في الاعتذار منكم، فأنا أشعر بأنني تركتكم أمس بغيظ لا يليق، حتى أني لم أودعكم إلا بعد أن نبهتموني إلى ذلك. وأخشى أن تظنوا أنني كنت متشدداً فظاً غليظاً بنوايا غريبة. إلا أنني مضيت مسرعاً بالغريزة متحسساً ضعف طباعي الذي لا بد أن يطفو على السطح في الحالات القصوى، ويطفو تحديداً بشكل تطرف مبالغ فيه. أرجو أن تفهموني: بسبب ضعف أعصابي يصعب عليَّ التحمل والرد على الأسئلة ذات المعنيين التي تطرح عليَّ وضبط النفس بسبب ازدواجية تلك الأسئلة، فأغضب على نفسي لأني عجزت عن جعل تلك الأسئلة صريحة مباشرة ومقبولة، وفي الوقت ذاته يصعب عليَّ أن أحتفظ ببرود الأعصاب، وأنا أعترف بذلك، عندما أرى أمامي أكثرية تعمل ضدي، كما أتذكر، بالحدّة نفسها التي عارضتها بها. بديهي أنه حصل هرج ومرج وتطايرت من الجانبين النعوت الغلاظ، المتعمدة والساذجة، فلذت أنا بالفرار غريزياً خشية أن يتسع نطاق تلك النعوت أكثر. لكم

أن تحكموا على ضعف طباع شخص مثلي. التقطت الريشة لأعتذر ببساطة وبكل رضوخ وانصياع. إلا أنني بدأت أكتب مبرراتي بالصيغة اللازمة. أنا أشعر بالفعل أنني كنت متشدداً ثقيل الظل مزعجاً لكم، ولذا أستعين بصبركم وأرجو صفحكم. وأنا على يقين بأنكم تفهمون لجاجتي وإلحاحي على طلب المسامحة. فأنا أقدر رفيع التقدير اسمكم الكريم، ولذا أخشى كثيراً أن أفقده. ولعل هذه الرسالة نافلة لا موجب لها، ولربما أنا أبالغ كعادتي، ولعلكم سامحتموني منذ اللحظة الأولى، إلا أن هذا الخوف الزائد وهذا الشعور بالخجل تجاهكم يبينان لكم، إذا سمحتم، مدى الاحترام الذي أكنّه لكم دوماً كالابن البار.[1]

المخلص لكم أبداً

ف. دوستويفسكي

---

(1) لعل الكلام في هذه الرسالة يدور عن شجار حصل بين دوستويفسكي وأحد أعضاء حلقة «المعاصر» في منزل مايكوف.

33. إلى أندريه كرايفسكي

بطرسبورغ، 31 مارس 1849

السيد الفاضل أندريه ألكساندروفيتش (كرايفسكي).

ذكرتم في رسالتكم أنكم تبعثون النقود للمرة الأخيرة، وأن من اللازم التسديد الكامل في مقابل المطالبة بنقود أخرى.

هذا ما كنت أريده. أي أن أقدم أولاً الجزء الثالث[1] الذي كنت أتصور بأني سأنجزه حتى يوم الاثنين. ثم أشرع فوراً بالجزء الرابع والجزء الخامس اللذين قررت تخصيصهما لشهر مايو. ولكنني، خلافاً لكل الحسابات، أنهيت الجزء الثالث، ثلاث ملازم ونيفاً، يوم الأربعاء، وسيكون حجم الجزء الرابع قرابة 4 ملازم. المجموع 7 ملازم، أي 350 روبلاً فضياً (. . .). وكنت أنوي أن أجلب لكم الجزء الثالث في نهاية هذا الأسبوع وأطلب منكم مساعدة لمناسبة العيد، وفي العاشر من الشهر بودّي أن أسلمكم الجزء الخامس.

أما ألان فأنا أواظب على كتابة الجزء الرابع من دون توقف. بدأته حالما أنهيت الجزء الثالث ولم آخذ قسطاً من الراحة، لأنني أريد (. . .) نشر الجزءين الرابع والخامس في مايو من كل بد. وأنا الآن

غاضب على نفسي لأن المشهد غير مكتمل، بل مجزأ إلى ثلاثة أقسام. لا شيء مكتملاً، سوى إثارة الفضول. والفضول المثار في بداية الشهر، باعتقادي، ليس هو ذاته في آخر الشهر. فهو يخفت ويبرد وتفقد التوليفات شيئاً من قيمتها. وهذا يضاهي تقسيم مشهد بوكروفسكي في «الفقراء» إلى جزءين، لو كنت قد فعلته، ما يجعل الجمهور ينتظر شهراً كاملاً. والانطباعات تتلاشى. إذن أنا أتحدث عن الجزءين. أنا أعمل على الجزء الرابع. وسأقدم هذا الجزء مع الجزء الخامس في الموعد المحدد، لا أبعد من الخامس عشر من الشهر، لأن من اللازم، فضلاً عن ذلك، توجيه رد على «المعاصر». (...)

خبرني رجاءً، يا أندريه ألكساندروفيتش، هل يعقل أنكم لم تلاحظوا طوال أربعة أعوام من عملي عندكم أنني لا أستطيع أبداً أن أسدد ديوني لكم إذا بقينا على النظام نفسه من التسليم والتسديد الذي نحن عليه لحد الآن؟ خذوا مثلاً الشتاء الحالي. لقد عملت فيه كالحصان، وكنت أنتقل من نجاح إلى نجاح. والجمهور معجب، وأنا رغم كل اعتباراتي في الخريف المنصرم لا أستطيع حتى شهر مايو أن أسدد أكثر من 650 روبلاً فضياً. ولا أزال مديناً. فما سبب ذلك؟ أليس السبب واضحاً، يا أندريه ألكساندروفيتش؟ فأنا أخذت النقود منكم، كثيراً من النقود. فلنأخذ المثل التالي: عندما أخذت منكم آخر مرة مئة روبل، قبل شهرين، عكفت شهراً كاملاً على ابتداع قصة منحتني 50 روبلاً فضياً أخرى لأن المئة روبل لم تؤمن لي الاستقرار. وطالما كنت أكتب قصة ذات اتجاه وطبيعة يتوافقان مع المجلة التي أردت أن أنشرها فيها فقد بقيت شهراً كاملاً أفكر ولم يتمخض تفكيري عن شيء سوى الصداع وارتباك الأعصاب، بالإضافة إلى ثلاث حبكات رائعة لثلاث روايات مطولة. (...)



الناشر كرايفسكي

عندما استلفت منكم مئة روبل في المرة الأخيرة أقسمت أن لا آخذ النقود مسبقاً بعد الآن. لكن حساباتي تلك جاءت من دون موسكو.[2] وسوف يبعثون مبلغاً من هناك بعد العيد. العيد وما أدراك ما العيد. بالنسبة لي كله سواء. لكنّ الدائنين ينتظرونه تحديداً، فهم يتهالكون على المدينين زرافات ووحداناً، لأنه ليس لديهم، المساكين، سوى موعدين في السنة تسدد فيها كل الديون تقريباً.

هل يعقل أنكم، يا أندريه ألكساندروفيتش، لم تفكروا أبداً في أنني يمكن أن أموت ذات يوم، فماذا يحصل لديوني آنذاك؟ ديوني لكم كثيرة لدرجة لا تكفي النقود الواردة من موسكو لتسديدها. فلننته بأسرع ما يمكن من هذا النظام التسليفي وننتقل إلى الدفع الهادئ بالقطعة في مواعيد محددة في الأيام الأولى (من الشهر). وللأسف الشديد أنني حتى لو عملت لدرجة يتشقق فيها جلد يدي لن أتمكن بدنياً من تسليمكم الجزء الرابع يوم السبت، بل سأسلمه في السابع من

الشهر. والحقيقة لن يكون بإمكاني أن أكتب. لقد عذبني الدائنون، فهم على مدار سبع سنوات جعلوني سريع الانفعال أندفع لأداء عمل جانبي، أي أني سأكون مضطراً لكتابة حكاية ما لجهة أخرى. والطامة الكبرى أن العمل الجانبي لأسبوعين أو لشهر يعيق طاقة تأليف روايتنا ويلغي الرغبة في مواصلتها.

سآتي إليكم، يا أندريه ألكساندروفيتش، صباح هذا السبت. باللّه عليكم سامحوني على المئة روبل التي أخذتها منكم. سأعيدها لكم واكثر، لا أقول بمئة ضعف، بل بخمس مرات في 15 أبريل. ولن آخذ ديناً بعد الآن، وأخي شاهد على ما أقول. فاسألوه: نقودنا من موسكو ستصل في أبريل حتماً، وعندها لن أطلب منكم طبعاً. ولن أنسى فضلكم أبداً في مساعدتي الآن لآخر مرة. ذكّروني بذلك في وقت ما، وسترون بأنفسكم. حكّموا العقل: طوال فريضة الصوم كنت أنتظر بقلق وتوجس أسبوع الآلام وغزوات الدائنين. هل تتذكرون يوم الجمعة في أسبوع الآلام العام الماضي؟ لا يزال عالقاً في ذاكرتي حتى الآن. آنذاك وصلتنا، فضلاً عن ذلك، عائلة شقيقي من ريفيل. أما الآن فستنتابني الكوليرا، ولا شيء غيرها. فأين هي الشاعرية يا ترى؟

المخلص

ف. دوستويفسكي

---

(1) من رواية «نيتوتشكا نيزفانوفا».

(2) لعل دوستويفسكي كان ينتظر مبلغاً من كاريبين الوصي على التركة.

34. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ. قلعة بتروبافلوفسكايا[1]، 18 يوليو 1849

شعرت بفرحة عارمة تفوق الوصف لرسالتك، يا أخي الحبيب. استلمتها في 11 يوليو. وأخيراً أطلقوا سراحك، وأنا أتخيل مدى الفرحة التي اكتنفتك عندما التقيت مع أفراد عائلتك. أكيد كانوا ينتظرونك على أحر من الجمر. وأرى أنك بدأت تنظم حياتك بشكل جديد. فماذا يشغلك الآن؟ والأهم على أي مورد تعيش؟ هل لديك عمل؟ وماذا تفعل تحديداً؟ الصيف في المدينة صعب ثقيل. وإلى ذلك تقول إنك استأجرت شقة أخرى، ربما هي أضيق. للأسف أنك لا تستطيع قضاء فصل الصيف في الضاحية.

أشكرك على الطرود، فقد سهّلت عليَّ الأمور وآنستني. تكتب لي، يا صديقي العزيز، أن لا أنساق للاكتئاب. أنا غير مكتئب. طبعاً لا مفر من الملل والضجر. فما العمل؟ على فكرة ليست الأحوال مملة دوماً. عموماً أوقاتي تسير بغير توازن. تارة بسرعة كبيرة، وتارة ببطء شديد. وأحياناً أشعر بأنني كأنما تعودت على هذا النمط من الحياة وكأن كل الأمور سواء. أنا بالطبع أطرد كل المغريات من

مجال تصوراتي، إلا أنها أحياناً أقوى مني، فتقتحم الحياة القديمة روحي مع انطباعاتها السابقة. وهذا، على فكرة، في طبيعة الأشياء. حاليا الأيام أكثر صحواً، معظمها على الأقل، فصار الجو أكثر حبوراً. إلا أن الأيام المكفهرة لا تطاق. وتبدو الزنزانة الانفرادية أكثر قسوة. ثم إنني مشغول. ولم أضيع الوقت جزافاً. فقد فكرت في ثلاث قصص وروايتين، أكتب إحداهما حالياً. لكنني أخشى العمل كثيراً.

هذا العمل، وخصوصاً عندما يجري برغبة شديدة، إنما يرهقني كثيراً ويؤثر على أعصابي. ولم أكن قد عملت يوماً بمثل هذا القدر من الحب والرغبة كما أعمل الآن. عندما عملت خارج السجن كنت بحاجة إلى التوقف كثيراً واللجوء إلى الترفيه. أما هنا فالانفعال بعد الكتابة ينبغي أن ينتهي من تلقاء ذاته. صحتي جيدة، ما عدا التهاب البواسير واضطراب الأعصاب الذي يتصاعد شيئاً فشيئاً. حنجرتي باتت، كالسابق، تؤلمني من حين لآخر، شهيتي ضعيفة، ونومي قليل، مع كوابيس مؤذية. أنام قرابة خمس ساعات في اليوم، وأستيقظ في الليل أربع مرات تقريباً. هذا هو الأمر الصعب الوحيد. أصعب الأوقات عند الغسق، والظلام يخيم عندنا في التاسعة. أحياناً لا أنام حتى الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل. ولذا يصعب جداً تحمُّل الظلام قرابة خمس ساعات. وهذا يشوش الصحة أكثر من غيره.

لا أعرف شيئاً عن موعد انتهاء دعوانا[2]، لأني ضيعت الحساب، وأكتفي بتقويم أسجل فيه يومياً، دون حماس، تاريخ اليوم الذي ينتهي والحمد للّه. مطالعتي هنا قليلة. قرأت عن رحلتين إلى الديار المقدسة، ومواعظ القديس دميتري روستوفسكي. وقد أثارت الأخيرة

اهتمامي. إلا أن هذه المطالعة قطرة في بحر، وسأكون سعيداً جداً، على ما أعتقد، لو استلمت كتاباً ما للقراءة. لا سيما وأن ذلك سيكون وسيلة حتى للعلاج بإزاحة أفكار الغير لأفكاري أو إعادة بناء الأخيرة في ترتيب جديد.

تلك هي كل تفاصيل حياتي المعيشية، ولا شيء غيرها. يسرني أنك وجدت عائلتك كلها في صحة جيدة. فهل كتبت إلى موسكو عن إطلاق سراحك؟[3] يؤسفني جداً أن الأمور هناك لا تستقيم. ما أشد رغبتي في التواجد معكم ولو ليوم واحد. قريباً تنقضي ثلاثة أشهر على اعتقالنا، وسيحدث شيء ما لاحقاً. ربما لن نرى خضرة الأشجار هذا الصيف. هل تتذكر كيف كانوا يقتادوننا أحياناً للتمشي في الجنينة في شهر مايو؟ يومها بدأت الأرض هناك تعشوشب، وتذكرت ريفيل عندما كنت في زيارتك في مثل تلك الأوقات، وكذلك حديقة دار المهندسين. وخيل إليَّ آنذاك أنك أيضاً ستقارن بين الحالتين. كان الموقف حزيناً. وبودّي أن أرى آخرين أيضاً. البعض منهم. أنت الآن تلتقي أشخاصاً، ينبغي أن تلتقيهم في الضاحية. أخونا أندريه لا بد أن يكون في المدينة. هل رأيت نيقولا؟ تحياتي لهما. وقبلاتي للأطفال، وتحياتي لزوجتك. قل لها إنني ممتن جداً لأنها تتذكرني، وبلّغها أن لا تقلق عليَّ كثيراً. كل ما أتمناه أن أكون في صحة جيدة، أما الملل فهو ظاهرة عابرة. ثم إن المزاج الطيب يتوقف عليّ شخصياً. في الإنسان بحر من المرونة والحيوية. ولم أكن أعرف في الحقيقة عن ذلك البحر الزاخر، وقد تأكدت منه الآن بالتجربة. وداعاً إذن. أرجو لهذه الكلمات المقتضبة أن تبعث في نفسك الارتياح. بلّغ تحياتي لجميع من تراهم ولجميع من أعرفهم بلا استثناء. فأنا أتذكر الجميع. ماذا يظن بي أطفالك؟ حبذا لو عرفت افتراضاتهم بخصوصي: أين

اختفى يا ترى؟ وداعاً. أَرسلْ لي «مذكرات الوطن» إن أمكن. فلا بد أن أقرأ فيها شيئاً. واكتبْ لي أنت أيضاً كلمتين، فذلك يبعث الفرحة في نفسي.

إلى اللقاء.

أخوك ف. دوستويفسكي

---

(1) كانت القلعة سجناً في العهد القيصري.

(2) اعتُقل فيودور دوستويفسكي وأُودع سجن القلعة ليلة 22 على 23 أبريل 1849. كما اعتُقل أخوه ميخائيل وسرعان ما أفرج عنه. سبب الاعتقال هو تأييدهما لحركة بتراشيفسكي الثورية المناهضة للنظام القيصري.

(3) يبدو أن أقارب دوستويفسكي في موسكو لا علم لهم بخبر اعتقال الأخوين.



35. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، قلعة بيتروبافلوفسكايا، 27 أغسطس 1849

يسرّني جداً، يا أخي العزيز، أنني أستطيع أن أجيبك وأشكرك على الكتب التي أرسلتها. وأنا شاكر لك بخاصة على (مجلدات) «مذكرات الوطن». كما يفرحني أنك في صحة جيدة وأن السجن لم يترك أي أثر سيئ على حالتك الصحية. لكنك قليل الكتابة. ولذا فإن رسائلي أكثر تفصيلاً من رسائلك. إلا أني أترك ذلك جانباً. فستصحح هذا الأمر فيما بعد.

عني شخصياً لا أستطيع أن أقول شيئاً على وجه التحديد. نفس ذلك المجهول فيما يخص انتهاء دعوانا. حياتي الشخصية لا تزال رتيبة كالسابق. لكنهم سمحوا لي من جديد أن أتمشى في الحديقة التي تحوي 17 شجرة تقريباً. وتلك بالنسبة لي فرحة لا تقدر بثمن. وإلى ذلك يمكنني الآن أن أحصل على شمعة في المساء. وتلك فرحة أخرى. والثالثة ستتحقق عندما تجيبني بسرعة وترسل إليَّ «مذكرات الوطن»، لأنني بصفتي مشتركاً فيها من مدينة أخرى أنتظرها كما ينتظر المرء تباشير عهد جديد، كإقطاعي قتله الملل في ضيعة هامشية[1].

تريد أن ترسل لي مدونات تاريخية؟ سيكون ذلك رائعاً. إلا أن الأفضل أن ترسل لي الكتاب المقدس بجزءيه. أنا بحاجة إليه. وإذا كان إرساله ممكناً أرسله لي بالترجمة الفرنسية. وإذا أضفت النسخة السلافية فسيكون ذلك منتهى الروعة.

بخصوص صحتي لا أستطيع أن أقول ما يسر الأسماع. فمنذ شهر كامل أتناول زيت الخروع، وبفضله أواصل بقائي على قيد الحياة. التهاب البواسير اشتد إلى أقصى حد. وأشعر بألم في الصدر لم أكن أعرفه في السابق مطلقاً. وإلى ذلك يشتد التأثر النفساني، وخصوصاً مع قدوم الليل. أحلام طويلة مشوشة كل ليلة، وفوق ذلك يخيل إليَّ من وقت قريب أن الأرضية تترنح تحتي وأجلس في غرفتي كأنني في قمرة باخرة. وأستنتج من ذلك كله أن أعصابي تتدهور. عندما كانت هذه الحالات العصبية تداهمني في السابق كنت أستفيد منها لأكتب. فالكتابة تأتي أفضل وأكثر في مثل هذه الحالات، أما الآن فأمتنع، كيلا أجهز على البقية الباقية مني. كانت لدي فرصة، قرابة ثلاثة أسابيع، لم أكتب فيها شيئاً. أما الآن فقد بدأت من جديد. كل ذلك لا ضير فيه، يمكن أن أعيش معه. فقد أفلح في التعافي.

لقد أدهشتني عندما كتبت تقول إن معارفنا في موسكو، باعتقادك، لا يعرفون شيئاً عن اعتقالنا. فكرت في ذلك وحللته واستنتجت أن ذلك غير ممكن بأي حال. إنهم، ربما، يعرفون، وأنا أرى لصمتهم سبباً آخر. عموماً، هذا شيء متوقع، والقضية غنية عن البيان.

كيف هي صحة إميليا؟ ما أتعسها. هذا هو الصيف الثاني وهي تعاني من ملل لا يطاق. العام الماضي بسبب الكوليرا وغيرها، والعام الحالي اللّه وحده يعلم برداءة الجو. ولكنْ يا أخي من الخطيئة أن

ننساق إلى الخمول. العمل الحثيث بولع شديد هو السعادة بعينها. فما أفضل من أن تعمل وتكتب.

تقول إن الأدب في وعكة. ومع ذلك لا تزال أعداد «مذكرات الوطن» غنية بالمواد، وإن كانت غير روائية. ولا مقالة فيها تقرأ بغير متعة. قسم العلوم رائع. «غزو بيرو» لا أقل من الإلياذة. ولا تقل أهمية عن مقالة «غزو المكسيك» في العام الماضي. ولكن ما الحاجة إلى نشرها مترجمة؟!

قرأت بمنتهى الارتياح المقالة الثانية في تحليل «الأوديسة». إلا أن هذه المقالة أسوأ بكثير من الأولى، مقالة دافيدوف. فتلك كانت مقالة أدبية، وخصوصاً في الموضع الذي يفند فنيه آراء وولف، مكتوبة بفهم عميق للقضية وبحماس يصعب توقعه من بروفيسور طاعن في السن. وحتى في هذه المقالة تمكن من تحاشي الحذلقة الملازمة لكل العلماء بعامة، وعلماء موسكو بخاصة. من ذلك يمكنك، يا أخي، أن تستخلص أن كتبك تبعث في نفسي ارتياحاً عظيماً وإنني شاكر لك على إرسالها أجزل الشكر. وداعاً، أتمنى لك كل النجاح. اكتبْ لي بسرعة. وسيكون جميلاً لو أنك كتبت إلى أقربائنا في موسكو عن قضيتنا وسألتهم رسمياً كيف أحوال الضيعة؟

قبلاتي للجميع. أعتقد أنهم يأخذون الأطفال للتنزه في حديقة «ليتني». تحياتي إلى إميليا ومن تراهم من معارفنا. كتبت تقول إنك تتمنى أن تراني... سيتحقق ذلك في وقت ما. أما الآن فوداعاً.

المخلص فيودور دوستويفسكي

<u>ملحوظة</u>: اكتبْ لي من هو السيد ف. ش. الذي نشر مقالاته في

«مذكرات الوطن». ثم من هو صاحب تحليل أشعار شاخوفا في عدد يونيو من هذه المجلة. اسألْ عنهما إن أمكن.

بين العاشر والخامس عشر من سبتمبر تنفد نقودي يا أخي. ساعدني من جديد إذا استطعت. المطلوب قليل. لي دين على سوروكين من ريع «الفقراء» لكنني نسيت المبلغ، وأعتقد أنه زهيد للغاية. فقد سدد لي الأجر كاملاً تقريباً.

---

(1) تكرار هزلي لعبارة وردت في رسالة سابقة من ميخائيل إلى أخيه فيودور دوستويفسكي.



36. الى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، قلعة بيتروبافلوفسكايا، 14 سبتمبر 1849

أخي العزيز! استلمت رسالتك مع شكسبير والكتاب المقدس و«مذكرات الوطن» وعشرة روبلات فضية، وأنا شاكر لك على ذلك كله. ويسرني أنك في صحة جيدة. أما أنا فكالسابق. اضطراب المعدة نفسه، والتهاب البواسير نفسه. ولا أدري متى ينتهيان. وها هي شهور الخريف الصعبة مقبلة علينا، ومعها هواجس الأمراض والوساوس التي تلازمني. السماء مكفهرة الآن. والبقعة المضيئة التي يمكن أن أراها من كوة زنزانتي هي ضمانة صحتي وحسن مزاجي. ولكنني، على أية حال، لا أزال حياً أرزق. هذه حقيقة وواقع بالنسبة لي. ولذا لا تفكر، رجاءً، أنني في حالة ميئوس منها. كل شيء تمام فيما يخص صحتي حتى الآن.. كنت أتوقع الأسوأ، والآن أرى الحيوية في كياني لن تنضب.

أشكرك مرة أخرى على الكتب. فهي على أية حال تلهية. ها أنا أعيش قرابة خمسة أشهر على وسائلي الخاصة، أقصد على دماغي وحده ولا شيء غيره. هذه الآلة لا تزال تعمل ولم تتقوض.

بالمناسبة، التفكير المتواصل وحده، من دون أية انطباعات خارجية تحيي الفكرة وتدعمها، أمر صعب. فأنا كأنني تحت مضخة هوائية تنفث الهواء. كل ما فيه مضى إلى الدماغ، ومن الدماغ إلى الفكر. كل شيء، نعم كل شيء. ورغم ذلك يستمر هذا العمل يوماً بعد يوم. الكتب، مع أنها قطرة في بحر، إنما تساعدني على نحو ما. أما عملي الشخصي فهو، على ما أعتقد، يمتص آخر نسغ لدي. على فكرة أنا مسرور لهذا العمل.

أقرأ من جديد الكتب التي أرسلتها لي. وأشكرك خصوصاً على شكسبير. كيف حزرت؟ الرواية الإنجليزية[1] في «مذكرات الوطن» جيدة للغاية. لكن ملهاة تورغينيف[2] سيئة لدرجة لا يجوز السكوت عليها. من أين جاءته هذه المصيبة؟ هل يعقل أنه مقدر له أن يتلف كل مؤلف له يتجاوز الملزمة الواحدة؟ أنا لم أتعرف عليه في هذه الملهاة. ليس فيها أية أصالة: طريق وعر ومطروق. كل تلك الأمور قيلت قبله، وبأفضل منه. المشهد الأخير يسوده عجز صبياني. في بعض المواضع تلمع شذرات، لكنها تعتبر جيدة لعدم وجود أفضل منها. ما أروع المقالة عن البنوك، وكيف فهمها المجتمع؟

أشكر جميع الذين يتذكرونني. وتحياتي إلى إميليا وأخي أندريه، وقبلاتي لأطفالك الذين أتمنى لهم خصوصاً موفور الصحة والعافية. أنا لا أدري، يا أخي، كيف ومتى نتلاقى. وداعاً ولا تنسني رجاءً. اكتبْ لي ولو بعد أسبوعين.

إلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: أرجوك، لا تقلق بخصوصي. إذا وجدت شيئاً يُقرأ أَرسلْه لي.

---

(1) المقصود رواية «جين آير» لشارلوت برونتي. الترجمة الروسية 1849.
(2) «الأعزب». سبب انتقاد دوستويفسكي اللاذع لمسرحية تورغينيف هذه هو مزاجه الذي يقوده إلى توجهات أخرى.



37. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

بطرسبورغ، قلعة بيتروبافلوفسكايا، 22 ديسمبر 1849

أخي وصديقي الحميم!

خلاص. صدر القرار. حكموا عليَّ بالأشغال الشاقة لمدة أربع سنوات أقضيها في إحدى القلاع. أعتقد قلعة أورينبورغ. وبالإضافة إلى ذلك تخفض رتبتي إلى جندي عادي. هذا اليوم، الثاني والعشرين من ديسمبر، نقلونا إلى ساحة سيمينوفسكي للاستعراضات. هناك تلوا علينا جميعاً حكم الإعدام. وقربوا الصليب منا فقبّلناه، وعقدوا السيوف فوق رؤوسنا، وقاموا بغسيل الموت[1] حيث ألبسونا قمصاناً بيضاء. ثم اقتادوا ثلاثة منا إلى عمود تنفيذ الإعدام. أنا كنت سادس محكوم. وكانوا يستدعوننا ثلاثة ثلاثة، بمعنى أنني في الوجبة الثانية ولم يبق لي على قيد الحياة سوى دقيقة واحدة. تذكرتك، يا أخي، وعائلتك جميعاً. في اللحظة الأخيرة كنت وحدك، ولا أحد غيرك، في ذهني. فعرفت مدى حبي لك يا أخي الوفي. وتسنى لي أن أعانق بليشييف ودوروف اللذين كانا جنبي وودعتهما. وفي تلك اللحظة دوى بوق تغيير الحكم. فأعادونا وأبلغونا أن صاحب الجلالة الإمبراطور

يهبنا الحياة. ثم تلوا الأحكام الحقيقية. وتم العفو عن بالم وحده. وأبقوه على رتبته في الجيش.

عرفت الآن، يا أخي العزيز، أننا سنتوجه اليوم أو غداً في التسفيرات. وطلبت أن يسمحوا لي بمقابلة معك. فامتنعوا.[2] يمكنني فقط أن أكتب لك رسالة، فأسرع أنت في الرد عليها. أخشى أن تكون على علم بحكم الإعدام علينا. رأيت من نافذة العربة التي نقلونا فيها إلى ساحة الاستعراضات جمهوراً غفيراً. ولربما وصلك النبأ أنت أيضاً، فكنتَ متألماً عليّ. الآن سيكون الأمر بشأني أهون عليك. أنا لم أكتئب، يا أخي، ولم تضعف معنوياتي. فالحياة هي الحياة أينما كانت. الحياة في داخلنا، في الباطن وليس في الظاهر. سيكون على مقربة مني أناس، وأن يكون الشخص إنساناً بين البشر ويبقى إنساناً أبداً، مهما كانت المصائب، ولا يكتئب ولا يسقط، ذلك هو مغزى الحياة ومهمتها. لقد أدركت ذلك. هذه الفكرة تسربت في مسامات كياني، في دمي. نعم، تلك هي الحقيقة. فالدماغ الذي كان يبدع ويحيا حياة الفن الراقية، والذي أبدع وتعوّد على احتياجات الروح السامية، دماغي ذاك قطع من العنق. وبقيت الذاكرة والصور المرسومة وغير المتجسدة من قبلي في واقع الحال. صحيح أنها قروح في داخلي. لكن القلب باق لدي ونفس الدم ونفس النطفة التي تستطيع أن تحب وتتألم وتتوق وتتذكر. وهذا كله حياة على أي حال. السجين أيضاً يرى الشمس[3]. وداعاً، إذن، يا أخي. ولا تحزن عليّ. والآن أتناول الأمور الشيئية: الكتب، ما عدا الإنجيل، وعدة ملازم من مخطوطاتي، مسودة مسرحية ورواية وخاتمة قصة «حكاية الأطفال» انتزعت مني، والاحتمال الأكبر أن تسلم لك. وسأترك معطفي وبدلتي القديمة أيضاً. ويمكنك أن تأخذهما. والآن يا أخي العزيز ربما

ينتظرني طريق طويل بالتسفيرات. وأنا بحاجة إلى نقود. أخي العزيز إذا استلمت هذه الرسالة وإذا كان بالإمكان استحصال بعض النقود أَرسلْها فوراً. فالنقود الآن أهم من الهواء بحسب ملابساتي. وابعثْ لي كذلك بضعة أسطر عنك شخصياً. وفيما بعد، إذا استلمت النقود من موسكو، حاول من أجلي ولا تتركني... هذا كل شيء. هناك ديون، فماذا نفعل لها؟!

قبلاتي لزوجتك وأطفالك. ذكّرهم بي واجعلهم لا ينسونني. ولربما سنلتقي في وقت ما. حافظ على نفسك وعائلتك يا أخي، عش بهدوء وتحوّط وبُعد نظر. وفكر في مستقبل أولادك... عش حياة إيجابية.

لم يكن كياني يزخر بمثل هذه الاحتياطيات السليمة والوفيرة للحياة الروحية كما هو الآن. ولكن هل سيتحمل بدني؟ لا أدري. أنا متوجه للتسفيرات ولست بصحة جيدة. أصبت بتدرن الغدد اللمفية العقدية. ولكنْ لعله ينتهي. فما أكثر ما جربت في الحياة، يا أخي، ولم أعد أخشى هذه الأمور. فليكن ما يكون. سأخبرك بأحوالي في أول فرصة سانحة.

انقلْ تحياتي الوداعية الأخيرة إلى عائلة مايكوف. وقل لهم إنني أشكرهم جميعاً لمشاطرتهم المتواصلة في مصيري. وانقلْ بضع كلمات أكثر دفئاً، بما يمليه عليك فؤادك، إلى يفغينيا مايكوفا. أنا أتمنى لها المزيد من السعادة وسأبقى أتذكرها دوماً بامتنان واحترام. شد على يد نيكولاي ألكساندروفيتش وأبولون مايكوف، ثم الآخرين فرداً فرداً.

حاول أن تجد يانوفسكي شد على يده واشكره. وأخيراً اشكر جميع الذين لم ينسوني. وذكّر الذين نسوني. قبّل أخي نيكولاي،

واكتبْ رسالة إلى أخي أندريه وأخبِره عني. اكتبْ لخالي وزوجته. أرجوك أن تكتب بالأصالة عن نفسي، وتحييهما بالنيابة عني. واكتب لأخواتي، أنا أتمنى لهن السعادة.

لربما نلتقي يا أخي. حافظ على نفسك، وعش، باللّه عليك، حتى موعد اللقاء معي. فلربما نتعانق في وقت ما، ونتذكر صبانا وأوقاتنا الذهبية السابقة وآمالنا وطموحاتنا التي اقتطعها في هذه اللحظة من قلبي وأدفنها مدماة.

هل يعقل أني لن آخذ الريشة بيدي بعد الآن؟ أظن أن ذلك سيكون بالإمكان بعد أربعة أعوام. سأبعث لك كل ما سأكتبه إذا كنت سأكتب شيئاً. يا إلهي! ما أكثر الصور التي عايشتها ورسمتها من جديد ستتلف وتموت، ستخبو في مخيلتي ودماغي أو تنسكب سماً زعافاً في دمي. نعم. إذا استحال عليَّ أن أكتب سأهلك وأموت. الأفضل خمسة عشر عاماً في السجن مع ريشة الكتابة في اليد.

اكتبْ لي أكثر، اكتبْ بتفصيل أكثر وبإسهاب. فصّل في كل رسالة أحوال العائلة حتى صغائر الأمور. لا تنس ذلك. فهو يمنحني الأمل والحياة. يا ليتك تعلم كيف أنعشتني رسائلك هنا، في الزنزانة. هذان الشهران والنصف، هذه الفترة الأخيرة التي منعوني فيها من المراسلة كانت صعبة جداً. وكنت متوعكاً. عدم إرسالك النقود أحياناً عذبني بالتفكير فيك. ذلك يعني أنك نفسك كنت في عوز شديد. قبّل الأطفال مرة أخرى. محيّا كل صغير منهم عالق في ذاكرتي. فما أجملهم. ياليت أن يكونوا سعداء. وكن سعيداً أنت أيضا، اتمنى لك السعادة يا أخي.

لا تحزن باللّه عليك. لا تحزن عليّ. واعلم أنني لم أكتئب. وتذكر أن الأمل لم يفارقني. بعد أربعة أعوام سيهون المصير. سأكون

جندياً، والجندي ليس سجيناً. واعلم أنني سأعانقك في زمن ما. ألم أكن اليوم في حضرة ملاك الموت؟ ثلاثة أرباع الساعة عايشت هذه الفكرة، كنت على شفا الهاوية، وها أنا الآن على قيد الحياة من جديد[4].

إذا كان أحد يذكرني بسوء، وإذا كنتُ قد تشاجرت مع أحد، وإذا تركتُ انطباعاً منفّراً في نفس أحد، قل لهم إذا التقيتهم أن ينسوا ذلك. لا مرارة ولا حقد في نفسي. حبذا لو أستطيع في هذه اللحظات أن أحب وأعانق أحداً من المعارف القدامى. هذه فرحة جربتها اليوم، حينما ودعت زملائي الطيبين قبيل مواجهة الموت. فكرت في تلك اللحظة أن نبأ إعدامي كان سيقتلك. ولكنْ ثق الآن بأنني أعيش وسأظل أعيش في المستقبل على فكرة أنني سأعانقك يوماً ما. لا شيء في دماغي الآن سوى هذه الفكرة.

ماذا تفعل؟ هل فكرت في شيء اليوم؟ هل تعرف عن أحوالنا؟ ما أشد البرد هذا اليوم[5].

يا ليت رسالتي تصلك سريعاً، وإلا سأبقى قرابة أربعة شهور من دون أخبار منك. رأيت المظاريف التي أرسلت لي فيها النقود في الشهرين الأخيرين، العنوان بخط يدك، وفرحت لأنك في صحة جيدة.

قلبي يكاد يتفطر كلما عدت بالذاكرة إلى الماضي ورأيت إلى كثرة الوقت المبدد عبثاً والمضيع في الضلالات والأخطاء والبطر وسوء تدبير العيش وكيف أني لم أقدّر ثمن ذلك الوقت وكم خطيئة ارتكبت ضد روحي وفؤادي. الحياة نعمة، الحياة سعادة، كل دقيقة يمكن أن تكون بمثابة دهر من السعادة. «فيا ليت الشباب يعود يوماً...»[6] أما

الآن وقد تغيرت حياتي فقد تحولتُ إلى كيان آخر. أقسم لك، يا أخي، أنني لن أفقد الأمل وسأحتفظ بروحي وفؤادي نقيين صافيين. وسأخلَق من جديد بشكل أفضل. ذلك هو كل أملي، وتلك هي سلواي الوحيدة.

حياة الزنازين قتلت في داخلي الكثير من المتطلبات الجسدية غير النظيفة تماماً، بينما لم أكن أحافظ على نفسي كثيراً في الماضي. أما الآن فالحرمان لا أهمية له بالنسبة لي، ولذا لا تخشَ أن تقتلني شهوة مادية ما. ذلك لن يحصل. يا ليت أن أكون في صحة جيدة.

وداعاً، يا أخي، وداعاً. سأكتب لك مرة أخرى في زمن ما. وستستلم تقريراً عن تسفيري بأكبر قدر من التفصيل. يا ليتني أحافظ على صحتي، والباقي سيكون حسناً على العموم.

إذن، وداعاً، يا أخي، وداعاً. أعانقك بشدة، وأقبلك بشدة. تذكرني من دون ألم في القلب. ولا تحزن، رجاءً، لا تحزن عليّ. في الرسالة القادمة سأكتب لك عما ينتظرني في الحياة. فتذكر ما قلته لك: إحسب الحساب لحياتك ولا تبذرها ولا تهدرها، ابنِ مصيرك واحرص على أطفالك. يا إلهي، متى، متى أراك؟ وداعاً. والآن أنفصل عن كل ما كان عزيزاً على الفؤاد، ويؤلمني أن أتركه. يؤلمني أن أقسم نفسي إلى شطرين، وقلبي إلى فلقتين. وداعاً وداعاً. لكنني سأراك. أنا على يقين من ذلك وآمل أن يتم، فلا تتبدل، وابقَ على حبك لي. ولا تجعل ذاكرتك فاترة باردة، وسيكون تفكيري في حبك لي أفضل جزء في جياتي. وداعاً، مرة أخرى وداعاً. وداعاً لكم جميعاً.

أخوك فيودور دوستويفسكي

ملحوظة: أخذوا مني عدة كتب أثناء الاعتقال. اثنان فقط كانا من الكتب الممنوعة. ألا تريد أن تحصل على الكتب الباقية؟ أحد تلك الكتب «مقالات فاليريان مايكوف النقدية»، وهو نسخة يفغينيا بتروفنا. وقد أعارتني إياها كقطعة من المجوهرات. أثناء الاعتقال طلبتُ من ضابط الجندرمة أن يسلمها هذا الكتاب وأعطيته عنوانها. ولا أدري هل أعاده إليها. رجائي أن تستفسر عن الموضوع. أنا لا أريد أن أنتزع منها هذه الذكريات. وداعاً، وداعاً مرة أخرى.

لا أدري هل سأمضي في التسفيرات ماشياً أم راكباً. أعتقد راكباً. يا ليت.

مرة أخرى شد على يد إميليا وقبِّل الأطفال بدلاً مني. وبلِّغ تحياتي ربما... إلى كرايفسكي أيضاً.

اكتبْ لي بمزيد من التفصيل عن اعتقالك وعن السجن وإطلاق سراحك.

---

(1) تعبير رسمي يقصد به تنفيذ حكم الإعدام.

(2) لقاء الكاتب مع أخيه تم في 24 من ديسمبر في يوم التسفيرات إلى سيبيريا.

(3) في الأصل بالفرنسية، نقلاً عن فيكتور هيغو..

(4) إشارة إلى إلغاء حكم الإعدام قبل ثلاثة أرباع الساعة من تنفيذه. هذا المشهد انعكس في رواية «الأبله».

(5) كانت درجة الحرارة 21 مئوية تحت الصفر والمحكومون ينتظرون الإعدام في قمصان بيضاء.

(6) أبو العتاهية. في الأصل بالفرنسية.

38. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

أومسك، 30 يناير - 22 فبراير 1854

أخيراً يبدو أنني أستطيع أن أتحدث إليك باستفاضة وبشكل أصح. ولكن قبل أن أكتب سطراً أسألك: لماذا لم تكتب لي حتى الآن ولا سطراً واحداً، أخبرني باللّه عليك، لماذا؟ (السلطات منعت ميخائيل من مراسلة أخيه 4 سنوات) وهل أتوقع منك ذلك؟ هل تصدق أنني، في وحدتي الانفرادية، واجهت القنوط الفعلي عدة مرات، متصوراً أنك لم تعد على قيد الوجود. وآنذاك كنت أفكر طوال الليالي ماذا سيحدث لأولادك، فلعنت مصيري لأني عاجز عن مساعدتهم. وفي مرات أخرى عندما عرفت أنك على قيد الحياة شعرت بغضب شديد، وكان ذلك في ساعات المرض، وهي كثيرة عندي، فصرت أسلط اللوم عليك بمرارة وألم. وفيما بعد زالت هذه الحالة، فسامحتك وحاولت أن أجد لتصرفك كل المبررات، وكنت أهدئ نفسي على أفضل تلك المبررات، ولم أفقد ثقتي وإيماني بك ولا مرة. فأنا أعرف أنك تحبني وتتذكرني بالطيب الحسن. بعثت إليك رسالة عن طريق هيئة الأركان، وكان لا بد أن تصل إليك.

وبقيت أنتظر منك جواباً لم أستلمه. هل يعقل أنهم منعوك؟ هذا شيء مسموح به، وكل السجناء السياسيين يستلمون عدة رسائل في العام. دوروف استلم عدة مرات. وقد أكدت الإدارة مرات كثيرة، في معرض الاستفسار منها عن الرسائل، السماح بكتابتها. أعتقد أنني حزرت سبب سكوتك الطويل. فإنك، بسبب خمولك، لم تراجع البوليس، وإذا كنت قد راجعته فإنك تهدأ بعد أول رد سلبي ربما من شخص غير ملم بالأمور جيداً. وبذلك سببت لي الكثير من المصائب الأنانية أيضاً. وكنت أفكر: «إذا كان لا يستطيع المطالبة بكتابة رسالة فهل يستطيع القيام بشيء أهم من أجلي؟» اكتبْ. أجبني بأسرع ما يمكن. قبل كل شيء اكتبْ بصورة رسمية دون انتظار مصادفة ما. اكتبْ بتفصيل أكثر وبإسهاب. أنا الآن كفلذة منتزعة منكم. وأريد للفلذة أن تعود إلى موضعها، لكنني عاجز عن إعادتها. الغائبون يجانبون الحقيقة دوماً. هل يعقل أن ذلك كان يجب أن يحصل بيننا؟ ولكنْ لا تقلق. أنا (الغائب) أثق بك.

منذ أسبوع خرجت من نظام الأشغال الشاقة. هذه الرسالة تأتيك في منتهى السرية. ولا يجوز التفوه بشأنها أمام أحد. على فكرة، سأبعث إليك أيضاً رسالة بالقنوات الرسمية من خلال أركان الفيلق السيبيري. أجب على الرسالة الرسمية فوراً، أما هذه فأجب عليها في أول فرصة سانحة. بالمناسبة ينبغي لك في جواب الرسالة الرسمية أيضاً أن تستعرض بأكبر قدر من التفصيل أهم ما كان في حياتك طوال هذه السنوات الأربع. أما بخصوصي أنا فيسرّني أن أكتب لك مجلدات كاملة، ولكن ما دام لا يوجد لدي الوقت الكافي حتى لهذه الرسالة فسأكتب الأهم فقط.

ما هو الأهم؟ وما الذي أعتبره هو الأهم بالنسبة لي في الآونة

الأخيرة؟ كلما فكرت في الأمر أستنتج أنني لن أصف لك شيئاً في هذه الرسالة. فكيف أنقل إليك دماغي، ومفاهيمي، وكل ما عايشته، وكل ما اقتنعت به وما توقفت عنده في هذه الفترة؟ لن أقوم بذلك. فهو عمل غير ممكن إطلاقاً. وأنا لا أحب القيام بعمل لحد النصف. بينما الكلام عن شيء ما بلهجة معتدلة لا يعني شيئاً. على فكرة، البلاغ الرئيسي أمامك. اقرأ واستنتج منه ما يحلو لك. أنا ملزم بالقيام بذلك. ولذا أبدأ بالذكريات.

هل تتذكر كيف افترقنا يا عزيزي وأخي الحبيب الغالي؟ حالما غادرتني أخذونا نحن الثلاثة، دوروف وياسترجيمبسكي وأنا، لتقييدنا بالسلاسل. وفي تمام الثانية عشرة، أي في عيد الميلاد، ارتديت السلاسل لأول مرة. وزنها قرابة عشرة أرطال والسير فيها صعب للغاية. ثم أجلسونا في زحافة مكشوفة كل واحد على حدة مع دركي، وتوجهنا على أربع زحافات من بطرسبورغ، ساعي البريد العسكري (ضابط الارتباط) في الأمام. كنت أشعر بثقل في القلب وبغموض مشوش ناجم عن الكثير من الأحاسيس المتنوعة. كان القلب يعيش حالة من الفوضى، ولذا كان يئن ويحزن دون وضوح. إلا أن الهواء الطلق أنعشني. وما دام المرء يشعر مع كل خطوة يخطوها في الحياة عادة بشيء من النشاط والحيوية فإنني كنت في الواقع هادئاً تماماً أتطلع باهتمام إلى بطرسبورغ وزحافاتنا تسير جنب البيوت المزينة بمناسبة العيد، وكنت أودع كل بناية ودار على حدة. ومررنا بشقتك. كما رأيت في منزل كرايفسكي إنارة أكثر. خبرني هل زيّن شجرة الميلاد وذهبت إليه إميليا مع الأطفال؟ بقرب هذا المنزل شعرت بحزن شديد وكأنني أودع الأطفال. كنت آسفاً عليهم.. وحتى فيما بعد، بمرور السنين، كنت أتذكرهم مراراً والدموع تترقرق في عينيّ.

سفّرونا لجهة ياروسلافل. وفي الصباح، بعد ثلاث أو أربع محطات توقفنا أمام مقهى في شليسيلبورغ. هرعنا إلى أكواب الشاي وكأننا لم نذق طعاماً من أسبوع. فبعد ثمانية أشهر من السجن شعرنا بجوع شديد في الفرسخ الستين من سفرتنا في الشتاء لدرجة أفقدتنا الذاكرة. أنا كنت مرحاً، وكان دوروف يثرثر بلا انقطاع، فيما كانت تلوح في دماغ ياسترجيمبسكي مخاوف رهيبة من المستقبل. كنا جميعاً نتابع ساعينا العسكري ونجربه، واتضح أنه شيخ طيب حسن المعشر يعاملنا معاملة إنسانية بالقدر الذي يمكن تصوره عن ضابط ارتباط مجرب جاب أوروبا كلها حاملاً الرسائل العاجلة. وقد قدم لنا الكثير من الخدمات الطيبة في الطريق. اسمه كوزما بروكوفيف. على فكرة، لقد نقلنا كوزما إلى العربات المسقوفة، وكان في ذلك نفع كبير لأن الزمهرير لا يطاق. اليوم التالي كان يوم العيد. الحوذية ركبوا الزحافات معنا، وهم يرتدون قفاطين من الجوخ الألماني الرمادي ومآزر حمراء (فوق المعاطف الدافئة)، ولا أحد في شوارع القرى. كان الجو شتوياً رائعاً. ساروا بنا في البراري على طريق بطرسبورغ ونوفغورود وياروسلافل وهلمجرا. المدن متباعدة ومظهرها لا يثير الاهتمام. إلا أننا دخلناها في العيد، ولذا كان هناك ما يؤكل ويُشرب. وتعرضنا لزمهرير فظيع. كنا نرتدي ملابس دافئة، إلا أن الجلوس عشر ساعات تقريباً من دون مغادرة العربة والقيام بتبديل الجياد 5-6 مرات شيء لا يطاق. نخر البرد عظامي حتى النخاع. ولم أتمكن من أن أتدفأ فيما بعد في الغرف الدافئة إلا بشق الأنفس. والغريب أن الطريق حسَّن أوضاعي الصحية. ففي محافظة بيرم تجمدنا ليلة بدرجة حرارة 40 مئوية تحت الصفر. وأنا لا أنصحك بذلك. إنه لأمر غير مريح! وكانت حزينة فترة عبور الأورال. الخيول

والعربات تغوص في أكوام الثلوج، والزوبعة الثلجية تصفر. خرجنا من العربات، وكان الوقت ليلاً وبقينا ننتظر حتى يتم سحبها. الثلج في كل مكان والزوبعة تفحّ على حدود أوروبا، وأمامنا سيبيريا والمصير الغامض فيها، ووراءنا الماضي كله. موقف حزين. وانبجست الدموع. على امتداد الطريق كانت قرى كاملة تهرع للتفرج علينا، ورغم السلاسل التي تقيدنا كانوا يأخذون منا في المحطات أضعاف المطلوب. الساعي العسكري كوزما وحده تكفل قسراً بحوالي نصف مصروفاتنا. ولذلك دفع كل واحد منا 15 روبلاً فضياً فقط على مصروفات الطريق. في 11 يناير وصلنا إلى توبولسك. وبعد أن قدمونا إلى الإدارة وفتشونا وصادروا كل نقودنا، زجّونا، أنا ودوروف وياستيرجيمبسكي، في حجرة خصوصية صغيرة، فيما كان الآخرون، سبيشنيف والذين وصلوا قبلنا، مسجونين في قسم آخر. ولم نر بعضنا بعضاً طول الوقت تقريباً. بودّي أن أتحدث بمزيد من التفصيل عن تواجدنا في توبولسك لمدة ستة أيام. وعن الانطباع الذي تركته تلك الأيام في نفسي. ولكن المجال هنا لا يتسع. أكتفي بالقول إن المشاطرة والتعاطف الحي منحانا السعادة تقريباً. المنفيون من الأزمان البعيدة، وعلى الأصح زوجاتهم وليس هم، سهروا علينا كما لو كنا من أهلهم. ما أروع هذه القلوب التي جربتها خمسة وعشرون عاماً[1] من المحن والتضحية بالنفس. رأيناهم بصورة خاطفة، بسبب التشدد الكبير تجاهنا. إلا أنهم أرسلوا لنا الطعام والثياب، وقاموا بمواساتنا وتشجيعنا. أنا، بعد أن بدأت التسفيرات من غير ثياب دافئة، لم آخذ حتى بدلتي، أسفت كثيراً لذلك. فأرسل لي المنفيون بدلة. وأخيراً غادرنا ووصلنا إلى أومسك بعد ثلاثة أيام. وعندما كنا في توبولسك عرفت بآمرينا المباشرين الذين سنكون في

عهدتهم. القومندان رجل شريف. إلا أن الميجر الميداني كريفتسوف لئيم من أحقر الناس. إنه بربري متوحش، سكير ومشاكس، فيه كل ما يمكن تصوره من منفرات.

بدأ بشتمنا، أنا ودوروف، على قضيتنا وهدد بجلدنا في أول تصرف خاطئ من جانبنا. كان للعام الثاني في رتبة ميجر ميداني، واقترف أبشع المظالم.

وبعد عامين أحيل إلى المحكمة. وخلصني اللّه منه. كان يداهمنا دوماً في حالة سكر، ولم أره مرة صاحياً. ويأخذ بخناق السجين الصاحي ويضربه بحجة أنه سكران لأقصى حد. وفي التفقد الليلي يضربه أحياناً لمجرد أنه ينام على جنبه الأيمن أو يهذي ويتأوه في المنام، ولأية ذريعة تتبادر إلى الرأس المخمور. كان علينا أن نتعايش مع هذا الشخص دون أن نصاب بأذى. وكان هو يرفع التقارير ويبيع شهادات واقع الحال عنا كل شهر في بطرسبورغ. تعرفت على المحكومين بالأشغال الشاقة منذ أن كنا في توبولسك. وهنا في أومسك كنت أتوقع أن أعيش معهم أربعة أعوام. إنهم أناس غلاظ انفعاليون وموتورون. حقدهم على النبلاء يتجاوز كل الحدود، ولذا استقبلونا، نحن أبناء طبقة النبلاء، بعداء وشماتة على المصيبة التي حلّت بنا. كانوا على استعداد أن يأكلونا لو سمح لهم بذلك. بالمناسبة، حكم عقلك، هل كانت الحماية كافية ونحن مضطرون أن نعيش ونقتات وننام عدة سنوات مع هؤلاء الناس، وليس هناك من نشتكي إليه أو يسمع شكوانا من شتى الإهانات اللاإنسانية: «أنتم النبلاء نقرتمونا بأنوفكم الفولاذية، في السابق كنتم أسياداً تعذبون الناس، واليوم صرتم كسائر الناس وأسوأ منهم». هذا هو الموضوع الذي تكرر طوال أربعة أعوام. 150 من الأعداء كانوا يلاحقوننا بلا

كلل. كانت تلك هي تسليتهم المحببة وشغلهم الشاغل. وما كنا نتخلص من هذه المصيبة إلا باللاأبالية وعدم الرضوخ لإرادتهم وبالتفوق الخلقي الذي ما كان بوسعهم أن يتجاهلوه أو لا يحترموه. كانوا يدركون دوماً أننا أرقى منهم. ولم يكونوا يفهمون الجريمة التي نسبت إلينا. نحن التزمنا الصمت بهذا الخصوص، ولذا لم نكن معهم نفهم بعضنا بعضاً. وتعيَّن علينا أن نتحمل الثأر والانتقام الذي يعيشون عليه ويتنفسون تجاه طبقة النبلاء[2]. كانت حياتنا سيئة للغاية. الأشغال الشاقة العسكرية أثقل من المدنية. أمضيت السنوات الأربع كلها رهين المحبس وراء الجدران، لا أغادرها إلا للعمل. وكان من نصيبي عمل شاق حقاً، ليس دوماً بالطبع، وكان عليَّ أن أستهلك آخر طاقاتي، في الجو المكفهر، في البلل والوحول أو في الشتاء القارس لدرجة لا تطاق. ذات مرة قضيت أربع ساعات في عمل طارئ عندما تجمد الزئبق، وبلغت درجة الحرارة ربما 40 تحت الصفر. تجمدت ساقي. كنا نقيم سوية في ثكنة واحدة. فتصور القاووش الخشبي العتيق البالي الذي كان ينبغي تجريفه من زمان ولم يعد صالحاً للخدمة. في الصيف جو خانق، وفي الشتاء برد لا يطاق. خشب الأرضية متعفن. والأرضية نفسها قذرة بطبقة سميكة من الأوساخ يمكن أن ينزلق الشخص عليها ويسقط. النوافذ الصغيرة متجلدة ولا يمكن القراءة طول النهار تقريباً. طبقة الجليد على الزجاج بسمك عدة سنتمترات. ومن السقف تتساقط قطرات. والريح تصول وتجول في الداخل. نحن كالسمك المعلب. تسخين الفرن يجري بست حطبات سميكة ولا دفء هناك. فالجليد في الغرفة لا يكاد يذوب. وروائح الدخان لا تُحتمل. ذلك هو الشتاء. وفي الثكنة يغسل السجناء ثيابهم فتبتل الثكنة الصغيرة عن آخرها. والتحاشك لا يتيح للشخص حتى أن

يستدير. ومن الغسق حتى الشفق يُمنع الخروج لقضاء الحاجة، وتُقفل الثكنة. ويوضع في المدخل للتبول برميل ذو عروتين. ولذا فالجو خانق جداً. والروائح الكريهة تفوح من جميع السجناء كما من الخنازير. وهم يقولون إنهم لا يستطيعون أن يتجنبوا سلوك الخنازير لأنهم «كائنات حية» مثلها. ننام على أسرَّة خشبية من دون حشية. ولكل منا وسادة واحدة. نلتحف معاطف قصيرة، وأقدامنا عارية طول الليل. نرتجف من البرد طول الليل. والبراغيث والقمل والصراصر أكوام لا تعد ولا تحصى. في الشتاء نرتدي معاطف قصيرة، من أسوأ الأنواع في الغالب، ولا تدفئ تقريباً. ونحتذي جزمات لا تكاد أطرافها القصيرة تغطي الساقين ولا تقي من الزمهرير. وعندما يعطوننا رغيفاً مع حساء يحتوي على ربع رطل من اللحم للشخص الواحد فإن اللحم يضعونه مفروماً ولم أره مرة في الحساء. وفي العطل والأعياد يعطوننا عصيدة من دون زبدة تقريباً. وفي الصيام يعطوننا قرنبيطاً بالماء ولا شيء آخر تقريباً. اضطربت معدتي في ألم لا يُحتمل، فمرضتُ عدة مرات. فهل يمكن العيش والحال هذه بلا نقود؟ لو لم تكن معي نقود لهلكت حتماً. ولا أحد من المساجين يتحمل حياة كهذه. كل واحد منهم يمارس عملاً ما ويبيع ما يبيع ولديه فلوس. أنا كنت أحتسي كوب الشاي وأتناول أحياناً شريحة من لحم البقر، وهذا ما أنقذني. عدم التدخين غير ممكن. وكان بالإمكان الاختناق في هذا الجو العفن. ذلك كله يجري بالخفية. كنت غالباً ما أرقد مريضاً في المشافي. وبسبب الاضطراب العصبي أصبت بالصرع[3]، ولكن في حالات نادرة. كما أعاني من الروماتيزم في القدمين. وفي ما عدا ذلك أشعر بأن صحتي لا بأس بها. أضف إلى هذه المنغصات تعذر الحصول على الكتاب تقريباً. وما أحصل عليه أقرأه خفية. العداء

المتواصل والشجار الدائم حوالي والشتائم والصياح والصخب والضجيج، وكوني دوماً تحت الحراسة لا يتركونني وحدي، كل ذلك، على مدى أربع سنوات دون تغيير، شيء قد لا يجوز التسامح مع من يقول بخصوصه إنه رأى أسوأ منه. وإلى ذلك هناك الشعور بالمسؤولية الذي يلاحقنا دوماً، هناك القيود والسلاسل والمضايقة التامة للروح- تلك هي صورة وجودي وحياتي. لن أحدثك عما حصل لروحي، لمعتقداتي، لعقلي وقلبي خلال هذه السنوات الأربع. هذا الحديث يحتاج إلى وقت طويل. إلا أن التركيز المتواصل على الذات والذي لجأت إليه فراراً من الواقع المرير عاد بثماره. فلدي الآن متطلبات وطموحات كثيرة لم أكن أتصورها. إلا أن تلك ألغاز ولذلك أمرّ عليها مر الكرام. الشيء المهم هو أن لا تنساني، تذكَّرني وساعدني. أنا بحاجة إلى الكتب والنقود. فأَرسلْها لوجه المسيح!

أومسك مدينة صغيرة مقيتة. لا أشجار فيها تقريباً. الصيف شديد الحرارة مع عواصف رملية، وفي الشتاء زوابع ثلجية. لم أر أثراً للطبيعة. المدينة عسكرية قذرة، ومتفسحة أخلاقياً لأبعد الحدود. أنا أتحدث عن العامة المتجهمة. ولو لم أجد هنا أناساً طيبين لهلكت وانتهى أمري. على سبيل المثال ك. إيفانوف، يصح فيه القول «رب أخ لم تلده أمك». لقد فعل من أجلي كل ما يستطيع. وأنا مدين له ببعض النقود. فإذا جاء إلى بطرسبورغ اشكره. أنا مدين له بـ 25 روبلاً فضياً. ولكن بماذا نرد الجميل امتناناً على الترحاب والاستعداد الدائم لتنفيذ مختلف الطلبات والاهتمام والعناية التي لا يبديها الشخص إلا لأخيه من أمه وأبيه. وليس إيفانوف الوحيد. ففي الدنيا، يا أخي، كثير جداً من الناس الطيبين.

سبق وكتبت أن صمتك كان يعذبني أحياناً. شكراً على تحويل

النقود. مع أول رسالة، ولو كانت رسمية، لأنني لا أعرف حتى الآن هل أستطيع أن أبعث إليك معلومات، مع أول رسالة اكتبْ لي تفصيلاً عن أحوالك، وعن زوجتك إميليا والأولاد وعن جميع الأهل والأقارب والمعارف. في موسكو، من منهم على قيد الحياة ومن توفاه اللّه وعن أمورك التجارية، اكتبْ لي من أين لك رأس المال الذي صرت تمارس به التجارة، وهل هي مربحة، وهل لديك شيء، وأخيراً هل تستطيع مساعدتي مالياً، وكم تستطيع أن تبعث لي سنوياً[4]. ولكن لا ترسل النقود بالرسائل الرسمية، إلا إذا لم أجد أنا عنواناً آخر. أرسل الآن من ميخائيل بتروفيتش. مفهوم؟[5] علماً بأنه لا تزال لدي بقية من نقود، ولكن ليس عندي كتب. إرسل لي، إذا إستطعت، مجلات هذا العام، «مذكرات الوطن» على الأقل. إلا أن المهم أنني بحاجة ماسة إلى المؤرخين القدامى بالترجمة الفرنسية والمحدثين[6] وكذلك الإقتصاديين وآباء الكنيسة. أَرسلْ هذه الكتب من كل بد. اختر الأرخص والأصغر مقاساً. سيتم تسفيري إلى سيميبالاتينسك، في سهب قرغيزيا تقريباً. وسأبعث إليك العنوان. وأسجله هنا أيضاً على سبيل الاحتياط: (...) وهو عنوان رسمي ابعث الرسائل عليه. أما بالنسبة للكتب فسأرسل لك عنواناً آخر. أما الآن فاكتبْ لي باسم ميخائيل بتروفيتش. وليكن في علمك أن أول كتاب أنا بحاجة إليه هو المعجم الألماني[7].

لا أدري ماذا ينتظرني في سيميبالاتنسك. وأنا أشعر بشيء من اللاأبالية تجاه هذا المصير. لكنني لست أبالياً تجاه أمر آخر. حاول أن تتشفع لي، واطلب ممّن يستطيع أن يتشفع لي بإرسالي إلى القوقاز (للخدمة الفعلية في الجيش) بعد عام أو عامين. فالقوقاز، على أية حال، روسيا. تلك هي رغبتي الشديدة. فتشفع لوجه المسيح. لا

تنسني يا أخي. ها أنا أكتب لك وأتصرف بكل شيء حتى بأمورك المالية. إلا أن ثقتي بك لم تخفت. أنت أخي، وقد أحببتني. أنا بحاجة إلى النقود. وعليّ أن أعيش يا أخي. لن تكون هذه السنوات عجافاً. أنا بحاجة إلى النقود والكتب. كل ما تنفقه عليّ لن يذهب هباءً. أنت لا تسرق أطفالك إذا أعطيتني. وسأعيده إليهم وزيادة إذا بقيت على قيد الحياة. أكيد سيسمحون لي بالنشر بعد ست سنوات أو قبل ذلك. أمور كثيرة ستتغير. وأنا لن أكتب تفاهات بعد الآن. وستأتيك أخباري.

سنلتقي، يا أخي، قريباً جداً. أنا واثق من ذلك ثقتي ببديهيات الحساب. روحي في وضوح. كل مستقبلي وكل ما سأقوم به يلوح أمام أنظاري. وأنا راض على حياتي. الشيء الوحيد الذي يمكن أن أخشاه هو الأشخاص والاستبداد. تأتي إلى رئيسٍ فيكرهك، والرؤساء من هذا النوع موجودون. يبحث عن النواقص، فنهلك بسببها أو يهلكنا بالخدمة، وأنا ضعيف القوى لا أستطيع بالطبع تحمُّل كل أعباء الجنود. يقول لي البعض مشجعين: «كل الناس هناك بسطاء». والحقيقة أنا أخشى الشخص البسيط أكثر من المعقد. على فكرة، الناس سواء في كل مكان. وفي الأشغال الشاقة، بين قطاع الطرق، تمكنت في أربع سنوات أن أميز أخيراً بين الناس. هل تصدق؟ هناك طباع قوية عميقة رائعة، وكم كان مبعثاً للمرح البحث عن الذهب تحت القشرة الخشنة. تلك ليست الحالة الوحيدة أو الثانية. بل عدة حالات. البعض منهم يستحقون الاحترام، والبعضِ الآخر رائعون بلا جدال. علّمت اللغة الروسية شاباً شركسياً محكوماً بالأشغال الشاقة لجريمة نهب وسلب، فما أكثر ما أمطرني به من امتنان وتشكرات. وسجين آخر بكى عندما ودعني. كنت أعطيته نقوداً، على قلّتها،

فكانت تشكراته بلا حدود. علماً بأن طباعي تردت. كنت معهما سريع الانفعال نافذ الصبر. وهما يقدران حالتي النفسانية، فكانا يتحملان دون أثر للتشكي. وبالمناسبة ما أكثر ما خرجت به من النماذج والصور والطباع الشعبية من الأشغال الشاقة. لقد تعايشت معهم، ولذا يخيل إليَّ أنني أعرفهم جيداً. ما أكثر المصائر التي تجوب (منطقة الجنايات) وما أكثر قطاع الطرق، وعموماً ما أكثر أصحاب السوابق الحزانى في تلك المعيشة الكالحة. تلك النماذج البشرية تكفي لكتابة مجلدات. فما أغرب هذا الشعب. وما أروعه. عموماً الوقت ليس ضائعاً أو مضيعاً بالنسبة لي. فقد عرفت الشعب الروسي، إنْ لم أقل روسيا، جيداً. عرفته بالقدر الذي لا يعرفه فيه إلا القليلون. هذا ما تقوله كبريائي المتواضعة. فلا مؤاخذة.

اكتبْ لي، يا أخي، حتماً عن جميع الملابسات الرئيسية لحياتك. ابعث الرسائل إلى سيميبالاتنسك رسمياً وبالشكل غير الرسمي الذي تعرفه. اكتبْ عن جميع معارفنا في بطرسبورغ، اكتبْ عن الأدب، آخر تفاصيله، وأخيراً عن معارفنا في موسكو. كيف حال أخي نيقولاي؟ وكيف حال أختي ألكساندرا، وهذا هو المهم، هل خالي على قيد الحياة، كيف حال أخي أندريه؟ أنا أراسل زوجة خالي بواسطة أختنا فيرا، بالمناسبات. هذه الرسالة بالخفية. باللّه عليك، احتفظ بهذه الرسالة خفية، بل أحرقها كيلا نسيء إلى سمعة الناس. ولا تنس تزويدي بالكتب، يا صديقي الحميم. المهم مؤلفات المؤرخين والاقتصاديين ومجلدات «مذكرات الوطن» ومدوّنات الآباء الكنسيين وتاريخ الكنيسة. أَرسلْها في أوقات مختلفة، ولكن أَرسلْها حتماً. أنا أتصرف بجيبك وكأنه جيبي. وسبب ذلك هو جهلي بإمكانياتك المادية. اكتبْ لي عنها بشكل دقيق، لكي آخذها بنظر الاعتبار. وليكن

في علمك، يا أخي، أن الكتب هي حياتي، هي طعامي. هي مستقبلي. فلا تتركني باللّه عليك. لوجه الرب الخالق. اطلب سماحاً واستفسر هل يمكنك أن ترسل لي الكتب رسمياً؟ بالمناسبة، اسألهم بحذر. إذا سمحوا رسمياً فابعثْ. وإلا فعن طريق الأخ ق. إ. (قسطنطين إيفانوفيتش - ملاحظة المترجم). وهو نفسه سيكون في بطرسبورغ هذا العام. وسيحدثك عن كل شيء. عن عائلته، عن زوجته. هذه السيدة هي كريمة (الثوري) الديسمبري آنينكوف. سيحدثك عن طيبة القلب، عن النفس الرائعة، وكم تحملوا من معاناة!

سأحاول أن أعثر لك على عنوان آخر في سيميبالاتنسك التي سأتوجه إليها بعد أسبوع. أنا لا أزال متوعكاً بعض الشيء. ولذا أرجأوا سفري إلى هناك مؤقتاً. أَرسلْ لي نسخة من القرآن[8] وكذلك «نقد العقل الخالص» لكانْت. وإذا كنتَ قادراً على إرسال شيء بصورة غير رسمية أَرسلْ لي من كل بد هيجل، وخصوصاً كتابه «تاريخ الفلسفة». مستقبلي كله مرتبط بذلك. ولكن أرجوك، باللّه عليك، اسألهم بخصوص تنسيبي إلى القوقاز، واسأل من العارفين هل يحق لي أن أنشر، وما صيغة الطلب بهذا الخصوص. سأطلب بعد عامين أو ثلاثة. وحتى ذلك الحين أطعمني رجاءً. فبلا نقود الجنود سيخنقونني. ثم انظر، ألا يستطيع أقرباؤنا الآخرون أن يساعدوني بشيء ولو للمرة الأولى؟ في هذه الحالة فليسلموك النقود وأنت ترسلها لي. على فكرة، في رسائلي إلى فيرا وإلى زوجة خالي أنا لا أطلب منهما مساعدة. ويمكنهما أن تحزرا إذا أمرهما القلب.

عندما سافر فيليبوف إلى سيواستوبول أهداني 25 روبلاً فضياً. تركها عند القومندان نابوكوف كي لا أعرف بالموضوع. كان يتصور أنني لن أمتلك نقوداً. ما أطيب قلبه. جميع المنفيين عندنا يعيشون

بتواضع. تول أنهى فترة الأشغال الشاقة، وهو في تومسك يعيش بلا إشكالات. ياستارجيمبسكي على وشك إنهاء الأشغال الشاقة بمدينة تارا. سبيشنيف في محافظة إركوتسك يتمتع بحب الجميع واحترامهم. عجيب مصير هذا الإنسان. فأينما وكيفما ظهر يحيط به الناس رأساً زرافات ووحداناً ويغرقونه بالاحترام والتقدير. بتروشيفسكي لا يزال كالسابق بعيداً عن العقل السليم.[9] مومبيلي ولفوف في صحة جيدة. أما المسكين غريغوريف فقد اختل عقله نهائياً وهو في المستشفى. وأنتم كيف الحال عندكم؟ هل تلتقي السيدة بليشييفا؟ كيف حال ابنها؟ سمعت من سجناء التسفيرات أنه حي يرزق في سجن قلعة أورسكايا. أما غولوفينسكي فقد نُقل إلى القوقاز من زمان. ما موقفك من الأدب ووضعك فيه؟ هل تكتب شيئاً؟ ماذا عن كرايفسكي، وما هي علاقاتك به؟ أوستروفسكي[10] لا يعجبني. أنا لم أقرأ بيسيمسكي. مقالات دروجينين تبعث في نفسي الغثيان. أعجبت كل الإعجاب بيفغينيا تور. كريستوفسكي تعجبني أيضاً[11].

بودّي أن أكتب لك الكثير، لكن وقتاً طويلاً مضى لدرجة أجد فيها صعوبة حتى مع هذه الرسالة. فليس معقولاً أن أموراً بهذا القدر تغيرت فينا أحدنا تجاه الآخر. قبّل الأطفال. هل يتذكرون عمهم فيودور؟ تحياتي لجميع معارفنا، لكن هذه الرسالة يجب أن تبقى طي الكتمان. وداعاً، وداعاً يا عزيزي الغالي. ستسمع عني، ولربما ستراني. نعم سنلتقي حتماً. أليس كذلك؟ وداعاً. اقرأ جيداً كل ما أكتبه إليك. اكتبْ لي أكثر، ولو رسمياً. أعانقك وجميع أفراد العائلة مرات لا تعد ولا تحصى.

المخلص

ملحوظة: هل استلمت «حكاية أطفال» التي كتبتها في سجن القلعة؟ إذا كانت عندك لا تتصرف بها ولا تعرضها على أحد. من هو تشيرنوف الذي كتب (قصة) «الشبيه» عام 50. (في محاكاة لرواية دوستويفسكي «الشبيه»- ملاحظة المترجم). وابعثْ لي، رجاءً، سيجار، ولو رديئة بشرط أن تكون أميركية، وكذلك سجائر لف فيها مفاجآت حتماً.

22 فبراير

غداً على الأرجح سيسفرونني إلى سيميبالاتنسك. وسيبقى ق. إ. هنا حتى مايو. وأعتقد أنك تستطيع، إذا أردت، أن ترسل لي شيئاً ما، كالكتب مثلاً، على الاسم السابق ميخائيل بتروفيتش.

للمراسلة مع سيميبالاتنسك ربما سأزودك بعنوان آخر، غير رسمي. ولكن اكتبْ لي على العنوان الرسمي بأسرع وأكثر ما يمكن. اسعَ من أجلي باللّه عليك. هل يمكن تسفيري إلى القوقاز أو أية جهة أخرى بعيداً عن سيبيريا؟

من الآن فصاعداً سأكتب روايات ومسرحيات، وإلى ذلك بقي الكثير، الكثير جداً، مما يجب أن أقرأه. لا تنسني. وداعاً مرة أخرى. قبّل الأولاد. إلى اللقاء! المخلص.

---

(1) الخدمة الإلزامية في الجيش القيصري آنذاك 25 عاماً.

(2) الملاك العقاريين والإقطاعيين. ألغي نظام القنانة والعبودية في روسيا رسمياً عام 1861.

(3) هذه أول إشارة إلى إصابة دوستويفسكي بالصرع. وبين الباحثين من يقول إن الكاتب أصيب بهذا المرض في الطفولة.

(4) يحتمل أن يكون الكاتب قرأ في الجرائد الإعلان الذي نشره أخوه ميخائيل حول تجارة السجائر. ويرجح أن ميخائيل بدأ يمارسها في بطرسبورغ بعد أن استلم حصته من تركة الوالد.

(5) الأرجح أن هذا اسم مستعار.

(6) فيكو وغيفو وتيير ورانكيه وهلمجرا. (ملاحظة دوستويفسكي)

(7) تفيد بعض المعلومات أن دوستويفسكي كان آنذاك ينوي ترجمة «الفلسفة» لهيجل وغيرها.

(8) أول طبعة لترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية صدرت بمرسوم من القيصر بطرس الأكبر في عام 1716.

(9) موقف دوستويفسكي من بيتروشيفسكي، زعيم الحركة الثورية المسماة باسمه والتي حكم على الكاتب بسبب الانتساب إليها، متناقض لغرابة أطواره، قال عنه: «عقل بيتروشيفسكي أكبر من عقلانيته»، لكن دوستويفسكي أكد في الوقت ذاته أنه يكنّ له كل الاحترام لنزاهته ونبله.

(10) فيما بعد قرأ دوستويفسكي مسرحيات ألكسندر أوستروفسكي وأعجب بها.

(11) كريستوفسكي اسم مستعار للكاتبة خفوشينسكايا التي بدأت تنشر في «مذكرات الوطن» عام 1850.

39. إلى نتاليا فونفيزينا

أومسك، يناير- فبراير 1854

وأخيراً، يا مثال الطيبة والأريحية السيدة ن. د.[1]، أكتب إليك بعد أن خرجت من المكان السابق. في المرة الأخيرة التي كتبت فيها إليك كنت مريضاً نفسياً وبدنياً. كانت الكآبة تنهشني، وأظن أني كتبت رسالة مشوشة للغاية.. هذه الحياة الطويلة الكالحة المرهقة مادياً ومعنوياً قهرتني. وأنا أحزن دوماً عندما أكتب الرسائل في مثل هذه اللحظات. من الجبن والتخاذل، في اعتقادي، إلقاء الأحزان في تلك اللحظات على الآخرين، مهما كانوا يميلون إلينا. أرسل هذه الرسالة في فرصة مناسبة، وأنا مسرور جداً لأنني أستطيع أن أتكلم معك هذه المرة، خاصة وأنهم نسبونا إلى الكتيبة السابعة في سميبالاتينسك ولا أدري كيف أستطيع فيما بعد أن أكتب لك الرسائل أو أستلمها منك. لقد كتبتِ لي من زمان عن أخي. آنذاك أعددت رسالتين لك وله، لكنني خشيت أن أرسلهما، وأعتقد حسناً فعلتُ. قرأت كل عناوينك في رسالتك إلى س. د. (سرغي دوروف) وسآخذها منه على سبيل الاحتياط. ولربما هي عناوين مأمونة، إلا أن رسالتك الأخيرة وصلت

مفتوحة، ولذا لا بد من التزام الحذر الشديد. الأفضل، لو أردت أن تسعديني بالكتابة إليّ، أن تعنونيها إلى أخي في بطرسبورغ، أو أنه يأتي إليك بنفسه، ليس أكيداً، ويلتقيك شخصياً. أو يبعث إليك شخصاً موثوقاً به. أخي يمارس التجارة الآن. ولذا أعتقد أن العثور على عنوانه ليس صعباً، في المطبوعات مثلاً. أنا شخصياً لا أعرف عناوينه. بالمناسبة أنا لا أنصحك بالاعتماد على البريد. فما دام يتنقل بين موسكو وبطرسبورغ، على ما أعتقد، أشخاص من معارفك فالأفضل توصيل الرسالة المعنونة لي إليه عن هذا الطريق. وبالتالي سأتراسل مع أخي فقط. . والأفضل في مثل هذه الأحوال أن يكون هناك اتصال واحد وليس اثنان. فهذا آمن وأسلم. وإذا وجدت، بالمناسبة، فرصة مأمونة ولا ضرر فيها للكتابة إليَّ بطريقة أخرى فسيكون ذلك أيضاً شيئاً رائعاً، بل وأفضل من كوني لا أعرف فيما بعد الطريقة التي يتعين عليَّ أن أكتب فيها لأخي. إنني أعتمد عليه لأن المراسلة معه تتم من كل بد. ثم إنك تقيمين في مارينو، وهذا طريق عادي من موسكو إلى قريتنا في محافظة تولا. لقد قطعت هذا الطريق قرابة عشرين مرة ذهاباً وإياباً، ولذا أستطيع أن أتصور بوضوح مكان إقامتك الجبرية، والأصح محبسك الجديد. ما أشد الارتياح الذي أقرأ فيه رسائلك يا ن. د.(نتاليا دميتريفنا) الغالية. تكتبينها بأروع صورة، أو الأفضل أن أقول إن رسائلك تنساب برفق وهدوء من أعماق قلبك الطيب المحب للإنسانية. هناك نماذج ذات طباع انطوائية موتورة نادراً ما تجد في نفسها لحظة طيبة للتواصل مع الآخرين. أنا أعرف مثل تلك الطباع. ولكنهم عموماً ليسوا من الأشرار، بل على العكس تماماً.

لا أدري تحديداً، لكنني أستشف من رسالتك أنك وجدت مسقط

رأسك مجدداً بحزن واكتئاب. أنا أفهم ذلك. لقد فكرت مراراً أنني إذا عدت في زمن ما إلى مسقط رأسي فسأجد في انطباعاتي أحزاناً تفوق المسرات. أنا لم أعش حياتك، ولا أعرف الكثير فيها، كما لا يعرف أي إنسان في حياة إنسان آخر. إلا أن الشعور الإنساني فينا مشترك. ويخيل إليَّ أن كل منفي عندما يعود إلى موطنه يستحضر من جديد، في الوعي وفي الذكريات، جميع مصائبه السابقة. ذلك يشبه الميزان الذي تزن وتعرف من خلاله على وجه الدقة الوزن الحقيقي لما تحملته وعانيته وفقدته، ولما انتزعه منا الناس الطيبون. بارك اللّه فيك وأمد في عمرك. لقد سمعت من الكثيرين أنك متديّنة متعبدة، أقول لك يا (نتاليا دميتريفنا)، ليس لأنك متدينة، بل لأنني عايشت ذلك وتلمسته، إن الإنسان في هذه اللحظات يتعطش «كالعشب الجاف»[2] إلى الإيمان ويجد السبيل إليه، في الواقع لأن الحقيقة تتضح في المصائب والملمات. عن نفسي أقول لك إنني ابن عصري وزماني، ابن الشكوك وغياب الإيمان حتى الآن، وربما حتى اللحد، أنا أعرف ذلك. فما أشد العذابات الفظيعة التي كنت ولا أزال أتحملها ثمناً لتعطشي إلى الإيمان الذي يزداد في روحي كلما ازدادت الذرائع والحجج المضادة. إلا أن الخالق يهبني أحياناً لحظات أكون فيها هادئ البال تماماً. وفي تلك اللحظات أنا أحب، وأرى أنني محبوب من قبل الآخرين، وفي مثل تلك اللحظات جمعت في نفسي مكونات رمز الإيمان الذي كل شيء فيه بالنسبة لي واضح ومقدس. هذا الرمز بسيط للغاية: الإيمان بعدم وجود ما هو أروع وأعمق وأجمل وأرجح عقلاً وأكثر بسالة وكمالاً من (السيد) المسيح. لا أقول مجرد عدم وجود مثيل له، بل أقنع نفسي بكل محبة وحرص بأن لا مثيل له إطلاقاً. والأكثر من ذلك لو استطاع شخص ما أن يثبت لي

بأن المسيح خارج عن الحقيقة، وأن الحقيقة بالفعل خارج المسيح لفضلت البقاء مع المسيح وليس مع الحقيقة.

لكن الأفضل أن نكف عن الكلام في هذا الموضوع. ولا أدري، على فكرة، لماذا أبعدت بعض مواضيع الحوار نهائياً عن التداول في المجتمع، وإذا تكلم البعض فيها على نحو ما يبدو هذا الكلام وكأنه يخدش أسماع البعض الآخر. فلنترك هذا الموضوع جانباً. سمعت أنك تنوين السفر إلى الجنوب، فعلى بركة اللّه. ولكن، خبريني رجاءً متى سنكون أحراراً تماماً، أو، على الأقل كسائر الناس؟ عندما تنتفي الحاجة إلى الحرية كلياً؟! فيما يخصني شخصياً أنا أتمنى إما الكل أو لا شيء. ففي معطف الجندي أنا أسيرٌ أيضاً كالسابق. وما أكثر سروري لأنني أجد في نفسي صبراً يكفي لوقت طويل، وأنني لا أرغب في خيرات الدنيا، ما عدا الكتب وإمكانية الكتابة والبقاء وحيداً لعدة ساعات كل يوم. النقطة الأخيرة تشغل بالي كثيراً. فقريباً جداً سأعيش عامي الخامس وأنا تحت الحراسة أو بين جمع من الناس، ولم أكن وحدي ولا ساعة واحدة. بقاء الشخص وحده حاجة في طبيعة الأشياء، كالشرب والأكل، وإلا يتحول في هذه الشيوعية القسرية إلى كاره لبني آدم. ، فيما يتحول المجتمع البشري إلى سم ووباء. ومن هذا العذاب الذي لا يطاق كانت حصتي أكثر من غيرها طوال هذه السنوات الأربع. وصادفتني لحظات شعرت فيها بالكراهية لكل من أصادفه سواء كان على حق أو باطل. وكنت أنظر إليهم كما أنظر إلى أعداء سرقوا مني حياتي دون أن يتلقوا العقاب. إن أكبر مصيبة لا تطاق هي عندما يتحول الشخص إلى جائر حقود كريه، ويدرك ذلك ويلوم نفسه ولا يستطيع أن يسيطر على الموقف أو يغيره. لقد مررت بهذه التجربة. وأنا واثق بأن اللّه خلصك من هذا الشعور.

أنا أفكر فيك كامرأة لديها الكثير من الطاقات على التحمل والمسامحة.

اكتبي لي شيئاً. يا ن. د. سيتم تسفيري إلى مجاهل آسيا، وهناك في سيميبالاتنسك، يتركني، على ما أعتقد، الماضي كله، كل انطباعاتي وذكرياتي، لأن آخر الأشخاص الذين كانوا أمامي كظلي في الماضي سيفترقون عني. أنا أتعايش مع الآخرين حتى النخاع. أتحول رأساً إلى جزء من معاملتهم لي، ثم أنفصل عن ذلك بألم شديد. عيشي يا ن. د. عيشي عمراً مديداً بسعادة أوفر. عندما نلتقي، سنتعرف بعضنا على بعض من جديد. وقد يخصص المصير الكثير من الأيام السعيدة لكل منا. أنا أتوقع حدوث شيء ما. أنا أشعر وكأنني لا أزال مريضاً جداً. وأظن أن شيئاً حاسماً سيحدث لي في القريب العاجل، وأني أقترب من أزمة في مجمل حياتي، وأنني قد نضجت لشيء ما، وأن شيئاً ما، ربما هادئاً وواضحاً، ربما رهيباً، سيحدث حتماً على أية حال.. وإلا ستكون حياتي حياة شخص منسلخ عن المجتمع فاقد للذاكرة التاريخية. أو ربما هذا مجرد هذيان من دماغي المحموم. وداعاً، وداعاً يا ن. د. والأفضل أن أقول إلى اللقاء!

المخلص د.

ملحوظة: لا مؤاخذة، اعذريني باللّه عليك لأني أكتب لك رسائل غير منقّحة وفيها شطب كثير. فأنا واللّه لا أستطيع من دون الشطب. لا تزعلي مني رجاءً.

---

(1) نتاليا دميتريفنا، زوجة أحد الثوريين الديسمبريين.

(2) الإنجيل، سفر إشعياء، الإصحاح 42.

40. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 30 يوليو 1854

منذ شهرين لم أكتب لك، يا صديقي الحميم وأخي الكريم. لم تكن الكتابة ممكنة، كانت مستحيلة تقريباً. ولكن قل لماذا أنت صامت؟ كم عدد الرسائل التي بعثتها إليك؟ فيما عدا رسالة يناير أجبتني على رسالة واحدة فقط، هي الأولى. هذا الجواب، أي رسالتك الثانية المكتوبة في أبريل، استلمته في مطلع يونيو، ولحد الآن لم أجبك عليه. أؤكد لك، يا عزيزي، أنه لم يكن لدي وقت تقريباً حتى هذه اللحظة. ثم إنه حتى لو توفرت بضع دقائق من الوقت فقد أرجأت الكتابة عمداً إلى حين أفضل كان الجميع يتوقعون مجيئه قريباً. ولم أكن راغباً في الكتابة إليك باستعجال خاطف. طبيعي أنك تعرف أو تحزر بما أنا مشغول فيه الآن. التدريبات واستعراض آمري اللواء والكتيبة والتحضير له. وصلت إلى هنا في مارس، ولم أكن أعرف شيئاً تقريباً عن تدريبات الاصطفاف. إلا أنني شاركت في الاستعراض في شهر يوليو على قدم المساواة مع الآخرين عارفاً بواجبي لا أسوأ من غيري. كم كان تعبي شديداً وكم كلفتني تلك

الجهود- موضوع لست بصدده الآن. غير أن المسؤولين راضون عني والحمد للّه. الحديث عن هذه الأمور ليس مهماً جداً بالنسبة لك طبعاً. لكنك تعرف على أية حال بما كان يشغلني كلياً هنا ومهما كتبت في الرسالة ليس بالإمكان توضيح كل شيء. ومهما كان ذلك غريباً عليك فأنا أعتقد أنك تفهم أن خدمة الجندي ليست تسلية، وأن حياة الجنود مع مجمل واجباتهم ليست سهلة تماماً بالنسبة لشخص بمثل هذه الصحة المعتلة وبمثل هذا الابتعاد، أو على الأصح غياب المعرفة في مثل هذه التدريبات. وللحصول على هذه الخبرة لا بد من العمل كثيراً. أنا لا أتشكى. فهذا صليبي الذي أستحقه. أكتب ذلك لأرغمك على تحبير عدة أسطر يصعب عليَّ العيش واللّه، من دونها. تصور أخيراً إذا كنا ننتظر بعضنا من بعض جواباً عن كل رسالة ولا نكتبه أصلاً، فستطول مدة الانتظار ربما ثلاثة أشهر. فمن يتحمل؟ وأنت تعرف قيمة رسالتك بالنسبة لي. فهل يعقل أننا سنحسب الرسائل كما نحسب الزيارات؟ فنحن لم نلتق أصلاً من زمان، ولم نكتب بعضنا لبعض منذ وقت طويل.

وأخيراً استلمت رسالتين من شقيقتينا الرائعتين كالملائكة بربارة وفيرا. أنا واثق أنهما تحبانني كما تقولان. ما أرقّ ما كتبته بربارة. الروح كلها في هذه الرسالة الرائعة. فكرت أن أرد عليهما في أول بريد، لكنني أرجأت الجواب لثالث بريد. كنت مشغولاً جداً. ولا أرغب في كتابة رسالة صغيرة. لا أدري كيف أعرض مشاعري واهتمامي وحبي لهما. فليباركهما الرب. الآن صرت تعرف أهم مشاغلي. والحقيقة لم تكن هناك سوى مشاغل الخدمة. ولم تحصل أحداث خارجية أو انقلابات حياتية أو حالات طارئة. أما الروح والقلب والعقل، ما نما وكبر، ونضج ثم ذوى، وما رمي بعيداً مع

الزؤان فليس بالإمكان توصيله أو تحبيره على قصاصة الورق. أعيش هنا منعزلاً. أتحاشى الظهور مع الآخرين كما هي عادتي. وإلى ذلك كنت خمس سنوات تحت الحراسة، ولذا أجد أعظم المتعة في البقاء وحيداً في بعض الأحيان. عموماً الأشغال الشاقة خلصتني من الكثير وغرست في نفسي الكثير. أنا، مثلاً، كتبت عن مرضي. نوبات الاختلاج والتشنج الغريبة الشبيهة بالصرع. إلا أنه ليس داء الصرع. سأكتب عنه بتفصيل أكثر في وقت ما.

على فكرة، اعملْ معروفاً ولا تتصورني سوداوي المزاج وسواسياً كما كنت في بطرسبورغ في السنوات الأخيرة. كل ذلك انتهى دون أن يبقى له أثر. بالمناسبة، كل شيء من عند اللّه وبيد اللّه. اشكر أخي نيقولاي على المراسلة. كنت نفسي أريد أن أكتب له. ولكن فليواصل لبعض الوقت ويعذرني أنا المسكين. وليكن واثقاً بأنه عزيز جداً على قلبي وأنني أتذكره بمشاعر الدفء والمحبة. قبّله كثيراً بدلاً عني، وتمنَّ له كل خير. وقبّل الأولاد أيضاً. وبلّغ تحياتي إلى إميليا. أحياناً أتذكر مرتعباً عام 49 والشهرين اللذين قضتهما وحدها عندما إعتقلوك. هل هي بصحة جيدة؟ وهل هي راضية الآن؟ في الأشغال الشاقة ازدادت أمنياتي وازداد تفكيري في الماضي والمستقبل، والأهم فيكم جميعاً.

بعض الذكريات مريضة مريرة، ولكنني لا أطردها. حتى المر حلو بالنسبة لي.

بلّغ تحياتي لأختي ألكساندرا، قبّلها وهنتها نيابة عني.[1] هل هي بصحة جيدة الآن؟ قبّلها نيابة عني وأخبرها بشيء جيد عن أموري. عموماً امتدحني، وتمنَّ لها الكثير الكثير من السعادة.

أخي الحبيب! أنت تكتب لي عن النقود وتتساءل هل أنا بحاجة

إليها؟ لكنك تعرف أحوالي بنفسك. إذا كنت تستطيع فابعث. فأنت أملي الأول. أنا لا أعلق آمالي على أحد مثلما أعلقها عليك.

وداعاً يا حبيبي. اكتبْ لي أكثر عن أحوالك. اكتبْ لي من كل بد عن صحتك، وبمزيد من التفصيل عن سير تربية أولادك. وداعاً، يا صديقي، ها قد انتهت الرسالة، فماذا كتبت فيها؟ من المحزن أن نعيش على الرسائل دون أن يرى أحدنا الآخر خمس سنوات. من الآن فصاعداً سأكتب أكثر. مضموناً وعدداً. ولكن أجبني أنت أيضاً بأسرع ما يمكن.

وداعاً وإلى اللقاء.

أخوك فيودور دوستويفسكي

---

(1) دوستويفسكي يهنئ بزواج أخته.



41. إلى يفغيني ياكوشكين

سيميبالاتينسك، 15 أبريل 1855

أشكرك، يا يفغيني إيفانوفيتش الموقر، على تذكرك لي واهتمامك بي. لحسن حظي أني وجدت فيك فجأة شخصاً من أهلي. فشكراً لك مرة أخرى. عن أحوالي أقول إنني أعيش معظم أوقاتي على الآمال وحدها. والحال الحاضر ليس جميلاً. وإلى ذلك اختلط المكروه بالمحمود. رفيقي دوروف ترك الخدمة العسكرية وانتقل، كما سمعت، إلى الخدمة المدنية في أومسك، بسبب المرض. رب ضارة نافعة.

استلمت بوشكين، أشكرك كل الشكر. أخي كتب لي أنه أرسل لي عن طريقك منذ ربيع العام الماضي بعض الكتب، مثل مدونات القديسين والمؤرخين القدامى، ومن بين تلك الحاجيات علب سيجار. لكنني لم أستلم منكم شيئاً. أرجوك أن تبلغني الآن هل أرسلتها إليّ أم لا؟ إذا كنت قد أرسلتها فالضائع ثمين، وإن لم ترسلها فذلك يعني أنك نفسك لم تستلمها. تكرّم وأخبر أخي بذلك[1].

أشغالي هنا متنوعة وغير محددة إطلاقاً. بودّي أن ألتزم

بالانضباط، ما يجعلني أقرأ وأكتب على فترات متقطعة أسعى جاهداً إلى تصيدها. لا وقت لدي، خصوصاً الآن، لا وقت بالفعل. اكتب أنت عن جمع الأغاني (الفولكلور). ومن جانبي سأحاول جمعها إن وجدت. ولكن ذلك مستبعد. سأحاول على أية حال. أنا في السابق لم أجمع نتاجات من هذا القبيل. كانت تمنعني فكرة الجودة، فإذا قمت بعمل يجب أن أتقنه. أما جمع الأغاني الشعبية على سبيل الصدفة فلن يعطي شيئاً. لا شيء يتم من دون جهد جهيد. خاصة وأن أشغالي الآن من طبيعة أخرى. فكم ينبغي عليَّ أن أطالع؟ وكم تأخرتُ في هذا المضمار؟ عموماً حياتي مرتبكة.

أخبرني رجاءً من هي أولغا ن[2]. ومن هو ل. ت. الذي نشر «المراهقة»[3] في «المعاصر».

وداعاً يا عزيزي يفغيني إيفانوفيتش. لا تنسني، وأنا لن أنساك أبداً.

المخلص د. (وستويفسكي)

ملحوظة: أبعث طياً رسالة إلى ك. إيفانوف، أرجو التكرم بإرسالها إلى بطرسبورغ، دار ليسيتسين قرب كنيسة المخلص. ولعلك تعرف العنوان من دوني.

---

(1) تؤكد المصادر أن ياكوشكين أرسل الكتب عن طريق موظف خشي أن يسلمها إلى دوستويفسكي عندما عرف أنه محكوم..

(2) الاسم المستعار للكاتبة الروائية الروسية س. إنغيلهاردت.

(3) هذه الرواية نُشرت في «المعاصر» عام 1854 بالأحرف الأولى ل. ن. ت. (ليف نيكولايفيتش تولستوي)

42. إلى ماريا عيسايفا

سيميبالاتينسك، 4 يونيو 1855

لا حدود لتشكراتي لكم على رسالتكم الرقيقة من الطريق مباشرة. وآمل يا صديقتنا الغالية ماريا دميتريفنا أنك مع العزيز ألكسندر إيفانوفيتش تسمحان لي بأن أطلق كلمة الصديق عليكما كليكما. فقد كنا أصدقاء هنا، أليس كذلك؟ وآمل أن نبقى أصدقاء. فهل يعقل أن الفراق سيغيرنا؟ كلا. فالأمور صعبة عليَّ من دونكما يا صديقيَّ العزيزين وأنا جالس بحكم تعلقي... أكتب الرسالة الثانية لكم. ولمناسبة البريد السابق كان جاهزاً لدي جواب على رسالتكم العاطرة الطيبة يا عزيزتي الغالية ماريا دميتريفنا. لكنه لم يصل. فإن الكسندر يغوروفيتش الذي أردت أن أعطيه المظروف ليوصله إلى البريد سافر فجأة (...) السبت الماضي دون أن أعلم بسفره (...). ثم إن خادمه اختفى أيضاً ليومين وظلت الرسالة في جيبي. فما أعظم مصيبتي! والآن أكتب ولا أدري هل ستذهب هذه الرسالة أم لا(...).

عندنا ينتظرون في كل لحظة وصول الحاكم العسكري للمحافظة،

ولعله وصل الآن. ويقال إنه سيمكث هنا قرابة خمسة أيام. ولكن فلنترك هذه المسألة. لقد وصلتِ إلى كوزنيتسك، فهل حصل مكروه، والعياذ باللّه، في الطريق؟ كتبتِ تقولين إنك متكدرة بل متوعكة. أنا لا أزال حتى الآن خائفاً عليك أشد الخوف. فما أكثر المشاغل والهموم والمنغصات المترتبة على الانتقال والسفر وحدهما، فكيف إذا أضيف إليها المرض؟ وما أصعب تحمل ذلك كله. أنا أفكر فيك طول الوقت. وإلى ذلك تعرفين أنني وسواسي، وبوسعك أن تحكمي على مدى قلقي. يا إلهي هل تليق بك وتبلغ مقامك هذه الهموم وهذه الحزازات وهذا المصير عموماً؟ مقامك أنت التي يمكن أن تكون زينة لكل مجتمع؟ يا له من مصير ملعون! أنتظر رسالتك على أحر من الجمر. (. . .) تسألين كيف أقضي أوقاتي ولا تعرفين كيف تسير وتتوزع ساعاتي بغيابك؟ منذ أسبوعين وأنا لا أعرف ماذا أفعل لطرد الأحزان. آه، لو تعلمين إلى أي مدى تيتمت أنا هنا وحدي. صحيح أن هذا الوقت أشبه بالفترة التي اعتقلوني فيها عام 1849 وزجوا بي في السجن وعزلوني عن كل ما هو عزيز عليَّ ومفضل لدي. لقد تعودت جداً عليكم، ولا أعتبر تعارفنا أمراً عادياً، والآن، وبعد أن فقدتكم، توصلت إلى الكثير من خلال الحدس والتجربة. لقد عشت خمس سنوات من دون بشر، وحيداً ليس لدي، بكل معنى الكلمة، شخص أستطيع أن أبوح له بمكنون فؤادي. فيما تقبلتموني أنتم كواحد من أبناء الأسرة. أتذكر أنني كنت عندكم كما عند أهلي. ألكسندر إيفانوفيتش كان يداريني أكثر مما يداري أخاه. وما أكثر المنغصات التي سببتها لكم بسبب طباعي الثقيلة. وأنتما، كلاكما، أحببتماني. أنا أفهم ذلك وألمسه، فأنا، على أية حال، لست بلا فؤاد. أنت امرأة مدهشة، أعجوبة، وقلبك كبير تملأه طيبة الأطفال. لقد كنتِ

بالنسبة لي شقيقة لم تلدها أمي. مجرد كون المرأة قد مدت يدها لي إنما يشكل حقبة كاملة في حياتي. فالرجل، حتى أجود الرجال، لا يمثل في بعض الأحيان، ولا مؤاخذة، سوى هراوة. فيما قلب المرأة والمشاطرة الأنثوية والمواساة والطيبة اللامتناهية التي لم نشهدها من قبل ولا نلاحظها في الغالب لحماقتنا المعهودة إنما هي خصال لا بديل لها. كل ذلك وجدته فيك. ولن تبلغ حتى أختي وشقيقتي المستوى الذي بلغته أنت من حيث الاهتمام بي وبنواقصي ومن حيث مدى الطيبة واللطف في معاملتي. وحتى لو حصلت مجادلات بيننا فذلك لأنني، أولاً، كنت خنزيراً عقوقاً، وثانياً، لأنك، وأنت المريضة، المتوترة الأعصاب، المظلومة من قبل المجتمع الكريه الذي لم يفهمك ولم يقدرك حق قدرك، كان لا بد أن تستنكري الغبن والظلم بما جبلتِ عليه من قوة شكيمة وعزم، وكان هذا الموقف نبيلاً نزيهاً. هذا هو أساس طباعك. إلا أن المصيبة والمعيشة بالغا في أمور عديدة وأثارا أعصابك لأسباب كثيرة. ولكن، ما شاء اللّه، تم التعويض عن ذلك وأكثر، بمرات ومرات. وطالما أنا لست غبياً دائماً، فقد رأيت ذلك وأقدره حق قدره. باختصار، ما كان بوسعي أن لا أتعلق بداركم روحياً كما لو كانت دار أهلي. أنا لن أنساكما أبداً وسأبقى شاكراً لكما أبد الدهر. لأنني على يقين بأنكما لا تفهمان حقاً مدى أهمية ما قدمتماه لي ومدى ضرورة أمثالكما من الناس بالنسبة لي. فهذا أمر لا يمكن فهمه إلا بعد تجريبه. فلولاكما لتخشبت أنا وتحجرت نهائياً، وبفضلكما أنا إنسان من جديد. ولكن كفاية بشأن هذا الموضوع، فليس بالإمكان إشباعه بالكلام، وخصوصاً في رسالة. الرسالة باتت ملعونة لأنها تذكرني بالفراق، وكل شيء هنا يذكرني بالفراق. في الأمسيات، عند الغسق، يصادف أن أذهب إليكم في الساعات التي

كنت آتي بها إليكم سابقاً، وتعتصر فؤادي الكآبة لحد انهمار الدموع لولا أنني عصي الدمع. وأكيد أنك لن تضحكي أو تسخري مني بسبب ذلك. من خواص قلبي أنه يلتصق بمن وبما يحب لدرجة تدعو فيما بعد إلى انتزاعه وعلاجه. أعيش الآن وحيداً وليس من جهة يمكنني أن ألجأ إليها. مللت من كل ما هو موجود هنا. فراغ مطلق. ما عدا ألكسندر يغوريفتش (فرانغيل). إلا أن الاختلاط به صعب عليَّ لأنني أقارن عفوياً بينه وبينكم، والبون شاسع بالطبع. ثم إنه غير موجود في المنزل. ذهبت من دونه مرة أو مرتين إلى دارة بستان كازاكوف التي انتقل للإقامة فيها. وكان اللقاء حزيناً. كلما أتذكر الصيف الفائت يعود إلى ذهني منظرك أنت المسكينة ورغبتك طول الوقت في السفر إلى مكان ما في الضواحي لاستنشاق الهواء الطلق على الأقل ولم تتمكني، فأشعر بالإشفاق عليك وأحزن لك. هل تتذكرين أننا تمكنا مرة أن نذهب أنت وألكسندر إيفانوفيتش وأنا وهيلينا إلى بستان كازاكوف. وتذكرت الآن عندما أتيتُ إلى هنا كل شيء. لم يتغير شيء في البستان. المصطبة ذاتها التي جلسنا عليها... فشعرت بالحزن. تقترحين في رسالتك أن أقيم مع فرانغيل. لكنني لا أريد، لأسباب وجيهة عديدة: 1) النقود، عندما أقيم معه لا بد أن أنفق المزيد من النقود طبعاً على الإيجار والخدمة والمائدة، أما العيش على حسابه فهو صعب عليّ. 2) طباعي. 3) طباعه، 4) لاحظت أن الضيوف يترددون عليه غالباً. بأعداد كبيرة أحياناً. ومن المتعذر الانسلاخ عن الجماعة في بعض الأحيان، لا سيما وأنا لم أعد أطيق الغرباء. وأخيراً أنا أحب الوحدة، تعودت عليها، والتعود هو الطبيعة الثانية للإنسان.

(... في اليوم الذي ارتحلتم فيه وودعتكم حتى طرف

الغابة. . .) لم يقر لي قرار. واشتدت بي الرغبة أن أبقى وحدي. لم أذق طعم النوم طويلاً في البيت. كنت أجوب الغرفة جيئة وذهاباً، واتطلع إلى الفجر المنبلج وأتذكر كل هذا العام الذي انقضى بالنسبة لي بصورة غير ملحوظة. تذكرت كل شيء وانتابني الحزن عندما فكرت في مصيري. من ذلك الحين أتسكع من دون هدف واضح، كذلك اليهودي الجوال[1]، ولا أتردد على أحد تقريباً، مللت. (. . . زرت بعض الأشخاص)، وأنا أتردد على المعسكر للتدريبات. صحتي تتوعك أحياناً. (. . .). عرجت على شقتكم، أخذت أصيص اللبلاب، فهو عندي الآن، ورأيت (القطة) الميتمة سوركا (ولعله سنجاب الجحور- المرموط)، هرعت إليَّ بأقصى سرعتها، لكنها لم تترك المنزل. وأخيراً جاء السائس برسالتك التي أشكرك عليها جزيل الشكر، فقد عادت عليَّ بالفرحة. (. . .). ما أروع كتابتك لهذه الرسالة يا ماريا دميتريفنا. كنت أطمح إلى رسالة كهذه بالذات. تحتوي على الكثير من التفاصيل. فاكتبي في المستقبل أيضاً بهذه الطريقة. أنا كأنما أرى جدتكم، هذه العجوز البغيضة التي ستسعى إلى محوكم من قيد الوجود. فلتبق مع جرائها المدللة «حتى مثواها الأخير». آمل أن ألكسندر إيفانوفيتش سينتزع الوصية المطلوبة، ويترك العجوز وشأنها. ينبغي إقناعها بأن ذلك أفضل، وإلا يتوجب عليها أن تعطي تعهداً بأنها ستموت بعد ثلاثة أشهر وتدفع ألف روبل مقابل كل شهر. وبغير ذلك لا توافقوا على قبولها. هل يعقل، يا ماريا دميتريفنا، أنك ستضطرين إلى رعاية كلابها، وأنت بصحة متدهورة؟ هؤلاء العجائز لا يمكن تحمّلهن. قرأت رسالتك على فرانغيل، مقاطع منها طبعاً. ولم أصبر، فمضيت إلى هيلينا، إنها المسكينة تعيش وحيدة. يؤسفني جداً أن صحتك توعكت في الطريق. سأبقى في

انتظار رسالتك. أنا قلق بسبب ما حصل لك في الطريق. أشد على يد ألكسندر إيفانوفيتش وأقبّله. آمل أن يكتب لي قريباً. أعانقه من صميم القلب. وأتمنى له كصديق وأخ شلة من الرفاق أفضل. فهل يعقل أنه في كوزنيتسك أيضاً سيحيط نفسه بأشخاص لا يعرف حقيقتهم كما كان في سيميبالاتينسك؟ وهل يستحق هؤلاء الأشخاص التواصل معهم والجلوس إلى مائدة طعام واحدة ثم تحمّل المساوئ منهم؟ ذلك يعني إلحاق الضرر بالنفس عمداً. إنهم مقيتون، والأهم، ملوثون. فبعد اللقاء معهم تبقى النفس ملوثة وكأنما كان الشخص في حانة خمور. آمل أن ألكسندر إيفانوفيتش لن يزعل من تمنياتي له. وداعاً يا ماريا دميتريفنا الغالية، وداعاً. وسنلتقي حتماً، أليس كذلك؟ اكتبي لي أكثر وأوفر. اكتبي عن كوزنيتسك، عن المعارف الجدد، عن شخصك الكريم. اكتبي أكثر ما يمكن. قبّلي (الصغير) بافل، لعله كان يتشيطن في الطريق. وداعاً، وداعاً. هل يعقل أننا لن نلتقي؟

المخلص دوستويفسكي

---

(1) الذي رفض مساعدة المسيح في حمل الصليب، فحكمت عليه الأقدار بالتسكع الدائم.

43. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 14 أغسطس 1855

أبدأ رأساً بالاعتذار منك، يا عزيزي ألكسندر يغوروفيتش، على التشويش في رسالتي هذه. فأنا واثق بأنها ستصلك مشوشة. الآن الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وقد حررت رسالتين[1]، وأشعر بالصداع وأرغب في النوم، وإلى ذلك أنا منفعل كلياً. صباح اليوم استلمت من (مدينة) كوزنيتسك رسالة. توفي المسكين التعيس ألكسندر إيفانوفيتش عيسايف. أنت لا تصدق مدى أسفي وحزني عليه ومدى اضطرابي وانفعالي. ربما أنا الوحيد من نزلاء المنطقة الذي يجيد تقديره حق قدره. وإذا كانت لديه نواقص فإن مصيره الأسود هو المسؤول عن نصفها. أنا لم أجد شخصاً أكثر صبراً منه في مثل هذه الإخفاقات. وبالمقابل ما أكثر الطيبة والنبل الحقيقي في سلوكه. أنت لم تكن تعرفه جيداً. وأخشى أن أكون مذنباً بحقه لأنني أحياناً، في حالات الغضب، كنت أحكي لك، ربما باهتمام لا موجب له، عن خصاله السيئة فقط. توفي في آلام تفوق التصور.(...) ماريا دميتريفنا كتبت لي عن وفاته بكل التفاصيل. وتقول إن ذكرى هذه

التفاصيل هي السلوى الوحيدة لها. (. . .) هل تتذكر ابنهما بافل؟ كاد يجن. أخذ يقفز من السرير في منتصف الليل ويركع أمام أيقونة المسيح ويتلو الابتهالات بتلقين من أمه على روح والده. دفنوه بتواضع الفقراء. على حساب غرباء طيبين. وكانت هي كالممسوسة. تقول إن صحتها متدهورة جداً. وهي لم تنم عدة أيام وليال جنب سريره. وتؤكد أنها مريضة فقدت طعم النوم وشهية الطعام. زوجة القسيس وامرأة أخرى تساعدانها. وليس لديها سوى الديون المستحقة للحانوت. أحدهم أرسل لها ثلاثة روبلات فضية. وتقول: «الحاجة دفعتني لقبول هذه الصدقة!. . .»

إذا كنت، يا ألكسندر يغوروفيتش، على نفس رأيك، كما كنت في سيميبالاتينسك قبل أيام، وأنا واثق بأن لديك قلباً كبيراً وأنك لا تتخلى عن الأفكار الطيبة لسبب تافه لا يتناسب والقضية أبداً، فارسل الآن مع الرسالة التي أرفقها لها ذلك المبلغ الذي تحدثت عنه آنذاك. وأكرر لك، يا عزيزي ألكسندر يغوروفيتش، أنني أفكر الآن حتى أكثر مما في تلك الأيام في أن هذه الـ 75 روبلاً هي دين لك عليّ. وسأعيدها لك من كل بد، ولكن ليس قريباً. أنا أعرف جيداً أن قلبك يتوق إلى فعل الخير. . . ولكن، حكّم عقلك: أنت تعرفت عليهم منذ فترة قصيرة، ولا تعرف عنهم إلا القليل. ومع أن المرحوم ألكسندر إيفانوفيتش استدان منك نقوداً للسفر، فإن من الصعب أن تعرض عليها النقود باسمك.

ومن ناحيتي أنا أكتب لها في رسالتي عن استعدادك التام لمساعدتها، ومن دونك ما كان بإمكاني أن أفعل شيئاً. أكتب ذلك لا لكي يكون لك شرف عمل الخير والامتنان المستحق. فأنا أعرف أنك، كمسيحي، في غنى عن ذلك. ولكنني لا أريد أن أتلقى

تشكرات لا أستحقها، فأنا أخذت من جيب الغير، ومع أني سأحاول التسديد لك في القريب العاجل، إلا أنني أخذت منك ديناً لأجل غير مسمى في الواقع.

إذا كنت تنوي إرسال النقود ضعها في رسالتي هذه غير المختومة. وسيكون من أطيب الأفعال من جانبك إذا كتبت لها بضعة سطور. كأن تقول لها كنا على معرفة ضعيفة بعضنا ببعض، لكنه بقي مديناً لك، وستعرف بأنك أعطيتني نقوداً، ولذا فالفرصة مناسبة للكتابة، بل من الضروري الكتابة. فما رأيك؟ بضعة أسطر لا أكثر... يا إلهي، ارأف بحالي، يبدو أنني بدأت أعلمك كيف تكتب. أعوذ باللّه. صدقني، يا ألكسندر يغوروفيتش، أنا أعرف جيداً أنك تفهم أفضل من أي شخص آخر كيف تتواصل مع إنسان اضطررت إلى إقراضه. أنا أعرف أنك تضاعف الاحترام للشخص الذي أقرضته، وتتصرف معه بحذر. فهو وسواسي يخيل إليه أن تساهل الآخرين معه وعدم اللياقة في معاملتهم له يهدفان إلى جعله يدفع ثمن أفضالهم عليه. كل ذلك تعرفه أنت كما أعرفه أنا. فما دام اللّه منحنا التفكير والشهامة النبيلة فلا يمكننا أن نكون على غير ذلك. فالنبل له مستحقاته[2] والنبل من خصالك. أنا أعرف ذلك.

كما أعرف، من كلامك، أن حافظة نقودك ليست على ما يرام حالياً. وبالتالي إذا تعذر عليك إرسال النقود فلا تبعث إليها رسالتي، بل أعدها إليّ فيما بعد. وتكرّم بإبلاغي مع البريد الأول هل بعثت الرسالة أم لا.

(...) أكتب إليك في بارناول على العنوان الذي أعطيتنيه، ولا أدري هل وصلتَ إليها أم لا. أظن أنك كتبت آنذاك أن أراسلك في بارناول بعد الثالث والعشرين من الشهر. أبعث الرسالة على طريقة

عسى ولعل. أبعثها من خلال كروتوف. فهل هذا أفضل؟ اكتبْ لي. ماذا تفعل؟ هل أنت في مرح وحبور؟ هل صحيح ما سمعته من أن المدموازيل أولغا أباظه[3] مخطوبة؟

إذا كنت سترسل النقود فلا تتهاون. فالوضع لن يكون، بالطبع، أصعب مما هو عليه الآن.

بما أنني لا أعرف هل ستصلك هذه الرسالة وأنت في بارناول (...) أكتب الآن رسالة أخرى إلى ماريا دميتريفنا مع نفس البريد الذي سأرسله غداً إن شاء اللّه. كما أرسل لك بريدك ليوم السبت. فتحتُ الرسالة كما طلبتَ. إذا تمكن كروتوف من توصيل رسائل يوم الاثنين فسأضع معها بريد السبت.

إلى اللقاء. ما أشد الصداع. أنا منفعل إلى أقصى حد. أصابعي ترتعش حتى من الريشة. أعانقك من صميم القلب.

المخلص ف. د.

---

(1) الرسالتان مفقودتان، وهما معنونتان إلى ماريا عيسايفا.

(2) في الأصل بالفرنسية.

(3) إحدى معارف دوستويفسكي.

44. إلى براسكوفيا آنينكوفا[1]

سيميبالاتينسك، 18 أكتوبر 1855

السيدة الفاضلة براسكوفيا يغوروفنا!

كنت من زمان أريد أن أكتب لك وانتظرت طويلاً الفرصة السانحة لدرجة لا يمكنني معها أن أفوت الفرصة الحالية. حامل رسالتي، ألكسي إيفانوفيتش باخيريف، شاب متواضع للغاية وفي منتهى الطيبة والبساطة والنزاهة. أعرفه من عام ونصف ولا أعتقد أنني مخطئ في وصف خصاله.[2]

وسأبقى أتذكر دوماً أنكم، أنت وعائلتك الرائعة، شاطرتموني ورفاقي التعساء مشاطرة صادقة وكاملة منذ أن وصلتُ إلى سيبيريا. وكلما أتذكر هذا الموقف أشعر بالارتياح والسلوى، وأظن أنني لن أنساه أبداً. فمن عاش متاعب الحياة القاسية وتجرّع مرارتها، وخصوصاً في ملابسات معينة، إنما يدرك حلاوة المشاطرة الأخوية التي يتلقاها حينئذ على غير المتوقع. كان هذا موقفكم تجاهي. وأنا أتذكر لقائي بكم عندما وصلتم إلى أومسك وعندما كنت أنا في الأشغال الشاقة.

منذ وصولي إلى سيميبالاتينسك لم أستلم أية أخبار تقريباً عن قسطنطين إيفانوفيتش وعن أولغا إيفانوفنا الموقرة[3] التي سيبقى تعرّفي عليها من أفضل الذكريات في حياتي. قبل عام ونصف، عندما أنهينا الأشغال الشاقة أنا ودوروف، أمضينا شهراً تقريباً في منزلهما. وأنت تعرفين مدى الانطباع الذي يمكن أن يخلفه هذا التعارف في نفس شخص كان طوال أربع سنوات بمثابة قطعة منتزعة من البدن ومطمورة في الأرض على حد تعبير رفاقنا السابقين في الأشغال الشاقة. لقد مدت أولغا إيفانوفنا يد العون لي كأخت لم تلدها أمي، وسيظل الانطباع عن هذه الروح النقية الرائعة المتسامية النبيلة هو الأكثر تألقاً وشفافية في حياتي. فليختصها اللّه بالكثير الكثير من السعادة، السعادة لها شخصياً ولمن تحب. أنا أتشوق لمعرفة أخبارها. ويخيل إليَّ أن روحاً رائعة كهذه يجب أن تكون سعيدة هانئة. فالأرواح الشريرة وحدها تعيسة. يخيل إليَّ أن السعادة تكمن في النظرة الوضاءة إلى الحياة وفي طيبة القلب، وليس في المظهر الخارجي. أليس كذلك؟ أنا على يقين بأنك تدركين ذلك تماماً، ولذا أكتب لك بهذا الخصوص.

حياتي تمتد كيفما اتفق. وأحيطك علماً بأن لدي آمالاً عريضة... تقوم على بعض الوقائع: هناك جهود كبيرة تبذل من أجلي في بطرسبورغ، ولربما سأعرف شيئاً بعد بضعة شهور. ولعلك تعلمين أن دوروف أعفي من الخدمة العسكرية لأسباب صحية وانتقل إلى الخدمة المدنية في أومسك. ربما لديك معلومات عنه. نحن وإياه لا نتراسل، مع أننا نتذكر بعضنا بعضاً جيداً.

البارون فرانغيل الذي تعرفينه يخصك بالسلام. وأنا تربطني به صداقة حميمة. فهو شاب أريحي رائع، فليكن اللّه في عونه ليبقى دوماً كما هو الآن.

تحياتي الخالصة واحترامي الصادق لزوجك. أتمنى لكما موفور السعادة.

(. . .) وداعاً يا براسكوفيا يغوروفنا المحترمة. أنا واثق بأن المشيئة الإلهية ستجمعنا، وربما قريباً. فأنا أتشوق إلى ذلك. وأتذكرك وجميع أفراد عائلتكم بكل حنان.

وتقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) زوجة أحد الثوار الديسمبريين.

(2) باخيريف شقيق آمر السرية التي خدم فيها دوستويفسكي. وكانت بينهما علاقة مودة.

(3) يبدو أن المقصود عائلة ابنة آنينكوفا.

45. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 13- 18 يناير 1856

أنتهز الفرصة للكتابة إليك يا صديقي. منذ العام الفائت، عندما كتبت لك مع م. م. خومينتوفسكي، لم أجد الفرصة السانحة، وها هي الآن تتوفر. لا بد من الاعتراف بأنك في العام الماضي دفعت القليل في مقابل رسالتي المطولة، فلم ترد على شيء تقريباً، بل إنك لم تجب عن بعض أسئلتي التي كنت أنتظر منك رداً مفصلاً عليها. لا أدري ما الذي منعك آنذاك، هل هو الكسل؟ لم يكن الكسل في محله إطلاقاً. هل هو العمل؟ لكنني كتبت لك أنني لن أصدق بوجود أعمال لا توفر لحظة من وقت الفراغ. هل هو الحذر؟ ولكن ما دمتُ أنا أكتب لك فلا موجب للتخوف أغلب الظن. آمل أنك هذه المرة ستكتب لي أكثر، على الرغم من أنني سأنتظر جوابك طويلاً، قرابة سبعة شهور. وهذه المرة أيضاً أردت أن أحرر لك الكثير جداً، وبالتفصيل، عن عيشتي وحياتي منذ أن غادرت أومسك ووصلت إلى سيميبالاتينسك.

إلا أنني سأكتفي بهذه الورقة، ذلك لأن ألكسندر يغوروفيتش

فرانغيل، حامل هذه الرسالة، يمكن أن يطلعك بكل تفصيل ويكشف لك عن الكثير من الخفايا عني من نواح عديدة، إن لم أقل من جميع النواحي. استقبلْه بأكبر قدر من الحفاوة وحاول أن تتعرف عليه وتتواصل معه بأسرع ما يمكن. فهذا الشاب يستحق معاملة كهذه. إنه طيب القلب، نظيف، ناهيك عما فعله من أجلي وعن مدى إخلاصه لي وارتباطه بي أكثر من ارتباط الأخ مع أخيه. لا أعنيك أنت طبعاً. فاعمل معروفاً وحاول أن تودّه وتتواصل معه سريعاً. فقد أوصيته بك خيراً. وإلى ذلك أعتقد أن المسألة ليست صعبة بالنسبة لك، وأنا أتذكر بهذا الخصوص طبعك الطيب المتميز بحسن المعاشرة وأدب اللياقة والذي يعجب الجميع فأحبوه فيك. وأصور لك هنا باختصار طباع ألكسندر يغوروفيتش ليسهل عليك التواصل معه ولا تشغل بالك بهذا الأمر أكثر. إنه شاب يافع ووديع جداً، على الرغم من شعوره العالي بالكرامة الشخصية. وهو في منتهى الطيبة وبشيء من الاعتزاز بالنفس، حسب الظاهر، وأنا أحب ذلك الشعور، ولديه بعض نواقص الفتوة. وهو مثقف من دون بريق التعليم وأعماقه. ويحب التعلم. ضعيف العزيمة يتأثر بالعواطف كالنساء، سوداوي المزاج بعض الشيء ينساق للوساوس. وما يثير غضب غيره ويخرجه عن طوره يسبب له هو مرارة وألماً، وهذا دليل على طيبة القلب. متقيد بأداب اللياقة إلى أقصى حد. لقد تشفع لي بنكران ذات وساعدني بكل ما يستطيع. خلاصة القول لقد توالفنا، وهو يحبني. سأحدثك المزيد عنه فيما بعد. أما الآن فأنتقل إلى أموري أنا.

لعلك تعلم يا عزيزي أن هناك، في بطرسبورغ، من يبذل جهوداً كبيرة من أجلي وأن لدي آمالاً عريضة. وإذا لم تتحقق كلها، إي إذا لم يطلقوا سراحي، فمن المحتمل تحقق بعض تلك الآمال على

الأقل. شقيق ألكسندر يغوروفيتش الذي يخدم في فرقة الخيالة كان عندك. أعرف ذلك من رسالته إلى أخيه، ولعله أخبرك بجميع الجهود التي بذلت من أجلي في بطرسبورغ. وأنا واثق بأن ألكسندر يغوروفيتش من جهته سيهز الأرض والسماء لصالحي عندما يصل إلى بطرسبورغ. وسيحدثك عن كل ذلك بتفصيل أكثر مما أستطيع أن أكتبه في هذه الرسالة. وأقول لك من جهتي إنني الآن في موقف سلبي تماماً، حيث قررت أن أنتظر. وأفيدك بالمناسبة أنه تم ترفيعي إلى ملازم ثان. وهو أمر هام نسبياً، لأن المرحمة التالية، إذا حصلت، يجب أن تكون بالضرورة أعلى من رتبة الملازم. وأكدوا لي هنا أنني يمكن بعد عامين أو حتى عام واحد أن أرشح رسمياً لسلك الضباط. وأعترف لك أنه كان بودّي أن أنتقل إلى الخدمة المدنية، والآن أيضاً أرغب في ذلك، ولربما سأحاول. لكنني حالياً على الأقل قررت أن أنتظر صابراً الرد على كل الجهود الراهنة التي تبذل من أجلي في بطرسبورغ. وأكرر لك أن ألكسندر يغوروفيتش سيحدثك عن ذلك بمزيد من التفصيل. أما أنا فأضيف الآتي: لا تظن، يا صديقي، أن منافع اجتماعية أو ما يشابهها حملتني على بذل الجهود بإصرار من أجلي شخصياً. كلا، صدقني، عندما يخوض الشخص مشاكل كالتي خضتها إنما يخرج أخيراً بعدة صيغ فلسفية. والفلسفة كلمة فسرها كما تشاء. إلا أن هناك سببين يجعلانني أخرج بأسرع ما يمكن من عنق الزجاجة ويدفعانني إلى الاهتمام المحموم بنفسي وبشؤوني. ولا بد لي أن أطلعك على هذين السببين. 1) رغبتي في الكتابة والنشر، فأنا أعرف أكثر من أي وقت مضى أنني لم ألج هذا الطريق عبثاً وأنني لن أثقل جزافاً على هذه الأرض بوجودي فيها. أنا على يقين من أن لدي موهبة وأنني أستطيع أن أكتب شيئاً مرموقاً. أرجوك، باللّه عليك، لا

تعتبر كلماتي هذه تغنجاً أو غندرة. فمن غيرك يستطيع أن يصدق طموحاتي وآمالي؟ ثم إنني أردت لك حتماً أن تعرف لأية اعتبارات أنا بحاجة إلى الحرية وإلى مكانة ما في المجتمع.

والآن السبب الثاني، المهم جداً بالنسبة لي، لكنك لم تسمع مني شيئاً عنه بالمطلق. لا بد لك أن تعلم، يا صديقي، أنني عندما أنهيت الأشغال الشاقة الحزينة توجهت إلى هنا تحدوني السعادة والأمل. كنت أشبه بالمريض الذي أخذ يتعافى بعد داء مستعصٍ، وبات بعد أن أشرف على الموت يشعر بلذة الحياة في الأيام الأولى من النقاهة بأشد مما مضى. وكانت آمالي كثيرة. كنت راغباً في الحياة. فماذا أقول لك؟ لم ألاحظ كيف انتهت السنة الأولى من حياتي هنا. كنت سعيداً جداً. وهبني اللّه التعارف مع عائلة لن أنساها أبداً. إنها عائلة عيسايف التي كتبت لك عنها مراراً، بل وطلبت منك أن تقدم لها خدمة. كان هنا في وظيفة ليست رديئة مطلقاً، لكنه لم يتمكن من التعايش معها واستقال بسبب المنغصات. عندما تعرفت عليهم كان متقاعداً من عدة شهور، يبحث طول الوقت عن وظيفة أخرى. كان يعيش على المعاش وليس لديه مدخرات، ولذا بات في عوز شديد بعد أن حُرم من الراتب. عندما تعرفت عليهم كانوا يدبرون أمرهم على نحو ما. وتراكمت عليه الديون. كان يعيش من دون انتظام. وهو بطبيعته غير منتظم. طباعه غريبة ومتعنتة وغليظة بعض الشيء. لقد سقط في أنظار الرأي العام وواجه أذى كبيراً. لكنه تحمَّل من المجتمع الحالي الكثير من الملاحقات التي لا يستحقها. كان لأبالياً كالغجر، معتداً بنفسه فخوراً، لكنه لا يجيد السيطرة على أعصابه، فسقط إلى الهاوية، كما أسلفت. إلا أنه في الوقت ذاته كان رجلاً طيب القلب ذا شخصية متطورة جداً. كان متعلماً يفقه كل ما تتكلم

معه عنه. وهو في منتهى النبل والشهامة رغم اللطخات الكثيرة. لكن زوجته ماريا دميتريفنا جذبتني إلى عائلتهم، وليس هو. هذه السيدة الشابة، في الثامنة والعشرين، مليحة ومثقفة جداً، وذكية للغاية وطيبة ورقيقة وأنيقة بقلب رائع كبير. تحملت مصيرها هذا بأنفة وشموخ، ومن دون تذمّر أو شكوى. كانت تؤدي بنفسها واجبات الخادمة وترعى زوجها اللاأبالي الذي قدمتُ له أنا نصائح كثيرة، بحكم الصداقة، كما تسهر على ابنها الصغير. إلا أنها غدت مريضة سريعة التأثر والانفعال.

كانت بطبيعتها، على فكرة، مرحة لعوباً. وأنا لم أغادر منزلهم تقريباً. فما أروع الأمسيات السعيدة التي قضيتها بحضورها. أنا لم أصادف امرأة مثلها إلا فيما ندر. الجميع تفرقوا عنهم تقريباً، بعضهم بسبب زوجها. ثم إنهم ما كانوا يستطيعون الحفاظ على التعارف. وأخيراً حصل الزوج على وظيفة في كوزنيتسك بمحافظة تومسك. محلفاً، فيما كان في السابق موظفاً للمهمات الخاصة في الكمارك. وكان الانتقال من الوظيفة المرموقة الغنية إلى هيئة المحلفين مهيناً جداً. ولكن لا حيلة في الأمر. لم يكن لديهم ثمن القوت تقريباً. وأنا لم أتمكن رأساً من تقاسم الخبز الكفاف معهم، فلم يوافقوا على مساعدتي إلا بعد فترة طويلة من الصداقة الخالصة. وفي مايو 55 ودعتهم إلى كوزنيتسك، وبعد شهرين توفي الزوج بسبب ترسب الحصى. وظلت هي في دار الغربة، وحيدة معذبة بالمصيبة الداهمة، مع ابنها البالغ من العمر سبع سنوات، من دون ثمن كسرة الخبز. ولم يكن لديها حتى ما تدفن به زوجها. ولم تكن لدي أنا نقود. اقترضت من ألكسندر يغوروفيتش في الحال 25 روبلاً فضياً، ثم 40 روبلاً وأرسلتها إليها. والآن يساعدها والحمد لله أقرباؤها الذين كانت في

خلاف معهم بسبب زوجها. وهم يقيمون في آستراخان. والدها ابن نازح فرنسي، واسمه دي كونستانت، وهو عجوز يشغل منصباً كبيراً في آستراخان بصفة مدير الحجر الصحي. ليس لديه أملاك، ويعيش على راتبه الكبير. وسيتقاعد قريباً، فيتقلص دخله. وهو إلى ذلك يعيل ابنتين أخريين. ثم هناك أقارب زوجها الأبعدون. أحد إخوة زوجها يخدم كابتناً في كتيبة المشاة الفنلندية التابعة للحرس (القيصري). أنا أعرف أن عائلة الزوج أيضاً كانت محترمة جداً. والآن أفيدك يا صديقي بأنني أحب هذه المرأة من زمان، وأعرف أنها هي أيضاً يمكن أن تحب. أنا لا أستطيع العيش من دونها، ولذا سأتزوجها حالما تتبدل ظروفي نحو الأحسن وبصورة إيجابية ولو قليلاً. وأنا أعرف أنها لن ترفض. إلا أن المصيبة هي أنني لا أمتلك نقوداً ولا منزلة اجتماعية، في حين أن أقاربها يدعونها للذهاب إليهم في آستراخان. وإذا لم يتغير مصيري حتى الربيع فإنها سترحل إلى روسيا. لكن ذلك سيؤجل القضية ولا يغيرها. قراري نهائي، وسأنفذه حتى لو انفطرت الأرض بين قدمي. ولكنني لا أستطيع الآن، وأنا لا أملك شيئاً، أن أستغل ميل هذا الكائن النبيل إليَّ، وأدفعها إلى الزواج. منذ مايو حيث فارقتها تحولت حياتي إلى جحيم. نتراسل كل أسبوع. وكان ألكسندر يغوروفيتش (فرانغيل) على معرفة مع عائلة عيسايف، ولكن فقط للفترة الأخيرة من حياتهم في سيميبالاتينسك. لقد رأى ماريا دميتريفنا، لكنه قليل المعرفة بها. وقد كنت صريحاً معه بعض الشيء بهذا خصوص، ولكن ليس بالكامل. وهو لا يعرف مضمون هذه الرسالة، لكنه، على ما أظن، سيتحدث معك عن كل هذه الأمور. لا أزال حتى الآن أفكر في الانتقال إلى الخدمة المدنية. مدير مصانع ألطاي المقدم هيرنغروس، صديق ألكسندر يغوروفيتش،

راغب جداً في انتقالي للعمل عنده، وهو مستعد لتعييني براتب في بارناول. وأنا أفكر في ذلك، لكنني، على أية حال، أنتظر هل يأتي خبر من بطرسبورغ حتى الربيع؟ فإذا تعذر عليّ السفر من سيبيريا أنا أنوي الإقامة في بارناول حيث سينتقل للخدمة هناك ألكسندر يغوروفيتش. وبعد حين من الوقت سأعود إلى روسيا، أنا أعرف ذلك. لكنني، على أية حال، لا أعرف هل يحق لي أن آمل براتب معين. ولا يمكن لهذا الراتب أن يكون كبيراً. بديهي أنني سأبحث عن كل السبل لكسب المال. وسيكون رائعاً لهذا الغرض لو سمحوا لي بالنشر. وإلى ذلك، يمكن هنا في سيبيريا المضاربة الجيدة الموفقة برأسمال صغير جداً لا يستحق الذكر. ولو كنت أملك هنا، في سيميبالاتينسك، 300 روبل فضي نافلة لكسبت من خلالها حتماً 300 روبل أخرى في العام. فالمنطقة جديدة ومثيرة للفضول. على أية حال، سيكون مخجلاً لي، يا صديقي الغالي، أن أطلب منك إعالتي. ولكنني على يقين بأنك ستساعدني بعض الشيء عاماً آخر. المهم أن تساعدني الآن. فإذا جاءتني مرحمة سأطلب المساعدة من خالي، فليعطني شيئاً أبدأ به حياتي الجديدة. بديهي أنني لن أكتب لأحد في العالم بأنني أنوي أن أتزوج قبل أن يحصل ذلك. وقد أفضيت لك بهذا السر الخطير فحافظ على كتمانه. وأعترف بأنني لم أكن راغباً بفضحه حتى لك أنت. فتلك قضية قلبي يخشى الإعلان عنها ويخشى نظرة الغير وتعرضهم. تلك هي، على الأقل، طباعي. ولذا، فلوجه المسيح لا تخبر أحداً بسرّي مطلقاً. عموماً لا تخبر أحداً بكل مضمون رسالتي ولا تعرضها على أحد. باللّه عليك، لا تتعرض لهذا الموضوع بكلمة أمام أخواتي، فسيشعرن بالخوف عليَّ رأساً، وتبدأ النصائح بالتزام التعقل. أما بالنسبة لي فلا حاجة للحياة نفسها من

دون الشيء الذي بات رئيسياً فيها. أنا أثق بك وحدك، يا أفضل صديق. أنت الوحيد لديّ. والآن أحدثك عن بعض الملابسات العامة في حياتي هنا، ببضع كلمات، لأن الأفضل أن يحدثك البارون (فرانغيل) بكل شيء. صحتي جيدة تماماً، نوبات الصرع لم تحصل من زمان. وقد سلكت هنا الطريق القويم. فعلى الرغم من أنني مجرد جندي، إلا أن جميع ذوي المراتب الأعلى يعرفونني، بل ويتشرفون بمعرفتي. الرئاسة تحبني وتحترمني. (الجنرال هاسفورت) آمر الفيلق وحاكم المحافظة يعرفني ويحاول مساعدتي. وفي بارناول الجنرال مدير التعدين مستعد، من جانبه، أن يبذل كل ما من شأنه أن يساعدني، وهو في منصبه (العالي) قادر على الكثير. إلا أن الأفضل بالنسبة لي هو، في اعتقادي، الانتقال إلى روسيا (الداخل)، للخدمة في مكان ما في البداية. ثم، إذا استطعت أن أحصل على حق النشر، فلن أكون في عوز. كل ذلك سيحصل. أنا على يقين، ولكن ربما ينبغي الانتظار فترة أخرى. وحتى ذلك الحين ربما سأضطر إلى العيش في سيبيريا. فما العمل؟ لا بد من الانتظار. المهم أن أحصل على مرحمة مهما كانت ضئيلة، للانتقال إلى الخدمة المدنية والتعيين في وظيفة متواضعة براتب في مكان ما. لا أدري هل ستتحقق كل أمنياتي؟ ولربما تتبدد فرصة الزواج. وعندها سأكون تعيساً مغلوباً على أمري من جديد. أنا أعرف نفسي. لا بد من النقود. تلك هي المشكلة..

أقول لك إنه يخجلني أن أطلب منك مساعدتي عندئذٍ، ولكن، ولو بالقليل، ساعدني في البداية على الأقل. والآن إليك بضع كلمات عن أموري المالية الفعلية. طلبت منك في رسالة عن طريق شقيق ألكسندر يغوروفيتش أن ترسل لي 100 روبل فضي. يا صديقي، هذه

الـ 100 روبل لا تكاد تسعفني، لأن ديوناً كثيرة تراكمت عليّ. مجموعها 50 روبلاً فضياً، وإذا وصلتني نقودك قريباً ستبقى لدي 50 روبلاً تمكنني من انتظار تبدل ملابسات حياتي، في حال صدور المرحمة مثلاً. وعندذاك سأحتاج إلى مبلغ كبير لأشتري الثياب وغيرها من الحاجيات، ولا موجب للتعداد. هذه الـ 50 روبلاً التي ستبقى لدي سرعان ما تصرف، لأن كل ثيابي رثة، ولا بد من شراء ملابس داخلية وترميم البدلة وخياطة معطف جديد. ولن يبقى لدي سوى القليل، ولا يمكن العيش بأقل من 15 روبلاً في الشهر، إضافة إلى المصروفات غير المتوقعة. اسأل من فرانغيل عن ذلك. كل شيء هنا باهظ الثمن. على فكرة، أنا لا أطلب أكثر. سأكتفي بهذه الـ 100 روبل على أية حال. ربما باربارة ذات الروح الملائكية تبعث لي شيئاً. ما أروع رسائلها. من أين تعلمت الكتابة هكذا؟ إنها أجمل من رسائلك يا صاحب السعادة! وفي حال تغير مصيري، حيث سأحتاج إلى الكثير من النقود، سأطلب من خالي كما أبلغتك. فهل يعقل أنه سيرفض؟ آه يا صديقي، ليتك تعلم كم يصعب عليَّ الاعتراف لك بنقطة أخرى. لدي دين آخر، بالإضافة إلى هذا الدين. أنا مدين لألكسندر يغوروفيتش، حيث أخذت منه في أوقات مختلفة 125 روبلاً فضياً. ولا تسألني علامَ أنفقتها؟ أنا نفسي لا أدري. أنا أعرف فقط أنني أعيش بفقر مدقع، وأتحاشى التمتع بشيء، ومع ذلك أصبحت مديناً. أنا لا أطالبك، يا صديقي، بأن تسدد لألكسندر يغوروفيتش بدلاً مني. فهذا الطلب يتجاوز الحدود. لكنني أعرف أنني يجب أن أسدد له على الرغم من أنه لا يحتقن غضباً عندما أتحدث عن هذا الدين، بل ويشعر بالمرارة عندما أذكّره به. فهو مؤدب للغاية. عموماً، يكفينا كلاماً عن النقود. أنا أعرف أنك لن تنساني. فكرتي

الرئيسية هي أن أؤمن الكسب لنفسي بأسرع ما يمكن كيلا أثقل عليكم جميعاً. وأضيف هنا بضع كلمات عن ألكسندر يغوروفيتش. فاسمعني. إذا تسنى لك أن تتواصل معه راقبه ولا تتركه وحده. وأكشف لك هنا عن سر كبير. وربما أنا أسيء التصرف لكلامي معك عنه. ولكن ذلك من مصلحته. «إنه واقع في غرام سيدة من هذا البلد، كريمة المحتد وثرية جداً ومن عائلة محترمة»[1] وستصل إلى بطرسبورغ في الوقت نفسه تقريباً.

لا تبين لفرانغيل أنك تعرف بذلك، ولكن كن له بمثابة الأخ الشقيق، كما كنت أنا. وخذ مكاني بهذا الخصوص، فراقبه، لأنه يمكن أن يقوم بحماقات فظيعة، أي مأساوية حتى ضد أخيه، وأنا لا أريد ذلك. هناك المدعو المركيز دي ترافيرس، من أبناء ريفيل، وقد كان صديقاً للبارون فرانغيل، حيث ترعرعا في الطفولة معاً، لكن البارون يعتبره منافساً له، ولذا يمكنهما أن يقدما على حماقات كبيرة. لن أكتب لك أكثر. فإذا تصادقت مع ألكسندر يغوروفيتش وحظيت بثقته فإنه سيحدثك أكثر. وإلا فليس لك أن تعرف المزيد. في كل الأحوال راقبه مستفيداً من القليل الذي كتبته لك عنه. إنه ضعيف العزيمة، رقيق المعشر، بل وسريع التأثر، فأوقفه عند حده. ولكن، باللّه عليك، لا تتفوّه ببنت شفة عن ذلك لأحد. ولا تقل لفرانغيل إنني كتبت لك بهذا الخصوص، حتى في لحظة المصارحة إذا تم التواصل بينكما. فقد فعلتُ ذلك من أجله، لأنني أوده كثيراً. لا يعرف السر أحد سوانا، هو وأنا، والآن أنت. ولا أحد غيرنا. أعطني كلمة شرف بأنك لن تفشي السر. إنه غير صريح تماماً مع أخيه، لكنني مهتم بكل ما يتعلق به، حتى أني أفكر أن أكتب لأخيه بضع كلمات. وبالإضافة إلى هذا السر أخبرك بأن علاقته ليست على ما يرام مع

والده المتعنت الغريب الأطوار والوسواسي الشكاك. والده يحبه كثيراً، لكنه يطالبه، مثلاً، بأن لا يقوم حتى الآن بخطوة دون استشارة الأب، حتى في صغائر الأمور، بسبب حبه لابنه. وهو ثري، بل ثري جداً، لكنه بخيل على أولاده. إلا أن صديقي البارون لا يريد أن يأخذ شيئاً من والده لأن الأخير متعود على الملامة بسبب النقود التي يعطيها لأبنائه. لن أستطيع الحديث عن كل شيء في سطور. لكنني أتوقع وأعرف أن مشاكل كبيرة يمكن أن تحصل له مع والده. فإذا صارحك أعلنْ مشاطرتك له في الملمات ومارس الإيحاء له بأن والده هو الأب، على أية حال، وبالوالدين إحساناً. ولديه أخت هي على ما أعتقد الملاك الحارس للعائلة كلها. لقد قرأت رسائلها وأعرفها من أحاديث البارون نفسه.

18 يناير. حررت رسائل لأخواتي وخالي، ولم أطلب من أحد شيئاً، وكذلك إلى إيفانوف ومايكوف والأمير أوديفسكي. وطلبت من الأمير أن يساعدني عندما سأقدم طلب السماح باستئناف النشر. ولربما أستطيع أن أكتب في القريب العاجل مقالة عن الحركة الوطنية في روسيا.

إذا سمحوا لي بالنشر فسأطلب مالاً (بالمقابل) وستكون لدي نقود. هل تعرف يفغيني نيكولايفيتش ياكوشكين؟ إذا كنت لا تعرفه فتعرَّف عليه. إنه يتعاطف معي كثيراً. كما أرجوك أن تتعرف على إيفانوف بشكل أفضل.

باللّه عليك لا ترتعب ولا تفكر كثيراً فيما كتبته لك عن عواطفي. فذلك يمكن أن يحصل ويمكن أن لا يحصل. أنا إنسان شريف ولا أريد أن أستغل نفوذي لإرغام هذا الكائن النبيل على أن يضحي من أجلي. ولكن عندما تحين الفرصة، ولو بعد 5 سنوات، سأنفذ نواياي

(في الزواج منها). رجاءً لا تزعل مني على طلب النقود. ساعدني الآن فقط، ففي القريب العاجل، والعاجل جداً، يمكن أن يتغير مصيري.

وداعاً يا صديقي. عش بسعادة ولا تنسني. فبرحيل فرانغيل غدوت الآن يتيماً تماماً. ما أشد حزني.

قبّل الأطفال وبلّغ تحياتي إلى إميليا. كيف صحتها؟ فليهبكم اللّه جميعاً موفور السعادة. أحبني وتذكرني. وأنا أيضاً أحبك حباً جماً.

المخلص د (وستويفسكي)

---

(1) في الأصل بالفرنسية.



46. إلى أبولون مايكوف

سيميبالاتينسك، 18 يناير 1856

أردت من زمان أن أرد على رسالتك الغالية[1] يا عزيزي أبولون نيكولايفيتش. وقد تلمست فيها وأنا أقرأها نفحة الماضي وسابق العهود. أشكرك جزيل الشكر لأنك لم تنسني. ولا أدري لماذا كان يخيل إليَّ دوماً أنك لن تنساني، ذلك على الأقل لأنني أنا أيضاً لا يمكن أن أنساك. كتبتَ تقول إن وقتاً طويلاً مضى وإن أموراً كثيرة تبدلت، وحصلت تحولات جمة. نعم، هكذا بالفعل. إلا أن الشيء الجيد أننا كبشر وكأناس لم نتغير. أنا أتحدث عن نفسي بشعور من المسؤولية. وكان بوسعي أن أكتب لك الكثير عني ما يثير الفضول وحب الاستطلاع. لا تلمني لأنني الآن أكتب الرسالة على عجل، وبفترات متقطعة، ولربما بغير وضوح. لكنني أشعر في هذه اللحظة ربما بما كنت تشعر به أنت عندما كتبت لي: لا يمكن التعبير عما في النفس بعد كل هذه السنين ليس في صفحة واحدة، بل بـ 50 صفحة. من الضروري والحال هذا أن يدور الكلام وجهاً لوجه، لكي تُقرأ بصمة الروح على الوجه ولكي يرن صدى القلب في أصوات

الكلمات. الكلمة الواحدة التي تقال باعتقاد راسخ وبمنتهى الصدق والإخلاص ومن دون تردد، وجهاً لوجه، إنما تتضمن مغزى أكبر بكثير من عشرات الصفحات المحبرة.

أشكرك بخاصة على المعلومات عن أحوالك الشخصية. أنا كنت أعلم مسبقاً أن أمورك ستؤول إلى الزواج. كتبت لي تتساءل هل أتذكر آنا إيفانوفنا؟ كيف يمكن نسيانها؟ أنا مسرور لسعادتها وسعادتك. لم يكن ذلك غريباً عليَّ في السابق أيضاً. هل تتذكر عام 47 عندما بدأت (قصتكما). ذكّرها بي، وأكد لها احترامي وإخلاصي اللامتناهيين. وبلّغ والديك بأنني أتذكر تعرفي عليهما ورعايتهما بكل سرور. (...) بلّغ تحياتي لوالديك، أتمنى لهما من صميم القلب السعادة وطول العمر. لعلك تعرف من أخي بعض تفاصيل حياتي. في ساعات الفراغ أسجل بعضاً من ذكريات تواجدي في الأشغال الشاقة، مما يثير الفضول ويسترعي الانتباه. على فكرة، الأمور الشخصية الصرف قليلة في هذه التسجيلات. عندما أفرغ من التسجيل وأحصل على فرصة سانحة سأبعث إليك نسخة بخط يدي للذكرى (...) هذه الرسالة يحملها إليك البارون ألكسندر يغوروفيتش فرانغيل. وهو شاب يافع بخصال قلبية وروحية رائعة، جاء إلى سيبيريا من الثانوية مباشرة بأحلام بريئة ليتعرف على المنطقة وليكون نافعاً لها وما إلى ذلك. وقد خدم في سيميبالاتينسك، وتعارفنا، فكانت بيني وبينه مودة عميقة. وما دمتُ سأطلب منك بإلحاح أن تلتفت إليه وتهتم به وتتعرف عليه بشكل أفضل إن أمكن، فإنني أذكر لك بإيجاز شيئاً عن طباعه: إنه طيب القلب للغاية، ولا يحمل أية معتقدات متميزة. يتحلى بالنبل والشهامة والفطنة والذكاء. إلا أن قلبه ضعيف، رقيق، مع أن مظهره يبدو متعالياً متكبراً للوهلة الأولى. بودّي لو تعرفتَ عليه عموماً من أجل

مصلحته. البيئة التي ترعرع فيها شبه أرستقراطية أو أرستقراطية بثلاثة أرباعها، في عائلة بارون. إلا أن هذه البيئة لا تعجبني كثيراً، بل ولا تعجبه هو أيضاً، لأنها رغم المزايا الرائعة، إلا أنها متأثرة بالماضي كثيراً وبشكل صارخ. فليكن لك تأثير عليه إذا تمكنت، فهو يستحق ذلك. وقد عمل لي الكثير من المعروف. لكنني أحبه ليس فقط بسبب ما قدمه لي من معروف. وفي الختام أقول إنه وسواسي بعض الشيء، سريع التأثر، انطوائي أحياناً، ويعوزه بعض التوازن في المزاج. تكلم معه، إذا توافقتما، بصراحة وببساطة، وبأكبر قدر ممكن من الصدق، ولا تبدأ الكلام من بعيد. لا مؤاخذة لأني أرجوك هكذا بخصوص البارون، ذلك، وأكرر، لأنني أوده كثيراً. ملاحظاتي عنه، وكذلك هذه الرسالة عموماً، ينبغي أن تبقى طي الكتمان. وبالطبع لا موجب لإلفات نظرك إلى ذلك، فأنت أدرى.

(. . .) كتبت تقول إنك عانيت الكثير وفكرت في الكثير ورأيت من المستجدات الكثير. ذلك في طبيعة الأشياء، وأنا على يقين بأن أفكارنا، أنت وأنا، يمكن أن تتوافق اليوم أيضاً. أنا كذلك فكرت وعانيت، وكانت هناك ملابسات ومؤثرات دفعتني لإعادة التأمل والتفكير في الكثير من الأمور، بل وفوق طاقتي. إنك، وأنت تعرفني حق المعرفة، لا بد أن تقول بأن الحق معي عندما سلكت دوماً ما بدا لي هو الأفضل والأكثر إستقامة، فلم أداهن، بل مارست ما مارسته برغبة وحماس. لا تظن أنني ألمح من خلال هذه الكلمات إلى ما نُفيت بسببه إلى هنا. فأنا أتحدث عما جاء بعد تلك الأحداث، لأن الكلام عن الماضي غير مناسب. ثم إن ذلك جاء من قبيل المصادفات لا أكثر. الأفكار تتبدل والقلب يبقى كما هو. قرأت رسالتك ولم أفهم الأمر الرئيسي. أقصد الوطنية، الفكرة الروسية، الشعور بالواجب

وكرامة الوطن، كل ما تتحدث عنه أنت بكل هذا الإعجاب والحماس. ولكن، يا صديقي، هل يعقل أنك كنت ذات يوم على غير ذلك، من رأي غير هذا؟ أنا دوماً كنت أؤمن بهذه المشاعر والمعتقدات. روسيا الواجب، الشرف؟ نعم. أقول لك بصراحة: أنا دوماً كنت روسياً حقاً وحقيقة. فما الجديد في هذه الحركة الذي اكتشفته حواليك وتكتب عنه وكأنه اتجاه جديد بالفعل؟ أعترف لك بأنني لم أفهمك. قرأت أشعارك ووجدتها رائعة. وأشاطرك تماماً شعورك الوطني بالتحرر الأخلاقي للسلافيين (الصقالبة). هذا هو دور روسيا الشمّاء العظيمة، روسيا الأم المقدسة. وما أروع الخاتمة والسطور الأخيرة في (قصيدتك) «كاتدرائية كليرمونتسكي». من أين أخذت هذه اللغة لتعبّر عن هذه الفكرة الهائلة بمثل هذه الروعة؟ نعم، أشاطرك الفكرة القائلة بأن روسيا ستنهي أوروبا ورسالتها. كان ذلك واضحاً بالنسبة لي من زمان. تقول في رسالتك إن المجتمع كأنما أخذ يصحو من اللاأبالية والخمول. ولكنك تعلم أن التظاهرات لا تحصل في مجتمعنا عموماً. فمن قال استناداً إلى ذلك إن المجتمع يفتقر إلى الطاقات؟ ألقِ الضوء جيداً على الفكرة، وادعُ المجتمع وسيفهمك ذلك المجتمع. والحال كذلك الآن أيضاً: الفكرة أنيرت بشكل رائع، بروح وطنية وفروسية تماماً، وهذا أمر حقيقي لا بد من الاعتراف به، وتبنى الجميع فكرتنا السياسية التي أوصى بها بطرس. ولعلك تشعر بالاستياء، منذ وقت قريب، من غزو الأفكار الفرنسية لذلك الجزء من المجتمع الذي يفكر ويحس ويتدارس. صحيح أن ذلك كان استثناءً، وكل استثناء يولّد ضداً بطبيعته. ولكن ألا توافقني بأن جميع ذوي العقل السليم، أي أولئك الذين يوجهون ويتحكمون بكل شيء، قد نظروا إلى الأفكار الفرنسية من الزاوية العلمية لا أكثر. وأنهم، هم،

حتى وإن كانوا يتقيدون بالاستثناءات، إنما كانوا من الروس. فأين ترى المستجدات؟ أؤكد لك أنني، على سبيل المثال، يعز عليّ كل ما هو روسي. حتى سجناء الأشغال الشاقة لم يثيروا مخاوفي، فهم من أبناء الشعب الروسي وهم إخوتي في المصيبة، وكان يسعدني أن أبحث أكثر من مرة عن سماحة الخلق حتى في جوانح الواحد من قطاع الطرق، ولذا تمكنت في الواقع من فهمه، لأنه كان روسياً. مصيبتي وفّرت لي فرصة الاطلاع عملياً على الكثير من الأمور، ولعل هذه الممارسات أثرت فيّ كثيراً، لكني عرفت عملياً بأنني كنت دوماً روسياً من حيث القلب والفؤاد. يمكن الوقوع في خطأ الفكرة، ولكن لا يجوز الخطأ في القلب وخطأ فقدان الضمير، أي العمل ضد المعتقد الشخصي. ولكن لماذا أكتب لك عن ذلك كله؟ لماذا؟ فأنا أعرف أنني لن أتمكن من التعبير عن شيء في سطور، فما الداعي لكتابة ذلك؟ الأفضل أن أخبرك شيئاً إضافياً عن نفسي. في فترة الأشغال الشاقة لم أقرأ إلا القليل. فلم تكن هناك كتب أبداً. أحياناً كنت أحصل عليها. وعندما وصلت إلى هنا، إلى سيميبالاتينسك، أخذت أقرأ أكثر. ومع ذلك لا توجد كتب، بل حتى الكتب الضرورية غير موجودة. والوقت يمضي. لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى عذابي لأنني لم أتمكن من الكتابة في فترة الأشغال الشاقة. في حين أن العمل كان يغلي في داخلي. وإن النتائج جيدة أحياناً. كنت أتلمس ذلك. لقد ألفت هناك، في الدماغ، قصتي الكبيرة المكتملة. كنت أخشى أن يخفت الحب الأول لنتاجي حين تمر السنين ويحين وقت التجربة، فلا أجد الحب الذي تتعذر الكتابة من دونه. لكنني أخطأت. طباع الشخوص التي أبدعتها وتشكل أساس القصة بمجملها تطلبت عدة سنوات من النضوج والتطوير، وأنا واثق بأنني يمكن أن

أفسد كل شيء فيما لو أخذت أكتب وأكتب من دون تمهيد. ولكنني عندما أنهيت الأشغال الشاقة لم أكتب مع أن كل شيء كان جاهزاً. لم أتمكن من الكتابة. هناك حادثٌ تباطأ كثيراً في حياتي حتى جاءني أخيراً وشغلني عن كل شيء في الدنيا. كنت سعيداً، ولم أستطع أن أعمل. ثم حلت بي الأحزان والمصائب. فقدت ما كان يشكل كل شيء بالنسبة لي. مئات الأميال تفرق بيننا. لا أستطيع أن أوضح لك القضية الآن، ربما سأوضحها في زمن ما. إلا أنني لم أكن عاطلاً عن العمل نهائياً. كنت أعمل، لكنني أرجأت مؤلفي الرئيسي ووضعته جانباً.[2] فهو يحتاج إلى استقرار نفساني أكثر. في معرض المزاح بدأتُ كتابة ملهاة، وبذلك أثرت مازحاً الكثير من المواقف الهزلية ورسمت العديد من الشخوص الفكاهية، حتى أعجبني بطلي لدرجة أني تركت الشكل الفكاهي رغم نجاحه، وذلك للشعور بالارتياح من متابعة مغامراته وقتا أطول والضحك عليه. هذا البطل يشبهني بعض الشيء. باختصار، أنا أكتب رواية هزلية، لكنني لحد الآن كتبت مشاهد منفصلة للمغامرات، كتبت ما يكفيني والآن أعمل على توليفها في رواية متكاملة. هذا هو البلاغ المبين عن مشاغلي. فما كان بوسعي أن لا أحدثك عنها وأتذكر ماضينا يا صديقي الغالي. نعم. كنت سعيداً مراراً معك، فكيف أنساك. كتبت لي شيئاً عن الأدب. خلال العام الحالي لم أقرأ شيئاً تقريباً. وأذكر لك هنا متابعاتي: تورغينيف يعجبني أكثر من الجميع. وللأسف أن فيه القليل من ضبط النفس رغم موهبته الكبيرة. ل.ت. (ليف تولستوي) يعجبني كثيراً. لكنه، باعتقادي، لن يكتب الكثير، وربما أنا مخطئ. أنا لا أعرف أوستروفسكي إطلاقاً، لم أقرأ له على العموم، لكنني قرأت مقتطفات عديدة في الدراسات عنه. وهو ربما يعرف جيداً طبقة معينة من

روسيا، لكني أعتقد أنه ليس فناناً. وإلى ذلك أعتقد أنه شاعر بلا مثال أعلى. فأرجوك أن تغير رأيي، اكتبْ لي باللّه عليك ما هي أفضل مؤلفاته لكي أتعرف عليه ليس من كتابات النقاد فقط. من مؤلفات بيسيمسكي قرأت «الثرثار» و«الخطيب الثري» فقط. وهو يعجبني كثيراً. ذكي، طيب القلب، بل وساذج، ويحكي جيداً. إلا أن المؤسف لديه هو الاستعجال في الكتابة. يكتب كثيراً وبسرعة كبيرة. لا بد من المزيد من حب الذات واحترام الموهبة الشخصية والفن، لا بد من حب الفن أكثر. الأفكار تسيل منذ الفتوة، ولا يجوز تلقف كلاً منها على عجل والتعبير عنها في الحال، والتسرع في ذلك التعبير. الأفضل انتظار المزيد من التراكيب، والمزيد من التفكير، انتظار تجمع الكثير من صغائر الأمور التي تعبّر عن فكرة واحدة في مجموع كبير، في صورة مجسمة كبيرة، وعندذاك يمكن التعبير عنها. الشخوص الهائلة التي ابتدعها كتّاب كثيرون غالباً ما كانت ترسم وتنضج أمداً طويلاً وبصبر وأناة. فلا يصح التعبير عن كل التجارب والعينات والرسومات الأولية. لا أدري هل فهمت ما أقول؟ أما بخصوص بيسيمسكي فهو، باعتقادي، يطلق العنان لريشته. كاتباتنا يؤلفن ككاتبات أنثويات، بمعنى أنهن يكتبن بفطنة وبرقّة ويسرعن كثيراً في الصياغة والتعبير. خبرني لماذا لا تغدو الكاتبة أبداً تقريباً فنانة صارمة؟ حتى الفنانة التي لا جدال في موهبتها، جورج صاند، أساءت إلى نفسها أكثر من مرة بخصالها الأنثوية. قرأت الكثير من أشعارك القصيرة في المجلات طول الوقت. وهي تعجبني كثيراً. فتشجع واعمل. وأقول لك بالسر والكتمان توتشيف شاعر رائع، ولكن كذا وكذا... أي توتشيف هذا؟ شاعرنا؟ على فكرة، الكثير من أشعاره في منتهى الروعة. وداعاً، يا صديقي العزيز. لا مؤاخذة على عدم

ترابط الرسالة. لا يمكن كتابة شيء في الرسائل. ولذا أنا لا أطيق مدام دي سيفيج، فقد كتبت رسائل في منتهى الروعة. من يدري؟ ربما سأعانقك في زمن ما. يا ليتنا. باللّه عليك لا تخبر أحداً برسالتي هذه. أعانقك.

المخلص د (وستويفسكي)

---

(1) رسالة مايكوف إلى دوستويفسكي مفقودة.

(2) في الخمسينات تحدث دوستويفسكي مراراً عما سمّاه روايته الرئيسية، لكنها لم تر النور.



47. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 23 مارس 1856

صديقي الطيب الغالي ألكسندر يغوروفيتش! أين أنت؟ ماذا دهاك؟ هل نسيتني؟ اعتباراً من الاثنين القادم سأظل أنتظر منك بفارغ الصبر الرسالة الموعودة، كما لو كانت هي السعادة بعينها وتحقيق كل أمنياتي الفعلية. تحت هذا المظروف تجد ثلاث رسائل غير مختومة، واحدة لأخي والأخرى للجنرال المرافق إدوارد إيفانوفيتش توتليبين. فلا تدهش. سأوضح لك. والآن أتحدث بالترتيب، وأبدأ الحديث عني. يا ليتك تعرف مدى كآبتي وانكساري وخيبة أملي النهائية تقريباً الآن، في الحال الحاضر، لو عرفت لفهمت حقاً لماذا أتت رسالتك كسفينة النجاة. فهي لا بد أن تحل الكثير، والكثير جداً، في مصيري. لقد وعدتني بأن تكتب بأسرع ما يمكن، حال وصولك إلى بطرسبورغ وتبلغني بكل ما أطمح إليه وما بذلته من جهود أخوية من أجلي طوال عام كامل، بصراحة من دون إخفاء شيء. ومن دون تزويق للحقيقة ومن دون تهدئتي بآمال مهزوزة. أنا أنتظر منك هذه الأخبار كأنفاس الحياة. باللّه عليك لا تعرض رسالتي على أحد. وأحيطك أن أحوالي

كما في حال الطوارئ. السيدة[1] مكتئبة، مخيّبة، متوعكة طول الوقت، أخذت تفقد الأمل في تطلعاتي وفي تأمين مستقبلي، والأسوأ من ذلك أنها محاطة في مدينتها الصغيرة، لم تنتقل إلى بارناول حتى الآن، بأناس يدبرون أموراً غير طيبة إطلاقاً. فهناك من يطلب يدها. ويبذل المتزلفون من أقربائها جهوداً بالغة لإقناعها بالزواج، وإعطاء وعد بالموافقة لخطيب لا أعرف اسمه بعد. وفي انتظار الوعد يتجسّسون عليها ليعرفوا ممّن تأتيها الرسائل؟ وهي لا تزال تنتظر أخباراً من أقاربها الذين ينبغي أن يتولوا هناك، على أطراف الدنيا، البت في مصيرها هنا. بمعنى هل تعود إلى روسيا (الداخل) أم تنتقل إلى بارناول. رسائلها الأخيرة إليّ تغدو طول الوقت أكثر كآبة وحزناً. كتبت لي بتأثير المرض، وأنا أعرف أنها مريضة. وقد حزرت بأنها تخفي عني شيئاً. للأسف أنني لم أحدثك عن ذلك أبداً. فعندما كنتَ تخدم هنا كانت غيرتي عليها تقودها إلى اليأس والقنوط، ولربما هي الآن تخفي عليَّ الكثير بسبب ذلك. وماذا بعد؟ فجأة سمعت بأنها وعدت شخصاً آخر، في كوزنيتسك، بالزواج منه. وصعقت لهذا النبأ. ومن يأسي لم أكن أعرف ماذا أفعل. هل أبدأ بالكتابة إليها؟ لكنني يوم الأحد استلمت منها رسالة رقيقة بديعة كالعادة، لكنها منطوية أكثر من السابق. الكلمات القلبية فيها أقل، وكأنما تخشى أن تكتبها. ولا ذكر لأمانينا المستقبلية وكأن التفكير فيها أرجئ إلى أجل غير مسمّى. ليس هناك أي أثر للإيمان بإمكان التغيير في مصيري قريباً. وأخيراً جاء الخبر كالرعد الهادر: فقد قررت أن ترفع ستارة الكتمان وتسألني بتردد: «بماذا ترد لو طلب يدها رجل ثري متقدم في السن بخصال حميدة ومنصب مرموق؟». إنها تطلب النصح مني. وتقول إن رأسها داخ من التفكير في بقائها وحيدة في أطراف الدنيا،

مع ابنها، ووالدها العجوز الذي يمكن أن يقضي نحبه. فماذا سيحصل لها عندئذٍ؟ وتطلب مناقشة الموضوع ببرود أعصاب، كما هو المتوقع من صديق، وتريد جواباً فورياً. وبالمناسبة كانت في الرسائل السابقة أيضا تأكيدات على الحب. والآن تضيف أنها تحبني، وأن موضوع الزواج مجرد افتراض وحسابات. صعقت للنبأ، فترنحت وهويت وأغمي عليّ، ثم شرعت أبكي طول الليل. والآن أنا راقد في غرفتي. وفي دماغي فكرة متحجرة. وأكاد لا أفهم كيف أعيش ولا أفقه ما يقال لي. آه، أعوذ باللّه من هذا الشعور الفظيع الرهيب. فرحة الحب عظيمة، لكن المعاناة فظيعة، والأفضل للإنسان أن لا يحب أبداً. أقسم لك أنني أصبت باليأس والقنوط. لقد فهمت احتمال شيء غير عادي، ما كان بوسعي أن أقدم عليه مطلقاً في ظروف غير هذه. . . حررت لها رسالة في ذلك المساء نفسه، رسالة فظيعة مفعمة باليأس. يا لها من مسكينة. ملاكي. إنها مريضة حتى من دوني. فيما رحت أنهشها وأعذبها. ولربما كنت سأقتلها بهذه الرسالة. قلت لها إني سأموت إذا حرمت منها. اجتمعت في الرسالة التهديدات والملاطفات والاستعطاف والمذلة وغيرها كثير. أرجو أن تفهمني، أنت ملاكي وأملي. فلنحكم العقل: ماذا يبقى لها أن تفعل المسكينة المهجورة الوسواسية لحد المرض، وإلى ذلك فقدت ثقتها بانتظام مصيري؟ فهل يجدر بها أن تتزوج جندياً مثلي؟ قرأت كل رسائلها الأخيرة هذا الأسبوع. اللّه يعلم، ربما هي لم تعط وعداً بعد، ويخيل إليَّ أنها مترددة. لكنها تحبني، أنا أعرف ذلك، وأراه من حزنها وكآبتها ومن موجات رسائلها ومن مؤشرات كثيرة أخرى لن أكتب لك عنها. يا صديقي، أنا لم أكن صريحاً معك للنهاية بهذا الخصوص. فماذا عساي أن أفعل الآن؟ أنا لم أتعرض في حياتي أبداً لمثل هذا اليأس

الفتاك. . . كآبة قاتلة تمتص قلبي. في الليل كوابيس، وفي المنام صيحات، وحشرجة في الحنجرة تكاد تخنقني. والدموع تستعصي تارة وتنهمر مدراراً تارة أخرى. أرجوك أن تتفهم موقفي. أنا إنسان نزيه. وأعرف أنها تحبني. ماذا سيحصل لو اعترضتُ على سعادتها؟ ومن جهة أخرى أنا لا أصدق بخطيب من كوزنيتسك. فليس من شأنها، وهي المريضة المنفعلة المحطمة القلب والمثقفة الذكية، أن تستسلم لشخص لا يعرفه إلا اللّه، شخص قد يعتبر حتى الضرب والعراك أمراً مشروعاً في الزواج. إنها طيبة القلب ساذجة سريعة التصديق. . أنا أعرفها جيداً. يمكن جعلها تصدق بأي شيء. وإلى ذلك يضللها الأقارب الملاعين، وكذلك نفق الأوضاع المسدود. سأعرف الجواب الحاسم، أي سأطلع على حقيقة الأمر في الثاني من أبريل. ولكن انصحني، يا صديقي، ماذا عليَّ أن أفعل؟ على فكرة، لماذا أنشد النصح منك؟ أنا لا أستطيع أن أتخلى عنها في أي حال من الأحوال. الحب في مثل سني ليس هبة. وهو مستمر من عامين. هل تسمعني؟ من عامين. وخلال 10 أشهر من الفراق لم يخفت، بل وصل إلى حد اللامعقول. سأهلك إذا فقدتها، ملاكي، فإما الجنون وإما إرطيش.[2] بديهي أنه لو استقامت أموري، بصدور البلاغ (القيصري)، فستكون الأفضلية عندها لي بالمقارنة مع الجميع، ذلك لأنها تحبني، وأنا واثق بحبها. وأقول لك إننا نقصد بلغتنا، معها، من مفردة استقامة مصيري، الانتقال من الخدمة العسكرية إلى المدنية، أي وظيفة براتب من الدرجة 14 على الأقل، أو الأمل القريب فيها، مع إمكانية الحصول على المال لكي نعيش على الأقل حتى يتم ترتيب أموري نهائياً. وغني عن البيان أنها ستعتبر ترك الخدمة العسكرية أو الانتقال إلى الخدمة المدنية، ولو من دون درجة وظيفية ومن دون نقود وفيرة،

أملاً عريضاً يعيد إليها الروح. ومن جهتي أعلن لك عن آمالي التي يجب أن أحققها لأنتزعها ممن يطلبون يدها وأظل في نظرها إنساناً شريفاً، وبعد ذلك سأسألك عما يمكن أن يتحقق أو لا يتحقق من الآمال. ذلك لأنك في بطرسبورغ وتعرف الكثير مما لا أعرفه أنا.

آمالي، يا صديقي الغالي، وربما الوحيد، صاحب القلب النقي الصافي الصادق، كالآتي. فاستمع إليها. ومهما فكرت فيها يخيل إليَّ أنها واضحة تماماً. أولاً- هل يعقل أن المرحمة، أياً كانت، لن تأتي هذا الصيف بمناسبة الصلح[3] أو بمناسبة عيد الجلوس؟ أنتظر منك هذا النبأ بفارغ الصبر وبرجفة في القلب. ثانياً- نترك جانباً ما يخص الأمنيات والآمال. ألا يحق لي أن أتحول من الخدمة العسكرية إلى الخدمة المدنية وأنتقل إلى بارناول إذا لم ينص البلاغ على خلاف ذلك؟ دورف انتقل إلى الخدمة المدنية، أليس كذلك؟ أقول لك إن هذا الانتقال وحده يعيد إليها الروح، فتطرد كل من يطلب يدها، لأنها كتبت في الرسالة الأخيرة والرسالة التي قبلها أنها تحبني حباً جماً، وأن الخطيب (موضوع البحث) مجرد حسابات مصلحية، وترجوني أن لا أشكك في حبها وأن أثق بأن ذلك افتراض لا غير. وأنا أثق بالاحتمال الأخير. فلربما طلبوا يدها وعرضوا عليها وحاولوا إقناعها، لكنها لم تقطع لهم عهداً. وقد استفسرتُ عن الإشاعات وبحثت عن مصادرها واتضح لي أن النميمة والأقاويل فيها كثيرة. وفضلاً عن ذلك، لو أنها عاهدتهم لكتبت لي. فقد طالبتها بالصراحة الكاملة، وبالتالي سأعرف كل النوايا المبيتة. آخ يا صديقي. هل يمكنني أن أتركها أو أتنازل عنها لغيري؟ فلي حق عليها. هل تسمعني، لي حق بها وعليها. هكذا سيعتبر انتقالي إلى الخدمة المدنية أملاً عريضاً وسيحظى بالاستحسان. ثالثاً- هل سيطول بقائي بلا

وظيفة؟ ما رأيك؟ وهل يصدر منع بترقيتي؟ المجرمون من أمثالي استلموا كل المستحقات. أنا لا أصدق. أنا على يقين بأنني سأعود إلى روسيا بعد عامين حتى لو لم أحصل على شيء الآن. بخصوص النقطة الأهم- النقود. لدي عملان سيكونان جاهزين في سبتمبر. أحدهما مقالة[4] والآخر رواية[5] أريد أن أطلب رسمياً نشرهما. فإذا سمحوا لي فسيكون لدي الخبز الكفاف مدى الحياة. أنا حالياً لست كما في الماضي. فما أكثر ما نقحت وخططت وما أقوى طاقتي ورغبتي في الكتابة. آمل أن أكتب بحلول سبتمبر رواية أفضل من «الفقراء». فإذا سمحوا لي بالنشر، وأنا لا أصدق، هل تسمعني؟ لا أصدق بأن ذلك مستحيل إذا بذلت الجهود اللازمة للتشفع لي، فستثار ضجة ويحظى الكتاب بالإقبال وترسل النقود إليّ وتزداد أهميتي وتلتفت الحكومة إليّ، فتأتي العودة أسرع. حاجتي لا تتجاوز 2-3 آلاف روبل ورقي في السنة. وهكذا، هل أن موقفي منها نزيه وشريف أم لا؟ هل أن ذلك قليل للصرف على احتياجاتنا؟ بعد عامين تقريباً نعود إلى روسيا، وهي ستعيش في بحبوحة. بل وربما سندخر مالاً. هل يعقل أنني، ببسالتي وطاقاتي التي قاومت فيها آلاماً لا تطاق طوال ستة أعوام، لن أتمكن من كسب نقود تكفي لإطعامي مع زوجتي؟ كلام فارغ. المهم لا أحد يعرف طاقاتي وعمق موهبتي، في حين أنا أعلق آمالي على هذا الأمر الرئيسي. والاحتمال الأخير، لنفترض، أنهم لن يسمحوا بالنشر عاماً آخر. فأنا حالما يحصل أول تغيير أكتب إلى خالي وأطلب منه 1000 روبل فضي لأباشر العمل على الصعيد الجديد، ناهيك عن الزواج. وأنا واثق بأنه سيعطيني. أليس بإمكاننا أن نعيش بهذا المبلغ عاماً؟ وعند ذاك تستقيم الأمور. ثم إنني أستطيع أن أنشر باسم مستعار وأستلم نقوداً على أية حال. أرجو أن تفهمني.

كل هذه الآمال واردة إذا لم يصدر البلاغ في الصيف الحالي. فماذا لو صدر؟ كلا، أنا لست سافلاً دنيئاً في نظرها. وما دامت تذكر بنفسها أنه يطيب لها أن تترك جميع طالبي يدها من أجلي، وتفعل ذلك بلا أسف، فإنني سأخلصها من المحنة، على أن تستقيم أمورنا. ولكن ماذا أقول؟ القرار نهائي بأنني لن أتركها تهلك من دوني. عزيزي ألكسندر يغوروفيتش! ليتك تعلم كم أنتظر رسالتك. فلعل فيها أخباراً إيجابية. وعندذاك أبعثها إليها نصاً. وإذا تعذر ذلك سأقتطف السطور المتعلقة بالأمل في انتظام مصيري وأرسلها إليها.

ولكن لعلك تفهم المشاغل والهموم التي أنا فيها. ولدي عدة طلبات إليك. أرجوك أن تنفذها لوجه المسيح. الطلب الأول. تجد هنا رسالة إلى إدوارد إيفانوفيتش توتليبين. وإليك فكرتي: كنت في زمن ما على معرفة جيدة بهذا الرجل. وأنا صديق طفولة أخيه. وقبل اعتقالي بعدة أيام التقيته صدفة، وتصافحنا بترحاب من الطرفين. وماذا بعد؟ ربما هو لم ينسني. . إنه إنسان طيب القلب متواضع بأريحية كبيرة، وقد أثبت ذلك شخصياً، إنه من أبطال سيواستوبول الحقيقيين من مقاتلي ناخيموف وكورنيلوف عن جدارة واستحقاق. احملْ له رسالتي. اقرأها في البداية جيداً. أكيد أنك ستلاحظ من لهجة رسالتي إليه أنني كنت متردداً ولا أدري كيف أكتب له. فهو الآن في منزلة رفيعة، وأنا، من أنا؟ وهل سيرغب أن يتذكرني؟ على أية حال كتبت الرسالة على طريقة عسى ولعل. اذهبْ إليه شخصياً، وآمل أن يكون في بطرسبورغ، وسلمه رسالتي على انفراد. وسترى من ملامح وجهه رأساً ردة فعله. فإذا كانت سلبية فلا داعي للقيام بشيء. أوضح له الموقف باختصار واشكره وقدم احتراماتك وانصرف، واطلب منه سلفاً أن يكتم سر هذه القضية. إنه إنسان مؤدب جداً،

طباعه كطباع الفرسان بعض الشيء، سيستقبلك ويودعك ببشاشة حتى وإن لم يعد بما يرام. وإذا رأيت من ملامح وجهه أنه سيهتم بقضيتي ويعبّر عن الكثير من المشاطرة والطيبة، فلك أن تتصارح معه تماماً وتعالج الموضوع بصدق وتحدثه عني وتقول له إن لكلمته الآن أهمية بالغة ويمكنه أن يتشفع لي عند صاحب الجلالة ويتكفل بحسن سلوكي كمواطن جيد، لمعرفته بي. أكيد أنهم لن يرفضوا طلبه. صاحب الجلالة عفا مراراً عن المجرمين البولنديين برجاء من باسكيفيتش. توتليبين الآن في رعاية وحب (من البلاط) بحيث يضاهي رجاؤه رجاء باسكيفيتش. عموماً أنا أعلق آمالي كثيراً عليك. وأنا واثق بأنك ستقول كلمتك المتحمسة. فلا تبخل بها عليّ، باللّه عليك. شدد بخاصة على تركي الخدمة العسكرية. والأمر الرئيسي، إذا أمكن أكثر، هو العفو التام، فلا يغيبن ذلك عن بالك. ألا يجوز، مثلاً، تسريحي من الخدمة العسكرية ومنحي حق التنسيب للخدمة المدنية من المرتبة 14 مع العودة إلى روسيا والسماح بالنشر، وهذا هو الأهم؟ عموماً اقرأ رسالتي إلى توتليبين باهتمام. وهل يمكن الاستفادة من القصيدة؟[6] قرأت في الصحف أن مايكوف تلا شعراً أمام توتليبين في مأدبة غداء. فهل هو على معرفة شخصية به؟ إذا كان كذلك حدّث مايكوف بكل شيء سراً، واطلب منه أن يتشفع لي هو أيضاً عند توتليبين ويرافقك في زيارته. هل يمكنك أن تلتقي أدولف، شقيق توتليبين الأصغر، وهو صديقي. حدثه عني، فيهرع إلى أخيه مستعطفاً أن يتشفع لي. طبيعي أنك ستختم رسالتي إلى توتليبين في مظروف تقدمه له. وأرسلْ لي بأسرع ما يمكن خبراً عن كل هذه الأمور سواء كانت جيدة أو سيئة. والمشكلة أن الرجل يمكن أن يرتحل في تلك الأثناء إلى منطقته. فسيذهب إليها لمدة شهر. أعتقد أنه لن يرتحل

الآن. يخيل إليَّ أنه لن يرتحل. فعجِّل في الجواب إليَّ. إنني أخشى أمراً آخر. فهل تقبَّل الأمير أودويفسكي رسالتي؟ هل أُسقط في يدك؟ وهل أنت متردد في الذهاب إلى توتليبين؟ يا ملاكي، لا تتركني. لا تدفعني إلى اليأس المطبق.

الطلب الثاني. اكتبْ لي بالتفصيل وبسرعة: ما رأيك في أخي؟ بأي حال وجدته؟ ما رأيه في قضيتي؟ في السابق كان يحبني حباً جماً. كان يبكي عندما ودعني. ألم يفتر موقفه مني؟ ألم تتغير طباعه؟ ما أشد حزني لو حصل ذلك؟ ألم يتكالب على كسب المال، فنسي الماضي كله؟ أنا لا أصدق بذلك في كل الأحوال. ولكن كيف نفسر توقفه عن الكتابة لي أحياناً على مدى 7 أو 8 أشهر؟ ثم يكتب ما لم ينزل اللّه به من سلطان. وحتى في الرسائل التي يحملها خومينتوفسكي، خارج مجال الرقابة، لا يجيب عن أسئلتي، ولا أجد فيها إلا القليل من دفء الماضي وأريحيته. لن أنسى أبداً ما قاله لخومينتوفسكي الذي نقل إليه رجائي في التشفع لي من أن الأفضل لي أن أبقى في سيبيريا. في ديسمبر كتبنا، ولعلك تتذكر من خلال أخيك، وطلبت أنا نقوداً ترسل عن طريق لاموت. وأنت تعرف مدى حاجتي. وبالنتيجة لا خبر جاء ولا وحي نزل. أنا أفهم أنه يمكن أن لا يمتلك مالاً نقدياً، فهو يتاجر، ولكن لا بد من إنقاذ الشخص في الملمات. علماً بأنني لن أكون عالة عليهم لأمد طويل، وسأسدد كل المطلوب. ثم إنني أطلب منه نقوداً لأني أتذكر كلماته أثناء توديعي. في رسالتي إليه، المرفقة طياً، أطلب، فضلاً عن الـ 100، مبلغاً أكبر على قدر المستطاع. أنا بحاجة إلى ذلك تحوطاً للاحتمالات. فلو أطلقوا سراحي لسافرت على جناح السرعة إلى كوزنيتسك، ولا يمكنني أن أفعل ذلك من دون نقود. ثم إنها إذا عزمت على المغادرة

إلى بارناول فسأحاول إقناعها بأن تأخذ مني نقوداً. أنا لا أستطيع أن أكتب لك، لكني بأمسّ الحاجة إلى النقود. مرة واحدة في الحياة يصادف أن تكون النقود ضرورية لهذا الحد. 300 روبل فضي من شأنها أن تنقذني، بل وحتى 200 ترضيني، بما فيها الـ 100 التي طلبتها في ديسمبر. بديهي أنني أكتب لك ذلك كصديق، فلا تفكر أن تساعدني بنفسك. أنا أصلاً غدّار ومدين لك بالكثير جداً. على أية حال اقرأ رسالتي لأخي. وما أكتبه لك الآن لا أعرضه عليه. فأنا أحيله إليك لتوضيح الأمور. حدثه بكل شيء. ماذا لو كان هو أيضاً، شأن الأعمام والأقارب في الروايات، مستاءً من حبي لها ويحاول أن يقنعك بعدم مساعدتي؟ أنا في الخامسة والثلاثين. فماذا يظن؟ هل يتصور أنني أحبه من أجل النقود التي يرسلها إليَّ؟ كلام فارغ. لدي شعور بالعزة والكرامة الشخصية. سأقتات على الخبز وحده، وسنهلك أنا وإياها، فلا حاجة لي بالنقود التي يرسلها بدافع من شعور كهذا. أنا لا أريد صدقة. أنا بحاجة إلى أخي وليس إلى نقوده. في زمن ما تشاجرنا، لكننا كنا نحب بعضنا بعضاً حباً جماً. أقسم لك أنني مستعد للتضحية برقبتي من أجله. طباعي ممقوتة، لكنني أقف في صف الأصدقاء عندما يقتضي الأمر. حينما اعتقلونا كان يمكن التفكير في النفس قبل كل شيء في لحظة الفزع الأولى، لكنني كنت أفكر فيه وكيف سيضر الاعتقال بعائلته وبزوجته المسكينة. ورجوت أخانا الثالث[7] الذي اعتُقل عن طريق الخطأ (. . .) بأن يرسل نقوداً إلى أخيه متصوراً بأنه لا يمتلكها. فهل يعقل أنه نسي الماضي كله وشعر بالغيظ لأنني طلبت مبلغاً كبيراً، وفي أي وقت؟ في وقت حرج عصيب للغاية من حياتي. اكتبْ لي كيف استقبلك؟ وما رأيك فيه؟ بصراحة. ارسمْ لي لوحة أفكاره بشان هذه القضية كلها، ولا تنصت إلا لقلبك

الذهبي، يا أطيب صديق. وكن أكثر صراحة مع مايكوف بخصوصي. فهو إنسان رائع، وفضلاً عن ذلك يحبني. وبالطبع اطلبْ منه أن يلتزم الكتمان. الطلب الثالث. باللّه عليك افهمني. ساعدني، ولا تظن أن حبي لها سيضر بمستقبلي، هذا أولاً، وثانياً - لا تظن أنني أعاملها بلا نزاهة وأشغلها عن زواج مصلحي من شخص آخر، انطلاقاً من مصلحتي الأنانية وحدها. كلا، ليس في الزواج من غيري مصلحة، ولا أنانية جبانة في نفسي. لا يجوز الظن هكذا. وإلا فإنني، أقسم لك، مستعد لتقديم روحي قرباناً لها، مستعد للتخلي عن كل آمالي من أجلها. حكّم بنفسك: هي تكتب في كل رسالة من رسائلها، وحتى في الرسالة الأخيرة، أنها تحبني أكثر من أي شيء في الدنيا، وأنها تعتبر مسألة الشخص الذي طلب يدها مجرد حساب مصلحي. وترجوني بخاصة أن أصدق بأن هذه الخطوبة مجرد افتراض آخر. ولا بد لك أن تفهم موقفها أيضاً. إنها تنتظر بفارغ الصبر تغيرات معينة في مصيري. ولا أثر لتلك التغيرات. فيستولي عليها اليأس. ولإدراكها أنها أم لديها طفل صارت تتردد بخصوص إمكانية الزواج من غيري إذا تعثرت قضيتي. وفي البريد ما قبل الأخير كتبت لي، لتخفف من شدة غيرتي عليها، أن أياً من رجال كوزنيتسك لا يساوي خنصري، وأن بودّها أن تقول لي شيئاً، لكنها تخشاني، وأن الذين حواليها كلهم من النمامين الأدنياء، يتصرفون بخشونة وبقلة أدب. وهي تؤكد بالرسالة نفسها أنها تشعر أكثر مما في أي وقت مضى بحاجتها إليّ وبحاجتي إليها، وتقول: «تعال بسرعة لنضحك معاً». نضحك، بالطبع، على تصرفات أقاربها الذين آلوا على أنفسهم إلا أن يزوجوها. بيد أنها، المسكينة المستضعفة، تخشى من كل شيء. فقد يفلحون أخيراً في تضليلها، فتحيد عن الطريق المستقيم. والأدهى من ذالك أنهم

سينهشونها إذا رأوها عصية على أحابيلهم، فتعيش وحيدة بين الأعداء. ليكن واضحاً لك أن زواجها هناك يعني الهلاك والموت بالنسبة لها. وأنا أعرف لو كان هناك أدنى أمل في مصيري لعادت إليها الروح وانتعشت معنوياتها، ولسافرت إلى بارناول أو آستراخان بعد الحصول على رسالة بالموافقة من والدها. أما بخصوصي أنا فبالطبع كنا سنتمتع بالسعادة. وبالزواج مني تكون مدى العمر محاطة بأناس طيبين يكنّون لها احتراماً أكثر مما لو كانت مع ذلك الموظف. وأنا نفسي سأكون موظفاً ربما في القريب العاجل. أنا على يقين بأنني قادر على إعالة الأسرة. فسأعمل، سأكتب. وحتى لو لم تصدر أي مرحمة أو عفو يمكن على أية حال الانتقال إلى الخدمة المدنية والحصول بسرعة على وظيفة من الدرجة 14 واستلام راتب. والأهم أنني أستطيع أن أنشر، حتى ولو باسم مستعار. وستكون عندي نقود. وأخيراً، فإن ذلك كله سيتحقق ليس الآن، وحتى ذلك الحين تستقيم الأمور. هل تعلم بماذا أجبتها وماذا طلبت منها؟ ما دامت لن تتمكن من الزواج قبل انتهاء فترة الحداد، أي قبل سبتمبر، فينبغي لها أن تنتظر ولا تعطي لذاك (الرجل) وعداً قاطعاً. وإذا لم تستقم أموري قبل سبتمبر فيمكنها، على الرحب والسعة، أن تعلن موافقتها. ألا توافقني بأنني حتى لو تصرفت معها بأنانية ودناءة ما كان بوسعي أن ألحق بها ضرراً من خلال طلبي الانتظار حتى سبتمبر؟ زد على ذلك أنها تحبني. مسكينة. إنها تتعذب. فهل يليق بها وبقلبها الضعيف وفطنتها وذكائها أن تعيش حياتها كلها في كوزنيتسك مع شخص لا يعرف أحد حقيقته؟ إنها في وضع مثل بطلة روايتي «الفقراء» التي تزوجت من بيكوف، ويبدو أنني توقعت لنفسي هذا المصير. يا عزيزي، أكتب لك ذلك كله لكي تعمل من صميم القلب والروح لمساعدتي. أملي فيك

كأملي بأخي. وإلا سأقدم على المحذور. فما حاجتي إلى الحياة عندئذٍ؟ أقسم لك أنني سأقدم حينها على فعل جلل. أستعطفك يا ملاكي. إذا كنت ستحتاج إلى شخص يتبعك في السراء والضراء فهذا الشخص جاهز ومستعد. وهو أنا. أنا لا أترك من أحب لا في السراء ولا في الضراء، وقد أثبتُ ذلك، ولذا أقدم الطلب الرابع، وأنت ملاكي. باللّه عليك لا تضيع الوقت واكتبْ لها رسالة على عنوان كوزنيتسك وأوضح لها كل آمالي بمزيد من الدقة والجلاء. وخصوصاً إذا كان هناك شيء إيجابي بشأن تغيير مصيري، فاكتب لها عن ذلك بكل التفاصيل، وعندذاك تنتقل بسرعة من اليأس والقنوط إلى الثقة، فتعود إليها الروح بسبب الآمال. اكتبْ لها الحقيقة، والحقيقة وحدها. المهم أن تكتب بالتفصيل. وهذا شيء يسير. اكتبْ على هذه الصورة: «نقل إليّ فيودور ميخائيلوفيتش تحياتك، فهي تحييك وتتمنى لك السعادة. ولعلمي بأنك تشاطرين فيودور ميخائيلوفيتش مصيره أسارع لأبعث السرور في نفسك، فثمة أخبار وآمال له في كذا وكذا...». وتقول في الختام: «فكرت فيك كثيراً. تعالي إلى بارناول وسيستقبلونك هناك بحفاوة وترحاب»، وما إلى ذلك. بهذه اللهجة اكتبْ لها. ثم أنها قالت لي إنك عندما غادرت كتبت لها. وهي مسرورة جداً وممتنة لأنك لم تنسها، لكنها تقول إنه ليس واضحاً من رسالتك ما إذا كانت سترتاح في بارناول، وإنك لا تكتب عما إذا كانت بارناول موافقة على مجيئي. ولذلك فهي لا تدري هل سيستقبلونها بأسف كمتسولة عندما تصل إلى هناك؟ صحيح. لقد كنتَ مهموماً ومنفعلاً عندما كتبت لها بإيجاز وعلى الماشي. أنا أفهم ذلك ولا أعاتبك عليه. ولكن، باللّه عليك، صحح الموقف هذه المرة. افعل ذلك من أجلي، من أجلي يا ملاكي. يا أخي، يا صديقي.

أنقذني من اليأس القاتل. فأنت يمكن أن تفهمني أكثر من أي إنسان آخر.

وأخيراً، لوجه المسيح، بلّغني عن مجمل سير أموري بأكبر قدر من التفصيل وبأسرع ما يمكن. وأنا أعتمد عليك تماماً في ذلك. أقنع أخي بأن يساعدني، وتعامل معه كأنك تتشفع لي. أوحِ له بأنني سأسعد في الزواج منها، وأننا لسنا بحاجة إلى الكثير لنعيش، وأن لدي من الطاقة والقوة ما يكفي لإعالة الأسرة. ماذا لو سمحوا لي بالكتابة والنشر؟ عندذاك أحصل على طوق النجاة، ولن أكون عالة على أحد ولن أطلب منهم أن يساعدوني. والأهم أنا سأتزوج ليس الآن، بل سأنتظر ما يتوفر من رخاء. وهي ستنتظر بكل سرور، لا يعوزها سوى الأمل في انتظام مصيري. وقل له إنني في الخامسة والثلاثين ولدي من التعقل ما يكفي لعشرة أشخاص. وداعاً يا عزيزي، يا صديقي الغالي. لا مؤاخذة، نسيت. بالله عليك تحدث مع أخي عن أموري المالية. أقنعه بأن يساعدني للمرة الأخيرة. وأنت تعرف الوضع الذي أنا فيه. لا تتركني. فالملابسات التي أعيشها تصادف مرة واحدة في العمر. ومتى تمتد يد الصديق إن لم يكن في مثل هذا الضيق؟ أعانقك وأقبّلك. عموماً، كيف أحوالك؟ أنا لا أعرف شيئاً عنك. أنتظر رسالة منك بفارغ الصبر. أختتم الرسالة بأسف. وأنا من جديد وحيد مع دموعي وشكوكي وقنوطي.

اكتبْ لي رجاءً: كاترينا أوسيبوفنا هيرنغروس[8] في بطرسبورغ أم لا؟ اسألها عن قضيتي وعن أمور عيسايفا (في بارناول). وداعاً، أعانقك مع قبلاتي مرة أخرى. أنت أملي، أنت منقذي!.

المخلص د (وستويفسكي)

---

(1) عيسايفا.

(2) نهر عظيم في سيبيريا.

(3) في حرب القرم 1853-1856.

(4) عن الحركة الوطنية في روسيا.

(5) المقصود فكرة رواية كوميدية لم يحققها دوستويفسكي.

(6) لمناسبة عيد الجلوس. وتوقيع الصلح. وسبق لدوستويفسكي أن نظم قصيدة في عيد ميلاد الإمبراطورة.

(7) أندريه. وقد بقي رهن التوقيف قرابة أسبوعين (أبريل- مايو 1849).

(8) سبق لهذه السيدة أن ساعدت دوستويفسكي، وهو يأمل الآن في مساعدتها وزوجها.



48. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 24 مارس 1856

أخي وصديقي الطيب ميشا[1] الغالي. هذه الرسالة يسلمك إياها ألكسندر يغوروفيتش فرانغيل. أكتب إليك، وأترك التفاصيل لألكسندر يغوروفيتش الذي ستتعرف عليه جيداً باعتقادي. سطور الرسالة المعدودات لن تتسع لكتابة الكثير، يا صديقي الطيب القلب. وبودّي لو أراك وأتحدث إليك، في مناجاة بين قلبين، عن كل ما يشغل بالي ويعذبني حالياً. أقول لك لم تشهد حياتي مرة مثل هذا القدر من الحزن والكآبة والقنوط. أنا أنشد مساعدتك، فلا تتركني في هذه اللحظة على الأقل. ألكسندر يغوروفيتش سيحدثك الكثير. في الرسالة التي يحملها إليك كتبت عن السيدة التي تعرفت عليها في سيميبالاتينسك، وقد انتقلت مع زوجها إلى كوزنيتسك، وتوفي الزوج هناك. كما كتبت لك عن آمالي وعن حبنا. يا صديقي العزيز، هذا التعلق، هذه العاطفة تجاهها، هما بالنسبة لي كل شيء في الدنيا. أنا أعيش وأتنفس بأنفاسها ومن أجلها وحدها. عندما افترقنا قطعنا

الوعود والعهود على أنفسنا. ووعدتني بأن تكون زوجة لي. وهي تحبني، وقد دللت على حبها بالبرهان. إلا أنها الآن وحيدة من دون معين. والداها بعيدان، وهما يساعدانها بالمال، وعندما رأت أن مصيري لم يتقرر من أمد طويل وليس هناك شيء مما كنا ننتظره أنا وإياها وأن تخفيف مصيري لا يزال موضع شك وارتياب، مع أني متأكد منه، انساقت لليأس والقنوط، وغرقت في الكآبة والأحزان، زد على ذلك أنها مريضة. وتتعرض في تلك المدينة الصغيرة للدسائس والنميمة ولضغوط تدفعها للزواج. الكل هناك صاروا بمثابة كوتشكاريوف.[2] وإذا لم تعط عهداً بالزواج يناصبونها العداء، ويحيدون بها عن الطريق القويم ويشددون على عجزها.. وأخيراً كتبتْ لي عن ذلك بعد أن كانت تخفيه أمداً طويلاً. كتبت تقول إنها تحبني أكثر من أي مخلوق آخر في الدنيا، وإن احتمال الزواج من غيري مجرد افتراض آخر لا أساس له من الصحة، لكنها تسألني: «ما العمل؟» وتستعطفني أن لا أتركها في هذه اللحظة الحرجة من دون نصح أو إرشاد. وقع هذا الخبر عليّ وقع الصاعقة. ونهشتني الآلام. ماذا لو نجحوا في تضليلها؟ ماذا لو أهلكت نفسها بزواجها من عبيط فظ، موظف بليد؟ لن تقوم بذلك إلا من أجل رغيف خبز لها ولابنها. ولكن كيف تبيع نفسها ولديها حب آخر في القلب؟ وكيف سيكون حالي أنا؟ ربما نحن في عشية تحول ما في مصيري وتنظيمه بشكل جديد. ذلك لأنني مؤمل لدرجة لا تجيز لي أن أتخلى عن الأمل. وإذا لم أتمكن الآن فإنني سأحقق في زمن ما تنظيم أموري بالكامل. حالياً القليل يمكن أن ينقذنا كلينا إذا تعذر تحقيق كل المطلوب. وهذا القليل ممكن أصلاً في القريب العاجل. حتى أنني وجدت هنا من هو

على استعداد لتوظيفي، في حين من الممكن دوماً الانتقال من الخدمة العسكرية إلى المدنية. ويمكن أن ينقلوني إلى المرتبة 14. وقد أملوني، على سبيل المثال، بأنهم يمكن أن ينسبوني إلى سلك الضباط في العام القادم. وسأحصل على وظيفة وراتب. وحتى لو لم تصدر مرحمة هذا الصيف وتفشل كل الجهود المبذولة من أجلي فإن مثل هذا الانتقال إلى الخدمة المدنية من شأنه أن يعدل أحوالي نهائياً. ثم إن هناك ما هو بالإمكان. وأخيراً سيكون الراتب بالطبع قليلاً، إلا أنني أستطيع أن أكسب النقود بنفسي، وسأسعى إلى جعلهم يسمحون لي بالنشر. ألم ينشر بوليجايف ومارلينسكي؟! وعندذاك سأكون مؤمَناً، بل وغنياً بمعايير هذه الأنحاء. فأنا أنتظر من الأدب الكثير. تصور أن مؤلفاً رائعاً مثل «الفقراء» سيجلب انتباه الجميع إليّ، بل وأكثر. ثم إذا رفضوا طلبي هذا الشتاء بالسماح بنشر الرواية والمقالة اللتين أعكف عليهما الآن، إذا رفضوا رغم اعتقادي بأنني سأحصل على هذا السماح، فيمكنني في العام الأول من الزواج تأمين حياتي والعيش من دون أن أطلب منك، على سبيل المثال، أن تساعدني، لأنه لو تغير مصيري على نحو ما فأنا أنوي الطلب من خالي أن يساعدني لأبدأ بحياة جديدة، ناهيك عن الزواج. وسيعطيني. أنا واثق بذلك. والآن احكم بنفسك على أوضاعي. لا بد لي أن أعطيها أملاً وأقنعها وأنقذها. أنا بعيد عنها، والأمور لا تسوّى بالرسائل. أرجوك أن تفهم مدى يأسي وقنوطي. أرجوك، يا أخي، لوجه المسيح كن أخاً لي وافهم أن تلك ليست عاطفة ابن العشرين وأنني في الـ 35 تقريباً، وسأموت من الهم والغم إذا فقدتها. كما أرجوك أن تفهم أنني أريد أن أكرس حياتي كلها لجعلها سعيدة. أنا لا أستطيع أن أصف لك

آمالي ولا قنوطي. نحن وإياك لم نلتقِ من ست سنين أو يزيد. فهل سنفهم بعضنا البعض بالشكل المطلوب كأخ يفهم أخاه؟ هل تحبني كما كنتَ في الماضي؟ ألم تتغير؟ أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك. يا صديقي وملاكي. لدي أمل وثقة بأنك أخ لي. فأنقذني. ساعدني. عندي رجاءان إليك. أحدهما تافه، والآخر مهم. ولكنهما كليهما لو نفذا لساعداني ولكان لك فضل عليّ، هل أنت سامع يا أخي؟ فضل عليّ. ها هما الرجاءان. أستعطفك لا تهملهما، بل نفّذهما بأسرع ما يمكن. تذكر ما يمكن أن يحصل، وسأكون نافعاً لك. فأنا لم أنسك في اللحظة الحرجة. وأنت تعرف أني أحبك. فساعدني يا أخي وملاكي. هل يعقل أن الجميع، قاطبة، يتركونني وحدي. الطلب الأول الذي أرجوه منك هو الآتي: عندها ابن، صبي في الثامنة من العمر. وعندما توفي زوجها استولى عليها يأس فظيع وقلق شديد بشأن مصير ابنها، كونها أماً مهجورة في أطراف الدنيا وهي امرأة على أية حال. وقد أعطيتها أنا أملاً. أبوها العجوز كتب لها بأنه لن يترك حفيده، وسيدخله المدرسة ثم الجامعة. وهي تفكر: ماذا سيحصل لو قضى العجوز نحبه؟ فمن يعيل ابنها حينئذٍ؟ ولذا تعتقد أن الأفضل إدخاله مدرسة سلك الضباط التي تتوفر فيها حالياً تربية رائعة والحكومة لا تترك تلاميذها مدى العمر، حتى في أثناء الخدمة، طالما تكفلت برعايتهم. ووفقاً لمنصب أبيه لا يجوز تنسيبه إلا لسلك بافلوفسكي. وأنا موافق على رأيها تماماً، وقد قلت لها إن نسيبنا غولينوفسكي يشغل منصباً كبيراً في هذا السلك ويمكنه أن يرعى الصبي خصيصاً ويهتم بتربيته الأخلاقية، وإنكَ بصفتك شقيقي، لن ترفض طلبي الملح في اصطحاب الصبي إلى بيتك ولو أحياناً في الآحاد.

وبذلك لن يبقى الصغير يتيماً تماماً، وسيتردد على دار محترمة يرى فيها قدوة السلوك، وستكون الأم بالتالي مطمئنة على تربية طباعه وأخلاقه. عندما وعدتني بالزواج أكدتُ لها أنني سأسعى عند أقربائي لرعاية ابنها، وفي حال تمكنها من تنسيبه إلى سلك بافلوفسكي، وستقوم بذلك بنفسها دون أن تثقل على أحد، فإن أقربائي، الذين سيكونون على نحو ما أقرباء لابنها، سيُبدون به اهتماماً أكبر وأكثر دفئاً. وقد شعرتْ بارتياح عميق لهذا الرأي بعد أن كانت، المسكينة، غارقة في الأحزان. وأقول لك، يا عزيزي، إن أملي فيك كان بالفعل قوياً. فماذا سيكلفك أن تأخذ الصبي أحياناً إلى البيت في الآحاد؟ لن ينتزع هذا اليتيم المسكين الطعام من فمك. في حين سيهبك اللّه المزيد من رحمته لرعايتك له. زد على ذلك أن والدَي هذا الصبي أحاطا بالرعاية أخاك عندما كان في المنفى تعيساً مهجوراً في آخر الدنيا وقد تركه الجميع. لقد وفرا له، كفرد من العائلة، الطعام والشراب والعناية التي جعلت أيامه معهما سعيدة. ثم إن انتساب الصبي إلى السلك لن يتم قريباً، ذلك لأنه في الثامنة من العمر فقط. والآن افهمني: أريد أن أطلب منك أن تكتب لها بهذا المعنى. على النحو التالي: «السيدة المحترمة ماريا دميتريفنا! أخي فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي كتب لي مراراً كيف استقبلتِه أنت والمرحوم زوجك في سيميبالاتينسك بذلك الترحاب وتلك المشاعر الحميمة. وتعوزني الكلمات للتعبير عن الامتنان لكم على ما قدمتموه للمنفي المسكين. أنا شقيقه، ولذا أشعر بكل تلك الأحاسيس. كنت من زمان أريد أن أعبّر عن شكري لك. وقد أبلغني أخي أنك تنوين تنسيب ابنك عندما تكتمل سنه إلى فيلق بافلوفسكي. فإذا انتسب إلى

هذا الفيلق وإذا تمكنتُ من تخفيف شعور الصبي بالوحدة حيث يفتقد الأقرباء والمعارف في بطرسبورغ فسيكون من دواعي سروري، صدقيني، أن أخفف عليه وحدته، خاصة وأنني سأستطيع بذلك أن أردّ الجميل وأعبّر لكم عن خالص الامتنان على حفاوة استقبالكم لأخي في منزلكم. صدقيني مرة أخرى أن كل ما كتبه شقيقي عنكم وعن التعرف على عائلتكم بعث الارتياح العميق في نفسي وملأ فؤادي بالمسرة والفرحة لأخي المسكين. لا أمتلك الكلمات الكافية للتعبير عن احترامي العميق لكم. المخلص، وإلى آخره».

في هذا الموضوع أرجو أن تكتب لها باختصار وبصيغة أفضل. أرجو أن تفهم ما تستطيع أن تفعله من أجلي، لا سيما وأن ذلك لن يكلفك شيئاً. وبالتالي ستمنحها أملاً، فترى أنها ليست وحيدة. والأهم أنك ستساعدني أكثر مما تتصور في ترتيب أموري. ذلك لأن ميل أقاربي إليها أمر في منتهى الأهمية حالياً، فقد أبلغتها بأني كتبت لك عن احتمال زواجنا. بديهي أن هذا الزواج يجب أن يبقى طي الكتمان. العنوان كالآتي: جناب السيدة ماريا دميتريفنا عيسايفا، مدينة كوزنيتسك، محافظة تومسك.

لوجه المسيح، قم بذلك، يا أخي، من أجلي. أكرر: إنك تفعل الخير لي. أستعطفك وأركع أمامك. لا تقتلني برفضك. والطلب الثاني مهم. كنت قد كتبت لك، يا صديقي، بأنني في عوز فظيع وطلبت منك 100 روبل فضي. ولكن لا خبر جاء ولا وحي نزل. يا إلهي! هل مللت مني؟ وهل أنت مسرور لتتخلص مني نهائياً، فيما أكتب لك رسالة بهذه الحرارة؟ لكنني أتجرأ على الكتابة مرة أخرى وأطلب منك مساعدة كبيرة. يا صديقي. أنا بحاجة إلى مبلغ كبير أخشى أن أذكره. لكنني أطلب منك للمرة الأخيرة، بعدها لن أزعجك

أبداً مدى العمر، وسأعيد لك المبلغ كاملاً حالما يبتسم لي الحظ.

إضافة إلى تلك الـ 100 التي طلبتها منك، أنا بحاجة إلى 200 روبل. اسمعني يا أخي. هل تتذكر الفترة التي تزوجتَ فيها؟ ألم أتقاسم معك آنذاك بآخر ما عندي؟ أعرف، ولا تلمني على الجحود. لقد أعطيتني الكثير من النقود طوال حياتي. وإن ما أعطيتك إياه لا يساوي شيئاً بالمقارنة مع ما أعطيتنيه. كل شيء جيد في الوقت المناسب. ثم هل يعقل أنك تستطيع أن تمتنع عن مساعدة أخيك في ساعة المحنة؟ افهم الآن: لم أمر في حياتي أبداً بفترة في مثل هذه الفظاعة. هذه النقود من شأنها أن تساعدني في أحرج الملابسات. إذا لم تستطع إرسال 300 أَرسلْ 200. أَرسلْها باللّه عليك. لن أزعجك بعد الآن.

أنا آمل في تغير مصيري، ويقيناً أنني سأكسب لقمة عيشي بنفسي قريباً. وأريد أن أقول لك، يا أخي، شيئاً آخر، لكنني في حزن شديد، شديد جداً. هل يعقل أنك، يا أخي، تبدلت عليّ؟ ما هذه البرودة وعدم الرغبة في الكتابة إليّ؟ في 7 أشهر ترسل النقود مرة ورسالة في 3 أسطر. كأنما صدقة. أنا لا أريد صدقة، أريد أخاً. فلا تهنّي يا صديقي. أنا إنسان تعيس، تعيس جداً. أنا هالك الآن، ممزق. روحي تنوح حتى الموت. لقد عانيت طويلاً. 7 سنوات من مرارة وآلام تفوق الوصف. ثم هناك حد للآلام على أية حال. قلبي ليس من حجر. لقد طفحت الكأس. يا ملاكي، إذا كنتُ أهنتك بملامتي، أو تجنّيت عليك، فاغفر لي، أركع أمامك فاغفر لي. لا تزعل مني، أنا لا أكاد أتحمل. لا تشح بوجهك عني، ساعدني واسمع ندائي.

تحيات صادقة وضاءة للأخت إميليا، وللعائلة كلها. أرجوك،

لوجه المسيح، لا تخبر أحداً بنيتي في الزواج. اكتبْ رسالة إلى ماريا دميتريفنا بأسرع ما يمكن، ولا تتماهل. وضمّنها المزيد من الاحترام. فهذه المرأة تستحق الاحترام.

(أخوك)

(1) تصغير ميخائيل للتحبيب.
(2) بطل ملهاة غوغول «الخطوبة».



49. إلى إدوارد توتليبين

سيميبالاتينسك، 24 مارس 1856

معالي السيد إدوارد إيفانوفيتش

أستميحكم عذراً على تجرؤي لإشغال بالكم برسالتي. وأخشى أنكم ستلقون نظرة على التوقيع وعلى اسمي المنسي من قبلكم، أغلب الظن، مع أنني تشرفت في الماضي البعيد أن أكون معروفاً لديكم، فتزعلون مني ومن وقاحتي وترمون الرسالة في سلة المهملات دون أن تقرأوها. أستعطفكم أن تتسامحوا معي. ولا تتهموني بأنني لا أفهم البون الشاسع بين مكانتكم ومنزلتكم وبين موقعي. فقد مررت في حياتي بالكثير من التجارب المحزنة، ولا بد لي، والحال هذه، أن أفهم الفارق بيننا. كما أنني أفهم جيداً أنه لا يحق لي مطلقاً أن أذكر الآن بأنكم كنتم تعرفونني في زمن ما، لأتخذ من ذلك مبرراً ولو ضئيلاً لجلب انتباهكم. إلا أنني تعيس لدرجة جعلتني أعوّل عفوياً على الأمل في أنكم لن تسدوا باب قلبكم الكبير أمام منفي هضيم، فتمنحونه ولو دقيقة واحدة من اهتمامكم، لعلكم تنصتون بطيبة خاطر إلى ما يقول.

لقد رجوت البارون ألكسندر يغوروفيتش فرانغيل أن يسلمكم هذه الرسالة. فهو عندما كان هنا، في سيميبالاتينسك، فعل من أجلي ما لا يستطيع الأخ أن يفعله من خير لأخيه. وكنت سعيداً كل السعادة لصداقته. وهو يعرف جميع ملابسات قضيتي. وطلبت منه أن يسلمكم رسالتي شخصياً. وهو يحترم طلبي وإن لم يكن قد تشرف بمعرفتكم، ولا أنا أستطيع أن أؤكد له أنكم ستقبلون رسالتي بتسامح. الشكوك في قلب شخص محكوم بالأشغال الشاقة أمر في طبيعة الأشياء. ولدي رجاء كبير إليكم يحدوني أمل متردد في أنكم ستستمعون إليه.

لعلكم سمعتم باعتقالي ومحاكمتي وبالقرار السامي الذي أعقب الدعوى التي كنت متورطاً فيها عام 1849. ولربما كنتم قد أبديتم بعض الاهتمام بمصيري. وأستند في افتراضي هذا إلى أنني كنت على علاقة صداقة وطيدة مع شقيقكم الأصغر أدولف إيفانوفيتش، وكنت أحبه حباً جماً من سني الطفولة تقريباً. وعلى الرغم من أنني لم ألتقه في الآونة الأخيرة، إلا أنني على ثقة بأنه آسف عليّ، ولربما نقل إليكم قصتي الحزينة. لن آخذ من وقتكم للحديث عن ذلك. كنت مذنباً، وأدرك ذلك تماماً. تم تجريمي بنية العمل ضد الحكومة. بالنية فقط لا أكثر. وحكم عليَّ قانوناً ووفقاً للعدالة. وكانت التجربة المريرة الأليمة الطويلة الأمد قد أعادتني إلى رشدي وغيرت أفكاري بقدر كبير. ولكنني عندما كنت أعمى آمنت بالنظرية الطوباوية. وعندما سفروني إلى سيبيريا ظلت لدي على الأقل وسيلة واحدة لتهدئة النفس، وهي أنني تصرفت أمام المحكمة بنزاهة ولم ألق بجريرتي على غيري، بل ضحيت بمصلحتي عندما رأيت أن إمكانية الاعتراف من شأنها أن تحمي الآخرين من المحنة. إلا أنني ألحقت الضرر بنفسي، فلم أعترف بكل شيء، ولذلك تلقيت عقاباً أشد. كان بوسعي

أن أقدم بعض التبريرات. فقبل الحادث كنت مريضاً لعامين على التوالي. وكان مرضي نفسانياً غريباً. استولت عليَّ السوداوية، وكانت هناك فترات فقدت فيها عقلي. كنت سريع الانفعال والتأثر النفساني المرضي الشديد، حتى كنت أشوِّه أبسط الوقائع وأضخّمها وأبالغ في أحجامها وأضفي عليها مظهراً مغايراً. ورغم أن هذا المرض أثر كثيراً وبصورة سلبية على مصيري، إلا أنني شعرت بأنه سيكون تبريراً سيئاً جداً، بل ومهيناً. علماً بأنني لم أفهم هذا الأمر جيداً آنذاك. لا مؤاخذة على ذكر هذه التفاصيل، فتكرموا عليّ بالتسامح واستمعوا إليّ حتى النهاية.

وحلت الأشغال الشاقة بالنسبة لي. 4 سنوات من الزمن الحزين الفظيع. عشت مع قطاع الطرق، مع أناس يفتقرون إلى المشاعر البشرية، بعاداتهم اللاأخلاقية الممسوخة، ولم أشهد، وما كان بوسعي أن أشهد، خلال هذه السنوات الأربع أي فرحة ما عدا الواقع الأسود الحالك والبشع للغاية. ولم يكن قربي أي كائن حي أتفوَّه أمامه بكلمة روحية واحدة. تحملت الجوع والبرد والمرض والعمل الذي فوق طاقة الإنسان، وصبرت على كراهية زملائي قطاع الطرق الذين ثأروا مني لأنني كنت ضابطاً من فئة النبلاء. ولكن، أقسم لكم أنه لم يكن هناك عذاب أشد من العذاب الذي أصابني عندما فهمت ضلالاتي، وأدركت في الوقت ذاته أنني منقطع عن المجتمع، وأنني منفي ولا أستطيع أن أقدم نفعاً على قدر المستطاع ووفقاً لرغباتي وقابلياتي. أنا أعرف أنني حُكِمتُ بعدل، لكنني عوقبت على الأحلام والأمنيات النظرية. . . .

الأفكار، وحتى المعتقدات، تتغير، ويتغير الإنسان نفسه، فلماذا نعاني الآن بسبب ما لم يعد موجوداً؟ بسبب ما تغير في داخلي إلى

عكسه؟ لماذا نعاني بسبب الضلالات السابقة التي أرى بطلانها بنفسي الآن؟ لماذا نشعر بالقوة والقدرة على القيام بشيء ما من أجل التكفير عن لاجدوى الماضي ونبقى عاطلين بلا نفع ولا فائدة؟

أنا الآن جندي عادي أخدم في سيميبالاتينسك، وقد تمت هذا الصيف ترقيتي إلى ملازم ثان. أنا أعرف أن الكثيرين حاولوا ويحاولون بصدق مشاطرتي في مصيبتي، وقد تشفّعوا لي وترجوا (السلطات). وأملوني ولا يزالون يؤملونني. القيصر رحيم طيب القلب. ثم إنني أعرف أن الشخص الذي عزم على إثبات نزاهته ويريد أن يعمل المعروف يجد صعوبة في جهوده، ولكنه لا بد أن يحقق هدفه في وقت ما. وأنا أيضاً أستطيع أن أفعل شيئاً ما. فلست عديم المواهب، ولدي مشاعر وقواعد! لي رجاء كبير وعظيم إليكم، يا إدوارد إيفانوفيتش. الشيء الوحيد الذي يؤذيني هو أنني لا أملك الحق في إزعاجكم بقضيتي. إلا أنكم بقلب متسامح نبيل. والكلام عن ذلك غير محظور. فقد أثبتم هذا الواقع مؤخراً بكل جدارة، على مرأى من العالم كله.[1] وقد حالفني الحظ من زمان، قبل الآخرين، أن أسمع هذا الرأي من الناس عنكم، فتعلمت احترامكم من وقت طويل. لكلمتكم أهمية كبيرة الآن عند قيصرنا الرحيم الممتن لخدماتكم والمحب لكم شخصياً. تذكروا المنفي المسكين وساعدوه. أنا أريد أن أكون نافعاً. من الصعب تفادي المعاناة من العطالة ما دام في الروح طاقة وعلى الكتفين دماغ. إلا أن الرتبة العسكرية ليست المضمار الذي أطمح إليه. أنا مستعد لبذل قصارى الجهود، لكنني مريض، وإلى ذلك أنا أشعر بأنني أميل إلى مضمار آخر يتناسب أكثر وقابلياتي. كل أحلامي أن أتسرح من الخدمة العسكرية وأنتسب إلى الخدمة المدنية في مكان ما في روسيا، أو حتى هنا وأحصل على

بعض الحرية في اختيار مكان الإقامة. ولكني لا أعتبر الخدمة الهدف الرئيسي لحياتي. في زمن ما انتعشت آمالي باستقبال الجمهور لي وميله إليَّ على صعيد الإبداع الأدبي. بودّي أن أحصل على سماح بالنشر. وثمة أمثلة على ذلك. فالسجناء السياسيون حصلوا، بناء على الاهتمام والرحمة بهم، على سماح بالكتابة والنشر قبلي. إنني أعتبر مهنة الكاتب أكثر المهن نبلاً ومنفعة. وأنا على يقين راسخ بأن هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكنني بسلوكه أن أغدو إنساناً نافعاً، وقد أحظى ببعض الاهتمام وأستعيد كرامة اسمي وأؤمن على الأقل تكاليف معيشتي، لأنني لا أملك شيئاً ربما سوى بعض القابليات الأدبية القليلة جداً. ولا أخفي عليكم أنه بالإضافة إلى رغبتي الراهنة في تغيير حالي إلى حال أخرى تستجيب أكثر لطاقاتي ثمة سبب، شخصي صرف، ربما تتوقف عليه سعادة حياتي كلها، دفعني على التجرؤ لتذكيركم بقضيتي. أنا لا أطلب كل شيء دفعة واحدة، بل أقتصر على إمكانية التسريح من الخدمة العسكرية وحق الانتقال إلى الخدمة المدنية.

عندما تقرأون طلبي هذا لا تتهموني بالجبن أو التخاذل. فقد تحملت الكثير من الآلام لدرجة أثبتّ فيها إمكانية تحمُّلها والصبر عليها، بل وحتى بعض الرجولة في ذلك. لكنني الآن منهار المعنويات، وأنا نفسي أتلمس هذا الانهيار. كنت دوماً أعتبر من الجبن أن أشغل بوجودي بال الآخرين، أياً كانوا. ناهيكم عن إشغال بالكم بقضيتي. ولكنني أستعطفكم أن ترحموا حالي وتشفقوا عليّ. لقد تحملت مصيبتي ببسالة لحد الآن. إلا أن الملابسات قهرتني حالياً، ولذا عزمت على المحاولة، مجرد محاولة. أقسم لكم أن فكرة الكتابة إليكم والطلب منكم مساعدتي لم تخطر في بالي سابقاً. فقد

كان من المخجل والصعب، على أية حال، أن أذكركم بقضيتي. وكنت في الآونة الأخيرة أتابع بشعور عظيم من الإيثار والإعجاب مأثرتكم البطولية. يا ليتكم تعلمون مدى اعتزازي بكوني قد تشرفت في حينه بالتعرف عليكم شخصياً. عندما عرف الموجودون هنا بذلك انهالوا عليَّ بالأسئلة، وكنت مسروراً جداً للحديث عنكم. وأنا لا أخشى الكتابة لكم عن هذا. فإن مأثرتكم المجيدة على كل لسان، ولا تعتبر كلمات الحديث عنكم تزلفاً إليكم. حامل رسالتي هذه يمكن أن يشهد على صدق مشاعري الخالصة تجاهكم. ومفهوم تماماً امتنان الروسي للذي وقف في ساعة المحنة للدفاع المهيب عن سيواستوبول مسطراً الأمجاد الأبدية التي لا تذوي. وأكرر هنا: لم يخطر على بالي أن ألهيكم بقضيتي. ولكنني الآن، في اللحظات الكئيبة، ولأني لا أعرف بمن أستعين، تذكرت كم كنتم ترحبون بي دوماً وتعاملونني بلطف وبساطة. وأنا أتذكركم على الدوام إنساناً باسلاً بقلب كبير نزيه، فازداد إيماني بالأمل. وفكرت: من غير المعقول أن تشيحوا عني الآن، حيث ارتقيتم إلى هذه الدرجة الرفيعة السامية وسقطت أنا إلى الحضيض. أستميحكم عذراً على جرأتي، وأرجو المعذرة بخاصة على هذه الرسالة الطويلة المسهبة. وإذا كنتم تستطيعون أن تفعلوا شيئاً من أجلي أستعطفكم أن تفعلوه.

كما لدي رجاء هام آخر أمل أن لا ترفضوه. ذكّروا أخاكم أدولف إيفانوفيتش بي عندما تحين الفرصة وبلغوه بأنني لا أزال أحبه كالسابق وأنني رأيته مراراً في ذكرياتي طوال 4 سنوات من الأشغال الشاقة، حيث كنت أستعيد في الدماغ ذكريات حياتي السابقة يوماً فيوماً، ساعة بساعة. . . وهو يعرف أنني أحبه. وأتذكر أنه كان مريضاً جداً في الآونة الأخيرة. فهل هو بصحة جيدة الآن؟ هل هو على قيد الحياة؟

وأستميحكم عذراً على هذا الرجاء أيضاً. فأنا لا أعرف من يستطيع أن يوصل له أخباري. ولذا توجهت بطلبي إليكم.

أنا أعرف أنني قمت بمخالفة أخرى لقواعد الخدمة بالكتابة إليكم. (فمن الغريب) أن يكتب جندي عادي لجنرال مرافق. لكن سماحة أخلاقكم شجعتني على ذلك.[2]

مع فائق الاحترام والتقدير وشعور الامتنان الخالص من روسي سيبقى الخادم المطيع لكم يا صاحب المعالي.

فيودور دوستويفسكي

---

(1) دوستويفسكي يقصد خدمات توتليبين في الدفاع عن سيواستوبول عام 1854.

(2) توسط الجنرال توتليبين، وكذلك الجنرال هاسفورت، لدوستويفسكي عند السلطات العليا، فقدما للكاتب مساعدة كبيرة في ترقيته من جندي عادي إلى ملازم ثان، ولم يحاولا طبعاً رفع الرقابة الأمنية عنه.

50. إلى الكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 13 أبريل 1856

أسارع، يا صديقي العزيز، في الجواب على رسالتك[1] الطيبة الرقيقة التي كتبتها لي بتاريخ 12 مارس، وها هي تبعث السرور في نفسي لليوم الثالث. كنت أنتظر أخباراً منك بفارغ الصبر. إلا أنني في الآونة الأخيرة لم أعد آمل بوصول شيء منك قريباً، ذلك لأن ديمتشينسكي الذي وصل من روسيا قبل أسبوعين قال إنك تأخرت في قازان، ثم وصلت رسالة من موسكو إلى سبيريدونوف جاء فيها أنك وصلت إلى هناك قبل يوم أو يومين وتوجهت إلى بطرسبورغ في 9 مارس. وبناء على كل هذه الشائعات كنت أتوقع أن أستلم منك رسالة في عيد الفصح على أبعد تقدير، وها أنا أستلمها قبل ذلك. ربما لا تصدق مدى حاجتي إلى رسالتك وفرحتي بها. ولم يخطر في بالي أن أشك في استلامي لها وفي كونك لن تنساني وستحاول مساعدتي. أنا أعرفك وأعرف أن لديك أطيب قلب نبيل، وليس من قبيل الصدفة أني أودك كثيراً. ولعلك لا تصدق في أي حال كنتُ كل الفترة الأخيرة... لكنني سأكتب عن ذلك فيما بعد. وبحسب الترتيب أبدأ

برسالتك يا أطيب الأصدقاء. أنت تستهل الرسالة بقولك إنك لم تستطع أن تنسى محنتك العاطفية رغم وسائل الترفيه الكثيرة. نعم، أصدقك يا عزيزي، فهذه الأمور لا تنسى بسهولة. وأنا الآن صرت أعرف ذلك جيداً. ثم إنني عرفت الكثير مما لم أكن أتصوره في السابق. إلا أنني أعترف لك برغبتي الشديدة في معرفة ما بينكما حالياً. لأنه ليست لدي فكرة عن هذه الأمور منذ وصول رسالتك من يالوتوروفسك. والآن لديك بالطبع رأي حاسم بهذا الخصوص أغلب الظن، لأن هذه الفتاة، كما فهمت منك، قد وصلت إلى بطرسبورغ على الأرجح. على أية حال أنت الآن في أحضان العائلة، ويسرني جداً أنك تتواصل مع والدك بالتوافق. فأرجوك، لوجه المسيح، لا تخالف هذا التوافق. احسبْ حساب المستقبل وخذ بالاعتبار أن الوقت حان لك، في اعتقادي، لتقرير مستقبلك. أنا لا أريد طبعاً أن أقول بأن تتصرف بما يتعارض مع مشاعرك وأفكارك الفعلية. أنت مثلاً تقول إنهم يريدون تزويجك. لحسابات نفعية. فهل المال كل شيء في الحياة؟ هذا شيء معروف من زمان، ولا موجب للكلام عنه. كل شخص يتصرف بما يمليه عليه الضمير. والإنسان الكريم يتصرف ويحسب بما يمليه عليه الضمير. تقول، يا صديقي الطيب الغالي، إنك تتوقع المجيء إلى سيبيريا في يوليو وتمرّ (بمدينة سيميبالاتينسك. يمكنك أن تصدق بمدى فرحتي لأنك لم تغير نواياك وتريد العودة إلى سيبيريا، وبحلول الشتاء تتوقع العمل في بارناول. سأنتظرك انتظاري للشمس. ولكن، يا صديقي، ما صحة الإشاعات التي تنتشر عنك هنا؟ يقال إن آمر الفيلق عيَّنك في دائرته بمدينة أومسك، بصفة موظف للمهمات الخاصة، أي ما لم تكن راغباً فيه، وإنه استغرب كثيراً عدم مرورك بأومسك. ولذلك، ولكي تتحاشى هذا

التعيين، وإذا لم يتغير هذا القرار، ستبقى في بطرسبورغ ولا تأتي إلى هنا. على فكرة، إنك الآن تعرف ذلك. فقد كتبوا لك من هنا أليس كذلك؟ باللّه عليك، يا صديقي، لوجه المسيح بلّغني بالتأكيد إن أمكن. هل ستأتي أم لا؟ متى وإلى أين وبأي منصب تأتي إلى هنا؟ وكيف تنوي ترتيب أمورك في بطرسبورغ؟ ثم لماذا أنا أتلهف إلى رؤيتك؟ ذلك لأنني الآن أحوج ما أكون إليك، كحاجتي إلى الهواء، وقد كنتُ دوماً بحاجة إليك، أنا أتذكر ذلك. أنت قد لا تصدق مدى فرحتي لأن أخي أعجبك وأنك ستتواصل معه على ما أظن. تواصل باللّه عليك، ولن تأسف. وكم أنا مسرور لأنه لا يزال يحبني. لقد كتبت لك الكثير في رسالتي السابقة عن شكوكي حتى بشأنه. ولكن ليتك تعلم بأي حال كنتُ من الحزن والفزع. وها أنا أعرب عن أسفي على سوء ظني بأخي. قل له إني أقبّله، ولا أكتب له لأن الوقت لا يكاد يكفيني حتى للإجابة على رسائلك. سأبعث له قريباً رسالة رسمية أذكر فيها أنني حي أرزق وبصحة جيدة لا أكثر. فعماذا يمكن الكتابة في رسالة رسمية غير ذلك؟ ومع الرسالة القادمة إليك سأكتب له أيضاً. في الرسالة السابقة طلبت منه 100 روبل أخرى. ليس من أجلي، يا صديقي، بل لمن أعتبره أثمن وأعز ما في حياتي، والأهم تحوطاً للطوارئ. إذا كان يستطيع تلبية طلبي فليفعل، واللّه سيجزيه خيراً. وهو يمكن أن يسعدني بذلك ويخلصني من اليأس والقنوط. من يدري ماذا سيحصل؟ زد على ذلك أنهم إذا سمحوا لي بالنشر فستكون لدي نقودي وأبدأ حياة جديدة، ولن أزعج أخي، ولن أشعر بألم في القلب بسبب ذلك، لأن أخي نفسه يكسب لقمة العيش بجهوده. وقد كتبت لك، يا صديقي، أن تذهب إلى توتليبين وتسلمه رسالتي. وقد فعلتَ ذلك أغلب الظن. أنت لا تتصور ولا تسمع

وجيب قلبي وأنا أنتظر بفارغ الصبر ردك بهذا الخصوص. أشكرك سلفاً على كل ما تفعله من أجلي. ولكن، باللّه عليك، لا تؤملني عبثاً من أجل تهدئة أعصابي. لا تكتب لي إلا الحقيقة، الحقيقة وحدها.

وقد طلبت منك ومن أخي أن تكتبا إلى ماريا دميتريفنا وبسرعة إن أمكن. وأكرر طلبي، راسلها لوجه اللّه. كتبتَ تقول إن هنالك نية لإصدار مرحمة لنا. ولكن ماذا على وجه التحديد؟ هذا سر من الأسرار. اعملْ معروفاً يا صديقي الغالي. ألا يمكن أن تعرف شيئاً بخصوصي سلفاً؟ فأنا بحاجة ماسّة إلى ذلك. إذا عرفت بلّغني في الحال. أنا لا أفكر في القوقاز، ولا في كتيبة بارناول. كل ذلك لم تعد له أهمية الآن. كتبتَ تقول إن الجميع يحبون القيصر. أنا نفسي معجب به أشد الإعجاب. وأعترف لك أن ترقيتي ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي شخصياً. ولكن إذا كنت سأنتظر سلك الضباط فسيطول الإنتظار. حبذا لو حصلت على شيء ما الآن في عيد الجلوس. ولعل أفضل إجراء سليم هو التشفع كي يسمحوا لي بالنشر. وأنا أفكر أن أزودك شخصياً في القريب العاجل بأشعار عن عيد الجلوس. كما سأرسلها بصورة رسمية أيضاً. ولعلك ستلتقي هاسفورت، فهو سيحضر احتفال الجلوس. ألا يمكنك أن تتكلم معه لكي يقدم قصيدتي بنفسه؟ هل يمكن القيام بذلك؟ أخبرني أيضاً لأي وقت يمكنني الكتابة إليك، لأنك إذا غادرت بطرسبورغ فليس من الحكمة أن تضيع الرسائل. لقد حدثتك عن مقالتي بخصوص روسيا. لقد باتت أشبه ببيان سياسي. ولم أكن أرغب في حذف ولا مفردة واحدة منها. من المستبعد أن يسمحوا لي ببدء النشر بمقالة هجائية، على الرغم من وطنية الأفكار الواردة فيها. لقد جاءت المقالة كالمطلوب، وكنت راضياً عنها. وكنتُ أبديت اهتماماً كبيراً بهذه المقالة، إلا أنني

تركتها. فمن المحتمل أن يمنعوا نشرها. وما الداعي لتبديد جهودي؟ الوقت صار ثميناً بالنسبة لي ولا يجوز أن أضيعه جزافاً بأن أكتب لنفسي وأرتاح لما أكتب. ثم إن الملابسات السياسية تبدلت.[2] ولذا شرعت بكتابة مقالة أخرى بعنوان «رسائل في الفن». صاحبة السعادة ماريا نيكولايفنا رئيسة الأكاديمية. وأريد أن أطلب سماحاً بتكريس مقالتي لها ونشرها مهملة من أسم الكاتب. مقالتي هذه ثمرة تأمل استغرق عشر سنوات. وقد فكرت في كتابتها منذ أن كنت في أومسك. ستتضمن الكثير من الأمور الأصيلة والساخنة. وأنا أتكفل بالصياغة الجيدة. ولربما لن يوافقني الكثيرون على بعض الأفكار. لكنني أثق بأفكاري. وهذا بحد ذاته يكفي. أريد أن أطلب من أبولون مايكوف أن يقرأ المقالة سلفاً. وستتضمن في بعض صفحاتها مقتطفات كاملة من المقالة الهجائية (الانتقادية المذكورة أعلاه). وسيكون موضوعها رسالة المسيحية في الفن. لكن المشكلة أين ستنشر؟ إذا طُبعت على انفراد لن يشتريها أكثر من 100 شخص. فهي ليست رواية. وفي مقابل نشرها في المجلات يدفعون نقوداً. إلا أن «المعاصر» كانت دوماً معادية لي. ومجلة «الموسقوفي» أيضاً. و«البشير» نشرت مقدمة لمقالة كاتكوف عن مؤلفات بوشكين تضمنت أفكاراً على طرفي نقيض مع أفكاري. ولا تبقى سوى «مذكرات الوطن»، ولكنني الآن لا أعرف ما يحصل «لمذكرات الوطن». ولذا أرجو أن تستفسر من مايكوف ومن أخي هل يمكن نشر المقالة مقابل أجور؟ ولكن تحدث معهما عنها بصفة مشروع لا أكثر. وبلّغني بجوابهما. والأهم أنني أعكف على كتابة رواية، وهي مبعث ارتياحي.[3] عن هذا الطريق فقط أستطيع أن أخلق لنفسي اسماً وأجلب الانتباه إليه. والأفضل بالطبع أن أبدأ بالمقالة الجدية عن الفن

وأطلب، بالاستناد إليها، سماحاً بالنشر، ذلك لأنهم لا يزالون يعتبرون الرواية شيئاً لا قيمة له. ويخيل إليَّ أنه إذا توفرت الفرصة للتوسط والتشفع بشأن نقلي إلى الخدمة المدنية، في بارناول تحديداً، فخير على خير، انتهز الفرصة وإذا أمكن الكلام بهذا الخصوص مع هاسفورت فيا ليتك تتكلم. وإذا أمكن الفعل وليس القول فقط فلا تفوت الفرصة وتشفع لي بالانتقال إلى الخدمة المدنية في بارناول. هذه أقرب وأصح خطوة بالنسبة لي. على فكرة، أنا أتفق معك تماماً بشأن ضرورة انتظار عيد الجلوس. اللّه أعلم، فلربما تكون النتيجة أكبر مما نتوقع. الموعد قريب، لكن اللّه يعلم كم من الأحداث قد تجري خلال هذه الفترة. أنا أقصد ملابسات حياتي التي تعرفها أنت.

يا ملاكي، كنتُ مغتماً ومنفعلاً، كنت أعاني من الحمى، عندما كتبت لك ولأخي في المرة السابقة. إليك ما كان في واقع الأمر، بعد أن اتضحت المسألة في العديد من جوانبها. وأظن أني كان يجب أن أكتب ذلك كله بعد ما كتبته في الرسالة السابقة. في عيد المرافع حضرتُ أمسيات وولائم، بل ورقصت فيها. وكان هناك سلوتسكي الذي لي معرفة به، وقد التقيته مراراً. وكتبتُ إلى ماريا دميتريفنا عن ذلك كله وعن رقصتي وعن بعض سيدات المنطقة. فتصورتْ أني أخذت أنساها وأهتم بالأخريات. وفيما بعد، حينما جاء وقت التوضيحات، كتبتْ لي أنها تعذبت لفكرة كون صديقها المخلص الأخير أخذ ينساها. كتبت تقول إنها تعذبت وتألمت، لكنها ما كانت تريد أن تبوح لي بأحزانها وشكوكها «حتى الممات». وأنا أفهم ذلك. فهي بقلب نبيل أنوف. ولذا كتبت تقول: «لقد فترت لهجتي عفوياً في رسائلي إليك. وصرت واثقة تقريباً بأنني أكتب ليس للشخص المطلوب الذي كان حتى الآونة الأخيرة يحبني وحدي». ولقد

لاحظتُ هذا البرود في رسائلها وتألمتُ كثيراً بسببه. وفجأة قيل لي إنها ستتزوج. يا ليتك تعلم ما جرى لي آنذاك. نهشني الألم. قرأت رسائلها الأخيرة وقادني برودها عفوياً إلى الشكوك، ثم إلى اليأس. وقبل أن يتسنى لي كتابة شيء لها عن ذلك استلمتُ الرسالة التي كتبتُ لك عنها في المرة السابقة، حيث تتحدث عن عجزها وعن وضعها المزري الغامض، وتطلب مني النصح عما ينبغي أن تفعله لو تقدم لطلب يدها شخص يتحلى بخصال حميدة. وبعد هذا التأكيد المباشر لجميع شكوكي لم يبق لي أن أشك أكثر. كل شيء واضح. والإشاعات عن زواجها صحيحة. فكانت تخفي الأمر عليَّ كيلا أتعذب. بقيت أسبوعين في لجة الآلام، في جحيم اللوعة، في اضطراب الأفكار وسخونة الدم لدرجة يصعب عليَّ حتى اليوم أن أتذكر ذلك الكابوس. أردت، واللّه، أن أفر إلى هناك لكي ألتقيها ولو لساعة واحدة، ولا قيمة لمصيري بعد ذلك. إلا أن ظل الأمل أوقفني. انتظرت ردها. فأنقذني هذا الأمل. وإليك ما حصل فيما بعد. فهي، المعذبة بالغيرة والأحزان بسبب الصديق الذي (خيل إليها أنها) فقدته، وفي جو الوحدة المطوقة بالأوغاد والحقراء، في جو المرض والوساوس والبعد عن الأهل دون أمل في أية مساعدة، قررت أن تتيقن من موقفي إزاءها، هل بدأتُ أنساها، أم بقيت كما كنت في الماضي؟ ولهذا الغرض كتبت لي متسائلة، بالاعتماد على بعض مما حصل في الواقع، بماذا ينبغي لها أن تجيب إذا طلب يدها شخص ما؟ ولو كنت قد أجبتها بلامبالاة لاتخذتْ من ذلك دليلاً على أنني نسيتها بالفعل. عندما استلمت رسالتها حررت لها رسالة يائسة رهيبة عذبتها أشد عذاب، وأتبعتها برسالة أخرى في البريد التالي.[4] كانت مريضة طول الوقت في الآونة الأخيرة، وقد زادت رسالتي في عذابها.

ولكنها على ما يبدو، مسرورة لكآبتي مع أنها متألمة عليّ. والأهم أنها تيقنت من رسالتي بأنني لا أزال أحبها بلا حدود. بعد ذلك عزمتْ على توضيح الأمور لي، بما في ذلك شكوكها وغيرتها ووساوسها، وبينتْ في الأخير أنها اختلقت فكرة الزواج لتتثبت من عواطفي تجاهها. ورغم ذلك لم يكن موضوع الزواج بلا أساس. أحد الأشخاص في تومسك كان بحاجة إلى زوجة، وعندما عرف بوجود أرملة لا تزال شابة نسبياً ومليحة برأي البعض في كوزنيتسك طلب يدها بجهود معارف سفلة كانوا يسيئون إليها طول الوقت. فقهقهتْ وأجابت الخطابة من كوزنيتسك إنها لن تتزوج من أحد هنا ولا موجب لإزعاجها بعد الآن. إلا أن أولئك لم يتراجعوا. فبدأت الغيبة والنميمة والإشاعات والتلميحات والتساؤلات: من هذا الذي تتراسل معه كثيراً؟ لديها هناك عائلة موظفين متواضعة وطيبة، وهي تحبهم. وقد قالت للموظفة إنها إذا أرادت أن تتزوج فلديها شخص تحترمه وقد طلب يدها تقريباً. كانت تقصدني لكنها لم تذكر اسمي. أعلنتْ ذلك وهي تعلم أن هؤلاء الناس، رغم طيبتهم، لن يصبروا على كتمان الخبر، ولا بد أن يعلنوه في كل مكان، وبالتالي عندما يعرف الآخرون بوجود خطيب يتركونها لحالها ويكفّون عن اقتراح غيره. ولا أدري هل هذه الحسابات صحيحة. فإن ابن بيشيخونوف الذي يخدم هناك كتب لوالده على أية حال أن ماريا دميتريفنا ستتزوج. فأشاع الأب الخبر في سيميبالاتينسك، ولذا كنتُ على يقين لبعض الوقت أن كل شيء انتهى بالنسبة لي. ولكن يا صديقي العزيز، ليتك تعرف مدى حزني الآن. أولاً، هي مريضة وأوغاد كوزنيتسك يعذبونها، وهي وسواسية تخشى كل شيء. أنا أغار عليها من أي اسم تذكره في رسالتها، وهي تخشى السفر إلى بارناول، فقد يعتبرونها هناك كالمتسولة ولا يرحبون بها،

بل يتكبرون عليها. وقد حاولتُ إقناعها بالعكس. وهي تقول إن الرحلة مكلفة، وإنها بحاجة إلى أثاث جديد في بارناول. هذا صحيح. أنا أكتب لها أني سأتقاسم كل النقود معها. وهي ترجوني بكل ما هو قدسي أن لا أفعل ذلك. وتنتظر جواباً من آستراخان حيث سيقرر والدها ماذا يجب عليها أن تفعل: هل تبقى في بارناول أو ترتحل إلى آستراخان. وتقول: إذا طلب أبوها أن تسافر إليه فستفعل. وتضيف في الحال: هل أكتب لوالدي أنك طلبت يدي وأخفي عليه ملابساتك؟ بالنسبة لي تلك هي الكآبة القاتلة، الجحيم بعينها. يا ليت عيد الجلوس يحل بسرعة ويحصل شيء أكيد وعاجل في مصيري. فعند ذاك سيعود الهدوء إليها. هل تفهم والحال هذه موقفي وأوضاعي، يا صديقي الطيب. يا ليت هيرنغروس يساهم في مساعدتي. الحقيقة أنا أظن أحياناً أنني سأجن.

(المخلص د.)

---

(1) رسالة فرانغيل إلى دوستويفسكي هذه مفقودة.

(2) الحماسة المتفائلة في مقالة دوستويفسكي لم تعد تتناسب وصلح باريس المهين الذي وقعته روسيا بعد حرب القرم.

(3) لعل دوستويفسكي يقصد «الرواية الفكاهية» المفترضة التي سبق أن كتب عنها إلى مايكوف.

(4) الرسائل المتبادلة بين دوستويفسكي وعيسايفا في عام 1856 مفقودة.

51. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 23 مايو 1856

صديقي الطيب الغالي ألكسندر يغوروفيتش. أنا مسرع، بكل معنى الكلمة، للرد على رسالتك.[1] ولذا لا تلمني إذا جاءت رسالتي مرتبكة ومشوشة. وسأوضح المسألة فيما بعد.

أولاً- أشكرك على كل ما فعلته من أجلي، على كل جهودك لصالحي. أنت أخي الثاني، العزيز المحبوب. توتليبين من أنبل الناس، وقد كنتُ واثقاً بذلك دوماً. إنه بروحية الفرسان النبيلة السامية. وأخوه مثله من حيث الطباع. لوجه المسيح بلّغ إرنست[2] أنني لم أستطع أن أقرأ رسالته دون أن تسيل دموعي، ولا أدري هل هناك كلمات تصلح للتعبير عن مشاعري تجاهه. وقبّل أدولف نيابة عني. سيتحقق شيء ما. فالقضية، كما أفهمها، تسير في طريق جيد. فلينعم اللّه بالسعادة على القيصر الرحيم. وكل ما تحدث به الناس دوماً عن حب الجميع الخالص له صحيح. وهذا ما يفرحني كثيراً. مزيداً من الإيمان، مزيداً من الوحدة. وإذا توفر حب الإيمان والوحدة يتحقق كل شيء. فكيف ستكون حال من يتخلف عن

الركب؟ ولا ينخرط في صفوف الحركة العامة ولا يسهم بقسطه فيها؟ آه! يا ليت مصيري يستقيم في القريب العاجل إن شاء اللّه. كتبتَ تقول أن أبعث لك شيئاً. ها أنا أرسل قصيدة لمناسبة عيد الجلوس وتوقيع الصلح. ولا أدري إن كانت جيدة أو رديئة، إلا أنني وزعتها على الإدارة هنا مع طلب السماح لي بنشر كتاباتي. بمعنى أن بيوتر ميخائيلوفيتش[3] رفع الطلب إلى هاسفورت تواً. وأعتقد أنه ليس من المناسب تقديم طلب رسمي، عريضة، من دون دعمه بمؤلفات فعلية في الوقت ذاته. ولذا بدأت من القصيدة. اقرأها، واستنسخها وحاول أن تعمل من أجل وصولها إلى القيصر. إلا أن القضية تكمن في عدم جواز تخطي هاسفورت (تحدي مرجع). فلربما سأضطر إلى الخدمة هنا. هاسفورت يسافر إلى بطرسبورغ في 10 يونيو. وسيمثل أمام القيصر بالطبع. وسيحمل قصيدتي، ولا بد من توصيته وحثه على موقف أفضل تجاهي. فهل ستكون أنت في بطرسبورغ أثناء مجيء هاسفورت؟ هل ستلتقيه؟ إذا التقيته أرجوك لا تحدثه عن توتليبين. فسيتحمس أكثر إذا نسب نجاح القضية له شخصياً. والأروع من ذلك إذا التقاه توتليبين في مكان ما أو قام بزيارته، وهو أمر يبعث السرور العميق في نفس هذا الأخير، ولكنني لا آمل بمثل هذه الالتفاتة من توتليبين. على أية حال يمكن أن نطلب منه أن يقدم قصيدتي إلى القيصر مع طلب السماح بالنشر وتزكيتي، فيذكرني بكلمة طيبة إذا سألوه عني، فيقول إني أستحق الترقية. ألن تسير القضية عندئذٍ بشكل جيد؟ وهكذا يا صديقي، هل ستكون في بطرسبورغ أثناء وصول هاسفورت إليها أم لا؟ انقلْ هذه الفكرة إلى توتليبين بحذر، فأنا أطلب الكثير، وإذا رأيتَ أنه يستحسنها أوضح له كل شيء. أنت لا تتصور مدى تشجيعك لي بهذه الأخبار! أنتظر لقاءك

بفارغ الصبر. حبذا لو رأيتك بأسرع ما يمكن. فما أكثر ما أريد أن أقوله لك!

خ (ي).[4] غادرت بارناول في مطلع مايو، وأظن أنكما التقيتما من زمان وتنعمان بالسعادة. فليمنحكما اللّه المزيد من السعادة، وليس الكوابيس التي يمكن أن تحصل أحياناً. أقول ذلك انطلاقاً من تجربتي الشخصية. ولكن لا تطل البقاء في بطرسبورغ. تعال، باللّه عليك، تعال. وقل لأخي إنني أعانقه وأعتذر منه على كل المصائب التي سببتها له. إنني أركع أمامه معتذراً. أموري سيئة للغاية. وأنا في يأس مطبق تقريباً. من الصعب على الإنسان أن يتحمل قدر ما تحملت. على أية حال لن أثقل عليك، لا سيما وأنني لا أستطيع أن أنقل لك كل شيء، ولذا أجد نفسي وحيداً مع كآبتي القاتلة. آه، لو كنتَ هنا. لما حصل ذلك. المشكلة أنها ترفض رسميا الآن الرحيل إلى بارناول. وليس في ذلك محذور. إلا أنها في جميع الرسائل الأخيرة التي تلوح فيها مع ذلك الرقة والحنان والتعلق، بل وأكثر من ذلك، تلمح لي أنها لن تبني سعادتي، وأننا كلانا تعيسان و(لعل) الأفضل لنا لو... (افترقنا). وتطلب مني أن أساعد (ابنها) بافل في دخول السلك السيبيري، وترجوك أنت أيضاً أن تتوسط له عند هاسفورت، لعله يقبله هذا العام ولو في قسم القاصرين. بافل الآن في عامه التاسع. ووعدتها ببذل الجهود قدر المستطاع، لذا أستعطفك أن تفعل ما تستطيع. كما أرجوك لوجه اللّه أن تقنع أخي بأن يستفسر بالتفصيل وبدقة عما إذا كان بالإمكان قبول بافل في فيلق بافلوفسكي في العام القادم إن لم يكن الآن. وأن يكتب أخي في أقرب وقت، إن أمكن، إلى ماريا دميتريفنا عن كل التفاصيل ويغرس الأمل الأكيد في نفسها. وأنت، يا ألكسندر يغوروفيتش، لوجه المسيح ومن أجلي اغرس

الأمل فيها بأن الفرصة ربما تحين لإرسال بافل إلى بطرسبورغ وأنها لن تحتاج إلى التحرك من مكانها لتوصيله إلى هناك، فالآخرون سيوصلونه، وسيجد في بطرسبورغ أصدقاء. أقنِعها، هدئ أعصابها. وأنا أرجو من أخي بخاصة أن يفعل ذلك[5]... أنا لم أخبر بيليخوف بأني مسافر إلى كوزنيتسك. لكنني سأقضي هناك ولو بضع ساعات. لم أخبره لأنه كان متردداً في الآونة الأخيرة، لكنه موافق. سأسافر بالتأكيد تقريباً إذا لم يغير بيليخوف رأيه غداً. أسافر على حسابي. لا تتهمني بأني أنفق النقود عبثاً. لكنني مستعد لعقوبة الجزاء (على المخالفة)، ولا أريد أكثر من رؤيتها. أنا في موقف حرج للغاية. فمن الضروري أن أتحدث معها ونقرر كل الأمور رأساً. لا تقلق عليَّ. فلن يحصل لي شيء في الطريق. ذلك لأنني حذر. سأعود بعد 10 أيام. لكنني سأراها. وأنا أتكتم على سفري إلى كوزنيتسك. وأنت أيضاً، باللّه عليك، لا تخبر أحداً ما عدا أخي (ميخائيل). يا صديقي، أنا مضطرب جداً. كتبتَ أنك تسعى لنقلي إلى كتيبة بارناول. رجائي إليك، بحق كل ما هو مقدس لديك، لا تنقلوني قبل الترقية إلى سلك الضباط، إذا وهبني اللّه إياها. فذلك سيكون بمثابة الموت بالنسبة لي. أولاً- هي لن تكون هناك. ثانياً- ما أصعب التعود على أشخاص آخرين وعلى إدارة جديدة. هنا أنا في مأمن من الخفراء والحراس، وهناك لن أكون في مأمن. آمرية الكتيبة سيئة. ثم لماذا؟ لأي غرض؟ لنعيش معاً؟ بينما هي ربما ستكون في أومسك. باللّه عليك، اترك هذه الفكرة. فهي تولد اليأس في نفسي.

ديمتشينسكي لا يميل تماماً إليك. وهو في علاقة ودية معي. لاموت إنسان رائع. الجميع هنا مستغربون من كثرة ما عرض عليك، كما جاء في رسائلك، بينما ترتحل أنت إلى الأماكن التي كنت تمل

منها، فلأي غرض وبأي سبب؟ قلتُ للاموت بالسر إن ذلك بسبب علاقاتك العائلية مع أهلك، واختلقت حكاية مناسبة، فليعمل لاموت على نشرها (. . .) أنا مسافر لعشرة أيام تقريباً.

وداعاً يا صديقي. في أمان اللّه وحفظه. أنتظرك كملاك من السماء. أنت بالنسبة لي أكثر من صديق وأخ. اللّه أرسلك إليّ.

(المخلص د.)

---

(1) رسالة فرانغيل التي يردّ عليها دوستويفسكي هنا مفقودة.

(2) المقصود الجنرال توتليبين، واسمه الأول إدوارد. يبدو أن الأمر اختلط على دوستويفسكي فسمّاه إرنست.

(3) المقدم ب. م. سبيريدونوف القائم بأعمال الحاكم العسكري لمحافظة سيميبالاتينسك.

(4) يكاترينا هيرنغروس.

(5) ميخائيل دوستويفسكي كتب إلى عيسايفا يهدئها.

52. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 14 يوليو 1856

أبعث إليك الجواب، يا صديقي الطيب الغالي ألكسندر يغوروفيتش، مع أول بريد. وكنتُ انتظرت طويلاً استلام ولو سطر واحد منك. أنا لا ألومك. فقد كنتَ أخاً لي على الدوام. أنا أتلمس ذلك وأعرفه. ولكن، يا ليتك تعلم مدى حاجتي إلى مشاطرتك الأخوية وتذكرك إياي طول هذه الفترة. ألف مرة هممت أن أكتب لك بنفسي، لكنني كنت أخشى أن تشد الرحال إلينا في تلك الأثناء، ولن تصلك رسالتي. على أية حال، ماذا كنت سأكتب لك؟ لن تتسع الرسالة لما أريد أن أقول. والآن أيضاً، أشكرك مئة مرة أخرى على كل الجهود التي تبذلها من أجلي. أرجو أن تنقل تشكراتي (للأخوين) توتليبين. ولعلك لا تتصور مدى الإعجاب الذي أتطلع به إلى نفوس طيبة مثلك ومثلهما وإلى جهودكم من أجلي. فما الذي قدمته لك ويستحق أن تحبني بهذا القدر؟ وما الذي قدمتُه لهذين النبيلين؟ بارك اللّه فيكم جميعاً. وهكذا يمكنني الآن أن آمل بقوة، ولكن... بعد فوات الأوان. لقد كنت هناك، يا صديقي الطيب، ورأيتها. ولا أفهم

حتى الآن كيف حصل ذلك؟ كان لدي ترخيص إلى بارناول، إلا أنني جازفت بالذهاب إلى كوزنيتسك. ولكن ماذا أكتب لك؟ وأكرر من جديد هل يمكن الكتابة عن شيء ما في قصاصة ورق؟ رأيتها. ما أكثر نبل هذه الروح الملائكية! بكت وقبَّلت يديّ، لكنها تحب شخصاً آخر. أمضيت هناك يومين. تذكرَت الماضي في هذين اليومين، فمال قلبها إليّ من جديد. ولا أدري هل أنا على حق أم لا عندما أقول هذا الكلام. وقالت لي: «لا تبك ولا تحزن، لم يتقرر كل شيء نهائياً بعد، أنا وأنت ولا أحد غيرنا». هذه كلمة إيجابية منها. أمضيت يومين لا أدري كيف. ملؤهما الغبطة والسعادة وعذاب لا يطاق. في نهاية اليوم الثاني غادرت بمنتهى الأمل. ولكن من المحتمل تماماً أن يقع الذنب دوماً على الغائب. (عليّ أنا) وهكذا حصل. في رسائلها المتواترة لاحظت من جديد أنها مكتئبة تبكي، وتحبه مجدداً أكثر مني. لن أقول اللّه معها، فأنا لا أدري ماذا سيحصل لي من دونها. لقد هلكتُ، وهي أيضاً هلكتْ. فهل تتصور، يا صديقي الأخير الغالي، ماذا تفعل وماذا تقرر بعقلها السليم الراجح بلا حدود؟ إنها في التاسعة والعشرين. مثقفة ذكية شاهدَت المجتمع وتعرف الناس، وقد تألمتْ وتعذبت، وأصابها المرض بسبب السنوات الأخيرة من حياتها في سيبيريا، وتبحث عن السعادة، وهي قوية العزيمة حرة طليقة، وتنوي حالياً الزواج من شاب في الرابعة والعشرين من أبناء سيبيريا، لم ير شيئاً في حياته ولا يعرف شيئاً، متعلم قليلاً، بدأ يأخذ فكرته الأولى عن حياته، فيما تعيش هي، ربما فكرتها الأخيرة، (وهو يحيا) من دون معنى، من دون عمل، من دون أي شيء، معلماً في مدرسة هامشية ينتظر في القريب العاجل راتباً قدره 900 روبل ورقية. قل لي، يا ألكسندر

يغوروفيتش، ألا تُهلك نفسها مرة أخرى بذلك؟ فكيف يتم في الحياة المعيشية التقاء شخصين مثلهما مختلفي الطباع والآراء والمتطلبات؟ ألن يهجرها فيما بعد، بمرور بضع سنين، (. . .) ألن يتسبب في موتها؟ ماذا سيحصل لها في ظروف الفقر مع جمع من الأطفال في كوزنيتسك؟ من يدري إلى ماذا ستقودها الخلافات التي أتوقعها في المستقبل؟ فحتى لو كان شاباً مثالياً جداً فهو لا يقف بعد على قدمين ثابتتين. والحال فهو ليس مثالياً، بل. . . كل شيء متوقع فيما بعد. ماذا لو أهانها بملامة دنيئة؟ (. . .) من يدري؟ ألن يحدث ذلك؟ أكيد سيحدث شيء من هذا القبيل. وماذا عن كوزنيتسك. والغدر فيها؟ يا إلهي! قلبي يتفطر. أنا أتوق إلى سعادتها أكثر من سعادتي. تكلمت معها عن كل هذه الأمور. بل ليس كلها. ربما عشرها، فلا يمكن الكلام عن كل شيء. استمعتْ إليّ مندهشة. إلا أن عواطف النساء تعلو حتى على العقل السليم، الواضح في منطقيته. المعقوليات تهاوت أمام فكرة كوني أتجنى عليه وأبحث عن نواقصه، اللّه يسامحها، فراحت تدافع عنه، مدعية أنه مستحيل أن يكون على الصورة التي أرسمها له. ولم أتمكن من إقناعها بشيء. لكنني تركت شكوكاً في نفسها، فكانت تبكي متألمة. وشعرت بالإشفاق عليها. وعندما مالت إليّ أشفقت عليها أكثر. يا ليتك تعلم، يا صديقي، أي ملاك هذا. أنت لم تكن تعرفها على حقيقتها. ففي كل لحظة تأتيك بشيء متميز معقول، ذكي، لكنه محير عجيب، في منتهى الطيبة والنبل. قلبها بشهامة الفرسان، وستقود نفسها إلى الهلاك. إنها لا تعرف ذاتها، أنا أعرفها. وبإيعاز منها قررتُ أن أكتب له كل شيء. مجمل نظرتي إلى الأشياء. ذلك لأنها عادت إليّ بكامل فؤادها أثناء انصرافي. التقيته، فبكى أمامي، وهو لا يعرف غير البكاء. وأنا

أعرف موقفي المهزوز. فحالما أنصحهما بالعدول عما عزما عليه وأرسم لهما المستقبل يتصور أنني أفعل ذلك بدافع من مصلحتي الشخصية، فيهوّل الأمور عمداً. لا سيما وأنه متواجد معها، وأنا بعيد. نعم، هذا ما حصل. كتبتُ لهما معاً رسالة مطولة. صورت كل ما يمكن أن يحدث في الزواج غير المتكافئ. (. . .) وأجابتني وهي تدافع عنه بحرارة وكأنني أتجنى عليه. بينما هو يعتبر نفسه بصدق، على الطريقة المتبعة في كوزنيتسك، وبغباء، شخصية (بارزة)، كما أنه اعتبر رجائي الودي الأخوي إهانة، رغم أنه نفسه طلب صداقتي ومودتي، حيث رجوته أن يفكر جيداً فيما يريد، وما إذا كان سيُهلك امرأة من أجل سعادته، ذلك لأنه في الرابعة والعشرين وهي تكبره بخمس سنوات. وإلى ذلك هو لا يملك مالاً ولا مستقبلاً واضحاً، ما عدا البقاء في كوزنيتسك إلى الأبد. تصور كيف زعل مني بسبب ما قلت. وفضلاً عن ذلك ألّبها ضدي بعد أن قرأ لها فكرتي بالمقلوب وأقنعها بأن تلك إهانة له. كتب لي جواباً وبّخني فيه. فقلبه مليء بالضغينة على ما أعتقد. أما هي فقد أرادت بعد الانفجارات الأولى أن تتصالح معي. فكتبت لي برقّة ولطف كالسابق، قبل أن أبرر تصرفي أمامها. ولا أدري إلى ماذا سينتهي ذلك. لكنها تقود نفسها إلى التهلكة، فيتوقف قلبي عن الوجيب. قد تصدق، يا ألكسندر يغوروفيتش، أو لا تصدق أنا أتكلم معك، واللّه شاهد على ما أقول. سعادتها، بالنسبة لي، أغلى من سعادتي. أنا طوال هذه الفترة ممسوس بكل معنى الكلمة. كان عندنا استعراض وكنت أجوب المنطقة كظل شخص معذب نفسانياً وبدنياً. لا ولن تلتئم جراح روحي. ظننت أني سأستلم منك ولو سطراً واحداً، ولا أحد معي، فيما لزمت أنت الصمت. والآن لا يعلم إلا اللّه هل

سنلتقي أم لا. باللّه عليك لا تتركني. هل يكلفك تحبير سطرين أو ثلاثة كثيراً؟ اكتبْ لي عن طريق البريد. أرجوك. ألست صديقي وأخي؟ لا أدري إلى ماذا ستؤول الأمور. ليتني أنتزع قلبي وأدفنه، ومعه كل (الآلام). باللّه عليك اكتبْ لي سريعاً عن نفسك: هل ستأتي أم لا؟ لا يمكنني أن أنصحك بشيء، فأنت أعرف. ولكن خبرني بسرعة، لوجه المسيح. كتبتَ عن المركيز (دي ترافيرسيه) وتطلب النصح. فماذا عساي أن أقول؟ لا أعرف. أنت تقول إن (يكاترينا هيرنغروس) تكرهه. ذلك مؤشر سيئ. الأفضل لو كانت لاأبالية تجاهه. سمعت من ديمتشينسكي أن أندريه روديونوفيتش كأنما قال له إن «خ» (هيرنغروس) تريد أن تسافر إلى الخارج في الشتاء. هل هذا صحيح؟ وماذا ستفعل أنت عندئذٍ؟

اكتبْ إلى ماريا دميتريفنا ماذا تريد. يا ليتك تعلم مدى التعاطف والاحترام اللذين تتحدث بهما عنك. لكنك لم تقابلها أبداً. بخصوص بافل طلبت من سلوتسكي والآخرين أن يتوسطوا له في أومسك. ولا ينسوا المعاش. والدها أيضاً يساعدها ولا ينساها. المعاش بات يحتل مرتبة أمامية. سلوتسكي إذا وعد فعل. وقد أجابني بتأدب منقطع النظير. وقام بكل ما يستطيع. لكنه كتب بخصوص بافل مؤكداً عدم وجود شاغر. ولا يقر القبول الإضافي أحد سوى القيصر. إلا أنهم سيسجلونه مرشحاً للقبول. توسطْ لدى هاسفورت، باللّه عليك، فلربما هناك أمل في قبوله هذا العام. ولدي رجاء ملح آخر إليك. باللّه عليك، من أجل نور السماوات، لا ترفض هذا الطلب. فهي لا ينبغي أن تعاني. إذا كانت ستتزوج منه لا محالة، فلتكن لديه نقود على الأقل. ولهذا الغرض لا بد من تعيينه في وظيفة أفضل. حالياً هو يستلم 400 روبل ورقي، ويسعى لأداء امتحان تعيين

المعلمين بمرتبة أعلى، في كوزنيتسك نفسها. عندذاك يستلم 900 روبل. (. . .) فأرجوك أن تتكلم مع هاسفورت بخصوصه كشاب رائع موهوب عن جدارة واستحقاق. وامدحه قدر ما تستطيع، وقل إنك تعرفه شخصياً، وحبذا لو حصل على ترقية. (. . .) واكتب إلى (الجنرال) هيرنغروس عنه.(. . .) اسمه الثلاثي نيكولاي بوريسوفيتش فيرغونوف. وهو من تومسك. أنا أرجوك من أجلها وحدها، كيلا تعيش في فاقة على الأقل. لا أدري، واللّه، من نشر الإشاعات حولك في أومسك. الجميع هنا كانوا يتكلمون عنك، إلا أن أحداً لا يعرف الأمر على وجه التحديد. قبل شهر سرت إشاعة تقول إنه تم تعيينك مستشاراً في بارناول. والاحتمال وارد تماماً حسب الظاهر. فهل هذا صحيح؟ اكتبْ لي سريعاً باللّه عليك. أنت تكتب للآخرين كثيراً أنك تتلقى عروضاً لوظائف معينة وأنك تتعرف (على المسؤولين) وما إلى ذلك. الجميع هنا، على ما أعتقد، ينظرون بتهكم إلى هذه الأمور، ولذا أحذرك، لا تكتب لهم بهذا المعنى. الجميع مندهشون لأنك تسافر إلى سيبيريا، بينما لديك وعود بالكثير في بطرسبورغ، ويظنون، لعدم فهم أسبابك، أنك تتباهى. حتى أن لاموت يبتسم ساخراً عندما يتحدث عنك، فيما يقول ديمتشينسكي أن قراءة رسائلك تقتضي ارتداء البزة العسكرية. لا تعبأ بشيء. اكتب لهم، ولكن لا تُهن (كرامتهم) واعتزازهم بنفوسهم الصغيرة.(. . .). إذا وافقوا على ترقيتي أفضِّل أن أنتقل إلى بارناول. وبخلاف ذلك أفضل روسيا، فلا تنسني لوجه المسيح.

ولديَّ، يا صديقي، طلب عاجل آخر. إذا استطعتَ نفّذه، وإلا فحسبي اللّه ونعم الوكيل. إذا حصلتُ على الترقية، وعموماً في شهر أغسطس، سأكون بحاجة إلى نقود. بحاجة ماسة لا فكاك منها. أنت

لا تصدق كم كلفتني رحلاتي. ومع ذلك أجازف برحلة أخرى. ديوني 100 روبل فضي. وأنا أعيش في بؤس، لكن المصروفات استثنائية.

أشعر بأنني في حاجة ماسة جداً إلى النقود، فيما لو طرأ طارئ. وهي حالياً ضرورية لأقصى حد. استعطفْ أخي، وقبّله بلا نهاية، أن يبعث نقوداً على جناح السرعة إذا استطاع. أما أنت فأرجوك، باللّه عليك، أن تقترض لي حتى يناير 300 روبل فضي، لعلمي بأنك لا تمتلك فائضاً. هذا في حال ما إذا كنتَ متيقناً وتأمل فعلاً بأنهم سيسمحون لي بالنشر. في هذه الحالة فقط أرجو أن تقترض لي. وإذا سمحوا لي بالنشر فسأستطيع أن أدفع مبلغاً أكثر من هذا بكثير في يناير. ولن أسيء إلى سمعتك. اقترض لي إذا كان لديك من تقترض منه. وإذا صعب عليك ذلك لا تحاول، لأن الاقتراض شيء بغيض. لا تقترض من «خ»، أرجوك، فتلك ستكون تضحية كبيرة جداً من جانبكما لي. إذا اقترضتَ أرسِل المبلغ رأساً على عنوان لاموت. معذرة على مثل هذه الطلبات. فأنا لا أعرف ظروفك من هذه الناحية. هذا أولاً، وثانياً، أنا نفسي كالمجنون. باللّه عليك لا تظن بي الظنون. وداعاً. سأكتب لك قريباً مرة أخرى. اكتبْ لي رجاءً عن كل شيء. ولا تنسني.

المخلص ف. دوستويفسكي

أعانقك مع أخي وأقبّلكما بلا حساب. تحياتي للباقين. لا تُخفِ عليّ شيئاً.

53. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 9 نوفمبر 1856

أخي الطيب وصديقي المخلص الغالي. هذه الرسالة تصلك بيد ألكسندر يغوروفيتش الذي له فضل كبير عليّ. استلمت رسالتك مع البريد الفائت. ويدهشني أنك عرفت متأخراً لهذا الحد بترفيعي. أنا عرفت بذلك في 30 أكتوبر. قدم تشكراتي إلى ك. إيفانوف وأولغا إيفانوفا، فهما أرسلا لي مرسوم الترفيع. وإلى ذلك وصل إلى الحاكم العسكري (سبيريدونوف) في 30 أكتوبر نفسه كتاب ترفيعي. أكرر معك: السعادة والحكم المديد لملاكنا القيصر. تعجز الكلمات عن التعبير عن امتناني له. أعانقك من صميم القلب وأشكرك على التهنئة. انتظرت رسالتك زمناً لا نهاية له. فاترك طريقتك هذه يا صديقي. وبلّغني عن أحوالك ولو قليلاً، ولكن في فترات متقاربة. أحياناً ليس لديك ما ترسله إليّ، أنا أعرف ذلك، ثم ماذا؟ اكتبْ لي على أية حال. أنت تعدني، يا صديقي، بإرسال نقود مع البريد القادم وتؤكد لأخواتنا الطيبات ولزوجة خالنا بخصوص المساعدة. يا صديقي الطيب، ليتك تعلم مدى حاجتي إلى هذه النقود. ستأتي هذه المساعدة

في الوقت المناسب تماماً. وإلا فلا أعرف كيف أشتري البزة الجديدة. الثياب هنا أغلى بكثير، بخمسين في المئة، مما في بطرسبورغ. اشتريت ما هو ضروري من الحوانيت بالآجل. ولكن بقيت حاجيات كثيرة لا بد من شرائها. على فكرة، فأنا ليست لدي ملابس داخلية ولا بياضات. والآن أنا أستلم راتباً. إلا أنه قليل في بادئ الأمر بعد مختلف الاستقطاعات. زد على ذلك أنا مدين، وإنْ لأشخاص يصبرون عليَّ بالطبع، لكن التسديد واجب. أكتب ذلك لك، يا صديقي، لا لأني لم أجد ما هو أهم من الكلام عن النقود وطلب إرسالها. كلا. ثم إنك نفسك، وأنا على يقين، لا تعتبرني من هذا النوع. فلماذا إذن؟ لكي أبرئ نفسي قليلاً أمامك، ذلك لأني مذنب كثيراً بحقك عندما عولت على نقودك وأنفقت أكثر مما يجوز لي أن أنفق. ولكن، يا أخي الحبيب، إذا كانت هناك نفقات طارئة كيف أتفاداها؟ تلك التي أحببتها لا أزال أعبدها حتى الآن. ولا أدري كيف سينتهي ذلك. كنت سأصاب بالجنون أو ما هو أسوأ من الجنون لو أني لم أرها. كل ذلك شوش أموري. لا تتصور أنني أتقاسم معها النقود وأعطيها، فهي ليست من هذا النوع من النساء. إنها تفضل أن تعيش على الفلس الواحد ولا تقبل بالعطايا. إنها واحد من ملائكة السموات التقاني في الطريق وربطني بوثاق الآلام. من دونها كنت من زمان سأفقد معنوياتي. فليكن ما يكون. أنت كنت قلقاً كثيراً من احتمال زواجنا. يا صديقي العزيز، يخيل إليَّ أن ذلك لن يحصل أبداً مع أنها تحبني. أنا أعرف ذلك. ولكن فليكن ما يكون. إنها ترجوك أن تسامحها على عدم جوابها لك. كانت آنذاك في ظروف رديئة للغاية. وبعد التباطؤ الطويل خيل إليها أن الجواب سيكون مخجلاً. رسالتك أعجبتها كل الإعجاب. ولكن يكفي، فلنصرف النظر عن ذلك.

من الآن أبدأ حياة جديدة! أالكسندر يغوروفيتش يسألني: عمَ أطلب أيضاً، وماذا أريد؟ إنه مخلص لي كأخ لم تلده أمي. أنا نفسي لا أدري ماذا أبتغي الآن. لأن العودة إلى روسيا ستتم قريباً حتى من دون الترقية في الجيش. وإذا كنت أريد العودة إلى روسيا سريعاً فلأجل أن أعانقكم وأستشير الأطباء المختصبن بشأن مرضي، الصرع. أكثر ما أتمناه هو التسريح العاجل، ولذا أرجو من ألكسندر يغوروفيتش أن يكتب لي بأسرع ما يمكن ويؤكد هل أستطيع أن آمل بطلب التسريح نظراً لتدهور صحتي؟ فهو من شأنه أن ينفعني 1) لتحسين صحتي، و2) تأمين الحرية وتيسير إمكانية ممارسة الأدب، وأخيراً يوفّر لي نقوداً أكثر. ذلك لأنني حتى هنا تلقيت مرتين عرضاً بعمل يمكن أن يسد احتياجاتي بالتمام والكمال على أمل أن يطلقوا سراحي بمرسوم العفو في القريب العاجل. إلا أنني أتوقع وآمل وأنتظر السماح بالنشر الذي بالغت في انتظاره العاجل، فاستدنت من دون تفكير مؤملاً في «حكاية الأطفال» التي فكرتم في نشرها. فلماذا لم تنشروها؟ وهل حاولتم؟ إذا كانت هناك محاولة منكم فبمَ أجابوكم؟ اكتبْ عن ذلك باللّه عليك[1]. لقد كنتُ، يا صديقي، في حالة من القلق خلال العام الأخير، ومن الكآبة والعذاب، لدرجة لم أتمكن فيها أن أعمل كثيراً. تركت كل ما بدأت بكتابته بين فترة وأخرى. إلا أن في ذلك فائدة. فقد اختمرت الأفكار على مهل، وكانت النتيجة أفضل. أجل، يا صديقي، أنا أعرف أني سأشق طريقي، وأشغل مرتبة جيدة في الأدب. وإلى ذلك أظن أنني، من خلال الأدب، وعندما يلتفت الجمهور إليَّ، أتخلص من آخر الصعوبات المتبقية في مصيري التعيس. تعذبني كثيراً وفرة المواد

للكتابة. كما تعذبني نتاجات من نوع آخر غير الروايات. أعتقد أنني أستطيع أن أقول شيئاً، بل وشيئاً رائعاً، عن الفن. مقالة كاملة في دماغي، وعلى الورق بشكل رؤوس أقلام. إلا أن روايتي شغلتني عن غيرها. وهي رواية فكاهية ضخمة، بدأت من مزحة وتراكمت حتى صرت راضياً عنها. وستكون فيها أشياء (أو مشاهد) جيدة للغاية. باللّه عليك لا تعتبرني متباهياً. فما من إنسان أكثر مني إنصافاً وتشدداً تجاه نفسه من هذه الناحية. يا ليت نقّادي السابقين يعرفون ذلك. بودّي أن أنشر الآن مقتطفات ومشاهد مكتملة من هذه الرواية الكبيرة. فهذا من شأنه أن يمنحني الشهرة والنقود. لوجه المسيح استفسِر عن هذه الإمكانية وأخبِرني هل هي متوفرة أم لا.

يا ملاكي، كنت أخشى عليك كثيراً. سيجارك الذي قرأت عنه في رسالتك، ثم في الصحف، أرعبني. خفتُ عليك من المجازفة بكل ما تملك في هذا العمل غير المأمون. يعني أنك تلعب بالنار. مرة حالفك الحظ بالسجائر، إلا أن المجازفة بها مرة ثانية وتحدي المصير غير مأمونة العواقب. كنت أخشى عليك طول الصيف. عسى أن يوفقك اللّه. على أية حال أنا أتكلم عن مسألة لا أعرف عنها الكثير.

صديقي العزيز، أنت تكتب عن أخواتنا. إنهن ملائكة. فما أروع عائلتنا. وما أفضل الناس فيها. أين أخي أندريه، وكيف حاله؟ لم أسمع أخباره من زمان. سأكتب له حتماً. أكتب لك هذه الرسالة على عجل، لمجرد أن أرد على رسالتك. لكنني سأحرر قريباً رسالة إلى ألكسندر يغوروفيتش، فأكتب لك من جديد بمزيد من التفصيل، لأنني حينئذٍ سأعرف عن نفسي أكثر. وقد جاء دور أخواتي وخالي لأكتب له ولهن. ولكنني سأنتظر رسائل من أخواتنا في البريد الأخير. باربارة

أرادت أن ترسل لي بياضات، وقد تهرأت ثيابي، ورغم الغلاء الفاحش اضطررت إلى الاستدانة لأقتني بعض الملابس الداخلية. وهي تسأل على أي عنوان ترسلها. لكنني لم أفهم سؤالها حتى الآن. على العنوان نفسه الذي تبعث الرسائل عليه. إذا التقيتها قبّلها بدلاً مني، وإلا فاكتبْ لها أنني أقبّلهن جميعاً. باريارة الطيبة القلب بعثت لي 25 روبلاً استلمتها من رسول في أغسطس، واللّه يشهد كيف ساعدتني تلك النقود!

استأجرتُ شقة مع خادم وتدفئة ووجبة طعام بـ 8 روبلات في الشهر. باختصار أعيش مثل يهودي مقتر. باللّه عليك، يا أخي، (حاول). هل يعقل أنك حتى الآن لا تستطيع أن تعنون رسائلك إليّ مباشرة، ولا ترسلها عن طريق الإدارة؟ فأنا على يقين بأنك معفو من آخر رقابة حتى بالمرسوم (القيصري).. اكتبْ لي مباشرة، باللّه عليك. فالقيصر هو الطيبة الملائكية بعينها! أنا مسرع لإنهاء رسالتي إليك. صحتي كالمعتاد، لكنني مرضت بعض الشيء في الخريف. نوبات الصرع لا تفارقني على أية حال. إنها تلاحقني بين فترة وأخرى.[2] كل مرة بعد تلك النوبات تنهار معنوياتي وأشعر أني أفقد ذاكرتي وقابلياتي (الذهنية) بسببها. نوبات الصرع تولد في نفسي الاكتئاب والمهانة المعنوية. هل أنت في صحة جيدة؟ وأفراد عائلتك هل هم بخير؟ كيف حال إميليا فيودوروفنا؟ تحياتي لها وقبلاتي للأطفال. قبّلهم بدلاً عني. اكتبْ لي حالاً وبالتأكيد. وإذا لم يكن لديك ما ترسله ابعثْ رسالة فارغة. يا ملاكي، رسالتك بالنسبة لي أثمن من النقود. فأنا وحيد، في وحدة قاتلة، وأنت لا تعرف شيئاً عن أحوالي. ثم، ماذا يمكن أن أكتب في رسالة من أربع صفحات بينما

يحتاج كل ما ينبغي أن نقوله لأحدنا الآخر إلى سنوات؟ آه، يا ليتنا نلتقي. وداعاً يا ملاكي، لوقت قصير، فسأكتب لك قريباً من جديد. ولكن اكتبْ أنت أيضاً بأكثر ما يمكن. أعانقك.

المخلص ف. دوست (ويفسكي)

ملحوظة: خذ بالك! اكتبْ!

---

(1) «حكاية الأطفال» التي كتبها دوستويفسكي في سجن القلعة عام 1849 نشرها أخوه ميخائيل في «مذكرات الوطن» عام 1857 باسم مستعار وبعنوان «البطل الصغير».

(2) كتب أحد الباحثين استناداً إلى ذكريات أشخاص من معارف دوستويفسكي في سيميبالاتينسك «أن نوبات الصرع عند الكاتب متكررة كثيراً في العادة، وهي غالباً ما تحصل أثناء الليل ولا تستمر طويلاً».



54. إلى تشيكان ولي خانوف[1]

سيميبالاتينسك، 14 ديسمبر 1856

استلمت رسالتك، يا صديقي الطيب، من ألكسندر نيكولايفيتش (تسوريكوف)، وأنت تكتب بلهجة ترحيب ولطف وكأنني أراك أمامي من جديد. تقول إنك تودّني، وأنا أعلن من دون رسميات أنني أودك وأحبك. لم أكن أبداً أشعر بمثل هذه العاطفة تجاه أي شخص سواك، حتى تجاه شقيقي. واللّه وحده يعلم كيف حصل ذلك. يمكن قول الكثير في تفسير هذه الظاهرة، ولكن ما الداعي إلى الثناء على خصالك؟ فأنت أكيد واثق من صدقي بلا أدلة يا عزيزي ولي خان. وإذا حررنا في هذا الموضوع عشرة كتب لن نفيه حقه. فالمشاعر والعواطف أمر غير قابل للتفسير. عندما ودعناك من العربة انتابنا الحزن جميعاً طول الوقت. وكنا نتذكرك على امتداد الطريق ونمتدحك أيما مديح. كانت الفرحة ستتم بأعجوبة لو استطعت أن ترحل معنا. ولكان لك في بارناول تأثير كبير. في كوزنيتسك التي زرتها وحدي خفية تحدثت عنك كثيراً مع سيدة ذكية مليحة بروح سمحاء وقلب كبير، وهي أفضل صديقة لي.[2] حدثتها كثيراً عنك حتى أنها أحبتك

من كلامي دون أن تراك أبداً، وقد أوضحت لي أنني صوّرتك بأبهى الألوان. ولعلك ترى يوماً هذه المرأة الرائعة وتكون من بين أصدقائها، الأمر الذي أتمناه لك. ولذا أكتب لك عنه. أنا لم أبق في بارناول وقتاً يستحق الذكر. إلا أنني حضرت هناك حفلة راقصة وتعرفت على الجميع تقريباً. وقد أمضيت في كوزنيتسك وقتاً أطول، 5 أيام. ثم كنت في (مدينة) زمييف و(على نهر) لوكتا. وكان ديمتشينسكي على عادته في المزاح والتنكيت طول الوقت. سيميونوف إنسان رائع. وقد سبرت أغواره بشكل أفضل هذه المرة. يمكن الحديث إليك عن الكثير مما لا تستوعبه هذه الرسالة. ولكنك ستعرف في زمن ما بعض الأمور. أما الآن، حيث تراكم في نفسي، فجأة، ما كنت أتوقعه ولا أتوقعه، من مصائب وهموم ومخاوف على من هي أعز كائن لدي في الدنيا، وحيث أنا وحيد تماماً في وقت يتعين فيه العمل، أعترف تائباً بأني كان يجب أن أكشف لك عن أكبر همومي وأهدافي، وعن كل ما يثقل على فؤادي لحد الموت من عامين أو يزيد ! كنت سأبقى سعيداً، يا صديقي العزيز الغالي تشيكان تنغيزوفيتش. أنا أكتب لك الآن ألغازاً لا تحاول أن تفك رموزها. وأرجو أن تتمنى لي النجاح. لعلك ستسمع قريباً عن كل شيء مني شخصياً. تعال إلينا سريعاً إنْ أمكن، وفي أبريل تعال حتماً. لا تغير نواياك. فما أشد رغبتي في رؤيتك، وأعتقد أنك لن تشعر بالملل عندنا. كتبت تقول إنك تشعر بالملل في أومسك. كيف لا؟ وتطلب النصح: كيف تتصرف وأنت في خدمتك، وفي ظروفك على العموم؟ أعتقد ينبغي أن لا تترك العمل. فلديك مواد كثيرة. اكتبْ مقالة عن السهوب (القرغيزية). وسينشرونها. هل تتذكر؟ لقد تحدثنا عن ذلك. والأفضل لو تمكنت من كتابة شيء، على غرار «مذكرات»[3] عن المعيشة في

السهوب، تتناول فيه ترعرعك وفتوتك وما إلى ذلك. وسيكون ذلك ظاهرة يهتم بها الجميع. سيكون من المستجدات، لا سيما وأنك تعرف ما ينبغي أن يكتب، كما في مؤلف «جون تينير» بترجمة بوشكين، إذا تتذكر. وسيجلب ذلك إليك الانتباه في أومسك وفي بطرسبورغ. كما أن المواد الموجودة لديك من شأنها أن تثير انتباه الجمعية الجغرافية. باختصار، الجمهور في أومسك، والحال هذه، سينظر إليك نظرة أخرى. وعندها ستثير حتى اهتمام أهلك بإمكان سلوك طريق جديد. وإذا أردت أن تقضي الصيف القادم في السهوب فإن انتظار ذلك الحين لا يزال طويلاً. ولكنك تستطيع منذ الأول من سبتمبر العام القادم أن تطلب إجازة سنوية تقضيها في روسيا (الداخل) وإذا عشت عاما واحداً هناك ستعرف ماذا عليك أن تفعل. ففي عام واحد يمكن أن يكون لديك مال. صدقني لا داعي للكثير من المال. المهم أن تحسب الحساب للعيش ولنظرتك إلى الأمور. كل شيء نسبي واصطلاحي. خلال العام المذكور يمكنك أن تشد العزم على الخطوة التالية في حياتك. وسيكون باستطاعتك أن تستشف النتيجة بنفسك، أي تقرر ما ستفعله لاحقاً. فإذا عدت إلى سيبيريا يمكنك أن تتصور أية منافع أو اعتبارات، فما أكثر ما يستطيع المرء أن يتصوره ويصوره، من شأنها أن تقنع أهلك حتى بالسماح لك بالسفر إلى الخارج، أي بالتجول سنتين، مثلاً، في أوروبا. وبعد 7-8 سنوات ستتمكن من تدبير مصيرك بحيث تكون نافعاً لوطنك أكبر النفع. أليس هدفاً عظيماً، على سبيل المثال، أليس أمراً مقدساً أن تكون من أوائل أبناء جلدتك الذي يوضح لروسيا ما هي السهوب ومدى أهميتها، وموقف شعبك تجاه روسيا، وتخدم وطنك في الوقت ذاته بالسعي المتنور لصالحه عند الروس. تذكر أنك أول قرغيزي متعلم تماماً على

الطريقة الأوروبية. وفوق ذلك جعلك المصير إنساناً رائعاً. فمنحك روحاً سمحاء وقلباً كبيراً. لا يجوز التأخر، لا يجوز التخلف عن الركب. حاول بإصرار، بل وبتحايل إنْ أمكن. وكن على ثقة بأن كل شيء ممكن. ولا تسخر من تصوراتي الطوباوية وحدسي بشأن مستقبلك، يا عزيزي ولي- خان. أنا أحبك لدرجة جعلتني أفكر فيك وفي مصيرك أياماً بلياليها. بالطبع في الأمنيات بنيتَ مستقبلك ورعيته. إلا أن بين الأمنيات واحدة فعلية واقعية، هي أنك أول شخص من قبيلتك بلغ المستوى التعليمي الأوروبي. هذا الأمر وحده مثير للدهشة. وإدراكه يلقي عليك عفوياً واجبات معينة. ومن الصعب عليك أن تحدد الخطوة الأولى التي ينبغي القيام بها. وإليك نصيحة أخرى على العموم. حاول أن تقلل من الحدس والأمنيات، وتزيد من العمل والبدء، على الأقل، بأي شيء كان لتوسيع ما أنت فيه. البدء بشيء، مهما كان، أفضل، على أية حال، من لا شيء. فليمنحك اللّه السعادة.

وداعاً يا عزيزي، واسمح لي أن أعانقك وأقبّلك 10 مرات. تذكّرني واكتبْ لي أكثر. تسوريكوف يعجبني، فهو صريح، لكنني لا أزال قليل المعرفة به. هل ستسافر مع سيميونوف وهل ستكونان معاً في سيميبالاتينسك؟ عندذاك ستكبر شلتنا. ولربما ستتغير آنذاك أمور كثيرة في مصيري. إن شاء الله. يا ليت. ديمتشينسكي يسلم عليك، أكتبُ لك من شقته، من الطاولة نفسها التي كنا نتناول عليها فطورنا عادة أو نحتسي الشاي في انتظار اليتامى المساكين.[4]

قبالتي يجلس تسوريكوف ويكتب لك هو أيضاً. أما ديمتشينسكي فهو نائم يشخر. الساعة الآن العاشرة مساءً. ولا أعرف سبب تعبي الشديد. كان بودّي أن أكتب لك شيئاً عن سيميبالاتينسك، فهناك أمور

مضحكة جداً. ولن أتمكن من كتابة عشر معشار ما ينبغي الكتابة عنه. وداعاً يا صديقي الطيب. اكتبْ لي أكثر. وسأرد على رسائلك دوماً. ولربما سأجازف في مرة أخرى بالكتابة عن أحوالي. بلّغ تحياتي إلى د. (دوروف) وتمنياتي له بكل خير. أكد له أنني أحبه وأنني مخلص له من صميم القلب.

وداعاً![5]

ملحوظة: س.[6] تبلغك تحياتها. أخبرتني كيف أغويتها لتسافر معك إلى أومسك. وهي تتذكرك وتبدي اهتماماً كبيراً بك.

(دوستويفسكي)

---

(1) تلميذ قرغيزي في سلك الكاديت الروسي.
(2) المقصود عيسايفا التي سافر دوستويفسكي آنذاك سراً لزيارتها في كوزنيتسك.
(3) للكاتب الأميركي جون تينير عن حياة الهنود الحمر. ترجم الكتاب إلى الروسية عن الترجمة الفرنسية ألكسندر بوشكين عام 1836.
(4) لا أحد يعرف من المقصود باليتامى.
(5) في الأصل بالإيطالية.
(6) فتاة ولي خانوف.

55. إلى ألكسندر فرانغيل

سيميبالاتينسك، 21 ديسمبر 1856

يا أطيب الأصدقاء ويا أخي الغالي ألكسندر يغوروفيتش. أنتظر من وقت طويل رسالة منك، ولم أستلم شيئاً. فهل استلمت رسالتي التي أبلغتك فيها أني أريد أن أغادر سيميبالاتينسك لأسبوعين تقريباً؟ وإذا كنت قد استلمتها فإن جوابك، بالطبع، ما كان ليصل بهذه السرعة. لكنني أقصد رسالتك التي وعدتني بكتابتها قبل أن يصلك جوابي. فقد أردتَ أن ترسل إليّ حاجيات رسمية. وقد طلبت منك، يا صديقي الطيب، أن لا تنفق النقود عبثاً من أجلي، وأنني لست بحاجة إلى كل مستلزمات البزة، فإنها على أية حال ستصل متأخرة، وأن بعض الأشياء التي أنا حقاً بحاجة ماسّة إليها هي، على سبيل المثال، قبعة عالية مزينة بريشة وكتافيات رسمية وأزرار مرقمة وما إلى ذلك، بسبب عدم توفرها هنا، ولا بد من تقديم حجز عليها. ولهذا السبب وحده أبلغتك بأنني سأقبل منك شاكراً هذه الحاجيات الطفيفة. وإذا كان إعداد وشراء هذه الحاجيات سبباً في تأخيرك عن الكتابة لي في انتظار إنجاز هذه المشتريات، فذلك شيء مؤسف، بالطبع.

يا صديقي العزيز الغالي، وأنا مدين لك بالكثير أصلاً، هل يعقل أن مثل هذه الحاجيات البسيطة يمكن أن تمنعك من الكتابة إليّ؟ أم أن الزمن، وربما أنا مخطئ، أخذ يمحو ذكراي في نفسك ولم تعد تحبني كما كنت سابقاً؟ من يدري. كلا. إنها لخطيئة مني أن أتكلم بهذه الصورة. فما أكثر ما فعلته من أجلي. والشكوك التي يمكن أن تدب في فؤادي لنكران فضلك إنما هي الجحود بعينه. أنا لا أريد هذه الشكوك. أنا أطردها، وأعانقك من صميم القلب، وأريد أن أتكلم معك كما في السابق، في سيميبالاتينسك، عندما كنتَ بالنسبة لي الصديق الصدوق والأخ الشقيق معاً، وعندما كنا نتقاسم همومنا... العاطفية.

أولاً- هل رأيت توتليبين من زمان؟ هل هو في بطرسبورغ؟ إذا كان هناك هل نقلت إليه تشكراتي؟ قل له، يا صديقي، إنني لا أمتلك الكلمات للتعبير عن امتناني، وسأبقى إلى الأبد شاكراً له، طول عمري، ولن أنسى أبداً ما قام به من أجلي. باللّه عليك، يا صديقي، اكتبْ لي عن ذلك بأسرع ما يمكن. لقد وعدتك برسالة مطولة، لكنني أكتب لك في نصف صفحة. والسبب أنني لا أدري هل ستصلك رسالتي في بطرسبورغ؟ فقد كتبت لي أنك تريد أن تسافر إلى إربيت[1]، ومن يدري ربما ستفكر في الوصول إلى بارناول. وفي هذه الحالة لا أدري هل ستبقى رسالتي حتى عودتك. أم أنهم سيرسلونها لك من بطرسبورغ إلى المكان الذي ستتواجد فيه؟ ولذا أكتب إليك بإيجاز عما يمكن أن أكتب عنه بإسهاب. وثمة سبب آخر تفهمه من الكلمات التالية: «اللّه يعلم كم أريد الكلام معك وجهاً لوجه وليس عبر الرسائل». لو استطعت أن أراك لنقلت لك شيئاً لا أستطيع أن أخبرك به الآن. وأقتصر على ما يلي: سافرت إلى بارناول

وكوزنيتسك مع ديمتشينسكي وعضو الجمعية الجغرافية سيميونوف. وصلنا إلى بارناول في 24 ديسمبر، في عيد ميلاد «خ». ومن خلال سيميونوف دعانا (والدها) هيرنغروس، قبل أن يرانا، لحضور الحفلة الراقصة (بهذه المناسبة). وقد أعجبني كثيراً. ولا أدري لماذا ظهرت لديه فجأة بعض التحفظات عليك. ذكرها لي صراحة. كما أنها هي أيضاً أعجبتني من جميع الجوانب، ولكنها عبثاً ابتعدت عني بشكل ملحوظ. كانت تتحدث معي برقّة ولياقة، وكان كل شيء على ما يرام حسب الظاهر، إلا أنها لم تكن تثق بي على ما يبدو. وحتى لو كانت تخمن أني أعرف قصة غرامكما، فهل يعقل أنها تعتبرني إنساناً خسيساً؟ وأشير إلى أنها حاولت أن تتكلم عنك بأكبر قدر ممكن من البرود، بل وبتهكم خفيف. ولا أدري لماذا أعجبني ذلك، أعني التكتيك وليس التهكم. إنها ذكية جداً. وأنا واثق بأنها فاتنة يمكنها أن تغوي من تشاء. وتمنيت من صميم القلب أن تتناسب خصال فؤادها مع باقي خصالها. إلا أنها خبأته بعيداً عن أنظار المتطفلين. التقيتها في صالة الرقص وتحدثنا ربما أربع مرات. وأنا لم أرقص عمداً، لكي أنتهز الفرصة وأتحدث معها.

أنا لا أكتب لك عن أهالي بارناول. تعرفت على الكثيرين منهم. المدينة مشغولة البال بالوشايات، وفيها الكثير من أمثال تاليران[2] المحليين. أمضيت في بارناول يوماً بليلة، ثم توجهت إلى كوزنيتسك وحدي. وهناك بقيت خمسة أيام. وفي طريق العودة مكثت يوماً آخر في بارناول. تناولت طعام الغداء عند هيرنغروس وبقيت معه حتى المساء. وكانت معاملته لي على أحسن وجه. وقد بدر مني على المائدة تصرف غير لائق. ابنهم الصغير في الثامنة من العمر أعجبني كثيراً، وهو يشبه أمه كل الشبه. قلت لها ذلك، فاعترضت مؤكدة عدم

وجود تشابه بينهما. فأخذت أخوض في تفاصيل هذا الشبه. تصور: أنهم يعتبرون الصبي، كما عرفت فيما بعد، بشعاً تقريباً! فما أغرب تورطي بثنائي عليه.

يا صديقي، يخيل إليَّ أنك كنت صريحاً جداً مع «خ» في بطرسبورغ. وعرضت عليها رسائلي. فهل هذا صحيح؟ على أية حال عندما سافرتُ إلى كوزنيتسك قالت لسيميونوف الذي تواصلتُ معه بأروع صورة إني ذهبت إلى هناك لأتزوج، وإن هناك امرأة أحبها، وإنها عرفت ذلك عن طريقك.

استلمت صورتك النصفية، فشكراً لك، يا صديقي، شكراً. الحقيبة التي أهديتني إياها لم أستلمها. هيرنغروس لم يقل لي شيئاً عنها. ولم يكن مناسباً أن أسأله. لقد نسي بالطبع، ولكن لا فرق، لأن الحقيبة قد تكون عند أوسترميئير. وسأستلمها فيما بعد إذا كانت عنده. كتبك وأحجارك الطبيعية، على الأرجح، عند أوسترميئير في (مدينة) زمييف. في الصناديق الأربعة نفسها التي أرسلت إليه في الصيف. في طريق العودة وصلنا إلى زمييف ليلاً. وما كنت أستطيع زيارة الرجل. ولكن كن على ثقة بأنها ستبقى سليمة وترسل إليك. أنا لا أزال أفكر في السفر إلى زمييف.

والآن، يا صديقي، أريد أن أخبرك بقضية هامة بالنسبة لي. ولا بد أن أكشفها لك باعتبارك صديقي. باختصار ووضوح: سأتزوج قبل عيد المرافع، إذا لم يمنعني سبب واحد[3]. وأنت تعرف من سأتزوج[4]. فلا أحد غير هذه المرأة يمكن أن يبني سعادتي. وهي تحبني لحد الآن. وأنا أنزل عند رغبتها. فقد قالت لي بنفسها: «نعم». وما كتبته لك عنها في الصيف لم يكن له تأثير يذكر عليها. فهي تحبني. أنا أعرف ذلك بكل تأكيد. وكنت أعرف ذلك حتى عندما

كتبت لك رسالتي تلك في الصيف. فسرعان ما فقدتْ ثقتها بغرامها الجديد[5]. وكنت أعرف ذلك من رسائلها في الصيف. كل شيء كان مكشوفاً أمامي. فلم تكن تخفي سراً عليّ. ليتك تعرف حقيقة هذه المرأة!

أكتب لك أنني ربما أتزوج. إلا أن ثمة سبباً يطول الحديث عنه يمكن أن يرجئ زواجنا إلى أجل غير مسمى. وهذا السبب لا علاقة له بالموضوع إطلاقاً. إلا أن كل الدلائل تجعلني أتصور بأنه سينتفي. وإذا انتفى فسوف تستلم الرسالة التالية مني وقد تم كل شيء.

ليس لدي نقود، ولا فلس واحد. وأكثر الحسابات تواضعاً وتقتيراً تفيد بأنني أحتاج إلى 600 روبل فضي لتغطية المطلوب. أنا أنوي اقتراضها من كوفريغين. وهو في أومسك وسيصل قريباً. ففي الآونة الأخيرة قامت بيننا علاقات جيدة جداً. وآمل أنه سيعطيني. وإذا لم يعطني فكل شيء سيتقوض لأجل غير مسمى في أقل تقدير. سأستدين من كوفريغين لفترة بعيدة، لسنة على الأقل. ولكنني سأكتب مع البريد القادم إلى خالي في موسكو، وهو ثري ساعد عائلتنا مراراً، وأطلب منه 600 روبل فضي. فإذا أعطاني المبلغ أسلمه رأساً إلى كوفريغين. وإذا لم يعطني يتعين عليَّ أن أهيئ النقود بنفسي، لأن هذا الدين مقدس ولا بد من تسديده بأسرع ما يمكن.

أنا لا أستطيع الأمل في أخي. فلو كانت لديه نقود لأعطاني إياها. لكنه يكتب أن أموره متردية، حالياً على الأقل. ولذا كل الأمل في تسديد الدين وفي كسب المال لأجل حياتي المرتقبة. هذا إذا سمحوا لي بالنشر: فلا تدهش، يا صديقي، لأنني أقترض مبلغاً ضخماً بـ 600 روبل فضي دون أن أملك شيئاً. إلا أن لدي من أجل النشر ما قيمته 1000 روبل أو يزيد. وبالتالي سيكون لدي ما أسدد

به، إذا سمحوا لي بالنشر وإذا لم يرسل خالي المبلغ المطلوب. ولكنهم إذا لم يسمحوا لي بالنشر عاماً آخر فسأقع في داهية. والموت أفضل حينئذٍ. أنا لم أشهد في حياتي أبداً لحظات حرجة كهذه. ولذا أرجو أن تفهم، يا صديقي الغالي، مدى أهمية أي خبر عن السماح بالنشر. ولهذا السبب أبتهل إليك، كما أبتهل إلى الله، أن تبلغني فوراً إذا استطعت أن تعرف شيئاً عن الموضوع. وقد طلبت منك ذلك في الرسالة السابقة. أنا أستعطفك (مرة أخرى) وإذا كانت باقية في نفسك مشاعرك السابقة تجاهي فستقبل رجائي وتنفذه. فهل أنا على ضلال أم لا ، يا صديقي؟ لماذا لم تنشر قصتي «حكاية الأطفال» التي كتبت لي عنها؟ هل رفضوها؟ من المهم جداً أن أعرف ذلك. بديهي أنني مستعد للنشر مدى الحياة من دون اسم أو باسم مستعار. وإذا أقرضني كوفريغين فسأحاول السفر ما بين 20 و25 يناير وأعود بعد 20 يوماً إلى سيميبالاتينسك مع زوجتي. البعض في بارناول يأملون، ولا أعرف السبب، بأنك ستكون هناك. ألن نلتقي فيها؟

هل ترى أخي؟ بالله عليك التقِ معه وتحدث وإياه في صالحي. أنا لا أطلب منه نقوداً، فهو لا يملكها. لكنني أرجوه أن يبعث لي بعض الحاجيات إذا كان ذلك بمقدوره. فأنا راغب جداً في حيازتها. وقل لأخي أيضاً أن يكتب لي عن كل ما يعرفه عن جميع أسرار كواليس الأدب المعاصر. فهذا مهم جداً بالنسبة لي.

وقبل أن أودعك في هذه الرسالة لدي رجاء بخصوصها أستعطفك أن تنفذه. هل تتذكر أني كتبت لك في الصيف عن فيرغونوف وطلبت منك أن تتوسط له عند هاسفورت؟ الآن هو عندي أعز من أخي وشقيقي. الحديث عن علاقاتي معه يطول. ولكن القضية أن أمله الأخير في بناء مستقبله هو أداء الامتحان في تومسك لكي يحق له

التعيين في وظيفة براتب 1000 روبل ورقي. سيعينونه إذا نجح في الامتحان. لكنه لن ينجح من دون (واسطة) أو تزكية. والمسألة كلها تتوقف على مدير ثانوية تومسك المستشار المدني فيودور سيميونوفيتش ميشيرين. حبذا لو كتب أحد المسؤولين المتنفذين إلى ميشيرين رسالة عن فيرغونوف يذكر فيها ضرورة الالتفات إليه عندما يؤدي الامتحان. وفي هذه الحالة يساعده ميشيرين. وليس عيباً أن نطلب التوسط لفيرغونوف. فهو يستحق ذلك. ولذا أرجوك إذا كان لديك أحد في وظيفة هامة بوزارة التربية والتعليم من أقاربك أو معارفك أن تطلب منه الكتابة إلى ميشيرين عن فيرغونوف. هل تلتقي أبولون مايكوف؟ إنه على معرفة بفيازيمسكي. حبذا لو كتب فيازيمسكي الرسالة. باللّه عليك، حاول أن تفعل شيئاً. فكر في الموضوع وأنت أخي العزيز.

وداعاً يا صديقي الغالي. أعانقك. اكتبْ لي بسرعة وأطلعني على كل شيء، لوجه المسيح، وداعاً.

المخلص د (وستويفسكي)

ملحوظة: لا تخبر «خ» بما كتبته لك عنها. لا تفضحني. من يدري؟ ربما لا يعجبها (ما قلت)...

---

(1) بلدة في الأورال.

(2) وزير الخارجية الفرنسي المخضرم.

(3) لعل المقصود عدم توفر المال اللازم للزواج.

(4) تم عقد قران فيودور دوستويفسكي وماريا عيسايفا في 6 فبراير 1857.

(5) المقصود فيرغونوف

56. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 22 ديسمبر 1856

مرحباً، صديقي الطيب. ما أطول الفترة التي أنتظر فيها الرسالة الموعودة التي قلت إنك ستبعثها إليّ مع أول بريد في أعقاب رسالتك المؤرخة في 15 أكتوبر. لا أدري ما الذي أخّرك. أقسم لك، يا أخي العزيز، أنني لا أستطيع أن أتقبل أعذارك التي تتحجج بها لتوضيح طول الفترة بين رسالة وأخرى. فمهما كان الشخص مشغولاً إنما يجد دوماً 5 دقائق لكتابة بضعة سطور لشقيقه. لكنني أفهم أن أهلنا في موسكو أخبروك بأنهم أرسلوا لي نقوداً من هناك. وأنت في رسالتك المذكورة أعلاه وعدتني بإرسال بعض النقود مع البريد التالي. ويبدو أنك فكرت: «استلم نقوداً، فهو بالتالي ليس في حاجة، ولا موجب لكتابة رسالة». طيب. ولكنْ ألم أقل لك، يا صديقي، ألم أكتب أن ما أريده منك ليس النقود، بل ذكرى الأخوة والاهتمام الأخوي. كتبت لي أن أحوالك متدهورة، وأنك لا تملك مالاً. هل يعقل أنني لا أستطيع أن أتفهم بأنك شخص معيل ومثقل بالالتزامات، ويمكن أن لا تتوفر عندك نقود لأجلي؟ وبأي حق ألومك على عدم إرسال

النقود في حين أنك الوحيد الذي ساعدني وأسندني حتى الآن؟ أفلا أعرف ولا أفهم عبء همومك من خلال رسائلك؟ ولذا افهم أنني أقرّعك ليس لأنك وعدتني بإرسال النقود ولم ترسلها، فأنا أعرف أنها غير موجودة طالما لم ترسلها، كما أنني لا أشك في طيبة قلبك. ولكن اعلمْ، يا صديقي، بأنه يؤلمني ويحز في نفسي أنك، على ما يبدو، لا ترى ضرورة لأية علاقات معي ما عدا إرسال النقود. ولعلك تقول إنه ليس لديك ما يستحق أن تكتب لي عنه. حكّم عقلك من دون تحيز. في الرسالة السابقة كتبت لي أن أحوالك متدهورة. ووعدت بأنك ستبعث لي رسالة أخرى في القريب العاجل، وفجأة صمت مطبق، ولا سطر واحداً. فأي استنتاج ينبغي أن أخرج به؟ أمورك تدهورت وساءت أكثر حتى أثرت على مراسلاتنا، وأنك ربما مرضت أو في وضع محرج للغاية. وإذا كان الأمر كذلك فهل يعقل أنك تظن أني لا أبالي بذلك أبداً؟ كلا، أنا تعذبت من القلق عليك، وأخذت أضرب أخماساً في أسداس بشأن أحوالك، وكان من الصعب عليَّ أن أسمع بأنك تواجه الإخفاق، فصرت أتشوق إلى الحصول على خبر مهما كان عنك. إنك عندما تفترض بأني لاأبالي إنما تهينني. اقطع حبل الصمت أخيراً، يا صديقي، وأجبني واكتب، أجبني سريعاً على هذه الرسالة بخاصة. وسترى بنفسك أن هذه الرسالة مهمة، بالنسبة لي على الأقل.

ولعلك رأيت من رسائلي السابقة خلال العامين الأخيرين ومن تلميحاتي المتكررة أنني أحب امرأة اسمها ماريا دميتريفنا عيسايفا. كانت زوجة لأعز أصدقائي الذي أحببته كأخ لي لم تلده أمي. وبالطبع كان حبي لها خفياً وميئوساً منه. كان زوجها عاطلاً بلا وظيفة، إلى أن عيّنوه أخيراً، وبعد انتظار طويل، في مدينة كوزنيتسك التابعة لمحافظة

تومسك. وعندما ارتحل إلى هناك توفي بعد شهرين. واستولى عليَّ اليأس والقنوط حينما فارقتها. فتصور كم ازداد يأسي عندما علمت بوفاة زوجها. لقد بقيت وحيدة مع طفلها في أطراف سيبيريا بلا رعاية ولا عون. فقدتُ رشدي، فاقترضت نقوداً أرسلتها إليها. وكنت سعيداً جداً لأنها قبلت تلك النقود مني. ولم أكن أفكر كيف كبلتُ نفسي بالديون. وأخيراً تراسلت مع أهلها، مع والدها في آستراخان. ومن ذلك الحين دأب على مساعدتها. فعاشت على أية حال. ودعاها والدها إليهم، وكانت تريد أن ترتحل لولا أنها فكرت أولاً في تنسيب ابنها إلى سلك الكاديت السيبيري. أما في آستراخان فما كان بالإمكان توفير التعليم له، لأن ذلك يكلف مالاً. وكانت تخشى أن تثقل على والدها وتخشى ملامة أخواتها، حيث ستكون عالة عليهن. بينما يوفر سلك الكاديت السيبيري تربية ممتازة، والخريجون ملزمون بالخدمة في سيبيريا ثلاث سنوات لا غير. واستطالت المراسلات بيننا. كنت واثقاً بأنها، على الأقل، فهمت أنني أحبها. ولكنني كنت جندياً عادياً ولا أستطيع أن أطلب يدها. فبأي مال كنا سنعيش والحال هذه؟ وكيف تشاطرني مصيراً كهذا؟ أما الآن وبعد ترقيتي مباشرة سألتها: هل ترغب في الزواج مني؟ وأوضحتُ لها ظروفي بصراحة. فوافقت وأجابت: «نعم». ولذا سيعقد قراننا من كل بد. هناك سبب واحد يمكن أن يفسده، أو يرجئه على الأقل إلى أجل غير مسمى. إلا أن هذا السبب سينتفي في احتمال 90 بالمئة، على الرغم من ضرورة التحوط لكل الاحتمالات. لن أكتب لك عن هذا السبب، لأن الحديث عنه يستغرق وقتاً. وستعرف كل شيء فيما بعد. أستطيع أن أقول الآن إنني سأتزوجها بالتأكيد تقريباً. وإذا كنت سأتزوج فالزفاف سيتم قبل منتصف فبراير. أي قبل عيد المرافع. هكذا قررنا إذا وفقنا

في تدبير الأمور. ولذا، يا صديقي الغالي، يا أخي الحبيب، أرجوك وأستعطفك أن لا تكتئب من أجلي، ولا تشك فيّ، والمهم أن لا تحاول إقناعي بالعدول عما نويت عليه. فستكون تلك المحاولة متأخرة. قراري لا رجعة فيه. ثم إن جوابك ربما يصل بعد فوات الأوان. إنني أعرف مغزى كل اعتراضاتك وتصوراتك ونصائحك. كلها رائعة، وأنا واثق بطيبة قلبك وحبك. إلا أن كل نصائحك لن تجدي نفعاً رغم منطقها السليم. أنا واثق بأنك ستقول: البدن في الـ 36 عاماً يتوق إلى الهدوء، ويصعب أن تفرض عليه عبئاً ثقيلاً. لن أجيبك بشيء على ذلك. وستقول: «بأي مال سأعيش؟». سؤال معقول. لأن من المخجل طبعاً، بل ولا يجوز للمتزوج أن يعوّل، مثلاً، على مساعدتك في إعالتي مع زوجتي. ولكن، اعلم يا صديقي الغالي، أنني بحاجة إلى القليل، القليل جداً، لأعيش مع زوجتي. أنا لا أكتب لك عن ماريا دميتريفنا. إنها امرأة لن تجد مثلها بين 1000 من النساء من حيث الطباع والذكاء وطيبة القلب. وهي تعرف أن ما أستطيع أن أقدمه لها قليل، لكنها تعرف أيضاً أننا لن نعيش في فقر أبداً. وتعرف أنني إنسان نزيه وسأبني سعادتها. أنا بحاجة إلى 600 روبل فقط في العام. وللحصول على هذا المبلغ سنوياً آمل في شيء واحد، آمل في مرحمة القيصر، مرحمة الكائن المحبوب الذي يحكمنا. أنا آمل في السماح لي بالنشر. وأنا أداري في دخيلة نفسي الثقة بأن أملي ليس وهمياً باطلاً. وآمل أن قيصرنا الحكيم ذا القلب الملائكي الكبير سيلتفت إليّ أنا أيضاً ويسمح لي بأن أكون نافعاً على قدر الإمكان. وأنا واثق بطاقاتي فيما إذا استلمت السماح. يا أخي الغالي، لا تعتبر قولي تباهياً من جانبي، ولكن (. . .) كن واثقاً أن اسمي في الأدب لن يضيع. فخلال 7 سنوات جمعت مادة وفيرة،

وقد صفت أفكاري واتضحت، والآن حيث يساهم كل فرد بقسطه في الصالح العام لن يرفضوا أن أكون أنا أيضاً نافعاً (للمجتمع). أنا أثق وآمل في قرار القيصر بكل تبجيل. وإذا سمحوا لي بالنشر فأنا واثق بأنني سأكسب 600 روبل في العام. ولا يزال الوقت مبكراً للتفكير في إنجاب الأطفال. وإذا ولدوا فسيتربون (كما ينبغي). كن واثقاً. وقد تقول إن الهموم الطفيفة ربما ستثقل عليّ. فهل أنا دنيء حتى أتخلى عن سعادة العيش مع زوجة هي أعز ما عندي في الدنيا، وأرفض الأمل في بناء سعادتها، وأتجاهل مصائبها وآلامها وهمومها وعجزها، وأتركها وأنساها، لمجرد أن أعيش في بطرٍ وكسلٍ من دون هموم، ولأن بعض المشاغل قد تشوش على وجودي الثمين في وقت ما؟ فلننتهِ من التبريرات. اعترفْ بالواقع واسكت عليه، يا صديقي. فلا رجعة فيه إن شاء اللّه، وأكثر الحجج عقلانية (بهذا الخصوص لن يكون لها معنى...). يا صديقي الغالي وأخي الحبيب، لا تعترض علي، بل ساعدني، وستكون أكثر معزة عندي كصديق وشقيق مما في أي وقت مضى. ولذا أرى من الضروري إبلاغك بالتدابير التي أنوي اتخاذها لأبلغ هدفي، وإطلاعك على بعض ملابسات القضية. ليس عندي ولا فلس واحد. بينما تحتل النقود المرتبة الأولى في هذه المسألة. ولذلك قررت أن أقترض. أنا أعرف هنا شخصاً ثرياً وطيباً يميل إليّ. وسأستدين منه. أنا بحاجة إلى مبلغ غير قليل. فلا بد من بعض الاستعدادات واستئجار شقة من ثلاث غرف على الأقل وشراء الأثاث الأكثر ضرورة. ولا بد لي من ثياب، كما ينبغي مساعدتها هي أيضاً. لا بد من 100 حاجة من الضروريات، لكنها تكلف مالاً. ولا بد من إرسال عربة مسقوفة لجلبها، تجرها ثلاثة أحصنة لمسافة 1500 كيلومتر ذهاباً وإياباً. (...) ولا بد من دفع تكاليف الزفاف. أنا

نفسي لم أستطع حتى الآن أن أستكمل مستلزمات بزة الضباط. راتبي يكفي للمعيشة. ولكن شراء كل ما هو مطلوب دفعة واحدة أمر صعب. استلمت 200 روبل أنفقت بعضها على تسديد الديون، والبعض الآخر على شراء البياضات اللازمة، لأن أختي أرسلت لي قمصاناً فقط، وعلى الكثير من الحاجيات البسيطة الضرورية جداً، والمكلفة أيضاً. وأخيراً ما دمتُ ضابطاً ميدانياً فلا بد أن تكون عندي الآن، وفي الحال، بزتان في أقل تقدير، إحداهما للخدمة والتدريبات والخفارة، والأخرى للاستعراضات. وأنا بحاجة إلى معطف عسكري ومستلزمات أخرى للضباط كالخوذة والسيف والإشارب وإنشوط مقبض السيف وهلمجرا. وأنا بحاجة إلى جزمة. كل ذلك مكلف، ولم تكن الـ 200 روبل كافية لتلك الحاجيات وللمصروفات النثرية الضرورية الأخرى.

وأخيراً لا بد من النقود لكي نعيش بعد الزواج إلى أن تتضح آخر مسألة في مصيري، ألا وهي إمكانية النشر. ولذا أنوي أن أقترض 600 روبل فضي. وهذا المبلغ قد يكفي. أنا أستطيع أن أقترض هذا المبلغ (الكبير) لأن لدي مخطوطات جاهزة للطبع بـ 1000 روبل فضي أو يزيد. أنا لا أخادع عندما أقترض، لا سيما وأني أقترض لمدة طويلة، وأوضح ظروفي بصراحة لهذا الشخص دون أن أخفي عليه شيئاً. مع البريد الحالي سأكتب لأختي بربارة وأبلغها بكل شيء على قدر الإمكان. وسأخبرها في الرسالة بأنني سأكتب إلى خالي مع البريد القادم. وسأطلب منه 600 روبل فضي. كن واثقاً بأن رسالتي إلى خالي ستكون عقلانية تماماً. وسأطلب من بربارة أن لا تدهش ولا تتأوه، ولا تنصحني بالعدول عما نويت عليه، بل تقنع زوجة خالي أن تسلمه رسالتي في وقت مناسب، عندما تأتي بربارة إليه. أنا لن أخفي

شيئاً عن خالي. وإذا أعطاني أسدد الدين هنا في الحال. وإذا لم يعطني، لا يبقى لي سوى الأمل في إمكانياتي الخاصة وفي الخالق وملاكه قيصرنا. أما أنت، يا ميشا الطيب، فأرجوك حالما تفرغ من قراءة هذه الرسالة أن تكتب إلى أختنا في موسكو وتنصحها بأن تسلم مع زوجة خالي رسالتي إليه بكل تأكيد. لأنهما يمكن أن لا يسلما الرسالة خوفاً منه. وسأكتب لخالي بالبريد أيضاً، بالبريد التالي. باللّه عليك يا أخي قم بذلك من أجلي. والآن أعرض عليك طلباً آخر، لك شخصياً. يا أخي وملاكي، ساعدني لآخر مرة. أنا أعرف أنه ليس لديك نقود. ولكنني بحاجة إلى بعض الأشياء من أجلها تحديداً. أريد أن أهديها لها. شراؤها هنا غير ممكن. سعرها مضاعف. لو كانت عندي نقود لبعثتها إليك، لكنها ليست متوفرة لدي. ولذا أرجوك لا ترفض معونتي للمرة الأخيرة. كما أرجوك، لوجه المسيح، أن لا تعذب نفسك ولا تبعث شيئاً إذا كان الأمر صعباً عليك. بمعنى أنك لا تملك نقوداً. وأنا واثق برغبتك في إقراضي. لا تبعث وسأفهمك. فأنا أخوك، وقد كان لدي الكثير من الدلائل على تعلقك بي لدرجة لا تسمح لي بالشك فيك.

إليك الحاجيات التي أرغب في اقتنائها. وهي ضرورية تقريباً.

1) قبعة (نسائية) لمناسبة عيد الفصح. عندنا لا توجد قبعات أصلاً. وبالطبع ربيعية.

2) قطعة قماش لفستان من الحرير غير الصقيل بلون شائع. وهي شقراء، بقامة أطول من المتوسط، وخصر رائع، تشبه (زوجتك) إميليا من حيث القوام، على ما أتذكر.

طرحة مخملية أو غيرها حسب ذوقك.

نصف دزينة من المناديل النسائية الهولندية الخفيفة.

قلنسوتان خفيفتان مؤطرتان بشريط، أزرق إنْ أمكن، جيدتان ورخيصتان في الوقت ذاته.

خمار صوفي مخرم، إذا كان رخيصاً.

ملاحظة: إذا رأيت أن هذه الطلبات قسرية، وإذا أردت أن تضحك وأنت تقرأ هذه القائمة لأنني أطلب حاجيات تكاد قيمتها تبلغ 100 روبل فضي فاضحك وارفض. وإذا فهمت رغبتي في تقديم هذه الهدية لها وكوني لم أتحمل فكتبت إليك عنها فلن تضحك عليّ، بل تسامحني. على كل حال، وداعاً. أقبّلك من صميم القلب. تمنَّ لي السعادة يا صديقي الطيب. أعانقك، وتحياتي إلى إميليا، وقبّل الأطفال، ولوجه المسيح أجب على هذه الرسالة فوراً.

أخوك ف. دوستويفسكي

أهنئك بحلول العام الجديد متمنياً لك المزيد من التوفيق.

57. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 9 مارس 1857

منذ أسبوعين، يا صديقي العزيز الغالي، عدت مع زوجتي من كوزنيتسك، ولم أجد إلا الآن وقتاً للكتابة إليك. يا عزيزي ويا حبيبي، باللّه عليك لا تزعل مني لأني لم أكتب لك مع أول بريد حالما وصلنا. فأنت دوماً في ذهني وفي فؤادي. أنا أحبك بكل قابلية الإنسان على الحب. وأنت لمعرفتك بالحياة ستصدقني طبعاً عندما أقول إن نظام الأشياء الجديد ولّد لي مشاغل وهموماً لا أدري كيف يتحملها دماغي دون أن ينفجر. إلا أنه تيسر لي مع ذلك أن أكتب إلى خالي، وإلى أختي فوراً وبناءً على طلبها. خالي ساعدني، فلم أعد في حاجة حالياً. وفيما عدا ذلك أعقد آمالي على المشيئة الإلهية. لكنني لن أتهاون، بل سأعمل بحماس أشد. إلا أنك، على الأرجح، ستطالبني بشرح أكثر تفصيلاً عن سير أموري الموفق. لن أدخل في تفاصيل كثيرة، وأكتفي عموماً بالقول إن كل شيء انتهى على ما يرام. صاحبي الطيب الذي عقدت عليه آمالي في انتظار وصول النجدة من خالي ساعدني وأعطاني 600 روبل فضي لمدة عام أو حتى أكثر.



زوجة دوستويفسكي (ماريا عيسايفا)

وأقول لك، على العموم، يا صديقي، إن هذا الشخص لم يكن الوحيد الذي ساعدني، فالكثيرون غيره شاطروني متاعبي بإخلاص. شخصان آخران، على سبيل المثال، أصرا على أن آخذ منهما نقوداً من دون تحديد أي مدة زمنية. وأرادا أن يتخاصما معي إنْ أنا رفضت مساعدتهما الأخوية. واضطررت إلى استدانة 200 روبل فضي، فضلاً عن الـ 600. وبعد العودة إلى سيميبالاتينسك أنفقت كل الـ 800 روبل تقريباً، حيث صرفت 700 روبل بالتمام والكمال في نهاية الأمر. ولربما ستدهش، يا أخي، على ماذا صرفتُ هذا المبلغ الكبير. أنا نفسي ما كنت أتوقع أن أصرف بهذا القدر. ولم تكن هناك أية إمكانية للتقتير. احتياجات الطريق، وطقم الثياب لي ولها، فلم يكن لديها الكثير من الضرورزيات، الثياب اللازمة متواضعة، بل ويمكن القول بائسة. والرحلة لمسافة 1500 كيلومتر في العربة المسقوفة، فإن صحتها المتدهورة والصقيع ومطبات الطرق لا تحتمل عربة مكشوفة،

هذه الرحلة كلفتني مبلغاً كبيراً كأجر مقابل أربعة جياد، ثم الزفاف في كوزنيتسك رغم تواضعه المطلق، واستئجار الشقة وفرشها بأثاث ما، وتوفير الأواني في المطبخ - كل ذلك كلف نفقات يصعب فهم مقاديرها. وأنا لا أعرف أحدا تقريباً في كوزنيتسك. إلا أنها عرّفتني على أفضل الناس ممن كانوا يحترمونها. وكان القائم مقام والدي (أثناء الزفاف) هو مدير الشرطة المحلي مع زوجته. كما أن الإشبينَين الأول والثاني رجلان بسيطان طيبان، وإذا أضفنا إلى هؤلاء القسيس وعائلتين من المعارف يكون ذلك هو مجموع ضيوف حفلة الزفاف. وفي طريق العودة توقفت في بارناول عند أحد معارفي الطيبين. وهنا حدثت المصيبة. فقد داهمني الصرع بصورة مفاجئة تماماً. ارتعبت زوجتي إلى أقصى حد، واستولت عليّ الكآبة والأحزان. وقال لي الطبيب، وهو عالم ممارس، خلافاً لباقي الأطباء السابقين، إنني مصاب بصرع حقيقي، وإنني قد أموت في إحدى هذه النوبات مختنقاً بتشنج الحنجرة. وكنت طلبت بنفسي من الطبيب الصراحة المفصلة مشيراً إلى نزاهته كإنسان. وقد نصحني عموماً أن أحذر أوقات استدارة البدر. الاستدارة تقترب، وأنا أتوقع نوبة من الصرع.[1] وعليك أن تفهم الآن، يا صديقي، أية أفكار يائسة تجول في دماغي. وما فائدة الكلام عن ذلك؟ ثم ربما من غير الصحيح أنني مصاب بالصرع الحقيقي. فعندما تزوجت كنت أثق تماماً بالأطباء الذين أكدوا أن تلك مجرد نوبات عصبية يمكن أن تزول مع تغير نمط الحياة. ولو كنت أعلم علم اليقين بأني مصاب بالصرع الحقيقي لما تزوجت. ومن أجل استقراري وتهدئة أعصابي واستشارة الأطباء الحقيقيين واتخاذ التدابير اللازمة يجب أن أستقيل بأسرع ما يمكن وأرحل إلى روسيا. ولكن كيف أقوم بذلك؟ الأمل الوحيد هو احتمال السماح لي بالنشر،

فأحصل على نقود وأرتحل عندئذٍ. وإلى ذلك يخيفني أن تحدث نوبة الصرع أثناء الخدمة. فأثناء الخفارة، مثلاً، وأنا مشدود في البزة الضيقة، سأختنق حتماً، كما يقول الذين شاهدوا نوبات الصرع. فماذا سيحصل لصدري وجهازي التنفسي؟ اللّه رحيم، لكنني أكرر لك للمرة العاشرة: هل تفهم مدى أهمية إمكانية النشر بالنسبة لي؟ جئت بزوجتي إلى سيميبالاتينسك مريضة. ومع أنني أعددت كل شيء عندما ارتحلنا، إلا أن نصف ما كان ضرورياً لم ينجز بسبب قلة خبرتي، فواجهنا أسبوعين من المشاغل والإشكالات المتواصلة. في هذه المرة وصل آمر اللواء لتفتيش الاستعراض والخدمة، باختصار، لقد انشغلت كثيراً، فاعذرني لأنني لم أكتب لك فور وصولنا. زوجتي تتعافى الآن. وهي ترجوك أن تسامحها لأنها لا تكتب إليك حالياً. ستكتب لك في القريب العاجل. وتؤكد لي أنها لم تكن مستعدة. إنها تحبكم جميعاً حباً جماً. وقد كانت تحبكم جميعاً في السابق أيضاً، عندما كنت أنا في عام 54 أقرأ عليها كل رسالة تصل منكم، وهي تعرف عنكم كل التفاصيل. وبناء على أحاديثي تكنّ لك أعمق الاحترام وكل مرة تدعوني إلى الاقتداء بك. إنها امرأة رقيقة طيبة القلب، وهي متسرعة بعض الشيء وشديدة التأثر، فالحياة السابقة تركت في نفسها آثاراً أليمة. التحولات في مشاعرها سريعة للغاية، لكنها لا تتخلى عن طيبتها ونبلها لحظة. أنا أحبها، وهي تحبني، والأمور لحد الآن تسير على ما يرام. عندما استلمت النقود من خالي، وأنا شاكر له من صميم القلب، سددت قسماً من الدين، ولدي الآن في صيوان الثياب 250 روبلاً فضياً. فلا بد أن نعيش على الأقل إلى أن أستلم السماح بالنشر، ولذا أنا مسرور لأن لدي شيئاً من المال لهذه الفترة في أقل تقدير. وأنا أصدق المستقبل كالأعمى. ولا أريد من اللّه سوى

الصحة. والمدهش أنني خرجت من المصيبة العسيرة ومن التجربة بقدرة غير معتادة وثقة بالنفس. ربما في ذلك ضرر. فيا ليت اللّه يمنحني التعقل والتفكير السليم كيلا أبالغ في الاعتداد بالنفس. ولكن لا تقلق ولا تحزن بشأني. كل شيء سيكون على مايرام. إلا أنني أحن إليك كثيراً، يا صديقي العزيز الغالي وأخي الطيب الشهم. استلمت رسالتك، وأشكرك على الطرود، لم تصلني بعد، ولكن، يا صديقي، كان صعباً عليَّ أن أقرأ عن إشكالات وضعك، كونك أنفقت علينا الكثير.[2]

أشكرك ألف مرة، وزوجتي تعوزها الكلمات للتعبير عن امتنانها لك. ولكن يا ملاكي أمورك لم تستقم حتى الآن. وهذا ما يخيفني جداً. أنت تعقد الآمال على السيجار، ماذا لو أنها لم تحصل على رواج؟ وهذا أمر قد يكون متوقعاً. وبسهولة. يخيل إليَّ أن الشيء غير المريح هو ارتفاع أسعار سيجارك. إلا أنني لا أفقه في هذه الأمور. فليكن اللّه في عونك، وليوفقك. تجاوز هذه الأزمة، وأرجوك، لوجه المسيح، لا تجازف مرة أخرى. لا تطمع في الكثير، فالقليل أمتن وأقوى. وكيف حال شقيقتنا ساشا؟[3] لماذا تجعلنا جميعاً نشعر بالخجل؟ لحد احتقان الوجنتين. الجميع في أسرتنا بأخلاق نبيلة سمحاء. فما الذي يجعلها فظة غليظة لهذا الحد؟ أنا من زمان أدهش لأنها، وهي الأخت الصغرى، لا تريد أن تكتب لي ولا سطراً واحداً. هل يكمن السبب في كونها عقيداً عسكرياً؟ تلك حماقة ومدعاة للضحك. اكتبْ لي عنها بتفصيل أكثر، باللّه عليك. يؤسفني أنني مستعجل، وإلا لكتبت لك أكثر وبكل التفاصيل. والآن أطرح عليك سؤالاً. كنتُ، يا عزيزي، قد سألتك عن مصير «حكاية الأطفال». قل لي بصراحة، أرجوك، هل يريدون حقاً نشرها؟ إذا

كانوا يريدون هل حاولوا أم لا؟ وإذا لم يكونوا قد حاولوا فما السبب تحديداً؟ اكتبْ عن ذلك تفصيلاً، باللّه عليك. وسيكون طلبي هذا رداً على افتراضك بأنهم لم يمنعوا النشر عليّ. ألا توافقني بأن مصير «حكاية الأطفال» يتسم بأهمية بالنسبة لي من عدة وجوه؟ يا صديقي، كم أنا متألم (للكاتب) بوتكوف المسكين. كيف يموت هذه الميتة؟ كيف حصل وفاتكم أنه توفي (منسياً) في المستشفى؟ ما أشد حزني عليه. وداعاً، يا ملاكي. بلّغ تحياتي لكل من يتذكرني. أنا أتذكر الجميع، ومن كنت أحبه لا أزال أحبه كالسابق. أنا مذنب بحق فيرا وزوجها، لم أكتب لهما من زمان. سأكتب قريباً للجميع. قبّل الأطفال، وذكّر إميليا بي خصوصاً. فليمنحها اللّه كل السعادة!

زوجتي لم تكتب لك سطراً في رسالتي. وعندما طلبت منها ذلك أجابتني بأنها ستكتب لك رسالة خصيصاً، وكذلك لبربارة. لكنها طلبت أن أبلغك وإميليا خالص تحياتها وتمنياتها بكل خير. وأنا شاهد على أن ذلك من صميم القلب. وداعاً.

أخوك ف. دوست (ويفسكي)

---

(1) يشير دوستويفسكي في «دفاتر اليوميات» إلى أن نوبات الصرع عنده غالباً ما تتوافق مع بزوغ الهلال واكتمال القمر.

(2) ميخائيل بعث هدايا إلى عيسايفا بناءً على طلب أخيه.

(3) تصغير ألكساندرا للتحبيب.

58. إلى يفغيني ياكوشكين

سيميبالاتينسك، 1 يونيو 1857

حضرة السيد الكريم يفغيني إيفانوفيتش!

نقل لي ألكسندر بافلوفيتش[1] كل ما كلفته بأن ينقله لي. ولا أدري كيف وبماذا استحققت ميلك إليّ، وبماذا يمكنني أن أرد الجميل في وقت ما. بودّي أن أراك وأتشرف بمعرفتك عن قرب. وبهدف الإيجاز لن أكتب لك شيئاً عني وعن ظروفي وأمنياتي. فسيتفضل ألكسندر بافلوفيتش وينقل إليك كل ما أطمح إلى تحقيقه في وقت غير بعيد، وكذلك أملي في التواجد في موسكو. إلا أننا ندخل الآن مباشرة في صلب الموضوع الذي يهمني أكثر من أي شيء آخر تقريباً، وتكمن فيه كل آمالي المستقبلية في الحياة، وأعني دخول محراب الأدب من جديد.

ألكسندر بافلوفيتش بعث لي باسمك 100 روبل فضي. خبرني، يا يفغيني إيفانوفيتش الطيب، بأسرع ما تتمكن: ما هذه الـ 100 روبل ومن أين هي ولأي غرض؟ الأرجح أنها نقودك، أي أنك ترسلها لي، مدفوعاً بشعور المشاطرة الأخوية، على أمل أن تحفزني لممارسة

النشاط الأدبي، وذلك رغبة منك في مساعدتي بضعفين. كتب لي ألكسندر بافلوفيتش أنك ستسعى لطبع مؤلفاتي وتأمل في بيعها والحصول على عائدات كبيرة من أجلي. بالطبع سأكون أذناً صاغية لندائك، ولكنني لا أعرف كيف أشكرك على اهتمامك بي. لحد الآن كنت أمتنع عن الطباعة رغم رغبتي فيها. فقد كان يخيل إليَّ طول الوقت أنه لا يحق لي (أن أنشر). إلا أن مخاوفي، على ما أعتقد، لا أساس لها من الصحة. الكثيرون استعجلوني في الطباعة والنشر. وكنت من زمان قررت أن أبدأ، لكنني ما كنت أعرف كيف أدبر الأمور. أولاً- لم أكن أعرف لمن أبعث (المخطوطات). فهيئات تحرير المجلات بمعظمها غير معروفة لدي. وكنت، ولا أزال، أريد النشر حتماً ليس باسمي. وفي الآونة الأخيرة فكرت في «البشير الروسي». وقد أبلغني صديقي بليشييف، وهو الآن في أورينبورغ، أنه كتب بشأني إلى كاتكوف. ولذا حبذا لو بدأت من «البشير الروسي». والمشكلة ماذا أعرض على «البشير»؟ أقول لك بلا تردد ولا مواربة إنني قررت من زمان من أين أبدأ. ولن أبدأ من غير ما قررت، رغم وجود عروض أخرى. كما أنني لن أبدأ النشر إلا برواية أو قصة طويلة.

في الآونة الأخيرة، أي قبل عام ونصف عكفت على كتابة رواية، إلا أنها من سوء الحظ كبيرة جداً. أقول من سوء الحظ، بمعنى هل سترغب «البشير» في نشر رواية بحجم روايات ديكنز؟ هذا هو الأهم. وثانياً- ما أريد أن أعرفه هل أنك تقصد ناشرين بعينهم أم تقصد مجلة ترغب في نشر نتاجي فيها؟ وثالثاً- أين الوسيلة الأفضل والأنفع للنشر، بمعنى أي مجلة في الحال الحاضر يمكن تفضيلها من هذه الناحية؟ أوضح لك ما أكتبه الآن تحديداً، ولكن من دون عرض

المضمون طبعاً. أكتب رواية مطولة عن مغامرات أحد الأشخاص. وهي مغامرات متكاملة مترابطة، إلا أنها تتكون من مشاهد مستقلة مكتملة ومنفصلة بعضها عن بعض تماماً. كل مشهد يشكل جزءاً من الرواية. ولذا أستطيع تماماً أن أنشرها، مثلاً، بشكل مشاهد على حدة. ويمثل المشهد الواحد مغامرة مستقلة أو قصة منفردة. بديهي أن بودّي أن أنشر كل المشاهد بالتسلسل. وأذكر لك أيضاً أن الرواية تتكون من 3 كتب في كل منها قرابة 20 ملزمة (320 صفحة) ومن عدة أجزاء. فرغت من تأليف الكتاب الأول بخمسة أجزاء. أما الكتابان المتبقيان فسأنجزهما ليس الآن، وإنما في وقت آخر. ذلك، أولاً، لأنهما استمرار لمغامرات الشخص نفسه، ولكن بشكل آخر وطباع أخرى بعد مضي عدة سنوات. أما الكتاب الأول فهو بحد ذاته رواية منفصلة ناجزة تماماً بخمسة أجزاء. فرغت من كتابتها عموماً وبقي التنقيح فقط. ولذا سأنقحها بالتعاقب جزءاً جزءاً وأسلمها لك بالطريقة نفسها. حالما أستلم جوابك أرسل لك الجزء الأول من الكتاب الأول، وهو يمثل قصة طويلة مكتملة ومستقلة تماماً.[2] وأرجوك كل الرجاء أن ترد على تساؤلاتي المذكورة أعلاه. تكلم مع رؤساء التحرير، إذا كانت لك معرفة بهم، واعرض عليهم (الكتاب). فماذا سيقولون وكم يدفعون على الملزمة؟ وما عدا هذه الرواية أنا لا أقوم الآن بأي عمل أدبي، ذلك لأني معجب بها كثيراً.

لا مؤاخذة، يا يفغيني إيفانوفيتش على هذه التفاصيل، لكنني راغب تماماً في الاستفادة من اقتراحك الوجيه. أشكرك على كل شيء مجدداً، وأشد على يدك. إنك تأخذ بيدي إلى الطريق القويم وتساعدني في أهم عمل بالنسبة لي. وداعاً، وأملي كله في اللقاء!

المخلص ف. دوستويفسكي

(1) ألكسندر بافلوفيتش إيفانوف، صهر دوستويفسكي، كان موظفاً عند ياكوشكين.

(2) دوستويفسكي لم ينجز هذا المشروع.. يبدو أنه صرف النظر عنه بعد الجزء الأول من الكتاب الأول الذي شكل فيما بعد، على الأرجح، مضمون قصته «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها».



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

59. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 3 نوفمبر 1857

صديقي وأخي الحبيب. استلمت رسالتك الموجزة التي أبلغتني فيها بسفرتك إلى الخارج، أو على الأصح قفزتك إلى أوروبا، ولم أردّ عليك رأساً في انتظار وصول السيجار التي وعدتني بها مع البريد التالي حتى أجيبك على الرسالتين دفعة واحدة. ولكني لم أستلم لا السيجار ولا الرسالة، ولذا أكتب لك دون أن أنتظر، وذلك، أولاً، لأتحدث إليك بأسرع ما يمكن، وثانياً، لأعرض عليك بعضاً من ملابسات حياتي الحالية. في البداية: عن حياتي الشخصية. نعيش بين بين، لا في فقر ولا في غنى. أنا أواصل الخدمة مع أني سأطلب الاستقالة في القريب العاجل، لأنني أعتبر إهمال مرضي من دون علاج خطيئة. ثم إن ضميري يقول لي: هل هذه خدمة؟ إذا كنت أشعر وأدرك أنني لمرضي لا أكاد أستطيع أداء أبسط الواجبات؟ الأفضل الابتعاد وفسح المجال لشخص آخر. وأنا في حال الاستقالة والمرض سأجد السبيل لأكون مفيداً من خلال النشاط الأدبي. فكل وضع شاذ وغير طبيعي يثأر لنفسه في آخر المطاف. وأكرر أن العيش بإصرار في

سيميبالاتينسك وإهمال المرض حتى يتفاقم ويشتدّ إثمٌ وخطيئة في اعتقادي.

أنا أعقد الآمال على المرحمة السامية من قيصرنا الرائع الذي منحني الكثير. إنه سيرعاني أنا المريض التعيس، وربما يسمح لي بالعودة إلى موسكو لاستشارة الأطباء وعلاج مرضي. ثم أين أستطيع أن أكسب قوت يومي إنْ لم يكن في موسكو التي فيها الآن الكثير من المجلات حيث سيقبلونني موظفاً بالتأكيد. هل تفهم، يا أخي، معنى التواصل والمحادثة عن الشؤون الأدبية على الأقل، والكتابة الغيابية دون توفر حتى الكتب والمجلات الضرورية؟ بودّي أن أبدأ في ركن «رسائل من الأرياف» بنشر عدة دراسات عن الأدب المعاصر. ولدي الكثير من المواد المختمرة والمكتوبة بهذا الخصوص. أنا أعرف أنني سأجلب الأنظار بذلك. وماذا بعد؟ بسبب قلة المجلات في السنوات العشر الأخيرة توقفت. بهذه الصورة يهلك كل شيء: أفكاري الأدبية ومنزلتي في مضمار الأدب.

كتبت لي، يا صديقي، عن روايتي وتطلب مني أن أرسلها إليك مباشرة، فماذا أجيبك على ذلك؟ تلقيت من زمان دعوة من «البشير الروسي» التي هي بلا جدال المجلة الأولى في روسيا حالياً. وقد بدأت بالمراسلة مع موسكو من خلال معارفي الرائعين، من خلال بليشييف الذي هو الآن في أورينبورغ ويعمل من عام لمجلة «البشير».

أما بخصوص روايتي فقد حصل لي ولها حادث مزعج. والسبب هو الآتي: لقد أقسمت أنني لن أنشر شيئاً فجاً هزيلاً غير متوازن ومشروطاً بمواعيد محددة كما في السابق من أجل النقود. فلا يجوز المراهنة على النتاج الأدبي، ولا بد من العمل بنزاهة وإخلاص، وإذا كنت قد كتبت شيئاً رديئاً، وهذا ما حدث ربما عدة مرات، فذلك

لغياب الموهبة وليس بسبب الاستهانة أو التهاون. ولذا أخذت أتأمل عندما رأيت روايتي تتخذ أحجاماً هائلة، وأنها مبنية بشكل رائع، ولا بد من الإسراع في إكمالها من أجل النقود. وليس ما هو أكثر كآبة من هذا التأمل أثناء العمل. فالرغبة والإرادة والطاقات كلها تخفت عندذاك. ورأيت نفسي أمام لزوم إتلاف الفكرة التي حكتها طوال ثلاثة أعوام، وجمعت لها الكثير من المواد التي لن أستوعبها لكثرتها، الفكرة التي نفذتها جزئياً عندما كتبت الكثير من المشاهد والفصول. أكثر من نصف العمل جاهز كمسودة. ولكنني رأيت أنني لن أتمكن من إنجاز نصف الرواية في الموعد الذي أكون فيه بحاجة ماسّة إلى النقود. شرعت أفكر، وأقنع نفسي، أن بالإمكان الكتابة والنشر على وجبات، جزءاً جزءاً. ذلك لأن كل جزء كان مستقلاً. إلا أن الشكوك عذبتني، وأمعنت في تعذيبي. لقد اتخذت من زمان قاعدة أن أترك العمل إذا دبت في نفسي شكوك بشأنه، لأن النتاج بعد الشكوك لا خير فيه. ولكن تركه يؤسفني. رسالتك التي تقول فيها إن أحداً من الناشرين لن يوافق على نشر الرواية جزءاً جزءاً جعلتني أترك العمل فيها نهائياً. وسبب ذلك اثنان من الاعتبارات. فقد فكرت: «ما الذي سيحصل؟ إما أن أكتب جيداً وعندها لن أستلم النقود حتى بعد عام، ولذا لا فائدة من عملي، وإما أن أسرع على نحو ما وأفسد كل شيء، أي أتصرف بلا نزاهة، بل إني لم أكن أقوى على مثل هذا التصرف». ولذا وضعت الرواية كلها والمواد المتعلقة بها في صندوق واحد. وشرعت بكتابة قصة طويلة، متوسطة الحجم، في حوالي 6 ملازم طباعية.[1] وعندما أنتهي منها سأكتب رواية[2] عن الحياة المعيشية في بطرسبورغ على غرار «الفقراء»، وفكرتها أفضل من فكرة «الفقراء». وكنت قد بدأت من زمان بكتابة هذين المؤلفين، وقسم منهما جاهز،

وليست هناك صعوبات. العمل يجري بأروع صورة. وفي 15 ديسمبر سأرسل قصتي الأولى[3] إلى «البشير». وسيدفعون مقدماً، والمبلغ ليس بقليل. إذن، ستكون لدي نقود. إلا أن المشكلة أنني سأبقى من دون نقود قبيل الأول من يناير. وطالما قررت عندما بدأت بكتابة هذه الرسالة أن أوضح لك كل ظروفي وأطلب منك شيئاً ما، فإني أشرع بهذا التوضيح.

في فبراير، عندما تزوجت، اقترضت هنا 650 روبلاً فضياً. اقترضت من سيد عفيف للغاية، لكنه غريب الأطوار. وكنت في علاقات وثيقة معه. وهو ثري في حوالي الخمسين من العمر. عندما أعطاني النقود قال: «ليس لسنة، بل حتى سنتين، لا تضيق على نفسك، لدي ما لدي، ويسرني أن أساعدك». ولم يطلب مني إيصالاً بالقرض. ثم، عندما عدت من كوزنيتسك، استلمت من خالي في موسكو 600 روبل فضي، وبعدها مئة روبل أخرى. ولم يكن عندي من «الممتلكات» سوى الحشية والوسادة، بالإضافة إلى البزة العسكرية. كان من اللازم شراء كل الحاجيات، حتى أصغرها. وإلى ذلك سافرت خلال العام أربع مرات إلى كوزنيتسك ذهاباً وإياباً، وأنفقت الكثير على أمور زوجتي، خطيبتي آنذاك، وسددت الديون المستحقة خلال ثلاثة أعوام إلى خومينتوفسكي وغيره بما مقداره 300 روبل فضي، حيث كنت بحاجة إلى النقود عندما توفي زوجها، وهلمجرا. سيميبالاتينسك أغلى مدينة في العالم. فهي كالجزيرة غير المأهولة التي عثر فيها روبنسون (كروزو) على عِرق ذهبي ولم يستطع أن يشتري أية حاجة. ارتفعت كل الأسعار هنا بفتح أبواب المحافظة. أنا، على سبيل المثال، أدفع 8 روبلات فضية في الشهر كأجر للشقة من دون حطب ولا إسالة مياه. بحثت عن شقة أصغر وأرخص فلم

أجد. لأن كل الشقق مشغولة. قبل ثلاثة أعوام وصل إلى هنا قرابة 100 موظف لم يبنِ أحد منهم بيتاً حتى الآن. وحسب العادات المحلية لا بد من تقديم الطعام لكل من يأتي إليك، علماً بأن أوقية أسوأ أنواع الجبن الروسي تكلف روبلاً فضياً. ويوجد هنا 150 تاجراً. إلا أن التجارة آسيوية. أما البضائع الأوروبية، البولندية، فلا يتداولها سوى ثلاثة أو أربعة تجار. ويأتون بالسلع التالفة من معامل موسكو ويبيعونها بأسعار خيالية، بأسعار لا يطالب بها إلا من هو في هياج الهذيان أو الجنون. وإذا حاولت أن تخيط بزة أو بنطالاً فهم يأخذون على الجوخ البالغ سعره في موسكو روبلين فضيين قرابة 5 روبلات. باختصار. هذه أغلى مدينة في العالم. ولذا لا يثير الاستغراب أن تلتهم كلَّ نقودنا تكاليفُ السفر والزفاف وتسديد الديون وشراء ما هو ضروري لتدبير أمور المعيشة في المرحلة الأولى. وحتى مطلع ديسمبر لم يبق عندي ولا روبل واحد. فيما أخذ السيد الذي أقرضني يذكّرني بتسديد الدين بعد ثلاثة أشهر فقط من الزفاف. وقد أدهشني هذا التصرف. كنت قلت له: «إذا تستطيع أن تصبر عليّ عاماً أعطني النقود، وإلا فلا تكلف نفسك». ورد عليّ قائلاً: «ولو عامين». فتسرعت وأعطيته إيصال القرض لموعد أقصاه الأول من يناير العام الجديد. كنت آمل في الحصول على نقود مقابل الرواية. أما الآن فقد تهاوت كل الآمال. تهاوت في أقل تقدير لموعد الأول من يناير. وبالمناسبة هذا السيد تزوج ولا أدري لماذا هو زعلان مني. ثم بدأ ما جعلني غير سعيد للتورط معه. كل شيء يجري بلياقة وأدب، لكنني متيقن أنه سيشتكي عليَّ في الأول من يناير. . . أنا لا أكتب لك كل شيء، إلا أن موقفي عصيب جداً. باختصار، عليَّ أن أسدد في الأول من يناير مهما كلف الأمر. وبالمناسبة وصلتني مساعدة غير

متوقعة سيكون لها تأثير على مصيري أيضاً. المساعدة متمثلة في بليشييف.[4] أنا أتراسل معه من زمان. وقد بقي على أريحيته النبيلة وشهامته ورقَّته السابقة. وهو الآن في الخدمة المدنية في أورينبورغ. ولا يرحل إلى روسيا لأنه أحب ويريد أن يتزوج من فتاة في السادسة عشرة من العمر فقيرة، لكنها متعلمة. ولعله تزوج الآن. أنا أنتظر منه رسالة، ونحن نتراسل كثيراً. قبل شهرين تقريباً أبلغني بأن تركة جاءته من قريب توفي في موسكو لم يكن يفكر فيه. الورثة كثيرون، إلا أن حصته بموجب الوصية 50000 روبل فضي. وقد كتب لي بليشييف في الحال إذا كنت محتاجاً إلى نقود فهو مستعد لإعطائي قدر ما أريد، لحد خمسة آلاف روبل فضي. لكنه لن يستلم التركة قبل أبريل من العام القادم، 1858. ويقول إذا تسنى لنا أن نلتقي في موسكو فلن نفترق، ويؤكد أنه مستعد لتوظيف رأس المال في مؤسسة ثقافية سليمة، ويضيف أنني أنا سأكون الشخص الأول في هذه المؤسسة. وأجبته بأنني سآخذ منه 1000 روبل فضي، وهذا المبلغ مع ما سأستلمه مقابل قصتين لي سيساعدني في تسديد ديوني وإحالة نفسي على التقاعد والعودة إلى روسيا في يونيو من عام 58. عائد القصة الأولى الذي سيبلغ 500 روبل فضي إذا حسبنا الملزمة بـ 75 روبلاً سأستلمه في حدود فبراير. ولكنني سأطلب مقدماً حوالى 300 روبل، وبذلك أحصل على ما يقارب 800 روبل فضي. وسيبلغ إيراد القصتين ما يقارب 1000 روبل. وهكذا سأستلم نقوداً في فبراير على الأرجح، كما أتوقع أن أستلم من بليشييف في أبريل، ولكن ماذا سأفعل في الأول من يناير 58؟ والأدهى من ذلك ماذا سأفعل في ديسمبر من العام الحالي؟ في الأول من ديسمبر لن يبقى عندي آخر روبل، فكيف نعيش؟ ولا أحد أستطيع أن أقترض منه. لم يعد هناك

من أتجرأ على الاقتراض منه. وليس عندي ما يمكن أن أبيعه. ولا أستطيع استلام الراتب مقدماً. فلدينا آمر جديد، ثم إن استلام المبلغ قبل الأوان من الصعوبة بمكان. وأخيراً هذا الدين الذي ينهشني ويعذبني. ولذا أتوجه إليك، يا صديقي الكريم، للمرة الأخيرة: ساعدني للمرة الأخيرة! ابعثْ لي 650 روبلاً فضياً إنْ استطعت، لمدة ثلاثة أشهر لا أكثر. ولك مني ضمانتان بأن أسدد حتماً. وإذا كنت لا تصدق بأني سأستلم في فبراير نقوداً مقابل عملي، ففي أبريل سأستلم من بليشييف بالتأكيد. في فبراير سأبعث لك المبلغ رأساً، وستستلمه في مارس. أقسم لك باللّه. وبالتالي إذا كنت تستطيع أن تضحي بـ 650 روبلاً لمدة ثلاثة أشهر فأنقذني لآخر مرة، كما أنقذتني ألف مرة. تفضل عليَّ مرة أخرى، وصدقني، يا صديقي، بأنني لن أتجرأ مقابل أي شيء في العالم أن أستخدم ثقتك لأغراض شريرة. ففي مارس تستلم، أقسم لك بقدس الأقداس. ساعدني يا أخي وصديقي. فهذا الدين يعذبني معنوياً لدرجة لم أكن فيها يوماً بمثل هذا الموقف المحير العصيب. لن أتمكن من كتابة كل شيء إليك. إلا أن مشهداً من الرواية عن أموري الشخصية هذه سيكون رائعاً. وداعاً يا أخي العزيز، واعلم بأن كل أملي معقود عليك. كان يمكن أن أطلب من بليشييف، ولكن ليس لديه الآن نقود، وإلى ذلك هو قادم على الزواج. أرجوك وأستعطفك لا تؤخر الرد، أجبني فوراً، حال استلامك رسالتي، لأنني أنتظره بفارغ الصبر والاكتئاب.

زوجتي تبلغك تحياتها، وقد كتبت لبربارة وفيرا ولم يردا عليها. وهي تشعر بالمرارة لذلك. وتقول إنكم جميعاً زعلانون منها، ولا تريدون انضمامها إلى أسرتكم. وأنا أحاول عبثاً إقناعها بالعكس. إنها لا تعرف أحداً منكم شخصياً، وهي حزينة جداً. ربيبي بافل قُبِل في

فيلق الكاديت في أومسك بناءً على الالتماس الذي قدمته أمه قبل عام ونصف. وقد أرسلناه إلى هناك. الفيلق ممتاز، والمفتش إنسان بكل معنى الكلمة. أنا أعرفه شخصياً. ولكنني أشفق على الصبي الصغير. فهو لا يزال في العاشرة من العمر، وقد أحببته حباً جماً. قبلوه، ولم يكن بالإمكان الرفض، بل من الحماقة الرفض.

باللّه عليك، يا أخي، أجبني فوراً، ولا تؤخر الرد. وافهمْ مدى أهمية ذلك بالنسبة لي.

(أخوك ف. دوستويفسكي)

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها»

(2) يبدو أن تلك إشارة إلى رواية «مذلون مهانون »

(3) «قرية ستيبانتشيكوفو»، وقد استطال العمل فيها إلى أبعد من الموعد المذكور أعلاه.

(4) ألكسي بليشييف (1825-1893) شاعر متعدد المواهب من جماعة بتراشيفسكي.

60. إلى ميخائيل كاتكوف

سيميبالاتينسك، 11 يناير 1858

حضرة السيد الكريم!

في شهر أغسطس استلمتُ من ألكسي بليشييف، الموظف عندكم، إشعاراً بأنكم لا تمانعون من نشر شيء ما من نتاجي في «البشير الروسي». وكنت من زمان أرغب في أن أقترح عليكم نشر الرواية التي أعكف على تأليفها حالياً. ولكن طالما أنها غير منتهية، فلم يكن هناك ما أعرضه عليكم. وقد كنت أريد تحديداً أن تقرأوا روايتي في البداية وبعد ذلك يتوفر الوقت للدخول في محادثات بشأنها. فقد حصل وكتبت قبل تسع سنوات الكثير من النتاجات الغثة، ولا أريد العمل الآن مكرهاً وبصورة غيابية. إلا أن ظروفي تبدلت، وأنا مضطر للعمل ليس كما توقعت في البداية. فاسمحوا لي بالتوضيح.

فكرت في مخطط روايتي أثناء الاستراحة خلال تواجدي بمدينة أومسك. عندما غادرت المدينة قبل ثلاث سنوات استطعت أن أحصل على ورق وريشة، وبدأت العمل. لكنني لم أستعجل، فكان يسرني أن أفكر في كل شيء، حتى آخر التفاصيل، وأن أخطط وأقيس الأجزاء



ميخائيل كاتكوف

وأسجل مشاهد منفصلة بكاملها، والأهم أن أجمع المواد. وعلى مدار ثلاث سنوات في هذا العمل لم أتعرض للفتور والتهاون، بل على العكس انهمكت فيه. إلا أن الظروف لم تسمح لي بالمواظبة على العمل المنتظم. وفي مايو من العام الفائت شرعت أعمل على بياض. وكانت جاهزة مسودة الكتاب الأول وجزء من الكتاب الثاني. ومع ذلك لم يتسنَّ لي حتى الآن أن أنهي الكتاب الأول رغم أن العمل فيه مستمر بلا انقطاع. روايتي مقسمة إلى ثلاثة كتب، وكل كتاب منها مستقل بذاته تماماً رغم أنه يمكن أن ينقسم إلى أجزاء، لكنني أشير إلى الفصول فقط. ولذا أردت أن أعرض عليكم في البداية كتاباً واحداً. ولا أستطيع أن أقدم الكتاب الثاني، بل ولا أريد نشر الكتاب الثالث في السنة نفسها. ولكن الكتب الثلاثة يمكن أن تنشر جميعها في ثلاث سنوات.[1] عندما ستقرأون الكتاب الأول سترون أن هذا التقسيم وارد تماماً. ظروفي هذا العام جعلتني بحاجة ماسّة إلى النقود بعد تبدل نمط حياتي. وأنا، إذ أقدم لكم مخطوطة الكتاب الأول من روايتي، أطمح أن أطلب منكم نقوداً قبل النشر، ولعلكم تحترمون رجائي هذا. ولذا

أسرعت في إنجازه. إلا أن العمل من أجل المال والعمل من أجل الفن شيئان لا يلتقيان بالنسبة لي. طوال الأعوام الثلاثة من نشاطي الأدبي القديم في بطرسبورغ كنت أعاني لهذا السبب. أنا لم أكن أريد الابتذال لأفضل أفكاري وأفضل مخططاتي للقصص والروايات من خلال التسرع في العمل والتسليم في الموعد. فأنا أحبها وأرغب في تأليفها بجد وليس بهذه العجالة لدرجة يخيل إليّ فيها أن الموت أفضل من التصرف غير النزيه مع أفضل أفكاري. ولكن طالما كنت على الدوام مديناً إلى كرايفسكي الذي لم يكن، بالمناسبة، ينتزع مني مؤلفاتي بل يعطيني دوماً الوقت الكافي، فقد كنت أنا نفسي مقيداً من جميع الوجوه. وعندما أعلم أنه ليس لديه ما يسد به فراغ المجلة أرغم نفسي أحياناً، في 26 من الشهر، أي قبل صدورها بـ 4 أيام، على ابتداع قصة ما، ولا يندر أن كنت أبتدعها وأكتبها في 4 أيام[2]. أحياناً تأتي الرواية غثة، وأحياناً بسمنة لا بأس بها، إذا حكمنا عليها من تعليقات المجلات الأخرى على كل حال. بديهي أنه كثيراً ما توفرت لدي عدة أشهر لكي أعد شيئاً ما أفضل. إلا أن المشكلة هي أنني نفسي ما كنت أدري أبداً أن تلك الأشهر أمامي، لأنني كنت دوماً أضع نصب عينيّ موعداً لا يتجاوز الشهر الواحد لعلمي بضرورة مساعدة السيد كرايفسكي للشهر القادم. إلا أن الشهر ينقضي، وتنقضي خمسة شهور وأنا أتعذب في ابتداع قصة أفضل، لأنني لم أكن أرغب في نشر شيء رديء. ثم إن ذلك كان سيبعدني عن النزاهة بحق السيد كرايفسكي. وإلى ذلك كنت آنذاك مصاباً بالسوداوية، في أشد درجاتها أحياناً. الفتوة وحدها أنقذتني من التفكك، وحالت دون برود الحماس في نفسي وحب الأدب. وبالإضافة إلى الفتوة كان هناك حب الأفكار الصافية والصادقة في الروايات التي انتظرت الوقت لكي أبدأها

وأنهيها. تلك السنوات تركت في نفسي انطباعاً ثقيلاً لدرجة أني لم أعد تقريباً أتحمل فكرة الاستعجال في إنهاء الكتاب الأول من روايتي لأستلم النقود بأسرع وقت. ولذا لم أستعجل. زد على ذلك أن مختلف المشاغل والهموم والمرض أخّرتني لحد ما. ورغم ذلك أردت أن أبعث لكم في يناير، أي الآن، نصف الكتاب الأول، على أن أبعث النصف الثاني في وقت لا يتجاوز الشهر بحيث تكون الرواية كلها، أقصد الكتاب الأول كاملاً، بين يديكم في مارس. إلا أن ملابسات غير متوقعة أعاقتني هذه المرة أيضاً. على فكرة، ربما ستدهشون أو تبتسمون لدى قراءة رسالتي هذه وتتساءلون: «لماذا لجأ إلى هذه التفاصيل؟». ولكن اعملوا معروفاً واقرأوا ما كتبت حتى النهاية. ذلك لأن لدي رجاءً كبيراً عندكم يبرر ذكر كل هذه التفاصيل. الملابسات التي أوقفت روايتي في الحال الحاضر هي كالتالي: في العام الفائت كنت في أمسّ الحاجة إلى النقود، ولذا تكبلت بالديون. ولغرض تسديدها والصرف على حياتي المعيشية كنت بحاجة ماسّة إلى 1000 روبل فضي في مطلع شهر يناير الحالي. وقد كتبت عن هذا المبلغ إلى شقيقي في بطرسبورغ. وقبل أسبوعين استلمت منه رسالة أكد فيها أنه استحصل لي 500 روبل فقط، بعد أن أخذ على نفسه، نيابة عني، بعض الالتزامات الأدبية، حيث إن الكونت كوشيليف ينوي إصدار مجلة بعنوان «الكلمة الروسية» اعتباراً من العام المقبل، وقد جاء وكيله المخول، المدعو مولر، إلى أخي طالباً من خلاله التعاون معي. ولعلم أخي بأنني محتاج إلى المال وأنني أكتب رواية[3] فقد باع تلك الرواية إلى مجلة «الكلمة الروسية» المرتقبة دون أن يعلم بنواياي الفعلية في شأنها. وتسلم مقدماً سلفة بمبلغ 500 روبل فضي بعد تحرير الشروط وتوقيعها من قبل الطرفين. فماذا عليّ أن أفعل الآن؟

سأستلم المبلغ مع البريد القادم. وأرى أن من الضروري إسناد شقيقي الذي وقَّع الشروط. كانت لدي رواية واحدة خططت لها من زمان وأنا أحبها كثيراً، بل وشرعت بكتابتها. حالياً أخرجتها من الصندوق وقررت أن أواصل كتابتها وإكمالها حتى أرسلها فورا إلى أخي. الرواية ليست طويلة، وبعد شهرين، أو على الأكثر شهرين ونصف، سأفرغ من كتابتها، وأرسلها، وعندذاك أعود إلى عملي السابق. ولكنْ، ما دمتُ حصلت على 500 روبل فقط، وليس 1000، ولا أستطيع بهذا المبلغ أن أسدد الديون نهائياً وأصرف على معيشتي فقد عزمت على آخر إجراء، هو أن أترجاكم وأعرض عليكم روايتي إذا كان من مصلحتكم أن تنشروها هذا العام، أفلا تستطيعون أن تبعثوا لي الآن سلفة على الرواية بمبلغ الـ 500 روبل الفضي الذي أنا بأمسّ الحاجة إليه. أنا أعرف أن طلبي غير معتاد تماماً. إلا أن القضية تتوقف على كيفية تقبلكم له. الشيء الوحيد الذي لا أرغب فيه هو أن تظنوا أنني أقدر موهبتي بهذا التقدير العالي وأن من السهل عليَّ أن أتقدم بعروض من هذ ا النوع. صدقوني أن الحاجة القصوى هي التي دفعتني إلى ذلك. وفي مقابل هذه الـ 500 روبل، إذا أرسلتموها إليّ، أتعهد بأن أبعث إليكم الكتاب الأول من روايتي كاملاً في غضون الصيف. ولذا يمكنكم أن تنشروه في سبتمبر إذا شئتم. حجمه في حدود أربع عشرة أو خمس عشرة ملزمة، وبذا ستكون قيمته أغلى من 500 روبل فضي، وحالما تستلمون المخطوطة تستعيدون دفعة واحدة الجزء الذي ستبعثونه لي الآن من الأجر. أنا أتعهد بإرسال الرواية في الموعد المقرر، وقد أخذت عمداً موعداً أبعد. وفوق ذلك، ما دمتم تخصصون لي النقود سلفاً، إذا فعلتم، وقبل أن تلقوا نظرة على المخطوطة فأنا من جهتي أتعهد بسحبها إذا لم تعجبكم، وبكتابة رواية

أخرى بأسرع ما يمكن. فقد حصل في وقت ما أن ألفت أشياء مقبولة بين الكتابات الغثة. وقد أوفق هذه المرة أيضاً. وسنتفق على سعر الملزمة عندما تقرأون المخطوطة. على فكرة، هذا السعر تحددونه أنتم، وأنا أعوّل على قراركم. وما عدا هذه التأكيدات، أي ما عدا كلمة الشرف، لا أستطيع أن أقدم لكم أية ضمانات، حالياً على الأقل. على فكرة، إذا كنتم ترغبون في ضمانات أخرى فأنا مستعد. وأخيراً أقول، لمزيد من التأكيد، إن الرواية التي أعدكم بها هي من زمان الرواية الأكثر صفاءً.[4] وأنا، بالمناسبة، أفهم أن هذه ضمانة ليست كبيرة، ويحصل أن يكون النتاج المفضل عند الكاتب رديئاً أحياناً لأسباب معينة. على أية حال أعاهدكم بأن أكتب أفضل على قدر المستطاع.

آمل أن طيبتكم ستشرفني، على أية حال، ولو بإرسال تبليغ ما. أنا الآن أسعى لتقديم استقالتي، وآمل أن أحصل في نهاية الصيف على ترخيص بالإقامة في موسكو[5]. وعندها سيكون من دواعي سروري أن آتي إليكم شخصياً. والآن هذا عنواني: مدينة سيميبالاتينسك في سيبيريا الغربية، فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

لا مؤاخذة على الإهمال الظاهري في رسالتي وعلى الطوابع وغيرها، وأرجو أن لا تعتبروا ذلك من قلة الاحترام. فأنا، واللّه العظيم، لا أجيد الكتابة أفضل. ولغرض التيقن أسجل على الرسالة عنوانين إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» وإلى مطبعتكم.

تقبلوا، يا سيدي، آيات التقدير والاحترام.

خادمكم المطيع

ف. دوستويفسكي

ملحوظة: لعلكم تتساءلون لماذا لا أسلم إلى «الكلمة الروسية» الرواية التي أكتبها لأجل «البشير الروسي»؟ أولاً، أنا لا أعرف كيف ستكون «الكلمة الروسية»، لا أعرف هيئة تحريرها ولا توجهاتها، لا أعرف شيئاً عنها. ثانياً، في مقابل النقود التي بعثوها، 500 روبل، ينبغي أن أبعث لهم مقالة بأسرع ما يمكن. أما الرواية غير المطولة التي سأخصصها لهم فستنتهي طبعاً بأسرع من الرواية المطولة التي أعدها «للبشير الروسي». يبدو أن مصيري هو العمل من أجل النقود بالمعنى المخجل جداً للكلمة.

د (وستويفسكي)

(1) كل هذا مجرد أفكار أراد دوستويفسكي أن يثير بها اهتمام كاتكوف ويحصل منه على سلفة. فقد توقف عن كتابة تلك «الرواية» الضخمة واستخدم بعض حبكاتها في قصتيه «قرية ستيبانتشيكوفو» و«حلم العم» اللتين صدرتا فيما بعد.

(2) أبلغ دوستويفسكي أخاه ميخائيل في نوفمبر 1845 أنه كتب «رواية في تسع رسائل» بليلة واحدة.

(3) «حلم العم».

(4) دوستويفسكي يقصد «قرية ستيبانتشيكوفو» التي عرضها للنشر في مجلة كاتكوف «البشير الروسي»

(5) تم تسريح دوستويفسكي في 18 مارس 1859، ولم يسمح له بالإقامة في موسكو ولا في بطرسبورغ.

61. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 18 يناير 1858

استلمت منك، يا صديقي العزيز، ثلاث رسائل، إحداها مؤرخة في 25 نوفمبر والأخريان في 17 و19 ديسمبر. أردت أن أجيبك رأساً على الرسالة الأولى ولكنني لم أتمكن. كتبتَ عن الاتصالات مع «الكلمة الروسية»، وقلت إنك سترسل النقود. ما كنت أعرف هل سترسلها، ولذا لم أستطع أن أكتب لك بالإيجاب. ولذا انتظرت حتى استلام النقود. والآن أجيبك على كل شيء. ولكن اسمح لي، بدايةً، أن أشكرك من صميم القلب على إرسال المبلغ. فقد أنقذتني، وأنا الآن في قدر من الاكتفاء. ومن دون تلك النقود كنت سأهلك، ولم تكن هناك أية وسيلة للتملص.

أبدأ بالإجابة على رسائلك حسب الدور. بالترتيب الذي كتبتَ فيه.

استلمت علبة السيجار، ولا أتذكر هل كتبت لك عن ذلك أم لا؟ إلا أن السيد الذي طلبتها من أجله امتنع عن اقتنائها لسبب وجيه تماماً بالنسبة له. فهي خفيفة جداً. وقد أعطاني من سيجاره. (شركة تبوغ)

تين غيت تخدعه، لكنها تزوده بسيجار قوية جداً، وهذا ما يريده. سيجارك دخنتها أنا نفسي. وأبقى مديناً لك بالمقابل. سنتحاسب. وأقول أيضاً إن سيجارك رائعة، إلا أنها دعكت كثيراً في البريد. على أية حال يدهشني أنها لم تحظ برواج عندكم. ثم إنك تكتب عن «الكلمة الروسية». لنفترض أن فكرة السيد جيدة وأن الرأسمال الاحتياطي يتراكم. ولكن هل يعقل أن بإمكان النقود أن تبني هيئة تحرير؟ في حين أن المجلة من دون هيئة تحرير ومن دون أصالة هذر. ولا أدري إلى من سيعهد (الكونت) بمهمة المحررين؟ أنا لا أثق كثيراً بنجاح «الكلمة الروسية». وهي كمجلة دورية قد تكون جيدة لبعض الوقت.

على فكرة، ما شأني وهذه المجلة الآن؟ اللّه يوفقهم.

أشكرك يا صديقي ميشا، يا صديقي الصدوق، على العلاقة التي أقمتها مع «الكلمة الروسية» ورتبت الأمور بكل مهارة. أما الآن فاستمع إلى ما أقوله عن ظروفي أنا. الرواية الكبيرة صرفت النظر عنها لبعض الوقت. لا أستطيع إنجازها مقيداً بالموعد. ففي هذه الحالة ستعذبني لا أكثر. أتركها إلى حين استقرار حياتي وانتظامها. الرواية عزيزة عليَّ لدرجة أنها التحمت بكياني، ولن أتركها أبداً دون أن تكتمل. بالعكس أنا أنوي أن أجعل منها تحفة مؤلفاتي. فالفكرة رائعة وقد كلفتني كثيراً، ولا يجوز تركها نهائياً. بهذا الصدد نشأت لدي قبل ثماني سنوات فكرة رواية غير مطولة بحجم «الفقراء». وفي الآونة الأخيرة تذكرتها، وكأنني أعلم، ووضعت مخططها من جديد. فبات نافعاً الآن. وسأعكف على كتابة هذه الرواية. آمل أن أنهيها في قرابة شهرين. وإلى ذلك تتضمن روايتي الكبيرة مشهداً مكتملاً تماماً وهو بحد ذاته جيد، لكنه يشوش على المجموع. أريد أن أقتطعه من

الرواية. وهو أيضاً بحجم «الفقراء»، إلا أن مضمونه فكاهي. وفيه شخوص مستحدثة. في «الكلمة الروسية» يحددون موعد التسليم بسنة واحدة. وإليك طلبي: أرجوك أن تكتب لي فوراً إذا أرسلت لك الرواية، مثلاً، في أبريل لأجل «الكلمة الروسية» وفيها أكثر من خمس ملازم طباعية، بالمقارنة مع ملازم المجلات الأخرى، فهل يرسلون لي من «الكلمة الروسية» نقوداً مقابل الملازم المتبقية على الفور، أم ينتظرون حتى العام القادم، أي حتى النشر؟ إذا كانوا سيرسلون أبعث إليك الرواية لأجلهم حالما أستلم إشعاراً بذلك منك. وإذا كانوا لن يرسلوا فأقرر أن تنتظر «الكلمة الروسية» حتى الخريف. وفي الخريف أرسل إليهم نتاجاً مكتملاً، وأعني مشهداً من الرواية الكبيرة بعد تحويره تماماً على انفراد. أما الرواية التي ستكون جاهزة في أواخر مارس فسأرسلها إلى كاتكوف في «البشير الروسي». حساباتي واضحة: لن أتأخر على «الكلمة الروسية». المقالة تكون جاهزة في موعد صدور المجلة، حتى ولو أرسلتها في الخريف. والآن ينبغي لي أن أنقذ نفسي. كاتكوف قدم لي عرضاً عن طريق بليشييف. عندما استلمت منك 500 روبل بدلاً من الـ 1000 لم أعد أعرف ماذا أفعل. فقد وزعت كل الـ 500 روبل التي أرسلتها إليّ تقريباً على الدائنين. . . وبقيت بلا نقود، وبالرغم من ذلك بقيت مديناً بـ 350 روبلاً فضياً. ولذا قمت بهذه الفذلكة، حيث كتبت مع البريد الماضي إلى كاتكوف بتفصيل وإسهاب مشيراً إلى أنني أرغب في المشاركة بمجلته، وعرضت عليه روايتي المطولة التي صرفت النظر عنها الآن مؤقتاً، وأبلغته بأني سأسلمها له في أغسطس وليس قبله، وأطلب منه مقدماً، لأسباب تتعلق بظروفي الصعبة، 500 روبل فضي وأرجوه أن يرسلها فور استلام رسالتي. عندما كتبت ذلك فكرت في أن صاحب «الكلمة

الروسية» يعطي سلفة دون أن يرى المخطوطة، فلماذا لا تفعل «البشير الروسي» الشيء ذاته؟ وهكذا يمكن في منتصف مارس أن يرسلوا لي 500 روبل فضي أخرى. وأظن أنني لن أفقد شيئاً. فطوال ثمانية أعوام لم أنشر أي نتاج، ولذا قد يُقبل عليّ الجمهور بصفتي كاتباً جديداً.

رؤساء التحرير يعرفون ذلك بالتأكيد. ولهذا يمكن أن يدفعوا مقدماً. فلماذا أفقد مستحقاتي، لا سيما وأنا في وضع صعب؟ إذا أرسل كاتكوف نقوداً فيمكنني أن أبعث إليه في الحال رواية ليست مطولة أعكف على كتابتها الآن، غير الرواية المطولة التي صرفت النظر عنها، على الرغم من أني كتبت له عن هذه الرواية ولم أكن أعرف أنني سأتركها. بالنسبة لكاتكوف الأمر سواء بشرط أن يكون النتاج جيداً. وإذا أرسلت الرواية إلى كاتكوف يمكنني طبعاً أن آخذ منه 500 روبل أخرى في الحال، ذلك لأن الرواية ستكون بحجم ثماني ملازم تقريباً، وبالتالي أبقى مديناً بالقليل إذا أخذت الـ 500 روبل الأخرى. وعندما يرى كاتكوف جديتي والرواية الجيدة، أتصور أنها ستكون جيدة، سيبعث الـ 500 روبل بالتأكيد. وهذا خير على خير. وبالطبع ستستلم «الكلمة الروسية» مني عندئذٍ في مطلع سبتمبر المشهد الزائد من الرواية المطولة. وسأتعامل مع هذه المجلة بنزاهة: أقدم لها النتاج في الموعد، وإلى ذلك أحاول تحسينه على قدر المستطاع، لأن هذا المشهد يعجبني أنا نفسي من حيث الفكرة. ثم إنه سيكون مكتملاً تماماً. تلك هي كل متطلباتي. فما رأيك فيها؟ اكتبْ لي.

وثمة مسألة أخرى. كتبت في الرسالة الأولى أنك تريد استلام قصة طويلة مني في مطلع العام القادم. ثم تذكر في الرسالتين

الأخريين أن لديك طلباً عندي، ربما هو ذاته. ألومك كثيراً، لمَ لا تكتب بالتفصيل؟ ماذا تريد أن تنشر؟ مع من؟ وكيف؟[1] بخصوص القصة الطويلة كن على يقين بأنك ستستلمها. أعاهدك. فبعد أن أرجأت الرواية المطولة صرت أشعر بأن لدي من جديد جناحين. سأفرغ من تعهداتي «للبشير» ثم «للكلمة» ويبقى لدي وقت كثير. ولكن اكتبْ لي عن هذه الأمور بمزيد من التفصيل.

واعلم، يا أخي، أنني قدمت قبل أيام طلب الاستقالة لأسباب مرضية. وأنت تعرف خططي. فإذا لم يسمحوا لي بالإقامة في موسكو، بناءً على طلبي في عريضة الاستقالة، فسأكتب رسالة إلى القيصر، وهو رؤوف رحيم، وربما سيسمح لي، أنا المريض، لأنني أطلب ذلك «من أجل استشارة أطباء العاصمة». وإذا لم يسمحوا حتى في هذه الحالة، كيف يقيم تول وبالم في بطرسبورغ إذا كانت ممنوعة على الآخرين؟، فلربما وجدوا بالفعل ضرورة لمنع البعض، وليس الجميع على الأرجح، من دخول (العاصمتين)، عندذاك سأرتحل إلى أوديسا حيث المعيشة جيدة ورخيصة، ولكن ليس إلى الأبد. القيصر رؤوف رحيم، وبمر الزمن سيسمح بدخول العاصمتين. تلك هي خطتي، وبالتالي سأسافر ليس قبل الصيف، إذا تم تدبير الأمور. وأفكر أن آخذ من بليشييف حتماً 1000 روبل وسأتحاسب معه، وأنا أعرف كيف أتحاسب. فمن دون نقوده لن أتمكن من التحرك.

ولذا ظهر لدي طلب كبير ملحّ جداً إليك. أتوسل إليك من جديد وأملي في طيبة قلبك المعهودة.

أوضح بصراحة: لقد كتبت لك عن بدلة، ولكنني أشعر الآن بالخجل وتأنيب الضمير. كلا يا أخي! أنا أشغل بالك وأزعجك بلا حياء. ولذا أقول: اكتبْ بصراحة. إذا اضطررت إلى الدفع نقداً لا

ترسل شيئاً، فسأدبر حالي. وإذا استطعت كتاجر أن تشتري بدلة جاهزة بالآجل فافعل، ولكن اكتبْ لي السعر في هذه الحالة أيضاً. وهناك، على ما أعتقد، ثياب أرخص. وإلا فسيبقى ضميري يعذبني. وبشأن الدفع بالآجل فأنا أيضاً سأستطيع إرسال الثمن. في الصيف ستكون عندي نقود معتبرة.

بليشييف تزوج. وهو غالباً ما يتذكرك ويبعث إليك تحياته.

ملاحظة (أولى): لا تهتم بالمقاس عموماً. اشتر بدلة على مقاسك. فأنا أستطيع أن أرتدي ثيابك. على أي حال أطلب أن تكون البدلة أعرض وأطول قليلاً.

ملاحظة (ثانية): إذا طلبوا دفع ولو كوبيك واحد نقداً فلا تشترِ.

أنت تكتب عن صور العائلة كلها، أنا في غاية السرور. وزوجتي تتكلم عنها ليل نهار. أَرسلْها عاجلاً، باللّه عليك. زوجتي تبلغك وإميليا تحياتها. وأنا أيضاً أقبِّل يد إميليا وأعانقك بشدة. احتراماتي لكل من تعرفه. قبّل أخي كوليا (نيكولاي) إذا كان موجوداً في بطرسبورغ.

المخلص ف. دوستويف(سكي)

قبّل أطفالك جميعاً، الواحد بعد الآخر. هل يتذكرونني؟ عندما ترسل الصور اكتبْ جنبها أسماءهم كي أتعرف على كل واحد منهم.

---

(1) لعل ميخائيل دوستويفسكي كان من ذلك الحين ينوي إصدار مجلة أدبية خاصة به.

62. إلى ألكسندر الثاني

سيميبالاتينسك، أوائل مارس 1858

حضرة صاحب الجلالة المعظم
ألكسندر نيكولايفيتش
إمبراطور عموم روسيا

من الكتيبة السيبيرية الميدانية رقم 7
الملازم ثان فيودور ميخائيلوف
ابن دوستويفسكي

أنا من نبلاء محافظة سانت بطرسبورغ، التحقت بخدمة جلالتكم الإمبراطورية في 16 يناير عام 1838 بصفة تلميذ في سرية مدرسة الهندسة العسكرية الرئيسية بإمرة معالي الجنرال مفتش وحدة الهندسة. وتقديراً لحسن السلوك والتضلع في الخدمة الميدانية تم ترفيعي إلى ملازم ثان عام 1840 (...) وفصلي من قائمة الفرقة الهندسية في بطرسبورغ بسبب المرض في عام 1844 بهذه الرتبة. وفي 19 ديسمبر

1849 تم خفض رتبتي إلى جندي عادي ونفيي لأداء الأشغال الشاقة في الحصون والقلاع. وبعد انتهاء مدة خدمتي كجندي في عام 1854 في هذه الكتيبة السيبيرية تمت ترقيتي إلى ملازم ثان في عام 1856 تقديراً للخدمة الممتازة. (. . .) أنا لم أشارك في الحملات ضد العدو. ولم أكلف بمهمات خاصة من طرف جلالتكم الإمبراطورية السامية، ولا من طرف الإدارة. ولم أقلد بأوسمة أو شارات الامتياز. ولم أستلم شهادات تقديرية ولا مكافآت سامية. تلقيت إجراءات الجزاء بناء على تقرير التحكيم بسبب المشاركة في النوايا الإجرامية وبسبب توزيع رسالة للأديب بيلينسكي مليئة بعبارات شديدة اللهجة ضد الكنيسة الأرثوذكسية والسلطات العليا، وكذلك نوايا توزيع مؤلفات، مع آخرين، مطبوعة منزلياً ضد الحكومة. فجرّدوني من رتبة ملازم ثان، ومن جميع حقوق الملكية مع النفي للأشغال الشاقة في الحصون والقلاع لمدة أربع سنوات. ولكن بمرسوم جلالتكم السامي الذي أحاله السيد وزير الحربية تحت رقم 2468 وتاريخ 18 أبريل 1857 إلى قائد الفليق السيبيري المنفصل حصلت وأولادي الشرعيين على مبرة إعادة الحقوق السابقة من حيث الأصل، ولكن من دون الملكية السابقة. (. . .) متزوج من أرملة سكرتير المحافظ عيسايف (السيدة) ماريا دميتريفنا. وليس لدي أطفال. الاعتراف الأرثوذكسي معي. وليس لدي ولا لوالدي وزوجتي ضيعة وراثية مكتسبة شرعاً. وأنا الآن في الـ 35 من العمر.

حالياً، وبسبب تدهور صحتي كلياً في الخدمة، أشعر بضعف عام في الجسم، مع نحول بدني، وأعاني كثيراً من ألم عصبي في الوجه بنتيجة ألم عضوي في الدماغ، ولذا لا أستطيع مواصلة خدمة جلالتكم الإمبراطورية. وأرفق طياً تقريراً طبياً تحت رقم 26 موقعاً من قبل

الطبيب يرماكوف المنسب إلى الكتيبة الميدانية السيبيرية رقم 7 والذي أجرى الفحوص عليَّ بحضور ضابط أركان الكتيبة باخيريف.

ولذا أستعطفكم بإخلاص أن تأمروا بقبول هذه العريضة وبتسريحي من الخدمة العسكرية مع ترقية في الرتبة للأسباب المرضية المذكورة في التقرير الطبي رقم 26، وذلك وفقاً للمادة 469 من الجزء الثاني من مجموعة القرارات العسكرية، ولن أطلب بعد التسريح أي راتب حكومي إضافي. (. . .).

مقدم هذه العريضة ملازم ثان الكتيبة الميدانية السيبيرية رقم 7 **فيودور ميخائيلوف ابن دوستويفسكي.**

وستكون إقامتي في العاصمة موسكو.[1]

---

(1) الرد بالإيجاب على هذه العريضة جاء بعد استيضاحات إضافية في 18 مارس 1859، حيث صدر الأمر بتسريح دوستويفسكي لأسباب صحية مع ترقية في الرتبة. وسمح له بالإقامة في مدينة تفير ومنع من دخول محافظتي بطرسبورغ وموسكو ووضع تحت الرقابة السرية.

63. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 31 مايو 1858

أسارع في الرد عليك، يا صديقي العزيز، مع البريد الأول. وقد أثار دهشتي بطء وصول رسائلي إليك، في حين أنني لم أتوانَ في الكتابة. وإذا كنتَ قلقاً عليَّ فأنا أيضاً قلق عليك. وخصوصاً في الآونة الأخيرة. ولذا تصورت أن شيئاً حصل لك أو أنك مريض. خبر فقدانك 3000 روبل آلمني كثيراً. وأنت تقول إن ما يؤلمك ليس ضياع النقود، بل حراجة الموقف والتلف. كلا، يا أخي. خسارة المال أيضاً شيء مؤسف. أولادك يكبرون ولن تحصل في القريب العاجل على الـ 3000. ألا يوجد أدنى أمل في استعادتها؟ كما يحزنني، يا صديقي، أنني كأنما عمداً أثقل عليك بطلباتي واحتياجاتي. فما العمل؟ كتبتَ تقول إنك سترسل قريباً. أشكرك يا أخي. آمل أن يكون ذلك آخر مرة أزعجك فيها. أردت أن أنتظر الحاجيات لأجيب عندئذٍ. إلا أنها يمكن أن تتأخر. تقول إنك سترسل بدلة سهرة وبنطالاً واحداً. وأظن الأفضل سترة طويلة. فهي أكثر نفعاً. وسأحاول تدبير الأمر هنا، على الرغم من حاجتي الماسة

إلى النقود. كتبتَ، يا صديقي، تطلب مني أن أرسل إليك ما هو ناجز من النتاج. لا أتذكر، وقد ضعفت ذاكرتي كثيراً، هل كتبت لك أنني جددت العلاقات مع كاتكوف في «البشير الروسي» وبعثت له رسالة اقترحت فيها أن أشارك في مجلته ووعدته بقصة طويلة هذا العام، إذا بعث لي الآن 500 روبل فضي؟ وقد استلمت منه هذه الـ 500 روبل قبل شهر أو خمسة أسابيع مع رسالة مجاملة ذكية جداً. كتب يقول إنه مسرور جداً لمشاركتي وسينفذ طلبي فوراً بشأن الـ 500 روبل، ويرجوني أن لا أضيق على نفسي وأن أعمل بلا استعجال، أي ليس بموعد معين. رائع. وأنا أعكف الآن على تأليف قصة طويلة «للبشير الروسي».[1] إلا أن المصيبة أنني لم أتفق مع كاتكوف بأن يدفع على الملزمة، مؤملاً، والحال هذه، على ما يمليه ضميره. وآمل أن أبعث إلى «الكلمة الروسية» هذا العام أيضاً قصة طويلة[2] وليس رواية. أما الرواية فقد أرجأت كتابتها حتى العودة إلى روسيا. فعلت ذلك بمقتضى الضرورة. فكرة الرواية سعيدة نسبياً، وطباع الشخوص جديدة غير مسبوقة (في الأدب) حتى الآن. ولما كان نموذج هذه الطباع شائعاً جداً في روسيا اليوم، في الحياة المعاشة، وخصوصاً الآن إذا حكمنا على ذلك من الحركة والأفكار التي يتبناها الجميع، فأنا على يقين بأنني سأشحن روايتي بانطباعات جديدة عندما أعود إلى روسيا. لا موجب للاستعجال يا صديقي العزيز. بل يجب إتقان العمل ليأتي جيداً. أنت تقول، يا عزيزي، إنني ربما مغرور وأرغب بالظهور الآن في نتاج جيد جداً، وأحتضن هذا النتاج الجيد جداً كبيوض (الدجاجة). فلنفترض أنك على حق. ولكن طالما أنني أرجأت الظهور بالرواية، وأعكف على كتابة قصتين طويلتين ستكونان كبيضتين طازجتين، إن شاء اللّه، فليس عندي الآن رغبة في

الاحتضان الطويل. من أين جئت، يا صديقي، بالنظرية القائلة إن اللوحة يجب أن ترسم رأساً، دفعة واحدة، وما إلى ذلك؟ متى اقتنعت بذلك؟ صدقني أن المجهود لازم في كل شيء. وهو مجهود كبير. صدقني أن مقطوعة بوشكين الخفيفة الرشيقة في بضعة أبيات تبدو لهذا السبب وكأنها نظمت رأساً، إلا أنها أخذت من بوشكين وقتاً طويلاً للصقل والتنقيح. تلك حقيقة لا جدال فيها. غوغول كتب «النفوس الميتة» في ثمانية أعوام.[3] كل ما كتب دفعة واحدة لم يكن ناضجاً. يقال إن مخطوطات شكسبير تخلو من التصحيحات. وهذا هو سبب وجود الفظائع والفضائح وقلة الذوق. ولو كان الرجل قد أجهد نفسه لجاءت النتاجات أجود[4]. يبدو أنك تخلط بين العمل والإلهام، أي اللحظة الأولى لرسم اللوحة أو تحرك الروح الذي يحدث دوماً على هذا النحو. أنا، مثلاً، أسجل المشهد رأساً لأنه خطر في بالي لأول مرة، وأنا مسرور له، ثم أعمل شهوراً كاملة أو سنة في معالجته، وهو يحفزني ويلهمني مراراً، وليس مرة واحدة، لأنني أحب هذا المشهد، وأضيف إليه شيئاً أو أشطب منه، كما حصل معي فعلاً. صدقني جاء النتاج بعد ذلك أفضل بكثير. المهم أن يكون هناك إلهام. فلن يتحقق شيء من دون الإلهام.

صحيح أن الأجر بات كبيراً عندكم. بيسيمسكي استلم مقابل «النفوس الـ 1000» 200 أو 250 روبلاً للملزمة. وبناءً على ذلك يمكن العيش والعمل بلا تسرع. ولكن هل تعتبر أنت رواية بيسيمسكي رائعة؟ إنها من مستوى وسط. أجل من مستوى وسط مع أنها بوزن الذهب. فهل فيها شخوص أو طباع جديدة لم تكن موجودة على الساحة؟ كل ما فيها كان موجوداً لدى كتّابنا المجددين، وخصوصاً عند غوغول. تلك مواضيع قديمة في حلة جديدة.[5] إنها توليفة رائعة

من ملصوقات نماذج الغير، مثل محاكاة (الصائغ الروسي) سازيكوف لنقوش (النحات الإيطالي) بنفينوتو سيليني. صحيح أنني لم أقرأ سوى جزءين من الرواية، فالمجلات تصلنا متأخرة. إلا أن خاتمة الجزء الثاني بعيدة عن الواقع كلياً ومشوهة بالمطلق (. . .)

يا صديقي، أنا أنتظر التسريح، وقد نفد صبري. أنا لم أطلب صراحة الإقامة في موسكو. لكنني كتبتُ في العريضة ما يتطلبه أسلوب الصياغة الرسمي: «وستكون إقامتي في العاصمة موسكو». وإذا لم يعترضوا على ذلك فسأسافر إلى هناك. سأسافر، ولكن بأي حال؟ لن تكون عندي نقود قبل إتمام القصة. فكيف سأعيش بعد شهرين؟ لا أدري. ذلك لأن النقود لن تأتي بعد شهرين أيضاً. وقد سددت ديناً بـ 400 روبل فضي حالما استلمت الـ 500 روبل من كاتكوف. أنا أصرف شهرياً 40 روبلاً فضياً، إلا أن النفقات الطارئة لا تزال تلاحقني. ومنذ عام ونصف تستمر النفقات غير المتوقعة بلا انقطاع. الأمل الوحيد معقود على بليشييف. فقد وعدني بـ 1000 روبل. إلا أنه نفسه يحتمل أن لا يستلم، أو يستلم بعد عامين. فماذا سيحصل لي حتى نهاية السنة، حيث سأستلم أجرة عملي. ولن أستلمها قبل ذلك التاريخ؟ لا أدري، دماغي يكاد ينفجر. ولم يعد هناك مَن أقترض منه. ولكن لا تقلق عليّ كثيراً، لا بد من تدبير الأمور على نحو ما.

بليشييف سيذهب إلى موسكو وبطرسبورغ. في مايو. استقبلْه بحفاوة وتعرّف على زوجته. استلمتُ الآن طرداً من ميلوكوف يحتوي على كتابه. جلبه أحد الضباط، لكنني لم ألتقِ الضابط. ولربما يعرج عليّ. بلّغ تحياتي إلى ميلوكوف والجميع.

كيف حال أهلنا؟ كيف حال بربارة وفيرا؟ لم أستلم منهما ولا كلمة لحد الآن. أين أخي أندريه، أين كوليا (نيكولاي)؟

وداعاً. أعانقك. تحياتي إلى إميليا، وقبّل الأطفال. زوجتي تبلغكم جميعاً تحياتها. وداعاً.

المخلص ف. دوستويفسكي

سأكتب مرة أخرى عندما أستلم الحاجيات ويتم التسريح. وسأخبرك بأوضاعي. ولكن أرجوك اكتبْ لي بنفسك، لا تتأخر، باللّه عليك!

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها»

(2) «حلم العم»

(3) بدأ نيكولاي غوغول كتابة «النفوس الميتة» عام 1835 ونشر الجزء الأول منها عام 1842.

(4) بخصوص موقف دوستويفسكي من شكسبير راجع، مثلاً، كتاب يو. د. ليفين «دوستويفسكي وشكسبير» المجلد 1، ص ص 108-134 (بالروسية).

(5) نشرت «النفوس الـ 1000» في 6 أعداد من «مذكرات الوطن» عام 1858. وفكرتها مناوئة لنظام القنانة الذي ظل سائداً في ريف روسيا حتى ذلك الحين. حظيت الرواية بتقريظ واسع في باقي المجلات.

64. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 11 أبريل 1859

أخي العزيز ميشا، أكتب لك كلمتين لا غير. ليس عندي وقت. أبعث مع هذا البريد ثلاثة أرباع روايتي[1] إلى كاتكوف. فلم يتسنَّ لي أن أنهي الرواية حتى الآن. عملت طول الليل تقريباً، واستيقظت متأخراً، ولا وقت لي، فالبريد ينصرف. منذ أسبوعين استلمت 1000 روبل من كوشيليف مع رسالة إطراء. ولم أخبرك بها حتى الآن لأنني كنت طول الوقت أنتظر منك رسالة لأجيبك على كل شيء دفعة واحدة. أريحيتك تتجلى في سرورك لإعجاب الكثيرين بقصتي[2]. لكنك كتبت بتاريخ 6 مارس دون أن تذكر أن قصتي نشرت. أفلا تصدر « الكلمة الروسية» في الأول من كل شهر؟ أرجوك ابعثْ لي «الكلمة الروسية» أو على الأقل مستلاً منها يتضمن قصتي. (. . .)

أشكرك على وعدك بإرسال بياضات وصدريات. كنت آمل أنك سترسلها من ألف كوشيليف، أما الآن فسوف نتحاسب عندما أصل إلى تفير. يا صديقي، بقي عندي من هذه الألف 600 روبل فقط. بهذا المبلغ ينبغي الرحيل والعيش حتى موعد السفر. وهذا شيء

متعذر. فالمبلغ لن يكفي. كتبتُ إلى كاتكوف أن يبعث لي 200 روبل أخرى. وسأبقى أنتظرها حتى 15 يونيو. وبعد ذلك لا يبقى مجال للانتظار، حيث يحين الرحيل. كما كتبت له عن أجرة الـ 100 روبل للملزمة. فكيف سيكون رده؟ إنه زعلان مني ولم يجبني على رسالتي الأخيرة. فما أصعب العلاقات الغيابية، يا أخي!

الرواية التي أبعثها إلى كاتكوف، أرقى بكثير من «حلم العم» على ما أظن. ففيها اثنان من الشخوص الجادة، بل والجديدة غير المسبوقة. ولكن كيف أنهي الرواية؟ مللت منها، وقد عذبتني بالمعنى الحرفي للكلمة. وآمل أن تظهر في «البشير الروسي» في أغسطس أو سبتمبر.[3] أنتظر منك رسالة على جناح السرعة. وأنا واثق بأنك ستكتب لي عن كل شيء، أي عن آراء الأدباء بشأن «حلم العم». أرجوك، اكتبْ بمزيد من التفصيل. أستعطفك!

أنت لا تكتب شيئاً عن بليشييف. هل سافر إلى موسكو؟ زافيالوف كان يتردد علينا كثيراً. وهو شاب طيب القلب ليس حقوداً. أنا أحبه كثيراً. ثم أنت تكتب عن (مدينة) تفير وتقول إن من اللازم العيش فيها عامين. فما أفظع ذلك، يا صديقي. بالعكس، أنا آمل بان أطلب رأساً سماحاً بالإقامة في موسكو. وبالطبع سأقدم الطلب حالما أصل إلى تفير. فقد منعوني ليس بمشيئة القيصر، بل لأن مفتشية (وزير الحربية) كتبت بكل وضوح أنها لا تأخذ على عاتقها البت في هذه المسألة، دون أن تعرف هل سمحوا لي بالإقامة في موسكو أم لا، وتنصح بطلب السماح من جلالة الإمبراطور عن طريق القسم الثالث (للديوان الإمبراطوري). وهناك بقية أمل، ففي 8 سبتمبر سيحل سن الرشد لولي العهد (الأمير نيكولاي، نجل الإمبراطور). ففي سن رشد الإمبراطور الحالي صدر عفو عام عن السجناء السياسيين. وأنا واثق

بأن القيصر في هذا العيد سيتذكرنا نحن التعساء، ويسامحنا على كل ما تبقى. وأتصور أن من الضروري حتى ذلك الحين، أي الثامن من سبتمبر، أن أقدم طلب السماح بالإقامة في موسكو، على أن أكون في ذلك الوقت في تفير.

وداعاً، يا أخي الطيب ميشا. أعانقك بكل حرارة، أنت وأفراد عائلتك. زوجتي تبلغك تحياتها. غداً عيد الفصح. قام المسيح. حقاً قام. صحتي كالعادة.

المخلص ف. دوستويفسكي

اعتنِ بربيبي بافل.

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها».

(2) «حلم العم»

(3) لم تنشر «البشير» رواية «القرية...» وانقطعت العلاقات مع كاتكوف بعد أن رفض زيادة أجرة المؤلف.

65. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

سيميبالاتينسك، 9 مايو 1859

صديقي العزيز ميشا. استلمتُ أخيراً رسالتك المؤرخة في 8 أبريل مع البريد الفائت، وقد تألمت وارتعبت كثيراً لمرضك. ولم تتبدد مخاوفي حتى الآن. فأنا أفهم تماماً أن مثل هذه النوبات يمكن أن تسفر عن أخطر العواقب. وإذا لم أستلم منك رسائل جديدة عن شفائك التام فلن يقر لي قرار كل هذه الفترة. سأغادر، إن شاء اللّه، في 15 يونيو، وليس قبل هذا التاريخ، بل ويحتمل بعده. وقد كتبت لك أن استقالتي قبلت في بطرسبورغ، بالمرسوم السامي المؤرخ في 18 مارس. ولكن (الكتاب الرسمي) وصل الآن فقط إلى هنا، ولا بد من الانتظار حتى بداية يونيو على الأقل إلى أن تنتهي كل الإجراءات الرسمية المتعلقة بالموضوع، فيتم نسريحي نهائياً. ولكنني إذا غادرت في 15 يونيو فمن المستبعد أن أستلم منك جواباً على رسالتي هذه، لا سيما وأن البريد الآن أبطأ بكثير نتيجة لفيوض الربيع. ولكن إذا كنت تحبني أجب على هذه الرسالة في الحال، واكتبْ لي عن صحتك بمزيد من التفصيل، وأَرسلْها على العنوان في سيميبالاتينسك مباشرة.

يتعين عليَّ أن أقيم في أومسك أسبوعين أو ثلاثة بخصوص استدعاء بافل من الفيلق. وسيبعثون لي رسالتك من سيميبالاتينسك، فلا تكتب إلى أومسك، بل عنون الرسالة إلى سيميبالاتينسك. خيل إليَّ تماماً، يا صديقي ميشا، أنك ستموت فجأة، ولن أراك أبداً. ولا يزال الرعب يعتصر فؤادي حتى الآن. آه، يا ليتني أستلم منك رسالة أخرى ولو بأربعة سطور!

أشكرك جزيل الشكر، يا صديقي، على إرسال القمصان والصدريات وغيرها. لكنني لم أستلمها حتى الآن. لاحظت من رسالتك أنك بعثت كل هذه الحاجيات في منتصف مارس. رسالتك المؤرخة في 9 أبريل وصلت منذ أسبوع، أما طرد الحاجيات الذي بعثته في منتصف مارس فهو متلكئ في مكان ما في الطريق. هذا شيء غير مفهوم بالنسبة لي.

كنت أخبرتك أنني استلمت النقود من كوشيليف. لكنني لم أستلم المجلة منه. ولربما سأستلمها. وقد أخبرني أنه سيرسل إليَّ الحسابات. ولعله يرسل المجلة معها.

يا صديقي ميشا، أرجوك أن تنفذ طلبي. اكتبْ لي كل ما تسمعه عن روايتي دون أن تخفي شيئاً. ماذا قالوا عنها، فيما لو قالوا. ولعلك تفهم أن ذلك في منتهى الأهمية بالنسبة لي.

كتبت إلى كوشيليف مع البريد الفائت. كان من اللازم أن أخبره باستلام النقود. وقد طلبت منه المجلة بنفسي. وبخصوص المشاركة في مجلته كتب لي في رسالته أنه ينتظر بفارغ الصبر قصتي المرتقبة، فكتبت له أنني أرغب قبل كل شيء في لقائه والتحدث معه شخصياً. وأبلغته أنني أخطط لرواية ضخمة في قرابة 25 ملزمة، وأنا شديد الرغبة في الشروع بكتابتها وحدها، إلا أن بعض الملابسات تحول

دون التفرغ لهذا العمل. وبودّي أن أتحدث معه عن هذه الملابسات بالذات. بذلك ختمت رسالتي إلى كوشيليف من دون الدخول في توضيحات. أما أنت فأوضح لك هذه الملابسات. 1) أنا بحاجة إلى سنة ونصف لكي أتفرغ للرواية وأباشر في تأليفها. 2) لكي أعكف على كتابتها سنة ونصفاً ينبغي أن أؤمن حالي مالياً، بينما أنا لا أملك شيئاً على الإطلاق. 3) أنت تكتب لي دوماً أخباراً منها، على سبيل المثال، أن غونتشاروف استلم على روايته (أوبلوموف) البشعة باعتقادي 7000 روبل وأن تورغينيف استلم من كاتكوف الذي طلبت منه 100 روبل على الملزمة لا أكثر 4000 روبل، أي 200 روبل للملزمة، مقابل روايته «عش النبلاء» التي قرأتها أخيراً، وهي فاخرة جداً. يا صديقي ! أنا أعلم علم اليقين أنني أكتب أسوأ من تورغينيف، ولكن ليس أسوأ منه بكثير. ثم إنني آمل أن أكتب لا أسوأ منه إطلاقاً. فلماذا أتقاضى أنا المحتاج 100 روبل فقط، فيما يتقاضى تورغينيف الذي يمتلك 2000 من الأقنان 400 روبل؟ بسبب العوز أنا مضطر إلى التسرع، في حين أن الكتابة من أجل النقود تفسد النتاج حتماً. ولذا أنا أنوي، أثناء اللقاء مع كوشيليف، أن أقول له صراحة أن يعطيني مهلة سنة ونصف و300 روبل على الملزمة، وفوق ذلك 3000 روبل فضي مقدماً لتغطية تكاليف المعيشة في فترة التأليف. وإذا وافق أتعهد إلى ذلك بأن أسلمه في بداية العام القادم قصة قصيرة بملزمة طباعية ونصف. لدي الكثير من حبكات القصص الطويلة، أما القصيرة فلا. لكنني آمل أن يزورني الإلهام قبل رأس السنة وأحبّر قصة قصيرة (لمجلة) كوشيليف. وقد يبدو لك أن شروطي المتهاودة انتقلت فجأة إلى شروط متعالية جداً. إلا أن ذلك كله، يا صديقي، يعود لسبب أنت لا تعرفه. ولما كان هذا السبب، بدوره، مرتبطاً ارتباطاً

وثيقاً بسؤالك لي عن «الفقراء» والذي تطالبني بإجابة عاجلة عنه فإني أنتقل هنا إلى «الفقراء» رأساً.

أنت، يا صديقي، تريد أن تبيعها إلى كوشيليف. هذا شيء مستحسن. لكنني أرجوك أن لا تفعل ذلك، لأن في ذهني فكرة أخرى. وها هي: أنا أنهي الآن روايتي المخصصة (لمجلة) كاتكوف، وقد باتت طويلة بـ 14 أو 15 ملزمة، ثلاثة أرباعها أرسلتها إليه، وسأرسل الباقي في الأيام الأولى من يونيو. اسمع، يا ميشا. هذه الرواية تعاني، طبعاً، من نواقص كبيرة جداً، لعل في مقدمها الإسهاب. إلا أنني واثق وثوقي بالبديهيات بأنها تتسم في الوقت ذاته بمزايا عظيمة، وأنها أفضل نتاج كتبته. اشتغلت فيها سنتين، مع فترة توقف في منتصف «حلم العم». البداية والوسط منقحان، والخاتمة مكتوبة باستعجال. لكنني وضعت فيها روحي وكياني لحماً ودماً. أنا لا أريد أن أقول إنني عبّرت عن نفسي فيها بالكامل. فسيكون مثل هذا القول مجرد هذر. إذ لا يزال هناك الكثير مما سأعبّر عنه. زد على ذلك أن الرواية تحتوي على القليل من العواطف، بمعنى ثورة المشاعر، كما في «عش النبلاء». إلا أن فيها شخصين نموذجيين بارزين صرفت في خلقهما وتسجيلهما خمس سنوات، وهما مرسومان بصورة لا شائبة فيها، باعتقادي. إنهما نموذجان روسيان تماماً، ولم يركز الأدب الروسي عليهما بالقدر الكافي حتى الآن. ولا أدري هل سيقدرها كوشيليف حق قدرها. أعترف بأنني يمكن أن أتعرض لليأس إذا استقبل الجمهور روايتي ببرود. فأنا أعقد عليها أفضل آمالي العريضة، والأهم عليها يقوم ترسيخ اسمي الأدبي. فتصور: الرواية ستظهر في العام الحالي، ربما في سبتمبر. وأعتقد أنه إذا تكلم عنها النقاد وأثنوا عليها، يمكنني أن أقترح على كوشيليف أن يدفع 300

روبل على الملزمة. فالذي يتعامل معه ليس ذلك الكاتب الذي ألف «حلم العم» فقط. بالطبع أنا يمكن أن أخطئ بخصوص روايتي ومزاياها، إلا أن آمالي كلها معقودة على ذلك. ثم إذا نجحت الرواية في «البشير الروسي»، على أن يكون نجاحاً كبيراً، فعند ذاك تتبادر إلى ذهني فكرة جديدة بدلاً من إصدار «الفقراء» في طبعة مستقلة. عندئذٍ يمكن بعد وصولي إلى تفير، وبمساعدتك يا عزيزي ومساعدي الدائم، أن نصدر في يناير أو فبراير العام القادم مؤلفاتي في مجلدين حسب الترتيب التالي: المجلد الأول - «الفقراء»، «حكاية الأطفال»، «شجرة الميلاد والزفاف»، المجموع قرابة 18 ملزمة طباعية. المجلد الثاني- الرواية المخصصة لكاتكوف «قرية ستيبانتشيكوفو»، و«حلم العم». المجموع 24 ملزمة. وفيما بعد يمكن إصدار «الشبيه» منقحة، أو على الأصح مكتوبة من جديد تماماً. وستمثل المجلد الثالث. سيكون ذلك فيما بعد. أما الآن فمجلدان. ولن تتجاوز كلفة طبع 2000 نسخة 1500 روبل. ويمكن بيعها بسعر 3 روبلات للنسخة. ولذا فإذا عكفتُ على كتابة الرواية الضخمة سنة ونصفاً فإن تسويق المجلدين بالتدريج يمكن أن يسد احتياجاتي وتكون لدي نقود. كما يمكن بيع الطبعة من دون إصدار منا إلى كوشيليف مقابل ثلاثة آلاف أو حتى ألفين وخمسمئة روبل. ولكن بالطبع لا يجوز الدخول في مفاوضات معه الآن. ينبغي أن ننتظر نجاح الرواية التي عند كاتكوف. كل الآمال معلقة عليها. ونجاحها يسهل جميع المفاوضات.

ملاحظة: سأبعث إلى كاتكوف إجمالاً 15 ملزمة بـ 100 روبل للملزمة الواحدة، الحاصل 1500 روبل، وقد استلمت منه 500 وطلبت منه 200 روبل أخرى لتكاليف السفر، بعد أن أرسلت له ثلاثة أرباع الرواية، المجموع إذن 700 روبل. سأصل إلى تفير وليس معي

نقود. ولكني سأستلم من كاتكوف في وقت غير بعيد 700 أو 800 روبل. وذلك مبلغ لا بأس به، يمكن أن يسد بعض الاحتياجات.

تخيفني إشاعات تقول إنه إذا أخذنا بافل نهائياً من الفيلق ينبغي أن ندفع مقابل رعايته 200 روبل في السنة، أي 400 روبل. فمن أين لي بها؟ تلك بالنسبة لي صاعقة. كل ما لدي الآن 600 روبل زائداً 200 من كاتكوف. ولكن ينبغي شراء ثياب وما إلى ذلك، ينبغي قطع طريق بـ 4000 كيلومتر في فصل الصيف حيث السفر باهظ الثمن. ينبغي تجهيز 4 أفراس، وأحياناً 5. ولذا فكل ما عندي من نقود هو للسفر فقط. فمن أين لي أن أسدد نفقات بافل الدراسية؟

وداعاً يا عزيزي وحبيبي الطيب ميشا. رافقتك السعادة وموفور الصحة. يا ليتني أقبّلك بأسرع ما يمكن. تحياتي لزوجتك وقبلاتي للأولاد. ربما أني لم أكتب الكثير في رسالتي هذه، لكنني مستعجل إلى أقصى حد. فهناك عمل ينتظرني. وداعاً يا عزيزي، تحية إلى بليشييف، لماذا لا يكتب لي؟ فهل زعل لأني طلبت منه نقوداً؟ غير معقول. زوجتي تبلغك تحياتها. بلّغ تحياتي لكل من يتذكرني. إلى اللقاء يا صديقي.

(المخلص دوستويفسكي)

66. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 19 سبتمبر 1859

استلمتُ أمس رسالتك، يا عزيزي ميشا. لكن الوقت متأخر، ولم أستطع أن أرد عليها رأساً. رسالتك أفرحتني إلى أقصى حد. أولاً، لأنني وحيد تماماً. وثانياً، لأنها وصلت قبل ما توقعت. كنت أظن أنها ستصل يوم السبت. أنا مسرور لأنك راض من جديد لوجودك بين أهلك. ولكن متى سنلتقي؟ فرغم مكوثي في تفير أنا أواصل الترحال على أية حال. وسيجمع المصير بيننا من جديد في وقت ما.

ذهبت إلى بارانوف (محافظ تفير) ومعي رسالة معنونة إلى دولغوروكي (مدير القسم الثالث). ووعدني بأن يبذل قصارى الجهود، بمعنى إرسال رسالتي لا أكثر، وقال أن لا جدوى من تقديم طلب الآن، فالأمير دولغوروكي غير موجود حالياً في بطرسبورغ، وهو لا يستطيع أن يرفع الطلب إليه خلال رحلته. ولذا نصحني أن أؤجل المسألة إلى منتصف أكتوبر، حيث يعود الأمير إلى بطرسبورغ. وطلب مني أن آتي إليه بالرسالة عندذاك. وأعتقد أنه محق. لا سيما وأن الأمير إذا عاد إلى بطرسبورغ بعد شهر فقد يدفع القضية بسرعة، خاصة

وأن هنالك تزكية وتوصيات من أشخاص مثل إدوارد إيفانوفيتش (توتليبين). وهكذا آمل أن أكون عندكم (في بطرسبورغ) في الأول من أكتوبر. فلننتظر إذن.

قرأت بمنتهى الارتياح ما جاء في رسالتك عن فرانغيل. فرحت له كثيراً. بلغه تحياتي وقل له إني أتحرق شوقاً لرؤيته. وإذا كان يستطيع أن يأتي إلى تفير ولو ليوم واحد فسيكون ذلك في منتهى الروعة. وسأكتب له هذه الأيام. كما سأكتب إلى إدوارد إيفانوفيتش بعد فترة قصيرة.

بلّغ تحياتي إلى مايكوف وقل له إني أتذكره دوماً وإن حبي له ليس أقل من حبه لي، وإذا جاء إلينا فسيكون ذلك عملا رائعاً. ولو ليوم واحد. قل له إنني أنتظره بفارغ الصبر. وقد كتبت لأخواتي.[1]

أنت تقول إنك لم تجد نكراسوف في بيته. ولكن، يا صديقي، إذا كنت لم تجده في السادس عشر من الشهر ألن تتأخر في تسليم المخطوطة؟ سنفوت الوقت فينشرون شيئاً آخر في عدد أكتوبر. لا سيما وأن قراءة المخطوطة ضرورية، وأنت لا تكتب هل تركتها له في بيته؟ وهل سلمته الرسالة؟ لقد وعدتني أن تكتب في 17 من الشهر إذا التقيت نكراسوف. ستراه بالطبع. ولذا أنتظر اليوم رسالتك بفارغ الصبر. ملاحظة: في العلاقة مع نكراسوف لاحظ جميع التفاصيل وكل ما يقوله. وأرجوك، باللّه عليك، اكتبْ لي عن كل شيء بالتفصيل. فهذا مهم جداً بالنسبة لي.

قبّل كوليا الكذاب، وكذلك قططك.[2] تحياتي الحارة إلى إميليا. زوجتي أيضاً تبلغكم جميعاً تحياتها الخالصة. بخصوصي شخصياً ليس لدي ما أضيفه. سوى أنني أفكر في المستقبل، وكيف أعكف على الرواية، وأتشكى من لزوم كتابة رسائل كثيرة، وقد تعذبت كثيراً في

تحرير الرسالة إلى الأمير (دولغوروكي...). الطقس رديء في تفير. والملل فظيع. أنا أفكر فيك يا عزيزي. لقد غادرتَ وأنا أعرف أننا لم نتعرف بعدُ بعضنا على بعض كما ينبغي، ولم نعبر أو نكشف لأحدنا الآخر عن كل شيء. كلا، يا أخي، لا بد أن نعيش معاً حياة غير متسرعة، بل عادية، وعندها سنتعايش تماماً. أنت عندي الوحيد، عشر سنوات لم تفرق بيننا. لم تكتب لي عن صحتك. والأهم ماذا قال لك (الدكتور) روزينبيرغ؟ رجاءً استفد من مشورته. وداعاً يا عزيزي. أعانقك. اكتبْ باللّه عليك.

المخلص د (وستويفسكي)

ملاحظة: (...) أنا أخطط للرواية التي ذكرت لك مضمونها، ولكنني آسف لإرجاء الرواية المطولة. فكرت في كتابتها. لولا ضرورة النقود للصرف على المعيشة.

لا تهمل النزيف. راجع روزينبيرغ.

---

(1) رسائل دوستويفسكي لأخواته في تلك الفترة مفقودة.

(2) «الكذاب» كوليا هو شقيق دوستويفسكي نيكولاي، و«القطط» هم أولاد ميخائيل.

67. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 1 أكتوبر 1859

عزيزي ميشا! استلمتُ رسالتك أمس بعد أن بعثت إليك رسالتي التي تضمنت لوماً لك. والحقيقة، يا صديقي، كنت منهار المعنويات تماماً، لأنني لم أستلم منك شيئاً. ولذلك أرجوك الآن أيضاً، وحتى لو لم تجد شيئاً تكتب لي عنه، اكتبْ لي ببساطة وقل: لا شيء لديك يستحق الكتابة. لا تتركني في قلق شديد يزيد اليأس والتعاسة في أوضاعي. وآمل أن لا تزعل مني بسبب رسالتي. لا تزعل، يا حبيبي، واكتبْ لي أكثر.

أعترف أن رسالتك أدهشتني. لماذا يتصرف نكراسوف هكذا؟ هل هو مغرور بنفسه؟ أم أنه لم يقرأ (رواية القرية..) بعد؟ سمعت أن نكراسوف مولع كثيراً بلعب القمار. ثم إن بانايف في شغل شاغل عن المجلة. ولولا تشيرنيشيفسكي ودوبرولوبوف لتقوض كل شيء عندهم. تقول إن من اللازم الانتظار، وهو أكثر لياقة. ولكننا، يا صديقي، انتظرنا بما فيه الكفاية. ولذا، اذهب، رجاءً، وأنا أرجوك بقوة، اذهب بنفسك إلى نكراسوف وحاول أن تجده في البيت، وهذا

هو الأهم. تكلم معه عن المصير الذي يقررونه للرواية. المهم أن تعرف هل سيطبعونها في عددين أو ثلاثة وما هي ملاحظاتهم عليها؟ وعندما تفرغ من الكلام عن ذلك يمكنك في الأخير أن تتطرق إلى النقود. قم بذلك، لوجه المسيح. وانتزع منهم الكلمة الأخيرة. فإذا لم تذهب بنفسك قد لا يأتي إليك أبداً. خصوصاً إذا كان يلعب القمار. أعقد كل أملي عليك.

والآن، يا عزيزي، أريد أن أكتب لك عما عزمت عليه لاعتبارات ناضجة. قررت أن أكتب الرواية، المطولة طبعاً، عاما كاملاً. فلا أرغب في الاستعجال. تركيبتها جيدة تحول دون التطاول عليها، من خلال التسرع في تأليفها لموعد معين. أريد أن أكتب بحرية وطلاقة. هذه الرواية تتضمن فكرة، وهي ستشق الطريق أمامي. ولكن كتابتها تتطلب تطمين الاحتياجات المعيشية. بيعها سلفاً والعيش على ثمنها انتحار. ذلك يعني القبول بـ 100 أو 120 (روبلاً للملزمة)، بينما أستطيع أن أتعامل وأحصل ربما على 150 أو 200. أنا نفسي سأكون بمثابة القاضي وأحكم لصالحي. إذا نجحت الرواية أنا أحدد السعر. ولذا لا يجوز البيع مقدماً، ويجب التأليف في ظل تطمين الاحتياجات. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: من أين أستحصل النقود لتغطية مصاريفي لعام واحد على الأقل؟ لقد فكرت في الموضوع جدياً وقررت أن أطبع بنفسي مؤلفاتي السابقة دون أن أبيعها إلى الغير. فالبيع لن يوفر الكثير، لن يعطوني (مقابل حقوق النشر) مالاً كثيراً. اسمع، إذن: لنفترض أن التوزيع سيجري ببطء. إلا أن ذلك لا يهم بالنسبة لي. فأنا بحاجة إلى 120 أو 150 روبلاً في الشهر. إذا حصلت على هذا المبلغ (من التسويق) فإنه سيطعمني. ولعلك تسأل: من أين نأتي بالنقود لتغطية تكاليف الطبع؟ إليك ما

أفكر فيه: 1) الإصدار ليس دفعة واحدة، بل كتاباً كتاباً. العدد الإجمالي ثلاثة كتب. يضم الكتاب الأول «الفقراء» و«نيتوتشكا نيزفانوفا» و«الليالي البيضاء» و«حكاية الأطفال» و«شجرة الميلاد والزفاف» و«اللص الشريف»، بعد التعديل، و«الزوج الغيور». المجموع قرابة 23 ملزمة بطباعة متحاشكة. ويضم الكتاب الثاني «الشبيه»[1] بعد التجديد الشامل، و«حلم العم». فيما يضم الكتاب الثالث «قرية ستيبانتشيكوفو». الكتاب الأول، باعتقادي، سيباع بسرعة. ولكن ينبغي تنقيح «الفقراء»، فهي لم تتغير منذ الطبعة الثانية. وكل ما تبقى في الكتاب الأول ينبغي أن يصحح قليلاً. بعض مؤلفات الكتاب الأول، مثل «نيتوتشكا نيزفانوفا»، ربما موجودة عندك، وبعضها الآخر يجب أن تبحث عنه بسرعة وعلى الفور عند مايكوف وميلوكوف وسواهما. بلغهم تحياتي، واطلب منهم أن يسمحوا بأن نستلّ هذه القصص من (مجلاتهم). فإذا سمحوا أَرسلْها إليّ وأنا أصححها على النسخ المستلّة وأعيدها إليك من دون تأخير. وإذا تمكنا من إنجاز ذلك في نهاية اكتوبر وتكون كل القصص مصححة عندك يمكن تسليمها إلى الرقابة في الأول من ديسمبر. وعندذاك نبدأ بطبع المجلد الأول اعتباراً من مطلع ديسمبر. من أين لنا بالمال؟ هكذا: أرجوك من جديد أن تأخذ الكمية اللازمة من الورق للمجلد الأول من التاجر وسلمه باسمك كمبيالة لمدة 6 أشهر، أو حتى أقل. المطلوب 300 روبل أو يزيد قليلاً. أقسم لك يا عزيزي ميشا أنني سأسدد الكمبيالة التي ستوقعها الآن بدلاً عني. وإذا لم يحظ الكتاب بالرواج ولا يعوض حتى عن ثمن الورق فسأحصل على النقود مهما كلف الأمر وأسدد الكمبيالة في الموعد. ولن تتضرر أنت. أما المطبعة، إذا تعذر التعامل معها بكمبيالة، فإنني أقدم نصف تكلفة

الطباعة، وأقترض النصف الثاني.(. . .) وهكذا، يمكن أن تنتهي الطباعة في منتصف يناير، ويمكن عرض الكتاب للبيع. أنا واثق بأن المجلد الأول سيترك تأثيراً معيناً. ذلك، أولاً، لأنه يجمع بين أفضل النتاجات، وثانياً، إنني أذكّر القراء بشخصي، وثالثاً، اسمي بحد ذاته مثير للفضول. ورابعاً، إذا نجحت الرواية في «المعاصر» فإن هذا المجلد سينجح أيضاً. والحال ففي منتصف ديسمبر سأرسل لك، أو أجلب بنفسي، «الشبيه» مصححة. صدقني، يا أخي، إعداد هذه النسخة المصححة والمزودة بمقدمة يعادل رواية جديدة. وسيرون أخيراً ما هي «الشبيه». آمل أن أثير انتباههم بقدر كبير جداً. باختصار، أنا أتحدى الجميع. وأخيراً إذا لم أصحح «الشبيه» الآن فمتى سأصححها؟ ولماذا أضيع الفكرة الرائعة وأفقد نموذجاً عظيماً من حيث أهميته الاجتماعية وأنا أول من اكتشفه وبشَّر به؟

في ديسمبر ذاته أسلم «الشبيه» و«حلم العم» إلى الرقابة. وفي يناير نطبع، وفي نهاية فبراير يصدر المجلد الثاني. وبعده، معاً تقريباً، المجلد الثالث- «قرية ستيبانتشيكوفو». النقود إما أن أقترضها، وإما أن المجلد الأول يوفرها. ثم إن المجلدين الثاني والثالث يمكن عند الضرورة بيع حقوق نشرهما في حال نجح المجلد الأول. سأعوض عن نفقات الطبعة، وحتى ذلك الحين أعيش على نقود «المعاصر»، وبعد ذلك على عائد بيع الطبعة، على الرغم من أنه سيكون بطيئاً. لا فرق بالنسبة لي. ذلك لأن البيع البطيء يكفي لإطعامي، فيما أعكف بجد من ديسمبر نفسه على تأليف الرواية الكبيرة التي إذا حققت النجاح بعد عام يمكن أن ينسحب نجاحها على باقي نسخ «المؤلفات». ولذا تتلخص الخطوة الأولى الآن في إطلاعي حالاً على رأيك وإرسال نسخ قصص المجلد الأول فوراً، وعلى قدر المستطاع،

لتصحيحها. إذا تباطأت في الجواب، يا صديقي، اعلم أن وقتي سيضيع جزافاً. فأنا لن أفعل شيئاً ولا أستطيع أن أفعل قبل الحل النهائي، أي هل ستوافق (على المشروع) وتساعدني أم لا؟ باللّه عليك أجبني بسرعة.

مايكوف لم يزرني (في تفير).. استلمت رسالة من فرانغيل. غولوفينسكي موجود هنا، وقد عرّفني دفعة واحدة على مجتمع المدينة كله. أنا لا أنوي إقامة علاقات حميمة مع الجميع، إلا أن الأصدقاء موضوع آخر. في المدن الهامشية لن يستطيع المرء أن يعتزل. وهذا أمر يثقل عليّ من ناحية. ثمة اثنان أو ثلاثة من الناس الطيبين. تعرفت جيداً على (المحافظ) بارانوف والكونتيسة (زوجته). وقد دعتني مراراً وبإلحاح أن أحل ضيفاً على منزلهم في الأمسيات. وكان من المتعذر تجاهل هذه الدعوات. واتضح لي أنني كنت أعرفها. فقبل 12 عاماً عرّفني (الكونت) سولوغوب عليها، وهي (قريبته)، وكانت فتاة يافعة لقبها فاسيلتشيكوفا.

ماريا دميتريفنا تبعث تحياتها. وأنا أعانقك من صميم القلب، وسأكون في فرحة عارمة للتملص من تفير. ففي تفير سيعيقني البعض عن الكتابة. أجبني، يا عزيزي، باللّه عليك. وداعاً، أقبّلك بحرارة. احتراماتي للجميع. حافظ على صحتك الثمينة. وتحياتي إلى إميليا وكولا وساشا. أكتب أكثر. حبذا لو استلمت النقود من نكراسوف. فهي ضرورية لك أولاً، ولي ثانياً.

(أخوك)

---

(1) رواية «المثل» في ترجمة سامي الدروبي.

68. إلى ألكسندر الثاني

تفير، 10-18 أكتوبر 1859

حضرة صاحب الجلالة الإمبراطور المعظم!

أنا المجرم السابق المذنب بحق الدولة أتجرأ على عرض طلبي المستكين أمام عرشكم العظيم. وأنا أعرف أنني لا أستحق مبرة جلالتكم السامية، وأنني آخر من يمكن أن يأمل في مرحمة جلالتكم. إلا أنني إنسان تعيس، وأنتم، يا قيصرنا، رؤوف رحيم بلا حدود. أستميح جلالتكم عذراً على رسالتي، فلا تسلطوا سيف غضبكم على تعيس ينشد رحمتكم.

كنت محكوماً بجريمة ضد الدولة عام 1849 في بطرسبورغ وخفضت رتبتي وحرمت من كل حقوق الملكية ونفيت إلى سيبيريا لأداء الأشغال الشاقة من الدرجة الثانية في الحصون لمدة أربع سنوات، مع التنسيب بعد انتهاء هذه المدة إلى الجيش بصفة جندي. وفي عام 1854، وبعد الخروج من قلعة أومسك، نسبت جندياً إلى الكتيبة السيبيرية الميدانية السابعة. وفي عام 1855 تم ترفيعي إلى ملازم ثان، وفي العام التالي، 1856، أسعدت بمبرة سامية من جناب

جلالتكم الإمبراطورية بتنسيبي إلى سلك الضباط. وفي العام 1858 وجّه جلالتكم بمنحي حق كرامة النبلاء الوراثية، وفي العام ذاته قدمت استقالتي لإصابتي بالصرع الذي لاحت نذره منذ العام الأول من الأشغال الشاقة. والآن، بعد قبول استقالتي وتسريحي، انتقلت للإقامة في مدينة تفير. مرضي يشتد أكثر فأكثر. وبعد كل نوبة صرع أفقد، على ما يبدو، الذاكرة والتصور والقوى الروحية والبدنية. والنتيجة التي يؤول إليها مرضي هي إما الهزال أو الموت أو الجنون. ولدي زوجة وربيب يجب عليَّ أن أرعاهما. وليست عندي أية أملاك، وأكسب القوت من العمل الأدبي وحده. وهو عمل عسير ومرهق في حالتي المرضية. والحال فإن الأطباء يؤملوني بالشفاء استناداً إلى أن مرضي مكتسب وليس وراثياً. إلا أنني لا أستطيع الحصول على الإسعاف الطبي الجدي الحاسم إلا في بطرسبورغ حيث يوجد أطباء متخصصون بدراسة الأمراض العصبية. يا صاحب الجلالة الإمبراطورية، على مشيئتكم يتوقف مصيري وصحتي وحياتي. فتكرموا عليَّ بسماح الانتقال إلى بطرسبورغ للاستفادة من مشورة أطباء العاصمة. تكرموا بإحيائي ومنحي فرصة خدمة عائلتي بعد تحسن صحتي، بل وربما خدمة وطني بشيء. في بطرسبورغ يقيم دائمياً اثنان من إخوتي استمر فراقي معهما عشر سنوات. وقد تخفف عنايتهما الأخوية بي من وضعي العصيب. وعلى الرغم من كل آمالي فإن المآل السيئ لمرضي أو وفاتي يمكن أن يتركا زوجتي وربيبي من دون أي عون. وسأعمل لتأمين معيشتهما ما دامت في بدني قطرة من الصحة والقوة. إلا أن الأعمار بيد اللّه. والأمنيات البشرية لا مصداقية فيها. أيها القيصر الرؤوف الرحيم. اعذروني على رجاء آخر وتكرموا بمبرة استثنائية لقبول ربيبي بافل عيسايف البالغ من العمر 12

عاماً في إحدى ثانويات بطرسبورغ على حساب الدولة. وهو من أبناء النبلاء الأقحاح، نجل سكرتير المحافظة ألكسندر عيسايف الذي توفي في سيبيريا أثناء خدمة جلالتكم بمدينة كوزنيتسك محافظة تومسك، وقد قضى نحبه لعدم توفر الخدمات الطبية في البقاع النائية التي كان يخدم فيها، وترك زوجته وابنه من دون أية ثروة. وإذا تعذر قبول بافل عيسايف في الثانوية فتكرموا يا صاحب الجلالة بتوجيه قبوله في أحد فيالق الكاديت في بطرسبورغ. وبذلك تسعدون والدته المسكينة التي تعلّم ابنها يومياً على الابتهال من أجل سعادة جلالتكم وسعادة أسرتكم المبجلة. إنكم، يا صاحب الجلالة، شمس تنير الصالحين وغير الصالحين. وقد أسعدتم الملايين من أبناء شعبكم، فتكرموا بإسعاد يتيم مسكين وأمه ومريض تعيس لا يزال طريداً حتى الآن، وهو مستعد للتضحية بحياته في الحال من أجل القيصر الذي شمل شعبه بأفضاله.

بشعور من التمجيد والوفاء الخالص بلا حدود أتجرأ على توصيف نفسي بأصدق شخص شاكر أمين من رعايا جلالتكم الإمبراطورية.

فيودور دوستويفسكي

69. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 20 أكتوبر 1859

عزيزي الغالي ميشا. أكتب لك هذه المرة كلمتين لا أكثر. استلمتُ رسالتك المؤرخة في 17 أكتوبر، ولكني لم أستلم بعد الطرد الذي بعثته لي،' بل ولم يصلني إشعار من دائرة البريد. هذه الدائرة تعمل دوماً بغير انتظام. على أية حال أنا لا أعرف متى انطلق الطرد من بطرسبورغ. فهناك يمكن أن يتأخر.

أشكرك، يا صديقي، على جهودك وأتعابك في جمع مؤلفاتي. أنا أفهم وأتلمس كم تجهد نفسك من أجلي. وسأرد الجميل في زمن ما.

هل إستلمت رسالتي الأخيرة التي طلبت منك فيها أن تذهب إلى نكراسوف وكالينوفسكي[1]؟ عموماً، يا صديقي، أستعطفك مرة أخرى أن تبلغني في كل رسالة من رسائلك أنك استلمت رسالتي الفلانية، وهلمجرا. هذا شيء مهم. أرجو أن تفهمه. ثم إني أستعطفك، يا صديقي الغالي، أن تتصرف كما كتبت لك في رسالتي الأخيرة، أي أن تذهب إلى نكراسوف وإلى كالينوفسكي. وبالطبع أترك كل شيء

لك ولتصوراتك، فقد تستجد ملابسات لا علم لي بها. ولعلك توافقني أن نصيحتي لها قيمتها، وأن الذهاب إلى هذين الرجلين أمر مستحسن.

كرايفسكي كان قد وعدك يوم الخميس بإبلاغك النتيجة بعد أيام. وقد مرت تلك الأيام، حالياً نحن في يوم الثلاثاء. ومن الواضح أنهم يماطلون.

بخصوص كوشيليف أنا موافق بالطبع، وأشكركما كليكما، أنت ومايكوف. الـ 2000 مبلغ لا بأس به. ولكن الطبعة ستكون بثلاثة أجزاء. «قرية ستيبانتشيكوفو» تشكل الجزء الثالث. ولكن في حال ما إذا نشرها كرايفسكي هذا العام. حاول، يا عزيزي، أن تصر على هذا العام.

ملاحظة: ثمة نقطة أخرى. هل تتذكر المحاججات الأدبية للعقيد روستانيف[2] بشأن الأدب والمجلات و«مذكرات الوطن» وغيرها. الشرط اللازم أن لا يشطب كرايفسكي ولا سطراً واحداً من تلك المحاججات. رأي روستانيف لا يهين ولا يؤذي كرايفسكي بأي حال. أرجوك، ركز على هذا الشرط خصيصاً. استلمت النقود التي بعثتها لي وأشكرك، وأنت عارف بمدى شكري.

عريضتي أرسلت إلى بطرسبورغ، وأنا أنتظر. ولربما سيمر وقت طويل قبل أن أراك. فهم سوف يستفسرون وينقبون. هكذا أتوقع. ربما بعد شهرين.

وداعاً، يا عزيزي الغالي. أعانقك وأقبّلك. أخوك المخلص لك

دوست (ويفسكي)

تحياتي لجميع أفراد عائلتك. فرانغيل لم يكتب لي. ماذا دهاه؟ بعثت رسالة من خلاله إلى توتليبين. لم أستلم الجواب وقد مر أسبوعان.

---

(1) رئيس تحرير مجلة «المشعل».
(2) بطل «قرية ستيبانتشيكوفو».



70. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تفير، 12 نوفمبر 1859

استلمتُ أمس رسالتك المؤرخة في 9 من الشهر، يا صديقي ميشا. وأريد أن أكتب لك ولو سطرين. أنت لن تصدق مدى امتعاضي من المكوث في تفير دون أن أعرف أي شيء عن سير قضيتي في واقع الحال. حبذا لو استطعت أن أخطط، ولكنني لا أستطيع لعدم معرفتي بأي شيء مما يجري بخصوصي في بطرسبورغ. كتبتُ للجميع وطلبت من الجميع ولا جواب. أوافقك على أنني اخترت في هذه القضية الطريق الأصعب. ألوم نفسي كل يوم وأنتظر. لعل أحداً يذكّر أدلربيرغ بقضيتي. ماذا لو أنهم لم يرفعوا رسالتي إلى المقام السامي؟ حبذا لو ذهبت أنت في لحظات الفراغ، إنْ وجدت، إلى فرانغيل لتستفسر منه، هل يتولى توتليبين مفاتحة أدلربيرغ بشأني أو يطلب من دولغوروكي أن يحدث أدلربيرغ عني أو يقدم طلبي بنفسه إلى صاحب الجلالة الإمبراطور؟ يا ليت شيئاً يحصل بسرعة. القيصر رؤوف رحيم، نحن جميعاً نعرف ذلك. إلا أن الرسميات والشكليات تؤخر النتيجة. المهم أن أقيم في بطرسبورغ لأبيع مؤلفاتي. على فكرة، لدي

خطة في ذهني هي أن لا نبيعها مقابل نقود، بل نطبعها بـ 2000 نسخة عند شيبكين وسولداتينكوف في موسكو. وهما لا يدفعان نقوداً، بل يطبعان ويسترجعان رأسمالهما بعد التسويق مع فائدة مئوية معقولة. هذا، باعتقادي، أفضل لعدة أسباب يطول الحديث عنها. ولعلي أفعل هكذا لو تمكنت من الحصول على نقود فور وصولي إلى بطرسبورغ لتغطية تكاليف المعيشة، إضافة إلى ما سأستلمه من كرايفسكي. أنت تفهم أن ذلك كله يهمني كثيراً. ففيه الحياة والمستقبل. على أية حال لا تفهم كلامي هذا حرفياً. فإذا توفرت الفرصة يمكنك أن تبيع مؤلفاتي مقابل نقود وابحث عن تلك الفرصة من دون انتظار مجيئي إلى بطرسبورغ. فالوقت يمضي. حبذا لو أصدرنا المؤلفات. الوقت يمضي ومعه نفقد فرص الحصول على المال...

ولكن فليذهب المال إلى الشيطان. بودّي أن أعانقك. وهذا هو الأهم. بودّي أن أقيم قربكم، وفي محيطكم، على جناح السرعة. العيش هنا صعب عليّ. الوقت يمضي وأنا لا أستطيع أن أباشر بشيء بسبب مختلف الانفعالات الأخلاقية... قد لا تصدق، يا عزيزي ميشا، مدى تأثير الانتظار. بعد شهر، وهل ستحل المسألة بعد شهر؟ ربما ستمر ثلاثة أو أربعة شهور. أنت تكتب عن فكرة تحتاج للبداية 15 أو 20 ألفاً. ذلك يشغل بالي أنا أيضاً، يا أخي، وكأن لعنة نزلت علينا. إذا نظرت إلى الآخرين تجد الواحد منهم يبني نفسه ويجمع الرأسمال من دون مواهب ولا قابليات. بينما نكدح نحن ونكد جزافاً. أنا على يقين، مثلاً، بأن لدينا وإياك شطارة وقابليات ومعرفة بالأمور، نعم، أكثر مما عند كرايفسكي ونكراسوف. فمثلهما في الأدب كمثل الفلاحين الجهلة. في حين أنهما يغتنيان، بينما جيوبنا خالية. أنت، مثلاً، شرعت بممارسة التجارة، فما أكثر الجهود وما

أقل المردود. ماذا كسبت؟ الحمد للّه أنك دبرت معيشتك وربيت الأولاد. فيما بلغت تجارتك نقطة معينة وتوقفت. هذا شيء محزن بالنسبة لإنسان لديه قابليات. كلا، يا أخي، يجب أن نفكر، وبشكل جدي، يجب أن نجازف ونتولى أمر مؤسسة أدبية، إصدار مجلة، على سبيل المثال... بالمناسبة، سنفكر في ذلك ونتحدث عنه معاً. لا يزال في الوقت متسع. نتيجة الرواية[1] ليست كبيرة حقاً: 13- 14 ملزمة. وهذا قليل. وسأستلم أقل مما كنت أتوقع. لعنة اللّه على الفقر. أَرسلْ لي رجاءً نسخة مستقلة قبل صدور عدد المجلة. فهذا يهمني جداً، كما تعلم.(...) أرجوك أن تبعث لي رأساً (ما يتبقى من أجرة الرواية بعد الاستقطاعات) على سبيل الاحتياط. من يدري ربما سيتقرر مصيري. وعندها سأحتاج إلى تلك النقود لمغادرة هذا المكان. ولذا أرسلْها بأسرع ما يمكن. وداعاً، أعانقك، اكتبْ لي عاجلاً.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: حالما تصدر الرواية أَطلعني، بمنتهى التفاصيل، على كل ما تسمعه عنها. وما ستكون الأقاويل إنْ وجدت.

---

(1) «قرية ستيبانتشيكوفو» نشرت في «مذكرات الوطن» عام 1859.

71. إلى ألكساندرا شوبرت

بطرسبورغ، 3 مايو 1860

الفاضلة ألكساندرا إيفانوفنا الموقرة. أنا في بطرسبورغ من ثلاثة أيام، وقد عدت إلى أعمالي. الرحلة كلها إلى موسكو تبدو لي وكأنها حلم في المنام. وقد عدت من جديد إلى رطوبة الجو والأوحال، إلى جليد (بحيرة) لادوغا، إلى ملل ما بعده ملل. ذهبت إلى ستيبان دميتريفيتش، وهو في شقته السابقة، في بناية بيكييف، واستقبلني بفرح وترحاب وسأل عنك كثيراً. أخبرته بكل ما أعرف، وبلّغته، بالمناسبة، أنك راغبة جداً في استبدال الشقة، وأنك لا تملكين نقوداً، بل تنتظرينها منه. فقال إن شقتك الحالية جيدة، وليس إيجارها باهظاً كما يبدو للوهلة الأولى، ولكن بالطبع الأفضل لك أن تنتقلي إلى شقة أخرى وأنه تحدث معك عن الانتقال، ولهذا الغرض سافر إلى موسكو ليقول لك ذلك، ويرتب إقامتك عموماً، إلا أنه استنتج أن ذلك يتطلب مبلغاً كبيراً، لاستئجار قصر، والمبلغ غير متوفر حالياً، وأنه بالطبع سيرسل لك ربما 300 روبل يوم الأربعاء، وأن ذلك قليل. وأضاف عرضاً: أن لديك نقوداً، ولكن ينبغي صرف التذكرة، وهو أمر لا

ترغبين فيه. وأذكر أنك تحدثت عن هذه التذكرة في بطرسبورغ وعن رغبة ستيبان دميتريفيتش في صرفها. وأنا لم أقل له شيئاً بهذا الشأن واقتصرتُ في حديثي على الصعوبة التي تواجهينها في تناول طعام الغداء أحياناً في الساعة الخامسة. كما حدثته عن نجاحاتك على خشبة المسرح وعن بليشييف وعن مدام إيلوفايسكايا. وهو أيضاً يرى أن التعرف على علية المجتمع ضروري حتى في تثبيت موقعك المسرحي. جلست معه قرابة ساعة. كان ذلك يوم الأحد. وفي المساء مر ستيبان دميتريفيتش على أخيه وكان في أحسن مزاج. وفي يوم الأربعاء، أي غداً، سيكتب لك. هكذا قال على أية حال. تلك هي كل تفاصيل جلستي معه.

عدت إلى هنا وأجد نفسي في وضع محموم تماماً. والسبب في ذلك روايتي. أريد أن أكتبها جيداً، وأحس أن فيها شاعرية، وأن مستقبلي الأدبي يتوقف على نجاحها. ولذا يتعين عليَّ أن أعكف على تأليفها قرابة ثلاثة أشهر. فما أعظم المكافاة حينما أنتهي. تتجسد تلك المكافأة في الهدوء النفساني والنظرة الصافية إلى المحيط والاطمئنان إلى أنني فعلت ما أردت أن أفعله وبقيت مصراً على موقفي. ولربما سأكافئ نفسي بسفرة إلى الخارج لمدة شهرين تقريباً. لكنني سأعرج على موسكو حتماً قبل ذلك. كيف ألتقيك عندئذٍ؟ آنذاك تتعايشين مع موسكو وترتبين أوضاعك تماماً. فليوفقك اللّه. ولك مني أخلص التمنيات. أنا أيضاً أريد أن أستحق صداقتك. أنت طيبة القلب للغاية، وذكية جداً، وروحك أليفة بديعة، ولا أفضل من الصداقة معك. ثم إن طباعك أخّاذة. فأنت ممثلة. وأحياناً تسخرين برقّة من كل ما هو مبتذل ملحاح وغبي يثير الضحك حتى يغدو الإنصات إليك بديعاً ممتعاً. الاعتزاز بالنفس شيء جيد، ولكنه، باعتقادي، ضروري

فقط للأهداف الرئيسية، لكي يضع المرء هدفاً لنفسه ورسالة لحياته. وكل ما عدا ذلك تافه لا أهمية له. الحياة اليسيرة هي الأهم. بشرط التعاطف مع الناس، بالإضافة إلى استحقاق تعاطفهم. وهذا وحده، حتى من دون أهداف متميزة، يشكل هدفاً كافياً في الحياة.

لكنني تماديت في التفلسف. الأخبار التي سمعتها قليلة. لم أسمع شيئاً تقريباً. بيسيمسكي مريض بالروماتيزم الشديد. مررت على أبولون مايكوف، فقال لي إن بيسيمسكي متقلب المزاج في زعل ونزوات وما إلى ذلك. ولا غرابة في ذلك، فالمرض موجع أليم. على فكرة، هل تعرفين المدعو سنيتكين. كان ينظم أشعاراً فكاهية باسم آموس شيشكين. تصوري، مرض وقضى نحبه في ستة أيام. الصندوق الأدبي قدم معونة لعائلته. أمر محزن. ولعلك لا تعرفينه. رأيت كريستوفسكي. وأنا أوده كثيراً. نظم قصيدة وتلاها علينا باعتزاز. وقلنا له جميعاً إن هذه القصيدة رديئة للغاية، ذلك لأننا اعتدنا على قول الحقيقة. فكيف كان رد فعله؟ لم يزعل مطلقاً. إنه فتى شهم لطيف. وأنا أزداد إعجاباً به حتى يطيب لي أن أزيل الكلفة وأجلس معه في الاستراحة. أحياناً تأتي الانطباعات عجيبة غريبة. يخيل إليّ طول الوقت أن كريستوفسكي سيموت قريباً. ولا أدري ما سبب هذا الانطباع.

بودّنا أن نقوم بمشروع مرموق في الأدب، كمؤسسة فكرية. ونحن مشغولون جداً بهذا الموضوع. ولربما سنوفق. على أية حال، كل هذه المهمات نشاط وإنْ كان في خطوته الأولى[1]. أنا أفهم الخطوة الأولى، وأحبها، فهي أفضل من الطفرات.

حدثني ستيبان دميتريفيتش قليلاً عن مارتينوف وعن طرف من موقفك تجاهه. وإذا كان ذلك صحيحاً فكم كنت تحتاجين من الحذر

والحذاقة ومعرفة الناس والمشاغل؟ في مثل هذه الحال يعتكر المزاج عفوياً. وما يعجبني فيك تحديداً هو أنك تؤمنين بالحياة وبرسالتك فيها رغم المنغصات وتحبين الفن من صميم القلب ولا تشعرين بخيبة أمل فيه. فليكن اللّه في عونك. تلك هي أمنية من يتجرأ ويعتبر نفسه صديقاً لك.

وداعاً، لا تزعلي من لجاجتي في طلب الصداقة. على فكرة، طباعي متنرفزة مقيتة، في بعض الأحيان، وليس على الدوام. وهذا ما يخفف عليّ. شدّي، بالنيابة عني، على يد ابنك ميخائيل ميخائيلوفيتش. فما أروعه من فتى. أشد على يدك وأقبّلها، مع فائق التقدير والاحترام.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) المقصود إصدار مجلة «الوقت» الشهرية.

72. إلى يعقوب بولونسكي

بطرسبورغ، 31 يوليو 1861

عزيزي الغالي يعقوب بتروفيتش. أرجو المعذرة لأنني لم أكتب لك من زمان. واللّه العظيم كنت مشغولاً على الدوام. فقد سافرت إلى موسكو للتجول ولو لـ 10 أيام فقط. لكنني أهملت عملي خلالها، ولذا انكببت عليه من اليوم الأول لشهر يوليو وحتى نهايته[1]. وأنا عندما أعمل، تلك هي طبيعتي، لا أعبأ بالأمور الأخرى أو كتابة الرسائل حتى إنْ وجد قليل من أوقات الفراغ.

ولذا لم أكتب لك حتى الآن. فهل تسامحني؟

كيف حالك عموماً؟ والأهم كيف صحتك؟ ماذا تفعل؟ هل تكتب؟ أنا أقرأ جميع رسائلك، ولكنك لا تكتب فيها عن نفسك إلا القليل. بالمناسبة، متى تعود؟ وهل ستقضي كل الأوقات في النمسا؟ إيطاليا جنبك على ما يبدو، ألن تغويك فتسافر إليها؟ لقد حالفك الحظ. كم مرة حلمتُ، منذ الطفولة، بالسفر إلى إيطاليا؟ من روايات رادكليف التي قرأتها وأنا في الثامنة من العمر. مختلف الشخوص مثل ألفونس وكاترينا ولوتشيا انغرزوا في دماغي. أما الدون بيدرو والدونا

كلارا وأمثالهما فلا يزالون يجولون في ذهني حتى اليوم. ثم جاء دور شكسبير- فيرونا، روميو، جولييت. يا لها من مسميات جذابة (تدعوني): شد الرحال إلى إيطاليا، من كل بد. وبدلاً من إيطاليا وجدت نفسي (منفياً) في سيميبالاتينسك، وقبلها في منزل الأموات. هل يعقل أني لا أستطيع الآن أن أسافر إلى أوروبا حيث بقي شيء من الطاقة والحماسة والشاعرية؟ هل يعقل أني سأسافر إلى هناك بعد عشر سنوات أو يزيد لأدفئ العظام الشائخة من الروماتيزم وأسخن صلعتي الجرداء في شمس الضحى؟ هل يعقل أني سأقضي دون أن أرى شيئاً؟

ولكن ذلك لا يتوقف عليك. فلننتقل إذن إلى مواضيع أخرى. في البداية عنك. فهل تكتب شيئاً يا عزيزي الغالي؟ فصولك الثلاثة نشرناها[2] في يونيو، وتركت أصداء متباينة جداً. أولاً- الأصداء عموماً غير مكتملة، وهذا مفهوم. فالرواية عندما تنشر كاملة تترك انطباعات أقوى بكثير. تعليقات القراء، كما سمعت، مختلفة، لكن الشيء الجيد هو أن أصحاب التقريظ ينقسمون إلى فئتين على طرفي نقيض: مستحسن ومستهجن. وهذا أفضل ما في الأمر. فهو يعني عدم وجود الوسطية الذهبية لعنها اللّه. البعض معجبون جداً يثنون على النتاج كثيراً ويتذمرون كثيراً أيضاً لغياب البقية. وقد أعلن أحد الأشخاص ممّن يتحلون بالذكاء أن الرواية لا تعجبه إطلاقاً «كونها لا تحتوي على تطوير، وبالتالي فهي غير موجودة». وأجابه شقيقي أن تطور الرواية لا يزال في بدايته. فدهش الرجل لهذا الكلام، وفغر فاه استغراباً. كان يتصور أن الفصول الثلاثة هي الرواية بكاملها. ولم يكن قد لاحظ الإشارة إلى أن البقية ستنشر لاحقاً. الصديق ستراخوف حفظ فصولك الثلاثة عن ظهر قلب. وهو يحب الاستشهاد بها دائماً. ونحن أيضاً عندما نجتمع معاً في بعض الأحيان نزج أشعارك في

الحوار بمناسبة وبغير مناسبة. في المضمار الأدبي لم تظهر بعد، كما هو واضح لك، تعليقات على الرواية، ما عدا الذين لا يصبرون طويلاً دون أن يسلطوا سيف النقد والملامة. جاء الانتقاد من شلة مينايف وكوروتشكين وأمثالهما الذين يتصورون أنهم يشكلون حزباً. ن. كوروتشكين، شقيق فاسيلي، تسلم رئاسة تحرير «المصور». الرجل المناسب في المكان المناسب. إنهم ينتقدون الشعر في الرواية. ويسخر مينايف من قولك «برغوث الحياة لسعه» ويقارن بينك وبين كوسكوف الذي يكتب عن البعوض والذباب فقط. بديهي أن بذاءات هؤلاء الأدعياء وتوصيفاتهم النابية لا أهمية لها ولا معنى. في موسكو رأيت أوستروفسكي. وكان نكراسوف الذي مر بموسكو قبلي قد زاره. قال لي أوستروفسكي إن نكراسوف معجب جداً بروايتك. وقد أعلن شقيقي (في مجلة «الوقت») أن بقية الرواية ستنشر في سبتمبر. حسناً فعل أم لا؟ صحيح أن من الضروري مواصلة النشر حتماً وبسرعة، فذلك يصب في مصلحتك ومصلحتنا طبعاً. ولذا لا جدوى من التأجيل. وستترك الرواية صدى عند الجمهور. أنا أعرف كيف تتطور الأحداث عندك في الرواية. وسيتأثر الجمهور بشدة إذا قدمت له روايتك باستقلالية وحزم. أنا، مثلاً، أسأت لنفسي كثيراً عندما مططتُ «مذلون مهانون» حتى شهر يوليو وأضعفت تأثيرها. والآن أنهيتها والحمد للّه. بحلول الشتاء تصدر على حدة. بعتها لأحد الناشرين بـ 1000 روبل، وما كان بالإمكان أكثر. المجلة تتواصل، والاكتتاب عليها مستمر حتى الآن، وإن كان طفيفاً. في عالم الأدب كثير من المجادلات؛ ولكن ليس حول الأدب، بل بمعنى الكتابات الصحفية الاجتماعية. تشيرنيشيفسكي بدأ سلسلة مقالات عن الصحافة المعاصرة، يردّ فيها بالأساس على خصومه. وهو يكتب بحماس كبير

يحفز الجمهور، وهذا مهم. عرض آراءه بأصالة ووضوح. وفي تلك الأصالة تكمن نواقصه، طبعاً. ولربما يكون لنا رأي بخصوص مجادلاته سنعرضه (في «الوقت») بكل حيادية. معركتنا مع «البشير الروسي» مستمرة. يمكن الكلام عن ذلك كثيراً، ولكن الأفضل أن تقرأ بنفسك. (...) نعيش الآن في (ضاحية) كوتلوفسكايا، حياتنا ليست مرحة وليست مملة. فالعمل كثير. أعتقد أن المجلة تكسب المزيد من تعاطف القراء. فهم يهتمون حتى اليوم بكل عدد منها.

إذا نشرت هذا العام ثلاثة فصول أخرى من روايتك فستقدمها للجمهور بشكل بارز ومكتمل. وسيعرف القراء مع من يتعاملون وسيظلون ينتظرون الكثير من الرواية. حتى المنتقدون الأكثر تهجماً يعرفون ماذا عليهم أن يقيّموا الآن، كما يعرفون أن الرواية جيدة. نحن لم نخطئ عموماً، فقد كُتب لهذه الرواية أن يكون لها تأثير وأهمية.

وداعاً، يا صديقي الغالي، أعانقك بحرارة.

المخلص ف دوستويفسكي

ملاحظة: عد إلينا بسرعة.

---

(1) كان دوستويفسكي آنذاك يعمل على خاتمة «مذلون مهانون» لمجلة «الوقت»، وكذلك الفصول الختامية للجزء الأول من «ذكريات من منزل الأموات»، بالإضافة إلى مقالات عن الأدب الروسي.

(2) من رواية شعرية بعنوان «قالوا أخيراً» نشرتها مجلة «الوقت» عام 1961.



ثالثاً:

ما قبل «الجريمة والعقاب»

(1866)



73. إلى ألكسندر أوستروفسكي

بطرسبورغ، 24 أغسطس 1861

السيد الكريم ألكسندر نيكولايفيتش!

يطيب لي أن أحيطكم بأنني استلمت منكم كتاب بالزامينوف[1] الفريد قبل ثلاثة أيام، وشرعنا بقراءته أنا وأخي. وكان هناك عدة مستمعين آخرين، ليسوا أدباء، ولكنهم من ذوي الذوق السليم. ورحنا نقهقه لحد الألم في الخاصرة. ماذا عساي أن أقول لكم عن «مسرحياتكم»؟ فأنتم تريدون مني رأياً صادقاً تماماً ومن دون مجاملات. يمكنني أن أجيب بكلمة واحدة: روعة. ذلك الركن من موسكو الذي استرعى انتباهكم مجسد بصورة نموذجية حتى خيل إليَّ أنني جالس أتحدث بنفسي مع بيلوتيلوفا. عموماً بيلوتيلوفا هذه والفتيات والخطابة والأم، وأخيراً البطل نفسه (بالزامينوف) كلهم يشعون حيوية في لوحة متكاملة لدرجة يخيل إليَّ فيها أنها لن تخبو في ذهني أبداً. الكابتن·عندك فقط يبدو متعدد الوجوه. متمسك بالواقع ولا شيء آخر. ولربما أنني لم أنتبه إلى ذلك تماماً من القراءة الأولى. بديهي أنني سأقرأ مسرحيتكم الكوميدية خمس مرات أخرى. إلا أن



ألكسندر أوستروفسكي

كراسافينا ينبغي أن تحتل المرتبة الأولى بين الخطّابات في مسرحياتكم. وقد رأيتها آلاف المرات، وكنت أعرفها،، كانت تتردد على بيتنا، عندما عشت في موسكو وأنا في العاشرة من العمر. أنا أتذكرها.

على فكرة، بعض المستمعين والمستمعات إلى مسرحيتكم استخدموا بيلوتيلوفا كاسم علم. وراحوا يشيرون إليها ويبحثون في الذاكرة عن الفتيات (شخوص المسرحية) من عائلة بيجينوف.

إنني وأخي شاكران وممتنان لكم كل الامتنان. وقد طلب مني أخي أن أحيطكم علماً بأنه سيبعث لكم النقود في آخر الأسبوع الحالي، أي بعد ثلاثة أيام من كتابة هذه الرسالة.

تقولون إنكم فكرتم بكتابة المزيد لمجلتنا. نرجوكم، لوجه المسيح، لا تتخلوا عن هذه الفكرة الطيبة. نحن لن نستعجلكم، إلا

أننا سننتظر بفارغ الصبر. المصحح لدينا جيد جداً، وهو طالب متمكن من عمله، وإذا رجوناه يبذل قصارى جهده ويبدي اهتماماً خصوصياً بما يصححه. سأكلمه بنفسي في هذا الشأن. قبل قليل قرأت رسالة بولونسكي من تبليتسه. لا يزال مريضاً، ويشعر بضجر شديد. في الخريف سيعود إلينا. روايته لم تعجب الكثيرين في بطرسبورغ. إلا أننا سمعنا إطراءً كبيراً من البعض. قلة الإعجاب من المرة الأولى أفضل. فهي مؤشر جيد في مفهومنا.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) مسرحية أوستروفسكي «زواج بالزامينوف» نشرت في «الوقت» عام 1861.

74. إلى نيكولاي ستراخوف

باريس، 26 يونيو 1862

عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش[1]. في مطلع يوليو تسافر إلى الخارج. في أمان اللّه وحفظه. في ذلك الحين سيكون الطقس رائعاً، وهذا وحده كافٍ، ما دام الطقس معتكراً الآن في كل مكان من أوروبا. ولكنني أشعر بالذعر عندما أتذكر أنك ستترك (أخي) ميخائيل ميخائيلوفيتش وحيداً. يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش! الوقت حالياً رديء، وقت الانتظار الممل الكئيب، على حد تعبيرك[2]. إلا أن المجلة شيء عظيم، تمثل نشاطاً لا تجوز المجازفة فيه، لأن المجلات يجب أن تبقى مهما كلف الأمر وسيلة للتعبير عن مختلف تلاوين الآراء المعاصرة. وهذا النشاط، بمعنى الفعل والكلام والكتابة، متوفر دوماً. يا إلهي، كلما أفكر فيما لا يزال يحتاج إلى عمل وكتابة أتوق إلى الرحيل من هنا، من هذا «البعيد السعيد»[3]، بالروح إن لم يكن بالبدن، إليكم في روسيا. كل فرد يجب أن يعمل الآن، والأهم أن يجد السبيل إلى العقل السليم. فقد اختلطت المفاهيم عندنا في المجتمع كثيراً. وحصل سوء فهم. أنت تقول،

يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، إنك تريد أن تسافر أولاً إلى موسكو. حذارِ أن يلتف عليك أساطين الصحافة هناك. وقد يغريك كاتكوف في ساعة مشؤومة بنظرية مسطّرة على ميدان تجريدي لا حدود له. . . كلا، أنا أمزح. آه يا عزيزي الحبيب، ما أشد رغبتي في لقائك هنا. على أية حال أظن أن ذلك أمر ممكن ولازم تماماً. بشرط أن لا تختلط العناوين. المهم أن تتذكر تاريخ 15 يوليو، من تقويمنا، وليس قبل هذا التاريخ أنا أغادر باريس إلى كولونيا. وسأقضي يوماً في دوسلدورف، ثم أستقل الباخرة إلى أعالي الراين حتى ماينتس، ومن هناك إلى أوبرلاند، أي ربما إلى بازل وهكذا. يعني أنني سأكون في بازل يوم 18 أو 19 من الشهر حسب تقويمنا، وفي 20، 21 أو 22 سأكون في جنيف. وبالتالي فإن أي رسالة منك، من أي مكان، إذا وصلت إلى باريس ليس بعد الـ 15 من يوليو سأستلمها وسأعرف أين أجدك. وحتى إذا كتبت لي، مثلاً، من برلين أو درزدن أنك ستكون في التاريخ الفلاني في المكان الفلاني، ويمكنك حساب ذلك دوماً قبل عشرة أيام، فسأبحث عنك هناك. وإذا اقتنيت دليل ريهارد ستعرف الفنادق وأسعارها في كل مدينة. ويمكنك، على سبيل المثال، أن تكتب لي وأنت في برلين بأنك ستتوقف في جنيف في التاريخ الفلاني وفي الفندق الفلاني. وسأستفسر عنك في ذلك الفندق. ويمكن أن تصل إلى جنيف ولا تنزل في ذلك الفندق إذا اعتبرته غير مريح وتأخذ فندقاً آخر فإن ذلك لا يمنعك إطلاقاً من ترك عنوانك في الفندق المتفق عليه سابقاً ليقدموه لمن يسأل عنك، أي لي. وبالمقابل تعطي لبواب الفندق إكرامية، فرنكاً واحداً. وبهذه الصورة سأجدك حتماً. الفضول يدفعني أيضاً إلى معرفة تفاصيل رحلتك. أقول لك، يا نيكولاي نيكولايفتش، إن باريس مدينة مملة

جداً. ولو لم يكن فيها الكثير من الأشياء الرائعة حقاً، لقتلنا الملل في الحقيقة والواقع. والفرنسيون، واللّه، شعب يبعث الغثيان. تحدثتَ عن وجوه وقحة متعالية ومقرفة تصول وتجول في حماماتنا المعدنية[4]. ولكني أقسم لك أن الموجود هنا لا أقل من ذلك. عندنا مجرد أنذال من (أكلة لحوم البشر) يقومون بتلك التصرفات عمداً في الغالب. أما هنا فهم واثقون تماماً بأن ذلك هو المطلوب. الفرنسي هادئ نزيه مهذب، لكنه مزيف، المال بالنسبة له كل شيء. وليس لديه أي مثال أعلى. ولن تجد عنده حتى التأملات، ناهيك عن المعتقدات. مستوى التعليم العام واطئ، في حده الأدنى. أنا لا أقصد العلماء النحارير. إلا أن عدد هؤلاء قليل. ثم هل الدرجة العلمية هي التعليم بالمعنى الذي تعودنا عليه لهذه الكلمة؟ ولعلك تضحك من أحكامي هذه ولم يمض عليَّ في باريس سوى عشرة أيام. أوافقك. ولكن، أولاً- ما رأيته في هذه الأيام العشرة يثبت صحة فكرتي لحد الآن. وثانياً- ثمة وقائع تكفي نصف ساعة لملاحظتها وفهمها، لكنها تجسد جوانب كاملة من الوعي الاجتماعي كونها ممكنة وموجودة.

هل ستعرج على باريس؟ لاحظ: لا قيمة لزيارة باريس لمدة ثلاثة أيام. وإذا خصصت لها، كسائح، أسبوعين، فستشعر بالملل. أما المجيء إلى هنا لغرض الأعمال فهو مبرر. هناك الكثير مما يستحق الرؤية والدراسة. يتعين عليَّ أن أبقى بعض الوقت في باريس، ولذا أريد أن أراها وأدرسها من دون تكاسل ودون أن أضيع الوقت، بالقدر الممكن لسائح بسيط مثلي. ولا أدري هل سأكتب شيئاً ما؟ إذا رغبت جداً ما المانع من الكتابة عن باريس؟ إلا أن المشكلة: لا وقت لدي هنا أيضاً. الرسالة الجيدة من الخارج

تتطلب، على أية حال، جهداً لثلاثة أيام. فمن أين لي هنا بهذه الأيام الثلاثة؟ لا أدري[5].

ثم، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفتش، أنت لا تصدق كيف تأخذ الوحشة والوحدة هنا بخناق الروح. ذلك إحساس ثقيل كئيب. لنفترض أن الشخص وحيد وليس هناك من يشفق عليه. إلا أنه يشعر، على أية حال، بأنه انتزع قدميه من التربة المعهودة وابتعد عن الأعمال الملحة البطيئة وعن المسائل العائلية الجارية. صحيح أن الطقس المعتكر لا يزال يشوش عليَّ في الخارج وأنني لا أزال أتواجد في شمال أوروبا ولم أر من عجائب الطبيعة سوى الراين وشواطئه. هذه أعجوبة بالفعل، يا نيكولاي نيكولايفيتش. وسأرى المزيد عندما أهبط من الألب إلى سهول إيطاليا. يا ليتنا نرى نابولي معاً، ونتجول في روما ولربما نداعب شابة من فينيسيا في الجندول. ها..؟ ما رأيك يا نيكولاي نيكولايفيتش؟[6] ولكن... «السكوت أفضل» في موقف مثل هذا، كما يقول بوبريشين[7].

وداعاً يا نيكولاي نيكولايفيتش. أنا لم أكتب لك أية تفاصيل عن انطباعاتي في الخارج، ذلك لأن الرسالة لا تتسع لكل شيء دفعة واحدة، في حين أنني لا أستطيع الكتابة على أجزاء. ثم إن انطباعاتي لحد الآن لا تستحق الذكر. فقد مضى عليّ 19 يوماً فقط في الخارج. أعانقك من صميم القلب. بلّغ تحياتي إلى العزيز الطيب تيبلين الذي صرت أحبه مؤخراً ولا أدري على أية أفضال، وكذلك إلى يفغينيا كارلوفنا العزيزة الموقرة. كيف صحتها؟ على فكرة: إذا سافرتَ إلى موسكو فإن رسالتي على الأرجح لن تصلك في بطرسبورغ. على أية حال سأكتب عليها أيضاً عنوان هيئة تحرير «الوقت».

وداعاً. والأفضل إلى اللقاء. فلا محيص من لقائنا في الخارج.

أنا لن أسامح نفسي إذا لم نلتقِ. أشد على يدك بحرارة. تحياتي إلى جميع معارفنا. كيف سلوك قطك غير المؤدب؟

وداعاً. (8)

المخلص ف. دوستويفسكي

---

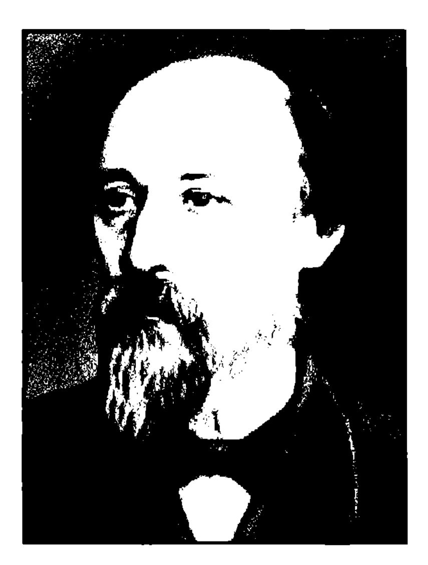
(1) محرر في مجلة «الوقت».
(2) إشارة إلى صعوبات مجلة «الوقت» بعد تعقد الموقف السياسي في روسيا.
(3) ورد هذا التعبير لأول مرة عند نيكولاي غوغول، «النفوس الميتة»، المجلد الأول، الفصل الحادي عشر.
(4) وهي حفلات ترفيهية متهتكة كانت تقام في ضواحي بطرسبورغ تحت مسمى «المياه المعدنية».
(5) انطباعات دوستويفسكي عن رحلته إلى الخارج تجسدت فيما كتبه بعد العودة بعنوان «ذكريات شتاء عن مشاعر صيف».
(6) التقى دوستويفسكي مع ستراخوف آنذاك في جنيف، ثم قاما معاً بجولة في إيطاليا، وأمضيا قرابة أسبوع في فلورنسة.
(7) في «مذكرات مجنون» لنيكولاي غوغول (1835).
(8) في الأصل بالإيطالية.

75. إلى نيكولاي نكراسوف

بطرسبورغ، 3 نوفمبر 1862

بوسعك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الطيب الموقر، أن تحكم بنفسك على شدة ألمنا لحرماننا من أشعارك. ولكن ما العمل إذا كانت تلك مشيئتك؟ على الأقل يمكنك أن تفي بوعدك بعد استئناف صدور «المعاصر»[1] آنذاك ستفي بالوعد طبعاً. ولن يتهمك أحد. الأفضل أن تلومنا في عدد يناير القادم من «المعاصر»، وأعطنا الأشعار لعدد مجلتنا في فبراير.

ولا يسعني، بالمناسبة، إلا أن أعترف لك بأمرين أو على الأصح بشكوكي مرتين: 1) كيف لشخص شهير في الأدب مثلك، وشاعر فضلاً عن ذلك، أن يرتعش أمام رأي[2] عابر وغير وجيه ولا مؤكد بطبيعته؟ 2) لماذا تتصور أن مشاركتك في مجلتنا «الوقت» تحط من سُمعتك وتسوق الدليل على الإشاعات القائلة بأنك خنت تشيرنيشيفسكي؟ فهل مجلتنا رجعية؟ أعتقد كلا، حتى في رأي خصومنا. يمكن قول كل شيء عنها ما عدا الرجعية. أنا أنسب هذا الرأي ليس إليك. أنا أرد فقط على شكوكك في أن الجمهور سيتهمك



نيكولاي نكراسوف

بالرجعية والردة إذا نشرت قصائدك في مجلتنا. علماً بأني واثق بأن الجمهور لا يعتبرنا رجعيين.

وثمة نقطة أخرى: في العام الفائت أيضاً نشرنا قصائد لك. في حين أن مجلتنا ظلت على حالها[3]، ولم يذنبك أحد بسبب المشاركة فيها.

على أية حال سننتظر، سننتظر بفارغ الصبر الإيفاء بوعدك. والآن لا حيلة في الأمر. إلى اللقاء.

المخلص من صميم القلب
فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: أخي غير موجود في البيت، سأبلغه، وسيأسف أشد الأسف.

(1) مجلة نكراسوف احتجبت آنذاك لمدة ستة أشهر بعد اعتقال تشيرنيشيفسكي واستأنفت الصدور في يناير 1863.

(2) يقصد دوستويفسكي الإشاعة التي سرت في الأوساط الأدبية من أن نكراسوف «خان» مجلة «المعاصر» وغيّر اتجاهها.

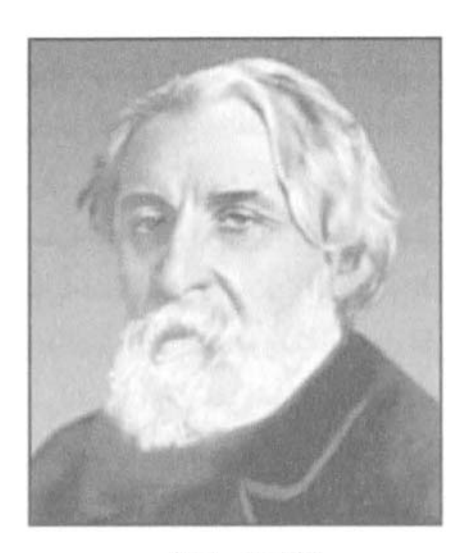
(3) فيما بعد عاد نكراسوف لنشر قصائده في «الوقت».



76. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 17 - 19 يونيو 1863

العزيز الموقر إيفان سرغييفتش. أرجو أن تعذرني، باللّه عليك، لأنني لم أرد على رسالتك الأخيرة من بادن. وفوق ذلك أنا مذنب جداً بحقك لحد تأنيب الضمير بشدة وجدية لأنني لم أرد على رسالتيك اللتين سبقتا رسالة بادن. والحال فإن رسالتك الأخيرة وصلت في وقت عصيب للغاية، خلال منع مجلتنا[1]. كانت هنالك هموم ومشاغل وأحزان وغيرها من السيئات والمنغصات لدرجة لم أتجرأ فيها طوال شهر على التقاط ريشة الكتابة. فهل تصدق ما أقول؟ أما بخصوص الرسالتين الأقدم فإن إصابة زوجتي بالسل ومفارقتي لها، حيث تركتُ بطرسبورغ لفصل الصيف أو لوقت أطول، بعد أن قضت الربيع فيها دون أن تموت، علماً بأنني رافقتها من بطرسبورغ التي لم تعد تتحمل طقسها، ثم مرضي الخطير والطويل نسبياً بعد العودة من (موسكو) كل ذلك أعاقني هذه المرة أيضاً عن الكتابة لك حتى الآن. بمعنى أنه لو كان المطلوب مجرد الجواب تمسكاً بأصول اللياقة لوجدت وقتاً لهذا. ولكنني، على ما أتذكر، أردت أن أتكلم



إيفان تورغينيف

معك، أو على الأصح أردت أن أصف لك بالتفصيل ما كان يجري آنذاك في أدبنا. ولهذا الغرض بقيت أبحث عن الفرصة المناسبة حتى ضيعت الوقت.

إذن، مجلتنا ممنوعة، ولعلك تعرف بذلك على افتراض وجود صحافة روسية في بادن. جاء المنع مباغتاً بالنسبة لنا على أية حال. ففي شهر أبريل نشرنا مقالة بعنوان «المسألة المصيرية». وأنت تعرف اتجاه مجلتنا، وهو في الغالب روسي، بل ومناوئ للغرب. فهل يعقل أننا ندافع عن البولنديين؟ ورغم ذلك اتهمونا بمعتقدات غير وطنية وبالتعاطف مع البولنديين ومنعوا المجلة بسبب مقالة هي باعتقادنا في منتهى الوطنية. صحيح أن في المقالة بعض الحراجة وبعض التحفظات في التعبير، ما أعطى حجة لتأويلها بشكل خاطئ. وكانت هذه التحفظات، كما نرى الآن، خطيرة بالفعل، ونحن المذنبون في ذلك. ولكننا كنا نعقد الآمال على الاتجاه السابق لمجلتنا والمعروف

في الأوساط الأدبية، وتصورنا أن المقالة ستحظى بالفهم ولن تفهم التحفظات فيها بشكل معكوس. تلك كانت غلطتنا. فكرة المقالة، وهي بقلم ستراخوف، أن البولنديين يحتقروننا كبرابرة ويتباهون أمامنا بأنهم أرقى منا بحضارتهم الأوروبية وبأننا أوطأ منهم لدرجة لا يبقى معها أي مجال تقريباً للتصالح الأخلاقي الأمتن والأوثق بيننا وبينهم. وطالما أساء القراء فهم نص المقالة فقد أولوها على نحو يقول إننا أنفسنا نؤكد أن البولنديين أرقى منا حضارياً، وأنهم بالطبع على حق ونحن مذنبون. وأخذت بعض المجلات، ومنها مجلة «اليوم»، تدلل جدياً على أن الحضارة البولندية سطحية فقط، وهي أرستقراطية جزويتية، وبالتالي فهي ليست أرقى من حضارتنا. تصور أن تلك المجلات تثبت ذلك لنا، بينما نحن كنا نقصد الشيء ذاته في مقالتنا. والأكثر من ذلك أنها تدلل على ذلك في الوقت الذي نقول فيه نحن أن هذه الحضارة البولندية التي يمتدحونها إنما كانت ولا تزال تحمل الموت في صُلبها، في قلبها. هذا ما جاء في مقالتنا بالحرف الواحد. واللافت للنظر أن أشخاصاً كثيرين جداً غير رسميين ممن أعلنوا الحرب الشعواء علينا لم يقرأوا مقالتنا، حسب اعترافهم. ولكن فلنكتف بهذا القدر. فما فات فات، ولن نعيده إلى الحياة.

تقول إنك تنوي الإقامة في بادن - بادن طول الصيف. تصور أنني يمكن أن ألتقيك في بادن[2]. سأطلب ترخيصاً بالسفر إلى الخارج وآمل أن أسافر. أنا مريض جداً بالصرع الذي يشتد طول الوقت ويقودني إلى اليأس والقنوط. ليتك تعلم مدى الكآبة التي تنتابني أحياناً بعد نوبة الصرع، وتلازمني عدة أسابيع. أنا أسافر إلى برلين وباريس، لفترة قصيرة إن أمكن، لغرض واحد هو استشارة الأطباء المتخصصين بالصرع، مثل بروسو في باريس ورامبر في برلين. فليس

عندنا اختصاصيّون، وأنا أتلقى توصيات متباينة ومتناقضة من أطبائنا المحليين جعلتني أفقد الثقة بهم تماماً. إذا كنت سأصل إلى مكان غير بعيد عنكم فسأتعمد زيارتك لأراك.

فيما يخص طلبك بشأن النقود لم يتمكن أخي من تلبيته، يا إيفان سيرغييفيتش المحترم. أولاً لأن المجلة لم تعد موجودة، وثانياً لأنه، وأنا أعترف صادقاً، في إفلاس تام بسبب منع المجلة وأسرته تكاد تضطر إلى التسول. فلا تطالبنا بشيء.

إلى اللقاء، يا إيفان سرغييفيتش العزيز، لربما سنلتقي في القريب العاجل. لا أكتب لك الآن أكثر من ذلك. ولا أدري هل ستنشب الحرب[3]، إلا أن روسيا كلها والقوات والمجتمع، بل وحتى الشعب، في أمزجة الوطنية كما في عام 12.[4] أقول ذلك من دون مبالغة. فقد انطلقت حركة عظيمة. ومهما يكن من أمر، أوروبا لا تعرفنا جيداً. إنها حركة عارمة شاملة.

إلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

19 يونيو

يطيب لي جداً أنني تباطأت في إرسال الرسالة إليك ليوم واحد. بالأمس علمت برسالتك إلى فالنتين كورش[5]. يا إلهي! أي حق لنا الآن، وحتى في السابق، بما تكتبه ولم ننشره في مجلتنا؟ لا سيما وأنك كنت بالطبع تستطيع في السابق وفي فترة وجود «الوقت» أن تنشر مقالتك عن بوشكين خيثما تشاء، ذلك لأنك وعدتنا برواية، وهو أمر عزيز علينا بخاصة كناشرين للمجلة، لأن المنافسة الأشد لدى الصحفيين تدور على الدوام تقريباً، والآن خصوصاً، حول الروايات

والقصص الطويلة. كما أنك تكتب إلى فالنتين فيودوروفيتش متسائلاً: «هل يسمح لي الأخوان دوستويفسكي أن أنشر مقالاتي في مجلات أخرى؟». فبأي حق نحول دونك ودون النشر، لا سيما وأن أخي لم يلب حتى الآن طلبك بخصوص النقود؟ أريد أن أقول لك، يا إيفان سرغييفيتش الطيب، إذا كنت تستطيع، بمعنى إذا وجدت أدنى إمكانية لإرجاء طبع «الأشباح»[6] حتى الخريف فأرجئها باللّه عليك. قبل ثلاثة أيام لم أكن أفكر أن أكتب لك عن ذلك لبعض الأسباب. ولكنني الآن أقول إن لدينا بعض الأمل في كون مجلتنا قد منعت من الصدور مؤقتاً فقط. نحن لا نعرف ذلك بالتأكيد، إلا أن ثمة دوافع وجيهة للتفكير على هذا النحو. سيتضح ذلك إيجابياً في سبتمبر. وأكيد أنك، يا إيفان سرغييفيتش، تدرك أن هذا مجرد رجاء صرف إليك، فنحن لم ولا نستطيع أن نفرض حقوقاً على أي كان. لقد وعدتنا طوعاً ولم تربط نفسك معنا بأية روابط فيما يخص النقود، على سبيل المثال، أو أي شروط أخرى. فأية حقوق يمكن أن تكون لدينا؟ أنا نفسي أديب، وأعتبر أي مطالبة من جانبنا وقاحة. وبالتالي هذا مجرد رجاء أخوي لا أكثر.

والحال فإن مجلتنا واصلت الصدور حوالى عامين ونصف من دون دعم كبير من أدبائنا المشهورين. وأنت لم تعطنا شيئاً، في حين أن مجلتنا نزيهة، هذا أولاً- وثانياً- كانت تفهم الأدب ومغزاه ورسالته وحقوقه بأفضل من «المعاصر» و«البشير الروسي». وكان من شأن دعمك أن يمنح «الوقت» مزيداً من القوة. فلو كنا قد صدرنا في يناير ناشرين قصة طويلة لك لكان عدد مشتركينا 55000 بدلاً من 4500. هذا أكيد. أنا الآن أكرر هذا الكلام، وقد سبق وقلته في يناير. وليكن مفهوماً، يا إيفان سرغييفيتش، إذا عادت المجلة إلى

الصدور، ربما ابتداءً من الخريف، فكم ستكون كبيرة أهمية دعمك لها؟ وإذا انتفعت «الوقت» منك في هذا الوقت العصيب بالنسبة لها فلربما يكون الفوز وارداً تماماً. ولذا أجّلْ، إن أمكن، تسليم «الأشباح» إلى مجلة أخرى حتى الخريف. إذا كنت تستطيع بالطبع. ونحن لا نمتلك الحق مطلقاً في التضييق عليك بأي شكل من الأشكال. وحتى طلبي هذا يمكنك أن ترفضه بلا تردد إذا كان لا يروق لك قيد أنملة. الشيء الوحيد الذي أعرضه عليك هو أنك يمكن أن تشارك جوهرياً في (إنقاذ) المجلة، وذلك، باعتقادي، من أجلك أيضاً. هذا كل ما أستطيع أن أقوله لإقناعك. وداعاً وإلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) منعت مجلة «الوقت» لأن السلطات اعتبرتها مزعجة للحكومة.
(2) أثناء مكوثه في بادن- بادن في 4-8 سبتمبر 1863 التقى دوستويفسكي تورغينيف عدة مرات.
(3) المقصود احتمال اندلاع حرب بين روسيا وأوروبا بالارتباط بالانتفاضة البولندية عام 1863.
(4) حرب نابليون على روسيا عام 1812.
(5) صاحب جريدة «وقائع سان بطرسبورغ»
(6) نشرت «الأشباح» في العام التالي بمجلة الأخوين دوستويفسكي «العصر».

77. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

تورينو، 8 سبتمبر 1863

كتبتَ، يا عزيزي الطيب ميشا، عن الصعوبة التي لا يعرف مداها إلا اللّه في قراءة رسالتي وتلبية طلبي بشأن النقود[1]. ولكن، لو علمت، يا صديقي، بمدى ألمي من فكرة أنك ستواجه من كل بد وضعاً عصيباً بسبب رسالتي لقلتَ بنفسك إنني عوقبت بما فيه الكفاية على فشلي. عموماً أنا تعذبت في قضاء الوقت في تورينو المضجرة هذه بانتظار رسالتك، والأهم أني تعذبت من الحنين إليك وإلى الأهل جميعاً. فمنذ أن غادرتُ بطرسبورغ لم أستلم وأنا في بلاد الغربة حتى الآن أيَّ خبر من أيٍّ منكم. اللّه يعلم ماذا ظننت بك، وكم استغربت لحد جعلني أكاد أموت من القهر. ولا موجب للكلام عن آلامنا البدنية، فهي غير موجودة. ولكننا كنا نرتعد هلعاً في كل لحظة متوقعين أن يقدموا لنا فاتورة الحساب من الفندق ونحن لا نمتلك كوبيكاً واحداً. تلك فضيحة يرافقها استدعاء البوليس. هذا هو الحال هنا. من دون أي تساهل إنْ لم يكن هناك وكيل متعهد أو حاجيات (ذات ثمن)، وأنا لست وحدي[2]. لقد رأينا أمثلة على ذلك.

يا للحقارة. في جنيف رهنت ساعتي لدى رجل كريم حقاً، لم يأخذ فائدة مئوية على إقراض شخص أجنبي. لكنه أعطاني مبلغاً زهيداً. ولن أستعيد الساعة حالياً، فأنا محتاج إلى النقود، وهي رهنت خاتمها. ولدينا عقد مكتوب ينص على الاستعادة في أواخر أكتوبر، حسب التقويم المحلي. ولكن تلك حاجيات لا تستحق الذكر.

المهم، ماذا يجري لك؟ هذا هو المهم بالنسبة لي. أكرر، الشيطان وحده يعرف ما ظننته من ظنون. تصورت أنك ستخبرني شيئاً ولو قليلاً عن المجلة. لكنك تكتب باختصار كبير ولم تشر إلى المسألة ولو بكلمة. فكيف يجوز ذلك؟ أخبِرني باللّه عليك. المهم يجب أن نعمل، ونحاول. فإنْ لم يكن استئناف «الوقت» يجب التفكير في مجلة أخرى يمكن إصدارها. وإلا سنهلك. أنا أشعر أنني بحاجة إلى الكثير من المال لتغطية احتياجاتي لثلاثة أشهر على الأقل لأعكف على كتابة الرواية[3]. وإلا فلن تكون هناك رواية. ولكن من أين لي بالنقود؟ أنا ربما سأدبر حالي بشكل ما. وأنت؟ ماذا ستفعل والعائلة على كاهلك؟ باختصار، أنا أرغب في العودة عاجلاً. أنت تسأل لماذا تركتُ باريس بهذه السرعة؟ أولاً- باريس بعثت في نفسي الاشمئزاز. وثانياً- راعيت وضع المرأة التي ترافقني في الرحلة. قرأت ما كتبته عن نيكولاي باكتئاب. وأنا لا أثق (بالدكتور) بيسير. فهو محتال وليس طبيباً. إنه ليس (بمنزلة) بوتكين. تحياتي إلى نيكولاي. قم بزيارته. وابعثْ إليه أحداً من العائلة. فالأمر صعب عليه وهو المسكين المحتضر. بلّغه بأنني أقبّله وأفكر فيه كثيراً، كل يوم.

عن تفاصيل رحلتي سأحدثك وجهاً لوجه. المغامرات كثيرة. ولكن الملل قاتل رغم وجود أ. ب. (سوسلوفا) معي. حتى السعادة ثقيلة هنا، لأنني انفصلت عن جميع من كنت أحبهم حتى الآن

وعانيت مراراً من أجل حبهم. البحث عن السعادة بترك كل شيء(. . .) إنما هو الأنانية بعينها. هذه الفكرة تسمم سعادتي حالياً، إن وجدت في واقع الحال[4]. كتبتَ تقول: كيف يمكن المقامرة حتى الثمالة إذا كان معك في الرحلة الشخص الذي تحب؟ صديقي ميشا، في فيسبادن وضعت طريقة للقمار وطبقتها عملياً وربحت 10000 فرنك. وفي الصباح خالفت هذه الطريقة متحمساً فخسرت في الحال. وفي المساء عدت إلى طريقتي متقيداً بكل قواعدها فربحت بسهولة من جديد 3000 فرنك. قل لي كيف يمكن بعد ذلك ألا يشتد الولع ولا أصدق بأن السعادة ستكون بين يدي إذا تقيدت بطريقتي بحذافيرها؟ كنت بحاجة إلى المال، لأجلي ولأجلك ولأجل زوجتي ولكتابة الرواية. هنا يربح البعض عشرات الآلاف وكأنهم يمزحون. لقد سافرت لكي أخلصكم جميعاً من المحنة وأحمي نفسي منها. وإلى ذلك أضيف الإيمان بالطريقة. وفوق ذلك وصلت إلى بادن واقتربت من الطاولة وربحت 600 فرنك في ربع ساعة. وشجعني ذلك على المضي. وفجأة بدأت أخسر ولم أتمالك نفسي فخسرت كل ما أملك. وبعد أن أرسلت لك رسالة من بادن أخذت البقية الباقية من النقود وذهبت لألعب. وفي نصف ساعة ربحت، بأربع قطع من عملة نابليون الذهبية، 35 قطعة. وغمرتني سعادة غير مسبوقة، فجازفت بهذه الـ 35 قطعة، وخسرتها جميعاً. وبعد أن سددنا لصاحبة البيت بقيت لدينا 6 قطع نقدية للطريق. وفي جنيف رهنت ساعتي.

رأيت تورغينيف في بادن. زرته مرتين، وزارني هو أيضاً. ولم ير عندي (سوسلوفا)، فقد خبأتها عنه. لا يزال معتكر المزاج مع أنه تعافى في بادن. وهو يقيم مع ابنته (بولينا). حدثني عن كل آلامه وشكوكه الأخلاقية. شكوكه الفلسفية تحولت إلى واقع معاش، بما فيه

التأنق الشديد في الملبس. ولم أخفِ عنه أنني ألعب (القمار). أعطاني (مخطوطة) «الأشباح» لأقرأها، لكنني لم أقرأها بسبب انشغالي بالقمار، فأعدتها إليه. يقول إنه كتبها لمجلتنا، وإذا كتبت له من روما فسوف يرسلها لي إلى هناك. فماذا أعرف أنا عن المجلة؟

ينبغي أن أكتب مقالة. أعرف ذلك. لأن الـ 1450 فرنك التي أرسلتها لا تكفي لشيء، بمعنى أنها تكفي لأمور كثيرة ما عدا تكاليف العودة إلى الديار. ولكنني أجد صعوبة كبيرة جداً في الكتابة. كل ما كتبته في تورينو مزقته. مللت من الكتابة حسب الطلب. لكنني لا أيأس من إرسال شيء من روما على الأقل. لأن ذلك ضروري. رحم اللّه خالي. أعتقد أن زوجته ستتحمل الكثير من المتاعب والمنغصات. ولا أمل لنا في التركة. ولكن إذا حصل شيء فسأخبرك رأساً.

باللّه عليك أخبِرني بكل شيء. أعانقك، وأشكرك وأقبِّلك.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملاحظة: لا تحدث أحداً عن أوضاعي. فهذا سر بيننا. أقصد الخسارة. إلى اللقاء، اكتبْ لي باللّه عليك. ولكن إلى نابولي هذه المرة (على عنوان البريد المركزي).

اكتبْ لي عاجلاً. أرجوك اكتبْ عن أحوالك. في روما سأجد جميع رسائلكم السابقة. ولربما أرسل مقالة قصيرة من هناك.

سأعود في الموعد. ثم إن النقود قليلة.

قبّل جميع الأطفال مع فيودور. وبلّغ تحياتي إلى ستراخوف خصيصاً، وإلى جميع من تعرفهم. وقل لستراخوف إنني أقرأ كتابات

دعاة السلافية بجد واجتهاد، وقد قرأت (عندهم) شيئاً جديداً. كيف حال أبولون غريغوريف؟ والباقين؟ اكتبْ لي عن الجميع.

ألم تسمع شيئاً عن روديفيتش وعن (ربيبي) بافل؟

أكتبُ لك بأكبر قدر ممكن من الإيجاز. أسارع لمغادرة تورينو البغيضة. وأمامي كتابة الكثير: إلى ماريا دميتريفنا وبربارة دميتريفنا.

انقلْ تشكراتي إلى بربارة دميتريفنا عندما تراها. ما أروع نفسها الطيبة. أخشى أن تكتب لك ماريا دميتريفنا ما لا يعجبك. إلا أنني لا أعتقد أنها ستفعل. طبيعي أنها قد لا تحتاج إلى نقود حتى منتصف أكتوبر. ولكن من يدري؟ أنا ربما وضعتها في موقف خاطئ. كانت تريد أن تنفق مئة روبل، لكنها بقيت مترددة. وعندما أبلغتها في رسالة أنني أبعث إليها نقوداً أنفقت ذلك المبلغ. ولعلها الآن بلا نقود. وأنا أفكر في ذلك بفزع. حبذا لو أبلغني أحد عن صحتها.

---

(1) دوستويفسكي استلم النقود من أخيه.

(2) كان دوستويفسكي يتجول برفقة محبوبته أبوليناريا سوسلوفا التي اتخذها نموذجاً للشخوص النسائية في عدد من رواياته، مثل «المقامر» و«الأبله» وغيرهما.

(3) المقصود رواية كان يفكر فيها دوستويفسكي بعنوان «الاعتراف» تمهد حبكتها لروايته «مذكرات من تحت الأرض» («في قبوي» حسب ترجمة سامي الدروبي).

(4) إشارة إلى تعقد العلاقة مع سوسلوفا، وإلى القلق على صحة عيسايفا.

78. إلى نيكولاي ستراخوف

روما، 18 سبتمبر 1863

عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش المكرّم. أبلغني أخي في رسالته الأخيرة التي استلمتها في تورينو قبل 9 أيام بأنك تنوي الكتابة إليّ. أنا في روما منذ يومين ولم أجد رسالة منك. سأنتظر وصولها بفارغ الصبر. والآن أنا أكتب لك بنفسي. ليس لعرض مشاعر الرحلة ولا لطرح أفكار ما خطرت في البال خلال هذه الفترة الزمنية. كل ذلك سيتم عندما أعود بنفسي ونجد الوقت لنتحدث فيما بيننا كما كنا نفعل غالباً. كلا، إنني الآن أتوجه إليك برجاء كبير وأقول سلفاً إنني محتاج إلى موقفك الميال إليَّ مع كل المشاعر الودية، إذا سمحت بهذا التعبير، والتي يخيل إليَّ أنك تكنها لي وتعرب عنها.

والحال فإنك إذا نفذت طلبي تنقذني بكل معنى الكلمة من الكثير من الأذى والمنغصات.

القضية كالآتي:

سأسافر من روما إلى نابولي، وبعد 12 يوماً أعود من نابولي إلى

تورينو، أي أنني سأكون هناك بعد خمسة عشر يوماً تقريباً. وفي تورينو تنفد كل نقودي، حيث سأصلها خالي الوفاض.

أنا لا أعتقد بأن السماح بصدور «الوقت» سيتم في هذه اللحظة. وفي كل الأحوال لدي ما يبرر الاعتقاد بأن أخي عاجز الآن عن مساعدتي بشيء. في حين يتعذر التواجد في تورينو بلا نقود. ولذا لا بد أن أجد فيها مبلغاً في البريد. وإلا، أكرر، سأهلك. وبالإضافة إلى عدم وجود تكاليف العودة إلى الديار لدي مقتضيات أخرى للإنفاق، أي مصاريف لا يمكنني الاستغناء عنها أبداً. ولذا أرجوك، باللّه عليك، لوجه المسيح، أن تقوم من أجلي بما قمت به مرة قبيل سفري. آنذاك ذهبتَ إلى بوبوريكين في «مكتبة المطالعة». بوبوريكين نفسه دعاني تحريرياً للعمل عنده عندما احتجبت «الوقت». وبالتالي يمكن التوجه إليه. ولكنك في يوليو طلبت منه 1500 روبل، ولم يعطك. لأن يوليو وقت عصيب بالنسبة للناشرين. وأتذكر أنه تكلم عن الخريف. ونحن الآن في نهاية سبتمبر. وهو وقت الاشتراكات، والنقود متوفرة بالتالي. ثم إنني أطلب ليس 1500 روبل، بل 300، ثلاثمئة لا غير.

ملاحظة: فليعرف بوبوريكين، كما تعرف «المعاصر» و«مذكرات الوطن» أنني، طول حياتي، لم أبع مؤلفاتي، ما عدا «الفقراء» ولم أستلم النقود سلفاً. أنا أديب بروليتاري (معدم)، وإذا أراد أحد أن أؤلف له فعليه أن يؤمن احتياجاتي مقدماً. أنا نفسي أستهجن هذا الأسلوب وألعنه. إلا أن العادة جرت على ذلك، ويبدو أنها لن تتغير أبداً. أواصل إذن. ليس عندي شيء جاهز الآن. ولكنني وضعت خطة قصة قصيرة موفقة، حسب تقديراتي. معظم النص مكتوب برؤوس أقلام على قصاصات. حتى أني هممت بالكتابة، لكنها

متعذرة هنا، بسبب الحر، هذا أولاً، وثانياً طالما جئت إلى مكان مثل روما لمدة أسبوع فهل يمكن في هذا الأسبوع، وفي روما، ممارسة الكتابة؟ ثم إنني أشعر بالتعب الشديد من كثرة التمشي.

حبكة القصة كالآتي: نموذج الروسي المغترب، والمجلات أثارت في الصيف نقاشاً واسعاً حول مسألة المغتربين الروس، ينعكس في القصة، وعموماً تنعكس فيها اللحظة الراهنة لحياتنا الداخلية بمجملها، على قدر الإمكان طبعاً. أنا أتناول شخصية رجل عادي، لكنه متطور كثيراً من دون إكتمال في أي جانب من جوانب ذلك التطور، شخصاً فقد إيمانه، لكنه لا يجرؤ على عدم الإيمان، وقد انتفض على المرجعيات من ذوي الجاه والسمعة وبات يخشاهم. وهو يهدئ نفسه بكونه لا يستطيع القيام بشيء في روسيا، ولذا يسلط نقداً لاذعاً على الذين يناشدون الروس المغتربين العودة إلى روسيا. من الصعب عرض كل شيء في هذه العجالة. محياه حيوي متفتح وكأنه الآن أمامي. ولا بد من قراءة ملامحه عندما يتم توصيفها (في القصة). والمشكلة الرئيسية أن نسغه الحيوي وطاقاته وهياجه وبسالته تركزت على الروليت. إنه مقامر، ليس من المقامرين العاديين، مثلما الفارس البخيل عند بوشكين ليس من البخلاء العاديين. أنا لا أشبّه نفسي هنا ببوشكين. كل ما في الأمر أنني أقول ذلك للتوضيح. (هذا المقامر) شاعر على طريقته الخاصة. لكنه نفسه يخجل من هذه الشاعرية، لأنه يتلمس وضاعتها بعمق على الرغم من أن الحاجة إلى المخاطرة تصوره لنفسه إنساناً نبيلاً. القصة كلها عن الفترة التي قضاها، للعام الثالث، يلعب الروليت في مدن القمار.[1]

إذا كانت «منزل الأموات» قد لفتت أنظار الجمهور بتصوير المحكومين بالأشغال الشاقة الذين لم يصورهم أحد بوضوح قبل هذه

الرواية فإن هذه القصة ستجلب الانتباه حتماً بصفتها تصويراً تجسيدياً وتفصيلياً للعبة الروليت. (. . .).

ثم إنني آمل بأن أصور هذه الأمور المثيرة جداً بشعور وفهم ومن دون تعديلات كبيرة.

حجم القصة سيكون في أقل تقدير ملزمة ونصفاً، أو ربما ملزمتين، ويحتمل تماماً أن يكون الحجم أكبر.

موعد التسليم إلى المجلة 10 نوفمبر في أبعد تقدير، وربما قبل ذلك التاريخ. على أية حال لا أبعد من العاشر من الشهر، ولذا بوسع المجلة أن تنشرها في عدد نوفمبر. تلك كلمة شرف، وأنا واثق بأن أحداً لم يجد بعد ما يبرر الشك في وعودي.

الأجر 200 روبل للملزمة، أو 150 في حال الضرورة. فأنا لا أريد تخفيض الأجر أبداً. ولذا أفضل الإصرار على المئتين. فالقصة ستكون مقبولة تماماً. كانت «منزل الأموات» مثيرة، أليس كذلك؟ فيما لدينا الآن توصيف لما يشبه الجحيم أو «حمام» الأشغال الشاقة[2]. أريد وسأحاول أن أرسم لوحة (بكل معنى الكلمة).

والآن إلى النقطة التالية:

معذرة، يا عزيزي الموقر نيكولاي نيكولايفيتش، لأنني أزعجك مباشرة ومن دون لياقة. أنا أعرف أن ذلك شيء مزعج تماماً. ولكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ فإذا وصلت إلى تورينو بعد 15 أو 17 يوماً في أبعد تقدير ولم أجد نقوداً هناك فإنني سأقع في داهية بكل معنى الكلمة. أنت لا تعرف كل ظروفي، وشرحها الآن يتطلب وقتاً طويلاً. وإلى ذلك كنت ذات مرة في منتهى الطيبة تجاهي، فأنقذْني مرة أخرى.

وإليك ما هو مطلوب:

أرجوك في آخر أمل، حالما تستلم هذه الرسالة، أن تذهب إلى بوبوريكين وتقول له إنني خولتك، واعرض عليه جزءاً من رسالتي، إذا اقتضى الأمر، وقدم اقتراحاً بحيث لا يشكل بالطبع إهانة كبيرة بالنسبة لي. (...) وحالما تستلم النقود أرسلْها إليّ، أي سلِّمها لأخي. وهو يعرف كيف يوصلها[3].

وإذا أخفقت المحاولة مع بوبوريكين يمكن أن تراجع الجرائد، ولو «المرساة»، قبّل أبولون غريغوريف بالنيابة عني، أو أية مجلة ما عدا «البشير الروسي» طبعاً، وتحاشَ «مذكرات الوطن» إن أمكن. حاول أن تتحاشاها، باللّه عليك. فلا حاجة إلى النقود في هذه الحال. (...) ويمكن مراجعة نكراسوف مباشرة (...) لحل المشكلة. وسيكون ذلك أمراً جيداً، بل حتى أفضل من بوبوريكين. نكراسوف ربما لا يزعل مني كثيراً. وهو، على الأكثر، رجل عملي. بديهي، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، أن هذه القضية ينبغي أن تنتهي في يومين، أو ثلاثة في أكبر تقدير. فسأهلك بالمعنى الحرفي للكلمة إن لم أجد نقوداً في تورينو. لا تكتب لي إلى نابولي. اكتبْ لي الآن إلى تورينو مباشرة. أرجوك اكتبْ على أية حال. إذا استلمت النقود سلمها إلى أخي. أنا في الحقيقة بحاجة إلى 200 روبل، وليس أقل، والمئة الباقية يبعثها أخي إلى (زوجتي) ماريا دميتريفنا. ولذا ينبغي استحصال 300 روبل. إذن فقد كتبت لك كل ما يلزم. أضع نفسي في عهدتك ومصيري بين يديك تقريباً. وقد أحدثك فيما بعد عن مدى أهمية ذلك بالنسبة لي. والآن أستعطفك من جديد ثم أعانقك من صميم القلب.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: الغريب أنني أكتب من روما ولا كلمة عنها. فماذا أستطيع أن أكتب لك؟ يا إلهي، هل يمكن توصيف ذلك في الرسائل؟ وصلت قبل ثلاثة أيام ليلاً. صباح أمس زرت (كاتدرائية) القديس بطرس. الانطباعات شديدة، برجفة وقشعريرة في الظهر. واليوم زرت أنقاض الفوروم ثم الكوليزيه. فماذا عساي أن أقول لك...؟

بلِّغ تحياتي للجميع، وإلى غريغوريف مع الجميع. ولأخيك بخاصة. ثم إني أرجوك أن تبلغ حتماً تحياتي وتمنياتي من صميم القلب إلى بوليا بتروفنا، حالما تراها في أول لقاء. (...)

دعاة السلافية قالوا بالطبع كلمتهم الجديدة التي لا يستطيع أن يستوعبها تماماً حتى الراسخون في العلم. يلوح فيها بطر أرستقراطي مدهش لدى معالجة المسائل الاجتماعية.

---

(1) هذه الحبكة غدت فيما بعد أساساً لرواية «المقامر» التي صدرت عام 1866.

(2) تورغينيف قارن بين مشهد الحمام في «منزل الأموات» ومشاهد جحيم دانتي.

(3) مهمة ستراخوف مع بوبوريكين نجحت واستلم منه النقود.

79. إلى إيفان تورغينيف

تورينو، 6 أكتوبر 1863

العزيز المحترم إيفان سرغييفيتش. جبتُ كل الأماكن، وكنت في نابولي، وغداً أغادر تورينو إلى روسيا مباشرة. ورغم جميع حساباتي لم أتمكن من إرسال عنوان محدد إليك لكي ترسل «الأشباح» لي. فقد كنت أتوقف في كل الأماكن لفترات قصيرة، ويصادف أنني عندما أتحرك اليوم من مكان لا أعرف غداً في العادة إلى أي جهة سأتجه. كل هذه السفرات تسير حسب ظروف لا تتوقف على إرادتي، بل أنا متوقف عليها[1]. ولذا لم أتمكن من حساب كيفية تزويدك بالعنوان المناسب لإرسال «الأشباح»[2]. استلمتُ من أخي رسالة منذ أن كنت في نابولي، كتب فيها أن لديه أملاً كبيراً في السماح باستئناف صدور «الوقت»، وأن المسألة ستحل بعد أيام. ولعلها قد حلت الآن. أنا نفسي أظن، بناءً على بعض المعطيات والتعليقات، أن «الوقت» ستعود إلى الصدور. ولما كان القرار سيأتي في أكتوبر[3] فإن أخي يريد من كل بد أن يصدر عدد نوفمبر. وسنسلم ستة أعداد مجاناً للذين لم يستلموا المجلة ستة أشهر.

أكتب لك بصراحة: قصتك «الأشباح» تتسم بأهمية بالغة بالنسبة لنا في عدد نوفمبر تحديداً. وبالتالي، إذا كنت تريد أن يكون لك فضل عظيم علينا أرسِل المخطوطة إلى بطرسبورغ بأسرع ما يمكن. أنا سأكون هناك يومها. وطالما ليست لدي شقة في بطرسبورغ فعنون القصة على عنوان أخي وهو:

ركن شارع مالايا ميشانسكايا وزقاق ستولارني، دار يفرينوف، إلى ميخائيل ميخائيلوفيتش دوستويفسكي

اعملْ معروفاً واكتبْ لي ولو سطرين بهذا الخصوص. يؤسفني أشد الأسف لأنني منذ أن كنت في بطرسبورغ قررت المكوث في بادن لا من أجل ما حصل فعلاً، بل من أجل رؤياك والتحدث إليك. والحقيقة كان لدي الكثير مما أريد أن أقوله لك وأسمع رأيك فيه. إلا أن ذلك لم يحدث على أية حال. وفوق ذلك حصل «تمرد العواطف» المنحوس[4] ولو لم أكن آمل أن أنجز شيئاً أكثر ذكاءً لشعرت بخجل كبير الآن. ولكن ما العمل؟ هل يجدر بي أن أطلب المسامحة من نفسي لنفسي؟

في بطرسبورغ ينتظرني عمل مرهق. ومع أن صحتي تحسنت كثيراً، إلا أنني أعرف أنها ستتدهور بعد شهرين أو ثلاثة. ولكن لا حيلة في الأمر. أنا لا أعرف بعد كيف ستسير الأمور. والمجلة يجب بناؤها من جديد تقريباً. يجب تحديثها وجعلها ممتعة أكثر مع إيلاء الأدب في الوقت ذاته الاهتمام اللازم. وتلك مهمات لا يجمعها جامع في رأي الكثيرين من مفكري بطرسبورغ. إلا أننا ننوي التصدي بحزم لبوادر الاستهانة بالأدب. ولن نتراجع. فساندنا رجاءً، وكن معنا. إنني أقدم صحتي قرباناً للمجلة. وأتقاضى القليل من النقود. وأعرف أن المجهود الأدبي لا يكاد يغطي الكلفة. والمجلة مكبلة

بالديون. ومع ذلك أبقى في بطرسبورغ حيث يمنعني الأطباء من العيش فيها، وحيث أرى بنفسي أنه لا يجوز لي أن أعيش فيها بعد الآن. وثمة مسألة أخرى. رجاءً فلنتراسل بين فترة وأخرى. أقول لك ذلك من صميم القلب.

إلى اللقاء، أشد على يدك بحرارة.

المخلص ف. دوستويفسكي

لم أكتب لك شيئاً عن الرحلة. روما ونابولي أدهشتاني كثيراً. فأنا لأول مرة هناك. والحقيقة أن من الصعوبة البقاء وحيداً لفترة أطول. ولذا أنا شديد الرغبة في العودة إلى بطرسبورغ.

اكتبْ لي، أرجوك، كم تريد أن نرسل إليك مقابل «الأشباح»؟ سأخبر أخي بذلك. بديهي أننا سندفع أي مبلغ تطلبه.

---

(1) دوستويفسكي يقصد جولاته برفقة سوسلوفا.
(2) تورغينيف أوصل مخطوطة «الأشباح» بنفسه إلى بطرسبورغ.
(3) صدر قرار استئناف «الوقت» في يناير 1864.
(4) المقصود الولع بلعب القمار.

80. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 19 نوفمبر 1863

أعرف جيداً، يا أخي الكريم، أنك غارق الآن في المشاغل والهموم. وماذا عليّ أن أفعل، أنا أيضاً تراكمت عليَّ المشاغل فلا أرى لها نهاية ولا حداً. تقول إنك ستأتي إلى موسكو بعد الـ 20 من الشهر. متى تحديداً؟ بعد الـ 25 طبعاً. فإذا وصلت قبل هذا التاريخ يحتمل أن لا نلتقي. فأنا آمل أن أكون في بطرسبورغ حتى الـ 25 من الشهر. فيما يتعيَّن علينا أن نتداول في الكثير من الأمور وبأقرب وقت ممكن. المهم أن لا يخدعونا بالوعود بل يسمحوا بإصدار «الحقيقة» بأسرع ما يمكن. وأعترف لك بأنني لست متألماً جداً لعدم السماح باستئناف «الوقت». «فالحقيقة» يمكن أن تؤمّن المفعول نفسه، إن لم يكن أكثر، في ظروف معينة طبعاً. وهذا هو المهم. أما بخصوص تسمية المجلة «الحقيقة» فأعتقد أنها تسمية رائعة ومدهشة. والشرف لمن اقترحها. فهي تصيب عين الحقيقة. وتنطوي على الفكرة الأكثر صلاحاً وتتناسب مع الظروف، والأهم أن فيها بعض السذاجة والإيمان الذي يناسب روحيتنا وتوجهاتنا، ذلك لأن مجلتنا «الوقت»

كانت على الدوام ساذجة جداً، ولربما كانت، والشيطان وحده عليم، تجتذب القراء بسذاجتها وإيمانها. باختصار، التسمية رائعة. والغلاف بنفس تصميم «الوقت» ليذكّرنا بها. وفي المجلة قسم واحد(. . .) وفي السطر الأول من الإعلان عنها عبارة من قبيل «الوقت يقتضي الحقيقة». في إشارة إلى أن مجلة «الحقيقة» هي نفسها مجلة «الوقت». الشيء الوحيد الذي يقلقني هو الإعلان نفسه. يا صديقي، المطلوب هنا ليس الفن، وليس الذكاء، بل الإلهام. أهم شيء هو تفادي الروتين الملازم في مثل هذه الأحوال لجميع العقلاء والموهوبين. فهم يكتبون بذكاء لا شائبة فيه والنتيجة أقوال فاترة بائسة، شبيهة بسائر الإعلانات المعتادة. في المرتبة الأولى، بالنسبة لنا الآن، الأصالة والإثارة المرموقة غير المفتعلة. أنت تقول إنك تعكف على كتابة الإعلان. هل تعلم ما هي فكرتي بهذا الخصوص؟ ينبغي الكتابة بإيجاز ومن دون إسفاف وبنوع من الاعتزاز والثقة التامة بالنفس، من دون أية تلميحات. الإعلان نفسه عن هوية المجلة وتوجهاتها من 4 أو 5 سطور. ومخاطبة المشتركين موجزة أيضاً. ولا بد من إثارة دهشتهم بالعزة الرفيعة (للقائمين على المجلة). تسمية «الحقيقة» لم تعجب ألكسندر بافلوفيتش. إلا أنه من المتقيدين جداً بالروتين. وأنا أعتبر عدم إعجابه مؤشراً جيداً. هؤلاء السادة يجأرون في البداية معترضين زاعمين أن كل شيء سيئ، وفيما بعد يمدون ألسنتهم فجأة مهللين مادحين. هؤلاء كهان الماجريات العابرة. أما أن التسمية أعجبت ستراخوف ورازين فهذا أمر أفهمه. فهما من الذين يتحلون بالفهم وبشيء من الحدس، وهذا هو الأهم. أما الباقون، ومنهم ربما ميلوكوف، فلا بد أن يسفهوا التسمية. بالمناسبة، أنت لا تكتب شيئاً عن ميلوكوف، هذه المرة كالمرات السابقة. عفارم عليك. فما أغرب هؤلاء الناس.

تكلمت مع ألكسندر بافلوفيتش عن النقود. فقال إنه لا يعرف كيفية القيام بذلك، وإن هذا غير ممكن قبل تقسيم التركة. أنا نفسي أعتقد أن هذا غير ممكن. ساشا (ألكساندرا) ليست في الحسبان. حصل ذلك بالصدفة. ولعلك لا تعلم أن الجدة وصلت قبل أسبوع إلى بطرسبورغ وجلبت لساشا المتبقي من حصتها وهو 8 آلاف روبل. وأعتقد أنهم لم يبلغوك. أنا أرى أن الأفضل أن تؤجل سفرك إلى موسكو لأطول فترة ممكنة في أواخر نوفمبر، لعلك تصل إليها أثناء التقسيم مباشرة. ولا تتأخر في موسكو. نحن استأجرنا شقة هنا. وحالما أنتقل إليها وندبر أمورنا أتوجه إلى بطرسبورغ. المشاغل لا توفر لي ولا دقيقة للكتابة. حصلت لي هنا نوبتان من الصرع، إحداهما، النوبة الأخيرة، شديدة.

الشركة الأخرى للمجلة، أقصد «الحقيقة»، لن تتدخل في المقالة الافتتاحية. ثم إن مقالتين في تحليل روايتي تشيرنيشيفسكي («ما العمل») وبيسيمسكي («البحر الهائج») من شأنهما أن تثيرا اهتماماً كبيراً، والأهم أن التحليل سيكون مناسباً للموقف. فهناك فكرتان على طرفي نقيض، وكلتاهما تتعرضان للانتقاد. تلك هي الحقيقة. وأعتقد أنني سأكتب هذه المقالات الثلاث إذا توفرت لي فرصة العمل بهدوء.[1] أنا لم ألتق أحداً هنا، ما عدا بيسيمسكي الذي صادفته أمس في الشارع ورحب بي كثيراً. وفي مساء أمس ذاته كان العرض الأول «للمصير المرير». ولم أحضره. ولا أعرف مستقبل المسرحية. قال إن النادي الإنجليزي وحزب الاقطاعيين يجيشان الجيوش ضده. لعله يتباهى.

وداعاً، أعانقك. سنلتقي قريباً على أية حال.

المخلص د(وستويفسكي)

بلغ تحياتي للجميع. لا أحد يعرف شيئاً هنا عن تقسيم التركة، سوى أنه سيتم في نهاية نوفمبر. أما ألكسي كومانين (ابن خالنا) فقد بدأ لغبائه دعوى رسمية للطعن بوصية أبيه بحجة أنه كان فاقد الأهلية العقلية تقريباً عندما حررها. وقد أعادوا ألكسي إلى رشده والدعوى الآن بلا جدوى. على أية حال تصرف ألكسي هذا طي الكتمان الشديد هنا.. والناس تثني على منفذ الوصية قسطنطين قسطنطينوفيتش.

---

(1) لم يتسنَّ لدوستويفسكي أن يكتب المقالات المذكورة.



81. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 23 ديسمبر 1863

الفاضل الموقر إيفان سيرغييفيتش. قال آنينكوف لأخي إنك كأنما لا تريد نشر «الأشباح» لأن في القصة الكثير من الخيال. وقد أربكنا هذا الأمر كثيراً. بدايةً أقول بصراحة إننا، أنا وأخي، نعوّل على قصتك. فهي ستساعدنا كثيراً في العدد الأول من مجلتنا التي تبدأ من جديد لتشق طريقها ثانية. وأنا أشير إلى ذلك خصيصاً كيلا تشك في دوافع هذه الرسالة ولا تظن أنني أتكلم بدافع من المصالح الشخصية وحدها. وأضيف إلى ذلك سبباً آخر أعطيك كلمة شرف بشأن صحته: قصتك بالنسبة لنا أهم بكثير من التباهي باسمك على غلاف المجلة.

والآن أذكر كلمة عن قصتك بناءً على انطباعاتي. لماذا تظن، يا إيفان سيرغييفتش، أن قصتك «الأشباح» ليست في وقتها، إذا كنت تظن هكذا بالفعل؟ وأن القارئ لن يفهمها؟ بالعكس، البلادة وست سنوات متوالية من تقليد الأساطين قادت الإيجابيات إلى سفاسف، مما يجعل الناس يرتاحون لنتاج شاعري صرف، أو أكثر شاعرية. البعض سيستقبلون القصة بشيء من الحيرة، لكنها حيرة مريحة. ذلك

سيكون موقف جميع الذين يتفهمون من أبناء الجيلين القديم والجديد. أما الذين لا يفهمون شيئاً فهل ينبغي لنا أن نلتفت إليهم؟ قد لا تصدق كيف ينظر هؤلاء إلى الأدب. كل ما يطلبونه هو النفعية المحدودة. اكتبْ لهم النتاج الأكثر شاعرية وستراهم يزيحونه ويُقبلون على الهزيل المعلوك وعلى المشاغبات. ويعتبرون الحقيقة الشاعرية وحشية. إنهم لا يريدون سوى استنساخ الواقع. النثر عندنا فظيع (أشبه بارتجاف الكواكرز على طريق الرب). فلا يجوز الالتفات إليهم والحال هذه. إن الجزء السليم من المجتمع الذي استيقظ إنما يتعطش إلى عمل جريء من الفن. في حين أن «أشباحك» عمل جريء جداً. وسيكون قدوة رائعة، بالنسبة لنا جميعاً، فيما لو كنت أول من يقدم على هذا العمل. الشكل الإطاري «للأشباح» سيعجب الجميع، أما جانب المضمون الواقعي فسيكون منفذاً ومتنفساً لذلك الإعجاب. ما عدا إعجاب الحمقى والذين لا يرغبون في فهم شيء سوى هذيانهم الكواكري. أنا، بالمناسبة، أعرف إحدى النفعيات العدميات المستاءات من قصتك لكنها قالت: «مطالعتها استولت عليَّ دون فكاك وتركت في نفسي انطباعاً عميقاً». ومعروف أن لدينا الكثير من العدميين المتصنعين. إلا أن المهم في هذا المضمار هو فهم هذا الجانب الواقعي. وأعتقد أن في «الأشباح» كثيراً من الواقع. وهذا الواقع هو حنين الكائن الواعي المتطور الذي يعيش في زماننا. هذا الحنين الكئيب الذي تسجله القصة يملأ ثناياها. إنه «وتر يصدح في الضباب»[1]، وحسناً يفعل عندما يصدح. «الأشباح» شبيهة بالموسيقى. على فكرة، ما رأيك في الموسيقى؟ هل هي متعة أم ضرورة للشحنة الإيجابية؟ باعتقادي أنها اللغة ذاتها، ولكنها تعبر عما لم يتمكن الوعي من تذليله بعد، أعني الوعي بمجمله وليس الأحكام

العقلية. وبالتالي فهي تعود بالمنفعة الإيجابية. أصحابنا النفعيون لا يفهمون ذلك، إلا أن الذين يحبون الموسيقى من بينهم لم يتركوها، ولا يزالون يمارسونها كالسابق. شكل قصتك «الأشباح» رائع. وإذا كان هناك ما يستوجب الشك فهو بالطبع الشكل. كل القضية تتلخص فيما إذا كان يحق للخيالي أن يتواجد في الفن أم لا؟ ولكن من يرد على مثل هذه الأسئلة؟ وإذا كان في «الأشباح» ما يمكن أن يُنتقد فهو كونها ليست خيالية تماماً. ربما المزيد من الخيال ضروري، حتى يتوفر المزيد من الجرأة. الكائن الذي يظهر في قصتك يفسر على أنه مصاص الدماء. باعتقادي لا موجب لهذا التفسير. آنينكوف لم يوافقني وقدم حججاً بأن هناك تلميحات إلى فقدان الدم، أي هدر القوى الإيجابية وما إلى ذلك. وأنا لا أوافقه على ذلك إطلاقاً. يكفيني أنني فهمت الكآبة حسياً وكذلك الشكل الرائع الذي اتخذته، أعني غليان الواقع من دون أية تهدئة. ثم إن الأسلوب جيد، أسلوب تسوده نأمة الحزن الخفيف من دون غضب أو احتقان. المناظر الطبيعية كالجبل وغيره تلميح إلى الفكرة العفوية غير المحلولة بعد، أي الفكرة نفسها الموجودة في الطبيعة، ولا أحد يعرف هل تحل المسائل البشرية في وقت ما، وهي الآن تجعل القلب يحزن ويرتعب أكثر، بالرغم من عدم الرغبة في الانفصال عنها. كلا، يا سيدي، هذه الفكرة بالذات جاءت في الوقت المناسب، والنتاجات الخيالية من هذا النوع تحمل شحنة إيجابية كبيرة.

(المخلص ف. دوستويفسكي)

---

(1) من «مذكرات مجنون» لنيكولاي غوغول.

82. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 29 فبراير 1864

أخي العزيز ميشا. وصلتُ إلى موسكو أمس بسلام. ومع أنني لم أتعب كثيراً في الطريق إلا أنني عانيت هنا أمس من الآلام نفسها كما في بطرسبورغ في أحلك فترات المرض. ولكنني آمل أن ينتهي ذلك قريباً، وبالتالي لا موجب لمزيد من الكلام عن هذه المسألة. كيف حالكم في البيت الآن؟ طول الطريق كنت أتصور ما حدث وأتعذب كثيراً. أنا متألم جداً (لوفاة) فاريا[1]. الجميع هنا تألموا حالما سمعوا بالنبأ. ماريا دميتريفنا بكت بدموع حرى، وأرادت أن تكتب إلى إميليا لكنها عدلت عن الفكرة. وكانت تشعر بالأسى العميق وبكل صدق. فليلهمكم اللّه (الصبر والسلوان لتسير أموركم بشكلها الطبيعي). المهم هو الصحة، وثانياً - العمل. حافظ على صحتك. ولا تستعجل كثيراً. لا ترتحل إذا شعرت بأن صحتك ليست على ما يرام. أما بخصوص عدد المجلة[2] فحتى لو صدر في نهاية مارس لا مشكلة. سيكون ذلك جيداً. بالأمس تصفحت العدد الأول من «المعاصر» (لهذا العام). النقد فيه كثير، وكذلك المقالات التي تعبّر عن وجهة نظر المجلة. أما

الأدب فلم يحالفه الحظ. وقد تبادر إلى ذهني أن نفتتح في «العصر» القسم القديم الذي احتوته المجلات أيام زمان، وأعني قسم «المدونة الأدبية». وهو لا يتطلب نشر مقالات، بل يكتفي بتعداد جميع الكتب والتراجم الصادرة في الشهر الماضي، جميعها بلا استثناء. وبسبب الاعتقاد الذي ترسخ آنذاك وكأن الأدب كله يتركز في المجلات جرى إهمال ما يصدر من كتب. كان ذلك في السابق مبرراً، لكن الأمر تبدل الآن، لأن كتباً كثيرة تصدر والجمهور ينبغي أن يتابعها حسب إعلانات الجرائد لكي يعرف عناوينها، ومع معرفته بالعناوين يبقى جاهلاً بالمضامين. ولذا ينبغي أن ننشر ستة أسطر، أو عشرة في أكبر تقدير، وأحياناً سطرين، عن كل مضمون كتاب. ويمكن بالطبع كتابة صفحة أو صفحتين إذا كان الكتاب مهماً ومثيراً. ويمكن أن يعد هذا القسم من دون جهد يذكر أحد الشباب مثل بيبيكوف، وبوسعه أن لا يفعل شيئاً سوى متابعة الإصدارات. وبالتالي سيكون في مجلتنا وحدها كاتالوج كامل مع أهم التوضيحات عن الكتب الصادرة. في «المعاصر» كأنما بدأوا بنشر ما يماثل هذا القسم. كما يمكن مرة كل شهرين أن تنشر المجلة عرضاً لمحتويات المجلات الأخرى، ليس كالعرض المعتاد حيث تحلل المجلات إحداها الأخرى، بل يكون بمثابة قائمة شبيهة «بالمدونة الأدبية» لجميع المقالات المنشورة في الصحف والمجلات خلال الشهرين الماضيين، مع إشارة موجزة أمام كل مقالة إلى مزاياها. وإذا تم التقيد بالدقة والشمول تتخذ المجلة شكلاً عملياً، شكل طبعة مهتمة جدياً بالأدب. حبذا لو بدأنا مدونة الكتب والمجلات اعتباراً من 1 يناير. فما رأيك؟

وقد فكرت أيضاً في كتابة مقالة جيدة عن التنظير وخيال النظريين، أقصد منظّري «المعاصر». فلن يتخلصوا مني، وخصوصاً إذا حاولوا

أن يمسونا. وسيكون ذلك عملاً جاداً وليس مماحكات جدلية. اعتباراً من يوم غد سأواظب على كتابة مقالة عن (المؤرخ) كوستوماروف. وبعد أسبوع سأخبرك بسير العمل. أجبني باللّه عليك، أخبِرني عن أحوالك. اكتبْ لي ولو قليلاً.

تحياتي إلى إميليا، وقبلاتي للأولاد. وخصوصاً ميشا وكاتيا. وبلّغ تحياتي إلى كوليا حتماً. تسخن الجو عندنا، وذاب الثلج عن آخره. والرطوبة شديدة.

إلى اللقاء يا عزيزي.

المخلص ف. د.

احتراماتي إلى نيكولاي نيكولايفيتش والآخرين. ماريا دميتريفنا ضعيفة جداً.

---

(1) ابنة ميخائيل دوستويفسكي.

(2) المقصود العدد الأول من مجلة «العصر»، وقد صدر في 24 مارس 1864.

83. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 20 مارس 1864

صديقي العزيز ميشا. لم أرد على رسالتك المؤرخة في 14 من الشهر بانتظار وصول النقود. ولم أستلمها إلا يوم أمس التاسع عشر. أشكرك كثيراً على إرسالها. فقد احتجت إليها. تقول إنك سترسل بعد أسبوع المبلغ نفسه، أي 100، تكرّم وأرسلْها. هذه المئة روبل صرفت على سد الثغرات. الحاجة ماسة جداً. وتضيف إلى ذلك أنك سترسل مئة روبل أخرى بعد المئتين إذا دعت الحاجة. الحاجة قائمة يا عزيزي. قائمة وقاسية. ولذا أرجوك كل الرجاء أرسِل الوجبة، المئة روبل، الثالثة. أنا أعرف أنك نفسك كالسمكة في المقلاة. يا ليت الاشتراكات تساعدنا. أنا صامت ظاهرياً، لكنني أتحمل لا أقل منك، ليس بسبب النقود وحدها. أنا الآن والحمد للّه تعافيت تماماً على ما يبدو. لا أزال متقيداً بالحمية الصارمة والحذر الشديد، إلا أن المرض انتهى على أية حال، وهذا بحد ذاته أمر جيد. بقي أن أعصابي مضطربة للغاية. وأخشى نوبة الصرع. فمتى تأتي إن لم يكن في مثل هذه الظروف؟

ماريا دميتريفنا ضعيفة جداً. ومن المستبعد أن تعيش حتى عيد الفصح. قال لي ألكسندر بافلوفيتش صراحة إنه لا يضمن لها ولا يوماً واحداً. تقيم عندنا بربارة دميتريفنا، ولولاها لا أدري ماذا كان سيحصل لنا. فهي تساعدنا جميعاً بوجودها وسهرها على ماريا دميتريفنا. هذا كل ما أستطيع ذكره عن نفسي. أنا لم أزر أحداً بسبب مرضي. يوم أمس صادفت بليشييف في الشارع. فرح للقائي كثيراً، متصوراً أنني في بطرسبورغ. حدثني عن الموسقوفيين وعن (أمسيات إيفان) أكساكوف ولقائهم يوم أمس عنده معزين بوفاة أخته، وما إلى ذلك.

أواصل كتابة قصة طويلة[1] وأسعى لإنهائها بأسرع ما يمكن، محاولاً في الوقت ذاته أن تكون أفضل. كتابتها أصعب بكثير مما كنت أتصور. في حين أنها يجب أن تكون جيدة. أنا نفسي بحاجة إلى ذلك. وهي من حيث أجواؤها غريبة جداً، ولهجتها حادة متوحشة، ربما لن تحظى بالإعجاب، وبالتالي لا بد للشاعرية أن تخفف تلك اللهجة. وأعتقد أنني سأوفق.

أهم ما يشغل بالي، إضافة إلى هذه القصة، أن أتمكن من كتابة مقالة نقدية لعدد مارس. إلا أن كل المقالات التي في ذهني الآن والتي تناسب المجلة وتوجهاتها إنما هي مقالات طويلة. فماذا عليَّ أن أفعل؟ أفضل شيء هو المواظبة على الكتابة من دون التفات إلى ما إذا كان الوقت يتسع أم لا. هكذا أريد أن أفعل. إلا أن عدم تواجدي شخصياً معكم يقلقني كثيراً. ففي كل يوم تتبادر إلى الذهن فكرة تقتضي الكلام والتبليغ. وأنا قابع هنا وحدي. لا أستطيع لحد الآن أن أذهب إليكم، بل أنا نفسي لن أذهب بأي حال.

أنت تعرف بالطبع كتاب «مذكرات الممثل شيبكين» الذي صدر

هذا العام. إذا لم تكن قد قرأته، خذه واقرأه في الحال. فهو مثير للفضول. والقضية أنني، على أية حال، أرجوك أن لا تكلف أحداً بتحليل الكتاب. المشكلة أن مثل هذه الكتب ثمينة جداً بالنسبة لنا من أجل التحليل. كان شيبكين حتى الثلاثين من عمره تقريباً من الأقنان. في حين أنه ارتبط بالمجتمع المتحضر منذ الطفولة دون أن يفقد صفته الشعبية. ونحن نكتب عن الارتباط بالأرض، بالتربة. من هذه الناحية ينبغي أن نلتفت إلى شيبكين كمثال حي. ثانياً- الارتباط بالحضارة، أي بنا، حصل عند القن المستعبد شيبكين بتأثير قوة مباشرة حصراً هي قوة الفن المسرحي. ومن هنا يطرح السؤال نفسه عن الفن، بل وحتى عن منفعته المادية والاجتماعية. ولذا تكون المقالة المكتوبة من وجهة النظر هذه مهمة ومثيرة. انقلْ هذه الفكرة إلى ستراخوف. فهل سيتولى التحليل بالإضافة إلى «مسلسل المقالات» المعهود. على أية حال (لم يبق لدينا غيره)، فمن سيكتب؟

خبر سفر (المحرر) رازين وقع عليَّ كضربة فأس على الجبين. فما العمل؟ لا يجوز أن نعهد بالقسم إلى أي شخص كان.

رأيي أن الأفضل الاكتفاء بتعداد الأحداث وربطها برسالة سياسية ما ترسل إلى هيئة تحرير المجلة بشأن مسألة جزئية في أمور السياسة. وإذا لم تكن متضايقاً من الأشغال فلمَ لا تستحدث قسماً سياسياً لشهر مارس على الأقل؟ يمكن أن لا تتناول فيه كل شيء، بل تكتفي بمسألة جزئية تخضعها للتحليل. وأخشى أن تدفعك الضرورة فتكلف بذلك أحد السادة المتسكعين. الأفضل أن لا تفعل شيئاً من أن تكلف سيداً من هؤلاء. (...)

هناك شخص يدعى تشايف يعترض على آراء دعاة السلافية، لكنه يحبهم كثيراً. وهو من أكثر الناس تقيداً باللياقة والأصول. التقيته عند

أكساكوف ولاموفسكي. وهو مولع بدراسة تاريخ روسيا. شعرت بالارتياح عندما لاحظت أننا متفقان في نظرتنا إلى التاريخ الروسي. وكنت سمعت سابقاً أنه نظم دراما شعرية مستقاة من هذا التاريخ بعنوان «الأمير ألكسندر تفيرسكوي». بليشييف امتدح هذه الأشعار.

وفي العدد 11 من «اليوم» نشر إعلان عن تلاوة عامة لقصائد تشايف وإطراء عليها. وقد كلفت بليشييف أن يقترح عليه نشر كتاباته في «العصر». فهل فعلتُ حسناً؟

(المخلص دوستويفسكي)

---

(1) المقصود رواية «مذكرات من تحت الأرض» («في قبوي»).



84. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 26 مارس 1864

أخي العزيز. قبل ثلاثة أيام أخذت من تشيرينين «العصر» التي استلمها بسرعة، ولا أدري كيف. فقرأتها في يوم ونصف وأعدت قراءتها. وإليك انطباعاتي: كان ينبغي أن تكون حلة الطبعة أجمل، والأخطاء لا تعد ولا تحصى. والترتيب غائب تماماً، ولا مقالة واحدة مدخلية ريادية تتضمن، على الأقل، تلميحاً إلى اتجاهنا، ما عدا مقالة كوسيتسا التي هي مقالة جيدة جداً، ولكنها غير كافية للعدد الأول من المجلة الجديدة. أنا أعرف أن سبب ذلك كله هو منع (الرقابة) «لمسلسل المقالات»، ما يجعلني أكثر انفعالاً، ذلك لأن هذين العددين يرتديان لبوس مجموعة مكتملة. وثمة أيضاً خشونة يمكن السكوت عليها عندما يصدر عددان دفعة واحدة وبعجالة (. . .) والآن عن الجانب الجيد من المسألة. كل المقالات التي قرأتها تثير الاهتمام، (. . .) والغلاف مبرقش، وعناوين المقالات تجلب الانتباه. بعض المقالات معتبرة تماماً. إلا أن في «الأشباح» باعتقادي كثيراً من القاذورات، فيها شيء مقيت، مريض شائخ لا يؤمن بشيء

لعجزه، باختصار، فيها تورغينيف بقضه وقضيضه، ومعتقداته. غير أن الشاعرية تعوض عن الكثير. قرأت القصة مرة أخرى. كما أعجبتني كثيراً (مقالات عديدة منها مقالات) ستراخوف وغريغوريف وأفيركييف (وغيرها. . .) ولكن بريق كل هذه الكتابات يخبو بسبب منع «مسلسل المقالات» المعهود. رجاءً اسألْ من ستراخوف هل سيعدل مقالته للعدد القادم تماشياً مع الرقابة أم ينبغي كتابة مسلسل جديد من المقالات غير المسلسل السابق. حبذا لو أسرع في كتابة الافتتاحية. كما أنني أتشكى بخصوص مقالتي. ففيها الكثير جداً من الأخطاء المطبعية. وكان الأفضل عدم نشر الفقرة ما قبل الأخيرة، التي تتضمن الفكرة الرئيسية، من أن تنشر بهذا الشكل المتناقض. فما العمل؟ خنازير الرقابة سمحوا بالعبارات التي سخرت فيها من الجميع وتظاهرت بالكفر، ومنعوا تبريري للحاجة إلى الإيمان وإلى المسيح. ماذا؟ هل أن مسؤولي الرقابة متآمرون على الحكومة؟

لعل عدد المجلة (المزدوج) يثير حب الاستطلاع إن لم أقل التأثير في القراء. وهذا شيء جيد. عموماً العدد معتبر تماماً إذا نظرنا إلى سرعة التنفيذ. أما بخصوص التنوع فلم أكن أتوقع أن يتم بهذه الصورة. الشيء الوحيد المؤسف أن من المتعذر فهم الاتجاه الذي نتقيد به وماذا نريد أن نقول تحديداً. أرجوك، يا عزيزي ميشا، أن ترد عليَّ بأسرع ما يمكن وتحدثني تفصيلاً عما قيل عن المجلة. الجمهور هنا لم يستلمها بعد، ولذا لم أسمع أي رأي عنها.

ماريا دميتريفنا ضعيفة لدرجة جعلت ألكسندر بافلوفيتش لا يتوقع لها أن تعيش يومها. لن تعيش أكثر من أسبوعين. أحاول أن أنهي قصتي بسرعة، ولكن حكّم بنفسك هل الوقت مناسب للكتابة؟

هل تعرف شيئاً عن بافل؟ فما عدا رسالة واحدة لم يكتب شيئاً مع

أنني أمرته أن يراسلني أسبوعياً. فماذا حصل له؟ وكيف يعيش؟ رجاءً حاول أن تتحدث معه على نحو ما، أو أرسلْ له أحداً إلى الشقة ليرى ماذا يحدث هناك؟ إنه ابن عاق.

ثم إنه، يا أخي، ربما سيلومني فيما بعد لأنني لم أطلب له ترخيصاً بالمجيء إلى موسكو لتوديع والدته. إلا أن ماريا دميتريفنا لا تريد رؤيته قطعاً، وقد طردته بنفسها من موسكو آنذاك. ولم تغير رأيها حتى الآن. لا تريد أن تراه. وهي المريضة بالسل معذورة على هذا المزاج. قالت إنها ستدعوه لتباركه إذا شعرت بأنها على شفا الموت. لكنها يمكن أن تموت مساء اليوم. بينما قالت في الصباح إنها ستعيش في الصيف في المنزل الريفي وإنها بعد ثلاثة أعوام ستنتقل إلى تاغانروغ أو آستراخان. وليس بالإمكان تذكيرها ببافل. فهي وسواسية جداً وستقول: «يعني أنني ضعيفة جداً وسأموت». فما الموجب لتعذيبها في الساعات الأخيرة، ربما، من حياتها؟ ولذا لا أستطيع أن أذكّرها بابنها. أريد له أن يعرف ذلك. بلّغه إن كنتَ تستطيع، ولكن لا ترعبه كثيراً، مع أنه لن يرتعب على ما يبدو.

ولي رجاء هام آخر: حالما يأتي أجل ماريا دميتريفنا أبعث لك برقية لكي ترسل باڤل إلى موسكو حالاً، في اليوم نفسه. فلا بد له أن يحضر الدفن. ثيابه كلها بألوان فاتحة، ولذا يجب أن تشتري له (ثياب الحداد..). أرجوك أن تفعل ذلك وأستعطفك لأنك صديقي الوحيد، فتكرَّم عليَّ بهذه الخدمة العظيمة وساعدني في وضعي العصيب حالما تستلم البرقية. وهي ربما ستصلك قريباً.

ملاحظة: عندما ستبعث باڤل في الازدحام والتسرع قد يتحجج ويؤجل السفر إلى الغد. فاجعل شخصاً ما يراقبه في ذلك اليوم نفسه. باللّه عليك.

تقول إنك أرسلت النقود يوم الاثنين. لم أستلمها بعد.

أنا لست في صحة تامة. لا أقصد المرض السابق، بل مخلفاته، وأهمها ضعف البدن. أشعر بالتعب سريعاً، فما السبب يا ترى؟

وداعاً عزيزي، الرسالة ليست بهيجة. يعطيك العافية. أعانقك وجميع أفراد عائلتك.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) صدر عدد يناير وعدد فبراير 1864 من مجلة «العصر» مزدوجاً في مجلد واحد.



85. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 5 أبريل 1964

صديقي ميشا!

أكتب لك كلمتين.

قصتي الطويلة[1] يمكن إنجازها في هذا الشهر لو توفرت القوى والراحة والعمل بلا انقطاع. ولكن ليس في النصف الأول من الشهر. أقول ذلك على أية حال. والآن حكّم عقلك: عدد مارس يجب أن يصدر حتماً في أبريل. فليس من اللائق بالمجلة البادئة أن يصدر عددها لشهر مارس في مايو. فهل أستطيع أن أنهي القصة في الموعد المذكور. كل الدلائل تشير إلى أنني لن أستطيع. والأهم هو الانقطاع الذي لا يتوقف عليَّ ولا أتمكن من التدخل فيه.[2] ولذا أتوجه إليك يا عزيزي أن تكتب لي بأسرع ما يمكن متى تريد أن تستلم القصة في آخر موعد؟ وسأحكم بناء على جوابك هل سأنتهي أم لا؟ على أية حال خذ بنظر الاعتبار تلكؤ العمل والملابسات التي يمكن أن تحصل ولا تتوقف عليّ.

اكتبْ لي أيضاً هل لديك في القسم من القصص شيء لشهر مارس، ما عدا قصتي، وماذا تحديداً؟

في تصوري أن بالإمكان الظهور في هذا القسم من دون أسماء شهيرة.

ويمكن الإعلان عن قصتي، وأظن أن ذلك غير ضروري إطلاقاً، بأنها ستنشر في عدد أبريل. فأنا، في الحقيقة، أريد لها أن تكون جيدة وأن لا تكتب كيفما اتفق. والأهم أني ربما يمكن أن أنهيها، ولكنني لا أمتلك القوى البدنية الكافية ولا الظروف الملائمة.

ولذا قررت الآتي:

أواصل العمل بإصرار وبشكل مكثف في كتابة القصة، وليكن ما يكون، إلى أن أستلم الجواب منك. فإذا كتبت لي أن بالإمكان، وبحكم الحاجة، الاستغناء عن قصتي فإني أرجئها في الحال ويبقى لي وقت لكتابة شيء ما لهذا العدد في النقد، ليس عن كوستوماروف، فالمقالة عنه طويلة، إذا أجبتني بسرعة.

وإذا كتبت أنه ليس بالإمكان الاستغناء عن القصة فسأواصل كتابتها. على فكرة أنا نفسي سأقرر ما هو الممكن أو غير الممكن استناداً إلى الموعد الذي حددته أنت لاستلام المادة. ولن أترك القصة إلا في حال الضرورة القصوى.

أنا أدرك، يا أخي، أنني الآن عضيد سيّئ لك. وسأعوض فيما بعد. فأوضاعي الآن عصيبة لدرجة لم أر مثلها في السابق أبداً. الحياة كئيبة، والصحة لا تزال ضعيفة، وزوجتي تحتضر. وفي الليالي تتوتر أعصابي بسبب ما يجري طول النهار. الحاجة تقتضي النزهة في الهواء الطلق، ولكن لا وقت للتمشي ولا مجال بسبب الأوحال.

معطفي الدافئ المبطن بالقطن بات ثقيلاً عليّ. درجة الحرارة أمس كانت 17 مئوية في الظل. كيف أصف لك الحال؟ الأمر صعب جداً. والأهم ضعف البدن واضطراب الأعصاب.

بينما لا أمل إلا بالاعتماد على النفس. يا أخي، النقود تتبخر عندي كما في الغلاية، والنفقات هائلة. أنا لا أنفق على نفسي ولا كوبيكاً واحداً، أنتعل البسطال الشتوي ولا أنوي شراء آخر صيفي. لا يمكنني أن أعيش بلا نقود. اسندني الآن في أوضاعي الشاذة جداً، وكن على ثقة بأنني سأكسب قريباً.

قرأت (من نتاجي) في (أمسيات) التلاوة العامة. كما قرأ أوستروفسكي. وقال لي بلهجة ترحيب اختلط بالزعل إنك كنت ترسل له «الوقت» سابقاً، ولم ترسل «العصر» حالياً. ووعدته بأن أبلغك (. . .)

رأيت تشايف وسألني عن ردّك بخصوص مسرحية «ألكسندر تفيرسكوي». اكتبْ عنها رجاءً. شعرها جيد، وأنا لم أقرأ المسرحية نفسها بعد. وقد كتبت لك عن تزكيتها في (صحيفة) «اليوم».

وداعاً، أعانقك. أصابني ضعف شديد، وأشعر حتى بثقل ريشة الكتابة. الآن الساعة الثانية عشرة. وفي الليل يزداد ضعفي، فلا أعمل. وهذا شيء سيئ للغاية. في السابق كانت أفضل أعمالي تتم في الليل. وداعاً يا عزيزي.

المخلص ف. دوستويفسكي

قرأت نصف «الطباع الغامضة». باعتقادي ليس فيها شيء غير عادي. وهي طباع اعتيادية وليست غامضة إطلاقاً. وفيما يتعلق بالأفكار العصرية تلاحظ عليها الفتوة وبعض الوقاحة. فيها الكثير من

الشاعرية الصادقة، والكثير أيضاً من السطحية. والشيء الجيد أنها ليست مملة.

لربما تريدني أن أرسل إليك قصتي على وجبات. لكن المهم بالنسبة لي أن أعرف الموعد الأخير للتسليم كيلا يفسد النتاج بسبب التسرع.

رجاءً، ارفع الكلفة ولا تشفق عليّ. المهم بالنسبة لي هو أن أنتهي، ولا فرق عندي ماذا أكتب. لكنني أريد أن أنهي القصة بشكل أفضل.

---

(1) «مذكرات من تحت الأرض» («في قبوي»)

(2) نظراً لاحتضار زوجة الكاتب.



86. إلى ميخائيل م. دوستويفسكي

موسكو، 13 - 14 أبريل 1864

صديقي العزيز ميشا.

استلمتُ اليوم رسالتيك. إحداهما مع مبلغ 100 روبل وإضافة في سطرين. أشكرك من صميم القلب على الرسالة وعلى الإضافة، والثانية مؤرخة في 10 أبريل، وأسارع هنا للإجابة عليها. سبق أن كتبتُ لك عن قصتي الطويلة في رسالتين وأبلغتك أنها ليست جاهزة وأنني تركتك من دون القصة ومن دون المقالتين في أحرج وقت، هو فترة الأعداد الأولى من المجلة. وأنا، يا صديقي العزيز، أعرف وأتعذب كثيراً. فما العمل؟ كل تلك عوامل خارجية لا تتوقف عليّ. مستعد أن أضحي بسنة من حياتي مقابل كل عدد من المجلة، على أن لا يحصل ما يحصل الآن. أنا في حالة عصبية فظيعة، مريض أخلاقياً لأنني أسحب منك النقود كون نفقاتي لا تتقلص، بل تزداد. كل ذلك يعذبني ويؤذيني، ولا أدري بماذا سينتهي. ولكن فلنتناول العمل. ما كتبته (لك) عن القصة أكرره هنا: إنها تتمدد. ومن المحتمل تماماً أن تكون مؤثرة، وأنا أبذل قصارى جهدي، لكنني أتقدم ببطء، لأن كل

أوقاتي مشغولة بغيرها من دون إرادة مني. القصة موزعة على ثلاثة فصول كل فصل بما لا يقل عن ملزمة طباعية ونصف. الفصل الثاني مرتبك، والثالث لم أبدأه بعد. بينما الفصل الأول تحت التنقيح. ويمكن أن يأتي في ملزمة ونصف. سأفرغ من تنقيحه بعد خمسة أيام. فهل يصح أن ننشره على انفراد؟ سيكون والحال هذه مثاراً للسخرية. خاصة وأنه يفقد نسغه الحيوي من دون الفصلين الآخرين. أنت تعرف مفهوم النقلة في الموسيقى. وهو نفسه في هذا المجال. في الفصل الأول ثرثرة، على ما يبدو. وفجأة يظهر في الفصلين الأخيرين حل لها بشكل كارثة. إذا طلبت أن أرسل إليك الفصل الأول وحده فسأرسله. فاكتبْ لي من كل بد. أنا لا أزال قادراً على التضحية بهذه الصغائر، فأرسل لك الفصل. لكنك كتبت لي أنك تريد إصدار العدد مع مَقدم العيد[1]. فمتى أبعثه؟ ألن يصدر العدد بعد العيد؟ هذا يؤدي إلى إرجاء الاشتراكات. فلنتحدث عنها. أنا واثق، يا أخي، بأن خبرتك الشخصية ينبغي أن تعلمك أنت أيضاً بأن الاشتراكات تكاد تنتهي الآن، وأننا لو نشرنا في كل عدد نتاجاً لتورغينيف لما رفعنا الاشتراكات كثيراً. لديك رواية زاروبين المطولة. انشرها. فهي لا بأس بها. وخذ من ميلوكوف قصة قصيرة أو ما أشبه. اهتم بالنقد. النقد هو الأهم. اتجاه مجلتنا لا شك فيه بالنسبة للجمهور. إلا أن المقالات التي تحلل اتجاهنا خصيصاً قليلة. طبيعي أن من الضروري أن يكون عدد مارس أفضل حتى من العددين الأولين. ولكن ما العمل؟ ثم إن الأمل في اشتراكات العام الحالي غير وارد. وبالمقابل سنواصل في الأعداد القادمة، على مدار عام، العمل على تأمين اشتراكات رائعة في النهاية للعام التالي. أنا مسؤول عن كلامي هذا. اقترض المبلغ اللازم لهذا العام من أرملة خالنا. ولعلك استلمتَ ردّي

على هذا السؤال. فمن الحماقة عدم الاستفادة من هذا القرض مع وجود احتمال كبير بالنجاح. أصدِر العدد بأسرع وقت. قبل عيد الفصح، وتعال إلينا في أسبوع البصخة المقدس.

على فكرة، حاول أن تحصل من غورسكي، إن أمكن، على مقالة بعنوان جذاب. الجمهور يُقبل على قراءة مثل هذه المقالات. وقد شاهدت في موسكو كيف يقرأ الناس صغاراً وكباراً مقالة له ويناقشونها. هذا شيء واضح ومفهوم. أما مقالة تورغينيف فما يسمى بالجمهور لا يمتدحها (. . .) أعط وعداً للقراء بأن المجلة ستنشر في عددها القادم بقية قصة «مذكرات من تحت الأرض»، وأعلنْ أنني كنت مريضاً. قرأت في الصحف إعلاناً عن صدور عدد مارس من «مذكرات الوطن». هذا الإعلان أمرّ من العلقم.

(. . .)، (. . .).

وداعاً يا أخي. أعانقك. وأتمنى لك موفور الصحة والهمة والنشاط.

المخلص ف. دوستويفسكي

الثلاثاء، 14 أبريل. في الساعة الثانية بعد منتصف ليل أمس أنهيت هذه الرسالة، وبعدها تدهورت أحوال ماريا دميتريفنا لدرجة خطيرة. فطلبتُ استدعاء القسيس. ذهبت إلى ألكسندر بافلوفيتش وبعثت في طلب القسيس. بقينا ساهرين طول الليل. وفي الساعة الرابعة تم تناول القربان المقدس. وفي الثامنة صباحاً رقدتُ وأيقظوني في العاشرة. وكانت حالة ماريا دميتريفنا في تلك اللحظة أهون.

من المئة روبل التي أرسلتها لي لم يبق ولا كوبيك واحد في اليوم الثاني من العيد. تلك هي حياتي.

(. . .) إنني أمتص منك النقود في هذا الوقت العصيب، ولم أشهد في حياتي فترة أكثر مرارة وأشد ألماً من الوقت الحاضر.

أبعث إليك قصة أبوليناري على حدة. فانتبه إليها. أعتقد أنه يمكن نشرها.

---

(1) عيد الفصح (أسبوع البصخة المقدس).



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

87. إلى أندريه دوستويفسكي

بطرسبورغ، 29 يوليو 1864

أخي العزيز أندريه ميخائيلوفيتش.

أنا مسرع للكتابة إليك تلبية لطلبك رغم أنني لا أملك ذرة من الوقت. فكل أشغال أخينا (المرحوم ميخائيل في إدارة المجلة) وقعت على كاهلي. ومنذ ثلاثة أسابيع تقريباً لا أشعر حتى بوجود قدميّ. توفي المرحوم ميشا بسبب تقيح في الكبد أدى إلى تسرب عصارة المرارة إلى الدم. هذا هو المرض. وقد كان مريضاً من زمان. الأطباء يقولون من عامين تقريباً. فالمصاب بداء الكبد يمكن أن يعيش طويلاً دون أن يلتفت إليه، وخصوصاً إذا كان مشغولاً جداً. بينما كان هو على الدوام مشغولاً إلى أبعد الحدود. في العام الماضي منعوا المجلة («الوقت»). فوقع النبأ عليه آنذاك وقع الصاعقة وأربك جميع أشغاله وجعله يتوقع كارثة لا تبقي ولا تذر، فكان طوال العام الأخير قلقاً منفعلاً متوجساً. يصعب أن أشرح لك كل تلك الأمور بالتفصيل. فأوجزها بعدة كلمات: أموره ساءت من زمان نتيجة لحرب (القرم) وما تبعها من أزمة مالية وتدني الائتمان عموماً. وتراكمت (علينا)

ديون كبيرة. بدأنا نصدر مجلة أنفقنا عليها المال ولم نستغن عن الاقتراض. وبالمقابل كان لدينا من العام الثاني 4000 مشترك، وبالتالي 60000 روبل في التداول. واستمر الحال على هذا المنوال طول الوقت. وهو كذلك الآن أيضاً بالنسبة «للعصر». ومع ذلك لم نتمكن من تسديد الديون. كان مجموع الديون القديمة والجديدة، حينما احتجبت «الوقت»، 20 ألفاً. وتمكن أخونا من إنفاق عائدات الاشتراك على تسديد الديون. وبعد التسديد المنتظم ظل هناك ائتمان للتداول اللازم، وشرحه يطول، لإصدار المجلة سنوياً بنزاهة وشرف وبلا صعوبة تذكر. إلا أن كل شيء تقوض بمنع المجلة من الصدور، كما تقوض الائتمان أيضاً. وكان العام الفائت صعباً فتضررت صحة أخينا كثيراً. وفي الأخير تمكن من الحصول على ترخيص لإصدار «العصر». لكنه اضطر إلى إصدارها بخسارة. لأنه كان من اللازم تسليم العدد للمشتركين الـ 4000 بستة روبلات وليس بقيمة الاشتراك الكامل 15 روبلاً. إلا أن المرحوم تصرف بحكمة، حيث اقتنى مطبعة بقرض يشكل ثلثي قيمتها، وتمكن بذلك من توصيل المجلة جيداً حتى موعد الاشتراكات الجديدة. وبموجب حساباته لن تبقى أية ديون عالقة بعد عام ونصف. إلا أن مشيئة اللّه أرادت غير ما أراد. قبل ثلاثة أسابيع أو يزيد من وفاته توعكت صحته، بالتقيؤ واضطراب المعدة. وبعد ذلك انفجر الكبد فجأة. وللحقيقة أنه تجاهل وصايا الأطباء بالكف عن العمل وملازمة المنزل، على الرغم من أنه كان يستشيرهم ويتناول الأدوية. وكان لديه بيت صيفي في (ضاحية) بافلوفسك. وكان غالباً ما يتردد على المدينة لأشغال المجلة والمطبعة وغيرها من الأعمال. وأردت أنا أن أسافر إلى الخارج لغرض العلاج واستلمت جواز السفر وارتحلت إلى موسكو لمدة أسبوع. وعندما عدت من

موسكو أواخر يونيو أفزعني أن المرض الذي وصفه بالبسيط عندما ودعني إلى موسكو قد اشتد. وأخيراً خوّفه الدكتور بيسر الشهير هنا وقال له إن هذا المرض خطير جداً، وينبغي علاجه. واستقر المرحوم في البيت الصيفي، ولم أسافر أنا إلى الخارج، بل أخذت أتردد على بافلوفسك يومياً، فيما كان هو يهم بالسفر إلى المدينة في كل لحظة متوقعاً الشفاء. وأخيراً داهمه الضعف والنحول. وفي يوم الأحد، الخامس من يوليو، خف عليه المرض فجأة. ولم يفقد بيسر الأمل مع أنه أعلن أن التقيح في الكبد. ولم يكن أحد منا يتوقع سوء المآل. لا أحد، حتى الطبيب. وفجأة أخذ يعمل في الأمسيات فرحاً لتحسن أحواله. وفي مساء الاثنين جاؤوه بخبر منع الرقابة إحدى المقالات. فقال لي في اليوم التالي إنه يشعر بسوء الحال ولم يغمض له جفن في الليل. ما كان ينبغي له أن يمارس أية أعمال في مثل حالته الصحية. فأدنى إخفاق أو أي خبر غير سار إنما هو بمثابة السم بالنسبة له. ويمكنه أن يقلق ويحول الحبة إلى قبة ولا ينام الليل. استدعينا بيسر، فاختلى بي وأعلن أن لا أمل في الشفاء، لأن الغدة الصفراء انفجرت هذه الليلة وتسربت المرارة إلى الدم وسمّمته. وقال بيسر إن أخي يشعر بالنعاس، وسيغفو في المساء ولن يستيقظ أبداً. وهذا ما حصل. غفا، ونام بهدوء تقريباً. وفي يوم الجمعة، العاشر من الشهر، توفي في المنام. في السابعة صباحاً. كانت هناك ثلاثة اجتماعات تشاورية للأطباء، واستخدمت كل الوسائل، واستُدعي أطباء من بطرسبورغ، ولكن من دون جدوى.

لن أقول لك كم فقدت أنا برحيله. هذا الإنسان كان يحبني أكثر من أي شيء في الدنيا، أكثر حتى من زوجته وأطفاله الذين كان متيماً بهم. ولعلك تعرف أن زوجتي توفيت بالسل في موسكو في أبريل من

هذا العام. وفي عام واحد التوَت حياتي وتحطمت. فهذان الكائنان كانا لأمد طويل يشكلان كل ما في حياتي. فمن أين أجد الآن أناساً مثلهما؟ بل ولا أريد أن أبحث عن أولئك الناس. فمن المستحيل العثور عليهم. أمامي وحدة الشيخوخة الباردة والصرع الذي يلاحقني.

كل أمور عائلة أخينا مرتبكة لدرجة كبيرة. أعمال هيئة التحرير الهائلة والمعقدة أتولاها أنا. الديون كبيرة. وليس لدى العائلة كوبيك واحد، وكل أفرادها قاصرون. الجميع يبكون حزانى، وخصوصاً إميليا فيودوروفنا التي تخشى المستقبل إضافة إلى كل النوائب. بديهي أنني الآن خادمهم. أقدم رأسي وصحتي قرباناً لمثل هذا الشقيق.

عموماً الأمور كالآتي: لدى المجلة 4000 مشترك. وفي العام القادم ربما سيزداد عددهم. وبالتالي ذلك يعني وجود تداول سنوي بـ 60000. وفي غضون عامين تستطيع العائلة أن تسدد كل الديون المستحقة، إضافة إلى إمكانية العيش في بحبوحة. وأنا في الواقع أبقى رئيساً لتحرير المجلة. كما عُيِّن رئيس تحرير آخر هو أ. بوريتسكي من جهة الحكومة. وفي العام الثالث تستطيع العائلة أن تدخر عشرة آلاف سنوياً على وجه التقريب. وهو الهدف الذي كان يتوخاه شقيقنا، لأنه هدف سليم أرجأ بلوغَه غلقُ المجلة في العام الماضي. إلا أن المجلة ستصدر طوال العام الحالي بخسارة، لأنها تسلم إلى معظم المشتركين بـ 6 روبلات بدلاً من الـ 14 روبلاً وخمسين كوبيكاً، وذلك تعويضاً لهم عن الأعداد الثمانية من «الوقت» التي لم تصدر بسبب المنع. كان هذا العام صعباً على أخينا. ففي بداية السنة اقترض في موسكو 9000 روبل من زوجة خالنا لمدة عامين و6000 من ألكسندر بافلوفيتش بسندات رهنتها أنا هنا بمبلغ 5000. وأنفق تلك الأموال على شراء مطبعة له كان ينوي أن يرهنها هي أيضاً بخمسة آلاف، وقيمتها عشرة

آلاف. هكذا كان يأمل في الوصول بالعمل إلى المبتغى، أي إلى الاشتراك المرتقب الذي كان سيعود على المجلة بـ 60000 كحد أدنى. وهذا هو المطلوب. ثم إن الديون هنا تبلغ 8000. لكنه توفي. ورغم أن إميليا فيودوروفنا تسلمت الوصاية وباتت المجلة ملكاً للعائلة، إلا أن ائتمان المرحوم اختفى لدرجة كبيرة برحيله. باختصار: كان مجموع ما لدينا نقداً 5000 روبل ينتظر استلامها مقابل السندات المرهونة، وما يقارب الـ 3 آلاف ينتظر أن نستلمها هذا العام، بالإضافة إلى المطبعة التي دفعنا جزءاً من ثمنها. لدينا صعوبة فيما يخص النقود. إلا أننا، بإذن اللّه، سنصل بسلام. والآن أقول لك، يا أخي الكريم، إن العائلة لم تكن يوماً في مثل هذه الضائقة. وآمل أن نفلح في تحسين الأوضاع. ولو كنت تستطيع أن تقرض العائلة لتمشية أمور المجلة ولو 3000 روبل، مما وقع من نصيبك بعد وفاة خالنا ولعلك لم تنفقه، لموعد أقصاه 1 مارس بفائدة 10 بالمئة، لفعلتَ خيراً وتكرمت بالمساعدة وواسيت كثيراً المسكينة (أرملة أخيك) إميليا فيودوروفنا. التسديد في الأول من مارس لا ريب فيه. وأنا أيضاً مستعد لكفالتها. والآن القرار لك. حكّم عقلك: سيكون الأمر صعباً جداً علينا، رغم ثقتي التامة بأنني سأتحمل إصدار المجلة حتى يناير. والـ 3000 الإضافية من شأنها أن تسعفنا بالتأكيد. والرأي رأيك[1]. (. . .). إميليا فيودوروفنا تبلغك تحياتها. وهي لا تستطيع أن تكتب لأحد حتى الآن. وداعاً، فكّر فيما كتبت لك عنه. فهذا العمل من الفضائل الطيبة. ولا يطال الشك مصداقيته أبداً. احتراماتي وتحياتي الأخوية الصادقة لزوجتك. وقبلاتي لأولادك (الأربعة).

إلى اللقاء يا عزيزي.

أخوك ف. دوستويفسكي

على فكرة، أنت كنت دوماً تلومنا جميعاً لأننا لا نكتب لك شيئاً. المرحوم كان طوال العامين الأخيرين قلقاً جداً. وأنا في العام الأخير كنت جنب زوجتي ماريا المسكينة المريضة بالتدرن الرئوي. في الصيف الحالي كنت أنوي السفر إلى الخارج، إلى إيطاليا ثم إلى القسطنطينية في طريق العودة عبر أوديسا. وفكرت في زيارتك لثلاثة أيام في يكاترينسلاف رغم الدورة الطويلة في الطريق.

---

(1) أندريه لم يبرر آمال أخيه فيودور، لأن الـ 3000 المذكورة من تركة خالهما كانت مودعة لدى إحدى الشركات بسندات لم يحن وقت استرجاعها.



88. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 20 سبتمبر 1864

العزيز المحترم إيفان سيرغييفيتش.

قال لي يغور بيتروفيتش إن لك، أولاً، موقفاً جيداً ميالاً إلى مجلتنا، وثانياً، إنك وهو في بادن شعرتما بنوع من الحيرة لسماع اسم بوريتسكي الذي يعتبر رئيس التحرير الرسمي للمجلة. وفهمتُ من كلام كوفاليفسكي، إن لم أكن مخطئاً، أن اسم بوريتسكي غير المعروف يمكن أن يحول جزئياً دون نيّتك ربما في تزويد «العصر» بقصة طويلة أو رواية في المستقبل حينما تكتبها. وأرى من المفيد أن أوضح جوهر المسألة. بوريتسكي من معارفنا، أنا والمرحوم أخي، من خلال عائلة مايكوف منذ 17 عاماً تقريباً. وكان في وقت ما يكتب «الاستعراض الداخلي» في «مذكرات الوطن». وتولى كتابة هذا الركن في مجلة «الوقت» عام 61، ثم حل رازين محله. وقد أبلغوني بأنه لا يحق لي رسمياً أن أكون رئيساً للتحرير، وعليّ أن أبحث عن شخص آخر لهذه المهمة. بوريتسكي إنسان هادئ، وديع، مثقف بما فيه الكفاية، ومن دون شهرة أدبية. وإذا لم يكن بالإمكان تمتع الرجل بشهرة واسعة مثل

بيسيمسكي فالأنفع للمجلة أن يكون بدون شهرة على العموم. والمهم أنه مستشار مدني. وأنا قدمته بمثابة محرر، ووافقوا عليه لأنه يناسب الشروط المطلوبة تماماً. وهو يساعدني في التحرير، بل وأخذ يعد «الاستعراض الداخلي»، لكن مهمة الإصدار نتولاها نحن الموظفين السابقين وأنا في مقدمتهم. والأمور تسير، على ما أظن، بشكل لا بأس به، ولدينا المال اللازم حالياً.

لكنّ كل هذه التبدلات تؤثر كثيراً على الجمهور أيضاً. وينبغي لنا الآن، الآن تحديداً، أن نبيِّن أن العاملين الأساسيين السابقين لا يستهينون بنا، وإذا شاركت أنت في المجلة فسيفهم الجمهور أخيراً أن المجلة سائرة في طريق بلا مطبات. ولذا لا أخفي عليك مدى قيمة مشاركتك بالنسبة لنا. أرجوك، يا إيفان سيرغييفيتش، اكتبْ لي عن ذلك، هل تستطيع أن تعدنا بأول قصة طويلة أو رواية تكتبها؟[1] عدد المشتركين لدينا كبير. وستكون مجلتنا في المقدمة من حيث النزاهة ومصداقية الأدب، بلا خيانة للضمير، ومن حيث (الموقف) في القسم الانتقادي. «المعاصر» تتدنى بشكل فظيع، و«البشير الروسي» اتخذت شكل حولية دورية. أنا لا أتباهى في الحقيقة. باختصار، ستجري الأمور على ما تجري عليه، ونحن من جهتنا سنبذل جهدنا.

لقد تأخرنا بعض الشيء. وفاة أخي أوقفت إصدار المجلة شهرين. ومع أن الجميع تأخروا، إلا أننا أكثرهم. وسنلحق بالركب. نقلتُ الأشغال إلى مطبعة أخرى، ونعمل فيها بمثابرة كبيرة، وفي نيتنا أن نصدر عدد يناير 65 قبل الجميع. لحد الآن لم أتمكن شخصياً أن أكتب ولا سطراً واحداً. أعمل ليل نهار، وحصلت لي نوبتان من الصرع. كل الأعمال على كاهلي. وخصوصاً الجزء الطباعي منها.

فأنا الوحيد الآن في العائلة. ومع ذلك تم، والحمد للّه، تنظيم بعض الأمور. وأنا لا أفقد الأمل.

أكرر هنا من جديد أن مساهمتك ذات قيمة بالغة بالنسبة لنا. ولن تأسف على مؤازرتنا. بالطبع كل شخص يمدح نفسه، لكن هذا أفضل مما لو نظرتُ إلى عملي الحالي بتشاؤم. ما أشد رغبتي في توصيل مجلتنا إليك[2].

أوستروفسكي بعث لي تواً رسالة حميمة. وقد وعد بتزويدنا حتماً بمسرحيتين في غضون هذه السنة. ولي في هذا العدد مقالة عن أوستروفسكي أمدحه فيها، ولكن بأكبر ما يمكن من الحيادية. وهو لم يطلع عليها بعد. لكني لا أريد أن يكون لها تأثير عدائي عليه في العلاقة مع المجلة.

إلى اللقاء. أشد على يدك بحرارة.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) وعد تورغينيف دوستويفسكي بتلبية طلبه، لكنه لم يستطع أن يحدد موعد البدء بكتابة نتاج جديد.

(2) كان إرسال المجلة إلى تورغينيف في باريس مكلفاً.

89. إلى آنا كورفين- كروكوفسكايا

بطرسبورغ، 14 ديسمبر، 1864

الفاضلة السيدة آنا سيرغييفنا

معذرة إذا كنت أخطأت في كتابة الاسم الكريم، أرجو التكرم بالتصحيح.

أبعث إليك 181، مئة وواحداً وثمانين روبلاً، مقابل قصتك «الراهب» المنشورة في عدد سبتمبر، التاسع، من «العصر» تحت عنوان «ميخائيل». عنوان «الراهب» لم يكن ممنوعاً على أية حال، لكن الرقابة الكنسية اعترضت عليه. في البداية منعت الرقابة الكنسية هذه القصة، ولذا اضطررت للموافقة على الكثير من الشطب والتصحيحات فيما بعد. بعض تلك التصحيحات في اعتقادي الشخصي مبرر. على سبيل المثال كل مشاعر ميخائيل بخصوص الدير والرهبان عندما عاد إلى موسكو وقبيل مغادرتها مشطوبة، وأعتقد أن الشطب هنا شيء جيد، لأن التذكير بتلك المشاعر غير ضروري. فمن لا يفهمها من دون اجترار؟ وبسبب هذا التقليص غدت القصة أقصر، وأكثر كثافة وبلا قتامة أو غموض. كل شيء واضح. وأضيف إلى

ذلك أن من أعظم مواهب الكاتب قدرته على الشطب والاختصار. فمن يجيد ويستطيع أن يشطب ما كتب يذهب بعيداً. كل الكتاب العظام ألفوا بمنتهى الكثافة والاختصار. والأهم أنهم لم يكرروا ما قيل، ولم يكتبوا ما هو مفهوم أصلاً. لا مؤاخذه على هذا الاسترسال. فلربما أنا ساذج جداً لأمضي في تقديم النصائح لك. كان يتعين عليَّ أن لا أحمل محمل الجد والفهم الحرفي لرسالتك الأولى التي طلبتِ فيها النصح. أليس كذلك؟

قصتك «ميخائيل» أعجبت كثيراً جميع المقربين إلى هيئة التحرير وموظفينا الدائمين. أحدهم، وهو ستراخوف الذي يكتب «ملاحظات المدون» والذي أحترم رأيه أكثر من الآخرين، يرى فيك مهارة طبيعية وتنوعاً كبيرين. التنوع، مثلاً، في مشهد «المنام» و«معيشة الرهبان». عموماً «ميخائيل» أعجبت الكثيرين. «المنام» أعجبت البعض، وليس الجميع. أما رأيي فيها فأنت تعرفينه. يمكنك وينبغي لك أن تنظري إلى مواهبك بجدية. أنت شاعرة. وهذا وحده يكفي. وإذا إضفنا إلى ذلك الموهبة والنظرة (المميزة) فلا يجوز الاستهانة بالذات. المهم أن تتعلمي وتقرأي. اقرأي الكتب الجادة. والباقي تجلبه الحياة.

وإلى ذلك ينبغي الإيمان، فمن دونه لن يحصل شيء.

مثالك الأعلى يلوح بشكل لا بأس به، وإن كان سلبياً. ميخائيل الذي لا يستطيع بطبيعته، أي بصورة لاواعية، أن يتسامح مع ما هو أوطأ من المثال الأعلى إنما يجسد فكرة عميقة وقوية.

أنت لم تردّي على الرسالة الأخيرة، وهي ببضعة سطور لدى إرسال النقود لك أجراً لقصة «المنام». وأنا لا أعرف لحد الآن هل استلمتِها أم لا؟

ولذا تكرّمي واكتبي ولو كلمتين بأنك استلمت أجر «ميخائيل» الذي أبعثه إليك بحساب 50 روبلاً للملزمة.

المخلص خادمك ف. دوستويفسكي

أرجو المعذرة على تأخير أجر «ميخائيل» أسبوعين.



90. إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 13 فبراير 1865

إيفان سيرغييفيتش الموقر.

أبلغني ب. آنينكوف قبل أسبوع أن أبعث إليك ثلاثمئة روبل المتبقية في ذمة أخي لقاء (روايتك) «الأشباح». أنا لا علم لي بهذا الدين مطلقاً. ولعل أخي حدثني عنه في حينه، ولكن لمّا كانت ذاكرتي ضعيفة جداً فقد نسيت طبعاً، ثم إن ذلك لم يكن يخصني مباشرة آنذاك. ويوسفني جداً أنني لم أكن أعرف بهذا الدين في الصيف عندما كانت لدي بعض النقود، وكنت سأبعثها لك في الحال من دون أي تذكير من جانبك.

وأخشى أن أكون الآن قد تأخرت كثيراً. ولكن في هذه الأيام الثمانية صدر عدد يناير، وإلى ذلك ما كانت قدماي تحملانني وأنا مريض. ولمّا كنت أنا وحدي تقريباً أتولى التنفيذ في المجلة فقد عملت ليل نهار رغم المرض. ولا أخفي عليك أيضاً أن النقود كانت شحيحة، فقد تأخرت اشتراكاتنا ولم ترتفع إلا بصدور العدد الأول (الجديد).

في الآونة الأخيرة، من 28 نوفمبر، حين صدر عدد سبتمبر (متأخراً) وحتى 12 يناير، موعد صدور العدد الأول الجديد، استطعت في 75 يوماً أن أصدر 5 أعداد في كل منها بمعدل 35 ملزمة. فهل تتصور مدى التعب الذي سببه لي ذلك؟ هذا وحده يجعلك تتفهم إلى أي شيء تحولتُ؟ أنا نفسي لا أدري؟ لقد صرت آلة من الآلات.

أما الآن فلدي شهر، وليس أسبوعان، لإصدار العدد الواحد. وآمل أن أجعل المجلة ممتعة على قدر الإمكان. الديون كثيرة: وسيكون الأمر صعباً جداً. سأتحمل عاماً، وفي العام التالي نقف بثبات على أقدامنا.

كتبت لي أنك دهشت لبسالتي في البدء بإصدار مجلة في زماننا هذا. ويمكن توصيف هذا الزمان بأنه يخلو تماماً من الآراء، وخصوصاً في الأدب، كل الآراء جائزة، والكل يعيشون جنباً إلى جنب، من دون رأي مشترك ولا إيمان واحد. ويقترف خطيئة، في اعتقادي، من لديه ما يقوله ويلوذ بالصمت ومن يتصور على الأقل أنه يعرف بماذا يؤمن ولا يتكلم. أما البسالة فلمَ لا نستبسل في الوقت الذي يتحدث فيه الجميع عما يشاؤون ويتمتع بحق المواطنة حتى أكثر الآراء همجية؟ على فكرة، ما الموجب للكتابة عن ذلك؟ تعال بنفسك وتطلع إلى أدبنا هنا، وسترى.

في الآونة الأخيرة، بالمناسبة، لوحظت عندنا عدة ظواهر أدبية رائعة.

قبل ثلاثة أيام صدر العدد الأول من «المعاصر» وفيه مسرحية أوستروفسكي «قائد العساكر أو حلم على الفولغا». لا أدري ما هذا. لم أقرأها بعد. كنت مشغولاً بالتصحيحات. البعض يقولون إنها

أفضل ما كتبه أوستروفسكي، والبعض الآخر لا يعرفون ماذا عساهم أن يقولوا بشأنها.

أبعث إليك حوالة بـ 300 روبل عبر مكتب غينزبورغ.

آنينكوف قال إنك لن تأتي إلينا قريباً. هل هذا صحيح؟

على فكرة، يدهشني لماذا تعتقد أن قصتك القصيرة «الكلب» التي لم أقرأها غير مهمة لدرجة أن نشرها يلحق بك ضرراً على صعيد الأدب؟ هذا مستغرب يا إيفان سيرغييفيتش. فهل يعقل أنك يمكن أن تضر بنفسك حتى من خلال قصة قصيرة لا أهمية لها؟ فما الضرر من صدور قصتك القصيرة قبيل ملحمة كبيرة؟ ومن لم يكتب أقاصيص؟

إلى اللقاء.

المخلص لك إلى الأبد

فيودور دوستويفسكي



91. إلى ألكسندر فرانغيل

بطرسبورغ، 31 مارس - 14 أبريل 1865

صديقي الحبيب الطيب ألكسندر يغوروفيتش. أفهم أنك بالطبع لا بد أن تدهش كثيراً بالانطلاق من مشاعرك تجاهي وتزعل من صمتي على رسالتيك الرقيقتين الطيبتين. فلا تندهش ولا تزعل. كنت أريد أن أجيبك رأساً ولم أستطع. لماذا؟ اقرأ ما سيأتي في أدناه. فهل يمكنني أن أنساك وأنت صديقي في حين لم يكن لدي أصدقاء غيرك؟ وأنت شاهد سعادتي اللامتناهية وآلامي الفظيعة؟ ألا تتذكر تلك الليلة في طرف غابات ضواحي سيميبالاتينسك عندما ودعنا (عائلة عيسايف)؟ كيف أنساك وأنت صديقي الذي بذل فيما بعد جهداً بالغاً هنا، في بطرسبورغ، لنجدتي؟ بالعكس، طوال كل هذه السنوات كنت أفكر فيك وأتذكرك. ولكن كيف كانت حياتي في تلك الفترة؟ أنا ملزم بالتوضيح، بل وبتقديم تقرير لك يفسر صمتي في الآونة الأخيرة تجاه رسالتيك. اسمع إذن: أكتبُ لك قصتي بكاملها خلال الفترة كلها. كلا، ليس بكاملها، فذلك غير ممكن، لأن الرسائل في مثل هذه الأحوال لا تستوعب أهم ما ينبغي الحديث عنه. وأنا لا أستطيع أن

أكتب على نحو آخر. ولذا الأفضل أن أحدثك، باختصار على قدر الإمكان، عن العام الأخير من حياتي.

لعلك تعلم أن أخي (ميخائيل) بدأ بإصدار مجلة قبل أربع سنوات. وقد تعاونت معه. وسارت الأمور بأروع صورة. وأثارت قصتي «منزل الأموات» فيها ضجة من الإعجاب، فإستعدت مكانتي الأدبية من خلالها. وترتبت على أخي ديون هائلة في بداية إصدار المجلة، فأخذ يسددها، وفجأة منعت السلطات المجلة في مايو 63 بسبب مقالة وطنية ساخنة للغاية أخطأوا في اعتبارها مقالة مثيرة موجهة ضد أفعال الحكومة والرأي العام آنذاك. صحيح أن كاتب المقالة، وهو أحد موظفينا، مذنب جزئياً لأنه بالغ في الأصباغ والتلاوين، ففهموه بشكل معكوس. وسرعان ما فهمت القضية كما يجب، إلا أن المجلة كانت قد مُنعت. ومن تلك اللحظة اضطربت أعمال أخي إلى أقصى حد، وفقد ائتمانه وافتضحت الديون، ولم تكن هناك إمكانية لتسديدها. ثم استحصل أخي ترخيصاً بإصدار مجلة أخرى بعنوان جديد هو «العصر». جاء الترخيص في أواخر فبراير 64، ولم يتمكن أخي من إصدار العدد الأول قبل الـ 20 من مارس. ما يعني أن المجلة تأخرت وقد انتهى موعد الاشتراكات في كل مكان، ذلك لأن الجمهور تعود على الاشتراك في جميع المجلات بالعادة القديمة خلال الأشهر الثلاثة ديسمبر ويناير وفبراير فقط. وكان من اللازم إرضاء المشتركين القدامى الذين لم يستلموا تصفية حساب بعد منع «الوقت». وتم إشعارهم بأن يحولوا ستة روبلات فقط لقاء الاشتراك في مجلة «العصر» لعام 1864. وفي ظل غياب المشتركين الجدد واستمرار المشتركين القدامى باستلام المجلة بسعر ستة روبلات (بدلاً من 14) تعيَّن على أخي أن يصدر المجلة بخسارة. وهذا ما أدى إلى

ارتباكه نهائياً والقضاء عليه. كبّل نفسه بالديون، وتدهورت صحته. ولم أكن أنا قربه في تلك الفترة. كنت في موسكو جنب زوجتي المحتضرة. أجل، يا ألكسندر يغوروفيتش، يا صديقي الغالي، أنت تكتب لي مواساة بفقيدي وملاكي ميشا، ولا تعرف مدى ما سلطه عليَّ المصير من خنق وتعذيب. الكائن الآخر الذي أحبني وأحببته بلا حدود، زوجتي توفيت في موسكو التي انتقلت إليها قبل عام من وفاتها بالتدرن الرئوي. وانتقلت أنا في الحال ولم أبتعد عن سريرها طوال شتاء 64، حتى وافتها المنية في 16 أبريل من العام الماضي. كانت في كامل وعيها، وتذكرت، مودعة، جميع الذين أرادت أن تبعث إليهم آخر تحية. كما تذكرتك أنت أيضاً. أبلغك بتحيتها يا صديقي القديم الطيب.

تذكرها بطيّب الذكريات. آه، يا صديقي. كانت تحبني بلا حدود، وأنا أيضاً كنت أحبها بلا حدود. لكننا لم نعش سعيدين. سأحدثك بكل شيء عندما نلتقي. أما الآن فأقول إننا كنا معاً تعيسين تماماً نظراً لطبعها الوسواسي الغريب والخيالي لحد أليم. ورغم ذلك لم نكف عن حب أحدنا الآخر، وكلما ازدادت تعاستنا ازداد تعلقنا بعضنا ببعض. ومهما بدا الأمر غريباً، فإنه كان على هذه الصورة. لقد كانت أنزه امرأة، وأكثر نبلاً وأريحية من جميع النساء اللواتي عرفتهن في حياتي. وعندما توفيتْ وتعذبتُ طول العام وأنا أراها تحتضر، ورغم إدراكي وشعوري الأليم بما سأدفنه معها، لم أكن أتصور بأي حال مدى الألم الذي حز في نفسي والفراغ الذي اكتنف حياتي عندما أهيل عليها التراب. وقد مر عام وهذا الشعور باق لا يتضاءل. . .
وبعد الدفن هرعت إلى أخي في بطرسبورغ، فهو الوحيد الذي بقي عندي، ولكنه توفي هو أيضاً بعد ثلاثة أشهر. ظل مريضاً لشهر واحد

فقط، وبشكل مخفف. ولذا جاءت الأزمة التي قادت إلى الموت مفاجئة تقريباً، في غضون ثلاثة أيام.

وها أنا أبقى وحيداً وسط شعور موحش رهيب. وانشطرت حياتي دفعة واحدة إلى شطرين. في الشطر الذي انتقلت إليه كل ما عشت من أجله، وفي الشطر الثاني غير المعروف بعد كل ما هو غريب عليَّ وجديد، ولا قلب يمكن أن يعوضني عن الفقيدين. لم يبق لي ما يستحق الحياة بالمعنى الحرفي للكلمة. كان من اللازم إيجاد إرتباطات جديدة، وابتداع حياة جديدة. وكنت أمقت حتى التفكير في ذلك. شعرت لأول مرة باستحالة الاستعاضة عنهما وبأنني أحبهما وحدهما في هذه الدنيا، وأن الحب الجديد لن يحصل، ولا حاجة لي به. واستحال كل شيء حواليّ إلى برد وخواء. وعندما استلمت قبل ثلاثة أشهر رسالتك الدافئة الطيبة المشبعة بالذكريات القديمة شعرت بحزن لا أعرف كيف أعبّر لك عنه. فاستمع إلى الباقي.

9 أبريل 65

مرت تسعة أيام على بدء كتابة هذه الرسالة لك، وفي هذه الأيام التسعة تحديداً لم تكن لدي ولا دقيقة من وقت الفراغ لأكمل الرسالة. هل تصدق، يا ألكسندر يغوروفيتش، بأنني في الشهور الثلاثة التي أعقبت استلامي رسالتيك، وخصوصاً الرسالة الثانية التي آلمني بشأنها أن أفكر في أنك ستظن بي الظنون، هل تصدق بأنني لم أتمكن أن أجد ولا دقيقة واحدة لكي أرد عليك، ولذا بقيت صامتاً حتى الآن؟ تلك هي الحقيقة سواء كنت تستطيع أن تصدقها أو لا. فلماذا كان الأمر على هذا النحو؟ ستعرف في أدناه.

أواصل ما كتبته سابقاً.

بعد وفاة أخي كانت هناك ثلاثمئة روبل لا غير. أنفقناها على الدفن. وإلى ذلك بقيت ديون تناهز 25 ألفاً، منها عشرة آلاف ديون بعيدة الأجل ما كانت تقلق العائلة، إلا أن الـ 15 ألفاً الباقية كمبيالات تتطلب التسديد. ويمكنك أن تسأل بأية أموال استطاع أخي أن يصدر ستة أعداد من المجلة للنصف المتبقي من السنة؟ وقد توفي في يونيو 64. كان لديه ائتمان استثنائي كبير. وإلى ذلك كان بوسعه أن يستدين، والقروض كانت شائعة. لكنه توفي، فتقوض ائتمان المجلة بكامله. لم يبق ولا كوبيك واحد لإصدار المجلة، وكان يجب توفير ستة أعداد كلفتها 18000 روبل في أقل تقدير، بالإضافة إلى تسديد مستحقات الدائنين وقدرها 15000، فكان مجموع المطلوب 33000 روبل لإنجاز الأعداد المتبقية من السنة وبلوغ الاشتراكات الجديدة. وبقيت عائلته من دون نقود إلى حد التسوّل. وبقيت أنا أملهم الوحيد، فتجمعوا، أرملة أخي وأولاده، حولي منتظرين مني طوق النجاة. كنت أحب أخي حباً جماً، فهل أستطيع أن أتركهم؟ وكان أمامي طريقان: 1) أوقف المجلة وأقدمها مع الأثاث وحاجيات البيت إلى الدائنين، فهي على أية حال ملك له ثمن، وأنقل العائلة إلى شقتي. ثم أعمل وأنشط في الأدب وأكتب روايات وأعيل أرملة أخي وأيتامه. 2) أستحصل نقوداً وأواصل إصدار المجلة مهما كلف الأمر. ويؤسفني جداً أنني لم أستخدم الطريق الأول. الدائنون ما كانوا ليستلموا طبعاً 20 بالمئة. لكن العائلة إذا تخلت عن التركة ليست ملزمة قانوناً بتسديد الديون. طوال هذه السنوات الخمس عملت عند أخي وفي المجلات الأخرى وكنت أتقاضى ما بين ثمانية وعشرة آلاف روبل سنوياً. وبالتالي كان بوسعي أن أعيلهم وأطعم نفسي، إذا عملت بالطبع ليل نهار طول عمري. إلا أنني فضلت الطريق الثاني، أي

مواصلة إصدار المجلة. وبالمناسبة لست أنا الوحيد الذي فضلت هذا الطريق. كل أصدقائي وموظفينا السابقين كانوا من هذا الرأي.

14 أبريل

انقطعت عن الكتابة من جديد. يا ليتك تعلم، يا ألكسندر يغوروفيتش، أية أعمال فظيعة تثقل عليَّ وتشغل أوقاتي.

أواصل ما سبق.

بالإضافة إلى ذلك كان يجب تسديد ديون شقيقي. فما كنت أريد أن يقع على ذكراه ظل من الشكوك. وكانت هناك وسيلة تتلخص في بلوغ الإشتراكات السنوية وتسديد قسم من الديون والعمل على جعل المجلة أفضل عاماً فعاماً. وبعد ثلاث أو أربع سنوات من تسديد الديون نسلم المجلة إلى أحد ما، ونؤمن بذلك احتياجات عائلة أخي. وعندها أستريح، وأبدأ من جديد بكتابة ما أريد أن أعبّر عنه من زمان. ولذا حسمت أمري. سافرت إلى موسكو، وطلبت من زوجة خالي العجوز الغنية الـ 10000 التي خصصتها لي في وصيته. وعدت إلى بطرسبورغ وأخذت أقدم الناقص من أعداد المجلة إلى المشتركين. إلا أن الأعمال كانت متدهورة جداً. فقد دعت الحاجة طلب ترخيص من الرقابة. واستطال الأمر، فلم يصدر عدد يوليو إلا في نهاية أغسطس. واشتاط المشتركون غضباً، وهم لا يعبأون بشيء. ولم تسمح الرقابة بكتابة اسمي على المجلة لا بصفة رئيس تحرير ولا بصفة ناشر. وكان ينبغي الإقدام على إجراءات نشيطة. فأخذت أطبع في ثلاث مطابع دفعة واحدة دون أن أبخل بالنقود ولا بصحتي وقواي. كنت وحدي المحرر الفعلي. أصحح البروفات وأتعامل مع المؤلفين وأراجع الرقابة وأنقح المقالات وأستحصل النقود وأسهر الليل حتى السادسة

صباحاً، ولا أنام سوى 5 ساعات في اليوم، فأحللت النظام في المجلة، ولكننا تأخرنا. فهل تصدق أن عدد سبتمبر صدر في 28 نوفمبر، وصدر عدد يناير 1865 في 13 فبراير، أي بتأخر 16 يوماً لكل عدد يضم 35 ملزمة. فكم كلفني ذلك من جهود؟ والأهم أنني في هذا العمل الشاق الأسود لم أتمكن من كتابة سطر واحد لينشر في المجلة. ولم ير الجمهور اسمي على صفحاتها. وحتى في بطرسبورغ، وليس في المدن الهامشية وحدها، لم يكن أحد يعرف أنني أحرر المجلة.

وفجأة حصلت أزمة المجلات. أخفقت الاشتراكات في جميع المجلات دفعة واحدة. «المعاصر» التي لديها 5000 مشترك وجدت نفسها أمام 2300 فقط. وفقدت جميع المجلات الأخرى معظم مشتركيها. ونحن لم يبق لدينا سوى 1300 مشترك.

كانت لأزمتنا العامة هذه في روسيا كلها أسباب عديدة. والمهم أنها أسباب واضحة رغم صعوبتها. سأتناول هذا الموضوع فيما بعد. فحكّم بنفسك كيف كان وضعنا. والأهم كيف وضعي أنا. وكيلا تعرقل ديون أخي القديمة سير الأمور حولت قرابة عشرة آلاف منها على اسمي، مؤملاً بأن نسوي الأمور فيما لو حصلت المجلة على 2500 مشترك فقط، بدلاً من الأربعة آلاف السابقة. ولكنت سأسدد ديوني على الأقل. كانت حساباتي صحيحة. لم يحصل عندنا أبداً، منذ بداية مجلتنا، ومنذ الثلاثينات، أن تقلص عدد المشتركين في سنة واحدة بأكثر من 25 بالمئة، في حين تقلص على غير المتوقع إلى النصف عند الجميع، وبنسبة 75 بالمئة عندنا. ولا أستطيع أن أنسب ذلك إلى سوء إدارة المجلة. فأنا، وليس أخي، الذي بدأتُ بإصدار «الوقت». كنت أوجهه وأحرر. باختصار، حصل لنا مثل ما يحصل

للمالك أو التاجر في حال شب حريق في منزله أو معمله، فأفلس بعد أن كان ثرياً.

في بداية الاشتراكات كان يجب تسديد الديون، ومعظمها ديون المرحوم أخي. وكنا نسدد من عائدات بدل الاشتراك مؤملين أن يبقى بعد التسديد ما يكفي لإصدار المجلة، إلا أن الاشتراكات توقفت، وبقينا بلا مال بعد إصدار عددين فقط.

في هذا الوضع وصلتني رسالتاك. سافرت إلى موسكو لاستحصال نقود، وبحثت عن شريك يساهم في المجلة بأفضل الشروط له. ولكنّ في روسيا أزمة مالية إضافة إلى أزمة المجلات. ولم نعد قادرين على مواصلة إصدار المجلة لعدم توفر المال، وعلينا أن نعلن إفلاسها مؤقتاً. وبالإضافة إلى ذلك أنا مكبل بديون الكمبيالات بمبلغ 10000 وبديون كلمة الشرف بمبلغ 5000.

ومنها ثلاثة آلاف ينبغي تسديدها مهما كلف الأمر. وإلى ذلك أحتاج إلى 2000 لأستعيد حقوقي في إصدار مؤلفاتي المرهونة وأشرع في طبعها بنفسي[1]. تجار الكتب يعرضون عليَّ 5000 آلاف روبل مقابل تلك الحقوق، لكن هذا العرض غير نافع لي. فالنفع سيكون أكبر فيما لو أصدرت مؤلفاتي بنفسي. ولكي أسدد ديوني أريد حالياً أن أصدر روايتي[2] الجديدة على شكل كراسات متعددة، كما يفعلون في إنجلترا. وبالإضافة إلى ذلك أريد أن أصدر «ذكريات من منزل الأموات» بالطريقة نفسها في طبعة فاخرة مزينة بالصور.[3] وأخيراً ستصدر في العام القادم المجموعة الكاملة لمؤلفاتي[4]. آمل أن تعطيني هذه المشاريع قرابة 15 ألفاً، ولكن ما أشد مشقة هذا العمل.

آه، يا صديقي، أنا مستعد لتحمّل الأشغال الشاقة مجدداً وللفترة نفسها بشرط أن أسدد ديوني وأتمتع بالحرية من جديد. إلا أنني سأكتب مرة أخرى روايتي باستعجال تحت تهديد العصا، أي بسبب الحاجة. وستكون مؤثرة، ولكن هل هذا هو ما يلزمني؟ العمل بسبب الحاجة، من أجل النقود، خنقني والتهمني.

ومع ذلك، وللبداية، أنا محتاج الآن إلى ثلاثة آلاف على الأقل. أطرق كل الأبواب للحصول عليها، وإلا سأهلك. وأشعر أن الصدفة وحدها يمكن أن تنقذني. لم يبق في نفسي من كل احتياطي الطاقة والقوة سوى شيء غامض مقلق، يائس قريب. لا شيء سوى القلق والمرارة والتفاهات الباردة والحالة غير الطبيعية بالنسبة لي، إضافة إلى الوحدة القاتلة، فلا أحد جنبي من السابقين والسابقات، بينما يخيل إليَّ طول الوقت أنني في بداية درب الحياة. شيء مضحك، أليس كذلك؟ إنه تمسك بديمومة الحياة كما عند القطط.

تحدثت لك عن كل شيء، لكنني أرى أنني لم أعبّر عن الأمر الرئيسي، ألا وهو حياتي الروحية والعاطفية، بل ولم ألمّح إليها تلميحاً. هكذا سيكون الحال دوماً ما دمنا نتواصل من خلال الرسائل. أنا لا أجيد كتابة الرسائل، كما لا أجيد الكتابة عن نفسي باعتدال. بالمناسبة، ذلك صعب. فقد فرقت بيننا السنين، وأية سنين هي؟

وقد جاء تذكرك لي الآن في محله. أنت، كلك، بكاملك، ذكّرتني بالماضي. وأنا أحبك كما كنت في الماضي، شاباً طيباً أتخيله على هذه الصورة طول عمري. على فكرة، أنا لا أعرفك تماماً كربّ أسرة. يخيل إليّ، وأنا أتذكر الماضي، أنك الآن ينبغي أن تكون

سعيداً. ولكنني أرغب كثيراً في استشفاف التلاوين المجهولة بالنسبة لي والتي تركتها الحياة العائلية في نفسك.

أشكرك على صور عائلتك. تطلعت فيها طويلاً لأحزر ما لا أعرفه.

كنت في الخارج مرتين، في صيف 62 و63. كل مرة لثلاثة أشهر. زرت ألمانيا، كلها تقريباً، وسويسرا وفرنسا وإيطاليا، كذلك كلها تقريباً. صحتي في كلتا المرتين انتعشت بسرعة مدهشة. وعزمت على السفر كل عام لثلاثة أشهر، لا سيما وأن ذلك لا يكلف كثيراً بالمقارنة إلى الغلاء الفاحش لتكاليف المعيشة عندنا. كنت أريد السفر لتحسين صحتي وللاستجمام واكتناز البدن ليسهل عليَّ العمل في التسعة أشهر المتبقية من السنة في روسيا. إلا أن وفاة أخي في العام الماضي جعلتني أبقى هنا، في حين أن الديون الحالية والأعمال أجهزت عليَّ نهائياً. فما أشد رغبتي في السفر ولو لشهر واحد لأتنشق وأصفي ذهني وأنتعش. وكنت سأعرج عليكم حتماً. من يدري، ربما سيحصل ذلك. طبعُ «منزل الأموات» يمكن أن يتم من دوني، في حين أنني في الخارج أكتب على الدوام، لأن الوقت والاستقرار هناك أكثر مما هنا، وخصوصاً إذا مكثت في مكان واحد. وكنت سأعرج عليكم طبعاً.

سأبعث لك الصورة بالتأكيد إذا أجبتني بسرعة دون أن تزعل مني بسبب صمتي الطويل. ولكن، يا إلهي، ما سبب الزعل؟ هل أنا مذنب؟

أنا أعيش وحيداً مع ربيبي بافل. وهو طالب في السابعة عشرة. يتذكرك جيداً ويبلغك تحياته.

كنت سأحدثك كثيراً فيما لو التقينا.

وداعاً يا صديقي الطيب، أعانقك بدفء من صميم القلب. أتمنى لك السعادة. وسأجيب على رسائلك بانتظام. فاكتبْ لي سريعاً.
أخشى أن لا تصلك الرسالة وأنت في كوبنهاغن.

المخلص لك دوماً كما في السابق
فيودور دوستويفسكي

---

(1) لم يتمكن دوستويفسكي من طبع مؤلفاته بنفسه إلا في عام 1871.
(2) المقصود رواية «السكارى» التي أدرجها دوستويفسكي فيما بعد ضمن رواية «الجريمة والعقاب» (1866).
(3) هذه الأمنية لم تتحقق.
(4) بثلاثة مجلدات وقَّع دوستويفسكي مع الناشر ستيلوفسكي عقداً بشأنها في 1 يوليو 1865.



92. إلى ناديجدا سوسلوفا

بطرسبورغ، 19 أبريل 1865

العزيزة المحترمة ناديجدا بروكوفيفنا

أرفق طي رسالتي هذه إليك رسالة مني إلى أبوليناريا، والأصح نسخة من رسالتي المرسلة إليها بالبريد نفسه إلى مونبيليه. وطالما أنها، كما تقولين، ربما ستأتي قريباً جداً إليكم في زوريخ فإن رسالتي إليها ستصل إلى هناك على الأكثر بعد مغادرتها مونبيليه. ولما كنت بحاجة ماسة إلى توصيل الرسالة لها فإنني أرجوك أن تسلميها هذه النسخة عندما تلتقيان. كما أرجوك أن تقرأي هذه الرسالة بنفسك. وسترين فيها توضيحاً لجميع الأسئلة التي تطرحينها عليَّ في رسالتك. مثلاً، «هل أتلذذ بآلام الآخرين ودموعهم» وما إلى ذلك. وكذلك توضيحاً بخصوص الوقاحة والقذارة.

وأضيف، من أجلك في الواقع، انك، على ما أعتقد، لست حديثة العهد بمعرفتي، وإنني في كل لحظة عصيبة كنت آتي إليكم لأريّح نفسي، وفي الآونة الأخيرة كنت آتي خصيصاً إليك وحدك عندما يختزن القلب أشد الآلام. وقد رأيتِني في أصدق لحظاتي، ولذا

يمكنك أن تحكمي هل أحب أن أقتات على آلام الآخرين، وهل أنا فظ غليظ داخلياً، وهل أنا قاسٍ؟

أبوليناريا أنانية مريضة. فيها كمٌّ هائل من الأنانية وحب الذات. إنها تطالب الناس بكل شيء، بكل أفانين الكمال، ولا تغفر لهم أي نقص في احترام الغير وفي الخصال الحميدة، بينما هي تتنصل عن أبسط الالتزامات تجاه الآخرين. إنها تخدشني حتى الآن بأنني لست جديراً بحبها، وتتشكى وتلومني طول الوقت، بينما تستقبلني في باريس عام 63 بالعبارة التالية: «أنت تأخرت في الوصول بعض الشيء»، بمعنى أنها وقعت في حب شخص آخر، فيما كانت قبل أسبوعين من ذلك التاريخ تؤكد بحرارة أنها تحبني. أنا لا ألومها على حب شخص آخر، بل على السطور الأربعة التي بعثتها إليّ في الفندق مع العبارة الخشنة: «أنت تأخرت».

بوسعي أن أكتب الكثير عن روما وعن معيشتنا وإياها في تورينو ونابولي. ولكن ما الفائدة؟ ثم إنني نقلت إليك الكثير في أحاديثي معك.

أنا لا أزال أحبها حتى الآن، حباً جماً، ولكنني لم أعد أريد أن أحبها. فهي لا تستحق هذا الحب.

أنا أشفق عليها، لأنني أتوقع لها أن تبقى تعيسة طول الوقت. لن تجد الصديق ولا السعادة في أيما مكان. فمن يطالب الغير بكل شيء ويتنصل من كل الواجبات لن يجد السعادة أبداً.[1]

ولربما كانت رسالتي إليها التي تتشكى منها مكتوبة بانفعال، ولكن ليس بخشونة. إلا أنها ترى الخشونة في كوني تجرأت على الاعتراض عليها وأعلنت أنني متألم. كانت دوماً تستخف بي في زهو وكبرياء. وقد زعلت لأنني أردت أن أتشكى في الأخير وأتكلم بما يتعارض

معها. إنها لا تعترف بالتكافؤ في علاقاتنا. وليس لديها ذرة من الإنسانية في علاقتها معي. وهي تعرف أنني أحبها حتى الآن. فلماذا تعذبني؟ لا تحبيني، ولكن لا تعذبيني. وكان في هذه الرسالة كثير من المزاح. وما قيل بمزاح تعتبره جدياً ومؤسفاً، فيتحول في رأيها إلى خشونة.

ولكن يكفي الكلام عنها. أنت على الأقل لا تذنبيني. وأنا أقدرك كثيراً. أنت كائن نادر بين من صادفتهم في حياتي ولا أريد التفريط بمودتك. أنا أقدر رأيك فيّ وتذكرك لي. ولذا أكتب إليك عن ذلك بصراحة، لأنك تعرفين أنني لا أطمع بشيء منك، ولا آمل بأن أستلم شيئاً منك، وبالتالي لا يمكنك أن تعتبري كلماتي تزلفاً أو مداهنة، بل تقبليها مباشرة بوصفها خلجات قلبي الصادقة.

أنت في زوريخ، ولفترة طويلة، كما كتبت أختك. اسمعي، إذا أردت واستطعت أن تسمعي: أينما كنت حبّري لي بين الحين والآخر كلمتين عنك. أنا لا أطالب بتكليفك عناء الكتابة المتواصلة. كل ما أريده أن تتذكريني أحياناً. ويهمني دوماً إلى أقصى حد أن أسمع شيئاً عنك. أريد من جديد أن أكرر لك توصيتي الدائمة ورغبتي في أن لا تتقوقعي في شرنقة التفرد، بل سيري مع الطبيعة، مع العالم الخارجي والأشياء الخارجية ولو قليلاً. الحياة الخارجية الفاعلة تطور طبيعتنا البشرية إلى أقصى حد، وتقدم المادة (اللازمة لهذا التطور). بالمناسبة، لا تسخري مني كثيراً.

أوضاعي فظيعة. ولا أدري كيف أعالجها. سترين بعضاً منها في رسالتي إلى أبوليناريا.

عنواني يبقى كما هو عليه. إذا كتبت لي سريعاً سأرد عليك وأهيئ حتى ذلك الحين عنواناً أكثر استقراراً يمكن استخدامه طول الوقت.

وداعاً وإلى اللقاء في زمن لا أعرفه. أتمنى لك السعادة مدى الحياة. وأشد على يدك بحرارة، وأتحرق شوقاً للقائك في حين ما. لا أدري كيف سنكون حينئذٍ. إلا أنني سأتذكرك كثيراً وعلى الدوام.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملاحظة: أنت الآن في عز الفتوة والشباب، في بداية الحياة. وتلك هي السعادة. لا تضيعي الحياة واحرصي على الروح وآمني بالحقيقة. ولكن ابحثي عنها بجد واهتمام مدى العمر، وإلا فمن السهل الانحراف الفظيع. إلا أنك بقلب كبير، ولن تنحرفي.

أما أنا فعلى مشارف النهاية. نهاية الحياة. إنني أشعر بها. كل شيء سواء. أنت عزيزة عليَّ معزة الجيل الفتيّ الجديد، إلى جانب مودتي لك كالأخت المحبوبة الأعز.

---

(1) بالفعل عاشت أبوليناريا، شقيقة ناديجدا سوسلوفا، حياة تعيسة من جميع النواحي.

93. إلى أندريه كرايفسكي

بطرسبورغ، 8 يونيو 1865

السيد الكريم أندريه ألكساندروفيتش!

بعد التمعن في حديثنا القديم، القصير جداً، رأيت من الضروري أن أعرض عليكم تحريرياً فحوى رجائي، من أجل الدقة وتفادي سوء الفهم.

لطلبي شكلان.

1). أنا أطلب 3000 روبل الآن، مقدماً، مقابل رواية أتعهد رسمياً بتسليمها إلى هيئة تحرير «مذكرات الوطن» في موعد أقصاه مطلع شهر أكتوبر من العام الحالي.

2). في حال وفاتي أو عدم تسليم مخطوطة الرواية إلى هيئة تحرير «مذكرات الوطن» في الموعد أرهن الحقوق الدائمية التامة لإصدار جميع مؤلفاتي وكذلك حقوق تسويقها ورهنها، أعني باختصار: التصرف بها كمالك كامل الحقوق[1].

ملاحظة: عنوان الرواية «السكارى»، وهي ذات ارتباط بمسألة تعاطي المسكرات المطروحة حالياً. إنها لا تقتصر على معالجة هذه

المسألة، بل تتناول أيضاً جميع تفرعاتها، مثل مشاهد العوائل وتربية الأطفال في هذا الجو وما إلى ذلك. وسيكون حجم المخطوطة لا أقل من 20 ملزمة، بل وربما أكثر. الأجر 150 روبلاً للملزمة، علماً بأنني استلمت 250 روبلاً للملزمة على «ذكريات من منزل الأموات» في مجلتي «العالم الروسي» و«الوقت».

3) إذا لم تعجب روايتي موظفي «مذكرات الوطن» أو إذا بدا لهم الثمن باهظاً فمن حقهم أن يعيدوا المخطوطة إليَّ ويحتفظوا بالرهان إلى أن أسدد الـ 3000 روبل بفائدة 10 بالمئة. موعد التسديد في هذه الحالة حتى الأول من يناير 66. يضاف إلى ذلك، بموجب العقد، حق استلام صاحب «مذكرات الوطن» بالكامل أجور جميع المقالات التي سأنشرها في أي مكان وفي أي زمان لغاية تسديد الـ 3000 روبل مع الفائدة.

4) لا يحق لي أن أسحب مخطوطتي بنفسي أو لا أسلمها إلى هيئة تحرير «مذكرات الوطن» (. . .) فيما يحق لهيئة التحرير دوماً أن تطالبني بتسليم المخطوطة أو تطالب باستعادة المبلغ وإعادة المخطوطة إليَّ من دون موافقتي.

الشكل الثاني لطلبي.

أنا أطلب 1500 روبل، وأتعهد رسمياً بأن أسلم الرواية في الموعد المذكور أعلاه. ولكن أرجو إعفائي من واجب تقديم الرهان. وتبقى الشروط الأخرى كما هي واردة في أعلاه.

واسمحوا لي أن أبدي ملاحظة أخرى.

إذا كان بالإمكان تسليمي مبلغ الـ 3000 روبل الكبير أرجوكم كل الرجاء أن تلتفتوا إلى أن البت في المسألة على هذا النحو هو المرغوب أكثر من جانبي. وهو، إلى ذلك، يرضي الطرفين. فقد

عرض عليّ اثنان من الناشرين، هما ستيلوفسكي وفوغانوف، 2000 روبل نقداً وفي الحال، لمعرفتهم بحاجتي إلى المال، مقابل حق طبع مؤلفاتي لمرة واحدة فقط. وبالتالي فإن للمؤلفات تغطية كافية. ونظراً لأن العقد المقترح من جانبي يرضي، في بنوده الأخرى، جميع أعضاء هيئة تحرير «مذكرات الوطن» تقريباً آمل أنكم، في حال رغبتم في نشر روايتي في مجلتكم هذه، لن ترفضوا، إن أمكن، تسليمي الـ 3000 روبل. فهذا العقد من شأنه أن يحل جميع الصعوبات التي أواجهها في العام الحالي.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع

فيودور دوستويفسكي

---

(1) الناشر كرايفسكي رفض عرض دوستويفسكي بحجة عدم توفر المال لديه. إلا أن السبب الحقيقي هو عدم ثقته بالكاتب.

94. إلى إيفان تورغينيف

فيسبادن، 3 أغسطس 1865

العزيز الطيب إيفان سرغييفيتش. عندما قابلتك في بطرسبورغ قبل شهر تقريباً كنت أحاول أن أبيع مؤلفات بأي ثمن لأنني كنت معرضاً للسجن بسبب ديون المجلة التي سجلتها باسمي لحماقتي. اشترى ستيلوفسكي حق نشر مؤلفاتي بثلاثة آلاف روبل، بعضها بكمبيالات. ومن هذا المبلغ سددت بعض الديون ووزعت الباقي على من أنا ملزم بتوزيعه عليهم. ثم سافرت إلى الخارج لأحسن صحتي ولو قليلاً وأكتب شيئاً ما. وقد تركت لنفسي من الـ 3000 لأجل الخارج 175 روبلاً فضياً، ولم أستطع أن آخذ أكثر.

في فيسبادن قبل ثلاث سنوات ربحت في ساعة واحدة 12000 فرنك. لكنني لا أفكر الآن في تحسين ظروفي من خلال القمار. إلا أنني أرغب فعلاً بكسب 1000 فرنك لأعيش عليها هذه الأشهر الثلاثة. أنا في فيسبادن من خمسة أيام وقد خسرت كل شيء، حتى الصفر. خسرت ساعتي، وحتى الفندق له دين عليّ.

يؤذيني ويخجلني أن أشغلك بشخصي. ولكن ليس عندي في هذه

اللحظات أحد غيرك أستطيع أن أستعين به. ثم إنك أذكى بكثير من الآخرين، وبالتالي يسهل عليَّ أخلاقياً أن أتوجه إليك. القضية أني أتوجه إليك كإنسان لإنسان طالباً منك مئة تالر[1]. ثم إنني أنتظر من روسيا، من مجلة «مكتبة المطالعة»، نقوداً زهيدة وعدوني بها قبيل سفري، وكذلك من سيد ينبغي أن يساعدني.[2] طبيعي أنني لن أعيد إليك المبلغ قبل ثلاثة أسابيع. ولربما أعيده قبل ذلك[3]. على أية حال أنا وحيد، والمزاج معتكر جداً، مع أنني كنت أظن أنه سيعتكر أكثر. والمهم أنني أشعر بالخجل لإزعاجك. ولكن ما العمل للنجاة من الغرق؟

عنواني:

Wiesbaden, Hôtel «Victoria», à M-r Théodore Dostoiewsky

ماذا لو أنك غير موجود في بادن بادن؟

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) تورغينيف بعث إلى دوستويفسكي نصف هذا المبلغ.

(2) المقصود ألكسندر هيرتسن.

(3) تقول زوجة دوستويفسكي آنّا غريغوريفنا في مذكراتها إن الكاتب نسي هذا الدين ولم يسدده إلا في عام 1876.

95. إلى أبوليناريا سوسلوفا

فيسبادن، 10 أغسطس 1865. الثلاثاء.

عزيزتي بوليا. أولاً، أنا لا أفهم كيف وصلتِ. لقد أضيفت إلى أحزاني الكئيبة أحزان مماثلة بخصوصك.

فماذا لو لم يكن لديك في كولونيا ما يكفي حتى لقطار الدرجة الثالثة؟ في هذه الحالة أنت الآن في كولونيا وحيدة لا تعرفين ماذا تفعلين. هذا فظيع. وإذا كنتِ قد وجدتِ ثمن التذكرة وكلفة الفندق والسائس وحاجيات الطريق فإنك، على أية حال، بقيت جائعة. كل هذه الأفكار تدق في دماغي فلا أعرف الاستقرار.

اليوم هو الثلاثاء، الساعة الثانية بعد الظهر ولا خبر من هيرتسن، بينما حان الوقت. في كل الأحوال سأنتظر حتى صباح بعد غد، وعندها أفقد آخر بارقة أمل. الشيء الوحيد الواضح بالنسبة لي، على أية حال، إذا لم يأت أي خبر من هيرتسن فهو غير موجود في جنيف، أي أنه ذهب إلى مكان ما. وأنا أخرج بهذا الاستنتاج لأنني في علاقة طيبة للغاية مع الرجل. ما يعني أنه لا يستطيع أن يجيبني بأي شكل، حتى إذا لم يرغب أو لم يستطع أن يبعث لي النقود. إنه مهذب جداً،

ثم إننا في علاقات ودية. وبالتالي فإذا لم يأت منه أي خبر فذلك يعني أنه غير موجود في جنيف في الحال الحاضر[1].

علماً بأن أوضاعي تدهورت إلى حد يفوق التصور. حالما ارتحلتِ، في الصباح الباكر من اليوم التالي، أبلغوني في الفندق بأنهم منعوا عليَّ طعام الغداء والشاي والقهوة. فمضيت لأستوضح من الألماني البدين، صاحب الفندق، فبادرني بأنني لا «أستحق» الغداء وأنه سيزودني بالشاي فقط. وهكذا من يوم أمس أنا لا أتغدى وأقتات على الشاي وحده. ثم إن الشاي الذي يقدمونه رديء للغاية، ومن دون غلاية. ولم يعودوا ينظفون البدلة والجزمة ولا يلبون نداءاتي. كل الخدم يعاملونني باحتقار ألماني يفوق التصور. فليس عند الألماني جريمة أبشع من عدم توفر النقود وعدم الدفع في الموعد. كل ذلك شيء تافه، لكنه في الوقت ذاته غير مريح أبداً. ولذا إذا لم يبعث هيرتسن النقود ستنتظرني إشكالات كبيرة، بمعنى أنهم يمكن أن يستولوا على حاجياتي ويطردوني أو يقوموا بما هو أسوأ من ذلك. يا للبشاعة.

إذا كنتِ قد وصلت إلى باريس ويمكنك أن تستحصلي شيئاً من أصدقائك ومعارفك إبعثي لي في أبعد تقدير 150 غولديناً، وفي أقله قدر ما تريدين[2]. لو كانت 150 غولديناً لصفيتُ حسابي مع هؤلاء الخنازير وانتقلت إلى فندق آخر بانتظار وصول النقود. لأن من المستحيل أن لا أستلمها. وفي كل الأحوال سأعطيك قبل سفرك من باريس. فمن بطرسبورغ، من مجلة «مكتبة المطالعة»، ربما سيرسلون المبلغ على عنوان أختك في زوريخ بعد عشرة أيام لا أكثر. هذا أولاً، وثانياً، حتى إذا كان هيرتسن غير موجود في جنيف أو غادرها لأمد طويل فإنهم سيرسلون له حيثما كان الرسائل التي تصل باسمه

إلى جنيف. وإذا سافر لأجل قصير فسيرد عليَّ حالما يعود، وبالتالي سأستلم في القريب العاجل على أية حال جواباً منه. باختصار، إذا كنت تستطيعين القيام بشيء من أجلي من دون عناء فافعلي. عنواني نفسه:

Wiesbaden, Hôtel «Victoria».

إلى اللقاء يا عزيزتي. لا أصدق بأنني لن أراك قبل مغادرتك. كما أنني لا أريد حتى أن أفكر في نفسي. أنا أقرأ طول الوقت جالساً، كيلا أثير شهيتي إلى الطعام بالحركة. أعانقك بحرارة.

باللّه عليك، لا تعرضي رسالتي على أحد. ولا تحدثي أحداً عنها. بشاعة!

المخلص ف. د(وستويفسكي)

حدثيني بالتفصيل عن جولتك إذا كانت فيها مشاكل. تحياتي إلى أختك. إذا بعث هيرتسن (النقود) قبل وصول رسالتك فسأطلب عندما أغادر فيسبادن، على أية حال، أن يبعثوها لي في باريس، لأنني سأسافر إليها فوراً.

---

(1) كان هيرتسن آنذاك يقوم بجولة في جبال سويسرا.

(2) يبدو أن سوسلوفا لم تتمكن من استحصال نقود لدوستويفسكي، فغادر فيسبادن بمعونة أ. فرانغيل وإ. يانيشيف.

96. إلى أبوليناريا سوسلوفا

فيسبادن، 12 أغسطس 1865. الخميس

أواصل قصفك بالرسائل، وكلها غير مدفوعة الرسوم البريدية. فهل وصلتك رسالتي التي بعثتها يوم الثلاثاء؟ وهل وصلتِ أنت إلى باريس؟ آمل طول الوقت أن أستلم منك خبراً اليوم.

أموري فظيعة لأقصى حد. لم يعد التحرك إلى الأمام ممكناً. فهناك تأتي مرحلة أخرى من الأذى والتعاسة التي لا أعرف عنها شيئاً الآن. لم أستلم من هيرتسن حتى هذه اللحظة أي جواب أو رد. اليوم يمر أسبوع كامل على رسالتي إليه. واليوم أيضاً هو الأخير الذي وعدت به صاحب الفندق منذ الاثنين الفائت بخصوص استلام النقود. ولا أعرف ماذا سيحصل. حالياً الساعة الواحدة صباحاً. يستحيل أن لا يرغب هيرتسن بالرد عليّ. هل يعقل أنه لا يريد أن يجيب؟ كلا. مستحيل. فلماذا لا يجيب؟ نحن في علاقات رائعة، وأنت شاهدة عليها[1]. اللهم إلا إذا استغابني أحد أمامه ليفرق بيننا. وحتى في هذه الحالة يستحيل، بل ويستحيل أكثر، أن لا يرد بشيء على رسالتي. ولذا لا أزال متيقناً بأن رسالتي إليه إما ضاعت، وذلك احتمال غير

وارد، وإما أنه لسوء حظي غادر جنيف. وهذا هو الاحتمال الأكثر. عندذاك يحصل ما يلي: فإما أنه غادر لوقت قصير، وبالتالي يمكنني أن آمل باستلام جواب منه في الأيام القريبة القادمة، وإما أنه سافر لوقت طويل، وبالتالي يحتمل أن يبعثوا إليه رسالتي أينما كان لأنه يطلب على الأكثر أن يبعثوا إليه الرسائل التي تصل على عنوانه. وفي هذه الحالة أيضاً يمكنني أن آمل باستلام جواب.

سأبقى طول الأسبوع، حتى يوم الأحد، أنتظر وصول الجواب. وبالطبع ذلك مجرد أمل. في حين أن وضعي حالياً لا يكفيه الأمل وحده.

كل ذالك لا يقارن بمدى اكتئابي. تعذبني العطالة، وعدم وضوح التوقع والانتظار من دون أمل كبير، وضياع الوقت، وفيسبادن اللعينة التي صرت أشعر بالغثيان منها حتى لم أعد أريد أن أرى الدنيا وما فيها. والحال أنت في باريس ولن أراك. كما يعذبني هيرتسن. فلو كان قد استلم مني الرسالة ولا يريد أن يجيب فما أعظم الإهانة وما أغرب التصرف. فهل أستحق أنا مثل هذه المعاملة؟ وبأي ذنب؟ لسوء أخلاقي؟ أعترف بأنني كنت سيّئ الخلق، ولكن ما هذه الأخلاقيات البرجوازية؟ أجب على الأقل (يا سيد هيرتسن)، أم أنني لا «أستحق» المساعدة، كما فعل معي صاحب الفندق لأني لا «أستحق» طعام الغداء؟ ولكن يستحيل أن لا يجيب. إنه، على الأرجح، غير موجود في جنيف.

طلبت منك أن تنجديني إذا كنت تستطيعين أن تستديني من أحد ما لأجلي. وأنا لا أملَ لي تقريباً في ذلك. بوليا، إذا كنت تستطيعين افعلي من أجلي. ألا توافقينني أن من الصعب أن نصادف وضعاً أكثر إشكالاً وقسوة من الوضع الذي أواجهه الآن؟

ستكون هذه رسالتي الأخيرة لحين استلامي منك خبراً ما. يخيل إليَّ طول الوقت أن الرسائل إلى Hôtel «Fleurus» تتأخر أو تضيع إذا لم تكوني موجودة هناك. أنا لا أدفع بريد الرسائل لأنني لا أملك ولا كوبيكاً واحداً. لليوم الثالث أواصل عدم تناول طعام الغداء وأقتات على شاي الصباح وشاي المساء. والغريب أنني لا أشتهي الطعام جداً. المزعج أنهم يضيقون عليّ وأحياناً يبخلون عليَّ بشمعة المساء إذا ظلت بقية تافهة من شمعة الأمس. على فكرة أنا أترك الفندق يومياً في الساعة الثالثة وأعود في السادسة كيلا يكتشف أحد أنني لا أتناول طعام الغداء. وكأنني خليستاكوف بعينه[2].

صحيح أن ثمة بصيص أمل بأنني بعد أسبوع أو عشرة أيام في أبعد تقدير سأستلم شيئاً من روسيا، عن طريق زوريخ. لكنني لن أكون بخير من دون معونة حتى ذلك الحين.

على فكرة أنا لا أريد أن أصدق بأنني لن أكون في باريس ولن أراك قبل المغادرة. هذا غير ممكن. على أية حال التصورات تشتعل بسبب العطالة. في حين أن عطالتي كاملة وأكثر.

وداعاً يا عزيزتي، لن أكتب أكثر إذا لم يطرأ طارئ ولم تحدث مغامرات غير معتادة. إلى اللقاء.

المخلص دوسـ (تويفسكي)

ملاحظة: أعانقك مرة أخرى بمنتهى الحرارة. هل وصلت (شقيقتك) ناديجدا بروكوفيفنا؟ ومتى؟ تحياتي لها.

الساعة 4

الصديقة العزيزة بوليا، في هذه اللحظة بالذات استلمت رداً من هيرتسن. كان في الجبال. ولذا تأخرت رسالته. لم يبعث نقوداً.

يقول إن رسالتي وصلته وهو خالي الوفاض. لا يستطيع أن يرسل لي 400 فلورين، أما إذا كانت الـ 100 أو 150 غولدين كافية فذلك أمر آخر، وهو مستعد لإرسالها. ويرجوني أن لا أزعل وما إلى ذلك. والغريب لماذا لم يرسل الـ 150 غولدين؟ طالما يقول إنه يستطيع إرسال الـ 150 فكان ينبغي أن يرسلها ويؤكد أنه لا يستطيع أكثر. هكذا ينبغي أن يفعل. والحال فإما أنه نفسه في ضائقة مالية، وإما أنه متمسك بنقوده. والحقيقة ليس في وسعه أن يشك في أني يمكن أن لا أعيدها إليه. فرسالتي عنده. وأنا لست إنساناً ميئوساً منه. أكيد أنه في ضائقة مالية.

في اعتقادي ليس بالإمكان أن أكتب له وأطلب من جديد. فما العمل؟ يا بوليا، صديقتي، أعينيني، أنقذيني. استحصلي 150 غولدين من أحد ما، وأنا لا أحتاج إلى أكثر. بعد عشرة أيام أو ربما أقل تصل نقود من فوسكوبوينيكوف إلى زوريخ على عنوان شقيقتك. ومع أن المبلغ غير كبير، لكنه لا أقل من 150 غولدين. وسأعطيك إياها. فأنا لا أريد إحراجك. مطلقاً. تشاوري مع أختك، وأجيبيني عاجلاً، في كل الأحوال.

المخلص ف. دوستويفسكي

الآن أنا لا أعرف إطلاقاً ماذا سيحصل لي.

---

(1) التقى دوستويفسكي وسوسلوفا مع هيرتسن أثناء مكوثهما في نابولي وليفورنو في أكتوبر 1863.

(2) خليستاكوف الشخصية الرئيسية في مسرحية غوغول «المفتش العام»، وفيها مشهد مماثل..

97. إلى ألكسندر فرانغيل

فيسبادن، 24 أغسطس 1865

صديقي المحترم الطيب ألكسندر يغوروفيتش. هل استلمت رسالتي التي بعثتها إليك في كوبنهاغن قبل شهر؟ حسبت تماماً أنك في كوبنهاغن عندما أرسلت الرسالة، لأني كتبتها في أعقاب توجهي إلى الخارج. وإذا كنت قد غادرت كوبنهاغن إلى روسيا قبل 10 يوليو بتقويمنا فلعلك كنت ستبحث عني في بطرسبورغ. وطالما أننا لم نتقابل في بطرسبورغ فقد تصورت أنك لم تغادر بعد إلى روسيا. علماً بأنك كتبت لي سابقاً عن نيتك هذه. وبالتالي أظن الآن أننا لم نلتق في اللحظة التي غادرت فيها أنا إلى الخارج. ولربما بعثوا لك رسالتي من كوبنهاغن إلى روسيا. وفي هذه الحالة، ربما كتبت لي الجواب على عنوان زوريخ الذي ذكرته لك. ولكن للأسف أنا تأخرت في فيسبادن ولم أصل إلى زوريخ حتى الآن، ولذا لا أعرف شيئاً.

ثمة القس يانيشيف الذي كان في كوبنهاغن. تعرفت عليه هنا، في فيسبادن، صدفة وعلمت منه أنه يعرفك.

وقال لي، بالمناسبة، إنك تنوي السفر إلى روسيا هذا الصيف، وتعود إلى كوبنهاغن في سبتمبر. ما جعلني آمل في الكتابة إليك من جديد، ولعل رسالتي هذه المرة تصلك في كوبنهاغن.

هذه المرة أكتب عن نفسي فقط، وعن أمر واحد تحديداً. لا تخبر أحداً بما سأكتبه لك، لأني أشعر بأن ذلك يشوّه سمعتي. ولما كانت العبارات في هذه الحالة بلا فائدة وصعبة الوقع فإنني أعترف لك صراحة، مع أنني خجل من هذا الاعتراف، بأنني، لغبائي، خسرت كل شيء قبل أسبوعين، بمعنى خسرت (في القمار) كل ما معي.

كنت ألعب سابقاً، منذ أن وصلت إلى فيسبادن، ولكن الحظ كان يحالفني، بل وربحت الكثير نسبياً، ولكنني، لغبائي، جننت وخسرت كل شيء خلال ثلاثة أيام، وأنا الآن في أسوأ حالة لا يمكن للعقل أن يتصورها، ولا أستطيع مغادرة فيسبادن.

كتبت لأحد المخلصين لي، ميلوكوف، في روسيا وكلفته أن يحاول استحصال مبلغ من أحد الناشرين لأجلي بشكل سلفة لقاء كتب في المستقبل. وسيفعل ذلك حتماً، ولربما يساعدني بنفسه، إلا أن الرسائل والنقود لن تصلني منه، بحسب تقديراتي، قبل أسبوعين من اليوم. هذا إذا كانت على جناح السرعة. وأنا في حالة انتظار ولا كوبيك واحداً في الجيب. والأسوأ من ذلك أنني مدين للفندق. وهذا أمر لا يحسد عليه إنسان.

ولذا تجرأت، يا صديقي الطيب، أن أتوجه إليك. أنقذني، وخلصني من المحنة. أرسلْ لي 100 تالر قرضاً لأقصر مدة. وبها أسدد ما عليَّ هنا، وأسافر إلى باريس رأساً، حيث لدي شغلة وحيث أبحث عن شخص، موجود هناك على الأرجح، ينجدني في الحال[1]. وعندها أعيد المبلغ إليك من دون تأخير.

أكتب إليك لا على التعيين، مؤملاً أنك موجود في كوبنهاغن. ولكن إذا كنت لا تزال في روسيا وسيوافونك برسالتي هناك لا أبعد من أسبوعين، أي ليس بعد 19 سبتمبر بالتقويم الأوروبي، السابع منه بتقويمنا، أرسلْ لي، إذا استطعت، هذه الـ 100 تالر في كل الأحوال إلى فيسبادن. وإذا استلمت الرسالة بعد هذا التاريخ فلا تبعث شيئاً. أنا أكتب بهذه الصورة لأنني آخذ بالاعتبار عفوياً أسوأ الاحتمالات. لعل ميلوكوف سيدبر الأمر من أجلي، ولكنه أملي الوحيد في روسيا. هذا أولاً، وثانياً- ربما لا يكون متواجداً في بطرسبورغ، لأنه قال لي عندما توادعنا إنه ينوي الاستجمام هذا الصيف في نيجني (نوفغورود). وفي هذه الحالة سأبقى أمداً طويلاً خالي الوفاض ويحتمل أن لا تتم سفرتي إلى باريس وهي مهمة جداً بالنسبة لي. فهناك أستطيع أيضاً أن أستحصل نقوداً. وإلى ذلك تكبلت بالديون هنا لأبعد الحدود. وهذا أمر صعب للغاية. ولذا، باللّه عليك، ابعث المبلغ إذا كنت تستطيع.

وأنا، عندما أتوجه إليك أتذكر الماضي وما كان في حياتنا من لحظات كثيرة جمعت بيننا، وإننا رغم الفرقة لا يمكن أن نكون غريبين بعضنا على بعض. ولذا رأيت أن أعترف لك بجرأة فيما يخص تصرفي الأهوج الأحمق. فليبقَ ذلك سراً بيننا. أما بخصوص النقود فأعتقد أنه إذا توفرت لديك في هذه اللحظة فإنك لن تترك الغريق من دون طوق النجاة[2].

إذا توفرت لي الفرصة سأعرج على كوبنهاغن حتماً.

أعانقك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

عنواني:

Allemagne, Nassau, Wiesbaden, poste restante, à m-r Théodore Dostoiewsky

---

(1) المقصود أبوليناريا سوسلوفا.

(2) فرانغيل أرسل المبلغ إلى دوستويفسكي، ولكن بعد تذكير آخر من الكاتب.



98. إلى ميخائيل كاتكوف

مسودة

فيسبادن، 10- 15 سبتمبر 1865

السيد الفاضل ميخائيل نيكيفوروفيتش!

هل هناك أمل بنشر قصة طويلة لي في مجلتكم «البشير الروسي»؟

أنا أعكف على كتابتها هنا، في فيسبادن، من شهرين، وأشرف حالياً على الانتهاء[1]. وستكون بحجم خمس إلى ست ملازم طباعية. المتبقي من العمل قرابة أسبوعين، وربما أكثر. على أية حال أستطيع أن أقول بالتأكيد إن بالإمكان تسليمها إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» بعد شهر لا أكثر[2]. فكرة الرواية، على قدر تصوراتي، لا يمكن أن تتعارض بأية حال مع توجهات مجلتكم، بل هي على العكس. إنها عبارة عن تقرير نفساني حول إحدى الجرائم.

الأحداث تجري في زماننا، بل في العام الحالي. طالب يفصل من الجامعة، وهو من الطبقة الفقيرة، قرر أن يتخلص من وضعه البائس رأساً بدافع من الرعونة وعلى سبيل العبث والمزاح وتبني بعض الأفكار الغريبة «المنقوصة» التي تحوم في الجو. قرر أن يقتل عجوزاً

معروفة من طبقة النبلاء تمارس الربا. العجوز مريضة غبية صماء، وجشعة للغاية تتقاضى فائدة مئوية أعلى مما يتقاضاه المرابون اليهود. وهي إلى ذلك طاعنة في السن وتعذب شقيقتها الأصغر منها متخذة منها خادمة للمنزل. «إنها لا تصلح لشيء»، «فلماذا تعيش؟»، «وهل منها نفع لأحد؟» وما إلى ذلك. هذه التساؤلات تربك الفتى وتحيد به عن الطريق. فيقرر أن يقتلها وينهب مالها ليجلب السعادة لوالدته المقيمة في الضاحية ويخلص شقيقته التي تخدم أحد الإقطاعيين من الملاحقة العاطفية التي دأب عليها هذا الإقطاعي وتهددها بالهلاك. كان يطمح في إكمال الدورة الدراسية والسفر إلى الخارج ليكون طول عمره فيما بعد إنساناً نزيهاً ثابت العزيمة لا يتوانى عن أداء «واجبه الإنساني تجاه المجتمع البشري»، وبذلك «يكفر عن الجريمة» بالطبع، إذا كان يجوز إطلاق توصيف الجريمة على التصرف بحق عجوز غبية صماء، شريرة ومريضة، لا تعرف بنفسها لأي غرض تعيش في هذه الدنيا، ولعلها ستموت ميتة عادية بعد شهر أو يزيد.

وبالرغم من أن هذا النوع من الجرائم صعب التنفيذ ولا مناص فيه من ترك آثار الجريمة (. . .) يتمكن الشاب بمحض الصدفة أن يقترف فعلته بسرعة ونجاح.

يقضي قرابة شهر بعد الكارثة النهائية، وليست عليه أية شبهة. وهنا تبدأ العملية السيكولوجية للجريمة. القاتل يواجه معضلات غير قابلة للحل. ويتعذب فؤاده تحت ثقل مشاعر مفاجئة لم يكن يتصورها. وتأخذ الحقيقة الإلهية مجراها عبر قانون الحياة الدنيا. فينتهي الفتى إلى التبليغ عن نفسه بنفسه. إنه مضطر لهذا التبليغ كي يعود إلى حظيرة البشر من جديد وإن كان عبر الهلاك في الأشغال الشاقة. ويعذبه الشعور بالانفصام والانقطاع عن البشرية الذي استولى

عليه حالما اقترف الجريمة. قانون الحقيقة والطبيعة الإنسانية يعلو، (. . .) فيقرر المجرم بنفسه تجرع الآلام ليكفّر عن ذنوبه. عموماً يصعب عليَّ أن أوضح فكرتي بالكامل. وأنا أريد الأن أن أضفي على الفكرة الشكل الفني الذي سترتديه. (. . .)

وإلى ذلك في الرواية تلميح إلى الفكرة القائلة بأن العقاب الذي يفرضه الحقوقيون على الجريمة يخيف المجرم بأقل مما يظنه المشرعون.

ومن أسباب هذه الظاهرة أن المجرم نفسه يطالب بالعقاب.

رأيت ذلك حتى عند الأشخاص الأقل تطوراً، ورأيته في المصادفات الأكثر قسوة. وقد أردت أن أعبّر عن ذلك من خلال إنسان متطور من أبناء الجيل الجديد لكي تنجلي الفكرة بمنتهى الوضوح. وأقنعتني عدة حالات حدثت في الآونة الأخيرة بأن حبكتي ليست خارجة عن المألوف بحال. ذلك لأن المجرم شاب متطور، بل وذو توجهات طيبة. حدثوني في العام الماضي في موسكو حقيقةً عن طالب مفصول من الجامعة بعد حادثة طلابية عزم على تحطيم دائرة البريد وقتل الساعي. وفي صحفنا الكثير من آثار اضطراب المفاهيم المستشري الذي يشجع على اقتراف أفعال شنيعة. ومن الأمثلة التلميذ الذي قتل بنتاً بالاتفاق معها في المستودع وتم القبض عليه بعد ساعة وهو يتناول الفطور (وكأن شيئاً لم يحصل) وما إلى ذلك. باختصار، أنا على يقين بأن روح العصر تبرر حبكة روايتي جزئياً.

بديهي أنني أهملت في العرض الحالي فكرة روايتي، فكرة حبكتها. أنا أتعهد بتوفير متعة المطالعة، ولا أحكم بنفسي على الأداء الفني. فقد تعيَّن عليّ كتابة الكثير، الكثير جداً من الأشياء الغثة بسبب الاستعجال والتنفيذ حسب الطلب وما إلى ذلك. أما هذه الرواية

فأكتبها بحماس ومن دون استعجال. وسأحاول، لأجل نفسي على الأقل، أن أنهيها على النحو الأفضل بقدر المستطاع.

قبل ست سنوات تقريباً أرسلت إلى «البشير الروسي» إحدى قصصي الطويلة واستلمت مقابلها أجر التأليف مقدماً. لكن سوء تفاهم حصل. ولم تنشر القصة فاستعدت المخطوطة وأعدت النقود. ولربما كنت أنا مذنباً جزئياً، أو ربما محقاً جزئياً. والأصح كنت هذا وذاك معاً. والآن أنا أميل إلى اتهام نفسي بالتغنج والغطرسة. وقد نسيت تفاصيل هذه القضية، فهل يحق لي أن آمل بأنك، أنت أيضاً، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر، لن ترغب في تذكرها الآن؟[3]

على مدار السنوات الأخيرة كنت أتقاضى ما يتراوح بين 250 روبلاً على الملزمة، لقاء رواية «ذكريات من منزل الأموات» التي نشرت بدايتها جريدة «العالم الروسي» السابقة، وبين 125 روبلاً التي اقترحت عليَّ مؤخراً من قبل أحد الناشرين. وأنا موافق تماماً على الأجر الذي تحدده أنت حسب رأيك بعد قراءة المخطوطة.[4] وسمعت أن الكثيرين من الأدباء الذين يتعاملون معك يفعلون هكذا. لكنني، على أية حال، أرغب في أجر لا يقل في حده الأدنى عن الـ 125 روبلاً التي عرضت عليَّ حتى الآن.

إلا أنني، وأكرر، أعول عليك في كل شيء، وأنا على يقين راسخ بأن ذلك سيكون أنفع لي.

لا مؤاخذة أن أنتقل إلى أمور تخصني تحديداً. ظروفي الراهنة ليست جيدة إطلاقاً. سافرت في بداية يوليو إلى الخارج للعلاج، وكنت مريضاً جداً، وبلا نقود تقريباً. كنت آمل أن أنهي رواية[5] في القريب العاجل، لكنني انهمكت في كتابة رواية أخرى هي موضوع حديثي معك. ولست آسفاً على ذلك، إلا أنني مضطر الآن أن أطلب

منك ثلاثمئة روبل، في حال رغبتَ في نشر روايتي طبعاً. أرجوك، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش المحترم، أن لا تعتبر هذه الـ 300 روبل من الشروط التي يمكن أن أتقدم بها في مقابل قصتي. كلا، أبداً. إنه مجرد رجاء إليك لمساعدتي في هذه اللحظة الحرجة بالنسبة لي. وأكرر أنه، بالطبع، رجاء وارد فقط في حالة قبولك لعملي(6).

على أية حال، أرجوك كل الرجاء أن لا تتركني لأمد طويل من دون أخبار من هيئة تحرير المجلة. فالوقت ثمين بالنسبة لي في الضيق الذي أنا فيه. وعلى الرغم من أنني آمل أن أعود إلى روسيا بعد شهر، إلا أنني أتصور بالإمكان إرسال المخطوطة بشكلها النهائي إليك بعد ثلاثة أسابيع.

---

(1) المقصود «الجريمة والعقاب» قبل إدراج «السكارى» ضمنها.

(2) بدأت «البشير الروسي» بنشر «الجريمة والعقاب» اعتباراً من يناير 1966.

(3) المقصود الخلاف الذي حصل آنذاك حول رواية «قرية ستيبانتشيكوفو وسكانها».

(4) المعروف أن دوستويفسكي استلم 150 روبلاً للملزمة لقاء «الجريمة والعقاب» وكذلك «الأبله» و«الشياطين».

(5) لعل المقصود رواية «السكارى».

(6) كاتكوف حوّل المبلغ إلى الكاتب.

99. إلى ألكسندر فرانغيل

بطرسبورغ، 8 نوفمبر 1865

الصديق الطيب المحترم ألكسندر يغوروفيتش. هل يعقل أن أربعة أسابيع مرت؟[1] حسبت الأيام وهي كذلك بالفعل. وماذا فعلت أنا؟ لا شيء. والغريب أنني أرى من رسالتك وكأنك لم تستلم قصاصة الورق من متن الباخرة من كرونشتادت. هل هذا صحيح؟ اكتبْ لي. أنا مدين لك بجنيه آخر. تلك لم تكن رسالة، وإنما بضع كلمات كتبتها على ظهر فاتورة حساب الباخرة. كان يعوزني جنيه واحد، بينما أنفقت على مصرف الجيب 5 شلنات لا غير، على البيرة، لأن ماء الشرب كان مقززاً. وكانت في الفاتورة فقرات غير متوقعة ولا يمكن تفاديها. ولذا كتبت لك على ظهر الفاتورة بضعة أسطر طلبت فيها منك أن تسدد الجنيه في كوبنهاغن، لأنني لم أعد أملك ولا كوبيكاً واحداً. هل يعقل أنهم لم يأتوا (ليأخذوا الجنيه)؟ الرحلة كانت هادئة، لكننا وصلنا في اليوم السادس.

حالما وصلت تعرضت لنوبة صرع، في أول ليلة. وكانت شديدة للغاية. ثم تحسنت حالي، وبعد خمسة أيام فاجأتني نوبة أشد.

وأخيراً نوبة أخرى قبل ثلاثة أيام، وهي ضعيفة، لكن النوبات الثلاث حطمت أعصابي.

ومع ذلك أعكف على التأليف محني الظهر.

كاتكوف أرسل 300 روبل إلى كوبنهاغن، وجدتها في البيت، بعثها يانيشيف من هناك. إلا أن كل الأمور وقعت على كاهلي. عائلة المرحوم أخي في اضطراب تام. كانوا ينتظرونني كالمخلّص. أعطيتهم كل ما لدي. وإلى ذلك استدنت قبل أيام 100 روبل. فماذا عليّ أن أفعل؟ لا أدري. استشرت بولونسكي وحده. وكرر عليَّ أن لا أستعجل بشأن المجلة المرتقبة. ونصحني بأن أؤلف رواية وأكتب أشياء أخرى لأرفع اسمي، وعند ذاك يمكن البدء بإصدار المجلة. يعني بعد عام. وبخصوص اليوميات(2) اكتفى بأن هز رأسه. لكنني لم أجرب بعد. أريد طول الوقت أن أجرب. كما سأطلب من الوزير مساعدة لعائلة أخي(3).

في ذهني طبعة دورية وليس مجلة. وهي نافعة ومجزية. يمكن إصدارها في العام القادم. وحتى ذلك الحين ينبغي إنهاء الرواية(4). أعمل بكل طاقاتي، رغم تحذير الأطباء بسبب نوبات الصرع.

حالياً لا أستطيع أن أرسل لك شيئاً. فاصبر عليّ يا صديقي الطيب. سأستلم مقابل الرواية ما لا يقل عن 2500 روبل. وعندها أعطيك. هذا أكيد. فقد استلمت المقدم. المهم أن أنهي.

المعطف والبطانية سأرسلهما. ربما غداً سأرسلهما إلى لوبيك.

ماذا عليَّ أن أفعل تجاه يانيشيف؟ يا إلهي، عليّ أن أسدد الدين له حتماً في 12 ديسمبر. حينئذٍ ربما أرسل لك أيضاً. ولكن من أين لي بالمال؟ سأذهب إلى الوزير. ليس من اللائق أن أطلب سلفة أخرى من كاتكوف. غير معقول. فليست لي علاقات حميمة معه.

أعبّر عن إخلاصي التام واحترامي العميق لعقيلتك. والأهم، أتمنى لها موفور الصحة. أهنئك بميلاد الصبية، وأقبّل جميع الأطفال، وخاصة الفطينة[5].

إلى اللقاء يا عزيزي وصديقي القديم. أشد على يدك بحرارة.

المخلص دوستويفسكي

ملحوظة: كنت طول الوقت أريد أن أكتب لك، وطول الوقت أنتظر شيئاً إيجابياً.

ربيبي بافل في صحة جيدة، وهو يواسيني. وأخي[6] المريض يحتمل أن يموت قريباً، ربما هذا العام. سأكتب لك تفصيلاً عن جميع الأخبار والمخططات. فلا تنسني أنت أيضاً.

عندنا الثلج تساقط، والطريق بالزحافات. و(نهر) نيفا تجمد. ومن المستبعد أن تمخر البواخر البحر. سأرسل المطلوب بواسطة أخرى.

استلمت الحقيبة من فرانكفورت، والكلفة 62 روبلاً.

---

(1) على استضافة أسرة فرانغيل للكاتب في كوبنهاغن طوال أسبوع.

(2) في تلك الفترة كان دوستويفسكي يفكر في إصدار «يوميات الكاتب». ولم ينفذ المشروع إلا في عام 1873.

(3) يبدو أن دوستويفسكي لم يكتب لوزير الثقافة. وكانت عائلة أخيه المتوفى تتلقى معونة من الصندوق الأدبي فقط.

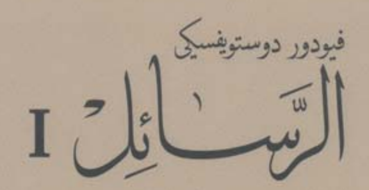
(4) «الجريمة والعقاب»

(5) ابنة فرانغيل الذكية التي رعاها دوستويفسكي طوال مكوثه عندهم..

(6) نيكولاي دوستويفسكي، شقيق الكاتب، توفي ليس هذا العام ولا بعده، وإنما في 1883.

جداريات «دوستويفسكي»

في محاولة غير مسبوقة في الإصدارات العربية تنشر دار سؤال بين دفتي الكتاب بانوراما مكتملة للجداريات المستوحاة من مؤلفات الكاتب، 16 جدارية نفيسة تزين بهو محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو.



يضم الكتاب بمجلديه وطبعته الفاخرة التي تنشر بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية أكثر من 250 رسالة تتناول جميع مراحل حياة الكاتب، أولها أرسلها إلى أمه وهو في الثانية عشرة من العمر وآخرها أملاها على زوجته وهو على سرير الموت. وتعتبر هذه الطبعة أول وأوسع كشف بالعربية عن حياة دوستويفسكي الشخصية.

يقول المترجم عن هذا المشروع الأدبي الفائق الأهمية: دوستويفسكي أعلن مراراً أنه لا يجيد ولا يحب كتابة الرسائل. وربما لذلك تحديداً جاءت رسائله بصيغة غير مألوفة تماماً. وأنا لا أخشى توصيفها «بالروايات المصغرة». ففي الرسالة الواحدة، سواء كانت بعشر صفحات أو ببضعة سطور، كل مقومات المنمنمة الروائية من توطئة وحبكة وحدث وإثارة وما إلى ذلك.

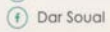
ولعلي أقول أيضاً إن رسائل المجلدين تمثل أعظم رواية وثائقية في تاريخ الأدب العالمي تضم 250 فصلاً وبطلها الرئيسي فيودور دوستويفسكي نفسه، وأبطالها الثانويون أخوه ميخائيل وزوجته الأولى ماريا عيسايفا وزوجته الثانية آنّا غريغوريفنا والعشرات من الشخصيات الاجتماعية ورموز الأدب الروسي في عصره الذهبي.







dar_soual@outlook.com

فيودور دوستويفسكي

الرسائل II

ترجمة: خيري الضامن



رسائل دوستويفسكي

الجزء الثاني

ترجمة

خيري الضامن



رسائل دوستويفسكي

رسائل دوستويفسكي

Федор Михайлович Достоевский
Том 15. Письма 1834-1881

تنشر في مجلدين بدعم معهد الترجمة في روسيا الاتحادية



الطبعة الأولى، 2017

عدد الصفحات: 576

القياس: 5 .14 × 5 .21

دار سؤال للنشر

لبنان - بيروت

الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس

ص.ب: 58-360-11

هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com

@darsouall2014

dar_souaal@outlook.com

Dar Soual

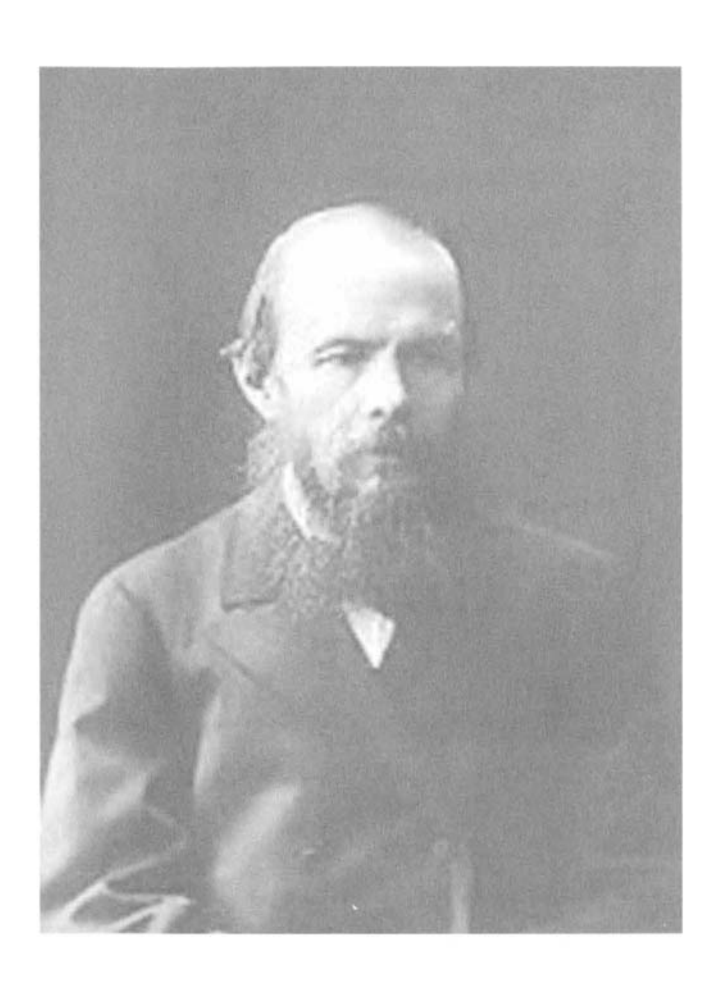
ISBN: 978-614-8020-36-0

تصميم الغلاف: محمد النبهان

زيتية الغلاف للرسام الروسي فاسيلي بيروف (1834-1882)



رابعاً:
ما قبل «الشياطين»
(1872-1871)



100. إلى ألكسندر فرانغيل

بطرسبورغ، 18 فبراير 1866

صديقي الطيب القديم ألكسندر يغوروفيتش، أنا مذنب بحقك لصمتي الطويل، لكنني مذنب من دون جريرة. من الصعب عليَّ الآن أن أصف لك حياتي الراهنة كلها وكل ظروفي لتمكينك بوضوح من فهم جميع أسباب صمتي الطويل. الأسباب معقدة ومتعددة. ولذا لا أصفها لك كلها بل أذكر بعضاً منها. أولا- أنا أعكف على الكتابة كالمحكوم بالأشغال الشاقة، وأعني نفس الرواية لأجل «البشير الروسي»[1]. الرواية مطولة في 6 أجزاء. في أواخر نوفمبر أنجزت الكثير وبات جاهزاً، لكنني أحرقته كله[2]. الآن يمكنني أن أعترف بذلك. لم يعجبني أنا نفسي. فقد أغواني الشكل الجديد والمخطط المستحدث، وها أنا أكتب الرواية من جديد. أعمل ليل نهار. ورغم ذلك عملي قليل. الحسابات تفيد بأنني ينبغي أن أسلم «البشير الروسي» 6 ملازم طباعية كل شهر. وهذا شيء فظيع، قد أكون حققته لو توفرت حرية الروح. الرواية مسألة شاعرية يتطلب أداؤها استقراراً نفسياً وتصورات طليقة، فيما يلاحقني الدائنون مهددين بزجي في غياهب السجن. لحد

الآن لم أسوِّ الأمر معهم، وربما لا أعرف هل أسوّيه أم لا؟ رغم أن الكثيرين منهم عقلاء يتقبلون اقتراحي بتقسيط التسديد لهم على خمسة أعوام. ولكنني لم أتمكن حتى الآن من التفاهم مع بعضهم. ولك أن تفهم مدى قلقي. وهو يثقل على النفس والفؤاد ويعكر المزاج لعدة أيام، بينما أنا مضطر للكتابة. وهي تتعذر أحياناً. ولذا يصعب، واللّه، العثور على لحظة هدوء يمكنني فيها أن أتحدث إلى صديقي القديم. يضاف إلى ذلك مرضي. في البداية، حالما عدت، عذبتني النوبات بشكل فظيع. بدا الأمر وكأن الصرع أراد أن يعوض عن الأشهر الثلاثة التي قضيتها من دونه في الغرب. وإلى ذلك يعذبني التهاب البواسير منذ شهر. ولعلك لا تعرف شيئاً عن هذا المرض ونوباته. فللعام الثالث على التوالي يداهمني شهرين في السنة، فبراير ومارس. وبأي حال: عليَّ أن ألازم الأريكة منبطحاً طوال خمسة عشر يوماً. ولا أستطيع أن أستخدم ريشة الكتابة 15 يوماً. وفي الـ 15 يوماً المتبقية يجب أن أكتب 5 ملازم. وعليَّ أن أرقد صحيح الجسم تماماً، لمجرد أنني لا أستطيع الوقوف والجلوس بسبب التشنجات التي تبدأ حالما أنهض من الأريكة. الآن، ولليوم الثالث، حالتي أهون. عالجني (الدكتور) بيسر. أتصيد لحظات الفراغ لأتحدث إلى الأصدقاء. وكنت متألماً جداً لأنني لم أرد عليك. ليس عليك وحدك، بل لم أرد أيضاً على الآخرين الذين يمتلكون حقاً في فؤادي. عندما ذكرت لك إشكالاتي المزعجة لم أحدثك عن المشاكل العائلية، وعن المشاغل المتواصلة بخصوص أمور المرحوم أخي وأسرته وأمور مجلتنا المتوفاة. لقد أصبحت عصبياً منفعلاً، وفسدت طباعي. ولا أدري إلى أين سيصل بي هذا الوضع. طول الشتاء لم أزر أي مكان، ولم أر أحداً أو شيئاً. ذهبت إلى المسرح مرة واحدة لمشاهدة العرض الأول

(لأوبرا) «روغنيدا»[3]. وسيستمر الحال على هذا المنوال حتى الفراغ من كتابة الرواية، إذا لم يزجوني في سجن الديون.

والآن أرد على كلماتك. كتبت تقول إن الأفضل لي أن أعمل في «خدمة التاج» (أي في دوائر الدولة). لا أعتقد. الأنفع لي أن أعمل حيث يمكن استحصال نقود أكثر. لدي في مضمار الأدب اسم يوفر لي لقمة العيش دوماً، لولا الديون، بل وكذلك لقمة دسمة لذيذة كما كان الحال حتى السنة الأخيرة. بالمناسبة أحدثك عن أشغالي الأدبية الراهنة. وستعرف حقيقة الأمر من هذا الحديث. أرسلت من الخارج، بسبب ضيق الحال، عرضاً إلى كاتكوف بأرخص أجر بالنسبة لي هو 125 روبلاً للملزمة عندهم، ما يعادل 150 روبلاً للملزمة في «المعاصر». فوافقوا. ثم عرفت أنهم وافقوا بسرور، لأنه لم يكن لديهم من الأدب الروائي شيء لهذا العام. تورغينيف لا يكتب[4]. وحصل خلاف بينهم وبين ليف تولستوي[5]. فكان أن جئت أنا لهم بسفينة النجاة. أعرف ذلك من مصادر موثوقة. إلا أنهم كانوا حذرين جداً مني واعتمدوا أساليب السياسة في التعامل معي. فهم من أشد البخلاء. ولذا بدت الرواية في نظرهم ضخمة. فكانوا يخشون الدفع على 25 ملزمة، وربما 30، مبلغ 125 روبلاً للملزمة الواحدة. باختصار، كانت سياستهم تتلخص في تقليل أجر الملزمة،(. . .) بينما تتلخص سياستي في زيادته. وهكذا يجري بيننا صراع صامت. ويبدو أنهم يريدون أن آتي إلى موسكو، لكنني أنتظر، وهدفي هو الآتي: الرواية ستكون رائعة للغاية إن شاء اللّه. وأريد أن يصدر منها ما لا يقل عن ثلاثة أجزاء، أي نصفها، ليكون لها تأثير على الجمهور، وعندها أسافر إلى موسكو وأرى كيف يستطيعون أن يقللوا الأجر؟ لربما، بالعكس، يزيدونه. وسيكون ذلك عند حلول عيد المرافع.

وإلى ذلك سأحاول أن لا آخذ النقود هناك مقدماً. ولذا أبخل على نفسي وأقتر وأعيش في فقر مدقع. فما هو لي سيبقى لي. أما إذا أخذته مقدماً فلن أكون حراً من الناحية الأخلاقية عندما أتحدث معهم نهائياً فيما بعد عن الأجر. قبيل أسبوعين نشر الجزء الأول من روايتي في عدد يناير، الأول، من «البشير الروسي» تحت عنوان «الجريمة والعقاب». وقد سمعت الكثير من الإطراء والإعجاب، فهناك أمور جريئة وجديدة. ويؤسفني أنني لا أستطيع أن أرسله إليكم. هل يعقل أنه لا يوجد عندكم مشترك في «البشير الروسي»؟

والآن اسمع ما يلي: لنفترض أنني سأوفق في إنهاء الرواية بشكل جيد. بالشكل الذي أتمناه. فأنا أحلم ببيعها لأحد الناشرين في طبعة ثانية هذا العام. فأستلم ألفين وربما ثلاثة آلاف إضافية. فهل تعطي الخدمة في دوائر الدولة ريعاً كهذا؟ أكيد أنني سأبيعها في طبعة ثانية. لأن كل مؤلفاتي نشرت بهذه الطريقة. إلا أن المشكلة هي أنني لا أستطيع أن أفسد الرواية. وهذا ما أتوجسه. فإذا سجنوني بسبب الديون فسأفسد الرواية على الأغلب، بل ولا أنهيها، وعندئذٍ ينهار كل شيء.

ها أنا قد كتبت الكثير من الهذر عن نفسي. فلا تعتبر ذلك أنانية مني. إنه يحصل لجميع الذين يقبعون طويلاً في جحورهم صامتين.

تقول إنك وعائلتك استبردتم ومرضتم جميعاً، هذا شيء مؤسف صعب. حياة الخارج ينبغي أن تكافئكم بالصحة على الأقل. فماذا كان سيحصل لك ولعائلتك هذا الشتاء لو كنتم في بطرسبورغ؟ ما حدث عندنا فظيع. وفي الصيف ربما تزورنا الكوليرا. بلّغ زوجتك احتراماتي الصادقة وتمنياتي لها بموفور السعادة، والأهم أن تبدأ بالصحة. صديقي الطيب، أنت، على الأقل، سعيد في أسرتك، بينما

حرمني المصير من هذه السعادة العظيمة، السعادة البشرية الوحيدة. صحيح أنك ملزم بالكثير للعائلة. كتبت لي عن اقتراح والدك ورفضك له. لا يحق لي أن أنصحك بشيء في هذا الخصوص، لأنني في الواقع لا أعرف المشكلة بكاملها. ولكن خذ بنصيحة صديقك في ما يلي: لا تستعجل في القرار، لا تقل كلمتك الأخيرة، واترك البتّ النهائي في المسألة إلى الصيف عندما تعود بنفسك. فهذه القرارات تتخذ لمدى الحياة. إنه انعطاف في الحياة بمجملها. حتى إذا قررت في الصيف أن تواصل الخدمة فلا تقل مع ذلك كلمتك الأخيرة واترك الأمر للملابسات.

في الصيف أظن أني سأكون في بطرسبورغ، وبالتالي سنلتقي. عندها سنتحدث عن الكثير من الأمور. على فكرة، أنا مسرور جداً لأنك مهتم لهذا الحد بحياتنا الروسية الداخلية، الفكرية والمدنية. ويسرني جداً كصديق أنك بهذه الخصال على الرغم من أنني لا أوافقك في جميع الأمور. فلك نظرة استثنائية إلى الكثير منها. هل تغترف المعلومات من الصحف الأجنبية؟ فهي دأبت على تشويه كل ما يتعلق بالشأن الروسي. إلا أن تلك مسألة واسعة. وأعتقد أن من يعيش في الخارج لا بد أن يتأثر بالصحافة الأجنبية. وقد جربت ذلك بنفسي. لكنني أشعر بأني أوافقك في الكثير، بل والكثير جداً.

«الخبر» تصدر من قبل اثنين من الناشرين والمحررين هما سكارياتين ويوماتوف.

وداعاً يا صديقي الطيب، إلى اللقاء. آمل أن أبادلك في رسالة لاحقة أخباراً أكثر مسرة. إن شاء الله. أما الآن فاسلم لصديقك

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: قبّل نيابة عني (بناتك) الجميلات.

حاجياتك المتبقية عندي سالمة ومحفوظة في الخوان. أنا مدين لك يا صديقي. انتظر بعض الوقت، وسأفي بديني. حالياً أنا أستبخل وأقتر. يا ليتك تعلم كم عليَّ أن أنفق هنا من النقود.

لا أعرف الآن ماذا سأفعل بعد أن أنهي الرواية. المهم أن يتجدد اسمي الأدبي آنذاك.

ويمكنني أن أشرع بكتابة شيء ما في الخريف. لدي خطة، لكن التعقل أو الاعتدال ضروري.

وإليك واقعة أخرى: تتزايد بشكل غير مسبوق الاشتراكات في جميع المجلات وتنتعش تجارة الكتب. هذه آخر المعلومات من الناشرين وتجار الكتب، بل ومن معلوماتي أيضاً.

---

(1) «الجريمة والعقاب».

(2) لا أحد يعرف أي الأجزاء من مخطوطة الرواية أحرقها الكاتب.

(3) للملحن ألكسندر سيروف (1820-1871)، والد الرسام الروسي الشهير فالنتين سيروف (1865-1911).

(4) لعل دوستويفسكي يعرف من إحدى رسائل تورغينيف إليه أنه ملَّ من الأدب ولن يكتب فيه بعد الآن.

(5) الخلافات بين تولستوي وكاتكوف تكررت عدة مرات. ولم ينشر تولستوي «الحرب والسلام» في «البشير الروسي».

101. إلى ميخائيل كاتكوف

بطرسبورغ، 25 أبريل 1866

السيد الكريم ميخائيل نيكيفوروفيتش.

أشكرك من صميم القلب على المساعدة التي قدمتها لي بإرسال الـ 1000 روبل، وأعتذر صادقاً لأني تأخرت كثيراً في تقديم الشكر لك. بعثت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» ثلاثة فصول قبل أسبوع. وسأحاول عدم التباطؤ في الإرسال لاحقاً. العمل صعب جداً عليَّ هنا. بسبب التوعك والمشاغل البيتية. لكنني أسابق الزمن على أية حال. وقد تأخر سفري إلى الخارج للظروف الحالية[1]، لأنني لا أزال تحت الرقابة منذ عودتي من المنفى. ثم الحرب في أوروبا[2]. ولذا لا أعرف إطلاقاً أين سأقضي الصيف.

قد لا تصدق بمدى إعجابي «بالوقائع الموسكوبية» حالياً. فقد رأى الجميع وعرفوا أنها كانت دوماً جريدة مستقلة من دون أية توجيهات ومعونات، ومن المهم جداً أن يعرف الجميع ذلك في الأخير. فهي منطلق. ولا مؤاخذة على كلمتي الصريحة. فالجمهور، الجموع على الأقل، كانت حتى الآن واثقة من العكس. ومن حسن

الحظ أن الجميع عرفوا. وما أخس الدور الذي تولاه طفيليونا الذين دأبوا على تلقّي المعونات مهما كانت ومن أية جهة جاءت. (. . .) فعمّن يدافعون؟

أقول بصراحة إنني كنت وسأبقى إلى الأبد، على ما يبدو، من دعاة السلافية الثابتين، ما عدا بعض الخلافات الطفيفة، وبالتالي لا أستطيع أن أوافق «الوقائع الموسكوبية» في نقاط مغايرة. وأنا أدرك تماماً، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر، أنني لن أخيفك كثيراً بهذا الكلام. والغرض من كتابتي هذه أنني أردت من كل بد أن أعبّر لك عن أصدق الامتنان وأعمق الاحترام على الحقيقة وعلى نشاطك الرائع، وخصوصاً في هذه الآونة. ولكي أعبّر عن ذلك، ولا أدري لماذا، خيل إليَّ أنني يجب أن أعرض عليك مسبقاً معتقداتي الحقيقية. وقد يكون ذلك من السذاجة بمكان. ولـمَ لا أكون ساذجاً مرة واحدة على الأقل؟

المراسلات الواردة إلى «الوقائع الموسكوبية» من بطرسبورغ كلها صحيحة. إلا أن الكثيرين جداً هنا يؤمنون بأن القضية ستنتهي إلى العدمية وحدها، فيما يظهر تأثير جذر الشرور بعد عدة سنوات بالطريق التاريخي طبعاً. وقد صادف وسمعت رأياً يقول إن «الوقائع الموسكوبية» قلّما تبدي اهتماماً بالنهلستية، العدمية، وإن مصدر الشرور وبداياته ليست في هذه النزعة، وإن العدميين بحد ذاتهم ليسوا قادرين على كل شيء. وإن علم نفض «أطراف السُفرة الأربعة[3] وصولاً إلى الخشبة النظيفة لممارسة العمل»[4] لا يتعمق إلى الجذور. كل العدميين هم نفس الاشتراكيين. والاشتراكية، وخصوصاً في صيغتها الروسية المحوّرة، تتطلب تحديداً بتر جميع الروابط. فهم واثقون تماماً بأنهم سيبنون الجنة رأساً على «الخشبة النظيفة». وفي

رأي فوريه ما إنْ يتم بناء «قصر الكتائب» حتى يمتلأ العالم بالقصور. هكذا يقول. أما صاحبنا تشيرنيشيفسكي فيؤكد أن ربع ساعة من الكلام مع الشعب تكفيه ليقنعه بتبني الاشتراكية. ولدى فتياتنا وفتياننا الروس المساكين الذين لا حامي لهم نقطة أساسية دائمية ستظل الاشتراكية قائمة عليها لأمد طويل، وأعني التحمس للخير ونقاوة الأفئدة. المحتالون والمفسدون بينهم كثيرون. إلا أن جميع هؤلاء التلاميذ والطلبة الذين رأيتهم بكثرة توجهوا بنزاهة وتفانٍ صوب العدمية من أجل الكرامة والحقيقة والمنفعة الخالصة. فهم عرضة لهذه الترهات ويتقبلونها على أنها هي الكمال بعينه. بديهي أن العلم السليم سيقتلع تلك الترهات من الجذور. ولكن متى؟ وكم من الضحايا ستبتلعهم الاشتراكية حتى ذلك الحين؟ ثم إن العلم السليم، رغم تسارعه، لن يقضي على هذه الشوائب الضارة قريباً، لأن هذا العلم لا يزال مجرد علم وليس نوعاً مباشراً من النشاط المدني والاجتماعي. في حين أن المساكين واثقون بأن العدمية تمكنهم بأكمل صورة من إظهار حريتهم ونشاطهم المدني والاجتماعي.

أخباركم عن النشاطات في أوقات الفراغ صحيحة بالكامل أيضاً[5]. الجميع خائفون وواضح أن بداية هذا الخوف قائمة على الدسائس. فهل تعرف ماذا يقول البعض؟ يقولون إن الرابع من أبريل دلل بالحسابات الرياضية على الوحدة الاستثنائية المقدسة الجبارة بين القيصر والشعب. وفي ظل هذه الوحدة يمكن أن تزداد ثقة بعض المسؤولين الحكوميين بالشعب وبالمجتمع. إلا أن الناس يتوقعون، بفزع الآن، التضييق على حرية الرأي والتعبير. وينتظرون فرض وصاية البلاط. فكيف يمكن مكافحة العدمية من دون حرية التعبير؟ لو تمتع حتى العدميون بحرية الرأي لكان الموقف أنفع. عندذاك سيثيرون

سخرية روسيا كلها بتوضيحاتهم البائسة لإيجابية تعاليمهم. أما الآن فقد ألبسوهم لبوس الغموض، لبوس الألغاز والحكمة والغيبيات. وهذا يستهوي السذج من الناس. ويقول البعض الآخر لَمَ لا نجعل التحقيقات علنية؟ فلربما لا يوجد لديهم في ديوان البلاط شخص يجيد الكلام مع العدميين. أما إذا كانت التحقيقات علنية فالمجتمع كله سيساعد، ولن تبتلع أسرار الديوان حماسة الشعب كما هو الحال الآن. ويرى هذا البعض في ذلك تردد الإجراءات الحكومية وتهيبها والتقيد بالأشكال القديمة. إنهم لا يثقون بالناس، ويخشون ردة فعلهم.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

المعذرة على بعض التصحيحات في الرسالة. لا تعتبر ذلك من قبيل الإهمال. فأنا لا أجيد الكتابة بشكل آخر حتى أثناء تبييض المسودات.

---

(1) يقصد «بالظروف الحالية» تشديد الرقابة بعد محاولة اغتيال القيصر ألكسندر الثاني.

(2) كانت الحرب بين النمسا وبروسيا على الأبواب.

(3) في الأصل بالفرنسية.

(4) باللاتينية.

(5) يرى بعض النقاد أن موافقة دوستويفسكي على آراء كاتكوف المناوئة للفعاليات الاجتماعية ليست صادقة تماماً.

102. إلى آنّا كورفين- كروكوفسكايا

موسكو، 17 يونيو 1866

آنّا فاسيليفنا المحترمة

لا تزعلي مني لأنني لم أجب كل هذه الفترة. كنت متردداً طول هذا الوقت ولا أعرف كيف سيكون حالي في الصيف. لم أرد على رسالتك لأنني فكرت أن أراك قريباً في طريقي إلى الخارج. إلا أن الأعمال باتت تحول دون سفري، الآن على الأقل، رغم حصولي على التأشيرة. ينبغي أن أنهي شغلة[1] في موسكو من كل بد. باختصار، لم أتمكن أن أكتب لك شيئاً واضحاً ودقيقاً، ولذا لم أرد. أنا في موسكو منذ أربعة أيام، ولا أعرف إطلاقاً متى أتفرغ. والأهم أن لدي الآن، فضلاً عن إنهاء الرواية التي مللت منها، أشغالاً كثيرة تجعلني لا أفهم كيف سأكملها. وهي أمور هامة بالنسبة لي، وعليها يتوقف مستقبلي. تصوري، والحال هذه، ما حصل لي من حادثة لافتة ومميزة. في العام الماضي كانت أحوالي المالية متدهورة لدرجة اضطررت معها إلى بيع حقوق إصدار كل ما كتبته قبل ذلك في طبعة واحدة فقط إلى أحد المضاربين، وهو ستيلوفسكي، الإنسان السيّئ

الصيت والناشر الذي لا يفقه شيئاً في مهنته. إلا أن العقد بيننا تضمن فقرة تنص على التزامي بكتابة رواية له لا تقل عن 12 ملزمة طباعية، وإذا لم أسلمها في الأول من نوفمبر 1866، كموعد أخير، يحق له، هو ستيلوفسكي، أن يصدر كما يحلو له طوال تسعة أعوام كل ما أكتبه في هذه الفترة من دون أي مكافأة. باختصار، هذه الفقرة في العقد تشبه تماماً فقرات عقود الإيجار في بطرسبورغ، حيث يطالب صاحب البيت نزيله بدفع تكاليف الإطفاء والأضرار إذا حصل حريق في البيت، بل ويبنيه من جديد إذا اقتضى الأمر. الجميع يوقّعون ضاحكين عقوداً من هذا النوع. على هذه الشاكلة وقّعت أنا العقد مع الناشر. الأول من نوفمبر يحل بعد أربعة أشهر، كنت أفكر في أني سأتخلص من ستيلوفسكي بدفع غرامة نقدية. لكنه يرفض. طلبت منه تأجيلاً لثلاثة أشهر، فرفض، وقال لي بصراحة: بما أنه على يقين بأنني لن أتمكن أبداً من كتابة رواية في 12 ملزمة، لا سيما وأنني لم أؤلف لأجل «البشير الروسي» سوى نصف المطلوب، فالأنفع له رفض التأجيل والغرامة، لأن كل ما سأكتبه فيما بعد يغدو ملكاً له.

أنا أريد أن أقوم بشيء غير مسبوق وغير مألوف. أريد أن أكتب 30 ملزمة طباعية في 4 أشهر ضمن روايتين مختلفتين، إحداهما أؤلفها صباحاً والأخرى مساءً. وأنهيهما في الموعد[2]. هل تعلمين، يا عزيزتي الطيبة آنّا فاسيليفنا، أن مثل هذه الحوادث الطارئة وغير المألوفة لا تزال تعجبني حتى الآن. أنا لا أصلح لأن أكون من البشر الذين يعيشون برصانة ورزانة. لا مؤاخذة على هذا التباهي. ولكن ماذا بقي لي غير التباهي؟ ما بقي لا يثير الاهتمام أبداً. فكيف يبدو الأدب والحال هذه؟ أنا واثق بأنه ما من أحد من أدبائنا السابقين والحاليين كتب في ظروف تشبه الظروف التي أكتب فيها دوماً.

تورغينيف كان سيموت بفعل فكرة واحدة. ويا ليتك تعرفين مدى الألم الذي يخلفه إتلاف الفكرة التي يتمخض عنها الذهن وتثير الحماسة في النفس، الفكرة التي يعرف الشخص أنها جيدة لكنه مضطر إلى إتلافها عمداً. أنت تريدين السفر إلى بافلوفسك. اكتبي لي متى تسافرين تحديداً. فأنا أود جداً أن أحل ضيفاً عليكم في (ضيعة) باليبينو. ولكن هل أستطيع أن أعمل هناك كما تعودت؟ هذه مسألة هامة بالنسبة لي. ثم ليس لائقاً من جانبي أن آتي إليكم وأنشغل في الكتابة طول الوقت.

اكتبي لي عن كل شيء. ولا تتركيني رجاءً.

تحياتي لكم جميعاً. وإلى اللقاء.

المخلص فيودور دوستويفسكي

إذا أجبتني الآن إليك عنواني: في موسكو إلى ألكسندر بافلوفيتش إيفانوف في معهد قسطنطينوفسكي للمساحة على شارع ستارايا باسمانيا، جنب القديس نيكيتا، ليد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

معذرة على الشطب والتصحيح في الرسالة، فلا تعتبريهما من الإهمال.

---

(1) المقصود الخلاف الشديد الذي حصل بين دوستويفسكي وهيئة تحرير «البشير الروسي» في صيف تلك السنة.

(2) خلال عام 1866 أنهى دوستويفسكي «الجريمة والعقاب» وكتب «المقامر» وسلمها إلى الناشر ستيلوفسكي بموجب العقد غير المألوف.

103. إلى نيكولاي لوبيموف

لوبلينو (موسكو) 8 يوليو 1866

تأخرت عليك، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم، ليوم واحد، لكنني عدلت (النص)، فبات في اعتقادي مقبولاً[1].

الخير والشر منفصلان تماماً، ولم يعد بالإمكان أبداً الخلط بينهما وتأويلهما بالمقلوب. وبالقدر نفسه عالجت باقي التصحيحات التي أشرتَ إليها، بل وأكثر، على ما أظن. وإلى ذلك أعبّر لك عن شكري على توفيرك الفرصة لي لأعيد النظر مرة أخرى في المخطوطة قبل الطبع. وأقول جازماً إنني ما كنت سأتركها من دون تصحيحات.

والآن عندي إليك رجاء كبير: اترك الباقي على حاله الراهن، لوجه المسيح. كل ما تحدثتَ عنه نفذته. كل شيء محدد منفصل وواضح. تلاوة الإنجيل اتخذت تلويناً آخر. باختصار: اسمح لي أن أعتمد عليك يا نيكولاي ألكسييفيتش الطيب، حافظ على روايتي المسكينة.



نيكولاي لوبيموف

سأوافيكم بالفصل الرابع في أسرع وقت، ولكن ليس قبل يوم الأربعاء. أو ربما الثلاثاء.

المخلص ف. دوستويفسكي.

(1) نيكولاي لوبيموف المحرر التنفيذي لمجلة «البشير الروسي». في هذه االرسالة صدى للخلاف بين دوستويفسكي والمجلة بشأن «الجريمة والعقاب».

104. إلى ألكسندر ميلوكوف

لوبلينو، 10 - 15 يوليو 1866

الصديق العزيز ألكسندر بيتروفيتش المحترم. مر أكثر من شهر على مغادرتي بافلوفسك حيث بقيت أنت هناك. والآن فقط تهيأت للكتابة إليك على الرغم من تفكيري المتواصل في ذلك. أنا لن أتحجج بالأشغال والهموم. كل ما في الأمر أنني غارق دوماً بتلك الهموم، ولذا أرجأت الكتابة رغم توفر الوقت، إلى أن نكون أكثر تفرغاً من الناحية الأخلاقية.

ولكن يكفينا الاعتذار. فهو لا يسوّي الأمور أبداً. والأفضل أن ندخل رأساً في صلب الموضوع. أقول عن نفسي إنني أقمت في موسكو بادئ ذي بدء في (فندق) ديوسو(. . .) وأمضيت أسبوعاً أتناول طعام الغداء في «المقصف الموسكوبي» (لصاحبه بيتشكين) وأتجول يومياً في حديقة الكرملين وأحتسي شراب الكفاس في مقهى «سوندوشني». إلا أن الحر الذي لا يطاق والجو الخانق، والأدهى من ذلك رياح السموم مع سحب الغبار الصخري الأبيض المتراكم من عهد يوحنا كاليتا[1]، من حيث الكم على الأقل- كل ذلك أرغمني

على الفرار من هذه المدينة. فلم يكن العمل هناك ممكناً على الإطلاق. كانت غرفتي في الفندق، رغم جودتها، أشبه بالفرن الروسي عندما ينظفون وجاقه ويدسون في باطنه العجين. ولن يجدي نفعاً شراب الكفاس أو (عصير) الكرز والكمثرى. فعزمت على الفرار. وإلى ذلك شعرت بكآبة قاتلة. فما عدا فيليبوف لم يكن في المدينة أحد أعرفه. الجميع في منازلهم الصيفية. ذهبت إلى بليشييف، ولم أجده في البيت، فهو يقيم في الريف. عائلة أكساكوف غير موجودة، وكذلك يانوفسكي. لا أحد إطلاقاً. أقربائي يقيمون جميعاً في البيت الصيفي (بضاحية) لوبلينو (. . .) على مسافة 8 فراسخ من موسكو[2]. الذهاب إليهم مكلف من حيث الوقت والنقود، على الرغم من أنه بات ضرورة أخلاقية بسبب وحدتي. فكرت طويلاً حتى قررت أن أنتقل بنفسي إلى منزل ريفي في لوبلينو كان فارغاً بالصدفة في أواخر يونيو. وقد استأجرته بنصف الثمن المعتاد لمعرفتي بأصحابه.

وتطلب ذلك نفقات كبيرة: كنت مضطراً لشراء سماور وأكواب ودلة للقهوة، بل وحتى بطانية. كما استأجرت أثاثاً، وسددت قسماً من الإيجار، واستدعيت بافل تخلصاً من الكوليرا (في بطرسبورغ)، وما إلى ذلك. عموماً كل التنقلات كالتي أقوم بها من بطرسبورغ إلى موسكو، رغم فائدتها من الناحية الصحية وتوفير الاستقرار النفساني بالنسبة لي، إنما تتطلب دوماً نفقات مادية هائلة ووقتاً طويلاً. وهكذا ورغم استقراري نهائياً أكثر من أسبوعين في لوبلينو التي هي من أروع الأماكن في العالم، وفي وسط اجتماعي مريح للغاية، إلا أنني لم أنجز الكثير عموماً، ولا أزال أفكر في بدء العمل فعلاً مع أنني كنت منشغلاً جداً فيه خلال الأسبوعين المنصرمين. والفرصة متوفرة

لمضاعفة العمل مرتين تقريباً. وأنا أحتفظ بقواي للفترة الأخيرة، أي لشهر أغسطس.

كاتكوف في المنزل الريفي بمنطقة بستان بتروفسكي، وكذلك لوبيموف، المحرر التنفيذي «للبشير الروسي». ولا تجد في هيئة التحرير سوى السكرتير الذي يقتله الملل ولن تعرف منه شيئاً. إلا أنني وجدت لوبيموف على أية حال في الأيام الأولى. كانت عنده ثلاثة فصول لي في طور التنضيد. واقترحت عليه أن أكتب الفصل الرابع بسرعة، في أربع ملازم، حتى يكتمل نصف نهاية الجزء الثاني من الرواية، ويبقى للعدد التالي من المجلة 4 فصول، أي النهاية الكاملة لذلك الجزء. إلا أن لوبيموف قال لي منذ الكلمات الأولى: «كنت أنتظرك لأخبرك بأننا في يونيو ويوليو ينبغي أن ننشر القليل، بل وينبغي أن نفوت شهراً، فتلك أشهر الصيف، والأفضل أن نرتب الأمر بحيث ننشر النصف الثاني من الرواية بكامله في فصل الخريف، لتأتي السطور الأخيرة في ديسمبر[3]، لأن تأثيرها سيساعد على تفعيل الاشتراكات السنوية.» ولهذا الغرض تقرر تفويت شهر آخر. وهكذا تنشر الفصول الأربعة، بأربع ملازم، في العدد الذي يصدر في يوليو، وقد سلمت إلى التنضيد.

إلا أن حسابات لوبيموف، كما اتضح فيما بعد، تنطوي على فكرة أخرى، غادرة تماماً بالنسبة لي. وهي أن أحد هذه الفصول الأربعة التي سلمتها لا ينبغي أن ينشر. هذا ما قرره لوبيموف ووافق عليه كاتكوف. وقد تجادلت معهما مصراً على رأيي. ليس لدي شك في جودة الفصل المذكور. فقد كتبته في حالة من الإلهام الحقيقي. وحتى لو كان رديئاً، إلا أن المسألة بالنسبة لهم ليست في المزايا الأدبية، بل في المخاوف على الأخلاق. وكنت محقاً من هذه الناحية. فليس في

الفصل ما يتعارض مع الأخلاق، بل هو على العكس تماماً، بيد أن لهما رؤية أخرى. وإلى ذلك يريان فيه أثراً للعدمية. ولذا أعلن لوبيموف بحزم عن ضرورة إعادة كتابة هذا الفصل. أخذته وصرفت على إعادة كتابته، وهو فصل كبير، وقتاً كالذي أحتاج إليه لكتابة 3 فصول أخرى، في أقل تقدير، إذا أخذنا في الاعتبار المجهود والاكتئاب الملازم لي، لكنني صححته وسلمته. والمشكلة أنني لم أرَ لوبيموف بعد ذلك. ولا أدري هل يرضيهما التعديل، وهل سيعدلان الفصل أكثر؟ كما حصل الشيء ذاته مع فصل آخر من هذه الفصول الأربعة، حيث قال لي لوبيموف إنه اختصره في مواضع كثيرة. وأنا لست مهتماً جداً بهذه المسألة، لأن الاختصار شمل أموراً ليست ذات شأن.

ولا أدري ماذا سيحصل لاحقاً. إلا أنني قلق جداً لتقاطع الآراء مع هيئة التحرير في سياق نشر الرواية.

أنا لم أشرع بتأليف رواية (للناشر) ستيلوفسكي، ولكنني سأبدأ بها.[4] فقد وضعت خطة رواية مقبولة، تتضمن مؤشرات على طباع قوية. إلا أن ستيلوفسكي يلاحقنى لحد الأذى، حتى صرت أراه في المنام.

عموماً أكتب لك بصورة سطحية وباستعجال، مع كثرة ما كتبت. باللّه عليك أجبني. اكتبْ لي عن حياتك ومزاجك وصحتك. واكتبْ لي عن أهلنا في بافلوفسك.[5] ثم هل سمعت شيئاً؟ احتراماتي الصادقة إلى لودميلا ألكساندروفنا، ذكّر أولادك بي. وبلّغ تحياتي إلى معارفنا. إلى اللقاء يا صديقي الطيب، أعانقك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

لم تحصل لي نوبات صرع بعد. أنا أشرب الفودكا.[6]
ما أخبار الكوليرا؟

---

(1) في عهد الأمير إيفان الأول كاليتا (1283-1340) شيدت أغلب كنائس موسكو من الحجر الأبيض المتوفر بكثرة في ضواحي المدينة.
(2) لوبلينو حالياً من حارات العاصمة الروسية.
(3) بالفعل فرغت «البشير الروسي» من نشر «الجريمة والعقاب» في ديسمبر 1866.
(4) المقصود رواية «المقامر».
(5) يقصد إميليا دوستويفسكايا وأولادها.
(6) يُقبِل الناس في روسيا على الفودكا في زمن الكوليرا.



105. إلى ميخائيل كاتكوف

لوبلينو، 19 يوليو 1866

ميخائيل نيكيفوروفيتش المحترم

راجعت البروفة[1] وأعدت كلمتين أو ثلاثاً لم تكن واضحة في المخطوطة. وفيما يخص الشطب والتعديلات التي أجريتموها فإن بعضها، كما هو واضح الآن، ضروري بالطبع. إلا أن بعض مواضع الشطب في الأخير تحز في نفسي. على أية حال، فليكن كما تشاؤون. أنا أثق بك تماماً كمحكم أدبي. لا سيما وأن لدي خاصية غريبة حيث أفقد القدرة على انتقاد ما أكتب، لبعض الوقت على الأقل. ولكن بودّي أن أطلب منكم أن تعيدوا ما شطبتموه في الصفحة 786. وقد علّمت هذا الموضع بالقلم الرصاص. فمن الواضح للقارئ أن البطل عندما يقول إنه سعيد فذلك بالطبع ليس لأنه يتباهى بتصرفاته. على أية حال إذا كنتم لا تستطيعون إعادة المشطوب فليكن. لا حيلة في الأمر.

وتقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: أنا آسف ليس على جميع مواضع الشطب في الأخير. بعضها أدى بالفعل إلى تحسين النص. أنا أتحسس بألم كبير من عشرين عاماً، وأرى بأوضح من الجميع، العيب الأدبي عندي وهو الإسهاب. لا أستطيع التخلص منه بأية حال.

---

(1) الحديث عن «الجريمة والعقاب».



106. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 2 نوفمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسيفيتش المحترم

في 31 أكتوبر أنهيت رواية بـ 10 ملازم وسلمتها أمس بموجب عقد مع ستيلوفسكي. وقد أخبرتك بالعقد، كما أخبرت ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف) عندما طلبت منه تسهيلاً لمدة شهر. هذه الملازم الطباعية العشر بدأتها وأنهيتها في شهر واحد. والآن أعكف على خاتمة «الجريمة والعقاب». سأعمل بلا كلل وأنوي أن أنتهي حتماً في 20 ديسمبر وأسلم، على الأقل، ما ليس أسوأ مما نشر.

يمكنني طبعاً أن أبدأ بإرسال الرواية قريباً، ولكن ليس قبل 15 نوفمبر فصلاً فصلاً، ولذا يمكن أن تظهر عدة فصول في عدد «البشير الروسي» العاشر القادم. أنا مسؤول عما أقول. ولكن، أليس من الأفضل، يا نيكولاي أليكسييفيتش الموقر، أن ينشر الجزء الثالث من الرواية بكامله في العددين 11 و12، بمعنى عدم نشر شيء في العدد العاشر، إن أمكن، وإعلام الجمهور بالمناسبة أن المجلة ستفرغ حتماً من نشر «الجريمة والعقاب» في العددين القادمين، أي هذا العام؟

إذا تم الأمر على هذا النحو ستكون خاتمة الرواية أكثر تأثيراً في اعتقادي. وأنا شخصياً أرغب في ذلك.

إلا أن القرار، بالمناسبة، متروك لهيئة التحرير. ولذا أرجوك كل الرجاء، يا نيكولاي ألكسييفيتش، إبلاغي بقرار هيئة التحرير. لأنني لن أضيع دقيقة واحدة هنا، وسأكون مستعداً لقبول أي قرار تتخذونه.

ولدي رجاء ملحّ آخر. في الحال الحاضر أنفقت كل نقودي. صرفت ثلاثة أرباع المبلغ الذي استلمته من هيئة التحرير على تسديد مستحقات الدائنين. ومع ذلك لا يزالون يلاحقونني. ثم إنني لا أملك ما أعتاش عليه. فأرجوك أن تعرض حالي على ميخائيل نيكيفوروفيتش وتنقل إليه رجائي الملحّ. أليس بإمكانه أن يساعدني مرة أخرى؟ حالياً أنا بحاجة إلى 500، خمسمئة روبل. ووفقاً لحساباتي يبلغ ديني لهيئة التحرير الآن 600، ستمئة روبل. فكن على ثقة وبلّغ ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر بأنني لم أتجرأ على إقلاقه مرة أخرى إلا بعد أن استنفدت كل السبل وأنفقت آخر روبل. ويشهد اللّه أن ذلك محرج جداً بالنسبة لي، لا سيما وأنني استفدت مراراً من تسهيلات هيئة التحرير.

قال لي ألكسندر فيودوروفيتش بازونوف الذي ذكرتُ أمامه بالصدفة أنني أنوي الكتابة إليك إنه مستعد لتسليمي نصف المبلغ المذكور، أي 250 روبلاً، بتحويل من هيئة التحرير.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع

فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: أنا أستأجر الآن كاتبة اختزال[1]. ومع أنني كالسابق أراجع ما أمليه عليها وأعدله ثلاث مرات فإن الاختزال يكاد يقلص جهودي إلى النصف. بهذا الأسلوب وحده تمكنت أن أنهي، في شهر واحد، 10 ملازم طباعية لأجل ستيلوفسكي، وإلا لما استطعت أن أكتب حتى خمس ملازم.

---

(1) المقصود آنّا غريغوريفنا سنيتكينا التي تزوجها دوستويفسكي بعد أشهر..



107. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 16 نوفمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسييفيتش المحترم.

أحيطكم بامتنان أنني استلمت ببالغ الارتياح رسالتيك المفعمتين بالثناء الذي يجعلني أتقيد بالالتزامات. كنت قد كتبت لك آنذاك للمرة الثانية لأنني، بعد رسالتي الأولى التي تضمنت رجائي (الشخصي)، استلمت من هيئة التحرير استفساراً بشأن موافاتكم بالرواية.

أنا أعمل بلا كلل، وسأوافيكم بالمادة، بناءً على أمركم، كلما كانت جاهزة.

ولا يسعني إلا أن أكتب لك عن أحد الأخبار الأدبية حتى ولو اعتبرتني نمّاماً. مايكوف ألّف مسرحية درامية شعرية في ملزمة طباعية ونصف أو يزيد. ويمكن توصيفها من دون تردد تحفة بين كل ما كتب. عنوانها «الجوال». شخوصها ثلاثة. ثلاثتهم منشقون فارون (من وجه العدالة). ولأول مرة يغترف الشعر عندنا من مواضيع الانشقاق. هذا من المستجدات المؤثرة جداً والتي تدلل على قوة الشعر الفائقة. وقد أصغيت إلى المسرحية أكثر من مرة بمختلف التلاوات في المنازل.

وكل مرة أجد فيها جوانب من المستحدث الجديد. الجميع معجبون بها. وسيتلوها مايكوف هنا في يوبيل كارامزين الذي ينظمه الصندوق الأدبي. دراسة معيشة المنشقين وحقيقة تعاليمهم عميقة وثرية. وفيها الكثير من الجدة. قال لي شخصياً إنه سيسافر هذا الأسبوع إلى موسكو ليعرض المسرحية على هيئة تحرير «البشير الروسي». ولا يريد أن يسلمها لغيرها. على أية حال هذا مكسب ثمين لشعرنا.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع فيودور دوستويفسكي



108. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 9 ديسمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

استبردتُ ولازمت السرير يومين وتأخرت من جديد. لكني أسارع في إرسال الفصل الخامس وأخشى أن يكون تأخري المتواصل سبباً لخروجك عن طورك في الأخير. حجم الفصل الخامس ما بين 50 إلى 63 صفحة. والفصل السادس قصير وهو ختامي لعدد نوفمبر، وجاهز تقريباً، ما عدا بعض الاستنساخ والتعديل. يمكن أن يكون جاهزاً نهائياً في يومين إذا لم يكن هناك عائق ما. وسأحاول جهدي أن أرسله لكم عاجلاً. على أية حال أحيطكم بأنه إذا لم تكونوا قادرين على الانتظار أكثر، وأنا آمل بأنكم لن تصدروا عدد نوفمبر قبل العيد، فإن الفصل الخامس، الذي أوافيكم به، يمكن أن يغدو ختامياً في عدد نوفمبر، لأن هذا الفصل ينتهي بموضع مؤثر جداً. اعذرني، لوجه المسيح، على هذه الملاحظات ولا تعتبرها بأية حال رغبة من جانبي للتدخل في تعليماتك. أنا أكتب ذلك تفادياً لسوء المصادفات وسعياً مني لتصحيح هفواتي وأخطائي.

ومع ذلك سأبذل قصارى الجهود لإرسال الفصل السادس بأسرع ما يمكن. وهو من حيث جوهره يختتم قسماً ويشكل على وجه التقريب ضرورة للفصول الخمسة الأولى.

أما الفصول الباقية لعدد ديسمبر، وهي خاتمة الرواية، فسأوافيكم بها متى ما كانت جاهزة. أنا مستعجل، ولكني لن أتلفها بالاستعجال مهما كلف الثمن، على قدر المستطاع طبعاً. إلا أن ما يثير دهشتي أن فصول ديسمبر لن تكون كثيرة. إنها أربعة فقط، في كل منها ما بين 3 و4 ملازم. وبذلك تكتمل الرواية[1]. كنت أعتقد وآمل في السابق أن يكون الحجم أكبر. إلا أن الضرورة تقتضي تحريك الحدث بسرعة كيلا يتبدد التأثير النهائي للرواية بسبب الإطناب في السرد. وإذا وهبني اللّه الصحة فلعلي أؤدي كل ما وعدت به في المرة الأخيرة، على اعتبار أن عدد ديسمبر سيصدر في منتصف يناير، كما هو الحال في الأعوام السابقة. وعلى أية حال سأسرع لأوافيكم بالفصول باطراد. أكتب إليكم وأنا لا أزال ضعيفاً بسبب المرض، أستخدم الأدوية ولا أخرج إلى الشارع.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع فيودور دوستويفسكي

هل تأخر وصول الفصول الأربعة السابقة؟ البريد أحياناً لا يعمل بانتظام إطلاقاً.

---

(1) تضمّن عدد ديسمبر 1866 من «البشير الروسي» الفصلين الأخيرين من «الجريمة والعقاب» بالإضافة إلى الخاتمة المكونة من جزءين.

109. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 13 ديسمبر 1866

السيد نيكولاي ألكسييفيتش المحترم.

يتعين عليَّ أن أعتذر منك مرة أخرى لأنني أشغلك برسائلي طول الوقت.

اليوم الـ 13 من ديسمبر أبعث إليك من خلال بازونوف فصلاً آخر، هو الفصل السادس، الذي كتبت لك كثيراً عنه في رسالتي الأخيرة منذ وقت غير بعيد. إلا أن ما يجعلني أزعجك مرة ثانية بآرائي هو التالي:

بعد الفصل السادس، كما يتجلى أمام أنظاري الآن العمل اللاحق لإنهاء الرواية، وقد شرعت بذلك العمل، أرى بوضوح أن النهاية ستكون أقصر مما كنت أتوقع. هذا ما حصل وهو أفضل وأشد وقعاً من الناحية الأدبية. وبالتالي يمكن أن يقع من حصة عدد ديسمبر القليل جداً، بما في ذلك الفصل الختامي أو الخاتمة، ما يقارب ثلاث ملازم. وفي هذه الحالة أليس من الأفضل تأجيل الفصل السادس الذي أوافيكم به حتى عدد ديسمبر؟ هذا الفصل بالطبع

سيختتم بشكل أكمل ما ينشر في عدد نوفمبر، إلا أنه من ناحية أخرى لن يضر كثيراً فيما لو أرجئ إلى ديسمبر للاعتبارات الآنفة الذكر. على أية حال الرأي لك. والقرار بيدك.

الفصول التالية ستأتيكم تباعاً. وآمل تماماً أن أنتهي وأبعث لكم مخطوطة الرواية كاملة قبيل أعياد الميلاد.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع فيودور دوستويفسكي



110. إلى آنّا سنيتكينا

موسكو، 2 يناير 1867

أمس استلمتُ رسالتك الغالية يا صديقتي آنّا العزيزة دائماً وأبداً. وكنت في غاية الفرح والسرور. ولعلكِ أنت أيضاً استلمت رسالتي في اليوم نفسه الذي بعثتِ فيه رسالتك إليّ، أو في اليوم التالي. وأسارع الآن لأطلعك على سير الأعمال، وهي الأهم. تمكنت من حل قضيتي، أي البدء بها، بأسرع مما كنت أظن. وهي الآن محلولة تقريباً في أهم جوانبها. كنت أفكر أن أبدأ من خلال لوبيموف، محرر «البشير الروسي». فذهبت إليه في اليوم الثاني من وصولي، ومن حسن الحظ أنني لم أجده في البيت. فتوجهت إلى هيئة تحرير المجلة، ومن حسن الحظ أيضاً دخلت على كاتكوف الذي لم أكن أفكر بادئ ذي بدء في الذهاب إليه الآن، حيث قررت الاستعانة بلوبيموف أولاً. كان كاتكوف مشغولاً جداً. فأمضيت عنده في الانتظار 10 دقائق بعد أن استقبلني بكل بشاشة وترحاب. ثم نهضت بعد تلك الدقائق العشر وقلت له، وأنا أراه مشغولاً جداً، إن لدي مسألة شخصية، وطالما هو مشغول لهذا الحد فأرجو منه أن يحدد لي موعداً، متى أستطيع أن

أراجعه لعرض جوهر المسألة؟ فطلب مني على غير المتوقع وبإصرار أن أطرح الموضوع الآن. فأوضحت له القضية في ثلاث دقائق، وبدأت بأنني مقبل على الزواج. هنأني بود صادق. فبادرته: «في هذه الحال أقول لك صراحة إن سعادتي كلها تتوقف عليك. إذا كنت بحاجة إلى التعاون معي، - وعلق قائلاً: «وتسألني؟! كيف لا؟»-، سلمني إذن 2000 مقدماً». وعرضت عليه التفاصيل. وختمت كلامي بالقول إن الأدباء دوماً يتقاضون الأجر مقدماً. ولكنْ طالما المبلغ كبير ولا أحد يعطي مثله مقدماً فكل شيء يتوقف على حسن نيتك. فرد قائلاً: «سأتشاور مع ليونتيف، ولا أدري هل لدينا مبلغ طليق كهذا؟ تفضل إليَّ بعد يومين، وسأحاول جهدي». وبعد يومين أبلغني بالقرار النهائي: 1000 روبل الآن والألف الثانية تؤجل لشهرين. فتقبلت العرض وشكرته.

والآن، يا آنّا الغالية، القضية كالآتي: مصيرنا تقرر. النقود متوفرة. وسنعقد القران بأسرع ما يمكن. إلا أن هناك صعوبة فظيعة. فالألف الثانية أُرجئت إلى أمد طويل، في حين أننا بحاجة الآن إلى ألفين بالتمام والكمال. وقد حسبنا الاحتياجات إذا كنت تتذكرين. فكيف تحل هذه المعضلة؟ لا أدري بعد. ومع ذلك، ومهما يكن من أمر، يمكن تنظيم زفافنا.

والحمد للّه، والشكر له وحده. أعانقك وأقبلك مئة مرة دفعة واحدة.

ثم أنا أعتقد بأنني سأستلم مبلغاً بعد أيام، ربما غداً أو بعد غد، إما نقداً أو بحوالة. لكن الأعياد هي العائق. وفي الحال أتوجه إليك في بطرسبورغ. فأنا في أشد الحزن من دونك، مع أن الجميع هنا يحبونني كثيراً. ولعلي أقول إنني سأكون في بطرسبورغ في السادس أو

السابع من الشهر الحالي. لا أقول ذلك بيقين تام لأن استلام النقود يتوقف عليهم. والإحتمال الوارد بنسبة 90% أنني في 6 أو 7 من الشهر سأعانقك وأقبّلك، أقبّل يديك الرقيقتين وقدميك اللتين لا تسمحين لي بتقبيلهما. وعندها تحل المرحلة الثالثة من حياتنا.

والآن إليك بضع كلمات عن الحياة هنا. آه يا آنّا، ما أشد كرهي للرسائل. كنت أبغضها دوماً فماذا يمكن أن نكتب فيها عن الأمور؟ لذا أكتب لك وقائع جافة وعارية لا غير. أولاً: سبق أن كتبت لك أن سونيا مسرورة لما بعثتِه لها، ولم أنس تبليغها بسلامك. وهي تحبك كثيراً. فمن خلال أحاديثي باتت تعرفك جزئياً، وأعجبها الكثير من أحاديثي عنك. في اليوم التالي بعد جواب كاتكوف أخبرت أختي فكانت مسرورة جداً. وأخبرت ألكسندر بافلوفيتيش في اليوم الثالث. فهنأني وأبدى ملاحظة أصيلة سأخبرك بها فيما بعد. ثم حل وقت بهيج تماماً. واستقبلنا رأس السنة بفرح ومرح للعائلة كلها. وكانت حاضرة يلينا بافلوفنا، وكذلك ماريا سيرغييفنا المنكتة المدهشة. وفي تمام الثانية عشرة نهض ألكسندر بافلوفيتش ورفع نخب الشامبانيا على شرف (العريسين) فيودور ميخائيلوفيتش وآنّا غريغوريفنا. وقد دهشت ماشا ويوليا لأنهما ما كانتا تعرفان (بنبأ خطوبتنا). باختصار، الجميع مسرورون ويهنئوننا.

لم أر حتى الآن إلا القليلين. رأيت يانوفسكي، وهو من أصدقائي، وأكساكوف المشغول جداً. مايكوف عندما كان في موسكو قال ليانوفسكي عنك إنه «رآك ولذا يتوقع السعادة التامة لفيودور ميخائلوفيتش» (أي لي). وقد سررت جداً لقول مايكوف هذا. كما تساءل يانوفسكي عنك كثيراً، وهو أيضاً مسرور جداً ويهنئنا.

تحدث معي أكساكوف عن التعاون[1].



آنّا غريغوريفنا

تصوري، لم يتسع لي الوقت حتى الآن لمراجعة الفصلين الأخيرين. وقد صدر هنا عدد نوفمبر.

يوم أمس، في عيد رأس السنة، دعت يلينا بافلوفنا الجميع لحضور أمسية عندها. وأخذوا يلعبون الميسر. وفجأة قدموا إلى ألكسندر بافلوفيتش رسالة جلبها الساعي إلى شقة يلينا بافلوفنا من معهد المساحة، وهو بدوره قدمها إليّ. فسأل بعض الحاضرين: ممن الرسالة؟ وأجبت: من ميلوكوف. ونهضت منصرفاً لأقرأها. كانت الرسالة منك. فرحت لها كثيراً، بل وانفعلتُ. وعدت إلى المائدة مسروراً، وقلت إن أخبار ميلوكوف ليست سارة. وبعد ربع ساعة شعرت بمقدمات الصرع. خرجت من الغرفة وبللت رأسي ولففته بمنشف رطب. وارتبك الحاضرون. وهدأت حالي، فاستدعيت سونيا وبلّغتها تحياتك. وفيما بعد، عندما عدت إلى المنزل، قرأت رسالتك كاملة على سونيا وماشا. لا تزعلي يا عزيزتي، فهما شاهدتان على مدى حبي لك، وقد لاحظتا كم أنا سعيد لأنني أحبك بلا حدود.

يلينا بافلوفنا تقبلت الأمر بتسامح، لكنها قالت: «يسرني أنني لم أنزل عند رغبتك في الصيف ولم أعدك بشيء، وإلا سأكون قد هلكت». أنا مسرور جداً لموقفها هذا، ولا يقلقني الآن شيء من هذه الناحية.

غداً سأبذل جهدي لاستلام النقود فوراً وعاجلاً. وأنا أتشوق لرؤيتك أكثر فأكثر كل يوم وكل ساعة. بلّغي بافل تشكراتي له لأنه جاءك في الحال. أعانقك وأقبّلك بلا حصر. عندما أكتب هذه الكلمات أتألم كثيراً لأنها على ورق الرسالة فقط. فما أشد رغبتي في عناقك. وداعاً يا صديقتي العزيزة آنّا، كوني مرحة وأحبيني. أتمنى لك السعادة، انتظريني، الجميع يبلغونك تحياتهم.

أظن أنني لن أكتب لك أكثر، إلا إذا حصل ما يستحق الكتابة. تحياتي لوالدتك.

أقبّلك من جديد، ولا أملّ من القبل.

المخلص زوجك السعيد
ف. دوستويفسكي

يستحيل أن لا يكون الرجل سعيداً مع مثل هذه الزوجة! أحبيني، يا آنّا، وأنا أحبك إلى الأبد.

---

(1) حاول أكساكوف من دون جدوى استمالة دوستويفسكي للتعاون مع جريدته «موسكو».

111. إلى ألكسندر ميلوكوف

بطرسبورغ، 13 فبراير 1867. الاثنين.

ألكسندر بيتروفيتش المحترم

زفافي يوم الأربعاء، 15 فبراير، في كاتدرائية الثالوث الإسماعيلي، الساعة 8 مساءً. وأنا واثق بأنك ستفي بوعدك في الحضور، بل وأنت ملزم بالحضور بوصفك المؤسس[1] للقضية كلها، وكذلك، وبالقدر نفسه، أنتظر (كريمتيك) لودميلا ألكساندروفنا وأولغا ألكساندروفنا اللتين كتبت لهما مذكراً بوعدهما واثقاً بأنهما ستفيان به أيضاً.

(ابنك) بيبا المسكين لا يستطيع أن يحضر طبعاً، وهذا ما يؤلمني. كنت طول الوقت أريد أن أزوره، ولكنني لم أخرج من البيت لليوم الخامس على ما أعتقد. كان لدي ورم في الفك عذبني كثيراً، فيما الأشغال تغطي الرأس. غداً آمل بالخروج إلى الشارع، وأريد من كل بد أن أعرج عليكم لدقائق.

المخلص ف. دوستويفسكي

(1) كاتبة الاختزال آنّا غريغوريفنا بدأت العمل عند دوستويفسكي بتزكية من أحد معارف ميلوكوف.

112. إلى أبوليناريا سوسلوفا

درزدن، 23 أبريل 1867

رسالتك، يا صديقتي العزيزة، تسلمتها من بازونوف متأخرة جداً، قبيل سفري إلى الخارج. ولما كنت مستعجلاً جداً فلم أتمكن من الرد عليها. غادرت بطرسبورغ في جمعة الآلام، الـ 14 من أبريل على ما أظن. وكان الطريق إلى درزدن طويلاً نسبياً مع توقف في المحطات، ولذا لم أتمكن من تصيد الوقت للتحدث إليك إلا الآن.

يعني، أنك، يا عزيزتي، لا تعرفين شيئاً عني، أو على الأقل لم تكوني تعرفين شيئاً حينما بعثت رسالتك، أليس كذلك؟ لقد تزوجت في فبراير من العام الحالي. وبموجب عقد مع ستيلوفسكي كنت ملزماً بتسليمه رواية في ما لا يقل عن 10 ملازم طباعية عادية في الأول من نوفمبر العام الفائت، وإلا كنت سأتعرض لغرامة فظيعة. وفي تلك الأثناء كنت أؤلف رواية «للبشير الروسي» كتبت منها 24 ملزمة وبقي عليَّ أن أكتب 12 ملزمة أخرى. ثم جاءتني ملازم ستيلوفسكي العشر. وحتى الرابع من أكتوبر لم أكن قد شرعت بالكتابة له. نصحني ميلوكوف أن أستعين بكاتبة اختزال أُملي عليها الرواية، الأمر الذي

يسرع في دفع العمل أربع مرات. وأوفد لي أستاذ الاختزال البروفيسور أولخين أفضل كاتبة بين تلاميذه. واتفقت معها. بدأنا اعتباراً من 4 أكتوبر. كاتبة الاختزال، واسمها آنّا غريغوريفنا سنيتكينا، شابة صالحة تماماً في العشرين من العمر. وهي من عائلة محترمة وتخرجت من الثانوية بامتياز، وطباعها طيبة للغاية وصريحة. استمر عملنا على أفضل وجه. وفي 28 من نوفمبر أنهيت رواية «المقامر» في 24 يوماً، وقد صدرت الآن. وفي ختام العمل في الرواية لاحظت أن كاتبة الاختزال تحبني صادقة، مع أنها لم تتفوّه بذلك أبداً، فيما غدت تعجبني أكثر فأكثر. وطالما كنت منذ وفاة أخي في ضجر فظيع، وفي حياة معيشية صعبة، فقد عرضت عليها الزواج مني. فوافقت، وها نحن متزوجان. الفارق في السن رهيب، هي في الـ 20 وأنا في الـ 44، لكنني أزداد قناعة كل يوم بأنها ستكون سعيدة. فلديها فؤاد يجيد الحب.

والآن أحدثك عن أوضاعي عموماً.

لعلك تعلمين أنني فقدت صحتي كلياً بوفاة شقيقي، حيث توليت مشاغل المجلة، ولكنني تركتها بعد أن استنزفتُ طاقاتي في الصراع مع الجمهور اللاأبالي وما إلى ذلك. ثم إني أنفقت الـ 3000 التي استلمتها من بيع الرواية إلى ستيلوفسكي من دون تردد على مجلة ليست مجلتي وعلى احتياجات عائلة شقيقي وعلى تسديد ديونه. وانتهى الأمر إلى تكبدي ديناً جديداً لشؤون المجلة، بالإضافة إلى ديون أخي التي اضطررت أن أتكفل بتسديدها، فتجاوز إجمالي الديون 15000. تلك كانت الحالة عندما سافرت إلى الخارج في عام 65، وليس معي من المال سوى 40 قطعة نقدية من عملة نابليون. وفي الخارج تصورت أنني لن أتمكن من تسديد هذه الـ 15000 إلا بالاعتماد على النفس. وفوق ذلك عافت نفسي الحياة بوفاة شقيقي

الذي كان بالنسبة لي هو الكل في الكل. وكنت أظن أنني سأجد فؤاداً يتجاوب معي، لكنني لم أجد. وعندذاك انهمكت بالعمل وشرعت بكتابة رواية. كاتكوف دفع أكثر من الآخرين، فأعطيته إياها. إلا أن كتابة رواية بـ 37 ملزمة، إضافة إلى 10 ملازم أخرى لستيلوفسكي، كانت فوق طاقتي، رغم أنني أنجزت الروايتين.[1] اشتد عليَّ الصرع بأبشع صورة، وبالمقابل تمتعت وأنقذت نفسي من السجن (بسبب الديون). الرواية، مع طبعتها الثانية، عادت عليّ بـ 14000 عشت عليها وسددت 12 ألفاً من الديون البالغة 15 ألفاً. والآن أنا مدين بـ 3 آلاف لا غير. إلا أن هذه الثلاثة آلاف هي الأسوأ. فكلما سددت المزيد يغدو الدائنون أقل صبراً وأكثر حماقة. لاحظي، لو أنني لم أتعهد بتسديد هذه الديون لما استلم الدائنون ولا كوبيكاً واحداً. وهم يعرفون ذلك. ثم إنهم استعطفوني أن أسجل تلك الديون باسمي رأفة بهم، ووعدوا بأن لا يمسوني بسوء. تسديد الـ 12 ألفاً أجج جشع الذين لم يستلموا أثمان كمبيالاتهم. ولن تكون لدي نقود هذه المرة قبل حلول العام الجديد، بشرط أن أتم العمل[2] الذي أواظب عليه. فكيف أتمه إذا كانوا يلاحقونني ويشوشون عليّ؟ ولذا ارتحلت مع زوجتي إلى الخارج. وإلى ذلك أتوقع أن تخف عليَّ نوبات الصرع في الخارج. أما في بطرسبورغ، في الآونة الأخيرة، فلم يعد العمل ممكناً تقريباً. وفي الليالي لا أستطيع الجلوس، لأن النوبات تباغتني حالاً. ولذا أريد أن أحسن صحتي هنا وأنجز العمل. أخذت النقود من كاتكوف مقدماً. ولم يرفضوا طلبي، وهم يدفعون بسرور. وأبلغت كاتكوف منذ البداية أنني من مناصري السلافية ولا أتفق معه في بعض آرائه، الأمر الذي أدى إلى تحسين علاقاتنا وجعلها أسهل بكثير. وهو من حيث وضعه الشخصي الإنسان الأكثر نبلاً وشهامة في الدنيا. أنا

لم أكن أعرفه على حقيقته في السابق. إلا أن غروره اللامتناهي يضر بسمعته كثيراً. ولكن من لا يعاني من الغرور اللامتناهي؟

في آخر أيامي في بطرسبورغ التقيت بريلكينا - غلوبينا وقمت بزيارتها. وتحدثنا كثيراً عنك. وهي تحبك. قالت لي إنها حزينة جداً لأنني سعيد مع امرأة أخرى. سأتراسل معها. فهي تعجبني.

رسالتك تركت في نفسي انطباعاً كئيباً. تقولين إنك حزينة جداً. أنا لا أعرف تفاصيل حياتك في السنة الأخيرة وماذا كان في فؤادك، إلا أن كل ما أعرفه عنك يشير إلى أن من الصعب عليك أن تكوني سعيدة.

آه يا عزيزتي، أنا أدعوك ليس إلى سعادة رخيصة تعتبر من الضروريات. فقد كنت ولا أزال أحترمك دوماً على تشددك، ولكنني أعرف أن فؤادك لا بد أن يطالب بالحياة، بينما تعتبرين الناس إما متألقين دوماً وإما سفلة سطحيين. أنا أحكم بالوقائع. ولك أن تخرجي بالاستنتاج.

إلى اللقاء، يا صديقتي الأبدية. أخشى أن هذه الرسالة لن تصلك وأنت في موسكو. فاعلمي، على أية حال، بأنني سأبقى في درزدن حتى الثامن من مايو بتقويمنا. هذا في أقل تقدير، ولربما أبقى فترة أطول. ولذا فإذا أردت أن تردي على رسالتي اكتبي حالما تستلمينها على العنوان التالي: Allemagne (Saxe), Dresden, Dostoiewsky, poste restante وسأبلغك بالعناوين اللاحقة. وداعاً يا صديقتي. أشد على يدك وأقبّلها.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) «الجريمة والعقاب» و«المقامر».

(2) المقصود رواية «الأبله».

113. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 5 مايو 1867. الجمعة

مرحباً يا ملاكي الحبيب!

أعانقك وأقبّلك بحرارة. طول الطريق كنت أفكر فيك.

وصلت تواً. الآن الساعة الحادية عشرة ونصف. أنا متعب بعض الشيء، وقد جلست للكتابة إليك. ها هم يقدمون لي الشاي والماء لأغتسل. وفي الفترة بينهما أكتب لك بضعة سطور. في لايبزيغ اضطررت إلى الانتظار من الخامسة والنصف حتى الحادية عشرة ليلاً. هكذا هو قطارهم السريع. انتظرت في المحطة وتناولت طعاماً وشربت القهوة. وتجولت جيئة وذهاباً في الصالة الهائلة الغارقة في سحب الدخان الممزوج برائحة الجعة. حتى ألمّ بي الصداع، واضطربت أعصابي. كنت أفكر فيك طول الوقت، وألوم نفسي: لماذا تركت (عزيزتي) آنّا؟ تذكرتك من جميع الجوانب، حتى آخر ثنايا روحك وفؤادك طوال كل هذه الفترة، ابتداءً من أكتوبر، وأدركت أنني لا أستحق مثل هذا الملاك المكتمل الشفاف، الهادئ الوادع، الرائع العفيف الذي يثق بي. كيف سوّلت لي نفسي أن أتركك؟ ولماذا

ارتحلت؟ وإلى أين؟ لقد وهبني اللّه إياك كيلا تضيع ذرة من إرهاصات روحك وخلجات فؤادك، على العكس فقد شاء أن تغتني تلك الخلجات وتزدهر. لقد وهبني إياك لكي أكفّر بك عن خطاياي الشنيعة وأعمل لتكوني أمام اللّه متطورة هادفة ومحصنة من كل دناءة تهبط بمنزلة الروح وتفتك بها. بينما أنا قد أحيد بك عن الطريق القويم بتصرفاتي الحالية الحمقاء كهذه الرحلة إلى هنا، بعد أن كانت تلك الأفكار النيرة تزورني بكثرة وبهدوء، وخصوصاً عندما كنت أقيم الصلاة. ما أشد الحزن الذي ألـمّ بي يوم أمس. ولو كنت معي لعانقتك ولما عدت، مع أن فكرة العودة برقت في ذهني. وكلما أفكر في (أصحابي) من أمثال فرانغيل ولاتكين وريسلر وفي الكثير مما هو أهم منهم أرتبك تماماً وأتعثر. إنني أقترف حماقات، نعم حماقات. والأدهى من ذلك أنني أقترف مساوئ منبعثة من الضعف النفساني، رغم وجود فرصة ضئيلة ويمكن... كلا، فلتذهب تلك الأمور إلى الشيطان. لن أمارسها.

وأخيراً ركبنا وتحرك القطار. العربة مكتظة بالركاب. الألمان مهذبون، رغم مظهرهم الوحشي الفظيع. تصوري، كان الليل بارداً لدرجة تشبه ما لدينا عندما يعتكر الجو في أكتوبر. زجاج النوافذ مبتل بالندى، وأنا في معطفي الخفيف وبنطالي الصيفي. كنت أرتجف من شدة البرد. تمكنت أن أنام قرابة ثلاث ساعات، لكن البرد أيقظني. وفي الساعة الثالثة شربت، مستبرداً، فنجان قهوة في محطة توقف فيها القطار. فتدفأت لعشر دقائق. ثم صعدت إلى العربة من جديد. وفي الصباح تدفأ الجو كثيراً. توجد هنا أماكن رائعة، لكنها جميعاً ضبابية معتمة، ورطبة باردة، أبرد مما في درزدن. الناس تنتظر تحسن الجو. لم أبق في فرانكفورت حتى لدقيقتين، خوفاً من تفويت العربة القادمة

إلى هنا. وها أنا في فندق «فيكتوريا». إيجار الغرفة 5 فرنكات في اليوم. يبدو أنهم قطاع طرق. سأبقى يومين، أو ثلاثة في أكبر تقدير. وإلا فمن الصعب المكوث حتى في حال النجاح.

لماذا بكيت، يا عزيزتي آنّا، عندما ودّعتِني؟ اكتبي لي، يا حلوتي، إلى هنا. اكتبي عن كل الصغائر، ولكن في رسائل ليست مطولة، فلا تتعبي نفسك، ولا توقّعي الرسائل بالاسم الكامل، تحوطاً لاحتمال سفري من هنا وبقاء الرسائل.

آنّا، يا نور عيني، يا شمسي المنيرة، أحبك. أثناء الفراق يتحسس الإنسان ويطيل التفكير، ويدرك مدى حبه. كلا، سنبدأ أنا وأنت بالاندماج معاً.

خفّفي عليَّ بأن أجد غداً رسالة منك، وأنت أيضاً يمكن أن تستلمي رسالتي غداً (في درزدن).

لا تكتبي ما لم تستلمي رسالة ثانية مني.

وداعاً، يا فرحتي، وداعاً يا نور عيني. أعصابي متهيجة بعض الشيء، لكنني بصحة جيدة ولست متعباً كثيراً. وأنت، كيف حالك؟

أقبّلك بلا حساب، المخلص حتى آخر المسامات

المحب د.

114. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 6 مايو 1867. السبت

مرحباً يا ملاكي آنّا. إليك بضعة أسطر أخرى. يوميات الأخبار. كل صباح سأكتب لك طالما أمكن. وتلك حاجة ماسة بالنسبة لي، لأنني أفكر فيك كل لحظة. طول الليل أراك في المنام، وكذلك، تصوري، أرى ماشا ابنة أخي وأخت فيديا. تصالحت معها في الحلم[1]، وكنت مسروراً جداً. ولكن فلندخل في صلب الموضوع.

كان الجو بارداً، بل وممطراً نهار الأمس. شعرت طول الوقت بضعف وأعصابي متوترة حتى كانت قدماي بالكاد تحملانني. من حسن الحظ أنني تمكنت أن أغفو في عربة القطار قرابة ساعتين. كنت طول الوقت راغباً في النوم.، بينما أنا عاجز عن ترك اللعبة. ويمكنك أن تتصوري بأي حال من الانفعال كنت. لاحظي: بدأتُ ألعب منذ الصباح، وعند الظهر خسرت 16 (ريالاً). ولم يبق عندي سوى 12 (ريالاً) وبضعة تاليرات. ومضيت بعد الغداء بمزيد من التعقل، حتى استعدت، والحمد للّه، الـ 16 التي خسرتها وكسبت، فوق ذلك، 100 غولدين. وكان بوسعي أن أربح 300. كانت في يدي، لكنني

جازفت وأفلتُّها. تلك هي، يا آنّا، ملاحظتي النهائية: إذا تحليت بالتعقل، أي إذا تحولت إلى قطعة من الرخام البارد وكنت حذراً أكثر مما يستطيع الإنسان، يمكنني أن أربح أي مبلغ. ولكن، في هذه الحالة، ينبغي اللعب وقتاً طويلاً، أياماً متوالية، والاكتفاء بالقليل إذا أشاح الحظ بوجهه وعدم الإعتماد كثيراً على الصدفة. هناك يهودي يلعب من عدة أيام ببرود أعصاب فظيع وحسابات تفوق طاقة البشر(. . .)، فصار صاحب الروليت يخشاه. إنه يغترف المال رابحاً، ويمضي يومياً بما لا يقل عن 1000 غولدين.

باختصار، سأحاول بذل جهود تفوق طاقة البشر لكي أبقى متعقلاً، ولكن، من الجهة الأخرى، لا أستطيع أن أبقى هنا لعدة أيام. وبلا مبالغة، يا آنّا، أشعر بالقرف من ذلك كله، والاشمئزاز الفظيع لدرجة تدفعني إلى الفرار. حالما أتذكرك أندفع بكل كياني لأكون جنبك.

آه، يا آنّا! أشعر بأني في أمسّ الحاجة إليك. حالما أتذكر إبتسامتك العريضة وذلك الدفء البهيج الذي يكتنف الفؤاد تلقائياً حينما أكون جنبك يشتد بي الشوق إليك بصورة تفوق الوصف. في العادة أنت، يا آنّا، ترينني متجهماً عابساً متقلب الأطوار. ذلك في المظهر وليس في المخبر. كنتُ دوماً على هذه الشاكلة. مقهوراً حطمني المصير. أما في الباطن فأنا، واللّه، على غير ذلك. صدقيني.

والحال أن كسب المال مجاناً كما في هذا المكان، ليس مجاناً تماماً، بل مقابل الآلام، إنما ينرفز الأعصاب ويخدر الدماغ. وحالما أفكر في الحاجة إلى المال وفي الديون المستحقة وفي غيري ممن تعوزهم نقودي أشعر بأنني لا أستطيع أن أبتعد (عن الروليت). لكنني

أتصور مدى ألمي عندما أخسر ولا أفعل شيئاً، فما أكثر المساوئ التي أتقبلها مجاناً، ثم أعود وأنا أكثر فقراً وبؤساً مما جئت به إلى هنا. آنّا، عديني بأنك لن تعرضي هذه الرسائل على أحد أبداً. لا أريد أن تسري على الألسن حقارة الوضع الذي أنا فيه.(...)

أعانقك، يا آنّا، يا نور عيني. ولربما أستلم منك اليوم رسالة، يا رفيقة عمري الوحيدة. إلى الغد. سأكتب لك يوم غد حتماً. في كل الأحوال لن أبقى هنا طويلاً.

ليلة أمس طلبت أن يسخنوا مدفأة الحائط، فانبعث دخان كاد يخنقني. وغرقت في نوم عميق رغم الصداع. واليوم أنا في صحة تامة. الشمس مشرقة، والنهار رائع.

وداعاً يا فرحتي!

المخلص لك دوماً ف. د.

ملاحظة: إذا لم تستلمي يوماً ما رسالة مني لأي سبب كان لا تقلقي. فستستلمينها في اليوم التالي. وأعتقد أن ذلك لن يحدث.

---

(1) تصالح دوستويفسكي مع ابنة أخيه بالفعل حالما عاد من الخارج. وكان بينهما خلاف طفيف.

115. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 9 مايو 1867 الثلاثاء، العاشرة صباحاً

ملاكي الحبيب، بالأمس تألمت كثيراً حينما ذهبت إلى البريد، بعد كتابة رسالتي إليك، وقالوا لي: لا رسالة منكِ. تراخت قدماي وكدت أسقط. لم أصدق. اللّه يعلم ماذا خطر في بالي، وأقسم أنني لم أصادف يوماً مثل هذا الألم والرعب. خطر في بالي أنك مريضة، أو تحتضرين. جبت الحديقة ساعة وبدني كله يرتعش، حتى دخلت كازينو الروليت في الأخير وخسرت كل ما أملك. أصابعي ترتجف، وأفكاري تتبدد. وحتى عندما خسرت كاد الأمر يهون عليّ تقريباً، وقلت في نفسي: فليكن ما يكون. ثم، وبعد الخسارة التي لم تدهشني كثيراً في تلك اللحظة، تمشيت ساعتين في المتنزه، ولا أدري أين ولجت. أدركت عجزي المطلق، فقررت أن أتوجه إليك فوراً، إذا لم تصل منك رسالة غداً، أي اليوم. ولكن كيف؟ عدت مدفوعاً بهذا التساؤل ورهنت ساعتي بعد أن كنت قد افتديتها في طريقي إلى دائرة البريد. رهنتها عند الشخص نفسه مثلما قبل ثلاثة أيام. وفجأة ومضت في ذهني فكرة بأنك ما كنت تستطيعين أن تكتبي إليَّ في الحقيقة، بمعنى

أن تبعثي الرسالة لأستلمها الاثنين. يوم السبت استلمتِ رسالتي الأولى وأجبت عليها حالاً في دائرة البريد. وبعد ذلك، يوم السبت نفسه، لم تكتبي شيئاً لأنك أجبت في صباح ذلك اليوم في دائرة البريد بكلمتين. ولذا لم تبعثي لي رسالة يوم الأحد. وفي يوم الأحد ذاته، وبعد استلام رسالتي الثانية، أجبتِني في اليوم نفسه، ولم تستطيعي أن تبعثي الرسالة إلا يوم الاثنين، وبالتالي لا يمكنني أن أستلمها قبل الثلاثاء، أي اليوم. واتضحت الأمور أخيراً بالنسبة لي، وعادت إليّ الروح وبُعثت حياً من بين الموتى، صدقيني. والآن أكتب إليك مرتجفاً، ماذا لو كنتُ أخطأت الحساب، ولن أستلم منك رسالة اليوم؟ لا سمح اللّه. الآن أنا مسرع إلى دائرة البريد. يا عزيزتي آنّا، (تصوري) ما أغلاك بالنسبة لي حتى أتعذب إلى هذا الحد! أنا لم أتعذب يوماً، أبداً، لهذا الحد، ولم أرتعب كما حصل لي يوم أمس، في تلك الساعة الفظيعة. كلا، يا آنّا، لا بد أن يكون الحب شديداً ليأتي شعور الشخص على هذا النحو. يا إلهي! ماذا لو أنني لن أستلم رسالة اليوم أيضاً؟! أنا مستعجل لأنهي هذه الرسالة وأهرع إلى البريد. إذا لم أجد منك رسالة هذه المرة أيضاً فكيف سيكون حالي؟ يجب أن أعود، وليس عندي ثمن التذكرة. وقد خسرت تقريباً حتى ثمن رهان الساعة. وليس عندي الآن سوى 25 فلورين، فيما يتعين تسديد نفقات الفندق وتكاليف الطريق. يا إلهي! عادت إليّ الآن كل مخاوف الأمس تقريباً. إذا لم تكوني مريضة، وكل شيء على ما يرام، يا رفيقة عمري، عالجي أموري حالما تستلمين رسالتي هذه. اسمعي: خلاص! اللعبة انتهت[1]، وأريد أن أعود عاجلاً، ابعثي لي فوراً، حالما تستلمين رسالتي، حوالة بعشرين قطعة نقدية، من فئة إمبريال. فوراً، في اليوم نفسه، في اللحظة نفسها إن أمكن. ولا تضيعي ذرة من الوقت. ذلك

هو أعظم رجاء مني إليك. أولاً- ينبغي أن أستعيد ساعتي، فلا يجوز تضييعها مقابل 65 غولدين، ثم ينبغي تسديد تكاليف الفندق، ثم شراء تذكرة السفر، وما يتبقى سأجلبه معي، فلا تقلقي. لن ألعب القمار. المهم أن تعجلي في الإرسال. غداً أو بعد غد يسلمونني فاتورة الحساب في الفندق، وإذا لم تصل النقود منك عليّ أن أذهب لأعتذر من صاحب الفندق، وسيذهب هو إلى البوليس على الأرجح. خلصيني من هذا العذاب بإرسال النقود بأسرع ما يمكن. حوّلي المبلغ بنفسك ولا تخبري صاحبة البيت، بمعنى لا تستشيري أحداً، فلا موجب أن يعرفوا أمورنا. القيام بذلك سهل، اذهبي إلى مكتب أحد أفضل موظفي البنوك، اسألي عنه ولو من موظف البريد الذي يسلم الرسائل. وعندما تأتين إلى مكتب البنك وتسلمينه الـ 20 إمبريال اسأليهم هل يستطيعون أن يحولوها إلى هامبورغ فوراً، إليّ بالطبع. وزوّديهم بالعنوان الدقيق: poste restante. أكيد يستطيعون. وهم يستلمون منك النقود بعد خصم العمولة طبعاً. ويسلمونك كمبيالة باسم أحد أصحاب البنوك هنا في هامبورغ. ولا تقلقي، فهم يعرفون باسم من، ولديهم مصرفيون مراسلون في كل مكان. ضعي الكمبيالة في رسالتك إليّ، واختميها وخذيها إلى البريد واعملي لها تأميناً وخبريهم أن الرسالة مالية. هذا كل ما في الأمر. وأنا عندما أستلم منك الرسالة مع الكمبيالة أذهب إلى المصرفي فيسلمني النقود بموجبها. باللّه عليك أعطيهم العنوان الدقيق: هومبورغ وليس هامبورغ. اكتبي العنوان على قصاصة ورق. أنتظر بفارغ الصبر. وسآتي إليك حالما أستلم المبلغ.

يا حبيبتي. لن يبقى لدينا إلا القليل من النقود، فلا تتذمري، ولا تحزني، ولا تلوميني. فيما يخصني، أنا هادئ الأعصاب تقريباً بشأن أمورنا المالية. فتبقى لدينا 20 قطعة من فئة إمبريال، وسيبعثون لنا

20 قطعة أخرى. ثم إنني حالما أعود إلى درزدن أكتب إلى كاتكوف ليرسل إليّ 500 روبل أخرى. بالطبع سيمتعض كثيراً، ولكنه سيرسلها. فبعد أن دفع مبلغاً ضخماً، 3000، لن يمانع في دفع الـ 500. بل هو لا يستطيع تقريباً أن يمانع. فكيف يمكنني أن أنجز العمل بلا نقود؟ بالطبع هذا شيء مزعج، ولكنه مقابل 23 ملزمة، أنا أشتغلها له[2]. وفي انتظار المبلغ سنبقى وإياكِ في درزدن. لن يصل الجواب قبل شهر. يا ملاكي، إنني أفكر وأتعذب بخصوصك: فماذا ستفعلين في درزدن، في الملل والضجر؟ أنا سأنهمك في كتابة مقالة عن بيلينسكي[3]، وسأنهيها في فترة انتظار جواب كاتكوف. وعندها نسافر إلى سويسرا، ثم أعكف على العمل هناك سريعاً. يا ملاكي، رب ضارة نافعة! الفكرة اللعينة، فكرة الإدمان على القمار، ولا شيء غير القمار، ستفارقني من الآن فصاعداً. وسأعوض عنها بالعمل، كما فعلت قبل ثلاثة أعوام، قبيل «الجريمة والعقاب». وليكن ما يكون. إلا أن ما يؤذيني هو أنك ستشعرين بالملل. وأنا قلق عليك، عليك وحدك. يا عزيزتي. ليتنا نلتقي بأسرع ما يمكن. ولا تزعلي مني بسبب هذه الرسالة الخرقاء، فأنا في عجلة من أمري، أتوق لمعرفة مصيري في دائرة البريد سريعاً، بمعنى هل هنالك رسالة منك اليوم أم لا؟ أنا في الحقيقة أرتعش هلعاً الآن. وإذا استلمت الرسالة سأسعد بها. أعانقك، يا حبيبتي، فلا تحزني ولا تجهدي نفسك، ولا تقلقي بخصوصي. كل ما أصبو إليه أن أستلم رسالة منك اليوم. وعندها أكون سعيداً. إلى اللقاء، إلى لقاء قريب، أعانقك، لا تعذبي نفسك، ولا تحزني: خاصة وأن ذلك غير مهم في الحقيقة. هذه الإخفاقات تصادف في حياة كل إنسان، حتى وإن كان من أسعد الناس. أما أنا فقد تخلصت بهذه النقود من فكرة حمقاء، ولعل الثمن

لم يكن باهظاً. إذن، فليكن ما يكون. أعانقك بحرارة. وأقبّلك بلا حساب.

المخلص زوجك وعبدك

فيو. دوستويف.

ملاحظة: عجّلي في تحويل النقود، باللّه عليك. ليتني أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن.

حوّلي المبلغ على عنوان: poste restante

(معذرة) عذبتك، يا ملاكي!

---

(1) كتبت آنّا غريغوريفنا في مذكراتها فيما بعد أنها هي التي اقترحت على زوجها هذه المرة أن يسافر إلى هامبورغ ليروّح عن نفسه.

(2) المقصود رواية «الأبله» التي يشتغل دوستويفسكي عليها.

(3) المقالة المذكورة ضاعت في طريقها إلى بطرسبورغ.

116. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 10 مايو 1867 الأربعاء. العاشرة صباحاً

مرحباً يا ملاكي الحبيب! استلمت رسالتك أمس، وفرحت بها لحد الجنون. وانتابني الفزع في الوقت ذاته. فماذا يجري لك، يا آنّا؟ وبأي حال أنت؟ إنك تبكين ولا تعرفين طعم النوم وتتعذبين. فكيف أتحمل قراءة مثل هذا الكلام؟ كل هذا قبل خمسة أيام، وماذا دهاك الآن؟

يا عزيزتي، يا ملاكي الغالي، يا كنزي الثمين، أنا لا ألومك، بل بالعكس أنت أعز عليَّ وأغلى مع هذه المشاعر. أنا أفهم أن لا حيلة لنا في الأمر، طالما لا تستطيعين أن تتحملي غيابي إطلاقاً، وتنتابك الوساوس بخصوصي. أكرر أنا لا ألومك، وإنني أحبك مرتين أكثر بسبب ذلك، وأقدره رفيع التقدير. ولكن ألا توافقينني في الوقت ذاته، يا عزيزتي، بأنني أقدمت على تصرف جنوني طائش عندما جئت إلى هنا نزولاً عند رغبتك؟ حكمي عقلك، يا عزيزتي: شوقي إليك حال دون التخلص من هذه اللعبة اللعينة والعودة إليك، ما يعني أنني نفسياً لم أكن حراً طليقاً. هذا أولاً، وثانياً- كيف أستطيع البقاء هنا وأنا

أعرف أحوالك؟[1] سامحيني، يا ملاكي، لأني أريد أن أعرض بعض تفاصيل ولعي بهذه اللعبة لتكوني على علم بحقيقة الموقف. اقتربت من طاولة الروليت حوالى عشرين مرة وصارت عندي خبرة بأنه إذا لعبت ببرود أعصاب وبهدوء وفقاً للحسابات تنتفي احتمالات الخسارة تماماً. أقسم لك حتى الاحتمال ينتفي. عندهم الصدفة العمياء، وعندي الحسابات، ما يعني أن لدي فرصة للربح. ولكن ما الذي يحدث في العادة؟ أبدأ من أربعين غولدين، أستخرجها من جيبي وأجلس وأضعها واحداً واحداً أو اثنين اثنين وبعد ربع ساعة أربح دوماً بمقدار الضعف في العادة. هنا ينبغي التوقف والانصراف حتى المساء، في أقل تقدير، لتهدئة الأعصاب المنفعلة، لا سيما وأنني لاحظت تماماً أنني لا أستطيع أن ألعب ببرود أعصاب وهدوء أكثر من ثلاثين دقيقة متواصلة. لكنني كنت أنصرف لأدخن السيجارة فقط، وأهرع بعدها إلى الروليت في الحال. فلماذا كنت أفعل هكذا رغم علمي بأنني لن أتحمل وسأخسر حتماً؟ ذلك لأنني كنت مصمماً كل يوم، حالما أنهض من النوم صباحاً، على أن يكون هذا اليوم آخر يوم لبقائي في هامبورغ، حيث سأغادرها غداً، وبالتالي ما كنت أستطيع أن أنتظر أكثر قرب الروليت أيضاً. كنت مستعجلاً لأربح، على قدر المستطاع، أكبر مبلغ دفعة واحدة في ذلك اليوم، لأنني مسافر غداً، وكنت أفقد برودة الأعصاب، وأتهيج، وأجازف وأغضب، وأضع القطع النقدية على رقعة الروليت من دون حساباتي التي فقدتها في تلك اللحظات، وأخسر بالنتيجة، ذلك لأن من يلعب من دون حسابات، أملاً في المصادفات، إنما هو مجنون. خطأي الأول والأخير أننا افترقنا وأنني لم أصطحبك معي. نعم، تلك هي الحقيقة. في حين أنني أحن إليك وأنت تكادين تموتين من دوني. يا ملاكي،

أكرر من جديد أنني لا ألومك وأنك أكثر معزة عندي حينما تحنين إليّ. ولكنْ احكمي بنفسك، يا عزيزتي، ماذا حصل لي يوم أمس مثلاً؟ بعد أن كتبت لك كي تبعثي لي نقوداً ذهبت إلى صالة القمار، وكان في جيبي، على سبيل الاحتياط، عشرون غولدين، فغامرت بعشرة منها. بذلت جهوداً تفوق طاقة البشر تقريباً لأبقى هادئاً على مدار ساعة كاملة، فكانت نتيجة حساباتي أن ربحت ثلاثين فريدريكاً ذهبياً، ما يعادل 300 غولدين. كنت مسروراً جداً، وأردت لحد الجنون أن أنهي المسألة هذا اليوم بأسرع ما يمكن لكي أربح ضعف هذا المبلغ على الأقل، لكي أغادر من هنا فوراً، فلم آخذ قسطاً من الراحة ولم أستعد قواي، بل هرعت إلى الروليت وأخذت أضع القطع الذهبية حتى خسرت كل ما لدي، نعم كل ما لدي. ولم يبق عندي سوى اثنين غولدين ثمن التبغ. عزيزتي آنّا، افهميني، تذكري أن لدي ديوناً مستحقة يجب تسديدها، وسينعتونني بالسافل الدنيء إن لم أسددها. افهمي أنني ينبغي أن أكتب إلى كاتكوف، وأننا يجب أن نبقى في درزدن وننتظر. وكان يجب أن أربح. بالضرورة. فأنا ألعب ليس من أجل اللهو والترفيه. هذا هو السبيل الوحيد للخروج من المحنة. وأنا أفقد كل شيء لسوء الحسابات. أنا لا ألومك، بل ألعن نفسي. لمَ لم أصطحبك معي؟ إذا لعبت قليلاً كل يوم لا بد أن أربح. هذا صحيح. عشرون مرة تكرر معي. ورغم ذلك أغادر هامبورغ بخسارة. وأنا أعرف أنني لو أمهلت نفسي أربعة أيام أخرى لربحت واستعدت كل ما خسرته. ولكن هيهات، فلن ألعب بعد الآن.

افهميني يا عزيزتي آنّا. أرجوك مرة أخرى أن تفهمي أنني لا ألومك، لا أقرعك، بالعكس ألوم نفسي لأنني لم آخذك معي.

ملاحظة هامة: فيما لو ضاعت رسالة يوم أمس. أكرر هنا ما جاء

فيها باختصار. (طلبت منك إرسال 20 قطعة نقدية ذهبية من فئة إمبريال في حوالة. . .) إجراءات الحوالة، إذا استعجلت في إرسالها، لن تأخذ منك أكثر من ساعة، ولذا يمكن أن يتم الإرسال في اليوم نفسه.

وإذا تمكنت من ذلك في اليوم نفسه، أي هذا اليوم، الأربعاء، فسأستلمها غداً الخميس. وإذا أرسلتِها الخميس أستلمها الجمعة. وإذا استلمتها الخميس أكون السبت (عندك) في درزدن. أما إذا استلمتها الجمعة فسأكون عندك الأحد. هذه الحسابات صحيحة. نعم صحيحة. وإذا تسنى لي أن أنهي كل الأشغال فلربما أصل إلى درزدن في اليوم الثاني وليس الثالث. ولكن من المستبعد أن أنجز كل شيء لأرتحل، بما في ذلك استلام النقود والتهيؤ للسفر وجمع الحاجيات والوصول إلى فرانكفورت دون أن أتخلف عن القطار السريع.

(. . .) ومع أني سأحاول جهدي، فالأرجح أني سأصل إلى درزدن في اليوم الثالث.

وداعاً، يا آنّا، وداعاً يا ملاكي الغالي. أنا قلق جداً عليك. ولا موجب أن تقلقي أنت ولو قليلاً عليّ. صحتي ممتازة. الاضطراب العصبي الذي تخشين عليّ منه مجرد ارتباك بدني آلي. فتلك ليست هزة أخلاقية أو نفسانية. ثم إن طبيعتي تقتضي هذه الأمور. تلك هي تركيبتي. أنا عصبي ولا يمكنني أن أستقر أصلاً. ثم إن الهواء هنا رائع. أنا بصحة منقطعة النظير. لكنني أتألم فيما يخصك. أحبك، وهذا هو سبب عذابي.

أعانقك بحرارة، وأقبّلك بلا حساب.

المخلص ف. د.

(1) كانت آنّا غريغوريفنا حاملاً آنذاك.

117. إلى آنّا دوستويفسكايا

هامبورغ، 13 مايو 1867 السبت. العاشرة صباحاً

آنّا، ملاكي، سعادتي وفرحتي الوحيدة، هل تسامحينني على كل العذابات والانفعالات التي سبّبتها لك؟ آه، ما أشد حاجتي إليك. بالأمس جلست المساء كله وحيداً في محاولة لقراءة كتبي الثلاثة التي سبق أن قرأتها مراراً، وفي دماغي يدق تساؤل واحد: كيف أنت؟ وماذا سيحصل لنا؟ لا أتحدث عن المستقبل. المستقبل مجهول. والرب سينقذنا على أية حال. أنا في حياتي كلها لا أخطط لأكثر من ستة أشهر، شأني شأن أي شخص يعيش على عمله وحده كأجير بالمياومة. كل آمالي معلقة الآن على العمل. افهميني يا آنّا، نتاجي ينبغي أن يكون رائعاً، أفضل من «الجريمة والعقاب». وعندذاك أكسب ودّ القراء في روسيا كلها. وعندذاك يتهافت عليّ الناشرون. أنا واثق بمستقبلنا اللاحق. عسى أن يمنحنا اللّه الصحة. خاصة وأن نوبات الصرع لا تحصل هنا.

إلا أن المستقبل القريب غير معروف. أقصد وقت عودتنا إلى روسيا مكبّلين بالديون وغيرها. ولا أدري ماذا سيحصل. أنا الآن أثق

جاداً تماماً بمساعدة كاتكوف. فطالما ساعدني مرة ولاحظ أنني سأنهي العمل مع مقدم الشتاء فسيساعدني مرة أخرى، في الشتاء عندما نصل إلى هناك. والمشكلة أن ذلك سيكون قليلاً. وليس أمامنا الآن سوى الانتظار. المهم الآن أن ندبر حالنا لحين وصول حوالة كاتكوف. ولكن كيف، وليس عندنا حتى 30 تالير، أليس كذلك؟ كل الأمل على ما سترسله والدتك. أستغرب لما يحدث هناك، ولِمَ لا ترسل النقود؟ الشيء الوحيد الذي يهدئني أنهم كانوا سيكتبون لنا لو تعذر عليهم التحويل. ولا أحد منهم يكتب إلينا. شيء غريب. لعلهم لا يجيدون إجراءات التحويل. وقد يبلغوننا بذلك.

إليك، إليك يا آنّا، كل أفكاري الآن حول الرجوع إليك. سنلتقي ونندمج. معاً نبحث كل الأمور ونتكلم بشأنها. أنتظر حلول يوم غد بفارغ الصبر والجزع. سأسافر مهما كانت حالة الجو، وسأحزم أمتعتي منذ المساء. والمشكلة أنني ربما لن أستلم الرسالة قبل الثانية عشرة إذا كانت تتضمن حوالة، بل وربما في الرابعة بعد الظهر. في كل الأحوال سأسافر ولن أبقى هنا مطلقاً. وثمة نقطة أخرى تقلقني: أمس قدموا لي فاتورة حساب الفندق للأسبوع المنصرم. فاتورة فظيعة. اعتذرت قائلاً إنني مسافر يوم الأحد، وسأسدد الحساب حينئذٍ دفعة واحدة. امتعضوا، لكنهم لاذوا بالصمت. والمشكلة أن الفاتورة ستمتلئ أكثر حتى يوم الأحد، وأخشى أن لا تكفي النقود المرسلة لتغطية تكاليف السفر وتسديد مستحقات الفندق. سأركب الدرجة الثالثة.

وهل سألحق بالقطار السريع في فرانكفورت؟ لا أحد أستفسر منه هنا. وأخشى أن أبيت الليل في مكان ما. الطقس فظيع، بارد وممطر. الليل مثلما عندنا في أكتوبر. ولكن لا موجب للمبيت.

سأسافر حتماً. وسأرتدي ثياباً داخلية مضاعفة وقميصين وما إلى ذلك. عسى أن يمر كل شيء بسلام. كل ما أريده، يا ملاكي آنّا، هو أن أصل إليك بأسرع ما يمكن. وعندها ندبر الأمور شيئاً فشيئاً. حالما أصل أكتب إلى كاتكوف. فلعل الجواب يأتي بعد أسبوعين، ولكن الاحتمال بعد شهر. قررت أن أطلب ألفاً ولو على أقساط[1]. وعندها ننتقل إلى سويسرا بسرعة. كلفة القطار 50 تالير. لا يهم. هناك سأباشر العمل.

إلى اللقاء، يا آنّا، يا فلذة كبدي. بعد غد أكون عندك. في أقل من 48 ساعة. أحسب الوقت ساعةً ساعة. أبتهل إلى اللّه أن يوفقني. اعذريني، يا ملاكي، اعذريني يا روحي.

المخلص ف. د.

---

(1) كاتكوف حوّل للكاتب 500 روبل.

118. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 16 أغسطس 1867

هكذا إذن، ما أطول الفترة التي لزمتُ الصمت فيها ولم أجب على رسالتك، يا عزيزي وصديقي أبولون نيكولايفيتش الذي لا ينسى.

أصفك بالصديق الذي لا ينسى، ويشعر فؤادي بأن هذا التوصيف في محله. فنحن وإياك صديقان قديمان متعودان على بعضهما البعض لدرجة أن الحياة التي فرقت بيننا حتى أبعدت أحدنا عن الآخر أحياناً لم توسع الشقة بيننا، بل لعلها ربطت فيما بيننا إلى الأبد. وطالما كتبتَ أنك تتحسس غيابي فالأحرى أن يكون إحساسي بغيابك أشد. وبالإضافة إلى الدلائل اليومية التي رسخت في ذهني الاعتقاد بتشابه وتلاقي أفكارنا ومشاعرنا خذ بالاعتبار أيضاً أنني عندما افتقدتك وجدت نفسي في بلاد الغربة ولم أر فيها وجهاً روسياً ولا كتباً أو أفكاراً أو هموماً روسية، بل ولا حتى أشخاصاً يرحبون بمقدمي. صحيح أنني لا أفهم كيف يستطيع المغترب الروسي الذي يفكر ويمتلك مشاعر أن لا يلاحظ ذلك ولا يتألم له. ذلك هو الواقع. فكيف يمكن البقاء على قيد الحياة في الخارج؟ غياب الوطن، واللّه،

هو العذاب بعينه. السفر إلى هناك لستة أشهر أو سنة شيء جيد. لكن السفر بلا دراية ولا معرفة بموعد العودة، كما أفعل أنا، أمر لا أسوأ ولا أقسى منه. إنها القسوة النابعة من التفكير. أنا بحاجة إلى روسيا للكتابة، للعمل، ناهيك عن باقي جوانب الحياة. وإلا فكيف يمكن العيش محروماً من القوى والمال؟ كالسمكة من دون ماء؟ عموماً، سنتحدث عن ذلك. أنا بحاجة إلى التحدث إليك عن الكثير وطلب المشورة والمعونة. فأنت الوحيد الذي أستطيع الحديث معه من هنا.
ملاحظة: على فكرة، اقرأ هذه الرسالة وحدك ولا تحدث من لا ينبغي الحديث معه عني. وسترى (سبب رجائي هذا) بنفسك. ثم، لماذا لم أكتب إليك كل هذه الفترة الطويلة؟ لست قادراً على الجواب تفصيلاً. لم أكن مستقراً في إدراك أوضاعي، وكنت أنتظر أدنى فرصة للاستقرار كي أبدأ مراسلتك. وأنا أعقد آمالي عليك وحدك. اكتبْ إليَّ كثيراً، ولا تتركني يا عزيزي. ومن ناحيتي سأكتب لك كثيراً وبانتظام كبير. فلنواصل المراسلات بصورة دائمة، باللّه عليك. إنها تعوضني عن روسيا وتمنحني القوة والطاقات.

فلأحدثك عن هذه الأشهر الأربعة على أية حال وبصراحة. أنت تعرف كيف سافرت ولأية أسباب. بينها سببان رئيسيان: أولاً- لأنقذ حياتي، فضلاً عن صحتي.

نوبات الصرع أخذت تتكرر كل أسبوع. الشعور بهذا الخلل العصبي في الدماغ وإدراكه بوضوح شيء لا يطاق. العقل مضطرب بالفعل، تلك هي الحقيقة. شعرت بذلك، فيما كان الاضطراب العصبي يدفعني أحياناً إلى دقائق من الهياج المسعور. والسبب الثاني هو ظروفي: لم يكن الدائنون يريدون الانتظار أكثر. وعندما غادرت كان لاتكين وبعده بيتشاتاني قد قدَّما دعاوى الحجز، وكادا

يصطادانني. ولنفترض أن سجن الديون، أقول ذلك ليس لمجرد الكلام، قد يكون من جهة نافعاً جداً لي، من حيث الوقائع وتوفر المادة و«منزل الأموات» الثاني. باختصار كانت المادة ستكفي على الأقل لكسب 4 أو 5 آلاف روبل، لكنني تزوجت تواً، وإلى ذلك هل كنت سأستطيع أن أتحمل الصيف الخانق (في السجن) بمبنى تاراسوف؟ تلك كانت معضلة غير قابلة للحل. فلو تعذرت عليَّ الكتابة في السجن بسبب نوبات الصرع فكيف سأسدد الديون. في حين أن الأعباء تزايدت. فسافرت. سافرت آنذاك والموت يعشش في ثنايا روحي. فأنا ما كنت أثق ببلاد الغربة. كنت على يقين بأن تأثير الخارج الأخلاقي سيكون سيئاً للغاية. (كيف يكون حالي) وأنا وحيد من دون مادة (للكتابة) ومعي هذا الكائن الفتي الذي يسعى بفرحة ساذجة إلى مشاطرتي حياة الترحال. وقد رأيت بأم العين أن هذه الفرحة الساذجة تنطوي على الكثير من قلة الخبرة والحماس البعيد عن النضوج، وكان ذلك يؤذيني ويؤلمني. كنت أخشى أن تشعر آنّا غريغوريفنا بالملل معي ونحن وحدنا. وقد كنا بالفعل وحدنا حتى ذلك الحين. أنا لم أكن أعوّل على نفسي: طباعي مريضة، وقد حدستُ بأنها ستتعذب معي. صحيح أنها، كما اتضح، أقوى وأعمق مما كنت أعرفها وأتصورها، وكانت في حالات كثيرة تتولى دور الملاك الحارس لي، إلا أن فيها الكثير من الطفولة وسن العشرين، وهو شيء ضروري رائع، إلا أنني من المستبعد أن أمتلك الطاقة والقدرة على معاملته بالمثل. كل ذلك كان يخامرني قبيل السفر، ومع أن آنّا غريغوريفنا، كما أسلفت، أقوى وأفضل مما كنت أتصور فإنني حتى الآن لا أعرف الهدوء. ثم إن نقودنا القليلة كانت تخجلني وتؤذيني. فقد سافرنا بمبلغ متواضع للغاية، وأخذت أنا من كاتكوف

مقدماً 3000. صحيح أنني كنت آمل أن أشرع بالعمل فوراً، حال وصولي إلى الخارج. ولكن ماذا حصل؟ لم أكتب شيئاً على وجه التقريب، والآن فقط قررت أن أعمل جدياً. القول بأني لم أفعل شيئاً ليس صحيحاً تماماً. فقد تلمست الكثير وفكرت في الكثير، إلا أن المكتوب على الورق لا يزال قليلاً[1]. والمكتوب على الورق هو الناتج النهائي الذي يدفعون لقاءه.

غادرنا برلين على عجل، حيث بقيت يوماً واحداً حطم فيه الألمان المملّون أعصابي لحد الغضب، ودخلت الحمام الروسي، وارتحلنا إلى درزدن واستأجرنا شقة بقينا فيها بعض الوقت.

كان الانطباع عجيباً غريباً. وطرح السؤال نفسه في الحال: ما الموجب لوجودي في درزدن، فيها تحديداً، وليس في مكان آخر؟ وما الفائدة من ترك كل شيء في مكان ما والانتقال إلى مكان آخر؟ وكان الجواب واضحاً: الحفاظ على الصحة والفرار من الدائنين وما إلى ذلك. إلا أن المؤذي أنني أحسست بمنتهى الوضوح أن كل الأمور بالنسبة لي سواء حيثما أقمت، في درزدن أو أي موضع آخر. في كل مكان أنا على أرض الغربة. في أي مكان أنا كسرة مقطوعة من الكل. هممت أن أشرع بالعمل، وشعرت أنني لا أرغب فيه. ذلك لأن الانطباعات غير الانطباعات. فماذا فعلت؟ كنت متكاسلاً ضجراً. أخذت أقرأ أو أكتب شيئاً وأتعذب من الحزن ثم من الحر. مرت الأيام متماثلة. وكنا، أنا وآنّا، نتمشى بعد الغداء يومياً في الحديقة الكبرى ونستمع إلى الموسيقى الرخيصة ثم نقرأ ثم ننام. واتضح أن آنّا غريغوريفنا مولعة بالأنتيكات. وقد أعجبني ذلك فيها وألهاني. فقد كانت تطيل التفرج، مثلاً، على مبنى بلدية تافه قديم، وتسجل تفاصيل عنه بطريقة الاختزال، حتى ملأت عموماً سبعة دفاتر. إلا أن أكثر ما

أثار اهتمامها وأدهشها هو الجاليري، وقد سررت لذلك. لأن الانطباعات الكثيرة التي يعج بها ذهنها حالت دون شعورها بالملل. كانت تتردد على الجاليري يومياً. وما أكثر ما تحدثنا أنا وإياها عن أهلنا في بطرسبورغ وفي موسكو، وعنك وعن آنّا إيفانوفنا، حتى انتابنا الحزن أحياناً.

لن أحدثك عن أفكاري. وقد تراكمت انطباعات كثيرة. أقرأ الصحف الروسية وأروّح عن النفس من خلالها. وشعرت أخيراً أن لدي مادة تكفي لمقالة كاملة عن العلاقات بين روسيا وأوروبا، وعن الطبقة العليا الروسية. ولكن ما جدوى الكلام عن ذلك؟ الألمان حطموا أعصابي. كما حطمتها حياتنا الروسية، حياة طبقتنا العليا، وثقتها بأوروبا وحضارتها. حادث باريس[2] هزني من الأعماق. كذلك المحامون الباريسيون أبدوا خسة في هتافهم «تحيا بولندة». تفو، ما أبشع هذه الحقارة. ويا لغباء تلك الإجراءات الرسمية. لقد تمسكتُ أكثر بفكرتي السابقة من أن عدم معرفة أوروبا بنا أو معرفتها الخسيسة بشؤوننا أمر نافع لنا. ثم ما أكثر الرسميات الدنيئة في محاكمة بيريزوفسكي.[3]

والأهم ما أكثر الثرثرة والمراوحة في المكان نفسه.

روسيا تبدو لنا من هنا واضحة ومجسمة أكثر. ومن الوقائع المدهشة نضوج الشعب الروسي المفاجئ في تقبل جميع الإصلاحات عندنا، الإصلاحات القضائية على الأقل (. . .)

ورغم أنني لم ألتق أحداً تقريباً هنا، إلا أنني صادفت في ألمانيا روسياً يقيم في الخارج على نحوٍ دائم ويتردد على روسيا سنوياً لثلاثة أسابيع يستلم خلالها العائدات ويعود إلى زوجته وأولاده الذين «تألمنوا» جميعاً.

وسألته بالمناسبة: «لماذا صدّرت نفسك؟»، فأجابني حرفياً بوقاحة وانفعال: «هنا حضارة وعندنا همجية. وإلى ذلك لا توجد هنا قوميات. بالأمس كنت في عربة القطار ولم أتمكن من التفريق بين الفرنسي والإنجليزي والألماني.

- يعني هذا تقدم في اعتقادك؟

- بالطبع.

- هل تعلم أن ذلك غير صحيح إطلاقاً؟ الفرنسي يبقى فرنسياً بالدرجة الأولى، والإنجليزي إنجليزياً. الحفاظ على الهوية هو الهدف الأسمى بالنسبة لهم. والأكثر من ذلك أن قوّتهم تكمن في هذه التوجهات.

- هذا غير صحيح بالمطلق. الحضارة يجب أن تنشر السواسية. وسنكون سعداء عندما ننسى بأننا روس وكلٌّ منا يشبه الآخرين، ولا ننصت إلى كاتكوف.

- ألا تحب كاتكوف؟

- إنه سافل.

- لماذا؟

- لأنه يكره البولونيين.

- وهل تقرأ مجلته؟

- لا أقرأها أبداً».

أنقل إليك هذا الحديث بالحرف الواحد. هذا الإنسان ينتمي إلى التقدميين الشباب، ويبدو أنه يبتعد عن الجميع. إنهم يتحولون في الخارج إلى كلاب مسعورة موتورة.

في الأخير استولت علينا الكآبة، أنا وآنّا غريغوريفنا، في درزدن. والأهم تركت فينا أثرها الوقائع التالية:

1) من رسائل (ربيبي) بافل، وقد كتب لي مرة واحدة، فهمت أن الدائنين قدموا طلب الحجز، ما يعني أننا لن نتمكن من العودة إلى روسيا إلا بعد التسديد. 2) اتضح أن زوجتي حامل. رجاءً فليبق ذلك سراً بيننا. الشهر التاسع سيصادف في فبراير. ولذا فالعودة غير ممكنة. 3) يطرح السؤال نفسه: ماذا سيحصل لأهلي في بطرسبورغ، إميليا فيودوروفنا وبافل وغيرهما؟ إنهم بحاجة إلى النقود، وهي غير متوفرة. 4) إذا كنا سنقضي الشتاء (في الخارج) فلا بد أن نقضيه بمكان ما في الجنوب. ثم إنني أردت لآنّا غريغوريفنا أن تشاهد بعض الأماكن للترويح عنها ومرافقتها في بعض الجولات. فقررنا أن نقضي الشتاء في سويسرا أو إيطاليا. ولكنْ لا نقود لدينا. ما كان معنا أنفقناه عن آخره تقريباً. كتبت إلى كاتكوف ووصفت له حالتي وطلبت منه سلفة أخرى بمبلغ 500 روبل. وماذا تعتقد؟ استجاب للطلب. فما أروع هذا الرجل! إنه إنسان بقلب كبير. وتوجهنا إلى سويسرا. لكنني أبدأ هنا بوصف عاري وحقارتي.

عزيزي أبولون نيكولايفيتش. أشعر بأني يمكن أن أعتبرك حاكماً أو محكماً لي. فأنت إنسان ومواطن. إنسان بقلب كبير. تأكدت من ذلك من زمان. أنت زوج وأب نموذجي. ثم إنني كنت دوماً أقدر أحكامك. ولا يؤلمني أن أعلن التوبة أمامك. لكنني أكتب هنا لك وحدك. فلا تقدمني إلى محاكم البشر.

عندما مررت على مسافة من بادن عنّ لي أن أستدير نحوها. أقضَّت مضجعي فكرة مغرية: ماذا لو ضحيت بـ 10 لوي؟ فلعلني أربح ولو 2000 فرنك تكفي لمعيشة أربعة أشهر مع تأمين كل احتياجات أهلنا في بطرسبورغ. والأدهى من ذلك أنني صادف وربحت أحياناً في السابق. والأسوأ من ذلك كله أن طبعي حقير وعاطفي جداً. ففي كل

شيء وفي كل مكان أسير بالأمور حتى الحافة الأخيرة، طول عمري على حافة الهاوية.

وضحك عليّ الشيطان في الحال. فربحت 4000 فرنك في ثلاثة أيام، بسهولة غير مسبوقة. والآن أرسم لك كيف تصورت الأمر. من جهة هذا ربح سهل، حيث كسبت من مئة فرنك أربعة آلاف في ثلاثة أيام. ومن جهة أخرى أمامي الديون والحجز والقلق النفساني وتعذر العودة إلى روسيا. والعامل الثالث والأهم هو اللعب نفسه. فما أقوى جاذبيته. كلا، أقسم لك أن المسألة ليست فقط في المصلحة الشخصية، بالرغم من أنني كنت بحاجة إلى النقود والحصول على المزيد منها. آنّا غريغوريفنا ألحّت على أن أكتفي بالـ 4000 فرنك وأرتحل رأساً. ولكن ما أشد إغراءات هذه الإمكانية السهلة لتصحيح أحوالي. وما أشد تأثير الأمثلة الأخرى. فبالإضافة إلى ربحي الشخصي كنت أرى يومياً أشخاصاً يربحون 20000 و30000 ولا ألتفت إلى الخاسرين. فهل أولئك ملائكة؟ أنا أكثر منهم حاجة إلى النقود. واصلت المجازفة وخسرت. صرت أخسر آخر ما لدي منفعلاً لحد الحمى. وخسرت. ورهنت الثياب. آنّا غريغوريفنا رهنت آخر حاجياتها. فما أروع هذا الملاك. وكيف كانت تهدئني وتشعر بالضجر في بادن اللعينة ونحن في الغرفتين اللتين انتقلنا إليهما في طابق فوق ورشة الحدادة. وأخيراً انتهى كل شيء. خسرت كل ما نملك. آه، ما أشد حقارة الألمان. كلهم بلا استثناء مرابون نصابون حقراء. صاحبة الشقة زادت الإيجار لعلمها بأننا لن نغادر إلى أي مكان ما لم نستلم النقود. وأخيراً صار من اللازم الفرار من بادن. وكتبت إلى كاتكوف من جديد. وطلبت منه 500 روبل أخرى. لم أكتب له عن ظروفي، لكن الرسالة وصلته من بادن، ففهم الوضع بعض الشيء على

الأرجح. لكنه أرسل المبلغ، أرسله على أية حال. ووصل مجموع ما استلمته مقدماً من «البشير الروسي» 4000. إلا أن المشكلة أن أكثر من نصف الـ 500 روبل أنفق على الفوائد المئوية وعمولة رهن أثاثنا في بطرسبورغ من قبل والدة آنّا غريغوريفنا. وقد أرسلت «البشير» النقود باسمها بناءً على طلبي. ثم إنني دفعت 100 روبل لتسديد الديون في بادن، وننتظر 50 روبلاً ترسلها والدة آنّا غريغوريفنا من نفس تلك الـ 500. وهي البقية التي لم يتم استلامها آنذاك. وأخيراً بقي لدينا قرابة مئتي فرنك للانتقال إلى جنيف. لماذا جنيف؟ لا أدري. وهل هناك فرق؟ انتقلنا إلى جنيف واستأجرنا غرفة مؤثثة عند اثنتين من العجائز. والآن، أي في اليوم الرابع، بقي عندنا من المال 18 فرنكاً. بالإضافة إلى الـ 50 روبلاً التي ننتظرها (من والدة آنّا ولن نستلمها قبل أقل من شهرين).

ولكي نتخلص من بادن ونحن في داخلها تعذبنا في ذلك الجحيم 7 أسابيع. في البداية، حالما وصلت إلى بادن، التقيت إيفان ألكساندروفيتش غونتشاروف في محطة القطار في اليوم الثاني. وقد ارتبك عندما رآني في البداية. فهذا المستشار المدني أو الفعلي مولع بالقمار مثلي. وطالما أن الاختباء متعذر، وإنني، فضلاً عن ذلك، ألعب بصراحة غليظة على المكشوف فقد كف عن الاختباء. كان يلعب بحماس محموم في القطع الفضية الصغيرة. ظل يلعب طول الأسبوعين من مكوثه في بادن وأظن أنه خسر الكثير. وعندما خسرت أنا حتى الصفر، وكان هذا الإنسان اللطيف قد رأى في يدي قبل ذلك ذهباً كثيراً، تفضل يحفظه اللّه وأعطاني 60 فرنكاً بناء على طلبي كدَيْن. ولعله كان يلومني أشد اللوم: «لماذا خسرت كل ما أملك، وليس نصفه كما فعل هو؟»

غونتشاروف كان يحدثني طول الوقت عن تورغينيف.[4] ولذا قررت أخيراً أن أزوره مع أنني كنت أرجئ الذهاب إليه. ذهبت في الصباح، في الثانية عشرة، فوجدته يتناول فطوره. وأقول لك بصراحة إنني في السابق أيضاً لم أكن أحب هذا الرجل شخصياً. والأدهى من ذلك أنني منذ عام 67 (الأصح منذ 1865)، عندما أقمت في فيسبادن، كنت مديناً له بـ 50 تاليراً لم أسددها حتى الآن[5]. كما أنني لا أحب معانقته الأرستقراطية المرائية حيث يسلط عليك قبلة ويعطيك خده كي تقبله شئت أم أبيت. كبرياؤه فظيعة. والمهم أن كتابه «الدخان» ينرفزني. قال لي إن الفكرة الرئيسية والمنطلق الأساسي للكتاب في العبارة التالية: «لو سقطت روسيا لما خسرت البشرية ولما اضطربت». أكد لي أن هذا هو معتقده الرئيسي بشأن روسيا. وقد رأيته منفعلاً جداً لإخفاق «الدخان». إلا أنني في الحقيقة لا أعرف كل تفاصيل إخفاق الكتاب. كتبتَ لي عن مقالة ستراخوف في «مذكرات الوطن» (حول تورغينيف)، لكنني ما كنت أعرف أن الجميع ينتقدونه وأن أعضاء أحد النوادي في موسكو، على ما أعتقد، جمعوا تواقيع للاحتجاج على «الدخان». أبلغني هو بذلك. وأعترف لك بأنني ما كنت أتصور أن بالإمكان عرض كل دمامل الغرور الشخصي بهذه السذاجة الخرقاء كما فعل تورغينيف. ويتباهى هؤلاء الأشخاص، على فكرة، بأنهم ملحدون. فقد أبلغني تورعينيف أنه ملحد حتى النخاع. ولكن، يا إلهي، المسيح هو الذي منحنا الربوبية، بمعنى التصور الرفيع لدى الإنسان لدرجة لا يمكن فهمه فيها من دون التبجيل ولا يمكن عدم الإيمان بأن هذا هو المثال الأعلى الخالد للبشرية. فماذا قدم لنا تورغينيف وهيرتسن وأوتين وتشيرنيشيفسكي ومن لفَّ لفَّهم؟ فبدلاً من الجمال الإلهي السامي الذي يبصقون عليه

نراهم جميعاً مغرورين خبثاء، ومنفعلين بلا حياء، ومتكبرين أغبياء، لدرجة تجعلنا لا نفهم ماذا يأملون وعلى ماذا يعوّلون، وهل سيمضي أحد خلفهم؟ لقد شتم تورغينيف روسيا والروس لحد القذف الشنيع. ولكنني لاحظت أن جميع هؤلاء الليبراليين والتقدميين المزعومين، ومعظمهم من مدرسة بيلينسكي، إنما يجدون في ذم روسيا متعة وارتياحاً. والفارق أن أتباع تشيرنيشيفسكي يذمّون روسيا ويتمنّون لها السقوط بصراحة، أما غلمان بيلينسكي فيضيفون إلى ذلك أنهم يحبون روسيا. والحقيقة أنهم يبغضون كل ما فيه ذرة من الأصالة في روسيا، ولذا ينكرونه ويلتفتون فوراً بارتياح وتلذذ إلى الكاريكاتير. فماذا لو قدمنا لهم في الأخير واقعاً لا يمكن إنكاره أو إتلافه بالكاريكاتير، فيضطرون إلى الموافقة عليه؟ في هذه الحالة، باعتقادي، سيشعرون بالألم وبتعاسة ما بعدها تعاسة. هذا أولاً، وثانياً- لاحظت أن تورغينيف مثله مثل الذين لم يكونوا في روسيا من زمان، ولا يعرفون الحقائق والوقائع إطلاقاً، رغم قراءة الصحف، وقد فقدوا بخشونة كل إحساس بوجود روسيا ولا يفهمون الوقائع العادية التي لم يعد ينكرها حتى العدميون الروس الذين صاروا يكتفون بالتهكم الكاريكاتيري كما يحلو لهم. فيما قال لي تورغينيف إن علينا أن نركع أمام الألمان، وإن ثمة طريقاً مشتركاً واحداً لا مفر للجميع من سلوكه، ألا وهو الحضارة، وإن جميع محاولات التروّس والنزعة الروسية الاستقلالية إنما هي حماقة وغباء. وقال إنه يكتب مقالة مفصلة عن جميع دعاة التروّس والصقلبة. ونصحته لتقليل العناء أن يشتري تيلسكوباً من باريس. فسألني «وما الغرض منه؟». فأجبته: «المسافة بعيدة من هنا. وجِّه التليسكوب صوب روسيا وتطلع إلينا، وإلا فالرؤية صعبة في الحقيقة». فزعل وانفعل كثيراً. وعندما رأيته بمثل هذا الانفعال قلت

له بسذاجة متكلفة: «لم أكن أتوقع أن كل هذه الانتقادات لك مع إخفاق «الدخان» تثير انفعالك لهذا الحد. واللّه، كل ذلك لا يساوي شيئاً، ابصق عليه». فقال محمر الوجنتين: «أنا لست منفعلاً أبداً». وحوّلت مجرى الحديث، فتطرقت إلى الشؤون المنزلية والشخصية. ثم أخذت قبعتي وذكرت بالمناسبة، من دون قصد مبيت، كل ما خيم على الفؤاد من الألمان في ثلاثة أشهر: «ما أكثر الغشاشين والمحتالين بينهم. نعم، الأجلاف هنا أسوأ بكثير وأخس مما عندنا، ولا أشك في أن الألمان أغبى منا. أنت تتحدث عن الحضارة، فماذا قدَّمت لهم الحضارة؟ وبماذا يمكنهم أن يتفاخروا ويتباهوا أمامنا؟»

شحب لونه. واللّه، من دون مبالغة. وقال: «أنت تهينني شخصياً عندما تتكلم بهذه اللهجة. فاعلم أنني انتقلت إلى هنا نهائياً، وأنا أعتبر نفسي ألمانياً، وليس روسياً، وأفتخر بذلك». وأجبته: «مع أنني قرأت «الدخان» وتكلمت معك الآن ساعة كاملة فما كنت أتوقع منك أن تقول هذا الكلام، ولذا لا مؤاخذة لأنني أهنتك». ثم ودعنا أحدنا الآخر بمنتهى اللطف، وقطعت على نفسي عهداً بأن لا أزور تورغينيف أبداً. وفي اليوم التالي، في تمام العاشرة صباحاً، عرج عليّ هو بنفسه وترك عند صاحبتَي الشقة بطاقته الشخصية لتسلماها لي. وطالما قلت له يوم أمس إنني لا أستطيع استقباله قبل الثانية عشرة، لأننا ننام حتى الحادية عشرة، فقد اعتبرت مجيئه في العاشرة صباحاً إشارة واضحة لكونه لا يريد مقابلتي وقام برد الزيارة في العاشرة تحديداً لكي أفهم هذه الإشارة. طوال تلك الأسابيع الـ 7 صادفته مرة واحدة في المحطة. تطلعنا بعضنا ببعض ولم نرغب في المصافحة.

ربما لا تروق لك، يا عزيزي أبولون نيكولايفيتش، لهجة التشفي

التي أحدثك بها عن تورغينيف وكيف أهان أحدنا الآخر. واللّه العظيم لم أكن قادراً على التحمل. لقد أهانني جداً بمعتقداته. بالنسبة لي شخصياً لا فرق، مع أنه بتعاليه وكبريائه ليس جذاباً جداً. ولكن لا يمكن سماع هذه الشتائم على روسيا من روسي خائن كان يمكن أن يكون نافعاً لها. لقد لاحظت من زمان، من أربع سنوات خلت، تزلفه إلى الألمان وركوعه أمامهم وكراهيته للروس. إلا أن الانفعال الحالي والحقد الأعمى على روسيا سببهما الأول والأخير هو إخفاق (رواية) «الدخان» وتجرؤ روسيا على عدم الاعتراف بعبقريته. لا شيء سوى الغرور، وهذا أدهى وأمرّ.

على أية حال، فليذهب هؤلاء جميعاً إلى الشيطان!

والآن استمع، يا صديقي، إلى نواياي: أنا طبعاً تصرفت بدناءة لأنني خسرت. ولكنني نسبياً خسرت القليل من نقودي. ومع ذلك كان بوسع تلك النقود أن تؤمّن معيشتنا لشهرين، بل ربما لأربعة أشهر إذا حكمنا على الأمور من أسلوب حياتنا. سبق أن قلت لك إنني لم أصمد أمام غواية الربح. لو كنت قد خسرت القطع النقدية العشر منذ البداية لتركت اللعب وانصرفت. إلا أن الربح الذي جاءني بـ 4000 فرنك هو الذي قادني إلى التهلكة. لم أتمكن من مقاومة إغراءات الفوز بالمزيد، عندما كان سهلاً، والتخلص دفعة واحدة من جميع ملاحقات الدائنين وتأمين احتياجاتي مؤقتاً واحتياجات باقي أهلي: إميليا فيودوروفنا وبافل وغيرهما. إلا أن ذلك كله، على فكرة، لا يبرر سلوكي أبداً، طالما أنني لم أكن وحيداً. كنت مع كائن يافع رائع طيب القلب محضني ثقته، فكنت حامياً له وراعياً، وبالتالي ما كان لي أن أعمل على هلاكه وأجازف بكل ما أملك وإن كان قليلاً.

مستقبلي، على ما أتصور، عصيب للغاية. المهم أنني لا استطيع

العودة إلى روسيا للأسباب الآنفة الذكر. والأدهى من ذلك: ماذا سيحصل للذين تتوقف حياتهم على مساعداتي؟ كل هذه الأفكار تحطمني. ولكن، مهما يكن من أمر فلا بد من الخروج من هذا المأزق على نحو ما، آجلاً أم عاجلاً. ولا يمكنني طبعاً أن أعوّل إلا على نفسي. فلا بوادر لحل آخر.

في عام 65، حينما عدت من فيسبادن في أكتوبر، تمكنت بشكل ما أن أقنع الدائنين بالانتظار قليلاً، فحشدت طاقاتي وشرعت بالعمل[6]. وتمكنت أن أدفع للدائنين مبالغ مرموقة. والآن وصلت إلى جنيف بأفكار في الذهن[7]. (خريطة) الرواية موجودة، وستكون، إن شاء اللّه، ضخمة وربما جيدة. أنا أحبها كثيراً، وسأشرع في كتابتها بارتياح ممزوج بالقلق.

قال لي كاتكوف في أبريل إن الأفضل بالنسبة لهم البدء بنشر روايتي اعتباراً من يناير 1868. وهذا ما سيحصل، مع أنني سأوافيهم بالرواية على أجزاء قبل ذلك.

ومع غياب الدائنين هنا، إلا أن وضعي أسوأ مما في عام 65. آنذاك كنت أرى بافل وإميليا وكنت وحدي. صحيح أن آنّا غريغوريفنا ملاك من السماء، ويا ليتك تعرف قيمتها الآن بالنسبة لي. أنا أحبها، وهي تقول إنها سعيدة، سعيدة تماماً. وإنها ليست بحاجة إلى أي ترفيه أو لقاءات مع الناس، وأنها قانعة تماماً بوجودنا نحن الاثنين معاً في غرفة واحدة.

طيب، يعني أنني الآن سأواظب على العمل المتواصل قرابة ستة أشهر. آنذاك زوجتي ستلد. جنيف مدينة معتبرة. فيها أطباء، ولغة الخطاب هي الفرنسية. إلا أن الطقس سيّئ للغاية. معتكر حالك. وهو في الخريف والشتاء أكثر سوءاً. ولعلنا نستطيع، إذا توفر المال،

أن ننتقل إلى إيطاليا أو باريس بعد شهرين ونصف. عموماً ينبغي قضاء فصل الشتاء إما في إيطاليا وإما في باريس. ولا أدري أين أرخص وأريح. ولعلنا نبقى في جنيف حتى الربيع.

الحسابات المالية كالآتي: إذا تقرر نشر الرواية لن يرفض كاتكوف تقديم سلفة أخرى بثلاثة آلاف خلال العام القادم. وبالتالي تتوفر نقود لنا ولبافل وإميليا، بل وحتى لتسديد القليل من الديون بهدف تهدئة الدائنين. كما يمكن بيع الرواية سلفاً في طبعة ثانية اعتباراً من منتصف السنة(8).

أنت عزيزي الوحيد، أنت بمثابة العناية الإلهية بالنسبة لي. فلا تمتنع عن مساعدتي في المستقبل. وأنا أستعطفك أن تشارك في جميع أموري الصغيرة والكبيرة.

ولعلك تستشف الفكرة الأساسية التي تقوم عليها كل آمالي. وهي أن كل ذلك يمكن أن يتحقق ويؤتي أُكُله بشرط واحد هو أن تأتي الرواية موفقة. وبالتالي ينبغي الآن الاهتمام بهذا الموضوع بكل ما أوتيت من قوة.

آه، يا عزيزي، ما أشد تبنّي تلك الفكرة التي لاحقتني قبل ثلاثة أعوام لأتعهد بتسديد جميع هذه الديون وصرف كل الكمبيالات دفعة واحدة. فمن أين لي بالصحة الكافية والطاقات اللازمة لهذا الغرض؟ وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن النجاح ممكن فبأي شرط؟ بشرط أن يكون أي نتاج لي ناجحاً من كل بد لدرجة تثير في الجمهور اهتماماً كبيراً، وإلا يتقوض كل شيء. فهل هذا ممكن؟ وهل يندرج ذلك ضمن الحسابات الرياضية؟

والآن كلمتي الأخيرة لك. استمع إليها وتأمل فيها وساعدني.

لدينا الآن 18 فرنكاً. وغداً أو بعد غد نستلم من والدة آنّا

غريغوريفنا 50 روبلاً لم تكن قد أوصلتها لنا من مبلغ كاتكوف. هذا كل شيء. كل ما لدينا من نقود حتى وصول حوالة جديدة من كاتكوف. أم آنّا لا تستطيع حالياً، في هذه اللحظة وفي هذه الظروف تحديداً، أن تساعدنا بكوبيك واحد.

ولا يمكنني في الحال الحاضر أن أطلب من كاتكوف شيئاً. لكنّ الأمر سيختلف بعد شهرين. آنذاك سأوافيه برواية تعادل ألفاً وخمسمئة روبل وأصف له أحوالي. وسيقتطع 1000 روبل تسديداً لديني، ويبعث لي 500. وأملي في ذلك كبير. فهو رجل طيب شهم.

ولكن كيف نعيش هذين الشهرين من التأليف؟ لا تلمني، وكن ملاكاً حارساً لي. أنا أعرف، يا أبولون نيكولايفيتش، أنك نفسك في ضائقة. وما كنت سأطلب منك مساعدة أبداً. لكنني أغرق، بل غرقت تماماً. بعد أسبوعين أو ثلاثة لن يبقى عندي كوبيك واحد. والغريق يمد يده دون أن يحكّم عقله. وأنا أفعل مثله. أنا أعرف أنك تميل إليّ، ولكنني أعرف أيضاً أنك عاجز تقريباً عن مساعدتي بالمال. ومع ذلك، مع معرفتي هذه، أرجوك أن تساعدني، لأنه لا أحد عندي سواك، وإذا لم تساعدني فسأهلك، نعم سأهلك.

وهذا رجائي:

أطلب منك 150 روبلاً. أَرسلْها إلى جنيف على بريد poste restante. وبعد شهرين تبعث لك هيئة تحرير «البشير الروسي» 500 روبل باسمي. سأطلب منها ذلك. ولا أشك أنها ستفعل. المهم أن أبعث لهم الرواية. وسأبعثها. بلا شك أيضاً.

وهكذا أطلب منك، يا عزيزي، لشهرين. فأنقذْني. وسأخدمك إلى الأبد بالصداقة والمودة. وإذا لم يكن المبلغ متوفراً لديك اقترض من أحد ما لأجلي.

معذرة على هذه اللهجة في الكتابة. فأنا غريق[9].

اعتباراً من سبتمبر يبقى بافل بلا نقود، ناهيك عن إميليا فيودوروفنا. ولذا خصص له من هذه الـ 150 روبلاً 25 وقل له أن يقتصد لمدة شهرين. وفيما بعد سأكتب لك كم تخصص له من نقود كاتكوف الـ 500. لهذا الغرض أريد أن أطلب من هيئة تحرير «البشير الروسي» أن ترسل المبلغ إليك، لأنني أرجوك أن تكون مساعداً لي وقتياً في بعض الشؤون في بطرسبورغ، بمعنى أن بعض الواردات والمصروفات ستتم من خلالك. ولا تقلق بسبب ذلك، فليس فيه ما يحرجك. أنا أطلب فقط مشاركتك الودية وأستعطفك لأنه ليس لي أحد في بطرسبورغ يمكن أن أعوّل عليه سواك.

كما أرجوك أن تكتب لي بأسرع ما يمكن. لا تتركني وحدي. اللّه سيثيبك بالمقابل.

بلّغ بافل أن يكتب لي إلى هنا في جنيف، عن كل ما حصل له، وإذا كانت لديه رسائل معنونة لي فليرسلها مثلما في المرة السابقة. أنا استلمت منه رسالة واحدة طوال تلك الفترة. يخيل إليَّ أنه لا يحبني بتاتاً. وهذا يؤذيني كثيراً.

عنواني:

M-r Théodore Dostoiewsky, Suisse, Genève, poste restante

اكتبْ لي عنوانك أيضاً. وبما أني لا أعرف رقم داركم أبعث إليك هذه الرسالة على عنوان آنّا نيكولايفنا سنيتكينا (حماتي) وستوصلها لك. على أية حال أرجوك كل الرجاء، يا عزيزي، أن تكتب لي بأسرع ما يمكن وتبعث لي المزيد من الأخبار عن جميع معارفنا وعما يجري وما يسري وعما تفعل أنت شخصياً. باختصار، اسقِ بقطرة ماء تلك الروح التي تحشفت في الصحراء. باللّه عليك.

تحياتي لأهلك، لوالديك وآنّا إيفانوفنا. لها خصيصاً. من آنّا غريغوريفنا خصيصاً. فما أكثر ما نتذكركم. وما أكثر ما نتحدث عنكم. وسنلتقي في حين ما.

أنتظر نصائحك، ورأيك بخصوص أوضاعي. وهل بلغتك معلومات عن أموري في بطرسبورغ، ولو من بافل؟

في الرسالة التالية سأكتب عن شيء آخر.

أنا في جنيف منعزل تماماً، ولم أرَ أحداً من الروس.

«لا صوت روسياً ولا وجه!»[10].

وداعاً، أعانقك بكل حرارة وأقبّلك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) ومنه أولى رؤوس أقلام رواية «الأبله».

(2) المحاولة الفاشلة لاغتيال القيصر الروسي ألكسندر الثاني أثناء زيارته مع حاشيته باريس.

(3) المغترب البولوني المتهم بمحاولة اغتيال القيصر.

(4) كان موقف غونتشاروف من تورغينيف متحيزاً جداً.

(5) بشهادة زوجة دوستويفسكي سدد الكاتب هذا الدين بعد 10 سنوات تقريباً، كما أسلفنا.

(6) على رواية «الجريمة والعقاب».

(7) بشأن «الأبله».

(8) الطبعة الثانية لرواية «الأبله» صدرت في عام 1874.

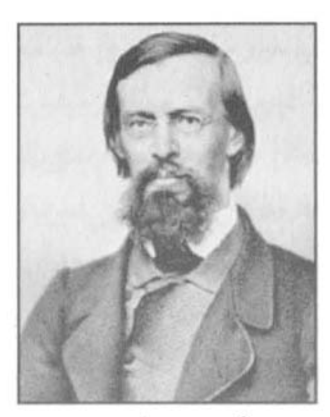
(9) مايكوف بعث للكاتب 125 روبلاً.

(10) من مسرحية غريبويدوف «ذو العقل يشقى».

119. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 15 سبتمبر 1867

اعذرني، يا عزيزي، أبولون نيكولايفيتش، لأني تلكأت في الرد عليك. وخصوصاً على الرسالة التي حولت لي فيها النقود. كنت مشغولاً في إكمال المقالة اللعينة: «هكذا تعرفت على بيلينسكي». ولم يكن بالإمكان إرجاؤها أو التأخر في تسليمها. في حين أنني اشتغلت فيها خلال الصيف أيضاً. إلا أنها عذبتني بصعوبة كتابتها لدرجة جعلتني أتكاسل في إنهائها حتى الآن. وأخيراً أنهيتها بأسنان مصطكة. والمشكلة أنني شرعت بكتابة مقالة كهذه لغباوتي. فحالما بدأت أدركت أنني لن أتمكن من إرضاء الرقابة، ذلك لأنني أردت أن أكتب كل شيء. كتابة رواية بعشر ملازم أسهل من هاتين الملزمتين. وكل ما نتج عن ذلك أنني كتبت هذه المقالة اللعينة المقيتة خمس مرات إجمالاً، حيث كنت كل مرة أشطب منها وأعيد تفصيلها من جديد. وأخيراً وصلت بها على نحو ما إلى المستوى الحالي الذي هو رديء لحد الاشمئزاز. فما أكثر الوقائع الثمينة التي اضطررت إلى حذفها. وكما كان المتوقع ظل فيها كل ما يزكم الأنوف مما يسمى بالوسطية الذهبية. يا للبشاعة!



أبولون مايكوف

كنت قد استلمت أجر هذه المقالة مقدماً. من بابيكوف وجماعته[1].

وعندما سافرت إلى موسكو في أبريل طلبت من بابيكوف أن يمهلني فترة، ليس لخمسة أشهر طبعاً، مع أن الموعد لم يكن محدداً نهائياً. وكانوا يريدون إصدار حوليتهم في سبتمبر أو أكتوبر. هذه كانت حساباتهم في أبريل، ما يعني أن المجلة لن تصدر قبل رأس السنة. مع أن خير البِّر عاجِلُه. ساعدني، يا عزيزي. تكرَّم عليّ بالآتي:

أَرسلْ مقالتي، يا حبيبي، إلى بابيكوف في موسكو مع الرسالة غير المختومة طياً. بابيكوف في موسكو، بفندق «روما». يمكنني طبعاً أن أبعثها إليه بنفسي. ولكني أخشى أن لا يكون موجوداً في «روما»؟ ولذا أرجوك أن تكون بمثابة الأب الحنون. وتفعل الآتي: اكتبْ ثلاثة سطور لبابيكوف في فندق «روما» وأرفقْ بها رسالتي من دون المقالة. وأَرسِل المقالة إن أمكن إلى متجر سولوفيوف، متجر بازونوف سابقاً، على شارع ستراسنوي بولفار مع سطرين إلى سولوفيوف توضح له

فيهما أن هذه المقالة معنونة إلى قسطنطين إيفانوفيتش بابيكوف وتكتب اسمه على الظرف وترجوه أن يبعثها إليه إذا لم يكن بابيكوف في «روما» وإذا كان سولوفيوف يعرف أين هو. أرجوك أن تتصرف هكذا، باللّه عليك. ضميري يؤنبني بخصوص هذه المقالة. ولا أدري ماذا أفعل. ساعدني يا حبيبي. واعذرني لأنني أزعجك بطلباتي.

اقرأ رسالتي إلى بابيكوف، واقرأ المقالة إذا أردت. واكتبْ لي عن رأيك صراحة فيما لو قرأتها[2]. المهم بالنسبة لي أن لا تكون رديئة جداً.

فكرت عدة مرات أن أنهي هذه المقالة في ثلاثة أيام. فتصور، حالما انتقلت إلى جنيف بدأت نوبات الصرع. وهي شديدة للغاية مثلما في بطرسبورغ. نوبة كل عشرة أيام. وبعدها خمسة أيام. أنا في حالة يرثى لها. إنني إنسان هالك. الطقس في جنيف على أسوأ ما يكون. وفي الحال الحاضر لدينا من أربعة أيام عاصفة لا تصادف في بطرسبورغ إلا مرة واحدة في السنة. والبرد فظيع، خلافاً لما كان على الجو من دفء في السابق. ولذا تلكأ العمل وكتابة الرسائل وكل شيء في الآونة الأخيرة. . .

الـ 125 روبلاً التي أرسلتها أنقذتنا بكل معنى الكلمة. سألتقط أنفاسي قليلاً، وأواصل كتابة الرواية[3]. اكتبْ لي، رجاءً. فأنا وآنّا في عزلة تغدو الرسائل فيها مثل المنّ والسلوى بالنسبة لنا، وخاصة إذا كانت منك. نقرأ كل رسالة خمس مرات.

توجد هنا جرائد روسية، فأقرأ منها «غولوص» («الصوت») و«الوقائع الموسكوبية» و«وقائع بطرسبورغ».

وتلك نعمة من النعم. وإلا فالملل هنا قاتل. ولكنْ لا حيلة في الأمر. لا بد من التأليف.

هل كتبتُ لك عن «مؤتمر السلام» هنا؟ لم أر في حياتي ولم أسمع بلخبطة كهذه. لكنني لم أكن أتصور أن الناس يمكن أن يقوموا بمثل هذه الحماقات. كل شيء كان من عمل الحمقى: كيف اجتمعوا وكيف تناقشوا وكيف قرروا. بديهي أنني لم أكن أشك في أن أول ما سيفعلونه هو الشجار. وهذا ما حصل. بدأوا بالتصويت على عدم لزوم الدول الملكية الكبرى، وعلى ضرورة تقسيمها إلى دول صغيرة، ثم قالوا لا موجب للدين وما إلى ذلك. كانت تلك 4 أيام من الصياح والشتائم. كان من المفروض أن تراهم بأم العين وتسمعهم بنفسك.

رأيت غاريبالدي (حضر افتتاح المؤتمر). وارتحل في الحال.

أردت أن أكتب لك عن أمور أخرى، لكنني أتركها لرسالة لاحقة. هل تصدق بأنني لحد الآن في حالة الصرع وأخشى أن أكتب الكثير؟

كيف حال أهلي؟ لماذا لا يكتب لي بافل[4]؟ سأكتب هذه الأيام إلى إميليا فيودوروفنا.

إلى اللقاء يا عزيزي. لا تزعل مني. ما أخبار سكة الحديد الجنوبية؟ نحن الآن أحوج ما نكون إليها.

تحياتي إلى آنّا إيفانوفنا. آنّا (غريغوريفنا) تبلغها وتبلغك تحياتها القلبية.

إذا كنت تريد معرفة شيء عن بابيكوف فأكثر من يعرف عنه هو ستراخوف وكذلك أفيركييف.

في الرسالة التالية سأكتب أكثر وبشيء من الإثارة. حالياً ذهني ليس صافياً.

أشد على يدك بحرارة.

المخلص فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: تصور، هنا أيضاً حجر عثرة في الطريق. أنا في الحقيقة لا أعرف أين يقع فندق «روما» (في موسكو). أعتقد في شارع تفيرسكايا.

العنوان: شارع تفيرسكايا، فندق «روما». ليد قسطنطين إيفانوفيتش بابيكوف.

أشكرك من صميم القلب مرة أخرى على المساعدة.

باللّه عليك ابعثْ لي عنوانك، أي رقم الدار والتسمية. فأنا الآن أيضاً أرجو من آنّا نيكولايفنا أن توصل لك هذه الرسالة.

---

(1) استلم دوستويفسكي مقابل هذه المقالة 200 روبل من بابيكوف لحولية جديدة لم يوفق الأخير في إصدارها.

(2) أبدى مايكوف رأيه في المقالة: «مثل هذا لا يكتب إلا في مذكرات ما بعد الموت»

(3) «الأبله».

(4) بناء على طلب والدة زوجة دوستويفسكي لم يسلم مايكوف ربيب الكاتب بافل عنوانه في جنيف.

120. إلى ستيبان يانوفسكي

جنيف، 28 سبتمبر 1867

السيد الكريم ستيبان دميتريفيتش المحترم[1]

هل كنتَ في الخارج؟ بحثنا عن آثارك في عموم ألمانيا، ولكن لا خبر جاء ولا وحي نزل. أكتب لك ولا أعرف عنوانك، ولذا أكلف ألكسندر بافلوفيتش إيفانوف أن يوصل هذه الرسالة إليك، فلا بد أن يعرف مكان خدمتك. وبالتالي أنا واثق بأن الرسالة ستصلك إذا كنت في موسكو.

أنا أقيم في جنيف منذ شهر تقريباً. ولعلي أقول إنها المدينة الأكثر مللاً في العالم. متقيدة جداً بالبروتستانتية، ويصادف المرء فيها مستخدمين في حالة سكر دائم. صحيح ليس كل ما يلمع ذهباً. النزاهة الألمانية والإخلاص السويسري وما إلى ذلك من توصيفات لا أدري من ابتدعها. ربما الألمان والسويسريون أنفسهم. فالبعض يكتبون في جرائد ريغا وبروسيا أننا نحن الروس سنعود إلى الهمجية السابقة ما إنْ يتركنا ألمان (حوض) البلطيق. ويؤكد أوستريالوف، شأنه شأن سولوفيوف المعجب بالألمان، أن أهالي الحارة الألمانية

يشربون الخمر من الصبح حتى المساء. وأثنى فولتير على ايفورت وهو من أهالي جنيف، فيما تتحدث دراسات العلماء عنه معلنة أن العالم لا يعرف سكيراً أكثر منه. لا تسخر مني، يا عزيزي ستيبان دميتريفيتش، إذا قلت إن من الصعب أن تجد في مكان ما غير ألمانيا هذا القدر من الحماقة والتحايل المصحوبَين بالتباهي والافتخار. وإلى ذلك يجلبون لنا في روسيا عاماً بعد عام الكثير من المصنوعات الأجنبية، ولذا نجد الكثيرين من الروس الذين يسافرون إلى الخارج واثقين، بفعل وهْمٍ لاعقلاني، بأن كل شيء جيد في الخارج وليس باهظ الثمن. إلا أنني تأكدت الآن بتجربتي الخاصة أن المصنوعات، ما عدا الضروريات، جيدة وغير غالية في باريس ولندن فقط. أما في سائر مدن أوروبا فهي أغلى وأسوأ مما عندنا. أؤكد لك ذلك. وكل مدينة ذات شأن كبر أو صغر، مثل جنيف، إنما تنتج وتستهلك مصنوعاتها رغم قرب فرنسا. ولكن ينبغي أن نأخذ بالاعتبار ما يلي: بشأن المصنوعات الخفيفة يتميز عدد من المدن بخصوصيته لهذا القدر أو ذاك. في إحداها النبيذ، وفي الأخرى الأحزمة، وفي الثالثة المنازل الريفية السويسرية المعمولة من الخشب الجميل. طيب، اشترِ من كل مدينة المصنوعات التي تمثل خصوصيتها، أما شراء الباقي فيعني تبذير النقود من دون جدوى. مواطنونا يسافرون إلى الخارج زرافات ووحداناً، وهناك يربّون أولادهم ويبذلون قصارى جهدهم ليحملوهم على نسيان اللغة الروسية. وثمة من يقيمون في الخارج أمداً طويلاً مثل تورغينيف. قال لي صراحة إنه لم يعد يرغب أن يكون روسياً، وبودّه لو نسي أنه روسي، وإنه يعتبر نفسه ألمانياً ويفتخر بهذا الانتماء. هنأته على ذلك وافترقت عنه. في جنيف حضرت «مؤتمر السلام» الذي صادف آنذاك. ومن المنبر العالي في القاعة التي تتسع لثلاثة أو أربعة آلاف

شخص كان يتشدق أشخاص مختلفون يقررون مصير البشرية. وكانت القضية فلسفية، إلا أن هدف المؤتمر عملي تطبيقي يتلخص في ما يلي: ما العمل لتنتفي الحروب من على وجه البسيطة ويحل السلام؟ تلك هي أول مرة في حياتي أستمع فيها وأرى إلى الثوريين ليس في الكتب، بل في الواقع، في سياق العمل، ولذا أبديت اهتماماً بالأمر ليس بقليل. وتقرر رأساً: لكي يحل السلام لا بد من القضاء على البابا والديانة المسيحية كلها بالسيف والنار. ثم طالما أن الدول العظمى كشفت عن عدم قدرتها على الوجود من دون جيوش كبيرة ودون أن تخوض حروباً فلا بد من تدميرها واستبدالها بجمهوريات صغيرة، ثم ينبغي تصفية الرأسمال بالسيف والنار، وكذلك جميع الذين لا يتبنون هذا الرأي. وكان بين الحاضرين[2] من حاولوا الاعتراض على هذا الهذر، ولم يسمح لهم بالكلام. وبدأ التصويت: كان الثوريون في الأقلية البائسة. إلا أن اللجنة زورت نتائج التصويت بوقاحة سافرة وأعلنت أن الثوريين أغلبية. أنا لا أفهم سبب منع مثل هذه المؤتمرات في فرنسا. فليفهم الفقراء الذين يستثيرهم هؤلاء الدعاة ويقودونهم إلى الهياج الشديد إلى أي حد يمكن أن يتمادى هؤلاء المحرضون وهل يستطيعون أن يقولوا أو يفعلوا شيئاً جدياً نافعاً؟ فقد بيَّن هذا المؤتمر بوضوح قيمة هؤلاء المنبوذين والاشتراكيين الطاعنين في السن، وكشف بأكمل وجه عن حقيقة القوى التي يمتلكونها وأن أحداً لن يسير وراءهم ما عدا المجانين من أمثالهم.

أنا أنوي البقاء في جنيف فترة أخرى. فأنا أؤلف رواية وبودّي أن أصل بها إلى نقطة معينة، إنْ لم أستطع أن أنهيها. آنّا غريغوريفنا تبلغك تحياتها وهي في الشهر الرابع (من الحمل). تكررت عليَّ

نوبات الصرع في جنيف. ولها علاقة بالتهاب البواسير. الطقس هنا متقلب على الدوام. وهو سبب تلك النوبات. إذا أردت أن تكتب لي فسأكون مسروراً جداً.

وهذا عنواني:

Suisse, Genève, poste restante, M-r Th. D <ostoiewsky>.

عندي رجاء ملحّ إليك، يا صديقي الطيب ستيبان دميتريفيتش. ولكن لا تظن أني شرعت بالكتابة إليك لهذا السبب. ولا أكذب عليك. الحجة جاءت في مكانها بالفعل. إلا أنني أكتب إليك لسببين مختلفين تماماً. أولهما ليس مهماً جداً، وهو الأسف على كوني مع زوجتي نأمل في ألمانيا أن نجدك ولم نجدك أو نعرف عنك شيئاً. ولو التقيناك لكنا سعيدين جداً. فنحن من خمسة أشهر نعيش في عزلة تامة. والسبب الثاني هو الأمل في أنك سترد عليّ. وطالما أني أنوي العودة بعد خمسة أشهر أخرى[3] فإن الرسائل من الوطن ستكون عزيزة عليَّ للغاية، بما فيها من ذكريات ومسرة. ومن جهتي أعدك بأني سأجيب في الموعد وبكل إخلاص. بالمناسبة، هل كانت الرحلة نافعة لك؟ فيما يخصني كتبت لك أخباري في أعلاه. أما فيما يخص رجائي فهو كالآتي: أنا أعمل وسأظل أعمل خمسة أشهر أخرى، لكنني أنفقت كل نقودي. (. . .) ذات مرة، بعد حديث ودّي قبل ثلاث سنوات، قلت لي، يا صديقي العزيز، إن بوسعك أن تقرضني قليلاً من النقود إذا إحتجتُ إليها في وقت ما. والآن أقول إنني أكثر من محتاج إليها، بل إنني محتاج على جناح السرعة، وإلا ليس أمامي سوى الهاوية. سأستلم نقوداً في الأول من ديسمبر، لكننا الآن لا نملك فلساً واحداً. وقد رهنت آخر حاجياتي. لذا أَرسلْ لي، إذا استطعت، 100 روبل، وإذا تعذر ذلك ف 75 على الأقل. أنا أعرف،

يا صديقي العزيز، أن هذا أيضاً مبلغ محترم، ولكن لا ترسله إلا إذا كنت تستطيع. ولا موجب للتكلف. من ناحيتي أبلغك على أية حال بأنني سأعيدها لك مع حلول أعياد الميلاد، وليس قبلها، نظراً لبعد المسافة بيننا[4]. باختصار، إذا كنت تستطيع مساعدتي فافعل في الحال، لأنني ما كنت لأطلب منك لو لم أكن في حاجة ماسة.

أكتب إليك باستعجال رغم طول الرسالة. وأقول صراحة إنني مكتئب بعض الشيء 1) لأني لا أستطيع العمل في الليل خوفاً من نوبات الصرع، و2) يقلقني المستقبل كثيراً. فعليّ أن أكتب شيئاً جيداً وإلا لن أستطيع، بلا نقود، أن أواجه الدائنين، وأنا مدين لهم وحدهم ما لا يقل عن 3000 روبل. ومن جهة أخرى عليّ أن أقيم هنا حتى ذلك الحين. ولربما ننتقل إلى إيطاليا، مع أن جنيف أريح بالنسبة لنا: المعيشة هنا أرخص مما في باريس، والأطباء والمولدات يتكلمون الفرنسية، وهذا مهم. صديقي العزيز اكتبْ لي تحديداً ما رأيك في الفكرة التالية: أليس الأفضل لي، لصحتي ولإصابتي بالصرع، أن أترك بطرسبورغ وأغادر إلى موسكو. أنا نفسي أعرف أن موسكو أفضل نوعاً ما، وأظن أنني سبق أن قلت لك ذلك، ولكنني أريد أن أعرف هل أن ذلك بالفعل «أفضل» لدرجة تبرر الانتقال؟ ما رأيك، ولو بالخطوط العريضة؟

إلى اللقاء. أعانقك من صميم القلب. والتحية لك مجدداً من آنّا غريغوريفنا، ومني المودة الخالصة. أشد على يدك بحرارة.

المخلص ف. د.

ملاحظة: أنا لا أطلب من أهلي المساعدة، لأن زوجة خالي أعطتني قبل ثلاث سنوات 10000 روبل لإصدار مجلتي، وأن أخي

بعد وفاته ظل مديناً لألكسندر بافلوفيتش بما لا يقل عن 4000 روبل، بل وربما 6000.

ف. د.

---

(1) طبيب. الأصل الروسي لرسالة دوستويفسكي هذه، وكذلك الرسالة رقم 122، مفقود. وقد نقلناهما إلى العربية من ترجمة روسية قديمة عن الفرنسية ظلت محفوظة.

(2) كارل ماركس لم يشارك في المؤتمر.

(3) لم يعد دوستويفسكي إلى بطرسبورغ إلا في صيف 1871.

(4) بعث يانوفسكي إلى دوستويفسكي 100 روبل أعادها له الكاتب في عام 1872.



121. إلى صوفيا إيفانوفا

جنيف، 29 سبتمبر 1867

مرحباً، صديقتي العزيزة، صوفيا. لا تلوميني على صمتي الطويل. ولا تلومي آنّا غريغوريفنا. فمنذ أسبوع لديها رسالة جاهزة إليك، لكنها لا ترغب في إرسالها مع رسالتي، تريد أن تضيف إليها. وأقول بصراحة إني أتوق من كل قلبي إلى استلام جواب منك. فنحن نشعر بملل شديد هنا في جنيف. حتى أن المشيئة الإلهية ستعتبر رسالتك إلينا من الفضائل التي تستحق الثواب. وإلى ذلك تعرفين كم أنا أحبك وكم أنا مهتم بكل ما يحيط بك. لقد تصرفنا بحماقة. كان ينبغي أن نمتلك نقوداً أكثر لنتنقل من مكان إلى آخر كما يحلو لنا. فيما أضفينا على رحلتنا بحكم الضرورة صبغة الإقامة والعيش في الخارج وليس التجوال في ربوع أوروبا.

في حين أن العيش في الخارج ممل جداً أينما كان. وطالما العيش في باريس مكلف والجو مغبر، وفي إيطاليا كان الصيف كله قائظاً وبدأت الكوليرا في الانتشار، قضينا هذا الفصل في ألمانيا في أماكن مختلفة، واخترنا منها الأجمل في الهواء الأنقى. شعرنا

بالضجر في كل مكان، وكانت الأماكن جيدة وصحتي لا بأس بها. وقد سررت كثيراً جداً لأن آنّا غريغوريفنا لم تشعر بالملل رغم أني لست إنساناً مرحاً تماماً يصلح للعيش طوال ستة أشهر في عزلة من دون معارف ولا أصدقاء ما عدا الزوجة.

ما أكثر ما تبادلنا من أحاديث وذكريات. وأقسم لك أننا لو قضينا الصيف جنبكم في لوبلينو (بضواحي موسكو)، بدلاً من هذه الأشهر الستة في الخارج، لكنا في مرح وابتهاج ربما أكثر بعشر مرات.

واتضح أن آنّا غريغوريفنا جوالة منقطعة النظير. فأينما حللنا تتفقد كل شيء وتسجل ملاحظاتها حتى استهلكت العديد من المفكرات الصغيرة والدفاتر، فملأتها برموز الاختزال. وللأسف أنها لم تر الكثير. ثم حل الخريف ولم يكن لدينا إلا القليل من النقود للتجوال في إيطاليا، كما كانت هناك أسباب أخرى. أردنا أن نسافر إلى باريس وأخطأنا بعدم السفر إليها حيث توجهنا إلى جنيف. ومع أني كنت في جنيف سابقاً ثلاث مرات، لكنني لم أمكث فيها للمعيشة، ولم أتأكد من طقسها الذي يتغير في اليوم الواحد ثلاث مرات. فبدأت نوبات الصرع تلاحقني من جديد، مثلما في بطرسبورغ تماماً. بينما كان عليَّ أن أعمل وأبقى في جنيف خمسة أشهر على الأقل. أعكف جدياً على كتابة رواية ستنشر في «البشير الروسي»، وأرجو أن تسمحي لي بأن أكرسها وأهديها لك، يا صوفيا ألكساندروفنا إيفانوفا. كنت قررت ذلك من زمان[1]. ولا أدري، واللّه، هل سيكون من اللائق أن لا أنشر شيئاً الآن، في زماننا هذا، لولا الحاجة التي تدفعني إلى النشر. السماء تكفهر، ونابليون (الثالث) أعلن أنه لاحظ الغيوم السوداء عنده في الأفق. ولكي يصحح المسألة المكسيكية، والإيطالية، والألمانية التي هي الأهم، عليه أن يشغل أذهان الناس بالحرب ويسترضي

الفرنسيين بالوسيلة القديمة: الانتصارات الحربية. ومع أن ذلك ربما لم يعد يخدع الفرنسيين، إلا أن الحرب يمكن تماماً أن تندلع. وأنت تعرفين ذلك بنفسك. على فكرة، هل تستلمون جرائد؟ اقرأوها بالله عليكم، فلا يمكن الاستغناء عنها الآن، ليس من أجل الموضة، بل ليكون الترابط الملحوظ بين جميع الأمور العامة والخاصة أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً. أما إذا قامت الحرب فإن سعر النتاج الأدبي والفني لا بد أن يهبط إلى أدنى مستوى. هذا هو التصور الأساسي الذي يثبط عزيمتي، وأنا أعترف بذلك. فعندنا أصلاً، ومن دون حرب، بدأت في الآونة الأخيرة لامبالاة واضحة بالنتاجات الفنية.

أخشى ما أخشاه هو الوسطية السطحية. وأعتقد الأفضل أن يكون النتاج جيداً جداً أو رديئاً جداً. أما الوسط بين هذين في ثلاثين ملزمة طباعية فهو شيء لا يغتفر.

أرجوك، يا صديقتي العزيزة، أن تكتبي لي، وأن تكتبي بتفصيل أكبر عنك شخصياً وعن ماسينكا وباقي أفراد العائلة خلال الأشهر الستة المنصرمة. كيف عشت هذه المدة في لوبلينو؟ وهل بقي فيديا عندكم طويلاً؟ ماذا كنت تفعلين؟ أنت شخصياً؟ وماذا تفعلين الآن؟ وماذا تنوين أو تريدين أن تفعلي؟ (. . .) أنا أرغب جداً في العودة إلى روسيا لأسباب عديدة. لأكون بين أهلي. وإلى ذلك أريد أن أصدر عندما أعود شيئاً أشبه بالجريدة. وقد أبلغتك بذلك بالخطوط العريضة على ما أتذكر. إلا أنني هنا حددت بكل وضوح الشكل والهدف[2]. وهذا يتطلب أن أكون في الديار لأسمع وأرى كل شيء بأم العين. أنا، على فكرة، مسرور جداً لأن لدي عملاً لولاه لقتلني الضجر. ولكنني عندما أنهي هذه الرواية في وقت غير قريب لا أدري هل يمكن البدء بعمل جديد هنا، في الخارج. أنا لا أفهم الجوالين الذين يقيمون هنا

ثلاث سنوات من دون عمل. يمكن السفر إلى الخارج فعلاً، وبنفع كبير، بل وبارتياح، لستة أشهر والتجول في كل مكان وعدم المكوث في مكان واحد أكثر من أسبوعين. هذا شيء جيد. وإلى ذلك يمكن بالفعل تحسين الصحة. إلا أن البعض يعيشون هنا مع عوائلهم، ويربّون الأطفال ويحرمونهم من تعلّم الروسية، والمهم يعودون إلى الوطن بعد أن يستنفدوا آخر المدخرات ويحاولون أن يعلّمونا لا أن يتعلموا منا. إن المرء يتخلف هنا عن كل شيء، وعليه بعد ذلك أن يتعود عاماً كاملاً ليدخل في السياق ويواكب الحياة. والكاتب بخاصة يتعذر عليه أن يتعايش إلا إذا كان خبيراً أو عالماً. ففي حرفتنا، على سبيل المثال، يشغل الواقع المرتبة الأولى، والواقع هنا سويسري.

تقع جنيف على ضفاف بحيرة جنيف. والبحيرة مدهشة، شواطئها خلابة. إلا أن المدينة نفسها في منتهى الملل. إنها مدينة بروتستانتية عريقة، والسكارى فيها، بالمناسبة، زرافات ووحداناً.(. . .) سأرد عليك، يا صديقتي العزيزة حتماً ومن دون تأخير.

اكتبي لي عن أخواتك. وتحياتي الخصوصية إلى يوليا. كيف حال فيكتور؟

قبّلي بالنيابة عني وعن زوجتي جميع إخوتك وأخواتك.

آنّا غريغوريفنا ستراسلك قريباً. أعانقك وأشد على يدك. تحياتي إلى يلينا بافلوفنا.

محبكم فيودور دوستويفسكي

---

(1) الإهداء المنشور في طبعة «البشير الروسي» لرواية «الأبله» عام 1868 حذف من طبعة 1874 المستقلة.

(2) المقصود مجلة «يوميات الكاتب» الشهرية المرتقبة (بدأت بالصدور عام 1876).

122. إلى ستيبان يانوفسكي

جنيف، 1-2 نوفمبر 1867

صديقي الطيب الغالي ستيبان دميتريفيتش

إذا كنتَ في موسكو، ولم تجد رسالة مني على مكتبك فلا تتسرع في الحكم عليَّ ولا تلمني. رسالتك مع الـ 100 روبل استلمتها قبل أكثر من أسبوعين. وإذا كنتُ لم أرد عليك حتى الآن فذلك ليس بسبب التكاسل أو اللامبالاة، بل بسبب وضعي الحالي المتأزم الأليم. أنت تعرف ماذا يعني وجود الظلام في الروح. يصعب على شخص سوداوي مثلي أن يتجاذب أطراف الحديث مع شخص آخر. رسالتك بعثت فينا، آنّا غريغوريفنا وأنا، ارتياحاً عظيماً. وكنت أتابعك ذهنياً وأرافقك في روما وفي نابولي، وأتذكر تواجدي في إيطاليا، في هاتين المدينتين، وأتصورك واقفاً مبهوراً أمام التحف الفنية. من مجمل الرحلة في جنوب إيطاليا أنا أتذكر الفن وحده بفرحة وارتياح. أما الطبيعة فقد أدهشتني في نابولي فقط. وفي شمال إيطاليا، في لومبارديا، الطبيعة أكثر روعة بما لا يقاس. أنت كنت في ميلانو، فهل زرت بحيرة كومو على مقربة منها؟ ولماذا، لماذا لم

تصل إلى البندقية؟ ذلك شيء لا يغتفر. فالبندقية لا تسحر المرء فقط، بل تبهره، تخلب لبه وتسكره. ولكننا سنذهب إليها معاً في مرة قادمة. كلمة شرف.

هذه المرة لم أتجول كثيراً لحد الآن، ولم أر الكثير. ذلك، في المقام الأول، لأن طبيعة رحلتي اختلفت. أنا لا أتجول، بل أقيم في الخارج، والمعيشة في أوروبا بالنسبة لي لا تطاق. ولكن ما العمل؟ لم أتمكن من توفير الوقت لأعرض على آنّا غريغوريفنا الكثير. كنا في ألمانيا، حيث توقفنا في درزدن وفي بادن- بادن، والآن وصلنا إلى جنيف، وتوقفنا هنا على ضفاف بحيرة ليمان. (. . .)

المسألة التي يتعيَّن عليَّ حلّها تقضّ مضجعي: فإذا ألَّفتُ رواية رديئة تتقوض أحوالي المالية رأساً. من سيعطيني والحال هذه أجر التأليف مقدماً؟ في حين أنا أعتاش فقط على السلف وعلى عائدات إعادة الطبع. وفي هذه الحالة لن أستلم السلف ولن يصار إلى إعادة طبع مؤلفاتي. وبالتالي يتعيَّن عليَّ أن أكتب عملاً لن يكون رديئاً بأي حال من الأحوال. وتلك ضرورة لا بد منها كيلا أهلك. هذه هي المسألة الأولى.

والثانية، غادرت روسيا بعد أن دفعت أربعة أخماس ديوني، والباقي يبلغ 3000 روبل بشكل كمبيالات.

وإذا وصلتُ إلى بطرسبورغ يزجّون بي في سجن الديون. ما يعني لزوم تسديد تلك الكمبيالات. بأي نقود؟ هل أدخر من احتياطيات (لا وجود لها. . .)؟

المسألة الثالثة. زوجتي الطيبة وفرحتي وسلواي الوحيدة آنّا ستلد بعد ثلاثة أشهر. تصور، بعد ثلاثة أشهر وليس في جيبي ولا كوبيك واحد. الـ 100 روبل التي أرسلتها لي أنفقتها على تسديد بعض

الديون الطفيفة وشراء بعض الحاجيات الشتوية الضرورية وعلى احتياجاتنا اليومية. وقد بدأنا من جديد نرهن حاجياتنا، بمعنى أن آنّا غريغوريفنا ترهن فساتينها، فليس لدينا ثمن الرغيف.

مرت اليوم خمسة أسابيع على الرسالة التي بعثتها إلى كاتكوف راجياً أن يحوّل لي، إن أمكن، إضافة إلى الـ 4000 التي أعطاني إياها مقدماً، 500 روبل أخرى، (على أقساط) مئة روبل كل شهر لتسهيل الوضع المادي لهيئة التحرير. وبعد خمسة أشهر أنهي روايتي التي ستأتي في 30 ملزمة على أقل تقدير، وسيتم تسديد كل ديوني للمجلة ومجموعها 4500 روبل. اليوم ينتهي الأسبوع الخامس على رسالتي تلك. صحيح أنني في السابق أيضاً لم أستلم جواباً من «البشير الروسي» قبل مضي شهر. فتلك قاعدة من قواعدهم للأصدقاء وللأعداء. إلا أن الخمسة أسابيع أكثر من المعقول. «الوقائع الموسكوبية» تتشكى دوماً من الخدمات الخارجية للبريد الروسي، وتقول إن الرسائل تضيع أو تصل متأخرة. ولا أتصور أن رسالتي يمكن أن تتأخر. وإذا لم يكن هذا هو السبب فلماذا لا يردّون عليّ؟ وإذا كانوا لا يريدون أن يعطوني النقود مقدماً فيمكنهم أن يجيبوا بكلمة واحدة: كلا. ومن ناحية أخرى المجلة تنتظر روايتي، والصمت لا يصبّ في مصلحتها.

ولو لم نستلم في تلك الأثناء حوالتك لهلكنا أنا وآنّا من زمان.

فحاول أن تتفهم ما ينتظرني. أعيش وزوجتي في غرفة وحيدة، صحيح أنها فسيحة وليست سيئة، في شقة عجوزين طيبتين. إلا أن هذه الغرفة تغدو باردة جداً، ولا تتوفر أية إمكانية لتدفئتها. ولا أدري ماذا سيحصل في الشتاء. آنذاك، في أواخر فبراير حسب التقويم الجديد، يُنتظر أن تلد زوجتي. فتصور كيف سيتم ذلك في غرفة

واحدة: ولادة وطبيب ومرضعة سويسرية وروايتي. لو كانت لدي نقود لاستأجرت الغرفة المجاورة أيضاً بـ 20 فرنكاً، وهي فارغة الآن بعد أن غادر نزلاؤها. ولكن ماذا لو لم أستلم جواباً من كاتكوف؟ وحتى إذا استلمت ما قيمة الـ 100 روبل في الشهر؟ خلال الأشهر الخمسة القادمة أنا بحاجة إلى 150 روبلاً في الشهر على أقل تقدير.

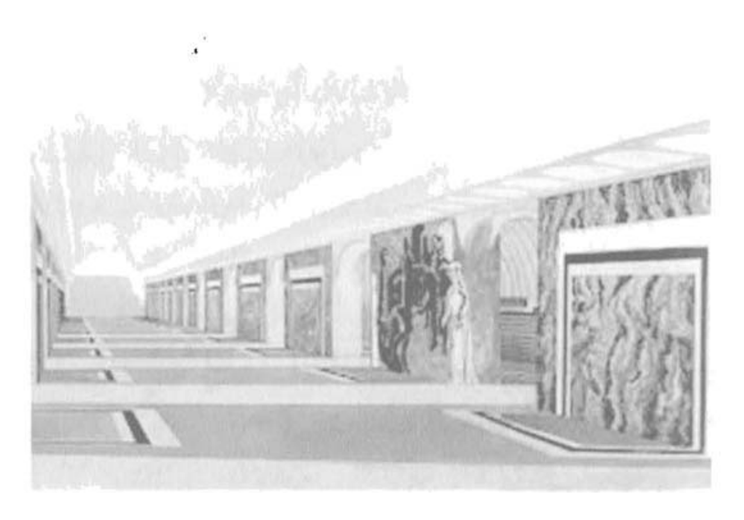
بالإضافة إلى ذلك هناك مسألة أخرى. كنت في الآونة الأخيرة غارقاً في وضع خطة الرواية وفكرتها لدرجة جعلتني طوال عدة أشهر مشغولاً بهذه الفكرة وحدها. وأخيراً تمكنت من وضع الخطة الدقيقة للرواية. وهان الأمر. ولن تكون هناك أخطاء لا في المعالجة ولا في الأداء. بقي على موعد إرسال الرواية شهر واحد لا غير. وهو الموعد الأخير. فكيف يمكنني أن أنهي هذا العمل في شهر، أقصد الجزء الأول الذي لن يقل حجمه عن ست ملازم طباعية؟ وأكثر ما يؤذيني أنني أدرك بوضوح أنه لو توفر لي الوقت الكافي، أو على الأقل الوقت اللازم للأداء والتنقيح، لتمكنت من القيام بذلك.

ثم إنني أخشى نوبات الصرع. في جنيف في البداية كانت النوبات تداهمني كل أسبوع تقريباً. الطقس مزعج للغاية. رياح جليدية تهبّ من جهة الجبال، وحالة الجو تتبدل ثلاث أو أربع مرات في اليوم. إلا أن شهراً مضى تقريباً ولم تحصل لي نوبة. وأخشى أن يداهمني المرض ويصيبني الآن، حينما أشرع في العمل بكل طاقاتي.

آه، يا صديقي ستيبان دميتريفيتش، الصرع سيقضي عليّ في آخر الأمر. نجمي يخبو إلى أفول، وأنا أتحسس ذلك. ذاكرتي ضبابية تماماً، مشوشة بالكامل. لم أعد أتعرّف على وجوه الأشخاص، وأنسى ما قرأته يوم أمس، وأخشى أن أجن أو أغدو معتوهاً. تصوراتي تتموج بلا انتظام، والكوابيس تلاحقني في المنام. ولكن

يكفي الكلام عني. في المرة القادمة سأتحدث أكثر عن مواضيع أخرى. فأنا أريد أن أناقش معك مسألة (الإقامة) في سويسرا. ولعل الأفضل الآن أن أكتفي بهذا القدر. آنّا تشد على يدك بحرارة. وأنا أعانقك، يا صديقي. فلا تنس أنني المخلص لك دوماً.

د.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

123. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 31 ديسمبر 1867

صديقي العزيز الطيب أبولون نيكولايفيتش. حل أخيراً الوقت الذي أستطيع فيه أن أحبّر لك بضع صفحات. فهل تتصور أني نسيتك؟ أنا أعرف أنك لن تظن بي هذا الظن. ولكن لا تلمني. فأنت تفهم كل شيء أسرع من الجميع. هل تصدق بأنه لم تكن لدي ولا ساعة من الفراغ بكل معنى الكلمة؟ لقد نسيت الجميع. ماذا يفعل (ربيبي) المسكين بافل الذي لم أبعث إليه نقوداً منذ شهرين؟ فليس عندي ولا كوبيك واحد بالمعنى الحرفي للكلمة كي أبعث إليه شيئاً. أنا أكتب لك كل التفاصيل وأنتظر منك الجواب بفارغ الصبر والألم. المجهول يقتلني.

إليك ما حصل لي: كنت أعمل وأتألم. هل تعرف ماذا يعني التأليف (المأجور)؟ أنت لا تعرف ذلك والحمد للّه. أعتقد أنك لم تكتب حسب الطلب وبالأمتار ولم تتعرض لآلام هذا الجحيم. بعد أن أخذتُ من «البشير الروسي» تلك المبالغ الرهيبة، 4500 روبل، كنت آمل من بداية العام أن الشاعرية لن تفارقني وأن الفكر الشاعري

سيومض ويتسع فنياً في نهاية العام وأنني سأوفق في إرضاء الجميع. وبدا لي ذلك وارداً تماماً، لأن أجنة الأفكار الفنية الكثيرة تومض دوماً في ذهني وفي روحي وتجعلني أتحسسها وألمسها لمساً. والحال أنها تومض فقط، ولا بد من تجسيدها التام الذي يحدث على الدوام بالصدفة وبصورة مباغتة، وليس بالإمكان حساب الوقت الذي يحدث فيه تحديداً. وبعد ذلك، حينما ترتسم في (الذهن) والفؤاد الصورة الكاملة يمكن الشروع بالأداء الفني. وعندها يمكن حتى حساب الزمن من دون خطأ. هكذا كنت طوال الصيف والخريف أركّب مختلف الأفكار، بعضها مثيرة للغاية، إلا أن القليل المتوفر لدي من الخبرة جعلني دوماً أتحسس الزيف أو الإشكال أو عدم اختبار هذه الفكرة أو تلك على محك الحياة. وفي الأخير توقفت عند فكرة معيّنة وبدأت العمل، وكتبت الكثير. إلا أنني رميت كل ذلك عرض الحائط في الرابع من ديسمبر حسب التقويم الغربي. أؤكد لك أن الرواية قد تكون لا بأس بها، لكنني كرهتها لأقصى حد لأنها لا بأس بها، وليست جيدة تماماً. لم تكن ترضيني. فماذا كان عليَّ أن أفعل والوقت هو الرابع من ديسمبر؟ وأوضاعي المعيشية كالآتي:

لا أتذكر، لم أعد أتذكر شيئاً على الإطلاق، هل كتبت لك أنني، بعد أن نفدت كل نقودي، طلبت من كاتكوف أن يبعث لي مئة روبل شهرياً؟ أظن كتبت. فوافق، وصار المبلغ يصلني بانتظام. إلا أنني في رسالتي التشكرية إلى كاتكوف أكدت بكلمة شرف أن الرواية ستصله وأنني سأبعث إلى هيئة التحرير في ديسمبر مادة كبيرة منها. ولم أكن متردداً في هذا الوعد لأن ظروف الكتابة مؤاتية وقد أنجزت الكثير. ثم كتبت له أن نفقاتي الطارئة كبيرة، وهل يمكن إرسال 200 روبل دفعة واحدة في شهر ديسمبر، من الـ 500 المخصصة لي، بدلاً من

الـ 100؟ فجاءت الموافقة ووصلت الحوالة في ديسمبر، في الوقت الذي أتلفتُ فيه روايتي. فماذا أفعل؟ كل آمالي تقوضت. وكنت قد فهمت أخيراً أن التأليف والرواية هما أملي الأول والأخير، وأنني لو ألَّفت رواية مقبولة فسأسدد ديوني لهيئة التحرير ولك وأرسل مبلغاً محترماً إلى بافل وإميليا فيودوروفنا وأؤمّن معيشتي. وأنني لو ألَّفت رواية جيدة لربما بعتها في طبعة ثانية، وحصلت على مبلغ ما، وسددت نصف أو ثلثي ديون الكمبيالات وعدت إلى بطرسبورغ. إلا أن كل شيء تقوض. وعندما استلمت الـ 200 روبل من كاتكوف كتبت له تأكيداً أن الرواية ستكون جاهزة حتماً لعدد يناير، واعتذرت لأن الجزء الأول منها سيصل إلى هيئة التحرير متأخراً، لكنه سيصل على أية حال في الأول من يناير حسب تقويمنا، ورجوت بإلحاح أن لا يصدر العدد الأول من «البشير الروسي» من دون روايتي. فالمجلة لا تصدر أبداً قبل منتصف الشهر المعني.

ثم إنني بدأت أتعذب في سياق ابتداع رواية جديدة ما دام مستقبلي كله يتوقف عليها. ولم أكن أرغب في مواصلة الرواية القديمة بأي حال من الأحوال. ما كان باستطاعتي أن أواصل. بقيت أفكر من 4 ديسمبر حسب التقويم الجديد حتى 18 منه. وكنت بالمعدل أخرج يومياً بما لا يقل عن ست خطط، على ما أظن. وتحوَّل دماغي إلى طاحونة. ولا أدري كيف لم أجن. وأخيراً، في 18 ديسمبر، عكفت على كتابة الرواية من جديد. وفي 5 يناير حسب التقويم الجديد أرسلت إلى هيئة التحرير 5 فصول من الجزء الأول بحوالي 5 ملازم، مع التأكيد على أنني سأرسل الفصلين المتبقيين من الجزء الأول في العاشر من يناير. يوم أمس، الحادي عشر من يناير، أرسلت هذين الفصلين واكتمل الجزء الأول بحجم 6 ملازم طباعية أو ست ونصف.

الإرسالية الأولى ينبغي أن تصلهم في الـ 30 من ديسمبر حسب تقويمنا، والثانية في 4 يناير، وبالتالي يمكنهم، إذا أرادوا، أن ينشروا الجزء الأول في عدد يناير. والجزء الثاني، الذي لم أكتب منه حتى الآن ولا سطراً واحداً، تعهدت بإرساله إلى هيئة التحرير تباعاً وباطراد اعتباراً من الأول من فبراير.

أرجو أن تفهمني يا صديقي، فهل كنتُ، والحال هذه، أستطيع أن أفكر في كتابة رسالة إلى أحد؟

وعمَّ كنت سأكتب؟ لذا افهمني بوصفك إنساناً إنسانياً، واعذرني بوصفك صديقاً صدوقاً على صمتي الاضطراري. ثم إن الفترة كانت عصيبة للغاية.

والآن أتحدث عن الرواية لكي ننهي هذا الموضوع. في الحقيقة أنا نفسي لا أعرف تحديداً ماذا أرسلت لهم. لكنّ الرواية، بقدر ما أستطيع أن أحكم عليها، ليست نموذجية وليست مؤثرة. من زمان كانت تلاحقني فكرة أخشى أن أجعل منها رواية، كونها فكرة صعبة جداً، وأنا لست متهيئاً لتناولها رغم أنها مغرية تماماً وتعجبني. تتلخص الفكرة في تصوير شخص رائع جداً. وفي اعتقادي لا شيء أصعب من ذلك، وخصوصاً في زماننا هذا. أنت بالطبع توافقني هذا الرأي. هذه الفكرة لاحت سابقاً أيضاً في صورة أدبية[1]، ولكنها صورة غير مكتملة، وينبغي أن تكتمل. ولم يرغمني على تناول هذه الفكرة غير المختمرة بعد إلا أوضاعي المزرية. وقد جازفت، كما في القمار، معللاً النفس «باحتمال تفتح الموضوع تحت ريشة الكتابة». وتلك مجازفة لا تغتفر.

عموماً أمكن بناء الخطة. ولاحت فيما بعد تفاصيل تغريني كثيراً وتوقد في نفسي الحماس. ولكن ماذا عن الاكتمال؟ وماذا عن البطل؟

(وكلاهما مترابطان) لأن الاكتمال عندي قائم على شخصية البطل. هكذا طرحت المسألة، وأنا ملزم بأن أطرح الصورة. فهل ستتطور تحت ريشة الكتابة؟ يمكنك أن تتصور الفظائع التي نشأت عن ذلك تلقائياً. اتضح أن هنالك بطلة إلى جانب البطل، ما يعني وجود شخصيتين أساسيتين. وإضافة إليهما ثمة صورتان بارزتان أخريان، بطلان تقريباً. وهما شخصان ثانويان أنا ملزم بتجسيدهما وفق الجرد الروائي الكبير، المتضمن للكثير من الشخوص. ثم إن الرواية نفسها في 8 أجزاء. ومن أبطالها الأربعة اثنان مرتسمان في مخيلتي بثبات وعمق، والثالث لا يزال هلامياً تماماً، فيما الرابع الذي هو البطل الرئيسي الأول في صورة ضعيفة جداً. ولعله يستقر في فؤادي قوياً لا ضعف فيه، إلا أنه في الأداء بمنتهى الصعوبة. على أية حال أحتاج لكي أكتب إلى وقت مضاعف، بمرتين في أقل تقدير.

الجزء الأول في اعتقادي ضعيف. ولكنْ لا تزال ثمة وسيلة إنقاذ، كما يخيل إليّ. وهي أن شيئاً لم ينسق بعد، ويمكن أن يتطور في الأجزاء اللاحقة بشكل مقبول. يا ليت! ثم إن الجزء الأول في الحقيقة مجرد ديباجة أو مدخل. والشيء الوحيد المطلوب هو أن يثير على الأقل بعض الاهتمام بما سيجري فيما بعد. لكنني لا أستطيع أن أحكم على ذلك أبداً. قارئي الوحيد آنّا غريغوريفنا. وهي معجبة جداً، إلا أنها ليست المحكّم (الأول) في مهنتي.

في الجزء الثاني ينبغي أن تطرح كل الأمور بشكلها النهائي، ولكنْ من دون توضيح. وهناك مشهد واحد فقط من المشاهد الرئيسية، ولكنْ كيف سيكون؟ رغم أنه مسجل في المسودة ويبدو جيداً.

عموماً كل شيء يعود إلى المستقبل. لكنني أنتظر منك تقريظاً متشدداً. الجزء الثاني يقرر مصير الكتاب. وهو الجزء الأصعب،

ولكنْ اكتبْ لي عن الجزء الأول أيضاً، مع أنني أعرف عن قناعة أنه ليس جيداً. ومع ذلك اكتبْ لي. كما أرجوك أن تبلغني، حالما يصدر عدد «البشير الروسي»، هل نشروا روايتي أم لا؟ لا أزال حتى الآن أخشى أن أكون تأخرتُ عليهم. في حين من الضروري جداً بالنسبة لي أن تظهر الرواية في يناير. خبّرني، باللّه عليك، ولو بسطرين لأكون على علم.

كتبتُ إلى كاتكوف عن الرواية، لدى إرسال الجزء الأول، نفس ما كتبته لك تقريباً. الرواية بعنوان «الأبله». على فكرة، لا أحد يمكنه أن يحكم على نفسه، وخصوصاً في الأثر الساخن. فلعل الجزء الأول جيد أيضاً. وإذا لم أكن قد طورتُ شخصية البطل الرئيس فذلك لأن بنية الرواية تقتضي هذا الأمر بموجب قوانين تخطيطها. ولذا أنتظر تقويمك بفارغ الصبر. ولكن يكفينا كلاماً عن الرواية. فهذا العمل استثارني منذ الـ 18 من ديسمبر لدرجة عجزتُ فيها عن التفكير أو الكلام في أي شيء آخر ما عداه. أذكر لك الآن بضع كلمات عن معيشتنا هنا خلال الفترة التي لم أراسلك فيها.

معيشتي هي بالطبع عملي. ومن حسن الحظ أنني الآن لم أعد في عوز أبداً، بفضل المئة روبل التي تأتيني على الدوام شهرياً. نعيش معاً، أنا وآنّا غريغوريفنا باعتدال، ولكن بكفاف. إلا أن أمامنا نفقات، ولا بد من وجود مبلغ ولو زهيد على سبيل الاحتياط. بعد شهر ونصف ستجعلني آنّا غريغوريفنا أباً. وهي تتحمل وضعها الصحي بأفضل صورة[2]. أنت تعرف ما هي النفقات التي تنتظرنا. إلا أنني سأطلب من هيئة التحرير أن تبعث لي خلال هذه الفترة 200 روبل في الشهر. وستفعل. فقد بعثتُ إليها ما قيمته 1000 روبل تقريباً. وحتى الخامس من فبراير سأبعث ما قيمته ألف آخر. ولربما

سيكون العمل جيداً مؤثراً، وبالتالي أستطيع أن أطلب مبلغاً أكبر. بالمناسبة، يا عزيزي، لو لم أتلف الرواية لاستطعت حتى رأس السنة بالطبع أن أسدد ديني لك. إلا أنني أرجوك الآن أن تنتظر شهرين آخرين، لأنني لا أستطيع أن أطلب من هيئة التحرير مبلغاً محترماً قبل موافاتها بالجزء الثاني. إلا أن أهم ما يؤذيني هو تفكيري في ما يجري لبافل. قلبي يقطر دماً، والتفكير فيه، إلى جانب كل آلامي الأدبية في ديسمبر، يقودني إلى اليأس والإحباط. فماذا يفعل هناك؟ في نوفمبر وديسمبر لم أبعث له نقوداً، إلا أنه لم يكتب لي شيئاً قبل نوفمبر. خلال التسليم الأخير، 60 روبلاً من كاتايف بواسطتك، كتبت له رسالة مطولة وكلفته باستحصال كتاب رسمي مهم جداً بالنسبة لي وسهل عليه. ورجوته أن يرد علي. فلم يكتب لي سطراً واحداً. باللّه عليك اكتبْ لي عنه ولو قليلاً. ترى هل يحقد عليّ؟ لماذا؟ ألأني أبعث له من آخر ما لدي وانتظر بفارغ الصبر المناسبة الأخرى لأبعث إليه. من المستحيل أن يكرهني. أنا لا أنسب (تقصيره) إلى فؤاده، بل إلى رعونته وعدم قدرته حتى على كتابة رسالة، مثل عدم قدرته على حفظ جدول الضرب قبل أن يبلغ العشرين من العمر.

كان يقيم عند إميليا فيودورفنا، واستدان منها مبلغاً رغم إرسالي له قبل شهر نوفمبر ما فيه الكفاية. وقد دفعتُ إلى إميليا آنذاك من خلالك. ولكن ماذا حصل في نوفمبر وديسمبر؟ إنهم أنفسهم يتحملون. فيودور يعمل، لكنه لا يستطيع أن يعيل الجميع. وأنا لا أستطيع أن أبعث نقوداً قبل أن يمر شهر. من خلالك طبعاً، وأرجوك يا عزيزي، ستصلك نقود من كاتكوف، فلا تستهن بها ولا تستثقلها. إنهم فقراء، وأنا سأكون خادماً لك مدى العمر، وأثبت لك أنني أقدّر ما فعلته من أجلي. إذن سأبعث رسالة إلى فيودور. هل يقيمون عند

أنونكين؟ طلبت من بافل أن يكتب لي اسم أنونكين واسم أبيه، وقد نسيتهما، لكي أكتب له. أنونكين سيصدقني، لكنه سيطردهم إذا لم يستلم مني خبراً. لأنني تعهدت له بإيجار شقتهم. لكنني لم أستلم اسم الرجل لا من بافل ولا من إميليا. فكيف أكتب رسالة إلى أنونكين من دون الاسم الأول والثاني؟ إنه تاجر، وسيزعل.

على أية حال ربما أبعث لهم النقود قبل ذلك، رغم الحاجة الماسة في انتظار المولود. ومع أننا نعيش ولدينا خبزنا الكفاف، إلا أن حاجياتنا مرهونة دوماً. كلما نستلم نقوداً نستعيد تلك الحاجيات، ثم نرهنها مجدداً في آخر الشهر. أنّا غريغوريفنا عضيدتي الوفية وسلواي. حبها لي لا يعرف الحدود، رغم الاختلاف الكبير في طباعنا. وهي تبعث لك ولآنّا إيفانوفنا تحياتها الصادقة. إنها تحبّك كثيراً لأنك تقدّر والدتها التي تعزها جداً حق قدرها. وهي تقدركما، أنت وآنّا إيفانوفنا، أرفع التقدير من جميع النواحي وتحترمك من صميم القلب وبكل إخلاص.

أكثر ما عانيناه من المنغصات المادية في جنيف هو بسبب البرد. آه لو كنت تعرف كم هي غبية حمقاء، وهمجية بائسة، هذه القبيلة. التجوال والمرور بها مر الكرام لا يعنيان شيئاً بالمقارنة مع الإقامة والعيش معها. أنا عاجز حتى عن التوصيف المختصر لانطباعاتي بهذا الخصوص، كونها كثيرة للغاية. الحياة البرجوازية في هذه الجمهورية الدنيئة متطورة لحد يفوق التصور. وفي الإدارة (المحلية)، وفي سويسرا بأسرها، أحزاب ينهش بعضها بعضاً بلا انقطاع وبؤس وسطحية فظيعة في كل شيء. المستخدم هنا لا يساوي خنصر مثيله عندنا. التطلع فيه والاستماع إليه يثيران السخرية. الأخلاق وحشية. ليتك تعرف ما يعتبرونه صالحاً وطالحاً. الثقافة في أدناها. وما أكثر

السكر واللصوصية وما أكثرالتحايل الخسيس الذي تحوَّل إلى قانون في التجارة. وهناك، بالطبع، عدة خصال طيبة تجعلهم على أية حال أرقى من الألمان.

أكثر ما أثار دهشتي في ألمانيا هو غباء العامة، إنهم أغبياء إلى أبعد الحدود، أغبياء لدرجة لا تقاس. عندنا حتى نيكولاي نيكولايفيتش ستراخوف الكثير الذكاء لا يريد أن يعرف الحقيقة. يقول «الألمان اخترعوا البارود.» إنما حياتهم بنيت على هذا النحو، في حين كنا نحن نشكل أمة عظمى، وأوقفنا (زحف) آسيا إلى الأبد، وتحمَّلنا الآلام اللامنتهية، تمكنا أن نتحملها دون أن نضيع الفكرة الروسية التي ستجدد العالم، بل عززناها، وأخيراً تحمَّلنا الألمان، ومع ذلك شعبنا أرقى بكثير وأنبل بكثير وأنقى وأكثر سذاجة وموهبة، إنه مشبع بالفكرة المسيحية الأخرى التي لا تفهمها أوروبا والكاثوليكية الهزيلة واللوثرية التي تناقض نفسها بغباء. ولكن لا موجب للإطالة في هذا الموضوع. ما أشد حنيني إلى روسيا، إلى الديار، حتى لأشعر بأنني إنسان تعيس. أقرأ الصحف، كل عدد منها، حتى الحرف الأخير في جريدتَي «الوقائع الموسكوبية» و«الصوت». شكراً «للصوت» على اتجاهها الجديد. بودّي أن أتحدث معك كثيراً وأطيل، يا صديقي، فقد تراكم الكثير. ولعلي سأعانقك في هذا العام. فيما أنتظر رسائلك من كل بد. باللّه عليك، يا عزيزي، اكتبْ لي. فالرسائل هي سلواي الوحيدة في عزلتي المملة الكئيبة. آنّا غريغوريفنا تعتبر نفسها سعيدة لأنها معي. لكنني بحاجة إيضاً إليك، إليكم، إلى الوطن.

في سويسرا لا تزال الغابات كثيفة. وهي في جبالها أكثر بكثير مما في سائر بلدان أوروبا، رغم تضاؤلها المرعب عاماً بعد عام. تصور البرد الفظيع والرياح القارسة التي تخترق الجبال وتستمر هنا

خمسة أشهر في السنة. ثلاثة أشهر من الشتاء شبيهة بشتائنا تقريباً. الجميع يرتجفون من البرد. يرتدون نسيج الفانيلا الناعم والثياب القطنية طول الوقت، وليس لديهم حمامات عمومية، فهل تتصور الأوساخ التي تعودوا عليها؟ كما ليس لديهم ثياب شتوية احتياطية. يرتدون الفانيلا نفسها صيفاً وشتاءً. وهي وحدها قليلة على شتاء كهذا. ولا يكفيهم العقل لتحسين المساكن قليلاً. فما جدوى مدفأة الفحم أو الحطب في الجدار حتى وإن ظلت مشتعلة طول النهار؟ في حين أن هذه التدفئة طول النهار تكلف 2، فرنكين، يومياً. وما أكثر الأشجار التي تستهلك دون أن يتوفر الدفء اللازم. فما الفائدة؟ كان ينبغي تركيب نوافذ مزدوجة حتى يمكن العيش بمدافئ الجدران، ناهيك عن الأفران. وكان سيتم إنقاذ تلك الغابات. بعد 25 عاماً لن يبقى منها شيء. إنهم يعيشون كالهمج الحقيقيين. إلا أنهم أشداء يتحملون. الحرارة في غرفتي أحياناً 5 درجات رغم الإفراط في التدفئة. أجلس في المعطف وأنتظر في البرد وصول النقود وأرسم خطة الرواية. فما أروع الحياة!! الماء يتجمد في الغرفة. (. . .) قبل أيام استبدلت الشقة، ولدي الآن غرفتان جيدتان. إحداهما باردة دوماً، والأخرى بحرارة 10 أو 11 درجة، ما يعني أن العيش ممكن.

كتبت الكثير، لكنني لم أعبّر عن شيء تقريباً. وهذا ما يجعلني أعاف كتابة الرسائل. المهم أنني أنتظر منك رسالة، فاكتبْ لي عاجلاً، باللّه عليك. الرسالة في وضعي الحالي بمثابة المبرة وعمل المعروف. نسيت أن أطلب منك أن لا تخبر أحداً بما كتبته لك عن الرواية لحين من الزمن. أنا لا أريد أن يصل ذلك إلى مسامع «البشير الروسي»، لأنني كذبت عليهم بأن المكتوب عندي في المسودات كثير، وأنني الآن أكتفي بالاستنساخ والتنقيح. الوقت يكفيني أصلاً،

ولربما ستكون الرواية جيدة على العموم. من يدري؟ وأقول لك مجدداً عن الرواية إنني مهووس بها.

صحتي لا بأس بها تماماً. النوبات نادرة جداً منذ شهرين ونصف، بل منذ ثلاثة أشهر.

تحياتي الخالصة إلى والديك. وبلّغ سلامي إلى ستراخوف إذا التقيته. واطلبْ منه أن ينقل تحياتي إلى أفيركييف ودولغوموستيف.

خصوصاً إلى دولغوموستيف(3). ألم تره؟

أعانقك وأقبّلك.

صديقك المحب المخلص

فيودور دوستويفسكي

تحية خصوصية مني إلى آنّا إيفانوفنا.

استلمتُ رسالة من يانوفسكي. وهو إنسان في منتهى الطيبة، ومدهش أحياناً. أنا أحبه كثيراً.

كل عام وأنتم بخير وسعادة. فلتكونوا سعداء حتماً. أنتم على الأقل.

متى ستنشر «كلمة عن عساكر إيغور»(4)، وأين؟ أرسلْها رجاءً إليّ حيثما كنتُ حالما تنشرها.

---

(1) المقصود المحاولات التمهيدية لرواية «الأبله».

(2) وُلدت ابنة دوستويفسكي صوفيا في جنيف في 22 فبراير 1868.

(3) مستخدم عمل مع دوستويفسكي في صحافته الأدبية.

(4) أقدم ملحمة في الأدب الروسي (القرن الـ 12) تُرجمت من السلافية القديمة إلى الروسية مرات عديدة، منها ترجمة أبولون مايكوف المذكورة هنا، وآخرها ترجمة الأكاديمي دميتري ليخاتشيف في العهد السوفيتي.

124. إلى صوفيا إيفانوفا

جنيف، 1 يناير 1868

صديقتي العزيزة الغالية صوفيا. بالرغم من إلحاحك على أن أكتب لك كنتُ صامتاً. في حين أنني أشعر بحاجة خصوصية ماسّة للتحدث إليك. ولذلك وحده في أقل تقدير كان عليَّ أن أرد على نقطة من رسالتك وفي الحال بأسرع ما يمكن. فكيف يخطر في بالك، يا صديقتي الدائمة العزيزة، أنني غادرت موسكو في زعل منك ودون أن أمد يدي لمصافحتك؟ فهل يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل؟ طبيعي أن ذاكرتي متعبة، ولا تحضرني التفاصيل الآن، إلا أنني أؤكد تماماً أن ذلك مستحيل وأنه خيل إليك لا غير. أولاً- لم يكن هناك سبب. أنا أعرف ذلك كما أعرف أن الأربعة هي حاصل ضرب اثنين في اثنين. وثانياً، وهذا هو الأهم، هل أستطيع أن أعلن القطيعة مع أصدقائي بهذه السهولة؟ على هذه الصورة تعرفينني يا عزيزتي؟ فما أشد ألمي حين قرأت هذه السطور. كان عليك، يا صوفيا، أن تفهمي مدى تقديري واحترامي لك وكم أعتز بخلجات فؤادك. أنا لم أصادف الكثيرات من أمثالك في حياتي. ولعلك تسألين ما الذي يدفعني إلى

التعلق بك لهذه الدرجة؟ اسألي إذا كنت لا تصدقينني. ولكن، يا عزيزتي، الإجابة عن مثل هذه الأسئلة صعبة جداً. فأنا أتذكرك منذ أن كنت طفلة تقريباً. إلا أنني أخذت قبل أربعة أعوام فقط أتطلع إليك وأستشف فيك كائناً نادراً فريداً وقلباً رائعاً لا كالقلوب. والأهم أني عرفتك في الشتاء الذي توفيت فيه المرحومة ماريا دميتريفنا[1]. هل تتذكرين عندما جئتكم بعد شهر كامل من مرضي ولم أكن قد رأيتكم من زمان؟ أنا أحبكم جميعاً، وأنت بخاصة. أحب ماشا، مثلاً، لرشاقتها وروعتها المنقطعة النظير، ولسذاجتها وأسلوبها الرقيق، في حين أنني لم أعرف جدية فؤادها إلا في الآونة الأخيرة. إنكن جميعاً موهوبات أنعم اللّه عليكن بهذه الخصال. إلا أنني متعلق بك خصوصاً، ويقوم هذا التعلق على انطباع مميز يصعب جداً تشريحه وتوضيحه. تعجبني رزانتك، كما يعجبني شعورك الفطري الرفيع بالكرامة الشخصية وإدراكك لهذا الشعور. فلا تخذليه ولا تغيّريه قيد أنملة أبداً، وسيري على الطريق المستقيم من دون مساومة في الحياة. عمقي في دخيلتك عواطفك الطيبة الخيرة، لأن كل شيء يحتاج إلى تقوية وتعميق، وحالما يقدم المرء ذات مرة على المساومة مع ضميره وشرفه ويبقى في نفسه لأمد طويل موضع ضعيف يواجه صعوبة ما في الحياة من جهة ويوفر بعض النفع من جهة أخرى فإنه يتراجع في الحال أمام الصعوبات ويتجه نحو المنافع. أنا لا أقول مجرد كلام. فما أقوله بات يؤذيني أنا نفسي. ولعلي أكلمك عن نقطة الضعف هذه إنطلاقاً من تجربتي الشخصية. ولعلي أحب فيك ما ينقصني. أحب فيك خصوصاً مسألة الشرف العزيز والرؤية والمعتقدات، وهي عندك بالتأكيد مسألة طبيعية تماماً. لم تدركيها بنفسك بالقدر الكامل، لأنك ما كنت تستطيعين أن تدركي كل شيء بحكم فتوّتك وصباك. كما أنني

أحب ذكاءك الذي يميز الأشياء بهدوء ووضوح ويراها بالشكل الصحيح. يا صديقتي، أوافقك على كل ما تكتبينه لي في رسائلك، ولكنني لن أوافق أبداً على اتهامك بأن ترددأ طرأ، وإنْ قيد أنملة، على موقفي الودي تجاهك. ولعل من اللازم أن نعزو كل شيء إلى صغائر الأمور، إلى الانفعال الوقتي في طباعي المعتكرة. وحتى هذا الانفعال لا علاقة له بك أبداً، وإنما هو يخص شخصاً آخر. فلا تهينيني أبداً بمثل هذه الاتهامات.

ولأنني تأخرت كثيراً في الكتابة إليك رغم طلبك بأن أكتب سريعاً فأنا أعطيك كلمة شرف بأن أبعث إليك من الآن فصاعداً رسالة كل شهر وبانتظام.

(. . . في روايتي الأخيرة أحاول تصوير البطل الإيجابي. . . وتلك مهمة في منتهى الصعوبة. . . وكيلا أذهب بعيداً جداً) أقول إن صورة دون كيشوت هي الأكثر اكتمالاً بين الوجوه الرائعة في أدبنا المسيحي. إلا أن روعته نابعة من كونه شخصية مضحكة في الوقت ذاته. بيكويك عند ديكنز، وفكرته كشخصية أضعف بكثير من دون كيشوت لكنها عظيمة أيضاً، مضحك كذلك، وهذا هو سبب الإعجاب به. وعندما تتجلى المواساة والإشفاق على المضحك والرائع الذي تفوق قيمته التقدير يتجلى التعاطف لدى القارئ أيضاً. إثارة الإشفاق والمواساة هي بالذات سر الكوميديا. جان فالجان[2] أيضاً محاولة قوية، إلا أنه يثير التعاطف لمصيبته الفاجعة وللغبن الذي لحق به من طرف المجتمع. بالنسبة لي ليس عندي إطلاقاً ما يماثل هذه المواقف، ولذا أخشى الفشل الذريع. بعض التفاصيل قد تكون لا بأس بها، لكنني أخشى أن أكون مملاً. الرواية مطولة. كتبت الجزء الأول منها بكامله في 23 يوماً وأرسلته إلى المجلة قبل أيام. ولن

يكون مؤثراً أبداً. بديهي أنه عبارة عن مدخل فقط (. . .) إلا أن أمنيتي الوحيدة أن يثير اهتمام القارئ فيكلف نفسه عناء مطالعة الجزء الثاني. وسأنهي هذا الجزء الذي أشرع بكتابته اليوم بعد شهر. أنا طول عمري أعمل على هذا النحو. ويخيل إليَّ أنه سيكون أقوى وأضخم من الجزء الأول. فتمنّي لي، يا صديقتي العزيزة، التوفيق ولو قليلاً. عنوان الرواية «الأبله»، وهي مهداة لك، أي «إلى صوفيا ألكساندروفنا إيفانوفا». يا صديقتي العزيزة، ما أشد رغبتي في أن تأتي الرواية جديرة بمن أهديت إليها. على أية حال أنا لا أستطيع أن أحكم على نفسي، وخصوصاً في مثل هذه العجالة التي أنا فيها الآن.

صحتي لا بأس بها، وأستطيع أن أتحمل الإجهاد، على الرغم من حلول فترة عصيبة بالنسبة لي بسبب حالة آنّا غريغوريفنا. سأعكف على العمل أربعة أشهر أخرى أحلم بعدها في الانتقال إلى إيطاليا. العزلة ضرورية لي. وأنا قلق على فيودور وبافل. أكتب إلى فيودور من هذا البريد أيضاً. عموماً الأمر صعب جداً عليّ في الخارج، أتشوق إلى روسيا لدرجة تفوق التصور. أنا مع آنّا غريغوريفنا في عزلة رهيبة. حياتي كالآتي: أستيقظ من النوم متأخراً وأشعل مدفأة الحائط، فالبرد فظيع. ثم نحتسي القهوة وأنكبّ على العمل. ثم في الساعة الرابعة أذهب لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم. أتغدى مع قدح نبيذ بفرنكين. آنّا غريغوريفنا تفضل تناول الطعام في البيت. ثم أذهب إلى المقهى أشرب القهوة وأقرأ «الوقائع الموسكوبية» و«الصوت» من إلفهما إلى يائهما. ثم أتجول نصف ساعة في الشوارع لتحريك البدن، ثم أعود إلى البيت وأواظب على العمل. وبعد ذلك أسخن المدفأة من جديد، فنشرب الشاي وأعود إلى عملي ثانية. آنّا غريغوريفنا تقول إنها سعيدة للغاية.

جنيف مملة كئيبة. إنها مدينة بروتستانتية بليدة، بطقس معتكر، إلا أن ذلك أفضل للعمل. وللأسف، يا صديقتي، ربما لن أعود إلى روسيا قبل سبتمبر. وحالما أعود سأسارع لمعانقتك. في نيتي أن أبدأ بإصدار جديد[3] بعد الوصول إلى روسيا. إلا أن الأمر يتوقف، بالطبع، على نجاح روايتي الحالية. تصوري، أعمل بهذه السرعة ولا أدري هل سأتأخر على عدد يناير؟ فما أشد الإحراج.

لعلني ألتقيكم وأراكم. لعلني أقابلكم على نحو ما. فأنا كثيراً ما أحلم برؤيتك، برؤيتكم جميعاً. قبل أيام رأيتك و(أختك ماريا) ماسينكا في المنام. رأيت قصة كاملة في المنام بطلتها ماسينكا. قبّليها بحرارة نيابة عني. ولكن كيف حالك؟ أرعبتِني بخصوص صحتك. ماذا حصل؟ المهم يا صديقتي أن لا تحزني. المهم أن لا تستعجلي ولا تشغلي بالك كثيراً. كل شيء سيأتي دوره في السياق، رويداً رويداً، وعلى أفضل صورة. ففي الحياة عدد غير متناهٍ من الفرص. الإفراط في انشغال البال مضيعة للوقت. أتمنى لك المزيد من الطاقة وشدة العزيمة، وأنا، على فكرة، واثق بتوفرهما لديك. يا عزيزتي، اهتمي بالتعليم ولا تستهيني بالاختصاص، ولكن لا تتسرعي. المهم أنك لا تزالين في ريعان الصبا، وستسير الأمور بالتدريج كما يرام. ولتعلمي أن مسألة المرأة، وخصوصاً المرأة الروسية، ستخطو بمر الزمن حتماً، وفي حياة جيل واحد هو جيلكم، عدة خطوات عريضة ورائعة.

أنا لا أتكلم عن النساء السطحيات الموفقات، وأنت تعرفين نظرتي إليهن. إلا أنني قرأت في الجرائد قبل أيام أن صديقتي السابقة ناديجدا سوسلوفا، شقيقة أبوليناريا، ناقشت في جامعة زوريخ أطروحة الدكتوراه في الطب بتألق كبير. إنها لا تزال فتاة في مقتبل

العمر، في الثالثة والعشرين حالياً، لكنها شخصية فريدة نبيلة ونزيهة ومتسامية.

كنت أريد أن أكتب لك الكثير، الكثير جداً، وما كتبته حتى الآن لا يعادل عشر معشار ما أردته. فإلى رسالة قادمة، يا صديقتي العزيزة. بودّي أن أتحدث إليك في مسألة مهمة تخصك أنت[4]. فلا تنسيني، اكتبي لي. وحافظي على صحتك أكثر من أي شيء آخر. عانقي ماسينكا بالنيابة عني مرة أخرى.(. . .) قبّلي يوليا باسمي إذا سمحت لك. وقبّلي فيكتور أيضاً بالنيابة عني.(. . .) ثم الجميع، وشدي بحرارة على يد أخيك ألكسندر ألكساندروفيتش.

أعانقك وأقبّلك.

صديقك الدائم
فيودور دوستويفسكي

سأنفذ كلمة الشرف التي أعطيتها بالكتابة لك كل شهر. ولكن، باللّه عليك، اكتبي أنت أيضاً.

---

(1) ماريا عيسايفا، زوجة الكاتب الأولى، توفيت عام 1864.
(2) بطل «بؤساء» فيكتور هيغو.
(3) المقصود مجلة دورية كان دوستويفسكي يتهيأ لها، وبدلاً منها أصدر مجلة «يوميات الكاتب» بعد سنوات.
(4) كان دوستويفسكي يريد إشراك صوفيا إيفانوفا في المجلة التي يتهيأ لإصدارها.

125. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 18 فبراير 1868

صديقي الطيب الوحيد الغالي، يسعدني أن أطلق عليك هذه النعوت، كونهاً خصالاً ملازمة لك. وأرجو أن لا تزعل مني على طول صمتي بلا حياء. فاحكم عليَّ بنفس العقل وبنفس القلب كما في السابق. ومع أن صمتي بلا حياء، إلا أنني لم أستطع بالمعنى الحرفي للكلمة تقريباً أن أرد عليك، رغم محاولاتي عدة مرات. فقد غرقت بكل ذهني وطاقاتي في الجزء الثاني من روايتي لتهيئته للتسليم في الموعد. ولم أكن راغباً في إتلاف الرواية نهائياً، فعلى نجاحها تتوقف أمور كثيرة جداً. بل إن المطلوب الآن ليس النجاح، وإنما الحيلولة دون السقوط النهائي. في الأجزاء اللاحقة يمكن تصحيح الموقف، والرواية مطولة. وأخيراً أرسلت الجزء الثاني بتأخير كبير، ولكنني أعتقد أن في الوقت متسعاً للنشر. فماذا أقول لك؟ أنا لا أستطيع أن أقول شيئاً عن نفسي، حتى أنني فقدت أي رأي بشأن الأمور. تعجبني خاتمة الجزء الثاني، إنها تعجبني وحدي، فما رأي القراء؟ أما الباقي فهو كما في الجزء الأول، أي أنه باهت كما يخيل إليّ. يهمّني أن

يطالعه القارئ من دون ملل كبير على الأقل. وأنا لا أطمح إلى نجاح أكثر من ذلك.

عزيزي، أنت وعدتني بأن تعطيني رأيك في الجزء الأول حالما تقرأه. وها أنا أتردد على البريد كل يوم ولا رسالة منك، في حين أنك استلمت «البشير الروسي» على الأغلب. الاستنتاج الذي أخرج به غنيّ عن البيان: الرواية ضعيفة. وبما أنك تأسف لقول هذه الحقيقة لي مباشرة بسبب اللياقة فإنك تتباطأ انطلاقاً من الإشفاق عليّ. بينما أنا بحاجة إلى هذه الحقيقة بالذات. أتعطش إلى تقريظ ما. ومن دونه أتألم.[1]

صحيح أنك كتبت لي رسالتين قبل صدور المجلة، ولكن من المستبعد أنك تحاسبني على عدد الرسائل. على أية حال كفانا حديثاً عن ذلك.

ليتك تعرف، يا صديقي، مدى سعادتي وأنا أقرأ كل رسالة منك عدة مرات. وليتك تعرف طبيعة حياتي هنا وقيمة استلام رسالة منك. أنا لا ألتقي أحداً هنا، ولا أسمع شيئاً. حتى جريدتا «الوقائع الموسكوبية» و«الصوت» لم تصلا في بداية العام. نعيش أنا وآنّا غريغوريفنا وحيدين وجهاً لوجه، ومع أننا متوائمان ونحب بعضنا بعضاً، وكلانا، فضلاً عن ذلك، مشغولان، إلا أن الملل قائم على أية حال، بالنسبة لي على الأقل. فيما تؤكد آنّا غريغوريفنا بكل صدق، وأنا واثق بذلك، أنها سعيدة جداً. تصور أننا حتى الآن ننتظر ظهور الجنتلمان، وهو لا يريد الظهور. أنا أنتظره يومياً، لأن كل المؤشرات بادية للعيان. انتظرته أمس، في عيد ميلادي، ولم يأت. وأنتظره اليوم. وغداً سيظهر إلى الوجود أغلب الظن. آنّا غريغوريفنا تنتظر مبهورة، وهي تحب الضيف المرتقب حباً جماً، وتقوى على

الحمل بهمة ونشاط، إلا أن أعصابها بدأت تنهار في اللحظات الأخيرة، وتخامرها أحياناً أفكار كئيبة فتخشى أن تموت وما إلى ذلك. ولذا فالموقف حزين ومشحون بالهموم. نقودنا على أقلها، لكننا لسنا نهائياً في إملاق على أية حال. وتنتظرنا، على فكرة، نفقات. لكنّ آنّا غريغوريفنا، وهي في هذه الحال، سجلت ما أمليه عليها باختزال ثم استنسخت التسجيلات.

وإلى ذلك تمكنت أن تخيط بنفسها وتهيّئ ما يلزم للوليد.

أكثر ما يزعجنا أن جنيف مدينة مزعجة وكئيبة للغاية. اليوم الأحد، وليس هناك ما هو أكثر كآبة وسوءاً من أحدهم. لم يعد الانتقال ممكناً إلى أيما مكان. سنبقى هنا قرابة خمسة أسابيع بسبب المرض، ولا ندري بعد ذلك كيف ستكون الأمور من الناحية المالية. هذا الشهر سيكون عصيباً عليّ لمرض زوجتي ولا بد من إرسال الجزء الثالث من الرواية رغم التأخير. وبعده الجزء الرابع. آنذاك في اعتقادي يمكننا أن نغادر جنيف، مع اقتراب شهر مايو. ومن حسن الحظ أن برد الشتاء هنا خف على غير المتوقع. فبراير كله كان دافئاً وصافياً كما عندنا في بطرسبورغ بالضبط في أيام الصحو خلال شهر أبريل.

إنني مهتم طول الوقت بكل ما تكتبه إليّ هنا. وأبحث في الصحف عن أشياء مماثلة، كما يبحث الشخص عن إبرة ضائعة، فأحزر وأقدّر. وأتحسس هنا أيضاً دناءة وحقارة أدبنا وصحافتنا. فما أكثر سذاجة هذه الأدران. «المعاصرون» مثلاً يلهثون وراء آخر الأرباح مع أمثال سالتيكوف ويليسييف، وبنفس الكراهية المتحجرة لروسيا (. . .) أما أن يهاجم سالتيكوف (شيدرين) المجالس المحلية الريفية فذلك في طبيعة الأشياء. لأن هذا الليبرالي لا يمكن في الوقت ذاته إلا أن

يكون عدواً لدوداً لروسيا، متحيزاً ضدها. فما إنْ ينجح شيء في روسيا أو تنتفع البلاد بشكل ما حتى تجد السم ينساب في بدنه. لاحظت ذلك ألف مرة. حزبنا الليبرالي المتطرف اصطدم مع (صحيفة) «الأخبار»، ولا يمكن للأمر أن يكون على غير ذلك. أما وقاحة وحقارة هذه الشرذمة فأراهما أحياناً في الجرائد. بعثوا إلى هنا من هيئة التحرير العدد الأول من «البشير الروسي». قرأته من ألفه إلى يائه. ولم أجد لك شيئاً فيه. فإما أن تكون قد تأخرت وإما أنهم يحتفظون بك لتزيين عدد فبراير. فيما تضمن العدد الأول قصيدة مقبولة لبولونسكي وقصة ضعيفة جداً لتورغينيف. قرأت المقالة التحليلية «للحرب والسلام». أرغب في قراءة المقالة كاملة. وقد قرأت نصفها. يبدو أنها محترمة. ولكن للأسف فيها الكثير جداً من التفاصيل السيكولوجية الطفيفة. حبذا لو كان عددها أقل. على فكرة، في المقالة كثير من الجودة بفضل هذه التفاصيل. باللّه عليك اكتبْ لي أكثر عن الأخبار الأدبية. تطرقتَ إلى «بشير أوروبا». هل هي من تحرير ستاسوليفيتش؟ يخيل إليَّ أن هذا الاتجاه بات واسع الانتشار عندنا. تصور أني لا أعرف شيئاً عن «موسكو» و«الموسكوبي».

(قصيدتك) «صوفيا ألكسييفنا» لا أروع منها.

وتبادرت إلى ذهني الفكرة التالية: حبذا لو تحولت «صوفيا ألكسييفنا» هذه إلى مشهد في ملحمة مكتملة من ذلك الزمان، أي ملحمة انشقاقية (انقسامية دينياً)، أو في رواية شعرية من تلك الفترة (زمن الانقسامات). هل يعقل أنك لا تفكر أبداً في مخططات كهذه؟ يمكن أن يكون لملحمة من هذا النوع مفعول كبير. وماذا عن ملحمة «كلمة عن عساكر إيغور»؟ أين ستنشر؟ ربما في «البشير الروسي». عندئذٍ سأقرأها. لعلك تتصور كم أنتظرها؟ ما عدا التلاوة التي أشرتَ

إليها ألم تقرأ الملحمة على الجمهور؟ صف لي كل شيء. ماذا قرأت في يوبيل كريلوف، غير الذي أرسلته لي؟ طالعتُ شيئاً في الجريدة، ولكن بغير وضوح.

(. . .) هنا في جنيف كثير جداً من أبناء الأرستقراطيين الروس. والغريب أنهم أمضوا الشتاء كله ليس في مونتريه، مثلاً، بل في جنيف وطقسها السيّئ.

إذا كنتُ سأنتقل إلى مكان ما فإلى إيطاليا. إلا أن الموعد لا يزال بعيداً. على أية حال سأخبرك ولن أتأخر في إرسال العنوان إليك. ولكنْ اكتبْ لي باللّه عليك. صحتي ليست جيدة جداً. النوبات ازدادت من جديد مع قدوم الربيع. قرأت حديثك عن عملك مع المحلفين. فتصاعدت نبضات قلبي من شدة الانفعال. ومن خلال ما قرأته عن المحاكم عندنا نشأ عندي انطباع وكأن الجوهر الأخلاقي للقضاة، والمهم للمحلفين، عندنا أسمى بكثير مما لدى الأوروبيين. فهم ينظرون إلى المجرم بمنظار المسيحية. حتى الخونة الروس المغتربون يوافقون على ذلك (. . .) التجديد العظيم للعالم كله يتهيأ من خلال الفكرة الروسية المرتبطة، وأنت على حق فيما تقول، بأواصر متينة مع الأرثوذكسية. وسيتحقق ذلك في حدود مئة عام. هذا هو إيماني الغريب العجيب. ولكي يتحقق هذا الأمر الجليل ينبغي أن ينفّذ نهائياً، ومن دون رجعة، الحق السياسي وأولوية العشيرة الروسية على العالم السلافي بأسره، فيما يروّج ليبراليونا التافهون لتفكك روسيا إلى ولايات متحدة. يا لأولئك الأرجاس الأنجاس.

عندي هذه المرة أيضاً رجاء ملحّ، أو على الأصح رجاءان، وكل أملي في طيبة قلبك ومشاطرتك الأخوية. كتبت إلى كاتكوف عندما أرسلت له الجزء الثاني وطلبت منه 500 روبل. شيء فظيع. ولكن ما

العمل إذا لم تكن في الأمر حيلة؟ في البداية كانت أحلامي كالآتي: 1) أكتب أربعة أجزاء في 23-24 ملزمة. 2) أكتب جيداً، وعندها أطلب مبلغاً كبيراً (. . .) وتعذبت نفسياً عندما طلبت الـ 500 روبل. فلو كانت الرواية جيدة لكان الطلب أسهل بعض الشيء.

ولا أدري هل سيرسل المبلغ أم لا (. . .) رجوت كاتكوف، في حال وافق على منحي الـ 500 روبل، أن يبعث لي منها إلى جنيف 300 ويحوّل 200 إليك شخصياً في بطرسبورغ (. . .) وأرجوك أن تنتظر وتصبر عليّ قليلاً حتى أتمكن من تسديد ديني إليك، وبهذا تنقذني من الآلام. هذا هو طلبي الأول، والثاني: أنا لا أدري ماذا يحصل للمسكينة إميليا فيودوروفنا (. . .) وهناك بافل (. . .) ولذا أرجوك إذا استلمت الـ 200 روبل سلِّم 100 منها دفعة واحدة إلى إميليا، وسلِّم بافل حالياً 50 روبلاً فقط، والـ 50 الأخرى بعد شهرين (. . .) هذا هو رجائي الثاني إليك. (. . .)

إلى اللقاء يا صديقي. المهم أنني مسرور لأنك لا تسمح لنفسك بالبطر والتهاون. وفيك تغلي الأماني والأهداف والمثل العليا. وهذا شيء كثير. ففي زماننا إذا استولى الخمول على الإنسان فإنه هالك، ميت، وآيل إلى ثرى المدافن.

إلى اللقاء. أعانقك بحرارة وأتمنى لك كل خير. اكتبْ لي، اكتبْ لي شيئاً ما، ولو قليلاً، عن روايتي.

أنا أقرأ الأخبار السياسية طول الوقت. الكذب فيها كثير طبعاً، إلا أن ما يخيفني ويفزعني هو الفتور الملحوظ والهبوط الواضح في سياستنا الخارجية في الآونة الأخيرة. وإلى ذلك عندنا في الداخل كثير من أعداء الإصلاحات الحكومية. أملنا الوحيد هو (الإمبراطور). وقد أثبت صلابته، فليمنحه اللّه حكماً مديداً.

آنّا غريغوريفنا تبلغ تحياتها لك مع آنّا إيفانوفنا ويفغينيا بتروفنا. وأنا أيضاً. ذكّرهما بي رجاءً.

يخيل إليَّ أنني سأكون أباً اليوم، إما لـ «ميشا» (ميخائيل) أو لـ «صونيا» (صوفيا). هكذا جرت العادة.

وداعاً، يا صديقي العزيز.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) رد مايكوف أن الكثير من الشخصيات، مثل توتشيف وميلوكوف وسولوفيوف وغيرهم، معجبون «بالأبله» ويهنئون.



126. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 21-22 مارس 1868

الصديق الطيب الكريم أبولون نيكولايفيتش. أولاً- أشكرك كل الشكر، يا عزيزي، على تنفيذ جميع طلباتي التي تحتاج إلى جهد كبير وأخذتْ منك الوقت الكثير. سامحني لأنني أتعبك. ولكنك الشخص الوحيد الذي أعقد عليه آمالي، وليس من الحكمة أن أتعبه. ثانياً- أشكرك على التحية والتهنئة وتمنيات السعادة لنا ثلاثتنا. الحق معك، يا صديقي الطيب، فقد وصفت بالطبيعي الإحساس بالأبوة وأخذت من الطبيعة كلماتك الرائعة: كل ما قلتَه صحيح بالمطلق. إنني أتحسس منذ شهر تقريباً الكثير جداً من المستجدات والأمور التي لا أعرفها إطلاقاً لحد الآن منذ اللحظة التي رأيت فيها ابنتي الوليدة صونيا وإلى هذه اللحظة التي جهدنا فيها معاً لنغسلها في الطست. أجل إنها روح ملائكية حطت عندنا. لن أصف لك إحساساتي، كونها تتنامى وتتطور يوماً فيوماً. في المرة السابقة، عندما كتبت لك وأنا في قلق شديد، نسيت (!) أن أذكر ما اتفقنا عليه أنا وآنّا في درزدن العام الماضي، وهي تلومني وتقرعني بشدة لأنني نسيت، من أننا اخترناك

عرّاباً لابنتنا صونيا. فلا ترفض يا عزيزي. لقد قررنا ذلك من عشرة شهور. وإذا رفضت فسيكون ذلك فألاً سيئاً لصونيا. حتى أول عراب رفض هذه المهمة! ولكنك لن ترفض يا صديقي. وأضيف أن ذلك لن يكلفك أدنى قدر من الهموم، فيما تغدو مهمتك كعراب لنا خطوة نحو الأفضل. (...) باللّه عليك أجبني عاجلاً، فهذا الإجراء ضروري للتعميد. مر شهر والطفلة غير معمدة بعد. فهل ذلك جائز في روسيا؟ أما ربيبتك، وأنا واثق بأنك ستكون عراباً لها، إنما هي جميلة جداً وإن كانت تشبهني لحد مضحك، بل ولحد غريب. وما كان بوسعي أن أصدق ذلك لو لم أره بأم العين. الطفلة في شهرها الأول، وتعابير وجهها تعابير وجهي بالتمام والكمال، لحد الغضون على الجبين، ناهيك عن الملامح والتقاسيم. إنها، وهي راقدة، تبدو وكأنها تؤلف رواية. جبينها يشبه جبيني لحد يثير الاستغراب. ويستنتج من ذلك طبعاً أنها ليست جميلة بهذا القدر. لأنني جميل فقط في أنظار آنّا غريغوريفنا. أقول لك ذلك جاداً. وأنت نفسك رسام تعرف تماماً أن بالإمكان التشابه مع وجه غير جميل، لكن الشبيه جميل جداً. آنّا غريغوريفنا ترجوك كل الرجاء أن تكون عراباً للبنت. وهي تحبك وتحب آنّا إيفانوفنا حباً جماً، وتحترمكما إلى ما لا نهاية.

أنت متنبئ كبير، تتنبأ لي المزيد من الاهتمامات أو الهموم الجديدة، وأنني سأغدو أنانياً، وقد حصل ذلك من سوء الحظ، وما كان إلا أن يحصل. تصور: طوال هذا الشهر لم أكتب سطراً واحداً. يا إلهي، ماذا أفعل لكاتكوف ووعودي والتزاماتي وكلمة الشرف؟ وقد سررت جداً عندما استجابت «البشير الروسي» لتبليغي لهم بأنني أتأخر بسبب ميلاد الطفلة، فكتبتْ في نهاية الجزء الأول من الرواية أن البقية ستنشر في عدد أبريل وليس في مارس. وللأسف لم يبق أمامي حتى

شهر أبريل لا أكثر من عشرين يوماً. لقد تخلفت كثيراً. وليس عندي ولا سطر واحد. غداً سأكتب إلى كاتكوف وأعتذر منه. ولكن ما نفع اعتذاري بالنسبة له. عليّ أن أسرع لألحق بعدد أبريل وإنْ ببعض التأخير. في حين أن معيشتي كلها تتوقف عليهم. والحقيقة أن الموقف حرج للغاية. ولكن ما العمل؟ الشهر كله انقضى في قلق وهموم بالغة. وصادف أننا لم نذق طعم النوم ليالي كاملة، ليس بسبب الانفعال العصبي لأحد منا، بل بمقتضى الضرورة. وهذا شيء فظيع فيما يخص الصرع. أعصابي منهارة الآن لأقصى حد. الطقس هنا في أسوأ حالاته خلال شهر مارس، مع ثلوج وصقيع كما في بطرسبورغ تقريباً. وكانت آنّا غريغوريفنا مرهقة بدنياً. فلا تخبر آنّا إيفانوفنا بذلك أبداً. فقد تتصور ما لم ينزل اللّه به من سلطان. كل ما في الأمر أن آنّا غريغوريفنا لا تستطيع لحد الآن أن تستعيد صحتها. وهي، بالإضافة إلى ذلك، مرضعة. واللبن قليل طبعاً. فنستخدم زجاجة الإرضاع. الطفلة عموماً في صحة جيدة. عين الحسود فيها عود! وأخذت آنّا بالتمشي خارج البيت. لليوم الثالث الجو صحو لدرجة مدهشة. وبدأت الأعشاب تنبجس. (. . .) المصروفات ازدادت (. . .) ولا بد من البدء بالعيش اعتباراً من هذا اليوم على مدى شهرين في أقل تقدير، حتى يحين موعد استلام شيء من «البشير». ولكن ليس بالإمكان استلام مبلغ من المجلة ما لم يتم إرسال الجزء الثاني. فمتى أكتبه؟ إلا إذا كان في 18 يوماً فقط، كما حصل لما نشر في عدد يناير. (. . .).

(يدهشني) أن بافل لم يكتب لي مهنئاً بميلاد صونيا. هل يعقل أنه لن يكتب. الآخرون هنأوني. أنت وستراخوف من موسكو، ومعارف آنّا غريغوريفنا من بطرسبورغ، (. . .)

أبلغت إميليا فيودورفنا تحريرياً بميلاد البنت، ولم أستلم أي جواب. (. . .) ويدهشني أنها في السابق أيضاً لم تكتب لي (. . .) بافل تركته (أمه) المسكينة ماريا دميتريفنا في عهدتي وهي على سرير الموت. فكيف أتركه؟ وأنت لا تشير عليَّ بأن أتركه. كلا، ثم كلا. لا بد من مساعدته، لا سيما وأنني أحبه صادقاً. رعيته في بيتي أكثر من عشر سنوات بمثابة ابني. عشنا معاً، فهل يجوز أن أتركه وحده وهو في مقتبل العمر؟ يجب أن أساعده بين فترة وأخرى، رغم ما أنا فيه من ضيق. صحيح أنه شاب طائش، لكنني، على ما أتذكر، ربما كنت أسوأ منه في سنه. لا بد من معونته في هذه الحقبة. (. . .)

ومهما كانت حياة الخارج بشعة فظيعة فإنني أفكر بفزع أحياناً ماذا سيحصل لصحتي فيما لو وفقني اللّه في العودة إلى بطرسبورغ. فإذا كانت نوبات الصرع تلاحقني هنا فكيف ستكون هناك؟ (. . .).

كل ما كتبتَه عن روسيا، والأهم مزاجك الوردي، يبعث السرور في نفسي.

صحيح تماماً أن لا نلتفت إلى مختلف الحالات الجزئية إذا كان الكل قائماً، ولديه دافع وهدف. وما عدا ذلك لا يمكن أن يكون على غير هذه الحال في ظل التحول الهائل الجاري بفضل القيصر المعظم الحالي. أنت يا عزيزي تنظر إلى الأمور مثلما أنظر إليها تماماً. وذكرتَ ما ذكرتُه أنا على رؤوس الأشهاد ولم يفهموني قبل ثلاث سنوات، عندما كانت مجلتنا على قيد الوجود، من أن دستورنا هو الحب المتبادل، حب القيصر للشعب وحب الشعب للقيصر. نعم، الأساس الودي، وليس الفتوحاتي لدولتنا الذي اكتشفه، على ما أظن، أوائل دعاة النزعة السلافية، إنما هو أعظم فكرة يقوم عليها الكثير. وسننقل هذه الفكرة إلى أوروبا التي لا تفقه فيها شيئاً على

الإطلاق. مصيبتنا للأسف الشديد في وجود الفئة الضالة المنفصلة عن تربتها من الأذكياء الأدعياء الذين سينتهون إلى جهنم وبئس المصير، سينتهون على هذه الصورة لتعذر تغييرهم. كيف نغير أمثال تورغينيف؟ ينبغي أن نتطلع إلى الجيل الأحدث. والتعليم الكلاسيكي يمكن أن يساعدنا. فما نفع مدرسة كاتكوف؟ هنا، في الخارج تحولت أنا بالنسبة لروسيا إلى نصير متحمس للنظام القيصري. ففي روسيا إذا تحقق شيء إنما يتحقق على يد القيصر بالذات، ذلك لأنه محبوب الشعب الروسي، ولأنه قيصر. الشعب عندنا منح حبه ولا يزال يمنحه للقيصر أياً كان. وهو يثق به وحده. فذلك بالنسبة للشعب قدس الأقداس، وهو روحانية الفهم القدسي للوجود. الغربويون لا يفهمون في ذلك شيئاً، وهم عندما يمتدحون الاستناد إلى الحقائق والوقائع يفوّتون أعظم حقيقة أساسية في تاريخنا. تعجبني فكرتك بشأن الأهمية السلافية العامة لبطرس (الأكبر). إنني أسمع بهذه الفكرة لأول مرة، وهي صحيحة بالمطلق.

ولكن، أنا أقرأ هنا «الصوت». وفيها أحياناً وقائع مؤسفة للغاية حول الخلل والمخالفات في سككنا الحديدية الجديدة، وحول مجالس الأرياف والأوضاع المزرية في الأطراف النائية. ومن أشد المصائب عندنا قلة المنفذين. الثرثارون كثيرون، لكن العاملين بعدد الأصابع. أنا بالطبع لا أعني المنفذين في الشؤون العليا، بل صغار الموظفين الذين تستدعي الحاجة كثيرين منهم وهم غير موجودين. ربما كان عدد القضاة والمحلفين كافياً، فماذا في السكك الحديدية وفي بعض المواقع الأخرى؟ التقاطع على أشده بين المجددين والمتطلبات الجديدة وبين الأنظمة القديمة. وأنا لا أتناول تجسيد أفكارهم: دعاة حرية الفكر كثيرون، وليس بينهم من الروس

(الحقيقيين) أحد. المهم أن يعي الشخص ذاتياً أنه روسي. ذلك هو المطلوب. وما أكبر ما تعود به المصارحة من نفع على القيصر وعلى الروس جميعاً. والله حتى المصارحة المعادية (لنا)، الموالية للغرب.

بودّي جداً أن تقام لدينا سكك سياسية على جناح السرعة، في سمولينسك وكييف بأسرع ما يمكن، وأن يكون لدينا سلاح جديد بأسرع ما يمكن أيضاً[1]. فلماذا زاد نابليون من تعداد عساكره، وأقدم على هذه الخطوة غير السارة بالنسبة لشعبه وفي وقت حرج بالنسبة له شخصياً؟ الشيطان وحده يعلم. إلا أن ذلك لن يجلب الخير لأوروبا. ولعلي على يقين تام بهذا الخصوص. سيكون الوضع أسوأ إذا ورّطونا. حتى بعد عامين. وليس نابليون وحده. فبالإضافة إليه المستقبل قاتم، ويجب التهيؤ له. تركيا تتشبث بقشة. والنمسا في وضع غير طبيعي أبداً. أنا أستعرض الجزئيات فقط، ولا أحكم على شيء. وتفاقمت المسألة البروليتارية الغربية اللعينة إلى أقصى حد، ولا أحد يتذكرها تقريباً بين أولويات السياسة. وأخيراً النقطة الأهم، نابليون (الثالث) في سن متقدمة، صحته ليست على ما يرام. ولن يطول به العمر[2]. في مثل هذه الحال يسجل المزيد من الإخفاقات ويحوّل البونابرتيون فرنسا إلى كيان بغيض أكثر. فماذا سيحصل إذن؟ يجب على روسيا حتماً أن تستعد لوضع كهذا، وبأسرع ما يمكن. لأن ذلك قد يحدث في القريب العاجل.

ما أشد فرحتي بظهور ولي العهد[3] أمام روسيا بمثل هذه الطيبة والفخامة، وبكون روسيا تسوق الدليل بهذه الصورة على حبها له وآمالها المعقودة عليه. والحقيقة أن نصف الحب الموجه إلى أبيه يكفي. فليمنح الله (قيصرنا) ألكسندر (الثاني) طول العمر ولو لأربعين عاماً أخرى على الأقل. فما حققه لروسيا يكاد يفوق كل ما حققه

أسلافه معاً. والأهم أنه محبوب لهذه الدرجة. فعلى هذه الدعامة ترتكز الآن الحركة الروسية بكاملها، والنهضة بمجملها تقوم عليها وحده. يا صديقي ما أشد رغبتي في العودة، وما أكثر عزوفي عن الحياة هنا. إنها حياة رديئة. والأهم أن العمل متعثر. فلو أنهيت الرواية كما يجب لكان ذلك من أطيب الأمور. لأن تلك هي فاتحة مستقبلي كله. آنّا غريغوريفنا لا تشعر بالضجر، وتقول صادقة إنها سعيدة. بينما أشعر أنا بالغثيان (من الحياة هنا) فلا أزور أحداً ولا أذهب إلى أي مكان. وحتى لو كان لي معارف هنا لما ترددت عليهم أغلب الظن. توحشتُ لحد الإهمال. التام. والعمل لا يسير على ما يرام. لا أغادر الشقة إلا لساعتين في اليوم، في الخامسة بعد الظهر. أمضي إلى المقهى لقراءة الصحف الروسية. لا أعرف أحداً هنا، وذلك يطيب لي. مقابلة أذكيائنا الأدعياء مقززة (...[4]). التقيت هيرتسن في الشارع صدفة، تحدثنا عشر دقائق بلهجة عدائية مؤدبة تخللتها دعابة ساخرة ثم افترقنا. لا مؤاخذة، لن ألتقيهم، كلا. ثم إلى أي مدى تخلفوا وإلى أية درجة لا يفقهون. لقد ترهلوا وانتفخت أوداجهم من شدة الغرور.

أنا أقرأ هنا بنهم شديد الإعلانات المنشورة في الصحف بشأن صدور المجلات ومحتوياتها. أسماء غريبة وتراكيب عجيبة، مثلاً، في أعداد «مذكرات الوطن». خِرقٌ بالية بدلاً من الرايات المرفرفة. يا عزيزي، لا تقدم لهم شيئاً، تمهل. يبدو أنك مهتم بمسألة النشر. لا تقلق يا صديقي. حالياً أكتب لك باستعجال، وإلا لتحدثت معك طويلاً في هذا الشأن. لدي فكرة بخصوصك. لكنها تتطلب شرحاً مفصلاً، في رسالة كاملة، بينما ليس لدي وقت الآن. سأكتب لك قريباً. الفكرة التي خطرت في بالي تدور حول (قصيدتك) «صوفيا

أليكسييفنا». صدقني، الفكرة جدية، فلا تتهكم. سترى بنفسك أبعاد هذه الفكرة. سأشرحها لك (فيما بعد). وهي لن تكون على شكل رواية أو ملحمة شعرية، بل ستأتي بالصورة الضرورية المطلوبة. وستكون أصيلة ومستحدثة في الاتجاه الروسي اللازم لدرجة تثير دهشتك. أطرح عليك برنامجاً، ويؤسفني أن هذا الطرح ليس من خلال حوار حي، بل في رسالة. تلك وسيلة يمكن أن تجلب الشهرة. ويمكن إصدارها في عدد خاص بعد نشر عدة مقتطفات منها في البداية، فيما يُنتظر أن يحظى العدد الخاص بإقبال هائل.

إنك أكملت ترجمة «سفر الرؤيا»، أليس كذلك؟ بينما تصورتك أرجأتها. بديهي أنها لن تسلم من سوط الرقابة الدينية بأي حال. ولا يمكن للأمر أن يكون على نحو آخر. إلا أنهم سيسمحون بالنشر طبعاً إذا كانت ترجمتك صحيحة جداً. استلمت من ستراخوف رسالة أفرحتني. وأريد أن أرد عليه بسرعة. إلا أنني سأرد عليه من خلالك، لأنه نسي أن يكتب لي عنوانه. فأرجوك أن توصل رسالتي إليه. اكتبْ لي يا عزيزي. فرسائلك ذات أهمية بالغة بالنسبة لي. اليوم هو الثالث من أبريل حسب التقويم الجديد. وأنا لم أكتب سطراً واحداً، بينما الموعد الأخير لتسليم الرواية هو الـ 25 من الشهر(. . .) يا إلهي، ماذا سيحصل لي؟ على أية حال، إلى اللقاء. أقبّلك وأعانقك. آنّا تبلغك تحياتها، وكلانا نبعث تحياتنا إلى آنّا إيفانوفنا.

المخلص فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: باللّه عليك اكتبْ لي كل ما تسمعه مما يقال عن «الأبله»، إذا كنت تسمعه. فأنا بحاجة، بأمسّ الحاجة، إلى ذلك. (. . .) على فكرة، أنا لا أزال حتى الآن واثقاً بصحة طباع ناستاسيا

فيليبوفنا. ثم إن العديد من الأمور في نهاية الجزء الأول مأخوذة من الواقع. وبعض الشخوص عبارة عن صور لأشخاص حقيقيين، مثل الجنرال كوليا إيفولغين.

إلا أن أحكامك يمكن أن تكون صحيحة تماماً.

---

(1) آنذاك كانت تمد سكك حديدية فعلية في تلك الأماكن، ويجري التحضير لزيادة تسليح الجيش الروسي.

(2) توفي عام 1873.

(3) ألكسندر الثالث إمبراطور روسيا للفترة 1881-1894.

(4) يقصد المغتربين الروس الغربويين، وفي مقدمهم تورغينيف وهيرتسن.



127. إلى آنّا غريغوريفنا

باينس - ساكسون، 23 مارس 1868 التاسعة والنصف مساءً
Bains-Saxon

ملاكي آنّا. بدلاً مني تأتيك هذه الرسالة غداً الساعة الخامسة، فيما لو أردت أن تذهبي إلى دائرة البريد في المساء. ولعلك لن ترغبي في الذهاب مرهقة بالهموم المتعلقة برعاية صونيا التي لا أستحقها. فأي أب أنا؟! المهم أنك ستسلمين مني رسالة في الصباح. ولكن حبذا لو قرأت هذه الرسالة أيضاً يوم غد!

المشكلة أنني استلمت من مدام دوبوك الحقيرة 20 فرنكاً في الساعة السابعة اليوم. ولما كان عندي 50 سنتيماً بالإضافة إلى الـ 20 فرنكاً، وهذا في كل الأحوال لا يكفي للتسديد والعودة إليك، فإنني ذهبت لألعب في الساعة الثامنة وخسرت كل ما لدي. في جيبي الآن نفس تلك السنتيمات الخمسين. صديقتي، فليكن ذلك هو الدرس النهائي الأخير لي. أجل إنه درس فظيع. اسمعي يا عزيزتي. ذات مرة، أي في المرة الأخيرة، كان بإمكاني أن أتوجه بقطار الصباح. ففي السابق كنت تبعثين إليَّ النقود على جناح السرعة. والأكثر إزعاجاً

هو تأخرها وعودتي يوم الثلاثاء. ولو شاء اللّه أن تصل باكراً في يوم الاثنين لربما استطعت أن أصل الاثنين. آه، يا ليت الأمر كان كذلك!

ملاحظة: على فكرة، أذكر لك على أية حال ما كتبته في الرسالة التي بعثتها في الساعة السادسة هذا اليوم، فلربما لن تصل، ولو أن هذا احتمال ضعيف. أخبرتك في الرسالة أنني خسرت كل شيء حتى الصفر ورهنت الخاتم وأنني بحاجة إلى 100 فرنك بأسرع ما يمكن. ورجوتك أن لا تحزني لأن الـ 100 كثيرة وأنها كل ما لدينا تقريباً، وأعطيتك كلمة شرف وآخر وعد بأنني لن ألعب بعد الآن، وسأتوجه إليك حالما أستلم الـ 100 فرنك.

والآن، يا ملاكي العزيز والأبدي البهيج المنقطع النظير، اسمعي الشيء الرئيسي الذي أريد أن أخبرك به.

واعلمي، أولاً، يا ملاكي، لو لم يحصل هذا التبذير المقيت المهين للـ 220 فرنكاً من دون جدوى لربما ما نشأت تلك الفكرة الرائعة المدهشة التي زارتني الآن وستخدم خلاصنا المشترك النهائي. أجل يا صديقتي، أنا أعتقد بأن اللّه ربما شاء، برحمته اللانهائية، أن يفعل ذلك من أجلي أنا العبد الفاجر الحقير واللاعب الصغير ليعيدني إلى رشدي وينقذني من القمار، وبالتالي ينقذك مع صونيا، ويخلصنا جميعاً على مدى مستقبلنا.

استمعي إذن.

هذه الفكرة خطرت في بالي قبل أن أجيء إلى هنا، لكنها كانت تومض لا أكثر، وما كنت لأوظفها وأستخدمها أبداً، لولا هذا الدافع الناجم عن تبديد آخر ما نملك من قروش بهذا الفجور المقيت. والآن سأوظفها. وأعترف لك أنني تباطأت خصيصاً في الكتابة إلى كاتكوف، وكان يجب أن أفعل قبل أسبوع لأعتذر منه على تأخري.

كنت أنتظر نتيجة سفرتي إلى هنا. والآن، وبعد أن خسرت كل شيء، سأكرس يوم غد كله لهذه الرسالة وسأكتبها له هنا وأنا على أتم الاستعداد. وحالما أصل إلى جنيف أبعثها إلى موسكو في اليوم نفسه.

وسأوضح أوضاعي في هذه الرسالة بمنتهى الصراحة وبلهجة لا تقبل التأويل. وستكون الرسالة صادقة من صميم القلب لدرجة لن أجد فيها أي صعوبة في كتابتها.

أبدأ بتوضيح سبب تأخري. وهو سبب خارج عن السيطرة، وأعني ميلاد الطفلة. وذلك لن يتكرر، أعني التأخر. وسيفهم الرجل. ثم أقول له إن صحتي وصحتك في جنيف تدهورت، وإن الأطباء يوصون بانتقالي، وبانتقالك في المقام الأول، إلى منطقة ذات طقس أفضل، لأن ذلك هو الذي يعيد الهدوء إليّ.

وطالما أنا لا آمل الآن، بأي حال، في الحصول على مبلغ كبير، ولا وقت لدي للانتقال، فإنني أريد أن أنتقل إلى مكان قريب من جنيف، قاب قوسين أو أدنى، وهو مدينة فيفَي على الضفة اليمنى للبحيرة، حيث تنتفي الزوابع وتقلبات الطقس الحادة.

في هذه المدينة الصغيرة ذات المناخ الصحي الرائع، والشبيهة ببيت ريفي، أي بقرية، سأعيش في عزلة تامة حتى الفراغ من كتابة روايتي. العزلة والهدوء أمر يلزمني لهذا الغرض. في مطلع الخريف تكون الرواية قد اكتملت. وسأوافيكم بفصولها من دون توقف. وفي تلك الأثناء تتحسن صحة زوجتي ونرعى طفلتنا لتكتنز دون أن نخشى عليها من الاستبراد الذي يصاحب الزوابع المفاجئة هنا.

ثم أكتب له أن الحياة في الخارج باتت صعبة عليّ، بينما في ذمتي ديون كمبيالات بقيمة 3000 روبل. كل آمالي معقودة على الرواية ونجاحها. أريد أن أصب فيها من روحي، ولعلها ستحقق نجاحاً.

وهذا يعني إنقاذ مستقبلي. سأنهي الرواية في الخريف، وإذا جاءت جيدة فسيشتريها الناشرون لطبعة ثانية، في حال تسديد الدين المستحق لكاتكوف بالكامل. حينئذٍ أعود وأعرض الطبعة الثانية على الدائنين.

كما أقول له التالي: مستقبلي كله يتوقف عليك، يا ميخائيل نيكيفيروفيتش. فساعدني إذن كي أنهي الرواية، ويخيل إليَّ أنها ستكون جيدة. انصرني الآن ووفّر لي الجو الملائم والاكتفاء في عزلة تستمر حتى الخريف، وإليك ما أريد تحديداً:

مجموع ما استلمته منك مقدماً، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش، حتى الآن 5060 روبلاً، وإذا حسمنا من هذا المبلغ ما أرسلته لك من الرواية، وهو 12 ملزمة تقريباً، يبقى في ذمتي 3300 روبل على وجه التقريب. وأرجوك أن ترسل لي الآن 300 روبل أخرى، فيكون الدين 3600، وفي أقل من شهرين سأرسل لكم من 10 إلى 12 ملزمة، وبالتالي يبقى من الدين قرابة 2000 روبل.

وأعدك بأنني لن أطلب نقوداً لحين إرسال هذه الملازم، أعني الجزء الثاني كاملاً من الرواية أي الجزءين الثالث والرابع بالحساب القديم[1] ولكنني بعد الإرسال، أي بمضي شهرين، سأطلب مبلغاً من جديد. وبالمقابل ستستلمون آنذالك الجزء الثالث، أي الجزءين الخامس والسادس. وعندئذٍ أظل مديناً للمجلة بألف روبل لا أكثر، بل وربما أقل. وبعد ذلك يأتي الجزء الرابع، أي السابع والثامن فأسدد ديني بالتمام والكمال. ملاحظة: أنا في الحقيقة نسيت ما اتفقنا عليه في لقائي الأخير مع كاتكوف هل يدفع على الملزمة 150 روبلاً أو 125. وسأكتب له أن يدفع 150 إذا جاءت الرواية جيدة جداً، وإذا كانت مجرد جيدة فسأوافق على 125 روبلاً نظراً لحجم الرواية الكبير، 40 ملزمة.

أنا بحاجة، في الحال تقريباً، إلى الـ 300 روبل. والمهم أنها، وفقاً لحساباتنا أنا وزوجتي، لن تكفي لشهرين (. . .) مع الانتقال فيما لو تحقق وتسديد الديون الطفيفة.

وهكذا، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش، مصيري كله تقريباً بيدك.

والطبعة الثانية من «الأبله» على أية حال ملكك ما لم أسدد كل ما بذمتي لك، أي ما لم أفرغ من تأليفها. حينئذ سأتوجه إليك نفسك لتساعدني مالياً في العودة إلى روسيا مع حلول الخريف.

هذا هو مضمون رسالتي. وأضيف راجياً الإجابة فوراً بالنظر لصحتك وصحتي وظروفنا الأخرى. بالنسبة لي يتوقف كل شيء تقريباً على هذا الجواب. وسأقول له إنك رجل شهم غيور لن تزعل لمطالبتي بجواب سريع. فأنت طوال هذه الفترة تكاد تكون بمثابة المشيئة الإلهية التي ترعاني. وبفضلك أنا سعيد للمعونة التي قدمتها لي قبل عام لتغطية تكاليف الزواج. تلك هي نظرتي إليك.

إذن، يا ملاكي العزيز آنّا، أريد أن أبعث رسالة بهذا المضمون إلى كاتكوف في اليوم نفسه الذي أصل فيه إليك. أقسم لك يا صديقتي أنني أتوقع رداً إيجابياً.

والآن، اسمعي أيضاً، يا آنّا.

سيأتي جواب كاتكوف والـ 1000 فرنك، وأملي كبير في وصولهما، في الأول من مايو حسب التقويم هنا. أنا واثق بذلك ثقتي باللّه. والمسألة الآن تتوقف علينا أنفسنا، عليَّ وعليك، وهل نستطيع، إن شاء اللّه، أن نرتب الأمر. وهو، والمسألة كلها، يتلخصان فيما يلي:

هل نستطيع مع حلول الأول من أيار بالتقويم الغربي حيث سيبعث كاتكوف الجواب أن نحتفظ بـ 400 أو 350 فرنكاً على الأقل مع

تسديد كل المدفوعات والنفقات وتكاليف الانتقال إلى فيفَي في 1 مايو؟ اسمعي:

حساباتي كالآتي: فك الرهان حوالى 200 فرنك، وما يأخذه القرض ومدام رولان وغيرها 100 فرنك، مدام جوسيلين، في أسوأ الأحوال، 200 فرنك، وأخيراً 100 فرنك لفساتينك الصيفية حتماً. المجموع 600 فرنك. والباقي 400. عندما أعود نحسب وإياك بمزيد من الدقة. ولربما تأخذ جوسيلين أكثر. لا يهم. المهم أن نغادر جنيف بأسرع ما يمكن.

ثم إننا سنتحدث وإياك كثيراً عن فيفي. لكنني أتصور أننا سندفع مقابل الشقة ليس 100 فرنك، بل 50، وربما أقل. كما أن الطعام هناك أرخص. ننتقل عبر البحيرة ونأخذ (الخادمة) جوزيفين معنا.

وحتى لو بقيت لدينا 300 فرنك صافية بعد نفقات الانتقال إلى فيفي فإن هذا المبلغ ليس قليلاً. ذلك لأن فيفي أرخص من جنيف على الأرجح.

أما الآن، يا ملاكي العزيز، يا فرحتي وسمائي اللامتناهية، يا زوجتي الطيبة، فلا يشغل بالي سوى هم واحد. فاستمعي:

يشغل بالي ما سيحصل لك. فيفي مدينة أصغر من جنيف. صحيح أن موقعها خلاب وطقسها رائع، ولكن ليس فيها أكثر من ذلك. ربما هناك مكتبة عامة. صحيح أن على مسافة ستة فراسخ منها تقع Vernex-Montreux (مونتريه)، وهناك موسيقى ومحطة قطار ومتنزه وما إلى ذلك. إلا أن العزلة ستستمر حتى الخريف. وستشعرين بالوحشة والملل يا ملاكي. هذا ما أخشاه.

ألهذا أخذتك من الوالدة؟ ألأجل أن تشعري بالضجر وتتحملي ما تتحملين؟ ولكن فكّري، يا عزيزتي، ما هو الأهم بالنسبة لنا الآن؟

الأهم هو نجاح روايتي. فليذهب القمار، ذلك السراب اللعين، إلى الشيطان. لن أقدم على شيء من هذا القبيل أبداً. إذا أنجزت الرواية في الموعد فسيكون ذلك طوق النجاة. لا بد من إنجازها بأسرع ما يمكن، بحلول الخريف. ما يعني أن التجوال لم يعد ممكناً حتى ذلك الحين، وأنني يجب أن أستقر في مكان واحد. جنيف باتت مقيتة. أما فيفي فسنكون فيها كما في الريف، كما في المنزل الصيفي. وسأواظب على الكتابة ليل نهار، فيما يهدئ المكان الجديد أعصابي لأمد طويل، ونوبات الصرع تهدأ في الطقس الرائع. ولربما تتبدد كآبة جنيف. وسآخذ بالاعتبار أنني سأتفرغ سريعاً إذا أنهيت الرواية قريباً بنجاح. بعد شهرين سأطلب 300 أو 400 روبل أخرى، وبالتالي يكون لدينا ما نعتاش عليه. علماً بأن صحتك ستتحسن في الطقس الجيد هناك، وسنكون عند اكتمال الرواية قد سهرنا على صونيا وقويناها بالطعام. يا ليت أمك تأتي إلينا، فتساعدنا. وبعد ذلك، بحلول الخريف، حيث أنهي الرواية وأسدد ديني إلى كاتكوف كله، أو معظمه، سأطلب 1000 روبل، ونغادر فيفي منتصف سبتمبر أو في نهايته إلى روسيا عبر إيطاليا، عبر فلورنسا ونابولي والبندقية ثم فيينا، فأنا أريدك أن تشاهدي كل هذه الأماكن. وإذا وصلت أمك[2] يمكننا أن نزور في البداية موضعين أو ثلاثة في سويسرا. وسننتقل إلى روسيا طبعاً من دون نقود. ولكن إذا رأيت وسمعت وبلغوني بنجاح الرواية فسأحصل على طلبيات وأتمكن من بيع «الأبله». وسأقول للدائنين بصراحة: إذا كنتم تريدون أن تسجنوني، أي ترغموني على بيع الرواية الآن فسأبيعها بثمن بخس. انتظروني أربعة أشهر وسأسدد لكم.

علامَ سنعيش في روسيا؟ هناك سأحصل على مال، سأجد عملاً جديداً وطلبية جديدة.

كل شيء، إذن، يتوقف على الرواية ونجاحها، على انتقالنا إلى فيفي. ولربما المستقبل كله يتوقف على ذلك. وستهون الأمور كلما مر الزمن. ولربما سنثبّت أقدامنا نهائياً بعد ثلاث سنوات.

عزيزتي آنّا، لا أدري بالنسبة لك، لكنني معجب بالفكرة الحالية. كاتكوف سيساعدنا حتماً، أنا واثق بذلك، على يقين تام. سأقرأ عليك الرسالة التي سأكتبها له هنا غداً، حالما أعود وأعانقك أنت وصونيا. ما أحلاكما يا عزيزتَيّ. ولكن ألا توافقينني، يا فرحتي، بأنني لو لم أتعرض لهذه الخسارة البشعة لما أقدمت على هذه الخطوة التي تخلصنا من كل المشاكل وأعتبرها الآن خطوة صحيحة؟ يا إلهي، لربما علينا أن نحمد اللّه ونشكره على ما حصل وعلى هدايته لي نهائياً إلى الأمل الوحيد المتمثل في العمل.

لا تظني، يا ملاكي، كلا، لا تظني أنني سأنفق على القمار ولو فرنكاً واحداً من الـ 100 التي سترسلينها إليّ. حتى ولو كنت أعلم علم اليقين بأنني سأربح شيئاً، فلن أجازف مرة أخرى، وإلا لشعرت بالخجل حقاً أمامك وأمام نفسي من هذا الربح بعد تصميمي الحالي وآمالي الجديدة.

يا ليتك تعلمين كيف هدّأ ذلك كله أعصابي ومدى الثقة والأمل اللذين سأكتسبهما غداً. رسالتي إلى كاتكوف لن تكون هذه المرة شبيهة بالرسائل السابقة. فأنا الآن في منتهى الهمة والنشاط. والشيء الوحيد الذي يشغل بالي هو كم من الوقت سيمضي دون أن أراكما أنت وصونيا؟ لربما حتى الثلاثاء. سأظل أفكر فيكما ليل نهار. وأهم ما يعذبني هو أنك ستشعرين بالقنوط وتبكين وتمرضين، وقد يصعد اللبن إلى الدماغ. لمَ لم أكتب لك عن ذلك من زمان وبدلاً منه بعثت إليك تلك الرسالة اليائسة؟ في السابق ومضت هذه الفكرة الرائعة في

ذهني، لكنني لم أدركها بالشكل النهائي الذي جاءت إليّ فيه الآن.

جاءتني في حدود الساعة التاسعة عندما خسرت ومضيت أتسكع في المماشي. كما كان الحال في فيسبادن حينما فكرت في «الجريمة والعقاب» بعد أن خسرت وأردت أن أقطع العلاقة مع كاتكوف. فهذا إما من فعل القدر أو من المشيئة الإلهية.

آمني باللّه يا آنّا، آمني برحمته يا عزيزتي، واعلمي أنني لم أكن يوماً بمثل هذه القوة وهذا الأمل. أفكر فيكما وحدكما، ويشدني الحنين إليكما. ماذا سيحصل لك؟ ولصونيا؟ فلربما ستكتئبين لدرجة النحول. وصونيا؟ كيف صونيا؟ يا ليتني أكون جنبكما سريعاً.

عزيزتي، حتى الأول من مايو سنعيش على الاقتراض والرهن والنقود التي سيبعثها مايكوف. هذه المرة سأعكف على العمل في الحال. مرحى وطوبى.

ثم إنكما الاثنتين عندي. يا إلهي. سنعيش في حب ومودة، في وفاق قلبي. أنا الآن متحمس وواثق بأننا سننتقل إلى فيفي. هذا، واللّه العظيم، أفضل من الربح. والمهم بالإضافة إلى ذلك أن تصل والدتك. وأعتقد أنها ستجلب نقوداً لتغطية كلفة المعيشة دون ريب.

أعانقكما، أنت وصونيا، فلتكونا مرحتين سعيدتين. انتظراني. أنا أرتعد خوفاً عليكما.

لا ترهقي نفسك، نامي أطول وكلي أكثر. على فكرة، قولي للآخرين بشيء من الدهاء إنني سأصل الاثنين متأخراً ليوم واحد. آه، يا عزيزتي، أبارك وأدعو لكما. ما أشد رغبتي في السعادة برؤيتكما بأسرع وقت.

أنا في صحة جيدة تماماً.

والشيء الوحيد الذي أخشاه أن لا تذهبي مساءً إلى دائرة البريد ولن تصلك هذه الرسالة اليوم. ولربما أرسلها على عنوان البيت.

إلى اللقاء يا ملاكي، إلى اللقاء السعيد، أعانقكما.

المخلص ف. دوستويفسكي

سنكون في فيفي من كل بد. صدقاً وحقاً، فلا تفقدي الأمل.

---

(1) المقصود التركيبة الجديدة لرواية «الأبله» من 4 أجزاء، بدلاً من نية الكاتب سابقاً في جعلها من 8 أجزاء.

(2) وصلت حماة دوستويفسكي إلى جنيف في بداية مايو 1868.



128. إلى صوفيا إيفانوفا

جنيف، 29 مارس 1868

صديقتي العزيزة الغالية صونيا. اعذريني لأني لم أرد على رسالتك العزيزة عليّ في الحال. ثم إنني الآن أيضاً أكتب باستعجال. فأنا مشغول جداً ومثقل بالهموم، والمهم أنني خاضع لفكرة تلاحقني وتوحي لي بأن الوقت لن يتسع أمامي لإرسال بقية الرواية إلى هيئة التحرير وأنني سأتأخر بالتأكيد. ناهيكِ عن مشاغل هذه الأسابيع الخمسة[1]. فهل تصدقين بأنني كنت طوال الليل ألهث ساعياً دون أن أذوق طعم النوم. شهر مارس في جنيف كان فظيعاً ببرده وأمطاره، ولذا كانت صحة آنّا غريغوريفنا تسير نحو التحسن ببطء شديد. ولم يتسع لي الوقت كي أكتب شيئاً من الرواية. فيما أعلنت «البشير الروسي» في عددها الثاني أن «بقية الرواية ستنشر في عدد أبريل». بمعنى أنهم أعطوني تسهيلات لمدة شهر. إلا أنني سأتأخر، أغلب الظن، على أبريل أيضاً. فما أصعب تحمُّل هذه الفكرة. بقيت أمامي عشرة أيام فقط حتى الموعد الأخير للتسليم.

(... عزيزتي صونيا) الرواية ستكون ضخمة، بـ 40 ملزمة،

وسأعمل عليها الصيف كله. لكنّ جنيف فظيعة بالنسبة لي، لنا جميعاً، لدرجة أن صحتنا تدهورت ولن أكتب شيئاً. لذا طلبت من كاتكوف 400 روبل للانتقال إلى فيفَي، على مسافة خطوتين من هنا، أربع ساعات على متن الباخرة عبر البحيرة. فيفي تقع في نفس منعطف البحيرة الذي تقع فيه مونتريه وشيليون وفيلينيو، أي الأماكن المعروفة للعالم كله من حيث مناخها المعتدل وطقسها الرائع. الموقع محمي بالجبال من جميع الجهات، وهو من أكثر المواقع الخلابة على الكرة الأرضية. وإلى ذلك تكاليف المعيشة هناك أرخص. ثم إن جنيف باتت بغيضة وكأنها قرحة في القلب. تحملت فيها الكثير من الكآبة، وكذلك آنّا غريغوريفنا. طفلتنا، ملاكنا صونيا، في صحة جيدة. لكنها ستكون في فيفي أفضل بمئة مرة. وسأعكف على كتابة الرواية هناك أربعة أشهر حتى أنهيها (. . .) أنا أحبكم جميعاً. وأتذكركم، أنا وآنّا غريغوريفنا، على الدوام (. . .).

ولكن يكفي الكلام عني، فلنتكلم عنك. أنت، من خلال رسالتك الأخيرة، في ذهننا، أنا وآنّا غريغوريفنا، طول الوقت. آنّا تحبك وتحترمك لا أقل من حبي واحترامي لك. وقد تبادرت إلى ذهننا كلينا فكرة واحدة أو مشروع واحد تجاهك. ولذا أسارع لإبلاغك به في اختصار، مع أنه يحتاج إلى شرح أطول وأكثر تفصيلاً بأربع مرات. ألا تريدين العمل في الاختزال؟ إذن، اسمعيني بانتباه، يا صونيا. الاختزال فن رفيع، وحرفة لا تحط من سمعة الإنسان (. . .) بل توفر لمن يجيد هذا الفن الكرامة والمال الكثير. وهو فن حر طليق، وبالتالي تجد النساء فيه طريقاً لهن. آنّا غريغوريفنا، مثلاً، لم يتسع لها الوقت كي تنهي دراستها، وهي تنوي مواصلة الدراسة بعد العودة إلى بطرسبورغ. هذا الفن يتطلب من أفضل ممثليه تعليماً واسعاً جداً

ومختصاً بعض الشيء. فإن كتابة التقارير عن الجلسات الجادة إلى الصحف لا يقوى عليها إلا الإنسان المتعلم جيداً. فليس كافياً نقل الكلمات حرفياً، بل ينبغي معالجتها بعد ذلك أدبياً وتضمينها الفكرة والروحية والمفردات الدقيقة لما يقال ويسجل. ولدى التسجيل السياسي مثلاً ينبغي توفر تعليم تاريخي عميق، وخصوصاً دراسة التاريخ الحديث (. . .). نحن نأمل أن نكون في بطرسبورغ بحلول الخريف أو الشتاء في حال نجحت روايتي. وسآتي إلى موسكو ونتحدث (في الموضوع) بجد وبصورة نهائية. وإذا وافق الجميع يمكنك أن تنتقلي معنا إلى بطرسبورغ لغرض الدراسة. مدة الدراسة سنة أو سنة ونصف لا أكثر. ولن تفترقي عن الأهل. فيمكنك أن تسافري إلى موسكو ثلاث مرات في العام. وأنا سأتردد كثيراً على موسكو لأنني لا أريد أن أقطع علاقاتي مع «البشير الروسي». وستقيمين عندنا، فأنت لا تضايقيننا (. . .) وبحصولك على هذه المعارف ستكونين عوناً لعائلتك، ويكون لك مورد مالي مرموق مدى الحياة. وستبدأين العيش بالتأكيد. فبعد 10 سنوات ستتغير أمور كثيرة جداً عندنا. وقد تحتاج كل محافظة في روسيا إلى كاتبات اختزال للمجالس الريفية والمحاكم. الإقبال على الاختزال اليوم كبير، وهو نادر. ينبغي انتهاز الفرصة وإتقان هذه الحرفة طالما أنها لا تزال نادرة عندنا(. . .)

أتوقف عند هذا الحد في رسالتي. فأنا مستعجل، وموضوع كهذا يتطلب كتابة صفحات. آنّا غريغوريفنا التي خطر هذا المشروع في بالها قبلي ستكتب لك حالما تتوفر لها الفرصة. فهي ترضع الطفلة ولا تنام الليل ولم تبلغ الصغيرة شهراً ونصفاً بعد.(. . .) وأنا أيضاً سأكتب لك بتفصيل أكبر حالما أبعث جزءاً من نص الرواية إلى المجلة

ويتوفر لي فراغ لبضعة أيام. والآن أعانقك وأحبك من صميم القلب، كما تعانقك آنّا غريغوريفنا. (...)

إلى اللقاء يا عزيزتي الذهبية.

المخلص (...)

ف. دوستويفسكي

(...)

---

(1) بالارتباط بميلاد ابنة الكاتب.



129. إلى أبولون مايكوف

جنيف، 18 مايو 1868

عزيزي أبولون نيكولايفيتش، أشكرك على رسالتك وعلى استمرارك في مراسلتي رغم زعلك مني. كنت واثقاً دوماً، في أعماق نفسي، أن الزعل لا يؤثر على أبولون مايكوف.

ابنتي صونيا توفيت ودفناها قبل ثلاثة أيام. وأنا، قبل ساعتين من وفاتها، ما كنت أعلم أنها ستموت. الطبيب قبل ثلاث ساعات من الوفاة قال إن حالها تحسنت وإنها ستعيش. مرضت أسبوعاً لا أكثر وتوفيت بالتهاب الرئتين. آه يا أبولون نيكولايفيتش. قد أكون مضحكاً وقد يكون مثاراً للسخرية حبي لطفلتي الأولى، قد يكون مضحكاً ما كتبته عنها في العديد من رسائلي إلى الكثيرين ممن هنأوني بميلادها، كنت أنا وحدي مضحكاً بالنسبة لهم، لكنني لا أخشى الكتابة لك شخصياً. هذا الكائن الصغير بأشهره الثلاثة، هذا الكائن المسكين الضئيل كان بالنسبة لي شخصية لها طباعها وطابعها. أخذت تتعرف عليّ، وتحبني وتبتسم عندما أقترب منها وأنشد لها الأغاني بصوتي المضحك. ولم تكن تبكي أو تقطّب عندما أقبّلها، كانت تكف عن

البكاء حين أقترب منها. والآن يقولون لي على سبيل المؤاساة إنني سأرزق أطفالاً آخرين. وصونيا، أين هي؟ أين تلك الشخصية الصغيرة التي أقول بجرأة إنني مستعد أن أتجرع الموت على الصليب من أجل أن تبقى على قيد الحياة.

على أية حال فلنترك هذا الكلام. زوجتي تبكي. وبعد غد نودع القبر ونذهب لا أدري إلى أين. آنّا نيكولايفنا معنا. وصلت قبل أسبوع من الوفاة.

لم أتمكن من العمل خلال الأسبوعين الأخيرين منذ أن اكتشفنا مرض الصغيرة. وبعثت من جديد اعتذاراً إلى كاتكوف وستنشر «البشير الروسي» في عدد مايو ثلاثة فصول فقط. لكنني آمل أن أعمل ليل نهار بلا انقطاع، وستنشر في المجلة اعتباراً من عدد يونيو فصول غير قليلة على أية حال.

أشكرك لأنك لم ترفض مهمة العراب. وكنا قد عمدناها قبل وفاتها بثمانية أيام.

أنا أعرف، يا صديقي، أنني مقصر جداً بحقك، لأنني لم أسدد حتى الآن الدين الذي لك عليّ. ولأني أعطيت إميليا وبافل جزءاً مما استلمته من كاتكوف ولم أعطك شيئاً وأنت في احتياج شديد. إلا أن الأسف لا يحل المشكلة. ولذا أقول لك بصراحة كل ما أستطيع أن أقوله على وجه التحديد: في الحال الحاضر لا أستطيع أن أدفع لك، فليس لدي شيء تقريباً. غادرت جنيف بعد أن رهنت بدلتي وفستان زوجتي. أقول ذلك لك وحدك. ولا أستطيع أن أطلب من كاتكوف الآن، لأنني أتحايل عليه من ثلاثة أشهر. ولكنني سأطلب منه بالتأكيد أن يبعث إليك 200 روبل بدلاً مني بعد شهر ونصف أو شهرين، لا أكثر. وفيما يخص عدم تفكيري فيك حتى الآن فذلك، واللّه، غبن

كبير. كنت متألماً جداً لذلك. فماذا عساي أن أقول لك؟ لا أستطيع أن أقول شيئاً. ولكنني أريدك أن تتذكر، يا أبولون نيكولايفيتش، أنني عندما اقترضت منك هذه الـ 200 روبل فإنني خصصت نصفها تقريباً لهم، لأهلي، آنذاك. فعن طريقك أرسلت لهم 75 روبلاً من الـ 200 على ما أتذكر. وأنا أشكرك جزيل الشكر لأنك أنقذتني آنذاك وأقدرك كل التقدير على معاملتك المهذبة لي حتى الآن رغم وضعك العصيب الذي علمت به مؤخراً.

بالمناسبة، لا تخبر أحداً من أقربائي إذا رأيتهم أن ابنتي صونيا توفيت. على أية حال لا أريد لهم، وكذلك بافل بالطبع، أن يعرفوا بالخبر لحين من الوقت. يخيل إليّ أن أحداً منهم لن يأسف على طفلتي، بل وربما على العكس، ومجرد التفكير في ذلك يثير غضبي. فما ذنب هذا الكائن المسكين بحقهم؟ فليكرهوني أنا وليسخروا مني ومن حبي، لا يهم. (بافل، مثلاً، لم يهنئني بميلاد صونيا، ولا أريد له أن يعرف بوفاتها).

المعذرة لأنه يثقل عليك. وأنا لا أفهم ما سيحصل له. وماذا يريد؟ (. . .) علمت أن لديه بعض الرسائل الهامة جداً التي أرسلت إليّ هذا العام. إحداها من (صديقتي) السابقة كروكوفسكايا.

فكيف أستطيع استلامها. هذه مسألة في منتهى الأهمية بالنسبة لي. ولربما لديه رسائل أخرى.

وداعاً يا صديقي. سأحاول الكتابة إليك من الموقع الجديد. مونتريه التي تتحدث عنها من أغلى الأماكن المعتبرة في أوروبا كلها. سأبحث عن قرية مناسبة على مقربة من فيفي. ترجمتك لسفر الرؤيا على أروع ما يكون. وللأسف ليس كاملاً. أمس قرأته.

المخلص فيودور دوستويفسكي

(. . .)

130. إلى أبولون مايكوف

فيفي، 22 يونيو 1868

صديقي الطيب الكريم الأفضل أبولون نيكولايفيتش. اعذرني يا عزيزي على صمتي الطويل. لوجه المسيح. سبب الصمت بسيط للغاية، فقد تأخرتُ على «البشير الروسي» لدرجة جعلتني أعمل كل هذه الفترة ليل نهار بالمعنى الحرفي للكلمة، رغم نوبات الصرع. ولكن للأسف لاحظت يائساً أنني لا أستطيع أن أعمل بالسرعة نفسها التي كنت أعمل بها في السابق وقبل فترة غير بعيدة. أزحف مثل سرطان البحر، وعندما أعدّ ما أنجزت أجد قرابة 4 ملازم فقط في شهر كامل تقريباً. شيء فظيع. ولا أدري ماذا سيحصل لي. لا تزال من الرواية 27 ملزمة، وربما 30. والأهم أنه يخجلني أن أنشر مثل هذه الأشلاء والمقتطفات كما فعلت في ثلاثة أعداد من المجلة حتى الآن. إنني ألحق الضرر بنفسي، ناهيك عن رأي هيئة التحرير بخصوصي، وهو بالنسبة لي أثمن من رأي القراء. أرسلت لعدد يونيو 4 فصول، آخرها أرسلته أمس، وأعطيتهم كلمة شرف بأن أرسل لعدد يوليو في الموعد خاتمة الجزء الثاني في 5 ملازم كحد أدنى. ولم يبق

لي من الوقت في أحسن الأحوال سوى 3 أسابيع. غداً سأنكب على العمل، واليوم استراحة، بمعنى أن عليَّ كتابة ثلاث رسائل.

يا صديقي أبولون نيكولايفيتش. أنا أعرف وأثق بأنك تشفق عليَّ بصدق وإخلاص. إلا أنني لم أكن تعيساً في يوم ما كما أنا في الآونة الأخيرة. لن أصف لك حالتي. غير أن الذكريات تنهال عليّ مع مر الزمن، فأتصور بمنتهى الوضوح محيا المرحومة صونيا. وثمة لحظات لا تطاق. عندما خرجت في ذلك اليوم لأقرأ الجرائد دون أن أعلم بأنها ستموت بعد ساعتين تابعتني بنظراتها مودعة، وحدقت فيّ على نحو لا أزال أتصوره بوضوح متزايد حتى الآن. لن أنساها أبداً وسأبقى أتعذب دائماً. حتى لو جاء طفل آخر لا أدري كيف سأحبه وأين أجد ذلك الحب. أنا بحاجة إلى صونيا. ولا أفهم أنها لم تعد على قيد الوجود وأنني لن أراها أبداً.

مصيبتي الثانية هي حالة آنّا غريغوريفنا. فهي حزينة لحد رهيب، تبكي طول الليل وتتأثر صحتها لذلك بأشد ما يكون. أنا، كما قلت لك، أكتب ليل نهار، ولا أعتقد أن كل ما أكتبه على ما يرام، فمن الصعب جداً الكتابة في مثل هذه الظروف. صرت، بناء على نصيحتك، أُملي عليها وأعطيها عملاً كثيراً (لأشاغلها)، لكنها تنجزه بسرعة وتعود إلى الأحزان. وأرى أنها بحاجة ماسة إلى السلوى، لكن المصير عندما يتطاول علينا ينهال من جميع الجهات: لا نقود للسفر إلى مدينة كبيرة، إلى فلورنسا أو نابولي، ثم إن الموسم غير ملائم، والسفر إلى باريس متعذر أيضاً والمسافة بعيدة. المدينة الكبيرة بمتاحفها ومعارضها، مثل درزدن العام الماضي، من شأنها أن تروّح عنها، فهي تحب التفرج والتعلم. (. . .) انتقلنا من جنيف إلى هنا، إلى فيفي، ليس من دون مشاكل، ومعنا مبلغ زهيد جداً نظراً لكلفة

مرض الطفلة ووفاتها ودفنها. فوجدنا أنفسنا في فيفي بالعوز نفسه الذي كنا فيه، بل وأسوأ. بديهي أن من الصعب تصور معيشة أسوأ مما في جنيف. إلا أن الوضع هنا ليس أفضل مطلقاً. ونحن ثلاثتنا، مع والدة آنّا، نعتقد بصواب ما قاله أطباء جنيف عندما حذرونا بأن الهواء هنا يتلف الأعصاب. ثلاثتنا نشعر بذلك. صحيح أن جنيف من نواحٍ أخرى، مثل الزوابع الباردة، أسوأ بكثير بالنسبة للصحة (. . .) ليتكَ تعرف حقارة الإقامة في الخارج ومدى دناءة السويسريين ووضاعتهم وغبائهم وتخلفهم اللامعقول. صحيح أن الألمان أسوأ، ولكن هولاء أيضاً ليسوا أفضل. ينظرون إلى الأجنبي نظرتهم إلى البقرة الحلوب، وكل ما يفكرون فيه هو كيفية خداعه ونهبه. والأدهى من ذلك هو قذارتهم. القرغيزي في خيمته أنظف منهم. حتى في جنيف. لو كنت سمعت بذلك سابقاً عن الأوروبيين لغرقت في القهقهة. ولكن، فليذهبوا إلى الشيطان. أنا أكرههم إلى أبعد الحدود. لكنني في جنيف كنت، على الأقل، أقرأ الجرائد الروسية، أما هنا فلا جرائد. وهذا الأمر صعب جداً عليّ. استلمت أخيراً رسالة مطولة من بافل. يتحدث فيها عن أربع رسائل وصلت إليّ، ولا أدري أين اختفت؟ (. . .).

من كثرة العمل صرت أشعر بالغباء وكأن دماغي محشو بالقش. أنتظر رسائلك دوماً وكأنها من ملكوت السموات. فهل هناك أثمن من صوت الصديق القادم من روسيا؟ ليس عندي ما أكتبه لك، لا أخبار. فأنا أزداد غباءً وحماقة هنا. وما لم أفرغ من كتابة الرواية لن أتمكن من القيام بشيء. عندذاك سأعود إلى روسيا مهما كلف الأمر. ولكي أنهي الرواية عليَّ أن أواظب على العمل خمسة أشهر، بثماني ساعات في اليوم على الأقل. دين كاتكوف اشتغلته لحد النصف، وسأشتغل

الباقي. اكتبْ لي، يا صديقي، اكتبْ لوجه المسيح. زوجتي تبلغك وآنّا إيفانوفنا تحياتها، وهي تحبكما حباً جماً. احتراماتي لآنّا إيفانوفنا. وتبلغكم آنّا نيكولايفنا تحياتها أيضاً. إلى اللقاء. أعانقك.

المخلص صديقك

ف. دوستويفسكي

في الفصول الأربعة التي ستقرأها في عدد يونيو، ولربما في ثلاثة فصول فقط، لأن الرابع تأخر، حاولت أن أقدم مشهد الوضعيين المعاصرين من الشباب الأكثر تطرفاً. وأعرف أنني كتبت الصحيح، لأنني كتبت من تجربتي الشخصية، فلا أحد غيري تابع هذه التجربة وامتلكها. وأعرف أيضاً أن الجميع سيلومونني ويقولون تلك حماقة وسذاجة بعيدة عن الصواب. عنواني:

Suisse, Vevey (Lac de Genève).

A M-r Dostoiewsky, poste restante.

131. إلى أبولون مايكوف

فيفي، 21 يوليو 1868

الصديق الحبيب الطيب الذي لا ينسى أبولون نيكولايفيتش.
التقطتُ الريشة لأكتب لك ثلاثة سطور.

كنت قد بعثت لك رسالة مطولة في يونيو رداً على رسالتك المؤرخة في مايو. رسالتك تلك أثبتت لي أنك لست زعلاناً مني لأي سبب يمكن أن أتخيله لغبائي ولطبعي المريض، بل وأنك لا تزال تحبني كالسابق. ولم أجبك في الحال لأنني كنت أطوي الليل بالنهار في عمل يسير ليس على ما يرام طوال 20 يوماً. لكنني لم أستلم منك حتى الآن رداً على رسالتي الجوابية المطولة المؤرخة في يونيو والمهمة جداً بالنسبة لي. هناك سببان في نظري: 1) إما لأنك زعلت مني لأمر ما، وإما 2) أن رسالتي أو رسالتك ضاعت. أنا لا أصدق السبب الأول مطلقاً، لأن رسالتك الأخيرة في مايو مفعمة بالمشاعر الطيبة تجاهي ولا يمكن أن أتصورك زعلاناً مني. ولذا أظن متيقناً أن رسالتي ضاعت. ولدي سبب يجعلني آخذ بهذا الظن، فقد بلغ مسامعي أن رقابة فرضت عليّ. بوليس بطرسبورغ يفتح رسائلي

ويقرأها جميعاً. وطالما أن قسيس جنيف، كما تشير كل الدلائل، بالوقائع وليس بالتكهنات، يخدم في البوليس السري فإن بعض الرسائل المعنونة إليّ تأخرت في بريد جنيف المركزي الذي لدى القسيس ارتباطات سرية به، على حد علمي الأكيد. ثم إنني استلمت أخيراً رسالة مهملة تفيد بأنني متهم بشيء لا يعلمه إلا الشيطان، وأن أمراً صدر بفتح رسائلي والتربص بي على الحدود عندما أدخلها وتفتيشي كأنما بالصدفة.

ولذا أعتقد أن رسالتي لم تصلك أو رسالتك لم تصلني. ولكن كيف يتحمل الشخص النظيف والوطني الشريف الذي أخلص لهم وتنكر لمعتقداته السابقة ويحب القيصر لحد التأليه، كيف يتحمل التهمة بارتباطات بالبولنديين الأدعياء أو «بالناقوس»[1]؟ يا لهم من حمقى أغبياء! ليست لدي أية رغبة في خدمتهم. ما أكثر المذنبين الذين فوتوهم عندنا، بينما يرتابون بدوستويفسكي!

إلا أن تلك ليست هي المسألة. هذه الرسالة تحملها إليك شقيقة زوجتي وتسلمها لك يداً بيد. والحقيقة هذه ليست رسالة، بل ثلاثة سطور، فأنا لم أعد أعرف ماذا ينبغي أن أكتب إليك. فليست رسالتك تحت يدي. أنت، يا صديقي أبولون نيكولايفيتش، أنت نفسك تسمّيني صديقاً لك. فما أصعب عليَّ والحال هذه أن أتحمل أحياناً فكرة كونك زعلاناً مني.

فاكتبْ لي إذن، في كلتا الحالتين، إذا كنت زعلاناً أوضح السبب. وإذا كنت غير زعلان فاكتبْ لي أنك تحبني.

كنت في منتهى التعاسة طول هذه الفترة. وفاة صونيا هدّت حيلي وحيل زوجتي. صحتي ليست على ما يرام. الصرع وطقس فيفي يتلفان الأعصاب.

حالما أستلم مبلغاً أغادر فيفي. ولكنك إذا أردت أن تجيب الآن ابعثْ على العنوان السابق:

Vevey (Lac de Genève), poste restante.

أنا لست راضياً عن الرواية لحد الاشمئزاز. عملت قدر ما أستطيع، ولم أتمكن. النفس مريضة. والآن سأبذل قصارى جهدي على الجزء الثالث. إذا صححت الرواية أستعيد صحتي، وإلا فأنا هالك.

أعصاب زوجتي متهالكة، وهي نحيلة وصحتها تتدهور أكثر فأكثر(...) أنا مجرم، مذنب بحقك. لا أزال مديناً لك بـ 200 روبل. سأسددها، فلا تلمني. ليتك تعلم كم تحملت، ومع ذلك سأسدد. سنرى نتيجة الجزء الثالث.

إذا كنتُ سأنتقل فالهدف الرئيسي هو إنقاذ زوجتي.

وهي تبلغك تحياتها، وتشد على يدك. تحياتي وتحياتها الخالصة إلى آنّا إيفانوفنا الموقرة.

المخلص ف. دوستويفسكي

(..) هل أتوجه إلى مسؤول ما وأطلب أن لا يتهموني بخيانة الوطن وبالارتباط مع البولنديين الأدعياء ولا يختطفون رسائلي؟ هذا شيء بغيض. ألا يعرفون أن العدميين والليبراليين و«المعاصرين» يلطخونني بالقاذورات منذ ثلاثة أعوام لأنني أعلنت القطيعة معهم ولا أحب البولنديين، بل أحب الوطن؟ يا لهم من حقراء!

---

(1) جريدة هيرتسن الثورية.

132. إلى رئيس تحرير مجلة أجنبية

(مسودة)

فيفي، أواخر أغسطس - أوائل سبتمبر 1868

السيد رئيس التحرير

أرجو السماح لي أنا الأجنبي أن ألجأ إلى طلب المساعدة الممكنة من مجلتكم الموقرة في نشر تكذيب وإحقاق الحق.

أنا أقيم في سويسرا منذ عام. في السابق عندما كنت أغادر روسيا إلى الخارج كنت أمر بسويسرا مر الكرام وأتجول فيها. أما الآن فقد أقمت لأول مرة ولا أتجول كسائح، بل أعيش في الغربة في مكان واحد. وبالتالي، ولأول مرة في حياتي لاحظت بكل وضوح ما لم يكن يخطر في بالي لو كنت أمرّ بالبلد كسائح.

وبالمناسبة أدهشني كل الدهشة عدم معرفة الأوروبيين بأي شيء تقريباً يخص روسيا. فالأشخاص الذين يسمّون أنفسهم بالمثقفين المتحضرين مستعدون كثيراً وبمنتهى الاستخفاف للحكم على الحياة الروسية دون أن يعرفوا ظروف حضارتنا ولا حتى جغرافية بلادنا. لن أدخل في تفاصيل هذا الموضوع الحساس وغير المريح، وأكتفي

بالقول إن أكثر الأخبار الهمجية غرابة من الحياة المعاصرة في روسيا تحظى لدى الجمهور بالتصديق الساذج التام. ولا بد من الإشارة إلى أن حجم تلك الأخبار يزداد في الصحف وفي المطبوعات، الأمر الذي يعتبر بالطبع مؤشراً على الاهتمام الكبير المتزايد الذي يثيره وطني لدى الجمهور الأوروبي.

الجميع يعرفون أن في أوروبا عدة إصدارات دورية مخصصة بالكامل تقريباً لتسويد صفحة روسيا. كما لا يتوقف في مختلف أرجاء أوروبا ظهور مؤلفات لهذا الغرض نفسه. ومعظم هذه الكراريس تصدر بشكل وسيلة لفضح مختلف الأسرار الفظيعة في روسيا. وهي تصور الأوروبي أو الروسي الموتور المتألم والحاقد على روسيا والذي يجمع المعلومات هناك وكأنه قادر على الوصول إلى الحقيقة وإلى الكشف عن الوقائع الاستثنائية فيتمكن في النهاية من مغادرة البلد المسكين الذي كان يختنق فيه من الحقد والغضب فيصدر في مكان ما في الخارج حيث تعجز الحكومة الروسية عن مواجهته كتيباً يضم ملاحظاته وتسجيلاته وأسراره. ويسارع الناشر إلى كتابة سطر على صفحة العنوان يشير إلى أن حقوق الطبع تعود له وحده. وبالتالي، كما تأكد لي تماماً خلال عام من إقامتي في الخارج، يصدق الجمهور بسذاجة وحسن نية أن كل ما مكتوب هو عين الحقيقة والمصداقية المقدسة، وليس متاجرة بمشاعر القارئ النبيلة ولا تسويقاً بالأوقية أو المتر للغضب النبيل المفبرك بشكل ممتاز لهدفين هما إلحاق الضرر بروسيا وبلوغ المنفعة الشخصية، ذلك لأن الغضب النبيل يباع على أية حال، ويباع بربح لا خسارة. ويستعيد ناشر الكتاب نفقاته، كما يكافأ الكاتب على «مجهوده».

لقد رأيت الكثير من هذه الكتيبات. وقرأت بعضها. إنها مفبركة

من قبل الأجانب أو حتى الروس، في كل الأحوال من قبل أناس كانوا بالضرورة في روسيا. وترد فيها أسماء معروفة وقصص أناس معروفين وأحداث جرت بالفعل. إلا أن كل هذا التوصيف غير صحيح ومشوَّه لغرض معيَّن. وكلما كثر كذب المؤلف ازدادت وقاحته. مخالفة الحقائق والافتراءات المتعمدة وقحة أحياناً ولا تعرف الحياء لدرجة تغدو فيها مثاراً للتسلية. فكنت كثيراً ما أضحك وأنا أقرأ تلك الخرافات. ومع ذلك فهي ضارة شأن أي افتراء أو تزييف للحقيقة. ومع ذلك يبقى شيء من الافتراء وأثر له مهما كان مشوهاً. وإلى ذلك تنتشر بين الجمهور الواسع في أوروبا آراء كاذبة زائفة تكون قوية كلما بقيت الحياة الروسية غير معروفة للأوروبيين. وفي هذه الحالة يمكن للآراء الزائفة والمعتقدات المشوهة أن تلحق ضرراً ليس بروسيا وحدها. وأنا على الأقل واثق بذلك.

وأعترف بأنني ما كنت سآخذ على عاتقي مهمة الكشف عن الأكاذيب وإحقاق الحق والحال هذه. فذلك عمل مهين للغاية. ولدى قراءة بعض هذه الكتيبات شعرت لسبب ما بالخجل الشديد إما تجاه المؤلف وإما تجاه نفسي لأنني تكلفت عناء قراءة مثل هذه الحماقات الوقحة.

وقبل أيام وقع نظري على كتيب بعنوان* «Les mystères du Palais des Czars (sous l'Empereur Nicolas I)». Par Paul Grimm. Propriété de l'éditeur. Vurzbourg, F.-A. Julien libraire-éditeur, 1868

يتناول سيرة حياتي ويفرد لي مرتبة بين الشخوص الرئيسيين. تجري الأحداث في بطرسبورغ في العام الأخير من حكم الإمبراطور نيكولاي، أي عام 1855. ومع الإشارة إلى أن الكتاب رواية

وحكاية، إلا أنه يعلن بوقاحة تفوق التصور أن كل الأحداث حقيقية وثائقية. ويتضمن الكتاب أشخاصاً فعليين ويشير إلى أحداث غير خيالية. ولكن ذلك كله بقدر من التزييف والتشويه يجعل القارئ لا يصدق بإمكان مثل هذه الوقاحة. على سبيل المثال اسمي مذكور بالكامل هكذا: فيودور دوستويفسكي. كاتب. متزوج. عضو في جمعية سرية.

---

(1) بالفرنسية: «أسرار البلاط القيصري في عهد نيكولاي الأول». بقلم بول غريم، 1868.



133. إلى أبولون مايكوف

ميلانو، 26 أكتوبر 1868

صديقي العزيز أبولون نيكولايفيتش.

استلمت رسالتك من زمان، قبل ثلاثة أسابيع، ولم أتمكن من الإجابة في الحال، لأنني مشغول بالعمل روحاً وجسداً. ومع أنه كان بالإمكان تصيد ساعة أو ساعتين للكتابة إليك، إلا أن الموقف في أثناء العمل صعب عليّ أحياناً لدرجة تخونني فيها قواي والله العظيم، خاصة وأنني أريد أن أتحدث معك من صميم القلب. فبقيت أنتظر رسالتك الثانية التي استلمتها أمس وأشكرك عليها كل الشكر يا صديقي الغالي.(. . .) من رسائلك تفوح روسيا، وهي عيد لي بالمعنى الحرفي للكلمة. ولكن كيف تظن أنني يمكن أن أزعل منك بسبب فكرة أو عبارة ما؟ كلا. لدي قلب من طبيعة أخرى. ولعلك تتذكر أنني تعرفت عليك لأول مرة قبل 22 عاماً، عند بيلينسكي، أليس كذلك؟ ومن ذلك الحين تقاذفتني الحياة ذات اليمين وذات الشمال مراراً وتكراراً. وعذبتني أحياناً بتقلباتها. وفي نهاية الأمر، في هذه اللحظات، أنت الإنسان الوحيد الذي أوده وأثق بما في نفسه

وفؤاده، ومعه التقت أفكارنا ومعتقداتنا في كلّ منسجم واحد. أفلا تريد أن تبقى عزيزاً عليَّ معزة المرحوم أخي تقريباً؟ رسائلك أفرحتني وأعادت إليَّ الروح لأن حالتي النفسانية محطمة. فالعمل أرهقني واستنفد قواي. منذ عام تقريباً وأنا أكتب كل شهر ثلاث ملازم ونصفاً. وفي هذا إجهاد كبير. وإلى ذلك أنا غائب عن الحياة الروسية، وليس حواليّ انطباعات روسية، فيما يشكل هذا الأمر دوماً ضرورة من ضرورات عملي. ثم إنك تمتدح فكرة روايتي، إلا أن أداءها لم يكن رائعاً حتى الآن. ويؤذيني أنني إذا ألفت الرواية قبل الأوان، في غضون عام، ثم أقضي شهرين أو ثلاثة في الاستنساخ والتنقيح، وتأتي ليس كما يرام، أكون مسؤولاً. وأنا الآن أرى ذلك بنفسي وبوضوح.

بدأت الحديث معك عن الرواية مباشرة. لكنني أريد أن أستعرض أوضاعي في البداية. فمنها ترى الباقي بوضوح أكثر. إذن، إليك أوضاعي، ها هي:

ليس من الجائز كتابة ثلاث ملازم ونصف في الشهر الواحد. هذه حقيقة إذا كان الكاتب يعكف على العمل طوال العام. لكن النتيجة جاءت بأنني لن أنهي الرواية هذا العام، ولن أنشر سوى نصف الجزء الرابع والأخير. حتى قبل شهر كنت لا أزال آمل بأني سأنجزها. بيد أنني فتحت عينيّ الآن ورأيت أن ذلك مستحيل. علماً بأن كل آمالي وأمنياتي معقودة على الجزء الرابع، وهو كبير بـ 12 ملزمة. والآن، حيث أرى كل شيء كما وراء الزجاج الشفاف، تيقنت بمرارة أنني لم أكن يوماً في حياتي الأدبية قد عرفت فكرة شاعرية أفضل وأغنى من الفكرة التي زارتني الآن بكل تفاصيلها من أجل الجزء الرابع. ما يعني أنني يجب أن أسرع بكل ما أستطيع وأعمل بلا كلل ورغم ذلك لن

أتمكن من الانتهاء. ففي أي موقف حرج سأضع نفسي ومجلة «البشير الروسي»؟ وكيف أواجه كاتكوف الذي عاملني بنبل وشهامة؟ سيتعين عليَّ أن أسلمهم بقية الخاتمة لينشروها في ملحق يكلفهم مبالغ إضافية. ورأيت أن أكتب لهم وأتخلى عن أجرة كل ما سينشرونه في العام القادم لأعوض للمجلة عن الخسائر المترتبة على إصدار الملحق. وهذا ينسف مصالحي المالية.

حياتي هنا باتت تثقل عليَّ كثيراً. ومنذ ستة أشهر لم أقرأ شيئاً روسياً، لم أقرأ كتاباً واحداً ولا جريدة روسية واحدة. ثم هناك العزلة التامة. في الربيع عندما فقدنا صونيا انتقلنا إلى فيفي. ووصلتنا أم آنّا غريغوريفنا. إلا أن فيفي تحطم الأعصاب وهذا أمر معروف لجميع الأطباء، لكنهم لم يحذروني عندما استشرتهم. وفي نهاية مكوثنا في فيفي مرضت أنا وزوجتي. فانتقلنا قبل شهرين إلى ميلانو عبر (نفق) سيمبلون. الطقس هنا أفضل، لكن المعيشة أغلى، والأمطار غزيرة، والضجر قاتل. آنّا غريغوريفنا امرأة صبور، لكنها شديدة الحنين إلى روسيا. وكلانا نبكي على صونيا. حياتنا كئيبة ومتقشفة كما في الدير. طباع آنّا شديدة التأثر وكثيرة الانفعالية. وليس لديها هنا ما يشغلها. أنا أراها حزينة كئيبة، ومع أننا نحب بعضنا بعضاً ربما أكثر مما كنا قبل سنة ونصف، يؤلمني أنها تعيش معي في مثل هذا الدير الكئيب. إنه شيء لا يطاق. اللّه وحده يعلم ما يمكن أن يحصل فيما بعد. فلو كانت الرواية قد انتهت، على أية حال، لكنت متفرغاً. العودة إلى روسيا يصعب التفكير فيها. فلا نقود لدينا. يعني أنني سأدخل سجن الديون حالما أصل. وهناك أعجز عن العمل. ولن أتحمل السجن بسبب الصرع، ولن أتمكن أن أعمل، فكيف أسدد الديون وعلامَ أعيش؟ ولو منحني الدائنون سنة هادئة واحدة، وهم على مدار ثلاث

سنوات لم يتركوا لي شهراً هادئاً واحداً، لتعهدت بتسديد ديوني إليهم من خلال العمل. ومهما كانت ديوني كبيرة فإنها تشكل قرابة خمس ما دفعته لهم بنتاجي. وقد ارتحلت من أجل العمل. وها هي فكرة «الأبله» تكاد تنفجر. إذا كانت لها أو ستكون ميزة ما فإن المفعول ضئيل، والمفعول (الكبير) ضروري للطبعة الثانية التي كنت قبل بضعة شهور أعول عليها بشكل أعمى، وكان بوسعي أن أكسب منها بعض المال. والآن لا مجال حتى لمجرد التفكير في الطبعة الثانية ما دامت الرواية لم تنجز بعد.

لو وصلتُ إلى روسيا لكنت أعرف بماذا أشتغل وكيف أكسب النقود. فقد كسبتها في حينه على أية حال. أما هنا فأغدو بليداً ضيق الأفق. وأتخلف عن روسيا. لا يوجد هنا هواء روسي ولا روس. وأنا لا أفهم المهاجرين الروس إطلاقاً. إنهم مجانين.

تلك هي أحوالنا، وهذا وضعنا. إلا أننا لا نستطيع المكوث في ميلانو أيضاً: فالعيش غير مريح أبداً، والكآبة شديدة حالكة. ننوي الانتقال إلى فلورنسا بعد شهر، وهناك سأنهي الرواية. لا أزال أستلم نقوداً من كاتكوف. ما أفظع النفقات هنا، على الرغم من تقشفنا الشديد. قريباً، مع إتمام كتابة الرواية، يتوقف طبعاً استلام النقود من كاتكوف. وتأتي المشاغل والهموم من جديد. إلا أن ديني لكاتكوف مع ما استلمته منه في البداية تقلص كثيراً.

لقد تخلفت تماماً عن الحياة عندكم، مع أن فؤادي كله بينكم، ولذا فإن رسائلكم بالنسبة لي نعمة من السماء. (. . .) (. . .)

قبيل رسالتك بقليل كنت قد قرأت الكتيب الذي أبلغتني به، وأعترف بأني اشتطت غضباً. فيا لها من وقاحة. بالطبع يمكن أن نبصق عليه. هكذا أردت أن أفعل في البداية، إلا أن ما منعني هو أنني

إذا لم أستنكر سأعطي مبرراً لوجود مثل هذه الكراريس. ولكن أين أستنكر وأحتج؟ في «Nord»؟ أنا لا أكتب جيداً بالفرنسية. وإلى ذلك أريد أن أتقيد باللياقة. أفكر في الذهاب إلى فلورنسا ومراجعة القنصلية الروسية، وهناك أستشيرهم عن كيفية التصرف. بديهي أنني مسافر إلى فلورنسا ليس لهذا الغرض وحده. أنت تقترح عليَّ السفر إلى البندقية التي يمتدحها جميع الأطباء وكل الأدلة السياحية من حيث المصحات. وسأكون مسروراً جداً ولو للترويح عن آنّا غريغوريفنا على الأقل، ولا أدري، ربما سأقوم بذلك، لأن الطريق بالفعل ليس طويلاً. إلا أن الوقت ضيق جداً، هذا أولاً، وثانياً، ستكلفنا السفرة ولو لثلاثة أيام، ولو في الدرجة الثالثة، ما لا يقل عن 100 فرنك. وهذا مبلغ هائل بالنسبة لنا الآن، رغم أننا لا يندر أن نستلم 1000 فرنك من كاتكوف مثلاً. ولكن حالما نستلم يتعين علينا أن نخصص لتكاليف المعيشة في شهر أو شهر ونصف ونسدد الديون التي تتراكم دوماً وننفق على السفر والثياب. ولما كان المستقبل غير مؤمن مادياً فلا بد من التقتير الشديد، والعمل في المقام الأول لإنهاء الرواية والمواظبة ليل نهار، وإلا لن نحصل على نتيجة.

حبذا لو التقيت لامانسكي. وسأكون سعيداً لو قرأت كتاب سامارين، لا سيما وأنني دوماً أفكر في هذه الأمور نفسها. ولكن أين أحصل على الكتاب؟ المشكلة كبيرة. حتى في جنيف التي توجد فيها كتب روسية لا ترى في الأكشاك سوى (رواية تشيرنيشيفسكي) «ما العمل؟» ومختلف قاذورات مغتربينا. ويمكن بالصدفة أن تعثر على مجلد لغوغول أو بوشكين. وليس في تسويق الكتب الروسية في أي مكان لا نظام ولا معنى ولا فكر، بل إن بيعها ظاهرة نادرة. وهنا، في إيطاليا، لا تجد شيئاً. كان بودّي أن أقتني سامارين، ولكن هيهات.

أنا قلق جداً على أهلي (في بطرسبورغ). لم أتمكن من إرسال شيء إلى بافل طول الصيف. ثم إنه هو أيضاً مقصر. لكنني لست زعلاناً منه. ذلك لأنه ما من سبب يجعله يحبني. كثيراً. ولا يمكنني أن أتشدد بشأن أخطائه في الخدمة. فهو صبي مسكين غير متطور، وحيد بلا عون. فكيف لا يقترف الأخطاء؟ لكنني أخشى الأسوأ، وأرغب في مساعدته بأسرع ما يمكن. إميليا فيودوروفنا ملزمة بأن تترك شقتي (المستأجرة) في بيت أنونكين في شهر نوفمبر، لأنني لا أستطيع أن أدفع الإيجار. كل ذلك يقلقني، إلا أن الأهم هو أن أنهي الرواية.

أما عن ديني لك، يا صديقي، فيخجلني حتى مجرد التفكير فيه. وهو يعذبني تحديداً لأنك عاملتني كأخ شقيق، بل ليس كل شقيق يتصرف بهذه الشهامة.

فأنت لديك عائلة أيضاً. على أية حال أنا أستلم نقوداً، وسأدفع لك. وسيبزغ الفجر عليَّ أنا أيضاً. لكن الأهم أني أتشوق إلى روسيا. ففي روسيا ستتحسن أموري. وأظن أن صونيا كانت ستبقى على قيد الحياة لو كنا في روسيا.

آنّا غريغوريفنا تودّك وتفكر فيك وتتحدث عنك بسرور. بلّغ تحياتي وتحياتها الملحة، سألتني اليوم ثلاث مرات هل بلغتك تحياتها؟، إلى زوجتك ووالديك. وتحياتي كذلك لكل من يتذكرني (...)

المخلص ف. دوستويفسكي

اكتبْ لي باللّه عليك. وإليك العنوان على أية حال:
Italie, Milan, à M-r Dostoiewsky, poste restante.

134. إلى أبولون مايكوف

فلورنسا، 11 ديسمبر 1868

أسارع في الرد عليك، يا صديقي أبولون نيكولايفيتش، باستعجال حقاً، مع أنني أريد أن أحدثك طويلاً من صميم القلب. تصور ماذا أخذت على عاتقي؟ أعتقد أنني كتبت لك أنني تلكأت في إتمام «الأبله» ولم، ولن، أتمكن من إنجاز الرواية لعدد ديسمبر. وقد أبلغت كاتكوف بذنبي في منتهى الصراحة، أي بمسؤوليتي عن نشر خاتمة الرواية في ملحق (مكلِف) يوزع على المشتركين في العام القادم. إلا أنني قررت الآن العمل على نحو آخر، ولكنني لا أعرف هل ستوافق هيئة تحرير «البشير الروسي» على قراري أم لا. قررت أن أكمل الفصل الرابع والخاتمة في عدد ديسمبر من العام الحالي بشرط أن يتأخر صدور هذا العدد لبعض الوقت. واليوم أبلغت كاتكوف بأن هيئة التحرير ستستلم خاتمة «الأبله» في الـ 15 من يناير حسب تقويمنا. أما الفصول التمهيدية فسأوافيهم بها تباعاً كل خمسة أيام. والقضية أنهم في كل سنة يتأخرون أصلاً في إصدار عدد ديسمبر، بل يصادف أن يصدر عدد يناير للاشتراك الجديد قبل عدد ديسمبر

للاشتراك المنتهي. وبالتالي سيصدر العدد المعني في 20 يناير، أي ببعض التأخير. ولا أدري كيف سيقررون هناك في هيئة التحرير. إلا أنني من اليوم فصاعداً ينبغي أن أكتب وأبعث لهم قرابة 7 ملازم طباعية في 4 أسابيع. وأدركت فجأة أنني قادر على ذلك دون أن أسيء إلى الرواية كثيراً. وإلى ذلك فكل ما بقي من الرواية مسجل بهذا القدر أو ذاك في مسودات، وأنا أعرف كل مفردة فيها عن ظهر قلب. إذا كان هنالك قراء «للأبله» فلربما يدهشون بعض الشيء للخاتمة المباغتة، لكنهم بعد أن يتأملوا قليلاً سيوافقون طبعاً على أن النهاية جاءت كما ينبغي. عموماً الخاتمة من المكونات الموفقة كخاتمة، ناهيك عن المزايا الأخرى الملازمة للرواية ككل. ولكنني عندما أنتهي سأكتب لك كصديق رأيي الشخصي فيها. ذلك، إذن، الموقف الذي أنا فيه. وإلى ذلك تجمعت أربع رسائل عليّ أن أجيب مرسليها، لأنني أنا نفسي، على الأقل، أرغب في الإجابة. وقد يصعب عليك، بالطبع، أن تتصور كيف تنعشني رسائلك هنا. فمنذ شهر مايو لم أقرأ ولا جريدة روسية واحدة، ولا أستلم سوى «البشير الروسي»، فيغدو يوم استلام العدد عيداً لي. على فكرة، كتبت إلى نيكولاي نيكولايفيتش (ستراخوف) أن يبعث لي «الفجر» إلى هنا في فلورنسا (. . .) واستلمت منه رسالة فيها أخبار أدبية كثيرة. أفرحني منها خبر عن مقالة دانيليفسكي «أوروبا وروسيا» (. . .) وأعترف لك بأنني لم أسمع أخبار دانيليفسكي منذ عام 49، لكنني كنت أتذكره وأفكر فيه أحياناً. كان من أنصار فوريه المتحمسين جداً لنظريته. وها هو يتحول من (الاشتراكيين الطوباويين) الفوريويين ويتجه نحو روسيا، ويغدو روسياً من جديد ويستعيد تربته وجوهره. تلك هي مؤشرات الإنسان الواسع الصدر. أما تورغينيف فقد تحوَّل من كاتب روسي إلى

ألماني. وتلك هي مؤشرات الإنسان الخبيث. أنا لا أتفق بالقدر نفسه مع كلمات المرحوم أبولون غريغوريف الذي قال عن بيلينسكي إنه يمكن أن يغدو في الأخير من دعاة السلافية. كلا. ما كان بيلينسكي سيبلغ ذلك. فهو خبيث أجرب. كان شاعراً كبيراً في حينه، لكنه عجز عن مواصلة التطور. وكان سينتهي إلى خدمة إحدى السيدات المحليات، من قبيل هيغت، ليؤدي وظيفة ضابط ارتباط في المسألة النسوية خلال الاجتماعات الجماهيرية، حتى ينسى النطق بالروسية من جهة دون أن يتعلم الألمانية بالتمام من جهة أخرى. هل تعلم من هم الروس الجدد؟ واحدهم كالفلاح المنشق (على الكنيسة) الذي كتبت عنه «البشير الروسي» في عدد يونيو. إنه ليس الإنسان الروسي المرتقب، بل مجرد واحد من روس المستقبل.

هذا الموضوع إذا بدأناه لن ننتهي منه. أريد أن أستشيرك، يا عزيزي، وأطلب نصيحة أخوية: ما العمل؟ أطلب منك وحدك بالطبع. فلا أريد للآخرين أن يطلعوا على أموري العائلية. المسألة أنني بعد شهر أنهي التزاماتي إلى «البشير الروسي». حجم «الأبله» سيكون قرابة 42 ملزمة طباعية. وقد استلمت منهم (. . .) ما يقارب 7000 روبل. أجل، حوالى سبعة آلاف، (. . .) ووفقاً لحساباتي أبقى مديناً للمجلة 1000 روبل. وقد لا يثقل عليهم ذلك، فهم يعرفون أنني سأشتغل بهذا المبلغ. ولكن السؤال كالآتي: بِمَ سأعيش؟ بعد الفراغ من الرواية سأكتفي لشهرين آخرين، وبعد ذلك كيف؟ ما العمل؟ هل أستعين بكاتكوف؟ إذا كانوا ينوون الانتفاع من التعاون معي فسيبعثون لي النقود طبعاً، بناءً على طلبي. لكن أسوأ شيء بالنسبة لي هو أنني لن أعرف بأية صفة أو أساس سأتعاون معهم؟ ككاتب مدين لهيئة التحرير، هذا مفهوم. لكنهم لا يجيبون.

حتى أنني لا أعرف ما إذا كانوا مرتاحين لروايتي أم لا، وهل يرغبون في التعاون معي (لاحقاً) أم لا؟ وهذا أمر من المهم أن أعرفه حتى لمجرد الحسابات المالية.

الدائنون الملاعين سيخنقونني تماماً. لقد أخطأت بسفري إلى الخارج، ربما كان الأفضل أن أقبع في سجن الديون. لعلي أستطيع أن أتفق معهم من السجن. لكنني الآن لا أستطيع لعدم وجودي هناك.

المهم، بهذا الخصوص، أن في ذهني إصدارين أو حتى ثلاثة لا تحتاج سوى إلى عزم ومواظبة ميكانيكية على الكتابة. ومن شأنها، دون ريب، أن تعود عليَّ بالنقود. ففي السابق كنت أنجح أحياناً من هذه الناحية. في ذهني بهذا المعنى رواية ضخمة بعنوان «الإلحاد». باللّه عليك فليبق هذا سراً بيننا. ولكن عليّ، قبل الشروع بكتابتها، أن أقرأ ما يقارب مكتبة كاملة من مؤلفات الملحدين والكاثوليك والأرثوذكس. وستستغرق ما لا يقل عن عامين حتى لو توفرت كل مستلزمات العمل. الشخصية موجودة: روسي من مجتمعنا، متقدم في السن، قليل التعليم ولكنه ليس أمياً، ولا تعوزه الرتب. إلا أنه، وهو يتقدم في السن، فقد إيمانه باللّه. وكان طول عمره في الخدمة لا يخرج عن مسارها، ولم يتميز بشيء حتى الخامسة والأربعين (. . .) فقدان الإيمان باللّه يؤثر فيه تأثيراً عظيماً. مسرح الأحداث في الرواية واسع عريض. الرجل يتوغل متسكعاً بين الأجيال الحديثة، بين الملحدين من السلافيين والأوروبيين، بين الطائفيين الروس المتعصبين والمعتكفين في البراري، بين القساوسة المتعبدين، ويقع في شرك أحد الجزويتيين وأحد المروجين البولونديين ويتخلص منه هابطاً إلى أعماق الخوارج اليسوعيين، فيستعيد في الأخير ولاءه للسيد المسيح وللتربة الروسية، ولاءه ليسوع الروسي ولإله روسيا. باللّه عليك لا تخبر

أحداً، فبالنسبة لي كتابة هذه الرواية الأخيرة ضرورة قصوى لأعبر من خلالها عن كل ما أريد. آه يا صديقي، مفاهيمي عن الواقع والواقعية تختلف تماماً عن مفاهيم واقعيينا ونقادنا. مثاليتي أكثر واقعية من واقعيتهم. يا إلهي، لو تحدثنا بذكاء عما عانيناه نحن الروس جميعاً في تطورنا الروحي خلال السنوات العشر الأخيرة لزعق الواقعيون صائحين: هذا من بنات الخيال. بينما هو واقعي أصلي لا خيال فيه. إنه الواقعية بعينها، ولكن بمزيد من الغوص في الأعماق، في حين تطفو واقعيتهم على سطح المضاحل (. . .)

يا عزيزي، لا تسخر من اعتدادي بالنفس. فأنا مثل (الرسول) بولص: لا أحد يمدحني، فأمدح نفسي.

ولكن الآن ينبغي أن نعيش. ولن أعرض «الإلحاد» للبيع. علماً بأن لدي عن الكاثوليكية والجزويتية ما أقوله بالمقارنة مع الأرثوذكسية. كما لدي فكرة قصة طويلة[1] بـ 12 ملزمة تقريباً. وهي تستهويني. وعندي أيضاً فكرة أخرى[2]. بمَ عليّ أن أبدأ، وعلى من أعرض مؤلفاتي؟ على «الفجر»؟ أنا أطلب الأجر مقدماً. ومن المستبعد أن يدفع أصحاب «الفجر» مقدماً. بالطبع قد لا أستغني عن مساعدتهم، ولكن ينبغي أن أبعث إليهم مقالة جاهزة. وهذه مسألة صعبة. فبمَ أعيش وأنا أكتب المقالة؟ (. . .) خاتمة «الأبله» ستكون مؤثرة، لا أدري؟ ولكنني إذا عرضت الرواية بنفسي على الناشرين لطبعة ثانية أخسر نصف الأجر. المفروض أن يأتوا هم إليّ، كما كان يحصل دوماً، فهل سيأتون؟ أنا لا علم لي بنجاح الرواية أو فشلها. على أية حال كل شيء يتوقف على خاتمتها.

أنا، في كل الأحوال، أنشد نصيحتك، يا صديقي. أنتظر النصيحة الرئيسية منك عندما تقرأ خاتمة «الأبله». اعتباراً من يناير

سأكون حراً طليقاً. ولا يجوز في مثل وضعي أن أجلس مكتوف الأيدي. يجب أن أعيش وأسدد الديون. اكتبْ لي، يا صديقي، كل شيء عن «الفجر»، فيما بيننا فقط، ما هي إمكانياتها المالية، وهل تستطيع أن تدفع مقدماً بصورة عامة، ولي بصورة خاصة؟ أعترف لك أن مطالبة «الفجر» بالدفع المقدم يحتاج إلى شجاعة، وترك «البشير الروسي» ولو مؤقتاً فيه إحراج، وخصوصاً إذا بقيت مديناً للمجلة. يا ليتني أعرف نظرتهم الشخصية إلى التعاون معي. أعرفها طبعاً ما داموا يدفعون لي. على أية حال اكتبْ لي شيئاً عن ذلك أيضاً، عن كل شيء. وهل يستحسن تحمُّل عناء المبادرة والدخول في تعاون استثنائي، لا سيما وأنهم ينظرون إلى هذا التعاون ببرود؟ لقد تخلفت عنكم كثيراً، ولا أعرف شيئاً. على أية حال فليبقَ كل ما كتبته إليك، وأنا أطلب النصح، سراً بيننا.

أشكرك كثيراً، يا عزيزي، على مساعدتك في تعيين بافل (. . .)، ولدي رجاء إليك من جديد: طلبت تواً من كاتكوف أن يبعث إليك 100 روبل، وأرجوك أن تعطيها إلى بافل وإميليا فيودوروفنا مناصفة. أرجوك أن تفعل ذلك، كما هو دوماً موقفك الطيب تجاهي. (عائلة المرحوم أخي غاضبة عليَّ لتصورها أن تصرفاتي أدت إلى إفلاس شركته وأربكت عمل المجلة) والحقيقة أن من أسباب احتجاب المجلة تصور القراء أن فيودور دوستويفسكي هو الذي توفي وليس ميخائيل. وكانوا دوماً يخلطون بيننا. وقد وقعت كل الديون على كاهلي (كما تعلم) (. . .) (. . .).

فلورنسا جميلة، لكنها شديدة الرطوبة. ومع ذلك الورود لا تزال متفتحة حتى الآن في الهواء الطلق في متنزه بوبولي. وما أروع المجوهرات في المعارض! يا إلهي، كنت في عام 63 قد تطلعت في

«العذراء جالسة»[3] طوال أسبوع، ولم أر (عمق أبعادها) إلا الآن. وبالإضافة إليها ما أكثر الألوهيات هناك. لكنني أرجأت مشاهدتها إلى ما بعد الفراغ من الرواية. وانزويت في عزلتي. قصيدتك «أمام الكنيسة» منقطعة النظير. من أين لك بهذه المفردات؟ إنها من أفضل وأروع قصائدك (. . .).

آه، ما أكثر ما أريد أن أقوله لك. اكتبْ لي على العنوان:

Italie, Florence, à M-r Th. Dostoiewsky, poste restante

آنّا غريغوريفنا تبعث تحياتها القلبية لك ولآنّا إيفانوفنا. الضجر ينتابها أكثر مني، فأنا، على الأقل، مشغول كثيراً.

ملاحظة: قد لا تصل إليك الـ 100 روبل من هيئة تحرير «البشير الروسي».

ملاحظة: كتبت إلى ستراخوف على عنوان مجلة «الفجر»، فهل ستصل الرسالة؟

أعانقك.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) الأرجح أن المقصود قصة «الزوج الأبدي».

(2) لعل المقصود فكرة رواية «الزواج».

(3) لوحة روفائيل «مادونا ديلا سيديا».

135. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 12 ديسمبر 1868

لقد أفرحتني كثيراً، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، برسالتك أولاً، وثانياً بالأخبار الطيبة التي فيها[1]. أنا لم أجب على سالتك الأولى لسبب بسيط هو أنك لم تكتب لي عنوانك (ولكنني أعتز برسائلك وبرسائل مايكوف). فهي، وأقول حرفياً، نعمة من السماء. أنا الآن في فلورنسا منذ أسبوعين، وأعتقد أني سأمكث فيها طويلاً، كل الشتاء، في أقل تقدير، وجزءاً من الربيع. هل تتذكر كيف كنا نتنادم في فلورنسا في الأمسيات؟ وكنت أنت كل مرة أكثر مني ميلاً إلى الاحتياط، تعدّ لنفسك قنينتين للأمسية وأنا قنينة واحدة، وعندما أفرغ من قنينتي أنتقل إلى قنينتك. هذا بالطبع شيء لا يستحق التباهي. ومع ذلك أمضينا تلك الأيام الخمسة في فلورنسا بشكل لا بأس به. فلورنسا الآن أكثر صخباً وبرقشة نسبياً، والزحام في شوارعها رهيب. الكثيرون يؤمّونها كالعاصمة. وتكاليف المعيشة أغلى بكثير من السابق. لكنها أرخص كثيراً مما في بطرسبورغ. ومع ذلك كل أمنياتي تتجه نحوكم، نحو روسيا وبطرسبورغ. ولكن يبدو أن اللّه لا يمنح



نيكولاي ستراخوف

قرنين للبقرة الناطحة. ولكن، فلنتق اللّه، أية بقرة ناطحة أنا؟ ربما أنا بقرة غبية في الكثير من الأمور، هذا صحيح، وإذا كنت أنطح فذلك من قبيل الصدفة.

من الصحيح تماماً القول إن الأدب يكاد يتوقف. بل هو متوقف إنْ شئتَ. ومن زمان. ذلك، يا صديقي نيكولاي نيكولايفيتش، بحسب وجهة النظر. في اعتقادي إذا نضبت كلمتنا الروسية الأصيلة يعني أن الأدب توقف، وإذا غاب العباقرة يعني توقف. لقد توقف الأدب بوفاة غوغول. وأنا أريد ما هو لنا، خصوصيتنا، بأسرع ما يمكن. أنت تحترم ليف تولستوي كثيراً، هذا ما أراه، وأنا موافق أننا نجد الخصوصية عنده. ولكن ذلك قليل. على أية حال، باعتقادي، أنه تمكن أكثر من أي واحد منا من التعبير عن خصوصيته. ولذا يستحق أن نتكلم عنه.

ولكن فلنؤجل ذلك. لماذا تكتب في رسالتك أن لا نعلق الآمال عليك؟ كلا، كلامك هذا ليس له ما يبرره جدياً. وإذا عافت نفسك

في الأخير الكتابة المتواصلة وتحبير المقالات حسب الطلب فنحن جميعاً في مثل حالك. هذه الطلبيات والمواعيد تعكر المزاج وتخفف الحماس، وخصوصاً مع التقدم في السن. ولكن حافظ على أعصابك، فإنك لن تفقد أبداً لب ولعك وإندفاعك. طيب، لا تكتب 12 مقالة في العام، اكتبْ ثلاثاً فقط. وستكتبها بارتياح، وخصوصاً إذا تحمست لها. يكفي أن تكون هناك مقالة أساسية واحدة، وليس اثنتان أو ثلاث، لكي تدفع المجلة، الجديدة بخاصة، وتلفت الأنظار إليها. إلا أن المهم هو التحرير. التحرير شيء أساسي، إنه عين المجلة ويدها وتوجهها المتواصل. والآن، وخصوصاً الآن، يشغل التحرير المرتبة الرئيسية الأولى. كلا، لا تقنعني بعكس ما أتوقعه لمجلة «الفجر». فمن رسائل أبولون نيكولايفيتش وحتى من رسالتك أرى أن لدى المجلة، من حسن الحظ، كثيراً مما هو شبابي ساخن، ويتحلق حولها العديد من الأشخاص الراغبين بالمساهمة فيها. (. . .)

والآن، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، أنا أنتظر «الفجر». باللّه عليك أَرسلْ لي نسخة إلى هنا في فلورنسا من دون إبطاء. (. . .) أخبِرني، إن لم يكن ذلك سراً، بعدد المشتركين في المجلة (. . .) بعد شهر آمل أن أصفي الحساب مع «البشير الروسي» نهائياً، وبالمقابل سأكدّ وأكدح خلال هذا الشهر. من حسن الحظ أن طقس فلورنسا لا يزال دافئاً، مع أنه رطب. أما في ميلانو فلم تبق خرقة إلا وتدفأتُ بها وأنا قابع في البيت. ناهيك عن سويسرا التي هي (من هذه الناحية) مثل لبلانديا[2].

أجل، يا صديقي، بودّي أن أتحدث إليك طويلاً. فبعد مضيّ عامين أعتقد حتى أراؤنا ومعتقداتنا لا بد أن تكون قد تغيرت جزئياً[3].

ما كتبته لي عن دانيليفسكي يهمني جداً. فهو لا بد أن يكون ذلك الاشتراكي الفوريوي المستميت، والوضعي الطبيعي الذي كنت أعرفه في حينه. عفارم عليه طالما استطاع أن يتحول إلى روسي، طليعي كما تقول، بعد أن كان اشتراكياً طوباوياً (من مريدي فوريه). أنا أتلهف إلى مقالته كالجائع إلى الرغيف.

هكذا إذن، لم يمت اتجاهنا وعملنا المشترك. «الوقت» و«العصر» عادتا بثمارهما مع ذلك. وبدأ العمل الجديد من حيث توقفنا آنذاك. هذا مبعث سرور عظيم. ولعل من المجدي الكتابة خلال العام الحالي عن أبولون غريغورييف، لا أعني سيرة حياته، بل دوره الأدبي على العموم.

أبعث هذه الرسالة إلى هيئة تحرير «الفجر» لا على التعيين، وآمل أن تصل إليك. عنواني في فلورنسا: (. . .)

إلى اللقاء. ذكّرتني زوجتي الآن أن أبلغك تحياتها. ليتك تعلم ما أكثر ما نتذكركم جميعاً. فنحن وحدنا، وحالما أنجز العمل بعون اللّه لربما أعود إلى بطرسبورغ في العام القادم إن شاء اللّه. وستكون تلك فرحة عظيمة طال انتظاري لها. أما الآن فإلى اللقاء.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) كتب الناقد ستراخوف عن نجاح مجلة «الفجر» التي التفَّ حولها مريدوه ومريدو دوستويفسكي.

(2) بلاد قطبية غير موجودة على الخارطة رسمياً، أراضيها موزعة بين فنلندة والنرويج والسويد وروسيا.

(3) الخلافات الفكرية بين ستراخوف ودوستويفسكي كانت قائمة في الماضي أيضاً.

136. إلى صوفيا إيفانوفا

فلورنسا، 25 يناير 1869

صديقتي العزيزة الطيبة المحترمة صونيا!

لم أجبك رأساً على رسالتك غير المؤرخة وأنَّبني ضميري أشد تأنيب، فأنا أحبك حباً جماً. لكن الذنب ليس ذنبي. أما الآن فسأكون مسؤولاً عن انتظام المراسلات، وسأجيبك في اليوم نفسه. ولما كانت كل رسالة من روسيا حدثاً كبيراً يهمني، بأحلى شكل إذا كانت الرسالة منك، فاكتبي أكثر إذا كنت تحبينني. لم أرد عليك طويلاً لأنني تركت كل شيء ولم أجب حتى على أهم الرسائل لحين الفراغ من رواية («الأبله»). والآن أنهيتها. عكفت على كتابة الفصول الأخيرة ليل نهار بكآبة وقلق شديد (...) وفي تلك الأثناء داهمتني نوبتان من الصرع. فتأخرت عشرة أيام عن موعد التسليم. ويمكنك أن تتصوري مدى قلقي (وشعوري بغضب هيئة التحرير عليّ)، وأنا في أمسّ الحاجة إلى النقود في تلك اللحظات بالذات. فطلبت من كاتكوف أن يرسلها لي.

الطقس هنا في فلورنسا، بالنسبة لي، ربما أسوأ من ميلانو وفيفَي،

ونوبات الصرع أكثر. حصلت لي نوبتان متواليتان في ستة أيام، ما جعلني أتأخر في تسليم الرواية تلك الأيام العشرة. وإلى ذلك المطر كثير في فلورنسا، لكنها تبدو كالجنة عندما تشرق الشمس. فلا أفضل من هذه السماء والهواء والنور. طوال أسبوعين عمَّ بردٌ غير شديد، إلا أن غياب وسائل التدفئة الجيدة في الشقق جعلنا نرتجف طوال الأسبوعين كالفئران في جحورها. ولكنني الآن على الأقل صفيت حسابي وتفرغت، وكان هذا العمل طوال عام قد هد حيلي لدرجة شتت أفكاري. والمستقبل لغز من الألغاز، لا أدري ماذا سأفعل، في حين لا بد من القيام بشيء. بعد ثلاثة أشهر يمضي عامان على مكوثنا في الخارج. يخيل إليَّ أن ذلك أسوأ من المنفى في سيبيريا. أقول هذا بجد ومن دون مبالغة. أنا لا أفهم الروس المغتربين في الخارج. إذا كانت هنا في فلورنسا شمس كهذه وسماء ومعجزات الفن الفعلية غير المسبوقة والتي تفوق التصور بالمعنى الحرفي للكلمة ففي سيبيريا عندما أنهيت الأشغال الشاقة كانت هناك مزايا أخرى غير متوفرة هنا، وأهمها الروس والوطن، ومن دون ذلك لا أستطيع أن أعيش.

ولعلك ستشعرين بنفسك في زمن ما وتتأكدين أنني لا أبالغ من أجل بديع الكلام. ومع ذلك فإن مصيري القريب غير معروف. حساباتي الإيجابية الأولى انفجرت جزئياً في الحال الحاضر. أقول حساباتي الإيجابية وأدرك بالطبع أن كلاً منها يقوم على المخاطرة ويتوقف على الملابسات، شأنه شأن حسابات أي رجل بلا مال يعيش بعرق جبينه. كانت حساباتي تلك تتوقع أن أتمكن من خلال الطبعة الثانية للرواية أن أدبر حالي وأعود إلى روسيا، لكنني لست راضياً على الرواية، فهي لم تعبّر عن عشر معشار ما أردت أن أعبّر عنه، ومع ذلك لا أتخلى عنها، بل أحب فكرتها التي لم تتجسد حتى الآن.

الرواية، على أية حال، غير مؤثرة بالنسبة للجمهور، وطبعتها الثانية حتى وإن صدرت ستعود عليَّ بمبلغ زهيد لن يمكنني من فعل شيء. على فكرة أنا، بوجودي هنا، لا أعرف شيئاً عن رأي جمهور القراء في روسيا بشأن الرواية. في البداية بعثوا لي مرة أو مرتين مستلات من بعض الصحف تمتدحها كثيراً. إلا أن الآراء خفتت الآن. والأسوأ من ذلك أنني لا أعرف رأي ناشري «البشير الروسي» أنفسهم فيها. كانوا يبعثون لي النقود استجابة لأول طلب مني وحتى الآونة الأخيرة، ما جعلني استشف من ذلك حسن ظنهم بالرواية. ولكنني قد أكون مخطئاً في هذا التقدير. أبلغني مايكوف وستراخوف من بطرسبورغ أخيراً بصدور مجلة جديدة هي «الفجر» ومحررها ستراخوف نفسه. وزوداني بالعدد الأول منها وطلبا أن أساهم فيها. ووعدتهما، لكنني مرتبط بـ «البشير الروسي» والتعاون المتواصل معها. التعاون مع جهة واحدة هو الأفضل، خاصة وأن كاتكوف أعطاني مقدماً ثلاثة آلاف قبل أن أغادر روسيا. صحيح أنني، وفق الحسابات، لا أزال مديناً لمجلته بمبلغ كبير، لأن ما استلمته منها، مع الثلاثة آلاف السابقة، بلغ 7 آلاف، وهذا وحده سبب وجيه لمشاركتي في «البشير». كل شيء الآن يتوقف على رد هذه المجلة على طلبي بإرسال نقود. ومع ذلك تبقى ظروفي غير معروفة. ولا بد لي أن أعود حتماً إلى روسيا، فهنا سأفقد حتى إمكانية الكتابة لعدم توفر المادة الدائمية اللازمة لها، وأقصد الروس والواقع الروسي الذي هو منبع الأفكار (. . .) في ذهني الآن فكرة رواية ضخمة سيكون لها تأثيرها حتى وإن أخفقت، نظراً (لأهمية) موضوعها، وهو الإلحاد. إنها ليست محاولة لفضح المعتقدات الراهنة. بل هي شيء آخر، ملحمة حقيقية. ستجتذب القارئ عفوياً. وهي تتطلب دراسات تمهيدية واسعة. اثنان أو ثلاثة

من شخوص الرواية مرتسمون في ذهني بمنتهى الوضوح. ومنهم، على فكرة، قسيس كاثوليكي متحمس، على غرار (المبشر فرانسيسك كسافير) St. François Xavier. إلا أن إمكانية كتابتها هنا غير متوفرة. ومن الممكن بيعها في طبعة ثانية والحصول على مبلغ كبير، ولكنْ متى؟ بعد عامين. بالمناسبة لا تكشفي عن هذا الموضوع لأحد. وسأضطر الآن لكتابة شيء آخر[1] لأعيش. يا للحقارة. لا بد للملابسات أن تتحول على نحو آخر. ولكن كيف تتحول؟

أنت على حق تماماً، يا صديقتي، عندما تقولين إنني أستطيع الحصول على النقود في روسيا أكثر وأسرع وأسهل بمرتين. أذكر لك على سبيل المثال أن في ذهني (بهذا الخصوص) فكرتين بشأن طبعتين، إحداهما تتطلب جهدي كله، بمعنى أنها تمنعني من كتابة رواية، لكنها توفر لي مبلغاً مرموقاً جداً. وأنا لا أشك في ذلك. أما الفكرة الثانية فهي تجميعية تقريباً تتلخص في عمل ميكانيكي فقط، وأعني إصدار حولية سنوية ضخمة في قرابة 60 ملزمة طباعية ببنط صغير، تكون بمثابة كتاب ضروري مفيد يلازم كل منزل، على أن توزع بعدد كبير من النسخ وتظهر في شهر يناير من كل عام. ولن أطلع أحداً على هذه الفكرة، لأنها صائبة جداً وقيمة تماماً، وربحها واضح للعيان. عملي في الحولية سيقتصر على المراجعة والتحرير[2]. صحيح أن المراجعة ينبغي أن تقوم على فكرة وعلى دراسة مستفيضة للموضوع. إلا أن هذا العمل السنوي ليس من شأنه أن يعيقني عن كتابة الرواية. وطالما أنني سأكون بحاجة إلى موظفين فقد اخترتك قبل غيرك لتعملي في الحولية، بصفة مترجمة أيضاً، ليتم توزيع الأرباح بالتناسق، وأتعهد لك بأن تستلمي أكثر مما تستلمين الآن (في «البشير») بعشر مرات على الأقل، أو تستلمي على قدر عملك.

(. . .) (عودتي إلى روسيا تتطلب تسديد 4000 روبل للدائنين واعتماد 3000 أخرى للمعيشة في السنة الأولى). لا بد أن تحل كل المشاكل، وإلا سأموت غماً وكمداً. آنّا غريغوريفنا حزينة أيضاً. وهي الأن حامل من جديد (. . .).

اليوم رأيتكم في المنام جميعاً، والمرحوم ألكسندر بافلوفيتش (. . .)

عندما أقرأ رسائلك، يا عزيزتي صونيا، أشعر وكأنني أتكلم معك وجهاً لوجه. لهجة رسائلك وحديثك المتكامل فيهما الكثير من التأمل والقليل من الإسهاب.(. . .) اكتبي لي أكثر وبمزيد من التفصيل عن أموركم العائلية. وأنا أيضاً سأكتب لك بالتفصيل. فهذا سيكون أفضل على أية حال. سأحاول العودة إلى روسيا هذا العام[3] مهما كلف الأمر. أعانقك بحرارة وأعانق الوالدة مع الجميع. وإذا التقينا لن نفترق. قبلاتي إلى ماسينكا وجميع الأطفال. وتحياتي الخالصة إلى يلينا بافلوفنا، وكذلك ماريا سيرغييفنا. اكتبي لي تفصيلاً عن مغامراتك وأعمالك في «البشير الروسي». لوبيموف يلعب (هناك) دوراً كبيراً. إذا ترسخت علاقاتي مع «البشير» فسأكتب إلى كاتكوف عنك. فلقد وعدتك بالكثير ولم أفِ بوعودي. الظروف منعتني. والآن أعانقك مرة أخرى.

المخلص من صميم القلب

فيودور دوستويفسكي

---

(1) ألَّف دوستويفسكي آنذاك قصته الطويلة «الزوج الأبدي» لمجلة «الفجر».

(2) هذا المشروع لم يتحقق.

(3) لم يتمكن دوستويفسكي من العودة إلى روسيا إلا في صيف عام 1871.

137. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 26 فبراير 1869

كلما هممتُ بالرد على رسالتك الودية المثيرة، يا عزيزي المحترم نيكولاي نيكولايفيتش، أجد نفسي مضطراً إلى التأجيل. والآن فقط استطعت أن أحقق رغبتي، بعد أن أجبت عليك عدة مرات غيابياً، وكل مرة أضيف شيئاً إلى الرسالة التي في ذهني، ولو سجلت ذلك كله على الورق لاحتجت، على ما أظن، إلى مجلد كامل. تأخرت في الرد عليك لتدهور حالتي الصحية في البداية، حيث كنت أنتظر أن يصفو ذهني بعد نوبة الصرع، ثم كنت أنت مذنباً جزئياً في إرجاء الرد عليك، فقد تصورتُ من رسالتك أن «الفجر» ستصدر بعد أيام. لكنها تأخرت كثيراً بالمقارنة مع الشهر الأول. كنت أريد طول الوقت أن أطلع على العدد الثاني لأعرض عليك حينئذٍ كل انطباعاتي. لأنني متأثر لذلك كله. ومهما يكن من أمر سأحاول الآن الكتابة في شيء من الانتظام.

أولاً: المضمون الرئيسي لانطباعاتي عن «الفجر». المجلة بالنسبة لي ظاهرة بهيجة وضرورية. هذا بالنسبة لي، لكنها بالنسبة للكثيرين

تطابق في الحال الحاضر، وبكل دقة، الرأي الذي قرأته عنها قبل أيام في «الصوت»، الجريدة الروسية الوحيدة التي نستلمها هنا. وهو التعبير التام عن رأي الوسط الروتيني، أي الأكثرية. المقالة مكتوبة بعداء سافر، وهي مقالة تافهة لا تستحق أن نشير إليها لولا أنها بدت لي، من خلال مؤشر واحد، مثيرة للغاية. ذلك لأن كاتبها فوَّت مغزى المجلة، ولو كان قد فهمه ولم يفوته لسخر منه. فهو يتساءل متحيراً: ما سبب ظهور هذه المجلة وما الغرض منها؟ بمعنى ما الجديد الذي جاءت به؟ ولعل ذلك ما ستتساءل عنه الأكثرية. (. . .) وأنت، مثلي، بلا شك تؤمن بأن نجاح أية فكرة جديدة يتوقف على الأقلية، وهي ستكون إلى جانبكم رغم الأخطاء والهفوات التي يمكن أن تقترفها المجلة على ما أظن. هذه الأقلية ستتقوى وترسخ أقدامها في نهاية العام على الأرجح. ذلك لأن لدى المجلة فكرة لا بد من تنميتها (. . .)، وهي فكرة صعبة وحساسة. وأنت تعرف ذلك. وسوف ينعتونكم بسببها بالتخلف والرجعية، في حين أنها الفكرة التقدمية والليبرالية الوحيدة في الواقع بالنسبة لنا وفي زماننا هذا. وعندما تشرحون هذه الفكرة بالتمام والكمال يتبعكم الجميع. وحتى ذلك الحين ترى الأكثرية الروتينية في القديم المتخلف ليبرالية وفكراً جديداً. ولعل «مذكرات الوطن» و«القضية» تعتبر الأكثر تقدمية. أنت تعرف ذلك حق المعرفة، والأهم أن المستقبل حليفكم. ولكنْ هل تعرف ما أخشاه؟ أخشى أنك والكثيرين منكم سترتعبون من حجم العمل وتتركون هذه القضية الجليلة. آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، هذه الأعمال كبيرة حقاً وتتطلب قدراً من الثقة والمثابرة لدرجة لن تعرفوها تماماً إلا بعد وقت طويل. هذا ما يخيل إليّ. أنا نفسي لم أكن أعرف سوى طرف منها عندما شاركت مع أخي في التحرير. إلا

أن «الوقت» و«العصر»، كما تعلم، لم تصلا في التعبير عن فكرتهما إلى هذا الحد من المصارحة والشفافية، فكانتا في معظم الأحايين تتمسكان بالوسطية، وخصوصاً في البداية. بينما بدأتم أنتم رأساً من القمة. الأمر أصعب عليكم، ولذا ينبغي تثبيت الأقدام بمزيد من المتانة.

خلال العامين أو الثلاثة الأخيرة من صمتك المطبق تقريباً كسبت كثيراً، يا نيكولاي نيكولايفيتش. هذا هو رأيي القائم على كتابك المسلسل «الفقر» ومقالتك في «الفجر». كنتُ دوماً معجباً بوضوح إنشائك وتواتره المنطقي، إلا أنك الآن، في اعتقادي، أقوى مما كنت بما لا يقاس. ويؤسفني أنك بدأت «الفجر» ليس «بالفقر»، بمعنى أنك نشرت «الفقر» قبل «الفجر». (...). على فكرة، هل لاحظت في النقد الروسي عندنا أن كل ناقد رائع، من أمثال بيلينسكي وغريغوريف، يظهر في مضمار الأدب كأنما بالاعتماد على كاتب طليعي، بمعنى أنه يكرس نشاطه لتوضيح نتاج ذلك الكاتب ويعبّر طول عمره عن أفكاره بصيغة تفسير لنصوص الكاتب المعني. كان ذلك يجري بسذاجة وكأنما بالضرورة. أريد أن أقول إن الناقد عندنا لا يحقق ذاته إلا بالظهور متأبطاً يد الكاتب الذي يعجبه. بيلينسكي أعلن عن نفسه ليس بإعادة النظر في الأدب وأعلامه، وليس حتى بمقاله (الشهير) عن بوشكين، وإنما بالاعتماد على غوغول الذي كان معجباً به منذ الصبا. فيما ظهر غريغوريف وهو يحلل نتاج أوستروفسكي ويدافع عنه. وأنت تتعاطف دوماً مع ليف تولستوي، منذ أن عرفتك. صحيح أنني عندما قرأت مقالتك في «الفجر» كان الانطباع الأول عنها أنها ضرورية وما كان لك، لكي تعبّر عن نفسك على قدر الإمكان، إلا أن تبدأ من ليف تولستوي. (...) وما كتبته في الموضع المخصص

لمعركة بورودينو إنما يعبّر عن جوهر فكرة تولستوي وجوهر فكرتك عن تولستوي (. . .) إلا أنني لا أوافقك في بعض التفاصيل. طبيعي أننا أثناء اللقاء لن نتكلم بشكل المراسلات. فأنا على أية حال أعتبرك الممثل الوحيد عندنا للدراسات النقدية الراهنة الذي ينتظره المستقبل. ولكن، هل تعلم أنني قرأت رسالتك بشيء من القلق؟ لاحظت من لهجتها أنك مشغول البال وفي قلق شديد. كما أخشى عليك لأنك غير متعود على المواظبة والعمل العاجل. ينبغي لك أن تكتب ثلاث أو أربع مقالات مطولة في العام، وأمامك الكثير مما ينبغي لك أن توضحه. بينما أنت ضعيف المعنويات والمقالة الصغيرة تهزك كالمقالة المطولة. ويبدو أنك في المجلة الشخص الأول الملزم بتوضيح فكرتها. ولن تتقدم المجلة من دونك. أقول هذا الكلام لك وحدك. وهكذا لا بد لك، يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن تقوم بمأثرة شاقة وطويلة الأمد من دون التفات إلى الصعوبات (. . .) ولا حق لك في التنصل عن القضية. فأنا، حينئذٍ، أول من يلومك.

والآن أحدثك باختصار عن باقي الانطباعات التي تركتها المجلة في نفسي. أنت تعرف ثنائي عليها. فلديها فكرة ولها مستقبل.(. . .) لكنني أنتقل إلى ما لا يبعث السرور في انطباعاتي. المجلة صغيرة الحجم ومقترة حتى في شكلها الخارجي. صفحات رواية بيسيمسكي الأغلى كلفة على الناشر مطبوعة بكلمات متباعدة وببنط عريض لم أر مثله في السابق. مقالة دانيليفسكي التي هي من المقالات الأساسية في توضيح فكرة المجلة مطبوعة ببنط صغير جداً، سيظهر تأثيره السلبي فيما بعد(. . .) المقالات قليلة. برأيي كان ينبغي نشر مقالتين أخريين. ليس في المجلة سياسة يومية ملحة ولا مقالة نقدية تهكمية لاذعة. استعراض الأحداث السياسية الشهري ضروري كما في

الصحيفة اليومية، وخصوصاً للجمهور الروسي. ثم إن الفترة ساخنة الآن. (يمكن العثور على محلل سياسي جيد، فيما يندر وجود كاتب جيد للمقالات التهكمية). كل الموجودين هم من أمثال مينيايف وسالتيكوف (شيدرين). على فكرة، من كتب المقالة التهكمية عن المسرح؟ إنها مقالة لطيفة جداً ودقيقة.

أنتم تتحاشون المجادلات والمناظرات؟ عبثاً تفعلون. المجادلات وسيلة ملائمة جداً لتوضيح الفكرة. والجمهور عندنا يحب المجادلات كثيراً. بيلينسكي، مثلاً، كتب كل مقالاته بصيغة المجادلة (. . .) المجادلة تضفي على المقالة هالة الضرورة الملحّة وتخلب ألباب القراء.

حالما زاد البريد رسوم الطرود قرأت في «الصوت» إعلان «الفجر»عن زيادة بدل الاشتراك. هذا حق، لكن المشتركين سيطالبون المجلة (بتحسين الأداء). آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، المجلة في عامها الأول يجب أن لا تبخل بالجهود (لهذا الغرض).

أنتظر بفارغ الصبر بقية ثلاث مقالات، وخصوصاً مقالتك ومقالة دانيليفسكي. ولا يمكنني الآن أن أقول شيئاً عن رواية بيسيمسكي، ينبغي أن أقرأ بقيتها. عموماً عندكم بهذا الخصوص (رواية) «رايسكي». التي كنت أعرف سابقاً أنها تافهة. أما قصة تورغينيف[1] التي قرأتها في «البشير الروسي» فهي تفاهة ما أنزل اللّه بها من سلطان. وبناءً على الجزء الأول من رواية بيسيمسكي أستنتج أنه لا بد من وجود أشياء رائعة في باقي أجزائها.

أشكرك كثيراً، يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب المحترم، على اهتمامك بي. أنا في صحة جيدة كالسابق، بمعنى أن نوبات الصرع أخف مما في بطرسبورغ. في الآونة الأخيرة، قبل شهر ونصف، كنت

مشغولاً جداً بخاتمة «الأبله». اكتبْ لي، كما وعدت، عن رأيك فيها، فأنا أنتظره بتعطش شديد. لدي وجهة نظر خصوصية عن الواقع في الفن. فما تنعته الأغلبية بالخيال الاستثنائي تقريباً إنما يشكل بالنسبة لي أحياناً جوهر الواقع. فإن عادية الظواهر والنظرة الرسمية إليها لا تمتّان، في اعتقادي، بصلة إلى الواقعية، بل على العكس. في كل عدد من الجرائد تجد تقارير عن الوقائع الفعلية، حتى أكثرها غرابة، فيما يعتبرها كتّابنا خيالية، بل وهم لا يعالجونها، على الرغم من أنها هي الواقع بعينه، لأنها وقائع حقيقية. فمن يلتفت إليها ويوضحها ويسجلها؟ إنها أحداث اللحظة، أحداث اليوم، كل يوم، وليست ظواهر استثنائية. ماذا سيحصل إذا لم يتجاوز عمق الفكرة عند فنّانينا في تصويرهم عمق الفكرة، مثلاً، في (رواية) غونتشاروف «رايسكي»؟ من هو رايسكي يا ترى؟ إنه صورة مكتوبة بأسلوب رسمي لخصال روسية مزيفة. يبدأ الرجل بكل شيء من الأشياء الكبيرة ولا يستطيع أن يحل أصغر الأمور. إنه يمثل القديم، يمثل فكرة خاوية متهرئة، وغير صحيحة إطلاقاً. إنه افتراء على الطبع الروسي من عهد بيلينسكي. وما أتفه وجهة النظر هذه وما أسوأ التوغل إلى داخل الواقع. إنها تكرار في تكرار. يفوّت الواقع كله، فمن يحلل الوقائع، إذن، ويتعمق فيها؟ أما قصة تورغينيف فأكتفي بالقول عنها إنها شيء لا يعرفه حتى الشيطان. أليست (روايتي) الخيالية «الأبله» هي الواقع بعينه؟ بل الواقع العادي جداً. أجل، الآن تحديداً يجب أن نرى طباعاً وشخوصاً، (كبطل «الأبله»)، بين فئات المجتمع المعزولة عن التربة، تلك الفئات التي تتحول في الحقيقة والواقع إلى ظاهرة خيالية. صحيح أن في الرواية الكثير مما هو مكتوب باستعجال، وإسهاب، وما هو غير موفق، إلا أن فيها أيضاً بعض التوفيق. أنا لا أدافع عن

الرواية، بل عن فكرتي التي تتضمنها. اكتبْ لي، اكتبْ عن رأيك، وبأكبر قدر ممكن من الصراحة. وكلما أمعنت في انتقادي ازداد تقديري لمصداقيتك. لم يتسع الوقت «للبشير الروسي» أن تنشر الخاتمة في ديسمبر، ووعدت بنشرها في ملحق خاص. وأظن أنهم سيرفقونه بعدد فبراير. بودّي لو قرأتَ الخاتمة، ومع ذلك أنا مشغول البال كثيراً. على فكرة، أنا نفسي لست راضياً عن الكثير جداً في روايتي. وإلى ذلك أنا بمثابة الأب لها.

أرجو أن تشكر بالنيابة عني كلاً من دانيليفسكي وكاشبيريف وغرادوفسكي وجميع الذين يتعاطفون معي. هذا أولاً، وثانياً- آمل، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش، بمساعدتك لي في مسألة حساسة، وأنشد مشاركتك الأخوية فيها، نظراً لأهميتها الكبيرة بالنسبة لي.

لقد كتبتَ لي مادحاً وقلت إن «الفجر» تدعوني للمشاركة فيها. وإليك ما أنا مضطر للرد به على الدعوة: بما أنني كنت دوماً ولا أزال بحاجة ماسّة إلى النقود وأعيش على عملي وحده فإنني مضطر طول عمري وفي كل مكان عملت فيه أن أطلب الأجر مقدماً. والحقيقة كانوا في كل مكان يستجيبون لطلبي. غادرت روسيا قبل عامين تقريباً وأنا مدين (لمجلة) كاتكوف بـ 3000 روبل، ليس بحسابات «الجريمة والعقاب» المنتهية، بل بحساب جديد. ومنذ ذلك الحين أخذت من كاتكوف 3500 روبل. وسأستمر في التعاون معه، ولكن من المستبعد أن أعطي «البشير الروسي» شيئاً هذا العام. ولدي الآن ثلاث أفكار أعتز بها. إحداها تمثل رواية مطولة[2]. وأعتقد أنهم سيختارون رواية يدشنون بها العام الجديد. والآن أنا متفرغ لبضعة أشهر. بديهي أن «البشير» ستستمر في تزويدي بالنقود هذا العام أيضاً رغم أنني بقيت مديناً لها بعض الشيء. إلا أن احتياجاتي في ازدياد، زوجتي حامل

من جديد. والنفقات كثيرة، بينما عشنا في الآونة الأخيرة في تقتير شديد، وحرمنا أنفسنا من الكثير. في الستة أشهر الأخيرة أنفقنا إجمالاً 900 روبل، بما فيها الانتقال من فيفي إلى ميلانو وفلورنسا، وبعثنا من هذا المبلغ مؤخراً 100 روبل إلى بافل وإميليا فيودوروفنا. في الحال الحاضر لم أستلم من كاتكوف شيئاً، ولذا أنا في عوز شديد، لأقصى درجة تقريباً. «البشير الروسي» محققة. فقد تأخرتُ، وإلى ذلك طلبت منها تصفية الحساب. وأعتقد أنهم سيتأخرون في إرسال النقود ثلاثة أسابيع أخرى. لكن هذه ليست المشكلة. المشكلة هي المستقبل القريب. باختصار، أنا بأمسّ الحاجة إلى النقود، ولذا أقترح على هيئة تحرير «الفجر» ما يلي: أولاً- أطلب أن تبعثوا لي فوراً إلى هنا، في فلورنسا، ألف روبل، وثانياً- أتعهد بأن أبعث إلى هيئة التحرير قصة طويلة، بمعنى رواية، في الأول من سبتمبر من العام الحالي، أي بعد ستة أشهر. ستكون الرواية بحجم «الفقراء» أو بعشر ملازم طباعية على الأقل، وربما أكثر. ولن أتأخر في الإرسال ولا يوماً واحداً. وأنا دقيق جداً في مواعيدي. وإذا تأخرت لشهر فرضاً أتخلى عن استلام بقية الأجر. فكرة الرواية تحتذبني كثيراً. ليست مما أكتبه من أجل النقود، بل على العكس تماماً. أنا أشعر بأن تأثير «الأبله» في الجمهور أضعف من تأثير «الجريمة والعقاب». ولذا تحفزت لأشبع غروري، وأريد أن أحقق تأثيراً جديداً. في حين أن لفت الأنظار إليّ في «الفجر» أنفع مما في «البشير الروسي». ألا تلاحظ أنني أكتب لك عن كل شيء بمنتهى الصراحة؟ وأقترح أن تكون أجرة الملزمة 150 روبلاً. حساب الملزمة كما في «البشير الروسي» إذا كانت ملزمة «الفجر» أصغر. بمعنى أنني لا أستطيع أن أستلم أقل مما في «البشير». كنا أنا والمرحوم أخي ندفع مقدماً

أكثر(. . .) والآن لدي رجاء أخوي عندك شخصياً، يا نيكولاي نيكولايفيتش. وهو 1) أن تساعد في تمرير هذه المسألة إذا رأيت أنها مناسبة للمجلة، و2) إذا استحصلت موافقة كاشبيريف أرجوك كل الرجاء أن تحول المبلغ لي من دون إبطاء، وتوزعه على النحو التالي: 200 روبل من هذا المبلغ ترسل مع تشكراتي العميقة إلى أبولون نيكولايفيتش مايكوف، وأنا مدين له بها أكثر من عام. 200 روبل أخرى تسلم إلى شقيقة زوجتي ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا، وهي تعرف لأي غرض. (العنوان مرفق طياً)، والـ 600 روبل المتبقية أرجو أن تبعثها لي هنا في فلورنسا (على العنوان التالي. . .). 3) وأخيراً، إذا أمكن تنظيم هذه المسائل بلغني وابعث النقود من دون إبطاء. أرجوك. فأنت صديق قديم.(. . .). وإذا أمكن تدبير هذا الأمر فالأفضل عدم تبليغ من لا يعنيهم الأمر لفترة من الزمن. ثم بودّي لو نشرت الرواية التي سأوافيكم بها في الأول من سبتمبر في الأعداد الأساسية من «الفجر» لهذا العام. هذا بالنسبة لي أنفع لبعض الاعتبارات. وبالطبع إذا رأت هيئة التحرير أن تنشر الرواية في العام القادم فلا اعتراض لدي على ذلك. القول الفصل لكم، وأنا أعربت فقط عن رغبة لا غير.

والآن أبلغك سراً، كصديق قديم وشريك في العمل، بأمر آخر يقلقني أشد القلق.

يخيل إليَّ أن هذه الـ 200 روبل التي أنا مدين بها لأبولون نيكولايفيتش أكثر من عام هي السبب في صمته الحالي. فقد أوقف المكاتبات معي فجأة. وكنت قد طلبت من كاتكوف في ديسمبر أن يبعث 100 روبل إلى إميليا وبافل على عنوان أبولون نيكولايفيتش كالعادة، فتصور ربما أنني استلمت مبلغاً كبيراً وأسبح في حوض من

ذهب دون أن أسدد ديني له. (. . . بينما أنا في وضع لا أحسد عليه). وفي هذا الوضع الحزين يأتي التفكير في أن شخصاً مخلصاً آخر أخذ يبتعد عني ليزيد أحزاني ويعذبني أشد عذاب. ألم يخبرك بشيء؟ وهل تعرف شيئاً بهذا الخصوص؟ إذا كنت تعرف، يا عزيزي، فخبرني. وهل يعقل أن علاقات ودية مستمرة من عام 46 تنقطع بسبب 200 روبل، خاصة وأنا منسي أصلاً من قبل الجميع؟.(. . .). آه، لعلنا نلتقي يوماً ما. أنا آمل في ذلك. إلى اللقاء. آنّا غريغوريفنا تشد على يدك وتشكرك على تذكرها. تحياتي من جديد لكل من يتذكرني. ما أخبار أفيركييف؟ تحياتي له. أسفي على دولغوموستيف[3].

المخلص لك روحياً

فيودور دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) المقصود قصة إيفان تورغينيف «التعيسة».

(2) المقصود فكرة رواية «الإلحاد» التي لم ينفذها دوستويفسكي.

(3) دولغوموستيف أصيب بالجنون.

138. إلى صوفيا إيفانوفا

فلورنسا، 8 مارس 1869

(...)

تقولين يا عزيزتي الغالية صونيا إن «البشير الروسي» حسب الإشاعات تتراجع. فهل هذا أكيد؟ أظن كلا. لا لأنني أشارك فيها، بل لأنها أفضل مجلة عندنا في روسيا تعي اتجاهها وتلتزم به. صحيح أنها جافة وأن الأدب الذي تنشره ليس جيداً على الدوام، لكنه ليس أسوأ مما في بقية المجلات. كل المؤلفات الريادية نشرت في هذه المجلة، مثل «الحرب والسلام» و«الآباء والبنون»[1] وما إلى ذلك، ناهيك عن نتاجات الأزمان القديمة، وهذا أمر يتذكره القراء. المقالات النقدية في المجلة نادرة، ولكنها أحياناً دقيقة جداً، وبالخصوص فيما لا يتعلق بما يسمى الأدب الجميل. إلا أن الأهم أنها تنشر كل عام ثلاث أو اربع مقالات تحليلية هي الأدق والأعمق والأكثر ضرورة في الحال الحاضر، وهذا أمر يعرفه المشتركون. والأهم أنها تُنشر في هذه المجلة دون سواها. والجمهور على علم

بذلك. ولذا لا أعتقد أن المجلة يمكن أن تتدنى كثيراً رغم جفافها وتخصصها الضيق حسب الظاهر.

في عام 67 قال لي كاتكوف بحضور لوبيموف وسكرتير التحرير إن عدد المشتركين بالمجلة ازداد بـ 500 مشترك بفضل «الجريمة والعقاب». وأنا أعتقد أن «الأبله» ما كان بوسعها أن تجتذب مشتركين جدداً. أنا آسف لذلك. إلا أن ما يفرحني كثيراً هو أن المجلة متمسكة بي، رغم فشل الرواية الظاهري. (. . .) وقد كتب لي البعض من بطرسبورغ صراحة أن الجميع يقرأون «الأبله» باهتمام كبير رغم ما فيها من نواقص ورغم الانتقاد الذي تتعرض له من الكثيرين. وهذا تحديداً ما أنا بحاجة إليه. أما بخصوص النواقص فأنا متفق تماماً مع الجميع. والمهم أنني غاضب على نفسي بسبب هذه النواقص لدرجة أرغب فيها بكتابة انتقاد لروايتي. ستراخوف ينوي إرسال تحليله «للأبله» إليّ، وهو ليس من الذين يثنون عليّ.

أنا أكتب لك طول الوقت عن نفسي، ولكنْ ما دمنا بدأنا هذا الموضوع فاستمعي، يا عزيزتي، إلى البقية، ذلك لأن الملابسات الأدبية تشكل، عند تلاقيها، وضعي الراهن ومستقبلي وعودتي إلى روسيا. (. .) في قضيتي الأدبية جانب مهيب يتمثل في مقاصدي وآمالي. أنا لا أتوخى الشهرة والمال، بل أهدف إلى تركيب يجمع بين فكرتي الفنية والشاعرية، بمعنى أنني أريد أن أقول كلمتي متجسدة في عمل ما بأكمل ما يكون قبل أن أموت. ولذا أعالج الآن فكرة بشكل رواية. الرواية بعنوان «الإلحاد»، ويخيل إليَّ أني سأتمكن من التعبير فيها عن نفسي بالكامل. تصوري، يا صديقتي، لا أستطيع تأليفها هنا. ولهذا الغرض لا بد من وجودي في روسيا، لا بد أن أسمع وأرى وأنخرط في الحياة الروسية مباشرة، ثم ينبغي أن أواظب

على كتابتها عامين. لا أستطيع أن أفعل ذلك هنا. ولذا عليَّ أن أكتب شيئاً آخر. كل ذلك يجعل حياتي في الخارج لا تطاق (. . .) أنت تكتبين عن تورغينيف وعن الألمان. تورغينيف لفظ أنفاسه في الخارج وبدد موهبته. حتى جريدة «الصوت» لاحظت ذلك. أما أنا فلا أخشى التحول إلى ألماني،، لأنني أكره الألمان جميعاً. لكنني بحاجة إلى روسيا، ومن دونها سأفقد البقية الباقية من الطاقة والموهبة. أتحسس ذلك بكل مسامات حياتي.

ولذا استمعي إلى ما أقوله عن ظروفي الأدبية التي يتوقف عليها وضعي الحالي وعودتي إلى روسيا ومستقبلي كله. أنا أواصل الكتابة. بعثت لي «الفجر» عن طريق ستراخوف رسالة ثانية تضمنت دعوة رسمية من هيئة التحرير إلى الكتابة للمجلة. الطلب جماعي من ستراخوف ورئيس التحرير كاشبيريف وبعض الموظفين الذين لا أعرفهم، غرادوفسكي مثلاً، وكذلك دانيليفسكي الذي لم أره منذ 20 عاماً، ليس الروائي دانيليفسكي، بل شخص رائع آخر. وإلى ذلك يبدو أن «الفجر» استقطبت كثيراً من المستخدمين الجدد الرائعين من حيث اتجاههم القومي الروسي العميق. العدد الأول ترك في نفسي انطباعاً قوياً باتجاهه الصريح الثابت ومقالتيه الرئيسيتين بقلم ستراخوف ودانيليفسكي. اقرأي مقالة ستراخوف يا عزيزتي صونيا، فأنت لم تقرأي مثلها في النقد الأدبي. أما مقالة دانيليفسكي «أوروبا وروسيا» فهي بحث ضخم سينشر تباعاً في عدة أعداد من المجلة. تلك محاولة نادرة. دانيليفسكي هذا كان في السابق اشتراكياً من مريدي فوريه. إنه إنسان رائع منذ أن وقع في أيدي السلطات قبل عشرين عاماً في قضيتنا ونفي أيضاً. وها هو يعود الآن قومياً روسياً صرفاً. أنصحك أن تقرأي مقالته خصيصاً. لم يكتب شيئاً قبلها.

عموماً للمجلة مستقبل واعد فيما لو تعايشوا معاً، خاصة وأن ستراخوف الذي هو محرر حقيقي في الواقع ليس قادراً، في اعتقادي، على العمل الدوري المتواصل. ولعلي على خطأ، فليكن اللّه في عونه. أجبت على رسالتهم بأنني مستعد دوماً للتعاون (. . . ومن منافع التعاون مع «الفجر» في اعتقادي) أني سأظهر أمام الجمهور في مجلة أخرى، وإذا كان ظهوري جيداً، فإن «البشير الروسي» ستقدرني أكثر. ولكنني أخشى أن تزعل «البشير» مني مع أنني لم أعدهم بتعاون حصري، وبالتالي أستطيع في أوقات الفراغ أن أتعاون مع غيرهم. إلا أن المشكلة أنني لا أزال مديناً «للبشير» (. . .) وقد يزعلون بسبب ذلك. بيد أني كتبت لهم قبل ثلاثة أشهر أن الرواية التي أعكف على تأليفها مخصصة ليس لهذا العام، بل لعام سبعين المرتقب. أما القصة الطويلة التي أريد أن أكتبها «للفجر» فستكون جاهزة في أربعة أشهر، وستشغل تحديداً الفترة التي خصصتها للتجوال والاستراحة بعد 14 شهراً من العمل (المتواصل). ومع ذلك أخشى أن تنتشر وشايات تضر بعملي مع «البشير الروسي». ولذا، يا عزيزتي صونيا، لا تفضحي سري بخصوص العلاقة مع «الفجر» ما دامت لك علاقة بهيئة تحرير«البشير»، بل ولا تخبري أحداً على العموم. على فكرة، ماذا تترجمين لهم؟ اكتبي لي من كل بد لأقرأ ما تترجمينه.

إذن، هذه تفاصيل أوضاعي في الوقت الراهن. حساباتي الأساسية تقوم على احتمال بيع «الأبله» و«القصة الطويلة» التي سأكتبها «للفجر» في طبعة ثانية أواخر العام الحالي، وبالتالي توفران لي إمكانية التفكير بالإيجاب فيما يخص العودة إلى روسيا. كنت قد أوضحت لك ضرورة ذلك لي من جميع النواحي. والأهم أني أريد أن أراكم جميعاً وأكون قربكم.

فقد مللنا هنا أشد الملل. آنّا غريغوريفنا مشغولة بأحوالها، والمنتظر أن يكون ذلك في سبتمبر[2]، وأنا لا أدري أين سأكون عندئذٍ. فقد مللنا كلانا من فلورنسا. والحال ينبغي لنا أن ننتقل حتماً إلى مكان ما هادئ ومستقر لفصل الصيف ولسبتمبر. بالنسبة لي من أجل العمل، وبالنسبة لآنّا لسبتمبر. وستقيم معنا حينذاك والدة آنّا. فما كان أجمل ذلك لو حصل في روسيا، ولو استطعنا أن نعود إلى الديار حتى في أغسطس. لكن ذلك باعتقادي متعذر في الحال الحاضر (. . .)

أنا يا عزيزتي صونيا أريد أن أعود لأحضر حفل زفافك، فلا تزعلي مني على رغبتي هذه. (. . .) يقلقني كثيراً ما كتبتِه عن تدهور صحة ساشا (. . .). تقولين إنك رأيت فيديا. إنه إنسان طيب، هذا صحيح. وهو باعتقادي يشبه كثيراً أباه، أخي المرحوم ميشا، من حيث طباعه في مثل سنه، ما عدا التعليم طبعاً. غياب التعليم نقص فتاك عند فيديا (. . .). عموماً عائلة أخي هذه عزيزة على قلبي، وأشعر بالقنوط (تجاه مصيرها). إميليا فيودوروفنا تتشكى من الفقر، وابنتها كاتيا تترعرع في اكتئاب شديد. وميشا الذي لا تعرفينه، وهو أفضل من فيديا، عاطل من العمل تقريباً ويبحث عن وظيفة طول الوقت. لو كنت موجوداً معهم لكان وضعهم أحسن من الآن. تفكيري فيهم يعذبني طول الوقت، ناهيك عن تفكيري في (ربيبي) بافل. آه، يا ملاكي، أنت لا تعلمين كم تلقيت منهم من أذى. الأحقاد والافتراءات والسخرية، كل ذلك ينهال عليَّ من طرفهم. وهم يذنبوني في كل مصائبهم. إميليا فيودوروفنا تؤكد أنهم كانوا يمتلكون معملاً للسجائر وكانوا يعيشون في بحبوحة قبل مجيئي، وعندما وصلت وبدأت بإصدار المجلة أفلسوا جميعاً. كل ذلك كذب في

كذب. عندما عدت من المنفى كان المعمل مثقلاً بالديون وفي كساد تام.(. . .) المجلة أصدرها المرحوم أخي. وكان طلب ترخيصاً من الحكومة بإصدارها قبل رجوعي. وقد فعل ذلك ليتخلص من سجن الديون. ازدهرت المجلة بفضلي وبلغ عدد مشتركيها 4500 مشترك، وعادت على شقيقي بأرباح صافية قدرها 60000 روبل في ثلاثة أعوام. فلماذا يتشكون مني الآن؟ عندما توفي أخي لم يكن هناك ولا كوبيك واحد. وكان ينبغي إصدار ثمانية أعداد من المجلة وتقديمها إلى المشتركين (لأنهم دفعوا ثمنها). وتقول إميليا إنني ملزم بمساعدتهم لأن أخي (زوجها) أعالني عندما كنت في سيبيريا. والحقيقة أن أخي أرسل لي 1000 روبل فضي على مدار سنوات المنفى، والباقي كسبته بعرق الجبين. وإلى ذلك كان يحق لي أن أستلم من أخي جزءاً من الأرباح، ولم أطالبه بها أبداً.(. . .) والآن يدّعون أنني تركتهم، بينما أنا أعطيتهم كل ما أملك. (لو تعلمين) كيف كانوا ينظرون إلى زفافي، أعني إميليا فيودوروفنا وعائلة فلاديسلافليف وكاتيا، وحتى بافل ربما، وكم كانوا يسخرون مني وكيف افتروا عليّ أمام آنّا غريغوريفنا وأرعبوها وحطموا أعصابها. كل تلك الحقائق عرفتها فيما بعد. ويؤسفني أنني لا أستطيع أن أكتب لك كل شيء. حالياً أنا لا أكاد أمتلك ما أعتاش عليه، بينما هم يجأرون بأنني خذلتهم وتركتهم (. . .) فيما كان أخي يعيلني في سيبيريا كما يقولون.(. . .).

آه، يا صونيا. حالما أتناول هذا الموضوع أتمادى فيه إلى ما لا نهاية. فهؤلاء الذين في بطرسبورغ يعذبونني كثيراً. وداعاً، أعانقكم جميعاً، أنا أحبكم أكثر من الجميع، وأتذكر (المرحوم والدكم) ألكساندر بافلوفيتش طول الوقت وأقدر ذكراه. تحياتي للجميع. أقبّل

ماشا. ذكّري ماريا سيرغييفنا ويلينا بافلوفنا بي. أعانق فيرا وأقبّلها بحرارة.

المخلص فيودور دوستويفسكي

اكتبي لي على العنوان نفسه.
آنّا غريغوريفنا تقبلكم جميعاً بحرارة وتحبكم صادقة.

---

(1) وكذلك «في العشية» لتورغينيف و«القازاق» والجزءان الأولان من «الحرب والسلام» لتولستوي، بالإضافة إلى قصائد مشاهير الشعراء في ذلك الزمان.

(2) في سبتمبر ولدت للزوجين دوستويفسكي ابنتهما لوبوف في درزدن.



139. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 18 مارس 1869

أولاً، أشكرك يا نيكولاي نيكولايفيتش الموقر على جوابك العاجل. ففي ظروفي الحالية يشكل هذا الجواب نصف المسألة، لأنه يرسم أشغالي ونواياي. وأشكرك، ثانياً، على الإيعاز بإرسال «الفجر»، وثالثاً- على الخبر الطيب عن أبولون نيكولايفيتش (مايكوف). سأكتب له بنفسي هذه الأيام، رداً على رسالته. وما دام قد أثنى عليَّ أمامك أخبرك أنني أيضاً أثني عليه طول الوقت. سوء الفهم الذي حصل في الآونة الأخيرة ناجم عن وساوسي، وأنا لم أبدد قطرة من مودتي القلبية له. ولا يخامرني أدنى شك من زمان بأنه رجل طيب طاهر، وأنا مسرور جداً للغة التفاهم بينكما.

إذا كانت «الفجر» لم تحقق بعد كل النجاح المنشود فهي على أية حال حققت نجاحاً معتبراً تقريباً. وليس ذلك بالقليل. ولربما لن تحصلوا على الألف الثالث من المشتركين، لكنكم إذا احتفظتم بهذا النجاح على مدار السنة ستقفون على أقدامكم بثبات. أنا واثق بذلك. فليس بين المجلات الشهرية مجلة أخرى بمثل هذا الاتجاه الدقيق

الراسخ. العدد الثاني ترك في نفسي انطباعاً ساراً للغاية. خاصة مقالتك. فبالإضافة إلى كونها من النقد الحقيقي فقد قالت بمنتهى التحديد الكلمة التي هي اليوم أكثر ضرورة من غيرها، حيث توضح القضية أكثر من أي شيء آخر. أما مقالة دانيليفسكي (المسلسلة) فهي تغدو، في نظري، أكثر أهمية وشمولاً. وستغدو في المستقبل كتاباً منزلياً لجميع الروس ولأمد طويل (. . .) وكان بودّي أن أتحدث عن هذه المقالة معك تحديداً، يا نيكولاي نيكولايفيتش، إلا أن ذلك يتطلب حديثاً مستفيضاً جداً. فالمقالة متوافقة مع استنتاجاتي ومعتقداتي لدرجة أدهشني فيها التشابه في بعض صفحاتها بين الاستنتاجات. وقد دأبتُ منذ عامين على تسجيل الكثير من أفكاري استعداداً لكتابة مقالة تكاد تأتي بالعنوان نفسه، وحتى بالفكرة نفسها والخلاصة نفسها. فما أعظم فرحتي وما أشد دهشتي وأنا أصادف تقريباً ما كنت أتوق إلى تنفيذه في المستقبل وهو منفّذ بتناسق وبمنطق حديدي ودقة علمية ما كان بوسعي أن أوفرها رغم كل جهودي. أنا متعطش لقراءة بقية هذه المقالة حتى أنني أتردد على دائرة البريد يومياً وأحسب احتمالات وصول «الفجر» (. . .)

العدد الثاني من «الفجر» غني بالموضوعات، وفيه مقالات جيدة جداً. وهو يبعث على السرور.

إلا أن بعض سطور رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش الموقر، أدهشتني لحين من الوقت أشد الدهشة. لماذا تقول بهذه اللهجة الحزينة السافرة إن مقالتك لا تحظى بالتفهم والقبول لدى البعض. فهل يعقل أنك واثق بأن الجميع يفهمون للوهلة الأولى؟ لو كان الحال كذلك لكانت تلك، في اعتقادي، تزكية رديئة للمقالة. فما يتم فهمه على عجل يفتقر عادة إلى التعمق. بيلينسكي لم يبلغ الشهرة المنشودة

إلا في نهاية منبره. أما غريغوريف فقد وافاه الأجل دون أن يحقق شيئاً تقريباً في حياته. لقد اعتدت على احترامك لدرجة أعتبرك فيها حكيماً تدرك هذه المسألة أيضاً. فإن جوهر الأمر دقيق رهيف لا تلتقطه الأغلبية التي لا تفهم إلا بعد اجترار طويل، وحتى ذلك الحين تبدو لها كل فكرة جديدة ليس على قدر من الأهمية. وكلما كان عرض الفكرة أبسط وأوضح، أي بموهبة أكبر، فإنها تبدو عادية وأكثر بساطة. ذلك قانون.(. . .) ولكن من جهة أخرى ألم تقل إن غرادسكي ودانيليفسكي وأكساكوف معجبون بك؟ فهل هذا قليل؟ وأنا على أية حال واثق بأنك تدرك تماماً حاجتك الباطنية إلى التقدم وأنك لن تفقد احترامك لنشاطك ولن تترك المجلة. فلا ترعبني رجاءً. إن انسحابك من «الفجر» يقود إلى انهيارها. أما الآن فلننتقل إلى أموري الشخصية. أحوالي وظروفي المالية تحسنت بعض الشيء بعد حوالة من كاتكوف الذي يقدرني، على ما يبدو، كمتعاون مع مجلته، وأنا شاكر له على ذلك كثيراً. لكنني كنت محتاجاً لدرجة أن المبلغ المرسل إليّ ساعدني تقريباً للحظة لا غير. وسأحتاج إلى نقود من جديد في القريب العاجل. ولكن صدقني، يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن النقود وحدها ليست هي التي تدفعني للتعاون مع «الفجر»، فهناك المشاطرة الصادقة من جانبي للمجلة. وأعتقد أنك شخصياً لا تشك في ذلك. ورغم كل شيء لا يمكنني أن أوافق على اقتراح كاشبيريف بالشكل الذي جاء به في رسالتك. فذلك غير ممكن بدنياً بالنسبة لي. والألف روبل بالتقسيط، والدفعة الأولى ليست فورية، شيء قليل وغير كاف في ظروفي الحالية (. . .) الأنفع لي الآن أن أعكف على كتابة رواية «للبشير الروسي» تنشر في العام القادم، والمجلة لن تتركني عندئذٍ في عوز شديد. ثم إنني لم أكن أنوي القطيعة مع كاتكوف.

والشيء الذي أستطيع القيام به الآن من أجل «الفجر»، بدلاً من العرض السابق، هو ما يلي: (. . .)

لدي قصة غير طويلة، في ملزمتين، أو أكثر قليلاً، يمكن أن تشغل في «الفجر» ثلاث صفحات أو ثلاثاً ونصفاً. كنت قد فكرت في كتابتها قبل أربع سنوات، في عام وفاة شقيقي، استجابة لكلمات أبولون غريغوريف الذي امتدح آنذاك «ذكريات من تحت الأرض» (في قبوي) وقال لي: اكتبْ على غرارها. لكن هذه القصة لا تشبه تلك «الذكريات»، بل هي شيء آخر تماماً من حيث الشكل، مع أن جوهرها هو نفسه، وهو جوهري أنا، إذا كنتَ، يا نيكولاي نيكولايفيتش، تؤمن بوجود جوهر متميز بعض الشيء لديّ ككاتب. يمكنني أن أكتب هذه القصة في فترة وجيزة، فلا توجد فيها أسطر أو أية مفردة غامضة بالنسبة لي. علماً بأن رؤوس الأقلام موجودة. أستطيع أن أنهي القصة وأبعثها إلى هيئة التحرير قبل الأول من سبتمبر. وأظن أنكم لستم بحاجة إليها قبل هذا الموعد. فليس من المنطق أن تنشروا لي شيئاً في أشهر الصيف. باختصار، يمكنني أن أوافيكم بالقصة بعد شهرين. وهذا كل ما أستطيع أن أساهم به في «الفجر» هذا العام. رغم رغبتي الشديدة في الكتابة إلى مجلة تكتب فيها أنت ويكتب فيها دانيليفسكي وغرادسكي ومايكوف. وإليك شروطي التي أرجوك أن توصلها إلى كاشبيريف رداً على جوابه الأول:

أنا أطلب مقدماً الآن فوراً 300 روبل. وأرجوك يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن تبعث منها من دون تأخير، في حال الموافقة، 125 روبلاً إلى ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا، وعنوانها عندك في رسالتي السابقة، والـ 175 المتبقية تحولها لي إلى هنا، في فلورنسا، في فترة أقصاها شهر من اليوم، لكي أستلمها في الـ 18 من أبريل بتقويمنا.

وفي هذه الحالة أوافيكم بالقصة بعد شهرين، وسأحاول أن لا أشعر بالخجل فيما يخص جودتها. فأنا أبتكر الحبكات ليس من أجل النقود. ولو لم تكن فكرة القصة موجودة في ذهني لما طرحت على المجلة شروطاً.

والآن أرجوك يا نيكولاي نيكولايفيتش، أن لا تزعل مني بسبب هذه الشكليات والبيع والشراء.

والحقيقة هذا ليس بيعاً وشراءً. وإنما هو عرض واضح ودقيق لظروفي، وكلما كان العرض دقيقاً واضحاً كانت الأعمال أفضل. أليس كذلك؟ (. . .). وأرجوك كل الرجاء أن تبلغني بقرار كاشبيريف حالما تستلم رسالتي. ذلك ضروري جداً بالنسبة لي لتوزيع حساباتي وأعمالي. وإذا انشغلتَ اكتبْ لي بضعة سطور للتبليغ فقط.

(. . .) إلى اللقاء يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب المبجل. رسائلك تمثل الكثير بالنسبة لي. آنّا غريغوريفنا تبعث إليك بتحياتها، وأنا

المخلص لك بالتمام والكمال

فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: (. . .)

من قال لك إن صحتي متدهورة؟ صحتي جيدة جداً، ونوبات الصرع، رغم استمرارها، باتت أقل بمرتين مما في بطرسبورغ، وخصوصاً بعد الانتقال إلى إيطاليا.

140. إلى نيكولاي ستراخوف

فلورنسا، 6 أبريل 1869

أنا شاكر لك كل الشكر، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، على جهودك. ومن دواعي السرور والارتياح العميق أن أتعامل معك نظراً للالتزام الذي تتحلى به. لكنني هذه المرة أيضاً أتوجه إليك بطلب جديد رغم شعوري بالخجل الشديد. ولذا أرجوك قبل كل شيء أن تهمل طلباتي إذا كانت تثقل عليك ولو قليلاً، فأنا لا أريد أن أثقل عليك أكثر، وإنما أتوجه إليك بحكم الضرورة.

فلندخل، إذن، في صلب الموضوع.

الطلب الأول: تقول إن النقود، 175، ستحول إليَّ في منتصف أبريل وإنك شخصياً ستتأكد من التحويل. وأنا أشكرك على ذلك خصيصاً. لأنني لا أستطيع أن أعول على دقة وانضباط باقي هيئة التحرير من دون التعرف عليها عن كثب. ولكن هل يمكن تسريع التحويل بخمسة أو أربعة أيام على الأقل؟ هذا هو طلبي. ذلك لأنه يتعين عليّ، لأسباب عائلية، أن أنتقل من فلورنسا. فقد بدأ الحر هنا، والطقس في الصيف، كما يقول الأطباء، لا يناسب حالة آنّا

غريغوريفنا. وإلى ذلك ينبغي البحث عن طبيب وممرضة خلوقين يجيدان الكلام بلغة مفهومة. فرنسا غالية، وفي ألمانيا، في درزدن، أفضل، فقد عشنا هناك فترة ولدينا معارف. إلا أن هذا الانتقال يغدو مع كل أسبوع يمر أصعب على زوجتي، رغم أن أمامها أربعة أشهر أخرى. ولذا الأفضل لو أسرعنا.

باختصار، ملابسات كثيرة تلعب دورها. بعد أيام تصل إلينا في فلورنسا والدة آنّا، ولذا نريد أن نشد الرحال في أول فرصة متاحة وننتقل إلى درزدن عبر البندقية. مبلغ الـ 175 روبلاً ليس كبيراً لرحلة طويلة من هذا النوع. ولما كنت الآن أيضاً لا أمتلك نقوداً فسنضطر أن نعيش على الاستدانة طول الوقت لحين الانتقال، على أمل أن نسدد من المبلغ المرتقب.(. . .) لذا أرجو أن تبعثوا المبلغ بأسرع ما يمكن، ولو لأيام قبل الموعد. ما أثمن الدجاجة التي تبيض في المناسبات! هذا هو طلبي الأول.

والثاني بخصوص «الفجر». أنا أستلمها بتأخير كبير. وقد فهمت من قراءاتي «للصوت» أحياناً، أنها تصدر بفترة قبل أن أستلمها. وأنا أنتظرها بفارغ الصبر والتحمل. ألا يمكن ترتيب إرسالها إليَّ في حينه؟ علماً بأنني أوضحت منذ البداية أنني سأستلمها ليس مجاناً. أنا واثق بأن قصتي ستكون أكبر بنصف ملزمة مما سأستلمه منكم الآن. ولذا فلتستقطع هيئة التحرير ثمن المجلة أثناء الحسابات النهائية (. . .)

الطلب الثالث حساس. فإذا وجدت فيه أدنى صعوبة أهمِلْه، بلا مجاملات(. . .) بودّي أن أحصل على بضعة كتب لم أقرأها حتى الآن، على أن تستقطع قيمتها أيضاً من بقية حساب قصتي إضافة إلى ثمن «الفجر». والكتب هي «أطراف روسيا» لمؤلفه سامارين، وكل مجلدات «الحرب والسلام» لتولستوي(. . .). أنت تسألني في

رسالتك: ماذا أقرأ؟ طول الشتاء قرأت فولتير وديدرو وقد استفدت من هذه المطالعة وشعرت بالارتياح طبعاً. لكنني أريد أن أقرأ شيئاً لمؤلفينا المعاصرين أيضاً.

خاتمة روايتي «الأبله» استلمتها قبل أيام في كراس مستقل، توزعه هيئة التحرير على المشتركين السابقين. ولا أدري هل استلمتها أنت؟

سأكلف ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا أن تسأل بازونوف هل يشتري حقوق الطبعة الثانية؟ إذا اعتذر فلن نلح عليه. وسأطلب ثمناً بخساً بالمقارنة مع إصداراتي السابقة، وهو 1500 روبل. ولن أقبل بأقل من ذلك ولو بروبل واحد. وبودّي أن أطلب 2000. ألن يكون موقف بازونوف طائشاً، مجافياً للحكمة، فيما لو رفض؟ فهو يعلم أكثر من غيره أن كل مؤلفاتي صدرت بطبعات ثانية، ناهيك عما صدر منها بثلاث وأربع وخمس طبعات. أرجوك أن لا تخبر أحداً بهذا لحين من الوقت. (...)

مقالتك المعنونة «بؤس الأدب الروسي» أعجبتني أكثر من مقالتك عن تولستوي، فهي أوسع.

إلا أن النصف الأول من المقالة التي عن تولستوي منقطع النظير. باعتقادي أن في المقالة أخطاءً. ولكن ذلك في اعتقادي فقط. ثم إن هذه الأخطاء طيبة، وتسمى عادة بالإفراط أو الإسهاب. وهو أمر قابل للجدل دون أن يلحق ضرراً بالقضية. على أية حال أنا لم أقرأ في النقد الروسي حتى الآن شيئاً من هذا المستوى.

بخصوص مقالة دانيليفسكي أعتقد أن لها مستقبلاً باهراً، أكثر مما هي عليه الآن. وليس وارداً الافتراض بأن كتابات من هذا النوع يمكن أن يخفت تأثيرها ولا تفعل فعلها (...). لا أدري كيف ستكون شهرة أفيركييف، لكنني لم أقرأ مثل ما كتب، ما عدا «ابنة الضابط»

(لبوشكين). أما أوستروفسكي فهو متبجح ينظر نظرة متعالية أكثر من التجار الذين يكتب عنهم.(. . .) واعتقد أن دوبرولوبوف أكثر مصداقية من غريغوريف في نظرته إلى أوستروفسكي. ولربما أن فكرة «ملكوت الظلام» لم تخطر في بال أوستروفسكي، إلا أن دوبرولوبوف أوحى له بها ووجد لديه تربة خصبة. ولا أدري هل نجد عند أفيركييف القدر نفسه من التألق في الموهبة وفي الخيال كما عند أوستروفسكي، إلا أن تعبيريته وروحيتها أعلى بكثير (. . .) هذا موهوب عظيم جديد، يا نيكولاي نيكولايفيتش، ولعله أرقى من الكثيرين من معاصرينا. وسيكون مؤسفاً جداً لو اكتفى بمسرحية كوميدية واحدة.

(. . .) تحياتي للجميع. أشد على يدك بحرارة، . آنّا غريغوريفنا تبلغك تحياتها العاطرة.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .) الرجاء عدم الإعلان عن قصتي قبل الأوان، كما فعلتم بشأن «الغجر».

141. إلى أبولون مايكوف

فلورنسا، 15 مايو 1869

ما أطول الفترة التي لم أجب فيها على رسائلك الطيبة الصادقة، يا صديقي الطيب الصادق الوحيد. أنت على حق، أنا أعتبرك الإنسان الوحيد القريب إليَّ من حيث الفؤاد بين جميع الذين التقيتهم في حياتي على مدى ثمانية وأربعين عاماً تقريباً. (...) نحن وإياك على الرغم من اختلاف الموقع الاجتماعي متماثلان تقريباً من حيث التقاء القلبين والروحين ومن حيث المعتقدات. حتى استنتاجاتنا العقلية ومجريات العمر الذي عشناه باتت متشابهة في الآونة الأخيرة لحد يثير الاستغراب. وأظن أن دفء قلبينا هو نفسه. (...) في الصيف الماضي (كنت أريد أن أقترح عليك) فكرة مشروع شعري يضم عدداً من المقطوعات والحكايات والأغاني والقصائد والملاحم المصغرة، سمها ما تشاء، وجوهرها وأحجامها تتوقف على خلجات فؤاد الشاعر، فتظهر جاهزة من أعماق روحه، بل ولا تتوقف عليه (...). ولكنك لم تجبني آنذاك. ولربما حسناً فعلت. وهنا أستدرك فأقول إن الملحمة، باعتقادي، كالمجوهرات، كالأحجار الكريمة، كالماسة في

روح الشاعر، جاهزة تماماً بجوهرها، وهي الهم الأول للشاعر كمبدع والجزء الأول من إبداعه (. . .) وإذا لم يكن الشاعر هو المبدع فإن روحه هي منجم الماس الذي لا يمكن العثور عليه من دونها. ثم تأتي المهمة الثانية للشاعر كفنان يعالج الماسة ويضفي عليها الأبعاد التي يريد. فنجد الشاعر عندنا بمثابة أحد صاغة المجوهرات على وجه التقريب (. . .) في التاريخ الروسي نقاط ومواضع يتجمع فيها الماس، ولا بد من التعبير عنه في أشعار تتحف الجميع، ولكن ليس بشكل مدونات بسيطة، كلا، بل بشكل ملحمة عاطفية حتى من دون تجسيد دقيق للوقائع الفعلية، بحيث يتم تلقف النقطة الرئيسية ونقلها على نحو يبين كيفية تحولها إلى فكرة ومدى الحب والألم اللذين رافقا الحصول على تلك الفكرة. وينبغي العرض بلا أنانينة، من دون مقدمات من الشاعر، وبأكبر قدر من العفوية والبساطة والوضوح. المهم أن ينبض وينبجس فيها حب روسيا معيناً لا ينضب.(. . .)

أنت في هذه اللحظة تعتبرني مجنوناً بالطبع (لأنني بالأساس أكتب لك الآن، في هذه الرسالة، عن كل ما أفكر فيه بشأن تاريخ روسيا)، فيما يحتاج ذلك إلى حوار وجهاً لوجه. والحقيقة أنني تحمست للموضوع ولم أضبط أعصابي عندما قرأت في رسالتك أنك تنظم ملحمة من هذا النوع، ودهشت أشد الدهشة لأن الفكرة نفسها والملحمة نفسها خطرت في بالك وبالي رغم انقطاعنا الطويل عن المراسلة. فرحت لذلك، ثم فكرت هل نحن نفهم الموضوع على نحو واحد؟ فكرتي أن هذه الملاحم يمكن أن تشكل سجلاً قومياً عظيماً، وتخدم إحياء الوعي الذاتي لدى الإنسان الروسي لدرجة كبيرة. تصور، يا أبولون نيكولايفيتش، كل الصبية في المدارس سيعرفون هذه الملاحم ويحفظونها عن ظهر قلب. وعندما يحفظ الصبي الملحمة

يحفظ الفكرة والنظرة، ولما كانت النظرة صحيحة فستبقى راسخة في نفسه مدى العمر. وما دامت هذه الملاحم عبارة عن أشعار وقصائد قصيرة نسبياً فإن جميع القراء الروس سيقرأونها، كما يقرأون (قصيدتك) «كاتدرائية القسطنطينية» التي يحفظها الكثيرون عن ظهر قلب حتى الآن. ولذا لن تكون تلك مجرد ملاحم في درس الأدب، بل ستغدو علماً من العلوم، وموعظة ومأثرة.(. . .). تذكر يا صديقي أن نشاطك الشعري كله كان حتى الآن مقدمة ومدخلاً لما ستغدو عليه، وأنك الآن (من خلال هذه الملاحم) قادر على أن تقول كلمة جديدة، كلمتك الجديدة. ولذا فكر في الموضوع بمزيد من الجدية والعمق والولع. والأهم أن يكون لديك المزيد من البساطة والسذاجة العفوية (الفولكلورية). وإلى ذلك اكتب الشعر الحر المرسل، وليس العمودي على غرار الشعر الروسي القديم. ولا تسخر من هذا القول. فالمهم اليوم هو القافية الشعبية وليس الرويّ العمودي الأكاديمي. (. . .)

أكتفي بهذا القدر. أنا واثق بأننا متوافقان في الأفكار، وهذا هو مبعث سروري. أَرسلْ لي، رجاءً، شيئاً ولو قليلاً مما كتبت، وإذا أمكن أَرسلْ أكثر. فلن أستخدمه في ما يضر. أنت نفسك ترى أن ذلك يثير اهتمامي لحد الانفعال.

وقد تسألني لماذا لم أكتب لك طول هذه المدة؟ لم أكتب لك طويلاً، حتى صار من الصعب عليَّ أن أجيب عن هذا السؤال. السبب الأول هو الاكتئاب. وإذا أردنا المزيد من التوضيح فلا بد من الكلام الكثير. إلا أن الاكتئاب شديد لدرجة كان من شأنها أن تؤدي إلى المرض فيما لو كنت وحيداً. من حسن الحظ أنني مع آنّا غريغوريفنا التي عاد إليها الأمل من جديد، كما تعلم. وهو أمل

يقلقنا كلينا. تقيم معنا الآن والدة آنّا، ووجودها هنا ضروري في هذه الظروف. لقد أخطأنا كثيراً في البقاء مؤخراً في فلورنسا بعد أن قررنا الانتقال إلى درزدن قبل شهر كامل. والسبب الأول هو عدم توفر النقود (. . .) سأعمل في درزدن ليل نهار (. . .) مللت جداً من فلورنسا (. . .) مللت من أوروبا كلها، وصرت أنظر إليها كأنني وحش كاسر. قررت أن أعود إلى بطرسبورغ في الربيع مهما كلف الأمر. حالما أنهي الرواية. حتى ولو زجوا بي في سجن الديون. مصالحي المادية هنا في الخارج، ناهيك عن الاهتمامات الروحية، تتضرر. تصور، على سبيل المثال، أن جميع مؤلفاتي، مهما كانت الأحوال، تباع في طبعاتها الثالثة والرابعة والخامسة. و«الأبله»، وأنا لا أجادل الآن في نواقصها، بضاعة جيدة على أية حال. وأعلم علم اليقين أن طبعتها الثانية يمكن أن تباع في سنة واحدة. فلمَ لا تصدر؟ (. . .) قد أصدرها بنفسي حينما أعود دون أن أخسر شيئاً (. . .)

على أية حال مصالحي المادية تتضرر كما هو واضح. والسبب الوحيد هو غيابي. ثم إن الكثير جداً من الأمور التي لا أستطيع الاستغناء عنها ظلت في روسيا. ولا أتذكر هل كتبتُ لك أن لدي فكرة أدبية لرواية رمزية عن الإلحاد يغدو نشاطي الأدبي السابق كله بالمقارنة معها مجرد تفاهات أو مقدمة وأنني أنوي أن أكرس بقية حياتي لها؟ لكنني لا أستطيع كتابتها هنا بأي حال. ولا بد لي من العودة إلى روسيا. لن أتمكن من الكتابة من دونها.

(. . .)

لدي رجاء آخر إليك، يا أبولون نيكولايفيتش. نفذه إذا كنت تستطيع. ولا تتعب نفسك، باللّه عليك. ربما الجهد غير كبير، لكن

طلبي حساس. أرجوك أن تعرج على متجر (الناشر) بازونوف وتسأله هل يريد أن يصدر «الأبله» (في طبعة ثانية) مقابل 2000 روبل، وأنا لا أقبل بـ 1500؟ ولعلك تعلم أن الكلام مع بازونوف، كما هو معك شخصياً، يجب أن يكون صريحاً. ولا تحاول إقناعه. كل ما في الأمر أنه قد يطلب منك النصح في الموضوع، فلا تبخل بكلمة ثناء على «الأبله».

(. . .)

لا أزال آمل بمغادرة هذا المكان سريعاً والانتقال إلى درزدن. عَنونِ الرسائل إلى هناك، وسوف تعاد اليّ إذا بقيت في فلورنسا. تكاتبتُ مع بريد درزدن بهذا الخصوص (. . .) ولذا أنتظر رسائلك على أحر من الجمر على العنوان التالي:

Allemagne, Saxe, Dresden, à M-r Théodore Dosty, poste restante

نحن ننتقل إلى درزدن في الواقع للعديد من الأسباب والاعتبارات. والأهم أننا جربنا هذه المدينة. وهي رخيصة نسبياً، ولدينا فيها معارف. هناك تنوي آنّا غريغوريفنا تحقيق آمالها في بداية سبتمبر. آنّا تشكرك بحرارة على كلماتك الطيبة، وهي غالباً ما تتذكركم وتحنّ إلى روسيا طول الوقت. وأنا مسرور جداً لأن مشاغلها الحالية ستلهيها بعض الشيء عن الاكتئاب. إلى اللقاء يا صديقي. حبّرت ثلاث صفحات، فماذا أخبرتك فيها؟ لا شيء. لقد انقطع التواصل بيننا أمداً طويلاً، وبغياب التواصل يتراكم الكثير مما هو غير مفهوم. كل ما يحدث عندكم في بطرسبورغ تصلني أخباره جزئياً، فلدي «البشير الروسي» و«الفجر» وأطالع «الصوت» التي تستلمها المكتبة العامة هنا. هل يعجبك (مسلسل) مقالات دانيليفسكي «روسيا

وأوروبا»؟ أعتقد أنها في منتهى الأهمية.(. . .) وأعتبر «ملهاة فرول سكوبيف» بقلم أفيركيف أفضل ما كُتب في هذا العام.

دهشتُ وأعجبت بالمسرحية كثيراً منذ القراءة الأولى، وفي القراءة الثانية صرت أنظر بمزيد من الحذر. أشد على يدك وأعانقك بحرارة.

المخلص لك دوماً

فيودور دوستويفسكي



142. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 27 أكتوبر 1869

استلمت أمس الأحد رسالتك، يا صديقي الغالي، مع حوالة 100 روبل. (. . .) أنت تطلب مني فيها أن لا أزعل من كاشبيريف، وأنا أكيد لست زعلاناً منه، لا سيما وأنك تقول إنه نفسه في ضائقة مالية كانت هي السبب. ولكن تصور موقفي واحكم، هل كان بإمكاني أن لا أنفعل؟ أعتقد أن عدم الانفعال من الغضب غير ممكن حتى بتوفر المشاعر النصرانية، على حد تعبيرك. كان بوسعه دوماً أن يجيب. المسألة الآن باتت في طي الماضي، وأنا أتكلم حالياً عن الماضي فقط، خاصة إذا كان هذا الماضي يؤذيه كما يؤذيني. أقول لك صادقاً إنني لم أحقد عليه حتى عندما كتبت لك. ناهيك عما أنا مدين به لك شخصياً. ولن أنسى فضلك أبداً. فشكراً. (. . .)

بخصوص الفائدة المئوية ونفقاتي التي يريد أن يتحملها كل تلك أمور لا موجب لها. فقل له، رجاءً، إذا التقيته، إنني لن أوافق على ذلك بأية حال. فأنا لست مرابياً (. . .) أنا لا أريد أية هبات أو

عطايا. اشكره بالنيابة عني (. . .) كما أنني أشكرك أنت مرة أخرى (. . .)

والحقيقة لدي رجاءات وطلبات كثيرة إليك، رغم إدراكي دناءة ما أثقل به عليك. ولكنني لا أرى أدنى فرصة لتدبير أموري من دون مساعدتك ووساطتك. ولذا تجرأت على إزعاجك من جديد. باللّه عليك لا تزعل.

أول ما أرجوه منك بعض الوساطة بيني وبين كاشبيريف بخصوص قصتي. أنا نفسي سأكتب له، إلا أن كلمتك، كلمة الإنسان الذي يحترمه كاشبيريف أغلب الظن والمتعاطف مع «الفجر»، سيكون لها وزن كبير. والقضية كالآتي: أولاً - القصة التي لا يمكن أن تستلمها «الفجر» قبل أسبوعين من تاريخ اليوم قد تكون في 6 أو 7 ملازم من قياس «البشير الروسي» وليس 3 ونصفاً كما كتبتُ إلى كاشبيريف في بادئ الأمر (. . .) ثلثا القصة جاهزان نهائياً. حاولت جهدي أن أختصر ولم أتمكن. إلا أن القضية ليست في حجم القصة، بل في مزاياها، وأنا لا أستطيع الكلام عن المزايا، فذلك من اختصاص الآخرين. إلا أن ما يشغل بالي هو ما يريد كاشبيروف، وقد كتب لي عن ذلك، أن ينشره مقدماً عن قصتي. أنا لا أريد الإعلان بأي حال. أبداً. اطلبْ منه إذا التقيته أن لا يفعل. أشعر بأن لا إرادة لي في ذلك، فهو صاحب المجلة، ولا أستطيع أن أمنعه. ولكن هل ينزل عند الطلب؟

2) حسب الاتفاق الأولي كتبت له أنه حر في نشر قصتي هذا العام أو العام القادم، مع أنني أعربت عن رغبتي في نشرها هذا العام. وسأطلب منه عندما أرسل القصة إليه أن ينشرها في عدد ديسمبر، أو حتى في عدد نوفمبر، إذا تمكنت من إرسالها. وسيكون

الأمر صعباً عليَّ جداً إذا أرجأها إلى العام القادم. فلدي بهذا الخصوص حساباتي القائمة على التقاء الملابسات. أنا لا أقصد الحسابات المالية، القضية تختلف تماماً. بودّي أن تنشر في عدد ديسمبر. وهذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لي. عندما أصدر (المرحوم) أخي «الوقت» قررنا معاً في نهاية السنة الأولى أن الأعداد الأخيرة من العام الأول للمجلة البادئة تتسم بأهمية للاشتراكات أكثر من أهمية عددي يناير وفبراير من العام الجديد. وكان نجاح حملة الاشتراكات قد برر صواب هذه الحسابات. وإذا كان كاشبيريف يريد أن يعلن عن روايتي قبل الأوان فذلك يعني أنه يقدرني ككاتب، وإذا كان يقدرني فالأنسب له أن ينشر لي في ديسمبر. أرجوك أن تكلمه عن ذلك وأن تساعد على تنفيذه عندما أرسل القصة إلى هيئة التحرير. هذا مهم جداً بالنسبة لي، لكن القول الفصل له.

3) القصة بملازمها الطباعية السبع بمقاس «البشير الروسي» يمكن أن تأتي في «الفجر» بـ 8 ملازم ونصف. وبودّي أن تنشر القصة في عدد واحد لا أن تتجزأ في عددين. وأنا أصر على ذلك. بلّغه أرجوك.[1]

4) استلمت منه 500 روبل مقدماً، وإذا جاءت القصة بحجم 7 ملازم، فلا بد أن أستلم 500 روبل إضافية (. . .) ألا يستطيع أن يدفع قبل صدور العدد؟ (. . .) وأرجوك أن تأخذ منه المبلغ، وتقتطع لنفسك 200 روبل تسديداً لديني لك، والباقي سنستعيد به حاجياتنا المرهونة في بطرسبورغ (. . .). وسأكتب إلى كاشبيريف أن يسلمك المبلغ، كما سأطلب من شقيق زوجتي أن يتصل بك لغرض استعادة حاجياتنا. وإذا لم تنشر القصة في عدد ديسمبر تؤجل كل هذه الإجراءات طبعاً إلى يناير (. . .)

وأخيراً أهم طلب لي يخص إميليا فيودوروفنا. حينما استلمت منك حوالة الـ 100 روبل بلغ إجمالي ما استلمته من «الفجر» 175 روبلاً. وما دام كاشبيروف وعدني بـ 200 فهل يمكن تسليم الـ 25 روبلاً المتبقية إلى إميليا؟ (فهي في عوز شديد) (. . .) وسأطلب من كاشبيروف أن يبعث إليها عن طريقك فيما بعد 25 روبلاً أخرى.

لم أكن أريد أن أكتب الآن عن أقاصيصك بشأن التاريخ الروسي. لأنني كنت أريد أن أكتب عنها الكثير. ولكنني لم أتمالك نفسي في هذه الرسالة، فكتبت لك بضعة سطور. قرأت الأقصوصتين الأوليين، وغني عن البيان أنهما تعجبانني. لكن ثمة عيباً مهماً للغاية بشأنهما، وهو أنك ربما ستكتب أقصوصتين أخريين وتهمل المسألة. أنا واثق بذلك تقريباً. كل ما في الأمر أنك ستتهاون وتطيل الأمد، بينما يمكنك أن تقدم نفعاً كبيراً جداً. فلو واظبت على الكتابة وأنجزت 25 أقصوصة على الأقل يمكنك أن تصدرها في كتاب يعود بالمنفعة على جميع المدارس وغيرها من المؤسسات التعليمية (. . .) وتغدو تلك الأقاصيص ضمن مناهج التعليم. ففي تلك المؤسسات لا يقرأون كارامزين (تاريخ الدولة الروسية) ولا سولوفيوف (تاريخ روسيا من أقدم العصور) بالكامل، فيما يمكن لكتابك أن يقرأ من ألفه إلى يائه ويرسخ إلى الأبد الأفكار السليمة الواضحة في أذهان التلاميذ الغضة. وإذا كنت تؤكد أن الشيوخ يقولون إن في أقاصيصك ما يصلح للإرشاد فإنهم سيقتنون الكتاب لأبنائهم بالتأكيد. وسيبقى كتاباً ضرورياً جداً للتربية على مدى عشرين عاماً. وإذا نشر نصف الأقاصيص في المجلات فإنها سترّوج سلفاً للكتاب وتوضحه. وإذا حكمنا من وجهة النظر الاقتصادية وحدها فإن ذلك رأسمال، ولعله رأسمال كبير. ويمكن أن يصدر الكتاب في عدة طبعات خلال العشرين عاماً. فهل

يصح إهمال ذلك كله من دون الاستفادة منه. تلك فكرتك، فكرتك أنت شخصياً. وإذا أهملت القضية يأتي شخص مثل رازين صاحب «دنيا اللّه» فيسبقك ويكتب أقاصيصه ويصدرها ويكسب منها، وينسف مواقعك. المهم أن لا تهمل المسألة.

ألا توجد فرصة لإبلاغ كاشبيريف بأن يرسلوا لي «الفجر» في الموعد، فأنا مشترك أدفع الثمن. وكيف حال المشتركين في المناطق الهامشية؟ المجلة لا يمكن أن تستمر بهذه الصورة. وستتقوض بسبب الإهمال حتى لو اشتغل عندهم موظفون من مستوى بوشكين وغوغول. إنهم يسيئون إلى أنفسهم. كرايفسكي (صاحب «مذكرات الوطن») نجح من الناحية التجارية باعتماد الدقة والعقلانية. فيما أتعذب أنا في استلام كل عدد من «الفجر». فكيف أتعاون مع مجلة لا أطلع على ما فيها؟ (. . .)

والآن أنتقل إلى ستيلوفسكي. وأبعث إليك نسخة طبق الأصل من العقد الموقع بيني وبينه عام 65، مستنسخة بدقة فائقة حتى مع الأخطاء النحوية الواردة في النص. ستيلوفسكي أرغمني قسراً على توقيع هذا العقد بتنفيذ كمبيالة ضدي مهدداً بزجي في السجن حتى أن معاون شرطة الحي جاءني لهذا الغرض. إلا أنني كسبت ود المعاون، فزوّدني فيما بعد بمعلومات كثيرة استفدت منها في «الجريمة والعقاب» (. . .) كانت فكرتي أن أبيع «الأبله» لستيلوفسكي بـ 1000 روبل، 500 منها نقداً، و500 بكمبيالات قصيرة الأجل (. . .) وفي بعض فقرات عقد «الأبله» شيء من الالتباس. (. . .) للأسف اتضح أن ستيلوفسكي نصّاب مخادع. وهو يريد أن يكسب لنفسه بالحق والباطل عاماً إضافياً من حقوق طبع «الأبله» (. . .)

(وفي كل الأحوال) ينبغي أن لا ننسى أن ستيلوفسكي نصّاب

غادر. وإذا اتفقت معه فسأساعد بافل وإميليا فيودوروفنا من هذه الـ 1000 روبل.

قصتي «للفجر» ستحمل، على ما أعتقد، عنوان «الزوج الأبدي»، ولكنني لست متأكداً.

إلى اللقاء يا عزيزي. آنّا غريغوريفنا تحييك وتشكرك.

(الصغيرة) لوبوف في صحة جيدة، وبدأت تفهم. تحياتها لك ولبافل.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) قصة «الزوج الأبدي» نشرت مع ذلك في عددين من «الفجر» لعام 1870.



143. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 12 فبراير 1870

يخجلني جداً أن أزعجك، يا أبولون نيكولايفيتش العزيز الموقر. إلا أن الظروف دفعتني هذه المرة بحكم الضرورة أن أطلب مساعدتك من جديد. أنا قلق جداً بخصوص إحدى المسائل، وأرجوك بصددها، كإنسان طيب في معاملتي، رغم عدم وجود أي حق لي كي أطلب خدمة منك، لكنني أفكر أحياناً في أنك بقيت ولو جزئياً أبولون نيكولايفيتش نفسه الذي شاطرني أحوالي في حينه مشاطرة دافئة للغاية. ولكنك أكيد مللت مني، مع أنني لست مذنباً في حقك بشيء. لذا اعذرني هذه المرة أيضاً على الإزعاج.

مشكلتي كالآتي: قبل حوالي شهرين بعثت إلى بافل وكالة مصدقة حسب الأصول، عن طريقك على ما أتذكر. وبالتالي أنت ربما تعلم بوجود هذه الوكالة في يد بافل. وبعد ذلك ساد الصمت، ولم أستلم أي جواب طوال شهر. وأخيراً استلمت من بافل قبل شهر ونصف رسالة يطلب مني فيها موافقتي على اقتراح ستيلوفسكي بتمديد فترة حقوق الطبع عاماً آخر. فوافقت رأساً (...) وتصورت الأمر حقيقة.

ومنذ ذلك الحين لم أستلم خبراً (. . .) وفقاً للعقد الموقع مع ستيلوفسكي ينبغي أن أستلم في هذا العام قرابة 900 روبل مقابل نشر «الجريمة والعقاب» (. . .) وأخشى أن يكون هناك تلاعب وراء هذا الصمت، مع أني لا أريد أن أشكك في نزاهة بافل. لكنه شاب طائش (. . .)

طلبي إليك يتلخص في ما يلي:

أن تستدعي بافل (ليبلغك بسير القضية وتأخذ منه الوكالة وتحتفظ بها) (. . .) وإذا رفض تسليمك الوكالة بلّغه أنني سأنشر في الصحف نبأ إلغائها، وسيكون ذلك أسوأ بالنسبة له.

أنا لا أستطيع ترك الوكالة عنده، لأنه سيعرضها على جميع المتاجر ويبيع حقوق طبع مؤلفاتي ويسيء إلى سمعتي. (. . .)

قبل أسبوعين بعثت إلى كاشبيريف رجاءً بأن يرسل لي ما تبقى من أجر القصة وهي منضّدة لأجل العدد الثاني، ما يعني أن من السهل جداً عليه أن يجري الحسابات. ولم أستلم جواباً ولو بسطر واحد. ما أسهل إجراء تلك الحسابات لأسبوعين أو أسبوع قبل الأوان، فيما أنا أكاد أهلك. أرجأت ديوني المستحقة للحوانيت وأصحاب البيت، ففقدت الائتمان، كما أبلغوني. وكاشبيريف يخشى أن يدفع لي الآن، ولا أدري لماذا؟ (. . .) لاحظت في الجرائد أنه سلم مقدماً إلى ليسكوف، على سبيل المثال، 1500 روبل، شأنه شأن بيسيمسكي، بينما لا يدفع لي حتى عندما أطلب في الموعد الشرعي وليس مقدماً. لم يحصل معي مثل هذا الأمر أبداً، ولم أكن يوماً في مثل هذه الحاجة، وقد كسبت في أربعة أشهر حوالى 1500 روبل (المفروض أن أستلمها كاملة). أنا أكتب له مرة أخرى، وأرجوك أن تذكّره بي فلعله نسيني. باللّه عليك، أنا في أمسّ الحاجة لدرجة تكاد تقود إلى الانتحار.

يطيب لي لو عرفتُ أن مجلتهم رائجة، وهل ازداد عدد المشتركين فيها؟ (. . .) أنا أشفق على «الفجر»، فهي مجلة ذات اتجاه جيد. ما حاجتهم إلى إسلوب الإعلان سلفاً عما ينشر: «في العدد القادم تبدأ رواية «الغجر» (للكاتب كلوشنيكوف)»؟ يظهر هذا الإعلان مرتين على الصفحة الأولى وببنط عريض. المجلة التي اتخذت منذ العدد الأول أسمى وأرقى لهجة من حيث الاتجاه والنقد لا يجوز لها أن تعلن عن «الغجر» على رؤوس الأشهاد، ما لم تكن هذه الرواية ترقى في مزاياها إلى مستوى «النفوس الميتة» و«عش النبلاء» و«أوبلوموف» و«الحرب والسلام». في حين تفتقر «الغجر» إلى المزايا أصلاً، ناهيك عن مستوى «النفوس الميتة» (. . .)

العدد الأول من «الفجر» لهذا العام يترك انطباعاً باهتاً للغاية: غياب الموضوعات الملحّة الحساسة والساخنة، وقد تعوّدوا على غيابها، والأدب قليل للغاية، حتى قصتي (الزوج الأبدي) قسموها إلى قسمين، ترجمتك الرائعة («كلمة عن عساكر إيغور») لا يمكن اعتبارها من الأدب (الخالص)، أليس كذلك؟ فهي ملحمة شعرية، لكنها في الوقت ذاته عبارة عن مقالة علمية وليس أدبية. مثل هذه الأشعار تنشر لإثراء المجلة والظهور بمظهر الأناقة، بينما نحتاج إلى الأدب الخالص أيضاً. حتى ترجمة رواية (هارييت بيتشر ستو Old Town Folks) هزيلة تافهة، وحتى النقد، رغم لهجته القوية السابقة إنما هو مع ذلك تكرار، للمرة الثالثة أو الرابعة، لأفكار قديمة[1]. عدد ديسمبر من العام الماضي ظهر إلى النور قبل الأعياد، فيما يصدر عدد يناير لهذا العام حسبما كتبت الصحف في 23 من الشهر. ألن يقول المشتركون: «إذا كان العدد الأول في هذه الفترة الساخنة، فترة الاشتراكات الجديدة، يصدر بمثل هذا التأخير فماذا سيحصل للأعداد

10 و11 و12 يا ترى؟». أنا على يقين أن الجميع في هيئة التحرير، وعلى رأسهم كاشبيريف، يعتبرون هذه الهفوات طفيفة ومن صغائر الأمور. إلا أن عدد هذه الصغائر بالعشرات، وقد تكون أبعدت عن المجلة ربما ألف مشترك جديد. وذلك وسط منافسة شديدة، مثلاً، من «بشير أوروبا» التي استقطبت كل الأسماء اللامعة، تورغينيف وغونتشاروف وكوستوماروف (. . .) إلا أن القائمين على «الفجر» يعتبرون ذلك كله تفاهات، فالمهم هو الاتجاه. أنا طبعاً لا أتحدث عن الاتجاه، بل عن مهارات الطباعة والنشر. ولذا يؤسفني أن تكون «بشير أوروبا» المجلة الرائدة بلا شك. فهل نجحت «الفجر» في استقطاب المشتركين؟

بعد أن كانت نوبات الصرع متباعدة أخذت تضربني من جديد وتغضبني لأنها تحول دوني ودون عملي. عكفت على فكرة غنية، لا أقصد التنفيذ، بل الفكرة نفسها. وهي من الأفكار التي لها تأثير لا ريب فيه على الجمهور، مثل تأثير «الجريمة والعقاب»، لكنها أقرب منها إلى الواقع وأكثر إلحاحاً، وتتناول مباشرة أهم مسألة معاصرة. وسأنتهي في الخريف من دون تسرّع أو استعجال. وسأسعى إلى إصدارها في الخريف نفسه، وإذا لم أفلح لا يهم[2]. سأحاول الحصول على نقود تعادل ما استلمته مقابل «الجريمة والعقاب»، ما يعني أني آمل أن أرتب كل أموري حتى نهاية العام، وأعود إلى روسيا. إلا أن الموضوع ساخن جداً. ولم أكن قد عملت أبداً بمثل هذا الارتياح وهذه السهولة. ولكن كفاية. إنني أقضي عليك برسائلي التي لا تنتهي. كلّم كاشبيريف، إن أمكن، بخصوص النقود، وعالج أمر بافل كما طلبتُ، وسأبقى شاكراً لك مدى العمر. كلنا نحييك.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود مقالات الناقد نيكولاي ستراخوف عن «الحرب والسلام» لتولستوي.

(2) بدأت «البشير الروسي» بنشر «الشياطين» في عددها الأول لعام 1871.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

144. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 26 فبراير 1870

شكراً لك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، على رسالتك وعلى تذكرك لي. في الغربة رسائل المعارف الطيبين السابقين ثمينة. مايكوف، مثلاً، لم يعد، على ما يبدو، يكتب لي إطلاقاً[1]. كما قرأت بنهم شديد سطور الاستحسان القليلة التي كتبتها عن قصتي (الزوج الأبدي). وهذا يسرّني ويداري غروري. فأنا أرغب دوماً في إرضاء قراء من أمثالك، أو على الأصح أرغب في إرضائهم وحدهم. كاشبيروف راض أيضاً، وأشاد بالقصة في رسالتين. أنا مسرور جداً لذلك كله، ومسرور بخاصة لأنك تقول عن «الفجر»: سيكون رائعاً لو رسخت مواقعها. فأنا كلياً أنتمي إليها من حيث الاتجاه، وبالتالي فإن نجاحها نجاحي. إنها تذكّرني، على نحو ما، «بالوقت»، وقت «فتوتنا»، يا نيكولاي نيكولايفيتش. وأقول لك بصراحة إذا شئت: كنت أشك في نجاح حملة الاشتراكات. لم أكن أقلق على نجاح المجلة نفسها، فهي ستستقطب المشتركين آجلاً أم عاجلاً. ولكنني كنت قلقاً بعض الشيء على حملة الاشتراكات الحالية. وتصورت بهذا

الخصوص أن المجلة كان يمكن أن تصدر بمزيد من العناية، بل وبمزيد من الثقة بالنفس. إلا أنني أخطأت، وهذا شيء رائع. 2500 مشترك شيء رائع لأنه يعني أن المجلة تقف على قدميها. طبيعي أن الـ 3500 مشترك أفضل بكثير. وأنا لا أفهم تماماً عدم وجود هذا العدد منهم لدى مجلة بمثل هذا الاتجاه الضروري وبمثل المقالات التي نشرتها في العام الفائت. أنا على يقين بأن الألف مشترك الذين لم يلتحقوا بالمجلة إنما كانوا يطرقون باب هيئة التحرير، لكنها فوَّتتهم بالصدفة. وكان الأمر يتوقف على الصغائر، ربما على قلة الحذق والشطارة في النشر. وهذه الصغائر مهمة في العمل الطباعي. أنا أدرك تماماً أنني أتدخل الآن في شأن لا يعنيني، ولكن احكم بنفسك: إعلانات الجرائد تقول إن عدد فبراير من «الفجر» صدر في 16 من الشهر، واليوم هو 26 فبراير وأنا لم أستلمه حتى الآن. (. . .) أرجوك، باللّه عليك، اسألهم هل نسوا أن يبعثوا لي العدد المذكور؟ تلك بلا ريب من صغائر الأمور، ولكن إذا تراكمت هذه الصغائر فلا غرابة أن يمر ألف مشترك على المجلة مر الكرام.

عندما استلمت العدد الأول من «الفجر» كتبت إلى مايكوف أنه لم يترك في نفسي انطباعاً عميقاً. فالأدب النثري فيه بدا لي قليلاً. هناك قصتي وحدها، وأنت تمتدحها، ولكنها ليست الكل في الكل حتى يمكن الاستغناء بها عن غيرها. وإلى ذلك فهي نصف قصة، المنشور منها 5 ملازم فقط. ثم إن «كلمة» مايكوف («عن عساكر إيغور») ليست سرداً أدبياً، وإنما ترجمة شعرية، ومقالتك رغم روعتها إنما هي على أية حال تتناول موضوعاً قديماً. أنا أتكلم من وجهة نظري، وليس من وجهة نظر المشتركين. على فكرة، من قال لك إن مقالتك عن تورغينيف أفضل مما كتبته عن تولستوي؟ المقالة عن تورغينيف

رائعة وواضحة. إلا أنك، في مقالاتك عن تولستوي، وضعت، إن صح التعبير، نقطة الارتكاز التي تنوي مواصلة نشاطك منها. تلك هي وجهة نظري. وأنا، إذا سمحت، موافق حرفياً الآن، خلافاً للسابق، على كل ما جاء في الآلاف العديدة من سطور هذه المقالات ولا أستثني منها سوى سطرين، لا أقل ولا أكثر، لا أستطيع أن أوافق عليهما. وسأعود إليهما فيما بعد. المهم أن المجلة تأسست والحمد للّه.

على فكرة، لماذا تقول عن صحتك إن بدنك كله في صرير؟ هل أنت مصاب بمرض مزمن؟ أسمع منك هذا الكلام لأول مرة. أما صحتي فلا بأس بها. أنت تعلم، نوبات الصرع، وفيما عدا ذلك كل شيء تمام.

تسألني عما إذا كنت سأساعد، بمعنى أشارك في «الفجر». أقول لك بمنتهى الصراحة، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، إنني أتمنى للمجلة كل النجاح من صميم القلب. ولكن لكي أتمكن من إعداد شيء لائق لها ينبغي أن تساعدني هي مقدماً. فهل المجلة قادرة على ذلك؟ هذا هو السؤال. الحديث عن الدفع مقدماً ليس من الأهواء والتعالي أو التغنج والغرور من جانبي. خاصة وأن أحداً لم يطلب مني المشاركة، بل أنا أقترحها، ولا أعتبر دعوتك للتعاون طلباً رسمياً. وأعتقد أن من الممل الإسهاب الذي لا موجب له في الكلام عن أوضاعي المالية، لكنك ستفهم حقيقة الأمر من كلمتين: عملت طول عمري من أجل النقود، وطول عمري كنت بحاجة إليها في كل لحظة، والآن أنا بحاجة أكثر مما في أي وقت مضى.(. . .) (أنا لا تتراكم عندي النقود) حتى أستطيع أن أتحمل عدة أشهر ثم أبيع الرواية جاهزة، كما يفعل أدباؤنا الأقدم[2].

ولكنني أقول لك صراحة بهذا الخصوص إنني لم أبتكر الحبكات أبداً من أجل النقود وبسبب الالتزامات التي أتعهد بها لتسليم النتاج في موعد محدد. كلا. أنا ألتزم دوماً وأعرض نتاجي للبيع بعد أن يكون في ذهني الموضوع الذي أرغب في كتابته حقاً، وأعتبر الكتابة فيه أمراً ضرورياً. في ذهني الآن موضوع من هذا النوع. ولن أسترسل في الحديث عنه حالياً، بل أكتفي بالقول إن من النادر أن تتبادر إلى ذهني أفكار أكثر منه جدة وكمالاً وأصالة. أقول ذلك ولا أخشى الاتهام بالغرور، لأنني أتكلم فقط عن الموضوع، عن الفكرة المرتسمة في ذهني، وليس عن الأداء، فهو يتوقف على المشيئة الإلهية، ويمكن أن أحيد وأفسد العمل، وقد حصل معي ذلك كثيراً، إلا أن شيئاً في داخلي يوحي لي بأن الإلهام لن يخونني. وأنا أتعهد بجدة الفكرة وأصالة الأسلوب، ولا أزال معجباً جداً بفكرة الرواية التي ستتألف من جزءين في ما لا يقل عن 12 ملزمة ولا يزيد عن 15 كما أعتقد. على أي حال لن تتجاوز الـ 15 ملزمة طباعية. ويمكن أن تصل إلى هيئة التحرير في الأول من ديسمبر العام الحالي، 1870، على الأرجح. أريد أن أوفر الوقت لأكتب كثيراً (. . .)

هذا كل ما أستطيع أن أقدمه إلى المجلة من جهتي، ومن جهة هيئة التحرير أرجو أن تسلمني مقدماً ألف روبل على النحو التالي: خمسمئة بعد شهر من الآن، والخمسمئة الأخرى، ولو موزعة على دفعات بمئة روبل كل شهر، بعد مرور شهر واحد على دفع الخمسمئة الأولى. والمهم أن يدفعوا بانتظام. الـ 500 الأولى دفعة واحدة بعد شهر بالضبط (. . .) وأضيف إلى ذلك أنني لا أرى في هذا النوع من الاقتراحات سوءاً وإفراطاً، ذلك لأنني قدمت عشرات

المرات اقتراحات مماثلة، بل وبمبالغ أكبر وقد حظيت جميعها تقريباً بالقبول. (. . .) كما أضيف أنني طوال حياتي الأدبية دأبت على تنفيذ التزاماتي بمنتهى الدقة ولم أقصر في واجبي ولا مرة واحدة. وإلى ذلك لم أكتب مرة من أجل النقود وحدها لمجرد أن أتملص من الالتزامات. وعندما كنت أفسد النتاج يحصل ذلك بصدق من دون نوايا سيئة.

ثم إنني ألتزم بأن لا أزعج هيئة التحرير بطلبات مالية محتملة أخرى، ما عدا هذه الألف روبل، إلى حين توصيل المخطوطة. وأخيراً أتعهد بأن لا أموت في هذا العام.

وهكذا أنتظر ردك، ولديّ رجاء ملحّ إليك. ابعثْ لي، إن أمكن على حساب الأجر المنتظر، كما فعلت عندما أرسلت لي «الحرب والسلام»، كتاب ستانكيفيتش عن غرانوفسكي هذه المرة. وسأكون شاكراً لك على هذا الفضل ولن أنساه أبد الدهر. أنا بحاجة إلى هذا الكتيب حاجتي إلى الهواء وبأسرع ما يمكن، بوصفه مادة ضرورية جداً لعملي لا أستطيع الاستغناء عنها بأي حال[3]. فلا تنس تزويدي بالكتاب، لوجه المسيح، إذا رأيت أن ذلك بالإمكان.

آنّا غريغوريفنا تتذكرك وتبلغك تحياتها القلبية. نحن الآن نسهر على وليدتنا لوبا (مصغر لوبوف للتحبيب- المترجم). آه يا نيكولاي نيكولايف، لماذا لا تتزوج فيكون عندك طفل؟ أقسم لك أن في ذلك ثلاثة أرباع السعادة في الحياة. وفي ما تبقى ربع لا أكثر.

هل يعقل أنني اليوم أيضاً لن أستلم «الفجر»؟

أحدّ أسناني لألتهم مقالتك عن المسألة النسوية، فهي موضوع مهم وأتوقع أن أنعم بارتياح عظيم (في مطالعته). فأنت بالذات من

يستطيع الكتابة فيه كما ينبغي. أنا دوماً أستل مقالاتك من المجلة. أقول ذلك ليس للمجاملة.

من المحتمل تماماً أن نلتقي هذا العام.

المخلص لك من صميم القلب

فيودور دوستويفسكي

---

(1) بعد أيام معدودات استلم دوستويفسكي رسالة من أبولون مايكوف.

(2) تلميح إلى تورغينيف الذي كان ينشر مؤلفاته بعد الفراغ منها، على عكس دوستويفسكي الذي ينشر الفصول الأولى من رواياته قبل أن يشرع بكتابة فصولها الأخيرة.

(3) استعان دوستويفسكي بالكتاب المذكور في تأليف «الشياطين».



145. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 24 مارس 1870

أجيب الآن على رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش، وأبدأ بأموري. أقول لك نهائياً وبصراحة إنني، بعد أن أجريت كل الحسابات، لا أستطيع ولا أجرؤ أن أعدكم بالرواية لأعداد الخريف[1]. يخيل إليَّ أن ذلك متعذر تماماً. ثم إني أرجو هيئة التحرير أن لا تثقل عليَّ بالمطالبة بالعمل، فأنا أريد أن أؤديه نظيفاً بقصارى الجهود، كما يفعل أولئك السادة «العظام»[2]. أنا مسؤول عن أمر واحد، هو أن أنتهي في يناير العام القادم. هذا المؤلف أعز عليّ من الباقيات. ففيه إحدى أثمن أفكاري، وبودّي أن يأتي جيداً جداً. في الحال الحاضر أعكف على عمل «للبشير الروسي» (الشياطين)، وسأنهيه قريباً. فأنا لا أزال مديناً للمجلة بمبلغ كبير. ولو توجهت الآن إلى كاتكوف، وأنا في عوز شديد، واصفاً له كل أموري فمن الواضح أن عملي اللاحق سيكون من حصته أيضاً. وأنا أوضح لك كل شيء هنا بصراحة. أنا أعوّل كثيراً على ما أكتبه الآن «للبشير الروسي»، ليس من الناحية الفنية، بل من ناحية الاتجاه، فأنا

أريد أن أعرض عدة أفكار حتى لو تردت موهبتي الفنية. فما يجتذبني هو ما تراكم في ذهني وفؤادي، وأريد له أن يخرج ولو بما يشبه الأهاجي، على أن أعبّر عن نفسي بالتمام والكمال. وآمل في النجاح. ومن، يا ترى، يعكف على الكتابة دون أن يأمل في النجاح؟

(. . .) بعد إنهاء عملي «للبشير» قريباً سأتفرغ للرواية بكل ارتياح.

فكرة هذه الرواية تراودني وتناغيني منذ ثلاثة أعوام. ولكني في السابق كنت أخشى الشروع بكتابتها في الخارج. كنت أريد أن أتواجد في روسيا لهذا الغرض. وخلال ثلاث سنوات نضج في ذهني الكثير وارتسم مخطط الرواية كاملاً، وأعتقد أنني أستطيع أن أكتب القسم الأول منها هنا، وأعني الجزء الذي أقدمه إلى مجلة «الفجر». لأن الأحداث فيه حصلت قبل سنوات عديدة. لا تشغل بالك بمفردة «القسم» الأول، ذلك لأن الفكرة تتطلب حجماً كبيراً من السرد، بمقدار «الحرب والسلام» في أقل تقدير. إلا أن الكتاب سيتكون من خمس روايات مستقلة لدرجة يمكن معها لبعض الأقسام، ما عدا قسمين في المنتصف، أن تصدر في مجلات مختلفة كقصص طويلة منفردة، أو في طبعات مكتملة تماماً. العنوان العام للكتاب هو «الخاطئ» (سيرة شيخ الفاسقين)[3]، ولكل قسم فيه عنوان خاص. القسم الواحد، وهو رواية أيضاً، بحجم 15 ملزمة لا أكثر. كتابة القسم الثاني تتطلب وجودي في روسيا.

أحداث هذا القسم تجري في الدير، ومع أني أعرف حياة الأديرة الروسية[4] تمام المعرفة إلا أنني أريد أن أتواجد في روسيا من كل بد. بودّي أن أتكلم معك بمزيد من التفصيل، فكيف أستطيع ذلك من خلال الرسائل؟ أكرر أنني لا أستطيع أن أعد بالكتاب لهذا العام، فلا

تستعجلوني، وإلا تستلمون نتاجاً غثاً يخجلني، أو قد يكون جيداً. فأنا على أية حال جعلت من هذه الفكرة هدفاً لحياتي الأدبية في المستقبل، لأنه ليس بالإمكان الأمل في العيش والكتابة أكثر من 6 أو 7 سنوات. قل «للفجر» أن لا تزعل لأنها تسلم النقود قبل تسعة أشهر من استلام العمل. فقد كنت أحياناً أستلم النقود مقدماً قبل عامين. ولا حصاد من دون بذار (. . .) أرجوك يا صديقي الطيب القديم نيكولاي نيكولايفيتش أن تبلغني عاجلاً إذا كانت هناك موافقة من المجلة لأعرف ذلك بالتأكيد. فإن احتياجاتي تزداد بتسارع عظيم ولا يمكنني أن أفوت لحظة من الوقت. أنا أعيل زوجتي وطفلتي، وإلى ذلك تقتضي الكتابة استقراراً نفسياً وهدوء أعصاب. فليتخذ كاشبيريف قراراً ما. سواء بالسلب أو الإيجاب لأعرف النتيجة على الأقل. الوقت بالنسبة لي ثمين. وحتى الرفض والحال هذه أكثر نفعاً من المماطلة في الإجابة بنعم. ، فلا أضيع الوقت جزافاً.

قرأت عدد مارس من «الفجر» بمنتهى الارتياح. وأنتظر بفارغ الصبر بقية مقالتك لأفهم كل ما فيها. أشعر أنك تريد أن تصور هيرتسن غربوياً وتتحدث عن الغرب على النقيض من روسيا، أليس كذلك؟ لقد حالفك التوفيق بالكامل عندما طرحت الفكرة الرئيسية عند هيرتسن، ألا وهي التشاؤم. ولكنْ هل تتصور فعلاً أن شكوكه المطروحة في «من المذنب؟» و«الدكتور كروبوف» وسواهما غير قابلة للحل؟ يخيل إليّ أنك تتحاشى هذا الموضوع لكي تعبّر خصيصاً عن فكرتك الرئيسية. على أية حال أنتظر على أحر من الجمر بقية مقالتك، فالموضوع حداثي واستفزازي جداً. وكيف سيكون الأمر عندما تدلل على أن هيرتسن قال قبل الكثيرين إن الغرب يتعفن؟ ماذا سيقول الغربويون من عهد غرانوفسكي؟ لا أدري هل سيأتي ذكر ذلك

في مقالتك؟ كل ما في الأمر تلك توقعاتي. على فكرة، وإن كان ذلك لا يدخل ضمن موضوع مقالتك، هل صحيح أن ثمة وجهة نظر أخرى في تحديد جوهر نشاط هيرتسن بمجمله، وهي أنه كان دوماً وفي كل مكان شاعراً بالأساس. الشاعرية تعلو عنده في كل نشاطاته. إنه شاعر داعية، وشاعر سياسي، شاعر اشتراكي، وشاعر فيلسوف، شاعر بأسمى معنى للكلمة. خاصية طبيعته هذه، باعتقادي، يمكن أن توضح الكثير في نشاطه، حتى الاستخفاف والميل إلى التلاعب بالألفاظ أثناء معالجة أسمى المسائل الأخلاقية والفلسفية، وذلك بالمناسبة ينفّر منه الكثيرين.

المسألة النسوية في عدد فبراير معروضة عندك بشكل رائع في اعتقادي (. . .) ولكنك رقيق جداً في التعامل. يجب أن تكتب والسوط بيدك، فأنت أذكى منهم في حالات كثيرة. والأفضل لو كنت تهاجم بخشونة أكثر. العدميون والغربويون يستحقون ضربة قاضية. وأنت كأنما تستعطفهم في مقالاتك عن تولستوي بأن يوافقوا على ما تقول. في حين أنك تقع في المقالات الأخيرة عنه تحت وطأة الكآبة وخيبة الأمل، فيما ينبغي أن تكون اللهجة باعتقادي مهيبة ومستبشرة لحد الوقاحة. فماذا تعتقد؟ هل يفهمون حقاً فكاهتك الرقيقة الرائعة (. . .) في (مقالتيك عن تورغينيف)؟

ثم هناك سطران عن تولستوي لن أوافقك عليهما، حيث تقول إن ليف تولستوي يعادل كل ما هو عظيم في أدبنا. هذا كلام غير جائز أبداً. بوشكين ولومونوسوف عبقريان. ظهور «وصيف القيصر بطرس الأكبر» و«بيلكين» (من مؤلفات ألكسندر بوشكين) يعني تماماً ظهور كلمة جديدة لم تكن موجودة قبل الآن في أيما مكان ولم يقلها أحد في أي زمان. أما ظهور «الحرب والسلام» فيعني الظهور بعد تلك

الكلمة الجديدة التي نطق بها بوشكين من قبل، مهما مضى تولستوي إلى أبعد وأعلى في تطوير الكلمة الجديدة التي قالها عبقري قبله. وهذا في منتهى الأهمية باعتقادي. على أية حال لا يمكنني أن أبدي رأيي كاملاً في بضعة سطور.

هل يعقل أن ميلوكوف وصل إلى هذا الحد؟ ماذا يفعل الآن؟

معذرة. رواية تشايف «القوى الخفية» أعجبتني كثيراً. مكتوبة جيداً وفيها شاعرية، فلماذا فوتموها؟

(مسرحيته) «الكنة» أكثر جدية ككتاب. لكنها ليست رواية، وإلى ذلك هي مكتوبة شعراً. أنا أحكم عليها من وجهة نظر الساحة الضرورية لاستقطاب المشتركين في المجلة.

آنّا غريغوريفنا تبعث تحياتها القلبية. آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، ليتنا نعود إلى الديار عاجلاً، يا ليت.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) «الخاطئ»

(2) المقصود تورغينيف وليف تولستوي وغونتشاروف المتمكنون مالياً.

(3) لم يقدَّر لدوستويفسكي أن يؤلف هذه الرواية.

(4) موضوع الأديرة انعكس عند دوستويفسكي في «الشياطين» و«الأخوة كارامازوف».

146. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 25 مارس 1870

معذرة، يا أبولون نيكولايفيتش الطيب المحترم، لتأخري في الجواب حتى الآن مع أنني حاولت كل يوم أن أكتب لك. ذلك، أولاً، بسبب العمل، وثانياً، صحتي والوساوس التي عادت إليّ، في العزلة، بشأنها، فكنت مكتئباً للغاية. نبضات القلب مشوشة، ولا أستطيع أن أغفو. راجعت طبيباً من كبار البروفيسوريين، ففحصني بالكامل وقال: «لا شيء إطلاقاً سوى الأعصاب. الأعصاب متوترة للغاية». ينبغي مغادرة درزدن لفصل الصيف، حبذا لو أمكن السفر إلى البحر للسباحة. وهو أمر جيد أيضاً لزوجتي. ولا جدال أن هواء الوطن هو الأفضل. كل ما كتبته في رسالتك عن ذلك هو جوهر الحقيقة، عين الحقيقة[1]. ولكنْ، يا أبولون نيكولايفيتش، ألا تعرف لماذا لا أعود ولا أستطيع أن أترك بلاد الغربة اللعينة؟ لن أتمكن من العودة مطلقاً لبعض الوقت، وهل تتصور أنني قليل الحنين والتشوق بكل جوانحي إلى روسيا؟ ثم ما أشد حنين زوجتي إليها، وهل يسرّني أن أرى كآبتها؟ وإلى ذلك أنا أعلم علم اليقين، بالوقائع، أن أموري

من الناحية الاقتصادية ستكون في روسيا أفضل بثلاث مرات مما أنا فيه هنا. أريد أن أقول لك نهائياً بهذا الخصوص إنني أقسم لك، يا صديقي العزيز، أنني لن أعبأ بسجن الديون، فقد رأيت أبشع منه في حياتي. كنت سأقضي سنة في السجن وأتخلص من الديون. ولكنني أعرف أن ذلك كان ممكناً في الماضي، قبل خمس سنوات، أما الآن فهو متعذر بالتأكيد. صحتي لن تمكنني من التحمل في السجن العمومي حتى لستة أشهر، والأهم أنني لن أكسب شيئاً هناك (لتسديد الديون)، ناهيك عن التأليف. بخصوص الكتابة والتأليف في الخارج كلماتك من ذهب خالص. بالفعل سأتخلف، ليس عن العصر ولا عن معرفة ما يجري عندكم، فلعلي أعرف ذلك أفضل منكم لأنني أقرأ يومياً، نعم يومياً، ثلاث صحف روسية عن آخرها وأستلم مجلتين. سأتخلف عن الينبوع الحي للحياة، سأتخلف ليس عن الفكرة، بل عن تجسدها في لحم ودم. وما أشد تأثير ذلك على عمل الفنان. كل ذلك هو عين الحقيقة، ولكن ما العمل؟ هل أتفق مع الدائنين وأطلب منهم مهلة عام لأسدد بعدها ديوني لهم؟ وهل يوافقون؟ إذا دفعت نصف المبلغ ربما يوافقون على منحي مهلة عام. أنا أفكر في ذلك ليل نهار. وحتى لو دفعت ثلث المبلغ ربما يوافقون. لكن الدخول في علاقات معهم صعب الآن. اللّه يعلم هل هم موجودون جميعاً في بطرسبورغ. ذلك أمر ضروري، لكن النقود غير متوفرة. إجمالي الديون الخطيرة، أي ديون الكمبيالات، 4000 روبل. ما يعني ألفين لتسديد (نصف المبلغ) وألفاً للمغادرة والانتقال إلى بطرسبورغ. المجموع اللازم ثلاثة آلاف. من أين لي بها؟ صدقني، لو لم أترك بطرسبورغ آنذاك لتمكنت من تسديد جميع الديون في غضون عامين. لكنني غادرت لأن بيتشاتكين أقام عليّ دعوى المصادرة، وعلمت بذلك سلفاً. فكيف

كان سيغدو حالي إذا زجوا بي في السجن وقد تزوجت تواً؟ لم أتحمل ذلك، فارتحلت. تلك هي القضية. عموماً سأفكر في هذا الموضوع وأمعن التفكير في الصيف حين تتضح الأمور. أما الآن فأنا أعمل «للبشير الروسي»، أنا مدين لها. وعندما أسلم «الزوج الأبدي» إلى «الفجر» أضع نفسي في موقف حرج. ينبغي أن أنهي ما أكتبه الآن مهما كلف الأمر. وما وعدتهم به ثابت لا يتغير، فأنا في الأدب إنسان شريف. ما أعكف على كتابته الآن عمل ذو اتجاه متحيز أريد أن أتحدث فيه بحرارة. وسيتهمني العدميون والغربويون بالرجعية[2]. فليذهبوا إلى الشيطان. وسأعبّر عن رأيي كاملاً. فهل تعلم بمدى حيرتي؟ لا أستطيع الجزم هل سأوفق أم لا؟ تارة يخيل إليَّ أن الكتاب سيكون موفقاً للغاية، وسأتلقف مبلغاً مقابل الطبعة الثانية، وتارة أتصور أنني لن أوفق أبداً. أن أفشل تماماً أفضل لي من نجاح منقوص إلى النصف. ولعلك ضربتني بهراوة على الجبين بملاحظتك عن «التمادي في التصورات» التي لمستَها في «الزوج الأبدي». فكم من الكآبة والأحزان كلفني ذلك. ولكن القرار بيد اللّه. ومن دون الأمل بالنجاح لا يمكن العمل بحماس. أنا أعمل بحماس، يعني بأمل. إلا أنني لم أشكرك بعد على مشاطرتك الطيبة وجهودك في الذهاب إلى (الناشر) الخسيس السافل ستيلوفسكي وما إلى ذلك.

أنت لا تتصور مدى ما تفضلتَ به عليّ من خلال هذه الجهود. لقد أعدتَ السلام والوئام إلى روحي، وعالجتَ جروحي. وأنا أعترف لك، ولك وحدك، اعترافاً نهائياً: ظننت أن بافل خدعني، فتألمت أشد الألم وصليت من أجله، فجاءت رسالتك أخيراً لتبدد كل شكوكي. إنه صبي طائش، لكنه طيب نزيه. أكرر لك: لقد شفيتَ جرحاً في روحي. أما ستيلوفسكي فليذهب إلى الشيطان. وأنا مسرور

بعض الشيء. فتصور. ما أصعب التعامل مع نذل كهذا[3].

والحال أنا الآن في وضع عصيب، مثل السيد ميكوبر[4]. ليس لدي ولا كوبيك واحد، بينما ينبغي العيش حتى الخريف، حيث سأستلم نقوداً.(. . .) لا تتصور أني أنفق هنا في بذخ. هل تصدق أنني من بداية انتقالي إلى درزدن عشت 8 أشهر على «الزوج الأبدي» وحدها؟، بمئة تالر تقريباً في الشهر، تشمل ميلاد الطفلة والترميم الأكثر ضرورة والمعيشة غير الرخيصة، حتى أنني كبلت نفسي بالديون، ولا أزال مديناً. ستراخوف اقترح عليَّ قبل شهر أن أستمر في الكتابة «للفجر»، فأجبته أن يعرض على كاشبيريف روايتي للعام القادم بشرط أن يدفع 500 روبل الآن و100 روبل كل شهر على مدار خمسة أشهر. حتى يكون المبلغ الإجمالي 1000 روبل. أعتقد أن المبلغ غير كبير (. . .) أنا لم أشتغل سنة ونصفاً تقريباً، لأنني صرت أشعر بالتعب من العمل، ما عدا «الزوج الأبدي». (. . .) (. . .)

العدميون لا يستحقون أن نتكلم عنهم هنا. فلننتظر حتى تتعفن نهائياً هذه الطبقة السطحية التي انسلخت عن التربة الروسية. يخيل إليَّ أن الكثيرين من هؤلاء الغلمان الأراذل المتفسخين سينتهون إلى العودة إلى التربة الصلبة الحقيقية، أما الباقون فليذهبوا في داهية التعفن حتى يصمتوا هم أيضاً في شلل آخر المطاف. ولكن ما أبشع دناءتهم!

آنّا غريغوريفنا فرحة جداً لرأي آنّا إيفانوفنا. الحقيقة أنها شديدة الاعتداد بالنفس والافتخار. يا ليتك تعرف مدى سعادتي معها. مصيبتنا الوحيدة أننا لا نستطيع العودة الآن. ولكننا ربما سنعود، أليس كذلك؟ لوبا تصنع لنفسها أسناناً وتبكي. إنها طفلة سليمة لا بد أن تثير دهشتك. ولولا آنّا نيكولايفنا، حماتي، لتوفيت لوبا أيضاً. ولهلكنا من دونها.

آه، بودّي أن أسألك عن الكثير. ولكن إلى اللقاء على أية حال. لا تنسني ولا تتركني أبداً. وأنا لن أنساك، أنت تعرف ذلك. صديقك الدائم الثابت على العهد

فيودور دوستويفسكي

آنّا تبعث تحياتها لك ولآنّا إيفانوفا.

وأنا أيضاً أعبّر عن احترامي العميق لها وشكري على ثنائها الودي على زوجتي.

عندما بعث لي كاشبيريف 400 روبل قبل شهر قال إن هناك بقية بمبلغ بين 50 و100 روبل، لكنه لم يبعثها حتى الآن. إذا كانت هذه البقية موجودة فعلاً، فلمّح له يا عزيزي أبولون نيكولايفيتش، لوجه المسيح، أن يرسلها. بالنسبة لي حتى الـ 50 روبلاً مبلغ كبير جداً.

هل تعجبك مقالات ستراخوف النقدية؟ أنا أعطيها درجة عالية من التقدير.

---

(1) كتب مايكوف إلى دوستويفسكي: «إذا كانت نوبات الصرع لا تبارحك في الخارج فما جدوى البقاء هناك؟».

(2) الكلام عن «الشياطين». وقد صدقت توقعات دوستويفسكي بشأن موقف الأوساط الديمقراطية والليبرالية السلبي من الرواية.

(3) ستيلوفسكي مارس القرصنة في نشر «الجريمة والعقاب».

(4) بطل رواية ديكنز «ديفيد كوبرفيلد» الذي أفلس وزج به في سجن الديون.

147. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 28 مايو 1870

أشكرك على الرسالة، يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب. رسائلك دوماً قصيرة، لكنها قادرة على تحريكي. رأيك عن نشاطك النقدي أعتبره منقوصاً وغير صحيح. أولاً لأنني أعتقد أنه لولا مقالاتك النقدية لما بقي عندنا الآن أحد في الأدب كله ينظر إلى النقد على أنه ظاهرة جدية وضرورية للغاية. ولما بقي أحد حتى ممن يكتبون النقد الأدبي يقدر ويحترم الحاجة إلى الفهم الفلسفي الصائب للماجريات الراهنة والسالفة، وبالتالي يحترم النقد نفسه، أي يحترم قضيته الشخصية كناقد. وهكذا نجد لديك في المقام الأول هذه النظرة الفلسفية الصارمة إلى النقد ولا نجدها عند غيرك، الأمر الذي يجعل من «الفجر» المجلة الوحيدة التي تنشر النقد وتنظر إليه نظرة صحيحة. ففي «البشير الروسي» النقد هوائي أو أهوائي، وهو ضئيل وسطحي رغم جريانه في الاتجاه العام للمجلة. وأعتقد أن ناقدهم «ب. ش.»[1] يشبه ميلوكوف بعض الشيء. وبالتالي فلو كان لديك هذا وحده لكان كثيراً للغاية. ثم إن التأثير لا يتجلى عاجلاً (. . .).

إليك معياراً يمكن بواسطته، على ما أتصور، الحكم على التأثير والنفوذ: «الفجر» في الغالب مجلة توجهات ونقد. وسيبيّن عدد المشتركين بعد عامين أو ثلاثة مدى تأثيرها في الجمهور، ومعه بلا ريب تأثير النقد، لأن النقد هو السمة الرئيسية للمجلة وهو تخصصها الرئيسي بالنسبة لجمهور القراء. فالجمهور يكشف عن نفسه بهذه الطريقة دوماً، وإن كان بصورة لاشعورية.

وفيما يخص مقالتك قرأتها مرتين وبكل ارتياح. وإلى ذلك أنت تجيد الكتابة لحد مدهش. لغتك الأدبية الفصحى أفضل مما عند الآخرين جميعاً. وهذا، إنْ شئتَ، شيء لا بد أن يكون ملحوظاً في نهاية المطاف. وقد سررت كثيراً لأن موقفك تجاه الأسلوب الراهن في التفلسف يتسم بهذا القدر من الازدراء، لكنني أرغب كثيراً في قراءة ردود أولئك (المتفلسفين) عليك.

ثم ما هذا التهتك في لهجة أدبنا المعاصر كله. أنا لا أقصد الاضطراب والبلبلة في الأفكار، فهما لا بد وأن ينتهيا. إلا أن تلك اللهجة شاملة. فما أكثر التهتك والابتذال. وليس هناك ولا فكرة واحدة متينة ومستوعبة، ولو زائفة. فأي فلاسفة هؤلاء، أي نقاد؟ لا أدنى منهم ولا أحط. ومع ذلك هناك أشخاص معدودون يجيدون التفكير ولديهم تأثير. هكذا يحصل دوماً وسط الاضطراب الفكري. حبذا لو تمكن هؤلاء القلائل أن يطوقوا ويحتووا التشوش والبلبلة لدى الجمهور، وسترى عندئذٍ أنه سيتبنى لهجتهم في الأخير.

على فكرة، مَن هذا البروفيسور الشاب الذي يكتب افتتاحيات «الصوت» وقد «قتل فيها كاتكوف، فلم يعد أحد يقرأه»؟ أريد اسم هذا الكاتب السعيد[2]. باللّه عليك، أخبِرني به عاجلاً. قبل عشرين عاماً ونيف، عندما صدرت «دار الغرور» لأول مرة في إنجلترا

(1848)، عرجتُ على كرايفسكي وقلت ربما سيكتب ديكنز شيئاً يمكن ترجمته لرأس السنة، فأجابني على غير المتوقع: «من؟ ديكنز؟ ديكنز قتل. ظهر عندهم ثاكري وقتله في الحال. لم يعد أحد يقرأ ديكنز!» قرأت عن هذا البروفيسور في «الفجر». كما أنني أقرأ «الصوت». كانت هناك مقالات جيدة جداً. اكتبْ لي، يا نيكولاي نيكولايفيتش، رجاءً اسم ذلك البروفيسور.

ثم إني أردت أن أسالك من زمان هل لك معرفة شخصية بليف تولستوي؟[3] إذا كنت تعرفه اكتبْ لي رجاءً أي إنسان هو. يهمني جداً أن أعرف شيئاً عنه. سمعت القليل جداً عنه كإنسان نزيه.

أعمل لأجل «البشير الروسي» بحماس كبير، ولا أستطيع أبداً أن أستشف النتيجة. فلم يسبق لي أن تولّيت الكتابة في موضوع من هذا النوع. أتلذذ بحلم الانتقال إلى روسيا في العام الحالي، وأبذل قصارى الجهود لهذا الغرض. آه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، نفد صبري وضاق صدري من الحياة في الخارج لدرجة أعجز عن وصفها. (. . .) (. . .)

زوجتي تحييك وتشكرك على السؤال عنها. صحتها متوعكة أيضاً وهي تطعم الطفلة. وفي الآونة الأخيرة لا تنام الليل بسبب مرض الصغيرة.

المخلص لك بصدق ووفاء

فيودور دوستويفسكي

---

(1) بيوتر شيبالسكي.

(2) ألكسندر غرادوفسكي (1841-1889).

(3) تعرَّف الناقد ستراخوف على تولستوي شخصياً في ضيعة الكاتب ياسنايا بوليانا في منتصف أغسطس 1871.

148. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 11 يونيو 1870

أشكرك، يا نيكولاي نيكولايفيتش الطيب، على سرعة الجواب. لكن رسالتك أرعبتني. أولاً، خوفاً عليك. يخيل إليَّ أنني جلبت لك مشاكل مع كاشبيريف، وما كنت أريد لها أن تحصل مطلقاً. ولربما أنني لم أفهم رسالتك جيداً. على أية حال أشكرك على جهودك من أجلي. رفضُ كاشبيريف أدهشني كل الدهشة. ولذا لا أعرف الآن مطلقاً ماذا سأفعل. الوقت الحالي هو الأصعب بالنسبة لي. ولم أحتفظ من تلك الـ 500 روبل بشيء مؤملاً في حوالات متوالية (من كاشبيريف). فكيف سأصمد وعلامَ أعتمد؟ لا حيلة في الأمر. الطفلة مريضة، والمصروفات متزايدة. وليس لي معارف هنا تقريباً، ولا أريد أبداً أن أطلب المساعدة من «البشير الروسي» لحين الموعد الذي حددته (للتسليم).

حصلت هنا بالصُدفة على «بشير أوروبا» للعام الحالي، فراجعت كل الأعداد، حتى أنني دهشت. هل يعقل أن مجلة في منتهى الفجاجة والسطحية، ولا يضاهيها بهذا الخصوص إلا مجلة بولغارين «نحلة

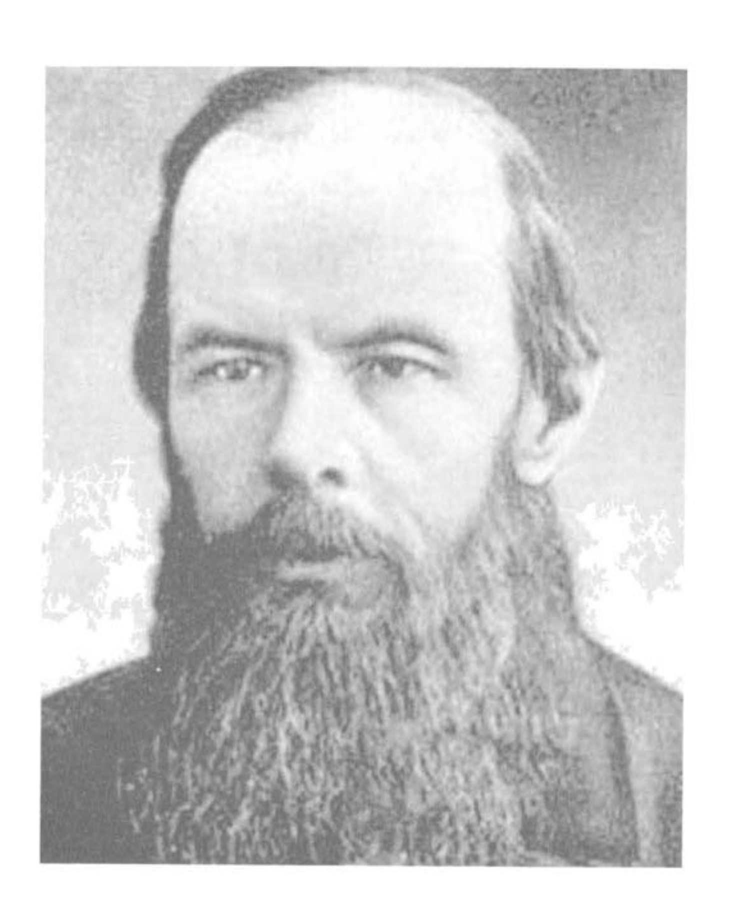
الشمال»، يمكن أن تحقق مثل هذا النجاح؟ 6000 نسخة وطبعة ثانية! تلك هي ثمرة المقدرة. وما أشد التزلف الدنيء إلى رأي الشارع. تلك هي أحدث مظاهر المغازلة الرسمية الليبرالية. تلك هي طبيعة النجاح عندنا. صحيح أنهم يصدرونها بشطارة، في اليوم الأول من كل شهر. ويشارك فيها كثير من الأدباء. قرأت فيها، على سبيل المثال، «إعدام تروبمان» لتورغينيف، وقد يكون لك رأي آخر، إلا أن هذه المقالة المزوقة المتزمتة أثارت استيائي. لماذا يمتعض ويزعم أنه لا يمتلك الحق في التواجد هنا (في ساحة الإعدام)؟ طبعاً، إذا كان جاء ليشاهد المسرحية فقط. إلا أن الإنسان على وجه البسيطة لا يحق له أن يتملص ويتجاهل ما يحصل حواليه، وثمة أسباب أخلاقية سامية لذلك. «أنا إنسان، ولا شيء إنسانياً غريبٌ عليّ...» Homo sum et nihil humanum وما إلى ذلك. والمضحك أكثر أن تورغينيف يتملص في النهاية ولا يرى كيف يتم الإعدام في اللحظة الأخيرة. ولسان حاله يقول: «لاحظوا يا سادة، أنا ذو تربية مهذبة، ولم أتحمل». وهو، على فكرة، يفضح نفسه، فالانطباع الرئيسي الذي تتركه المقالة بالنتيجة هو الاهتمام المبالغ فيه لأقصى حد بالنفس وهدوء البال أمام رقبة تقطع بالمقصلة على مرأى من الجميع. على أية حال، فليذهبوا إلى الشيطان، أنا أبصق عليهم. مللت منهم جميعاً. أنا أعتبر تورغينيف الأكثر فراغاً بين جميع الكتّاب الروس الفارغين، مهما كتبت، يا نيكولاي نيكولايفيتش، «دفاعاً عن تورغينيف»، فلا مؤاخذة (...). ما أجمل أن نلتقي ولو للحظة. ما الذي يمنعك من السفر إلى الخارج ولو لشهر؟ تكاليف الرحلة مع تذكرة السفر مئتا روبل، تزداد إلى 300 إذا قمت بجولة في أوروبا. ويمكنك أن تعرج على درزدن، فنلتقي. أليس ذلك ممكناً؟

إلى اللقاء، أشكرك مجدداً. لا تتركني. اهتم بشؤوني إن أمكن.
آنّا غريغوريفنا تحييك. وهي مرهقة بالرضاع والمشاغل. وفوق ذلك هذه المشاكل.

المخلص فيودور دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو




خامساً:
ما قبل «المراهق» (1875)



149. إلى ميخائيل كاتكوف

درزدن، 8 أكتوبر 1870

السيد الكريم ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر

أرسلتُ اليوم إلى هيئة تحرير (مجلتكم) «البشير الروسي» النصف الأول من الجزء الأول من روايتي «الشياطين»، وسأبعث في القريب العاجل النصف الثاني منه. الرواية تتألف من ثلاثة أجزاء في كل منها ما بين 10 و12 ملزمة. ولن يحصل تباطؤ بعد الآن.

إذا رأيتم أن تنشروا كتابي اعتباراً من العام القادم أعتقد من الضروري أن أخبركم سلفاً وباختصار شديد عما يدور عملياً في الرواية.

سيكون من أكبر أحداث السرد نبأ مقتل إيفانوف في موسكو على يد نيتشايف. وأستدرك هنا فأقول إنني لا أعرف شيئاً عن نيتشايف وإيفانوف وعن ملابسات الاغتيال سوى ما نشرته الصحف. وحتى لو كنت أعرف لما عمدت إلى الاستنساخ. أنا أتناول فقط الواقعة التي حدثت. خيالي يمكن أن يتقاطع إلى أقصى حد مع الواقع السابق، ولن يكون بطل روايتي بيوتر فيرخوفينسكي شبيهاً (بالقاتل) نيتشايف في

أي حال. ولكنْ يخيل إليّ أن ذهني المنفعل رسم، من خلال التصورات، الوجه أو الشخصية التي تناسب هذه الجريمة البشعة. ولا جدال أن رسم صورة هذا الإنسان لا يخلو من منفعة، لكنه وحده ما كان ليغويني. فهؤلاء المشوهون البائسون، في اعتقادي، لا يستحقون اهتمام الأدب بهم. ومن بواعث دهشتي أن هذا الشخص اتخذ عندي صورة فكاهية لحد النصف. ولذا، وعلى الرغم من أن هذه الحادثة تشغل إحدى المراتب الأولى في مخطط الرواية، إلا أنها مجرد ديكور وساحة لسلوك شخص آخر يمكن بالفعل أن يوصف بالشخصية الرئيسية فيها.

هذا الشخص الآخر، واسمه نيكولاي ستافروغين، هو أيضاً شرير عبوس. ولكن يخيل إليَّ أنه شخصية تراجيدية، مع أن الكثيرين ربما سيتساءلون بعد القراءة: «ماذا يقصد الكاتب؟». لقد عكفت على كتابة ملحمة عن هذا الشخص، لأنني كنت من زمان أريد أن أكتب عنه وأصوره. وفي رأيي إنه شخصية روسية ونموذجية. وسيحزنني جداً لو جاءت صورته مهزوزة وغير موفقة. وسأحزن أكثر إذا سمعت من يعتبره شخصية مفتعلة. فقد استخرجته من الفؤاد. بديهي أنه شخصية نادراً ما تتجلى طباعها بكامل نموذجيتها، لكنها طباع روسية لفئة معروفة من فئات المجتمع. ولكن لا تتسرع في الحكم عليّ، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر، قبل نهاية الرواية. ثمة ما يوحي إليَّ بأنني سأتمكن من تصوير هذه الشخصية. وأنا لا أوضحها بكل تفاصيلها خشية أن أقول ما لا ينبغي أن أقوله. وأشير هنا إلى أمر واحد: طباع هذه الشخصية مسجلة بكاملها عندي في مشاهد وأفعال، وليس في محاججات وتأملات، ما يعني وجود أمل في كون الصورة سترتسم.

حاولتُ الشروع بكتابة الرواية أمداً طويلاً من دون جدوى. كنت

أقلّب مخططها على مختلف صفحاته وجوانبه عدة مرات. صحيح أن شيئاً حصل لي مع هذه الرواية لم يكن قد حصل في السابق أبداً. كنت أوقف العمل في بداية الرواية لأسابيع ثم أشرع في الكتابة من النهاية. وإلى ذلك أخشى أن تكون البداية أكثر حيوية وانتعاشاً. ولم أشد عقدة الحبكة حتى بعد خمس ملازم ونصف، وهي التي أرسلها لكم الآن. على فكرة، الحبكة ستتسع وتتصاعد على غير المتوقع. وأنا أتكفل بالمتعة اللاحقة في الرواية. ويخيل إليَّ أن الشكل الحالي سيكون الأفضل.

إلا أن الشخوص لن تكون جميعها عابسة كالحة، فهناك شخوص نيرة وضاءة. عموماً أخشى أن تكون أمور كثيرة فوق طاقتي. فأنا لأول مرة، مثلاً، أريد أن أتناول شريحة معينة من الأشخاص الذين قلما تناولهم الأدب حتى الآن. والنموذج الأمثل لهذه الشريحة هو تيخون زادونسكي. وهو أيضاً قديس يعيش مطمئن البال في الدير. وأنا أربط وأقارن بين بطل الرواية وبينه لحين من الوقت. وأخشى من هذه المحاولة كثيراً، فلم أكن قد جربتها يوماً. لكنني مطلع بعض الشيء على عالم (هؤلاء القديسين).

والآن أتحدث في أمر آخر.

احكمْ عليّ كما تشاء، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش. لقد ألمّ بي الفقر لدرجة تدفعني، رغم خجلي الشديد منك، إلى طلب المساعدة. ليس لدي ما أقتات عليه، وأنا أعيل زوجتي وطفلتي. رغم صحتها المتدهورة كانت زوجتي قبل شهر ترضع الصغيرة، وهي الآن تسهر عليها الليالي بدلاً من أن تأخذ قسطاً من الراحة. وليس لدينا مرضعة ولا خادمة. وهذا يحز في نفسي. . العمل يلهيني أحياناً، وأحياناً يثقل عليَّ في مثل هذا الوضع.

أنا أعرف أنني مدين لكم بالكثير، لكنني سأسدد ديوني لهيئة التحرير بهذه الرواية. والآن أطلب منك 500 روبل. وأعرف أنها مبلغ كبير، إلا أنني مدين هنا للآخرين بهذا القدر تقريباً. اسمح لي أن أعقد الأمل على طيبة قلبك. أرجوك أن تبلغني عاجلاً، وأخشى من ضياع الرسائل في ألمانيا هذه الأيام. فكرة ضياع هذه الرسالة تجنني.
عنواني هو نفسه (. . .)

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

قرأتُ الرسالة من جديد وشعرت بالخجل. لا تلمني، يا ميخائيل نيكيفوروفيتش.

150. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 9 أكتوبر 1870

العزيز المحترم أبولون نيكولايفيتش. لم أجب حتى الآن على رسالتك التي أفرحتني وأدهشتني، لأنني كنت مشغولاً بعمل استطال وأردت أن أنجزه مهما كلف الأمر[1]. حتى أنني لم أجب على ثلاث رسائل تكدست، ولم أقرأ شيئاً طوال هذه الفترة، ما عدا الصحف طبعاً. هذا العمل الذي تأخرت فيه إنما هو بداية رواية «للبشير الروسي»، وسأظل أشتغل عليها ليل نهار ستة أشهر أخرى في أقل تقدير. ولذا فقد مللت منها قبل الأوان. وفيها بالطبع شيء يدفعني إلى كتابتها، إلا أنني عموماً لا أرى في الدنيا شيئاً أمقته أكثر من العمل الأدبي، بمعنى كتابة القصص والروايات حصراً. فإلى أية حالة وصلتُ؟ وفيما يخص فكرة الرواية فلا جدوى من توضيحها، ذلك لأن الحديث الجيد عنها في رسالة غير ممكن. هذا أولاً، وثانياً- جزاؤك يكفي إذا فكرتَ في قراءة الرواية عندما تنشر. فما الداعي لتكرار العقوبة؟

أنت تكتب لي كثيراً عن (القديس) نيكولاي تشودوتفورسكي

(صانع المعجزات). فهو لن يتخلى عنا، لأنه هو روح روسيا ورمز وحدتها. نحن وإياك، يا أبولون نيكولايفيتش، لم نعد من الصبية. نحن نعرف مثلاً الواقع التالي: عندما تحيق بروسيا مصيبة، بل وحتى مجرد مشاغل روسية كبرى، نرى أن الجزء غير الروسي من روسيا، أي الموظف الليبرالي أو الطالب في بطرسبورغ يتحولان إلى روسيين ويشعران أنهما من الروس، مع أنهما يخجلان من الاعتراف بذلك. ذات مرة، في الشتاء، قرأت في «الصوت» اعترافاً خطيراً في الافتتاحية «بأننا، كما تزعم الجريدة، فرحنا لانتصارات سلاح الحلفاء ولهزيمتنا في حرب القرم». كلا، ليبراليتي لم تصل إلى هذا الحد. كنت آنذاك لا أزال في الأشغال الشاقة ولم أفرح لانتصارات الحلفاء، بل شعرت، مع سائر زملائي التعساء وصغار الجنود، بأنني روسي، وتمنيت الانتصار للسلاح الروسي مع أنني كنت لا أزال متأثراً آنذاك بخميرة الليبرالية الروسية الجرباء التي روَّج لها خنافس المزابل من أمثال بيلينسكي ومن لفّ لفّه. لكنني لم أعتبر نفسي نهلستياً عدمياً، بل كنت أشعر بأنني روسي تماماً. صحيح أن الوقائع بينت لي أن المرض الذي استولى على الروس المتحضرين كان أشد مما نتصور وأن المسألة لم تنته بأمثال بيلينسكي وكرايفسكي وسواهم. وقد حصل آنذاك ما يشهد به إنجيل لوقا من أن الإنسان كان ممسوساً ومسكوناً بالشياطين (لوقا 8: 33 فخرجت الشياطين من الإنسان ودخلت في الخنازير فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحيرة واختنق. 8: 34 فلما رأى الرعاة ما كان هربوا وذهبوا وأخبروا في المدينة وفي الضياع. 8: 35 فخرجوا ليروا ما جرى وجاءوا إلى يسوع فوجدوا الإنسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه لابساً وعاقلاً جالساً عند قدمي يسوع فخافوا)[2]. مثل هذا بالضبط حصل عندنا. خرجت

الشياطين من الإنسان الروسي ودخلت في قطيع الخنازير، أي في أمثال نيتشايف وسيرنو- سولوفيوفيتش وغيرهما. وقد اختنقوا أو سيختنقون بالتأكيد، أما الممسوس الذي خرجت منه الشياطين ونجا فقد جلس عند قدمي يسوع. هذا ما يجب أن يكون. روسيا تقيأت هذه الحثالة التي أطعموها بها. وبالطبع لم يبق لدى هؤلاء الأنذال الذين تقيأتهم ولا ذرة مما هو روسي. لاحظ، يا صديقي العزيز، أن من يضيع قومه وقوميته يضيع إيمانه بالوطن وباللّه. هذا هو بالتحديد موضوع روايتي وعنوانها «الشياطين»، وهي توصيف لكيفية دخول هذه الشياطين إلى قطيع الخنازير. ولا ريب أنني سأكتب بشكل رديء. ولأنني شاعر أكثر مما أنا فنان فقد تعودت دوماً أن أتناول موضوعات أكبر من طاقتي. ولذا أفسدها أغلب الظن. الموضوع قوي جداً. وطالما أن أحداً من جميع النقاد الذين حكموا عليّ لم ينكر وجود شيء من الموهبة عندي فستكون في هذه الرواية المطولة أيضاً مواضع لا بأس بها، على الأرجح. هذا كل ما أردت أن أقوله.

يبدو أن لديكم في بطرسبورغ كثيراً من الأذكياء الذين استفظعوا تحول الأراذل إلى خنازير، لكنهم لا يزالون يحلمون بطيبات أزمان بيلينسكي الليبرالية الغامضة ويتمنون عودة التنوير الذي كان. هذه الفكرة يمكن أن نلاحظها حتى عند القوميين المستجدين وغيرهم. المتقدمون في السن من أمثال بليشييف وبافل آنينكوف وتورغينيف لا يستسلمون، وهناك مجلات كبيرة، مثل «بشير أوروبا» تتمسك بهذا الاتجاه (...). كلا، سيطول الانتظار لحين اجتثاث هكذا اتجاه. ولذا يتعيَّن علينا، كما أظن، أن لا نخشى شيئاً، حتى الهزات السياسية الخارجية، مثل الحرب الأوروبية دفاعاً عن السلافيين، رغم ما في ذلك من خوف رهيب. فنحن وحدنا، بينما هم يد واحدة.

الملابسات تمهلنا عامين أو ثلاثة من السلام الأكيد، فهل سنفهم وضعنا؟ هل سنتهيأ؟ هل سنمد السكك ونشيد القلاع؟ هل سنصنع على الأقل مليون قطعة أخرى من السلاح؟ هل سنثبت أقداماً راسخة في أطراف (الإمبراطورية الروسية)؟ هل سيعمدون عندنا إلى إصلاح ضريبة الأنفس والتجنيد الإلزامي؟ هذا هو المطلوب، أما ما تبقى، أي المعنويات الروسية ووحدة الكلمة، فهو موجود وسيتوفر بالقوة والكمال والقدسية التي نعجز نحن، وليس الأجانب فقط، عن إدراك عمقها. وأعتقد أن تسعة أعشار هذه القوة تكمن في أن الأجانب لا ولن يفهموا كامل عمق وحدتنا ومدى قوّتها. يا لذكائهم! منذ ثلاث سنوات أنكبّ على قراءة كل الصحف السياسية الرئيسية، أقصد معظمها، فما أكثر مهارتهم في فهم عملهم، وكيف يتوقعون ما سيأتي. هذه المهارة تضع أحياناً النقاط على الحروف. ولا مجال للمقارنة بين تلك الصحف وبين جرائدنا التي تحاكي التفاهات، ربما ما عدا «الوقائع الموسكوبية». وماذا بعد ذلك كله؟ حالما يتطرق الموضوع إلى روسيا تهذر تلك الصحف بما لم ينزل اللّه به من سلطان، وكأن رجلاً محموماً يهذي في الظلام. . يخيل إليَّ أنهم في أوروبا يعرفون عن نجم الشعرى أكثر مما يعرفون عن روسيا. وهذا ما يشكل قوتنا لحين من الوقت. ولعل القوة الثانية هي إيماننا بهويتنا وبقدسية رسالتنا. رسالة روسيا تتلخص كاملة في الأرثوذكسية، في النور المنبعث من الشرق والذي سينساب إلى البشرية التي أصابها العمى في الغرب، فضيعت (السيد) المسيح. كل مصائب أوروبا حصلت من دون استثناء لأنها فقدت المسيح مع كنيسة الروم، ثم تصورت أنها تستطيع أن تستغني عنه. تصور، يا عزيزي، أنني لم أصادف حتى عند كبار الروس من أمثال مؤلف «روسيا وأوروبا» هذه

الفكرة بشأن روسيا، أي بشأن الرسالة الأرثوذكسية الاستثنائية لروسيا تجاه البشرية. وما دام الأمر كذلك فمن المبكر، فعلاً، مطالبتنا بأن نعتمد على أنفسنا.

يبدو أنني توغلت كثيراً في مجاهل الغاب وأنا أحبّر الصفحة الرابعة. إنني أعيش كيفما اتفق، وأحاول أن أعمل، فقد تأخرت كثيراً، وفي كل مكان أقصر في الإيفاء بوعودي، فأسبب لنفسي ألماً. وحتى آنّا غريغوريفنا تعاني من الاكتئاب، ولا أدري ماذا عليَّ أن أفعل. ينبغي أن نعود في الربيع، ولا مال لدينا، لا أعني المال لتسديد الديون، بل لمجرد الصرف على نفقات العودة. وليس لي هنا معارف كثيرون، بينما الروس في درزدن جمهور غفير كالإنجليز. كلهم حثالات إذا أردنا الحقيقة عموماً... يا إلهي ما أحقرهم. وما الغرض من تجوالهم؟

ابنتي في صحة جيدة، مكتنزة، ولم تعد معتمدة على الرضاعة. بدأت تفهم الكثير وتحاول أن تتكلم. لكنها طفلة عصبية جداً، ولذا أخشى عليها رغم صحتها. يا صديقي المحترم كيف تكتب لي نبأ زفاف بافل دون أن تذكر أية تفاصيل؟ أخبِرني، لوجه المسيح، إذا كنت تعرف شيئاً. أنا لم أستلم أي خبر منه. وهو عزيز عليّ. بديهي أن من المضحك أن يكون لي من هنا، بعد ثلاثة أعوام من الفراق، تأثير في قراراته. ومع ذلك أشعر بالحزن. ميشا، ابن أخي، تزوج قبل بافل، لكنه فتى ذكي قوي الشكيمة، خلافاً لبافل فيما يخص الطباع أو التحمل مهما كان ضئيلاً.

إذا كتبت لي فلن أنكر فضلك. زوجتي تحييك ولوبا تقبِّل يدك. إلى اللقاء، أتمنى لك موفور الصحة والهناء.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود إنجاز نص النصف الأول من الجزء الأول من «الشياطين».

(2) هذا المقتطف من الإنجيل يتصدر «الشياطين»، والحبكة في الرواية مبنية عليه.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

151. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 9 أكتوبر 1870

استلمتُ رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، قبل ثلاثة أسابيع ولم أرد عليها حتى الآن. أكيد أنك تظن بي الظنون، في حين أن رسالتك عزيزة عليّ، أقول من دون مجاملة إنني سررت كثيراً لأنك رغبت أن تستأنف المراسلات معي. إنني الآن أقدر الناس أكثر مما في أي وقت مضى وأنا في عزلتي المقيتة. أمل العودة إلى بطرسبورغ في الخريف لم يتحقق، فلم يكن لدي المال الكافي، واضطررت إلى التأجيل من جديد حتى الربيع لأقضي شتاءً مملاً آخر في درزدن.

لم أجب على رسالتك حتى الآن، لأنني عكفت على كتابة الرواية «للبشير الروسي» طول الوقت. ولم أكن موفقاً في الأداء، فأعدت الصياغة مرات حتى عاهدت نفسي بأن لا أقرأ ولا أكتب أي شيء، بل ولا أتطلع إلى ما حواليّ، ما لم أنجز ما صممت عليه. علماً بأن تلك هي بداية البداية: صحيح أنني كتبت صفحات كثيرة من منتصف الرواية وشطبت الكثير، ليس بالكامل طبعاً. ومع ذلك لا أزال أعمل على البداية. ذلك مؤشر سيئ. لكنني أريد أن أحقق الأفضل. يقول

البعض إن لهجة وأسلوب الفنان ينبغي أن يظهرا تلقائياً. هذا صحيح، ولكن الكاتب يتيه بينهما أحياناً ويبدأ بالبحث عنهما. باختصار لم يكلفني أي كتاب مثل هذا الجهد الكبير. في البداية، أواخر العام الماضي، كنت أنظر إلى هذه الرواية نظرة متعالية باعتبارها مختمرة ومنتهية. وفيما بعد زارني الإلهام الحقيقي، فأحببتها على غير المتوقع وتشبثت بها بكلتا يديّ. فأخذت أشطب المكتوب منها. ثم حصل في الصيف تبدل آخر، فظهرت شخصية جديدة تطمح إلى تولي دور البطل الرئيسي للرواية، وانسحب البطل السابق إلى مرتبة ثانوية، وهو شخصية تستحق الاهتمام فقط ولا تستحق توصيف البطل. ووقعت في أسر البطل الجديد لدرجة جعلتني أعيد ترتيب الأوراق مجدداً. والآن، حيث أرسلت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» بداية البداية ارتعبت فجأة متصوراً أن الموضوع الذي اخترته أكبر من قابلياتي. أنا خائف حقاً وعلى نحو مؤلم. بينما جئت بالبطل ليس من لا شيء. سجلت سلفاً دوره كاملاً في برنامج الرواية. هذا البرنامج يشغل عدة ملازم طباعية. سجلت دوره بصيغة مشاهد، أي أحداث، وليس تأملات ومحاججات. ولذا أعتقد أنه ستظهر شخصية، وربما شخصية جديدة. آمل في ذلك، لكنني أخشاه. فقد حان الوقت لكتابة شيء ما جدي. وقد أنفجر (قبل ذلك). ومهما يكن من أمر لا بد من الكتابة، لأنني ضيعت وقتاً كثيراً جداً في هذه التغييرات والتعديلات ولم أكتب إلا القليل.

والآن فلنتحدث عن المجلة. قد لا تتصور، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، مدى أسفي للحنث بوعدي «للفجر». لكنني مسرور لأنني كدت أجن ولم أجن. فلم أكن أتوقع فترات التوقف وذلك الانعطاف في عملي.

وما لم أنجز عملاً في البداية لا أستطيع أن أفعل شيئاً لعمل آخر. روايتي في «الفجر» ستنشر في العام القادم، في نهاية السنة، وفي الفاصل الزمني للاستراحة آنذاك أعود إلى بطرسبورغ. فيما يخص القصة الطويلة لا أدري هل سأكون قادراً على الإيفاء بهذا الوعد أيضاً. قبل شهرين عندما تعهدت بذلك كانت أوضاعي تختلف. أنا أؤكد أن كل عواطفي وطموحاتي متجهة نحو «الفجر». وإذا كنت أستطيع أن أخدمها قيد أنملة فسأعتبر نفسي سعيداً. انتظروني قبل أن تصدروا الحكم النهائي عليّ، وحتى ذلك الحين ارأفوا بحالي.

قرأت رسالتك بكل ارتياح. وأعجبني فيها بعض التغيير الذي طرأ على رأيك بشأن أعمالك. أقول لك وأنبهك إنك يجب لزاماً أن تبحث عن مريدين متحمسين، وليكونوا بعدد كبير. ذلك لأنك، على الأقل، تدعو إلى الحقيقة. أنا أنتظر بفارغ الصبر سلسلة مقالاتك للموسم الحالي. فكلمة الحق يجب أن تعلو بهذه الصورة أو تلك (...) قرأت في العدد الأخير من «الفجر» مقالتك عن بولونسكي، وتصفحت الباقي، فلا وقت لي. ويخيل إليَّ أن العدد رائع الترتيب (...)

كيف صحتك؟ أما أنا فليس في صحتي ما أتباهى به. وفي ذلك أذى كبير. بالنسبة لي يحل الآن فصل الشتاء والعمل خلاله ليل نهار.

أريد أن أنهي كل شيء مع مجيء الربيع. ذلك هو الأسلوب الوحيد الممكن للعمل، بمعنى من دون راحة وإلا قد لا يتسع الوقت لإنجازه. أنا أعيش في ملل رتيب وبانتظام. أتمشى يومياً وأطالع عدة جرائد بينها جريدتان روسيتان. كل الأحداث المثيرة الراهنة سيكون لها، باعتقادي، تأثير مباشر وسريع على حياتنا الروسية، وعلى الأدب بالتالي. الأوقات الحالية غير عادية، ولا أظن أن الأدب خسر من حيث نفوذه وأهميته (...)

حبذا لو أجبتني، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش. وسأكون سعيداً. كما أنني أعدك بالكتابة بانتظام.

المخلص فيودور دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

152. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 2 ديسمبر 1870

اعذرني أنت أيضاً، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، لأني لم أرد على رسالتك في الحال. مشاغلي وهمومي فوق طاقتي. أنت تكتب لي عن مقالتك بخصوص روايتي[1] الموعودة إلى «الفجر». كنت من زمان أنتظر سؤالك بخوف. وبماذا يمكنني أن أجيب؟ في الحال الحاضر أنا خنقت نفسي تقريباً. التزامي «للبشير الروسي» كان ديناً في عنقي بالمعنى الحرفي للكلمة. فقد بقيت مديناً للمجلة بمبلغ كبير. لم يزعجوني، بل تصرفوا معي بمنتهى اللياقة والشهامة والأدب. وأقول بكل دقة إن القصة الطويلة[2]، الرواية على الأصح، التي فكرت في تأليفها «للبشير الروسي» بدأت في نهاية العام المنصرم، 69. وكنت آمل في إنهائها مع مطلع شهر يوليو، مع أنها تضخمت وتجاوزت 15 ملزمة.

كنت واثقاً بأن الوقت يكفيني للكتابة «للفجر» أيضاً. فماذا حصل؟ طول السنة كنت أمزق ما أكتب وأعيد الكتابة. حبّرت أكواماً من الورق حتى فقدت نظام الاسترشاد في التسجيلات. غيرت

المخطط كله ما لا يقل عن عشر مرات وكتبت الجزء الأول كله من جديد. واستولى عليَّ اليأس والإحباط قبل شهرين أو ثلاثة. ثم ترتب كل شيء دفعة واحدة، ولن يتغير، ولكن الحجم كان سيبلغ 30 أو 35 ملزمة. ولو كان هنالك وقت للكتابة بلا استعجال، من دون التفات إلى الموعد، لجاءت الثمرة جيدة. إلا أن ما سيحصل على الأرجح هو الإسهاب واستطالة أجزاء على حساب أجزاء أخرى. المكتوب من الرواية يقرب من 10 ملازم أرسلت منها إلى المجلة 5، والـ 5 الأخرى سأرسلها بعد أسبوعين، ثم سأعمل يومياً كالحصان إلى أن أنتهي. هذا هو وضعي، فكيف أرد عليك في هذه اللحظة بالإيجاب؟ صدقني بأن كل ما كتبته لك هو عين الحقيقة حتى آخر كلمة. فما كنت أعلم مسبقاً أنني سأتعذب عاماً كاملاً في معالجة خطة الرواية. أتعذب بكل معنى الكلمة.

ثم لو أنني تركت الرواية وبدأت بكتابة أخرى لأجل «الفجر» كي أفي بالوعد الذي قطعته لها في الصيف فهل كنت سأستطيع القيام بذلك بدنياً؟ ألا توافقني؟ ما كان بوسعي أبداً أن أترك العمل الحالي لأنني تعذبت في التنفيذ. أنا أناشدك، أناشد فهمك الدقيق لأتعاب الكاتب وأتساءل: هل كنت سأستطيع أن أترك؟

إذن، سأكتب، لكنني لا أعرف المستقبل. الشيء الوحيد الذي أعرفه أن النصف الثاني من الرواية سيكون أسهل عليَّ بما لا يقاس من النصف الأول. وإذا انتهيت في الصيف، وهذا أكيد، سأنشر في «الفجر» أواخر العام إما قصة طويلة أو بداية رواية، بمعنى أن تلك البداية تشكل بحد ذاتها رواية. تريد مني العنوان؟ لا أستطيع الآن. والمشكلة أن القصص الطويلة المختمرة والمسجلة جيداً عندي قرابة الست. ولكل منها خاصيتها التي تشجعني على البدء بها بحماس.

ولو كنت حراً متفرغاً لا أحتاج إلى النقود في كل ساعة لما كتبت ولا واحدة من تلك القصص الست، ولعكفت على تأليف الرواية التي أنا مدين بها. الرواية المرتقبة هذه تعذبني منذ ثلاثة أعوام، لكنني لا أشرع بها لأنني أريد أن أؤلفها ليس لموعد محدد، بل كما يكتب مؤلفون مثل تولستوي وتورغينيف وغونتشاروف، لتكون إحدى رواياتي على الأقل حرة طليقة غير مقيدة بموعد مفروض عليّ. أنا أعتبر هذه الرواية كلمتي الأخيرة في سلّم الأدب الذي أرتقيه. وسأكتبها في غضون عدة سنوات على الأقل. وعنوانها «الخاطئ»، وهي بالطبع تتوزع على عدة قصص طويلة. ولكني لا أدري هل أستطيع البدء بكتابتها هذا العام حتى إذا أنجزت ما «للبشير الروسي» في يوليو؟ المشكلة كلها في الوقت. ولا أستطيع الآن تقديم عنوان رواية «البشير». نتفق على كل شيء عندما نلتقي شخصياً في أواخر أبريل أو في مايو من العام القادم. كان بالإمكان أن أتواجد في بطرسبورغ في الخريف لو لم أتأخر في كتابة الرواية، وبالتالي في الحصول على النقود. أما الآن، في ديسمبر، فليس بالإمكان نقل الطفلة، ولذا سأبقى هنا حتى الربيع. ولكي أنهي الرواية في الحال الحاضر لا بد لهيئة التحرير أن تتقبل مني العمل من دون عنوان، فيما أعدها بالإيفاء بوعدي مهما كلف الأمر. وأعترف لك أن العمل صعب عليّ، وقد بدأ الصداع الشديد يداهمني وأنا أخشى ما أخشاه بهذا الخصوص. لقد عذبتني رواية «البشير الروسي» طوال العام.

كتبت لي عن بيسيمسكي وكلوشنيكوف (مؤلف رواية «الغجر»). الأول سيكتب على أية حال شيئاً فيه إثارة. وتقول إن هذين الاسمين لن يجلبا الانتباه. فاكتبْ أنكم في العام القادم ستنشرون حتماً للمؤلفين التالية أسماؤهم، واذكر الجميع، بمن فيهم تولستوي

وكوخانوفسكايا وبيسيمسكي وكلوشنيكوف وتشايف وأنا وآخرون، وستكون النتيجة لا بأس بها. فأية مجلة تستطيع أن تعد قراءها بأكثر من ذلك في مجال الأدب النثري؟

اتجاه «الفجر» يمكن أن يجلب الانتباه في العام القادم، نظراً للوضع السياسي في أوروبا[3]. على أية حال لن تمر السنوات القريبة القادمة، على ما أظن، من دون البدء بحل مسألة السلاف الشرقيين[4]. وحتى لو لم يتحقق اكتتاب جيد للمشتركين في «الفجر» للعام القادم فلا يجوز لمجلة بمثل هذا الاتجاه أن تنساق لليأس والقنوط. فالمستقبل لها دون ريب، بل وفي وقت قريب. ذلك لأن المستقبل لهذا الاتجاه، فيما سيختفي العدميون رفاتاً منثوراً. كل القضية في تنفيذ المهمة.

أنت تسألني رأيي في الأعداد الأخيرة. لا أستطيع أن أبديه على الماشي. ولو التقينا لتحدثنا طويلاً في هذا الموضوع على ما أظن. فما أشد رغبتي في الإعراب عما في نفسي. «الفجر» عزيزة عليّ. فهي الوحيدة من بين جميع المجلات تقريباً تلتزم الآراء نفسها التي أقدرها أكثر من حياتي والتي لها المستقبل في اعتقادي. وفيما يخص الأداء الحالي أعتقد أنها ليست كما يرام تماماً، ما عدا مقالاتك التي أستمتع بها كثيراً. على أية حال هذا موضوع طويل. (. . .).

ما لا يعجبني في مقالاتك هو فقط أنك نادراً ما تنشرها (. . .) أنا أميل كثيراً إلى مقالتك عن كارامزين لأن فتوتي كانت مثله تقريباً، وقد تربيت على كتاباته. قرأت المقالة متحمساً، كما أعجبتني لهجتها. ويخيل إليَّ أنك لأول مرة تعبّر بهذه الحدة عما كنت صامتاً بشأنه. الحدة تعجبني. فإلى المزيد من الجرأة والاعتداد بالنفس. ولن أدهش إذا كانت هذه المقالة ستخلق لك أعداءً. «الملك لير» لتورغينيف لم

تعجبني إطلاقاً. إنها نتاج مزوق فارغ. ولهجتها متدنية. آه من هؤلاء الكتاب الإقطاعيين. أقول ذلك، واللّه العظيم، ليس بدافع من الحسد (...)

الجميع تركوني إن لم يكن قد نسوني. كيف حال أبولون نيكولايفيتش مايكوف؟

كثير من الروس تجمهروا هنا. التقوا هذا الأسبوع بمبادرة منهم، لمناسبة (فسخ معاهدة صلح باريس 1856 الجائرة) في 19 أكتوبر (من العام الحالي) وبعثوا رسالة تهنئة إلى المستشار (وزير الخارجية) الروسي. أنا كتبت لهم نص التهنئة.

إلى اللقاء، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، لا تنسني، ولا تشك في مشاعري الصادقة تجاهك. ألن نلتقي في القريب العاجل؟ ما أشد رغبتي في العودة إلى روسيا. آنّا غريغوريفنا مهووسة بالحنين إلى روسيا، وتبعث إليك تحياتها. إلى اللقاء، يا عزيزي نيكولاي نيكولايفيتش.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود فكرة رواية «الخاطئ».

(2) الكلام عن رواية «الشياطين».

(3) الحرب البروسية الفرنسية.

(4) فيما بعد كتب دوستويفسكي كثيراً عن هذه المسألة في مجلته «يوميات الكاتب»

153. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 10 فبراير 1871

نيكولاي نيكولايفيتش الموقر الكريم. أتوجه إلى فهمك الطيب الشفاف، والصحيح على الدوام تقريباً، للناس وللأشياء وأرجوك أن تنظر إليّ بعين الطيبة ذاتها كيلا أبقى في حيرة من أمري وعدم ارتياح.

في عدد أكتوبر أو نوفمبر، ولربما في عدد ديسمبر، من مجلة «الفجر» للعام الماضي مقالتان للسيد قسطنطينوف[1]، يؤكد في إحداهما أن مجلة «الوقت» وغيرها من المجلات ذات الاتجاه المعروف لم تحقق نجاحاً كبيراً. وأنا أؤكد أن عدد المشتركين في «الوقت» للسنة الأولى تجاوز 2500 مشترك، وفي العام الثالث الذي مُنعت فيه المجلة بلغ عدد مشتركيها 4500.

أعداد المجلة موجودة حتى الآن. وشهود العيان موجودون. حتى بازونوف يمكن أن يشهد. فلماذا يصار، مثلما يفعل السيد قسطنطينوف، إلى التهجم وتزوير الحقائق؟ إنه لا يعبأ بالوقائع، فهو بحاجة إلى هذا التزوير، ولذا يؤكد على ما لا يعرفه ويعتبره من الحقائق الثابتة. وأعترف لك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، أنني

انزعجت وتألمت عندما رأيت ذلك في «الفجر» بالذات. ليس ما أقوله من قبيل الغرور والاعتداد بالنفس. فعندما نشر بيسيمسكي قبل ثلاث سنوات في روايته في «الفجر» عدة عبارات تنمّ عن الاشمئزاز مني كأديب[2] اكتفيت بأن ضحكت لطباع بيسيمسكي ونفاد صبره، ولم أذنّب المجلة التي رغبت في نشر قصتي وأبلغتني برغبتها تلك وأعلنتها للجمهور، لكنها بدلاً من أن تنشر إعلاناً أو إشارة عن القصة أفردت مكاناً لبصاق كاتب آخر عليّ. أما الآن فيحز في نفسي ما حصل. «الوقت» كانت قضيتي بقدر ما كانت قضية أخي. كلانا كنا نحررها. وقد حققت نجاحاً منقطع النظير. ولم تكن هناك سوى مجلتين حققتا مثل هذا النجاح رأساً، وهما «مكتبة المطالعة» و«المعاصر»[3] في بداياتهما. أنا لا أعتبر اعتزازي بذلك النجاح عيباً أو غروراً. ثم إن الحقيقة المزورة تلحق الضرر بتاريخ الأدب، بمعنى أن لدينا الآن شهادة «الفجر» التي يعمل فيها الكثيرون من منسوبي «الوقت» بأن هذه الأخيرة لم تحقق نجاحاً. ومع أن هذه الواقعة تافهة بالنسبة لتاريخ الصحافة الروسية، لكن البعض قد يحتاجون إليها، على غرار السيد قسطنطينوف الذي احتاج إلى تلك الواقعة ليدلل على رأي من آرائه. (. . .). ويقول هذا السيد في الموضع نفسه إن مقالة «المسألة المصيرية» مكتوبة بفطنة وذكاء، ولكنها مطبوعة بشكل غير لائق. ولكنّ هؤلاء المحررين التعساء الذين لا يتحلون باللياقة حملوا روسيا كلها على قراءة مجلتهم. فكان لمجلة الوقت 4500 مشترك يمثلون روسيا كلها، آنذاك على الأقل. ثم إنك يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم تعرف أفضل من الجميع ملابسات نشر هذه المقالة ولا يزال رأيي على حاله حتى اليوم: عدم اللياقة لم يكن في نشر المقالة، بل في تبليغ (الأمن) عنها من قبل أولئك الذين لم يقرأوها بكاملها رأساً،

بل أكملوا قراءتها فيما بعد[4]. ويبدو أن السيد قسطنطينوف على علم بأنك تعرف كل ملابسات هذه القضية وأنك من المنسوبين الرئيسيين في «الفجر». فهو يعتبر المقالة ذكية، بينما ينهال بالشتائم على المتضررين العزل (الذين لا يستطيعون أن يدللوا علناً بأن المقالة مكتوبة بلياقة).

كان يعرف تماماً أن الآخرين (وأنا منهم) عاجزون عن الرد عليه. يا لها من شطارة.

فمن هو هذا المهاجم الذي وجد لدى «الفجر» حسن الضيافة؟ حسن الضيافة تعدى الحدود بالفعل. ففي مقالته نقرأ أن بلوخر هزم نابليون في واترلو، بينما بلوخر لم يكن هناك. في حين نشرت «الفجر» ذلك كله من دون استدراك أو تعديل. فما أعظم حسن الضيافة. لا مؤاخذه، يا نيكولاي نيكولايفيتش، على أنيني. فذلك كله يخصني. أعترف. كان ينبغي عليَّ أن أفوت تلك التفاهات بلاأبالية لأنها تفاهات، إلا أن الألم يحز في النفس ولا يريد أن يفارقها. لا أدري هل أن ذلك من الغرور أو ضعف العزيمة، ولكن يؤلمني جداً أن أقرأ بأن نشاطي السابق كصحفي والذي اجتذبت أخي إليه لا أكثر من تفاهات فاشلة بعيدة عن اللياقة.

أردت أن أكتب لك عن ذلك من زمان، منذ أن قرأت المقالة، لكنني كنت مشغولاً جداً. والآن أعكف مجدداً على التأليف، وليس لدي وقت للقراءة تقريباً. ويؤسفني جداً أنني لم أتمكن من قراءة مقالتك عن الأدب الروسي في «الفجر». فقد شطبت هيئة التحرير اسمي من قائمة المشتركين في المجلة لهذا العام ولم ترسل لي العدد. وأنت لا تعرف طبعاً أنني أستلم العدد ليس كهدية، بل على سبيل الاقتراض لحين إجراء الحسابات النهائية لكتاباتي مع هيئة التحرير، ما

يعني أنني كنت مشتركاً في المجلة. ولا أفهم سبب حذف اسمي. وأعتقد أن ثمة توضيحين محتملين لهذه المسالة. إما غياب الثقة بقدرتي على الدفع، لأنني مدين أصلاً بالكثير إلى هيئة التحرير وإما وجود شعور من العداء لدى الهيئة تجاهي لأنني لم أتمكن من الوفاء بوعدي في شأن المقالة[5]. وأعترف بأنني أرفض السبب الثاني (. . .). هيئة تحرير «البشير الروسي» مثلاً أبدت في نهاية عام 69 وبداية عام 70 شيئاً من الكراهية لي لأنني لم أرسل لهم ما وعدتهم به للعام 70 ولم أفِ بوعدي لأنني أرسلت المادة إلى «الفجر». إلا أنهم، ورغم كوني مديناً لهم بـ 2000 روبل، لم يحرموني من مجلتهم، بل واصلوا إرسالها لي بانتظام.

هل يعقل أنهم (في «الفجر») زعلانون مني لهذا الحد؟ بينما يذكرون اسمي في إعلاناتهم في الصحف على أنني من منتسبي المجلة. ذلك يعني «طالما أنا مدين لن أتملص، ولا بد أن أقدم القصة مهما استخفوا بي». هل يعقل أن الأمر كذلك حقاً؟ وإلا فكيف نفسره؟

أكتب هذا لك وحدك، يا نيكولاي نيكولايفيتش، فلعلك تحترمني لدرجة لا تتصور فيها أنني أريد من خلالك أن أستجدي عدد «الفجر» وليس لدي نقود طليقة للاشتراك في المجلة. وأنا أشعر بالخجل من مفاتحة المجلة بهذا الخصوص، ما يعني أنني سأبقى من دونها حتى الصيف. كل شيء يكلفني أغلى من الآخرين. يا إلهي، كيف يتصرف باقي الأدباء مع رؤساء التحرير؟ يفعلون ذلك عمداً وليس لأن الفاقة تسوطهم أو تضرب أعلى ظهورهم بالفأس، يفعلون هكذا ولا أحد يعترض. والمثال على ذلك تعامل تورغينيف[6] مع كاتكوف أثناء نشر «الآباء والبنون»، ولم يكن دافعه العوز والحاجة، بل الجشع.

أرجو المعذرة مجدداً على هذه الرسالة. فما أبشع الشكاوى والمهاترات. بينما أبعث لك هذه المهاترات بدلاً من الرسالة المألوفة، فلا تزعل. أو الأفضل أن تلومني في البداية ثم تقول مع نفسك: «إنه هو أيضاً على حق بعض الشيء».

كيف صحتك؟ عسى أن تكون بخير؟ حبّر لي شيئاً في وقت ما. فهل يعقل أنك أنت أيضاً زعلان مني لهذا الحد؟

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) الاسم المستعار للكاتب قسطنطين ليونتيف (1831 - 1891).

(2) ورد على لسان بطل رواية بيسيمسكي «أهالي الأربعينات» المنشورة في «الفجر» 1869 قوله عن دوستويفسكي: «كاتب موهوب، لكنه ممل».

(3) أسَّسها بوشكين عام 1836.

(4) المقصود كاتكوف والعاملون في مجلته.

(5) يرى الباحثون أن الأصح «قصة» وليس «مقالة».

(6) استلم إيفان تورغينيف من مجلة «البشير الروسي» 400 روبل للملزمة الواحدة من روايته «الآباء والبنون» (ترجمها إلى العربية أكرم فاضل وذو النون أيوب عن الفرنسية والإنجليزية في بداية الخمسينات، وخيري الضامن عن الروسية في السبعينات).

154. إلى أبولون مايكوف

درزدن، 2 مارس 1871

الصديق العزيز المحترم أبولون نيكولايفيتش. أبدأ بقضيتنا التي لا تنتهي.

قررت أن أنهيها، أي البدء بإقامة دعوى في المحكمة. فقد كسب البعض دعاوى أصعب. أما حقي بموجب العقد فلا جدال فيه. باختصار، هذا ما أرغب فيه وما عزمت عليه من دون رجعة: ما دامت إقامة الدعوى مسألة مرهقة فلا أستطيع أن ألقيها على كاهلك، ثم إنك لست محامياً، فأرجوك كل الرجاء أن تحيل الوكالة التي خولتك بها إلى أحد المحامين المعروفين (. . .) مهما كلف الأمر، ليبدأ المحامي فوراً إقامة دعوى رسمية قانونية على ستيلوفسكي بشأن ضرورة تسليم النقود[1] (بالإضافة إلى تعويض الأضرار المعنوية) (. . .)

يتلخص طلبي، إذن، في ما يلي: (1. توكيل محام جيد مهما بلغت التكاليف، 2. إطلاع المحامي على رسائلي إليك ليرى وجهة نظري في الموضوع، 3. القيام بآخر محاولة مع ستيلوفسكي بتوجيه رسالة مقتضبة إليه قبل إقامة الدعوى، فلعله يرعوي ويدفع المبلغ).[2]

استحسانك للبداية في روايتي[3] أعجبني كثيراً. فما كان أشد خوفي، ولا يزال، مما ستقوله بعد أن تقرأ النصف الثاني من الجزء الأول في عدد فبراير من «البشير الروسي» على الأرجح. ماذا ستقول؟ أنا في خوف شديد، نعم، في توجس وخوف شديد[4]. وفيما يخص الباقي أنا في يأس وقنوط، فهل سأنجح؟ عموماً ستكون الرواية من أربعة[5] أجزاء في 40 ملزمة. ستيبان تروفيموفيتش شخصية ثانوية، الرواية ليست عنه إطلاقاً. إلا أن قصته ذات ارتباط وثيق بباقي الأحداث الرئيسية، ولذا اتخذت منه حجر الزاوية، إن صح التعبير، في أساس الرواية. ومع ذلك سيأتي حفل تكريم ستيبان تروفيموفيتش في الجزء الرابع، حيث نشهد نهاية أصيلة جداً لمصيره. أنا مسؤول عن هذا الموضع خصيصاً، أما باقي المواضع فلا تهمني مسؤوليتها. ولكنني أكرر من جديد: أنا خائف كفأر مرتعب. الفكرة أغوتني، فأحببتها جداً، ولكن المشكلة هل سأدبر أمر الرواية ولا أفسدها؟

تصور أنني استلمت عدة رسائل من مختلف الجهات تهنئني بالجزء الأول منها. وقد سررت لتلك الرسائل أعظم السرور. وأقول صراحة، ومن دون تزلف إليك، إن رأيك أثمن شيء بالنسبة لي.

لأنك، أولاً، لا تتزلف لي، وثانياً لأن تقييمك تضمن عبارة عبقرية «هؤلاء هم أبطال تورغينيف في الشيخوخة». عظيم. أنا نفسي كنت أفكر في شيء من هذا القبيل، لكنك أوجزت المسألة في عبارة واحدة. أشكرك كثيراً على هذه الصياغة. لقد ألقيت الضوء على القضية كلها.

أشعر بضيق شديد في العمل وبتدهور في الصحة، وستحل قريباً جداً فترة نوبات الصرع المتكررة. أخشى أن أتأخر في تسليم الرواية

في الموعد. ولا أريد أن أفسدها بالتسرع. صحيح أن الخطة مدروسة جيداً، إلا أن الاستعجال يمكن أن يفسد كل شيء.

عزمت على العودة في الربيع حتماً. وسنتحدث يومها حتى الشبع. استلمت (مجلة) «الحديث». (. . .). «الفجر» ليست أسوأ من سائر المجلات. وفي اعتقادي أنها أفضل، إلا أن سوء التحرير سيقودها إلى الهلاك. لا أوافقك في رأيك بخصوص ستراخوف، فهو الناقد الوحيد في الحال الحاضر. النقد المتشدد هو اختصاص «الفجر». وبعد حين من الزمن ومع تحسن قسم التحرير ستأخذ المجلة حقها. أما «الحديث» (التي هي من الاتجاه نفسه) فلن تضر «بالفجر» من خلال المنافسة في اعتقادي. إلى اللقاء. أشكرك على مشاعرك الطيبة تجاهي. البراعم تتفتح عندنا في بداية الربيع الحقيقي. إلى اللقاء القريب.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) استحصال أجرة طبع «الجريمة والعقاب» من الناشر ستيلوفسكي

(2) أجاب ستيلوفسكي أنه لا يمتلك مالاً الآن، فتأجلت القضية.

(3) «الشياطين».

(4) أعرب مايكوف عن استحسانه لهذا القسم من الرواية أيضاً وهنأ الكاتب على الإنجاز الجديد.

(5) النص النهائي «للشياطين» من ثلاثة أجزاء.

155. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 18 مارس 1871

في المقام الأول، اعذرني يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، لتأخري الطويل في الرد على رسالتك. كل ذلك بسبب الملابسات. فقد مرضت لبعض الوقت، والأهم هو الاكتئاب الذي استولى عليَّ بعد نوبة الصرع. عندما تتوقف النوبات أمداً طويلاً، ثم تداهمني فجأة تكتنفني كآبة نفسانية بالغة الشدة. لحد اليأس والقنوط. في السابق كان هذا الاكتئاب يستمر قرابة ثلاثة أيام بعد النوبة، بينما هو الآن يستغرق سبعة أو ثمانية أيام، مع أن النوبات نفسها في درزدن أقل مما في أي مكان آخر. والأمر الثاني هو الحزن بسبب العمل، فقد تعسرت الكتابة إلى أقصى حد. ينبغي السفر إلى روسيا مع أنني تعودت على طقس غير طقس بطرسبورغ. إلا أن العودة ضرورية رغم كل شيء. (. . .)

يا ليتك تعلم بما خطر في بالي من تصورات مرهقة وحزينة بعد قراءة رسالتك. فما أغرب الأمر. كل ما كانت «الفجر» تتميز به من أصالة وما أضفى عليها خصوصية متفردة بين سائر المجلات صاروا

يعتبرونه عقبة أمام النجاح. في حين أنها المجلة الروسية الوحيدة التي بقي فيها قسم للنقد الأدبي. ولأن الجميع تخلوا عن النقد بات ضرورياً الآن. وهو الذي منح «الفجر» هويتها. لقد أرعبتهم الأقاويل والتهكم، بينما ينبغي، على العكس، أن تصر المجلة على فكرتها في كل عدد، فيكون المستقبل لها. أنا لا أعرف موقف الآخرين، ولكنني كلما أستلم «الفجر» أستل منها قبل كل شيء مقالاتك وأنتشي بها. اهتمامي بهذه المقالات عظيم، ولو أنني بالطبع لا أوافقك أحياناً في كل شيء، في الأساليب واللهجة والليونة البالغة، بالإضافة إلى المبالغة في بعض ظواهر الأدب والحياة. مقالتك عن كارامزين عميقة وصريحة صراحة الشجعان، حتى أنني سررت لأنه لا يزال يتعالى عندنا صوت جهوري كصوتك. (. . .).

أكرر هنا أنني أنتظر بفارغ الصبر وبانفعال لحظة اللقاء مع الأعزاء السابقين في بطرسبورغ. وإليك رجاء آخر، لا تخبر أحداً بمجيئي القريب إذا حصل. أريد للدائنين أن لا يزعجوني لأسبوع واحد على الأقل بعد وصولي. فأنا أتوقع أن يهرعوا إليّ، وأخشاهم لأنني لا أملك مالاً ما عدا الآمال.

اكتبْ لي شيئاً يا نيكولاي نيكولايفيتش. فأنا وفيٌّ لك وأحترمك وأقول ذلك بصدق وإخلاص. عنواني هنا ذاته من دون تغيير (. . .).

التأليف متعثر، يا نيكولاي نيكولايفيتش، أو أنه يتم بإجهاد كبير. ولا أدري ما السبب. أعتقد أنه حاجتي إلى روسيا. يجب أن أعود مهما كلف الأمر. أشكرك جزيل الشكر لأنك لم تنس الكتابة لي عن روايتي. وقد أفرحتني كثيراً. (. . .) بسبب العودة إلى روسيا سأضطر حتى إلى وقف التأليف مؤقتاً. على أية حال سأنهي الرواية هذا العام[1] (. . .)

أين ستكون في الصيف؟ في المدينة أم في الريف؟ حبذا لو أبلغتني سلفاً. أظن أنني سأصل في منتصف الصيف.

ما أكثر هموم الانتقال. رحلنا في حينه أنا وزوجتي الشابة وحدنا، وأعود مع الزوجة الشابة نفسها وطفلين. البنت عمرها سنة ونصف، والآخر لم يولد بعد[2]. فما أكثر هموم الانتقال.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) أنهى دوستويفسكي «الشياطين» في نوفمبر 1872.

(2) ولد ابن دوستويفسكي، فيودور (فيديا للتحبيب)، واسمه على اسم أبيه، في 16 يوليو 1871.



156. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 23 أبريل 1871

رسالتك، يا نيكولاي نيكولايفيتش المحترم، أثارت عظيم اهتمامي كالعادة، ولكن ما أغرب أخبارها. لا يمكنني أن أتصور أنك انقطعت عن «الفجر» نهائياً. استنتجت ذلك من رسالتك. ثم أنت تقول إنك مسرور لتناول قسط من الراحة، وقد تهيأت للترجمة. كلا، يا نيكولاي نيكولايفيتش، هذا لا يجوز. لا يحق لك أن تترك قضيتك الكبرى، فليس لدينا ناقد غيرك. أنت الناقد الوحيد بالمعنى الحرفي للكلمة. على مدار سنتين كنتُ مسروراً لوجود مجلة تخصصها الرئيسي بين سائر المجلات هو النقد الأدبي. فكيف دمروا ما كان يمثل أصالتهم واستقلاليتهم؟ كنت أتلذذ بمقالاتك، أنا من المعجبين المتحمسين لك، وكلي ثقة بأن لديك غيري كثيراً من المعجبين، وبأنك، على أية حال، يجب أن تواصل. الانسحاب مؤشر على خوَر العزيمة. لا مؤاخذة على هذا التوصيف، ولكنني، نظراً لمعرفتي الطويلة بطباعك الشخصية، على يقين بأنك تتراجع أكثر من اللازم بعد الإخفاق الأول. بيد أن الإخفاق يصادف المرء دوماً وفي أي عمل من

الأعمال. ثم إنك لن تتحمل، ستراتاح وتلهو، كما تقول، لكنك لن تكتفي بالترجمة وستصدر (مقالاتك النقدية) في كراسات[1]. فلماذ لا تلتحق بمجلة «الحديث» الجديدة بدلاً من ذلك لكي تؤمن احتياجاتك المادية؟ وفي اعتقادي أن في هذه المجلة أناساً يمكن أن يقدروا إمكانياتك ويفهموك أكثر مما في «الفجر». (. . .)

في أحد كراساتك وردت فكرة عظيمة غير مسبوقة في الأدب، وهي أن كل كاتب موهوب حقاً إنما يتناول دوماً المشاعر القومية ويغدو في آخر المطاف من دعاة النزعة السلافية. فالشاب اليافع بوشكين، مثلاً، سبق جميع دعاة السلافية، من أمثال كيرييفسكي وخومياكوف، في تدوين أحداث دير المعجزات (دراما بوريس غودونوف) والكشف عن حقيقة أولئك الدعاة وبصورة أعمق كثيراً مما كتبوه. خذ مثلاً هيرتسن. فما أشد حزنه وحاجته إلى سلوك هذا الطريق من دون جدوى، وذلك بسبب الخصال الشخصية السيئة. وحتى هذا قليل، فإن قانون الانعطاف نحو القومية يتجلى ليس فقط عند الشعراء والكتّاب. بل وعند سائر الشخصيات الاجتماعية. ولذا يمكن في الأخير استنباط قانون آخر بأن الشخص إذا كان موهوباً حقاً فإنه سيحاول العودة من الفئة الطائشة الضالة إلى الشعب، أما إذا كان يفتقر إلى الموهبة فيبقى في الفئة الطائشة، بل ويستغلونه هناك فينتقل إلى الكاثوليكية وسواها. الحشرة النتنة بيلينسكي الذي لا يزال يتمتع بالتقدير من جانبك[2] كان موهوباً قليلاً وعاجزاً كثيراً، ولذا لعن روسيا وألحق بها عن سوء قصد ضرراً كبيراً. وسترى أن كلاماً كثيراً سيقال عن بيلينسكي في المستقبل. إلا أن فكرتك هذه قوية لدرجة تقتضي تطويرها خصيصاً. فاكتبْ مقالة في هذا الموضوع وطوِّر الفكرة وانشرها في «الحديث»[3]. ولعلهم هناك سيفرحون بها. وستكون بمثابة نقد أدبي بشكل آخر. ولو نشرت

مقالتين أو ثلاثاً من هذا النوع في السنة أتوقع لك النجاح، ولن ينساك الجمهور، بل سيقول إنك انتقلت إلى الصعيد الذي يفهمك أكثر. «فالحديث» ليست «الفجر». والأهم لماذا تترك الأدب؟

ولكنْ معذرة. لو تحدثنا وجهاً لوجه سنفهم بعضنا بعضاً بشكل أفضل. وللأسف أنني لن أجدك في بطرسبورغ إذا كنت تنوي السفر إلى كييف. فأنا لن أعود إلا في يونيو. هذا ما تمليه عليَّ إمكانياتي المالية. فإلى الخريف، إذن. حبذا لو كتبت لي رسالة موجزة أخرى قبل أن تغادر بطرسبورغ. وإليك ما أقوله عن حكمك الأخير على روايتي (الشياطين): 1. أنت وضعتني في مرتبة عالية بما وجدت من أمور جيدة في الرواية. 2. أشرت بمنتهى الدقة إلى العيب الرئيسي. نعم، كنت ولا أزال أعاني من ذلك. أنا لا أجيد، ولم أتعلم، حتى الآن، التحكم بالوسائل الفنية المتوفرة لدي. يصادف أن تندرج عدة روايات وقصص منفصلة في رواية واحدة على غير المتوقع، فلا تقيد بالمقاييس والأحجام ولا تناسق. لقد ذكرتَ أنت ذلك بكل براعة، فيما أعاني أنا منه على مدار سنين، لأنني أدركته بنفسي. إلا أن ثمة ما هو أسوأ. فأنا نظراً لسوء تقديري لوسائلي الفنية ولشدة ولعي بالحماس الشاعري أحاول أن أعبّر عن فكرة فنية أكبر من طاقتي، وبذلك أقود نفسي إلى الهلاك. ومعروف أن قوة الحماس الشاعري عند فيكتور هيغو أقوى من وسائل الأداء. وحتى عند بوشكين تلاحظ آثار هذه الازدواجية. وأضيف أن الانتقال من مكان إلى آخر والهموم الكثيرة في هذا الصيف تضر كثيراً بالرواية. أشكرك على المشاطرة.

ما أشد أسفي لأننا لن نلتقي في وقت قريب.

ودمتَ للمخلص لك كل الإخلاص

فيودور دوستويفسكي

---

(1) أصدر ستراخوف كراسات ودراسات عن «الحرب والسلام» لتولستوي و«العالم كيان واحد» و«الصراع مع الغرب في أدبنا» و«في نقد إيفان تورغينيف وليف تولستوي» و«ملاحظات عن بوشكين وشعراء آخرين» وغيرها.

(2) في رسالته الجوابية إلى دوستويفسكي دافع ستراخوف عن بيلينسكي.

(3) لم يأخذ ستراخوف بنصيحة دوستويفسكي هذه.



157. إلى نيكولاي ستراخوف

درزدن، 18 مايو 1871

نيكولاي نيكولايفيتش الموقر. بدأتَ رسالتك مباشرة من بيلينسكي، كما كنت أتوقع منك. انظر إلى باريس، إلى الكومونة. فهل يعقل أنك أنت أيضاً من الذين يزعمون أن الفشل ناجم هذه المرة كذلك عن الملابسات وقلة المشاركين وما إلى ذلك؟(. . .) حريق باريس فظيع (وطالما فشلت الكومونة فليهلك العالم كله! الكومونة أسمى من سعادة العالم وسعادة فرنسا). هل يعقل أن الحقائق قليلة ولا تكفي للتدليل بأن المجتمع ينبغي أن يُبنى على نحو آخر، وأن السبل المؤدية إلى السعادة ليست كهذه، وأن السعادة لا تأتي من الجهة التي كانوا يظنونها حتى الآن؟ فمن أين تأتي؟ سيؤلفون الكتب الكثيرة ومع ذلك يفوتون الأمر الرئيسي، ألا وهو أن الغرب ضيع المسيح بسبب الكاثوليكية، وهذا هو السبب الوحيد لسقوط الغرب. من الواضح أن المثال الأعلى تبدل. وما أغرب التوافق بين سقوط سلطة البابا إلى جانب سقوط زعيمة العالم الروماني الجرماني فرنسا وأخواتها.

كل ذلك يتطلب خطباً طويلة عريضة، ولكنّ ما أريد أن أقوله هو الآتي: لو أن بيلينسكي وغرانوفسكي وباقي الزمرة التفتوا الآن لقالوا: «كلا، ليس هذا ما كنا نطمح إليه، هذا انحراف، وسننتظر فترة، فيبزغ النور ويحل التقدم وتعيد البشرية بناء نفسها على أسس سليمة وتتمتع بالسعادة». وما كان بوسعهم أن يوافقوا على سلوك هذا الطريق وصولاً إلى الكومونة (ولا شيء غير الكومونة). لقد كانوا من البلادة بمكان، حتى أنهم لن يوافقوا الآن أيضاً، بعد الأحداث، بل سيفضلون أن يواصلوا الأماني والأحلام. لقد هاجمتُ بيلينسكي بوصفه ظاهرة في الحياة الروسية وليس كشخص من الأشخاص. تلك كانت الظاهرة الأكثر عفونة وبلادة وخزياً. والعذر الوحيد هو حتمية تلك الظاهرة. أؤكد لك أن بيلينسكي كان سيتقبل اليوم الفكرة القائلة «بأن فشل الكومونة سببه كونها فرنسية قبل كل شيء، بمعنى أنها احتفظت بعدوى القومية. ولذا ينبغي البحث عن شعب ليس فيه ذرة من النزعة القومية وهو قادر، مثله، على صفع أمه روسيا على خديها». ويشرع والزبد يسيل من فمه في كتابة مقالاته الكريهة جالباً العار لروسيا ناكراً ظواهرها العظمى، (عبقرية) بوشكين، ليجعل من روسيا نهائياً أمة متفرغة لتزعم القضية الإنسانية المشتركة. ومن شأنه أن يعتبر الجزويتية والأكاذيب عند محرضينا الطليعيين سعادة ما بعدها سعادة. ثم إنك لم تكن تعرفه أبداً قدر معرفتي به. فقد رأيتُه وعرفته والآن أدركت حقيقته تماماً. كان يشتم المسيح أمامي بأقذع الشتائم، بينما هو عاجز عن وضع نفسه وجميع المحرضين والمحركين في العالم كله في كفة تقابل كفة المسيح. ولم يلاحظ كم في نفسه شخصياً وفيهم من الغرور التافه والحقد والتطيّر والانفعال والدناءة، الغرور على وجه الخصوص. وعندما كان يشتم المسيح لم يسأل نفسه

ماذا لدينا مما يمكن أن نضعه محله؟ هل يعقل أن نضع أنفسنا بدلاً من السيد المسيح؟ ذلك يعني أننا من الدناءة والخسة بمكان. كلا، لم يفكر أبداً أنه، هو شخصياً، خسيس. كان راضياً عن نفسه لأقصى حد. وكان ذلك مؤشراً على غباء شخصي شائن نتن. أنت تقول إنه موهوب. كلا أبداً. أعوذ باللّه من الكذب الذي ورد عنه في مقالة غريغوريف الشاعرية. أتذكر دهشتي في شبابي عندما استمعت إلى بعض أحكامه الفنية الصرف عن «النفوس الميتة» مثلاً. كان سطحياً جداً عندما استخف بالنماذج الفنية عند غوغول، وكان مسروراً جداً لقيامه «بفضح» هذا الكاتب. هنا قرأت خلال هذه الأعوام الأربعة مقالاته النقدية: تهجم على بوشكين عندما تخلى الشاعر عن اللهجة الزائفة[1] وظهر بمؤلفيه «قصص بيلكين» و«وصيف القيصر بطرس الأكبر». ولم يجد في قصة غوغول «العربة» وعياً فنياً متكاملاً، بل مجرد تنكيت. وقد رفض خاتمة (ملحمة) «يفغيني أونيغين». وهو أول من طرح فكرة كون بوشكين موظفاً صغيراً في البلاط. وهو الذي قال بعد قراءة قصة تورغينيف القيمة «ثلاث صور نصفية» إن هذا الكاتب لن يكون فناناً. يمكنني أن أورد الكثير جداً من هذه الأمثلة التي تدلل على خطأ حسه الانتقادي وخطل «الحس الرهيف» الذي زعم غريغوريف بوجوده عند بيلينسكي (. . .) نحن لا نزال نحكم على بيلينسكي وعلى العديد من ظواهر حياتنا من خلال كمٍّ هائل من الأوهام الطارئة.

ألم أكتب لك بخصوص مقالتك عن تورغينيف؟ قرأتها، كما أقرأ جميع مقالاتك، بإعجاب كبير، ولكن بشيء من الأسف. إذا كنت ترى أن تورغينيف فقد نقطة الارتكاز وبات يترنح ولا يعرف ماذا يقول عن بعض ظواهر الحياة الروسية، وأنه يسخر منها على أية حال، فلا بد

لك أن تعترف بأن قدرته الفنية العظيمة ضعفت، وكان لا بد أن تضعف، في نتاجاته الأخيرة. وهذا ما حصل بالفعل. لقد أصيب بالهزال كفنّان. تقول «الصوت» إن ذلك يعود إلى إقامته في الخارج. لكن السبب أعمق.

فهل تعترف بتوفر قدرته الفنية السابقة في مؤلفاته الأخيرة؟ هل هذا صحيح؟

على أية حال، ربما أكون مخطئاً، ليس في آرائي وأحكامي عن تورغينيف، بل في شأن مقالتك. ولربما أنك جانبت الدقة في التعبير. الحقيقة أننا أمام أدب إقطاعي. أدب قال كل ما لديه، وبشكل رائع عند ليف تولستوي. إلا أن هذه الكلمة الإقطاعية الصرف كانت الكلمة الأخيرة. ولم يتسع الوقت لظهور كلمة جديدة تحل محلها. أمثال ريشيتنيكوف[2] لم يأتوا بجديد. ومع ذلك يعبّرون، وإنْ بشكل مقرف، عن فكرة ضرورة التجديد في الأدب الفني، على أن لا يبقى أدباً إقطاعياً (محصوراً بنبلاء الريف).[3]

ما أشد رغبتي في أن أجدك في بطرسبورغ. أنا لا أدري متى سأعود. أحلم بالعودة بعد شهر، وليبق ذلك سراً بيننا. وإذا لم تصل النقود وأفوت الموعد فسأضطر إلى البقاء من جديد فترة أطول. إلا أن ذلك شيء فظيع لا معنى له.

الرواية إما أن أفسدها لحد التلوث المعيب، وقد بدأت أفسدها، وإما أقوى عليها وأتمكن منها، فأحصل بالنتيجة على شيء ما جيد. أنا وحظي. هذا هو شعاري الآن. ورجائي أن يبقى كل ذلك سراً بيننا، باللّه عليك.

كم كنت أتمنى أن أراك في بطرسبورغ أول الجميع. لا شك أن تبديل الجو من أهم الضروريات بالنسبة لك. ولكن لا تبق في كييف

إلى الأبد. رسائلك باتت تخيفني فيما يخصك. فأنت من الأشخاص الذين انعكسوا على حياتي بكل قوة. وأنا أحبك بإخلاص وأشاطرك مشاعرك. أنت في حزن واكتئاب، وإلا فلماذا أخذت تتكلم عن الموت؟ يا ليتنا نلتقي. فما أجمل اللقاء.(. . .)

قرأت بكل ارتياح ما ورد في رسالتك عن تورغينيف. هذا الخبيث وفيٌّ لنفسه فقط من الناحية الفنية. أنا أعرفه بكل مساماتي. يمكنني أن أوضح الكثير بهذا الخصوص. لكنني أترك ذلك حتى نلتقي.

المخلص

ف. دوستويفسكي

اكتبْ لي إذا استطعت على العنوان نفسه. زوجتي تبلغك تحياتها.

---

(1) دوستويفسكي يلمّح إلى تأثير بايرون على بوشكين في تلك الفترة.

(2) يقصد دوستويفسكي بأمثال الروائي ريشيتنكوف تحديداً الكاتب الديمقراطي سالتيكوف شيدرين.

(3) في رسالة جوابية اعترض ستراخوف على مصطلح «الأدب الإقطاعي» في ما يخص ليف تولستوي.

158. إلى بربارة أوبولينسكايا

بطرسبورغ، 20 يناير 1872

الآنسة الكريمة الأميرة بربارة دميتريفنا.

تشرفت باستلام رسالتكم المؤرخة في 6 ديسمبر هذا الأسبوع فقط، ذلك لأن العنوان غير صحيح، وإلى ذلك كنت في موسكو شهراً كاملاً، ولذا ظلت رسالتكم تنتظرني على مكتبي في بطرسبورغ كل هذه الفترة. أشكركم جزيل الشكر على اهتمامكم بروايتي («الجريمة والعقاب») وأقدر رفيع التقدير تقييمكم الصادق لها وكذلك ثناءكم الذي يسرني كل السرور. أنا أعيش وأكتب لأبلغ مثل هذا التقييم، في حين أن كل شيء في عالم الأدب عندنا، على العكس، اصطلاحي متكلف ومبطن يحتمل معنيين متناقضين، وبالتالي ممل وذو طابع رسمي، وخصوصاً الثناء والإطراء والتقييمات المتزلفة. بخصوص نيتكم في مسرحة روايتي فأنا بالطبع موافق تماماً، وقد اتخذت لنفسي قاعدة هي عدم رفض أية محاولة من هذا النوع. ولا يسعني من هذه الناحية إلا أن أحيطكم علماً بأن المحاولات التي جرت في هذا المضمار أخفقت[1] على الدوام تقريباً.

ثمة سر فني يمنع الشكل الروائي من تقمص لبوس الشكل الدرامي. وأنا متيقن بأن مختلف أشكال الفن لها ما يطابقها من أصعدة الأفكار الشاعرية، ولذا لا يمكن للفكرة أن تصاغ في شكل آخر لا يناسبها.

ولكنّ الأمر يختلف إذا أمكن تغيير الرواية وإعادة بنائها من خلال الاحتفاظ بمشهد واحد منها تتم مسرحته أو استخدام الفكرة الأساسية مع تغيير الحبكة تماماً. إلا أنني أرجوكم أن لا تعتبروا كلامي هذا نصيحة بعدم مسرحة الرواية. أكرر أنني أشاطركم نواياكم تماماً، علماً بأن رغبتكم في السير بالمسألة حتى النهاية تملأني فخراً... معذرة مرة أخرى لتأخري في الجواب، لكنني مذنب من دون ذنب.

عنواني على أية حال: بطرسبورغ، شارع سيربوخوفسكايا، دار رقم 15.

وتقبَّلوا، يا حضرة الأميرة، أعمق آيات الاحترام.

خادمكم المطيع

فيودور دوستويفسكي

---

(1) أول محاولة ناجحة لعرض «الجريمة والعقاب» على خشبة المسرح تمّت في بطرسبورغ عام 1899، ثم توالت عروض الرواية الممسرحة في روسيا وفي الخارج.

158(أ). إلى ألكسندر رومانوف (ولي العهد)

بطرسبورغ، 28 يناير 1872[1]

حضرة صاحب السمو الإمبراطوري الكريم

أتجرأ على الكتابة مرة أخرى[2] لمقامكم السامي، إلا أنني أكاد أخشى التعبير عن حقيقة مشاعري. ذلك لأن من الصعب على المستعين أن يجد الكلمات ليعبّر صراحة ومن صميم القلب عن امتنانه الصادق للمعين. مشاعري مختلطة، فمن جهة أشعر بالخجل من جرأتي السابقة، ومن جهة أخرى يملأني الآن الاعتزاز والإعجاب اللامتناهي بالاهتمام الغالي الذي أبديتموه سموّكم بالتماسي المرفوع إليكم. إنه أعز عليّ وأغلى بالنسبة لي حتى من المعونة التي تكرمتم بها وأنقذتني من مصيبة كبرى.

بشعور من الولاء الخالص أبقى لسموّكم الإمبراطوري

الخادم المطيع

فيودور دوستويفسكي

(1) نشرت هذه الرسالة لأول مرة بعد أكثر من مئة عام، في أعمال دوستويفسكي الكاملة بثلاثين مجلداً.

(2) رسالة دوستويفسكي الأولى إلى ولي العهد (قيصر روسيا ألكسندر الثالث لاحقاً) مفقودة. ومن الصعب التكهن بمضمونها تحديداً ولا بأسباب التعبير عن الامتنان في الرسالة الحالية. يرجح الباحثون أن دوستويفسكي تلقى مكرمة من ولي العهد نظراً لملاحقة الدائنين له بعد عودته من الخارج. في تلك الأيام كتب دوستويفسكي إلى صوفيا إيفانوفا أنه استلم «مبلغاً محترماً» سيخبرها بمصدره فيما بعد.



159. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، أواخر مارس- أوائل أبريل 1872

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش الموقر

لم أرد على رسالتكم في انتظار صدور عدد مارس (من «البشير الروسي»). تأخذون عليّ أن رواية («الشياطين») تأخرت كثيراً. ما العمل؟ يبدو أنني مذنب من دون ذنب، أنا مذنب على أية حال. وأعترف بأن لكم الحق كل الحق في الغضب الشديد. ثم إنكم تحددون لي مواعيد مضبوطة على حد تعبيركم: «عندما تكتمل الكتابة من جانبي أو يتم إنجاز قسم كبير منها على الأقل» تواصلون الطباعة.

أعتقد أن بإمكاني أن أقترح ما يلي، وهو أيضاً عبارة عن رجاء إليكم، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم. عندي فكرتان بخصوص مواصلة النشر: 1) بين أيديكم ملزمتان ونصف، وبعد يوم سيكون جاهزاً فصل آخر مستقل. فيكون المجموع لعدد أبريل 4 ملازم. إذا كان يروق لكم أن تنشروا شيئاً من الرواية في أبريل بلغوني ولو بسطر واحد حتى أبعث لكم الفصل من دون تأخير. وأؤكد أن الإرسال سيجري بعد ذلك بلا انقطاع حتى نهاية الجزء الثالث، أي ختام

الرواية. صحيح أن وجبات الإرسال لن تكون بأربع ملازم، وسأحاول أن لا تقل عن ملزمتين ونصف إلى ثلاث ملازم للعدد الواحد من المجلة. وأكرر أن ذلك سيتم بالتأكيد. لقد خالفت الأصول مراراً حتى قررت هذه المرة أن أجند كل طاقاتي لتصحيح ما سلف.

والفكرة الثانية: إذا كنتم مصرّين على البدء بنشر الجزء الثالث بعد أن يكون جاهزاً بكامله أو بمعظمه، كيلا تحصل فترات انقطاع، فإنني أرجوكم كل الرجاء أن تبدأوا بنشره اعتباراً من عدد أغسطس. عندذاك يمكن أن ننتهي من هذا الجزء دفعة واحدة في عددي أغسطس وسبتمبر بست أو سبع ملازم في كل من العددين، ولا أكثر من ذلك نظراً لحجم الجزء الثالث، أو في 3 أعداد لأشهر أغسطس وسبتمبر وأكتوبر. باختصار الأمر لكم. (. . .) وأعتقد أنني ربما سأنتهي من الكتابة قبل ذلك، وبأسرع مما كنت أتوقع. إلا أننا إذا بدأنا بالنشر مبكراً، من عدد يونيو، مثلاً، على أن ننتهي قبل حلول الخريف فإن ذلك سيلحق، من ناحيتي، ضرراً بالرواية. وأقول من دون تفاخر مبتذل إن الجمهور مهتم بالرواية بعض الشيء. ففي الآونة الأخيرة كتب وتحدث عنها الكثيرون بعد صدور كل عدد من المجلة، عندنا في بطرسبورغ على الأقل. ثم إن الوقت حتى شهر أغسطس طويل جداً ومضر بالنسبة لي، فالقراء سينسون الرواية. إلا أن تذكيرهم بها بنشر الجزء الثالث دفعة واحدة آمل أن ينعش انطباعاتهم، في الوقت الذي يبدأ فيه فصل الشتاء حيث تغدو روايتي النبأ الأول رغم كونه من الأنباء القديمة. وإلى ذلك أعتقد، وأنا أعرف خاتمة الرواية، أن الجزء الثالث سيكون من حيث مزاياه أفضل من الجزءين الأول والثاني. علماً بأن الجزء الثاني هو الذي خلق انطباعاً جيداً في بطرسبورغ في فصل الشتاء. وبالتالي ستتجدد الرواية، وفي ذلك نفع

كبير لي فيما يخص طبعتها الثانية الآن فور الانتهاء من نشرها (في المجلة).

ولذا أرجوكم كل الرجاء أن تبلغوني هل أنتم موافقون على النشر في أغسطس، إذا لم ترغبوا البدء في أبريل؟ وإذا كان البدء في أبريل فسأوافيكم بالفصل (الجديد) حالاً (. . .)

وتقبّلوا من صميم القلب فائق الاحترام الصادق، ومعذرة على لطخة الحبر في أعلى الصفحة، فلا تعتبروا عدم استنساخ الرسالة تهاوناً مني.

خادمكم الدائم

فيودور دوستويفسكي

ملاحظة: في كل الأحوال أرجو أن تبلغوني بقراركم فوراً.

160. إلى ألكسندر رومانوف (ولي العهد)

بطرسبورغ، 10 فبراير 1873

حضرة صاحب السمو الإمبراطوري الكريم

اسمحوا لي أن أتشرف وأسعد بعرض كتابي[1] على مقامكم السامي. وهو عبارة عن لوحة تجريبية تاريخية تقريباً أردت من خلالها أن أوضح ظواهر فظيعة في مجتمعنا العجيب، مثل جريمة نيتشايف. نظرتي إلى تلك الظواهر تتلخص في اعتبارها ليست من بنات الصدفة، وليست حالات فردية، ولذا لا تتضمن روايتي أحداثاً مستنسخة ولا شخوصاً مستنسخين (من الواقع المعاش). هذه الظواهر نتيجة مباشرة لانفصال التربية الروسية طوال القرون عن البدايات والجذور الوطنية الأصيلة لحياة روسيا. وحتى الأكثر موهبة بين ممثلي تطورنا الأوروبي المزعوم تحولوا من زمان إلى الاعتقاد بأننا، نحن الروس، لا يحق لنا أن نطمح إلى الأصالة القومية، وأننا إذا حلمنا بها فتلك جزيمة لا تغتفر. وأفظع ما في الأمر أنهم على حق تماماً، ذلك لأننا عندما وصفنا أنفسنا بالأوروبيين وبكل اعتزاز إنما تخلينا عن روسيتنا. وفي ظل الحيرة والخوف من تخلفنا الكبير عن

أوروبا من حيث التطور الفكري والعلمي نسينا بأننا، في أعماق الروح الروسية ومهماتها، نمتلك، كروس، القدرة على أن نحمل النور ربما إلى العالم الجديد فيما لو حافظنا على أصالة تطورنا. لقد نسينا، في أوار الرضا بإهانة كرامتنا، قانون التاريخ الحتمي الذي يقول إننا لن نتمكن أبداً من تولي دور الأمة العظمى ولن نحتفظ بشيء من الأصالة لمنفعة البشرية جمعاء ما لم نعتز بكرامتنا وأهميتنا العالمية كأمة. لقد نسينا أن جميع الأمم العظمى جسدت قواها الهائلة من خلال «الكبرياء» في وعيها الذاتي، وبذلك باتت نافعة للعالم وحملت كل منها له شعاعاً واحداً من النور على الأقل، وظلت على الدوام مستقلة شامخة لا تتنازل عن كبريائها.

عندما يفكر المرء عندنا الآن ويعرب عن فكرته على هذا النحو إنما يختار لنفسه مصير المنبوذ. والحال أن أكبر دعاة اللاأصالة القومية يمكن أن يكونوا أول المتنصلين بفزع عن جريمة نيتشايف. فإن بيلينسكي وغرانوفسكي ومن لفَّ لفهما لن يصدقوا إذا قيل لهم إنهم بالذات عرابو وآباء نيتشايف المباشرون. صلة الرحم هذه، توارث الفكر هذا الذي يتعمق منتقلاً من الآباء إلى الأبناء، هو ما أردت أن أعبّر عنه في روايتي. ولم يتسنَّ لي أن أنجز المهمة كاملة، مع أني عملت كما يمليه الضمير.

ومما يشرفني ويرفع معنوياتي أنكم، يا صاحب السمو، ولي عهد أحد أعلى وأثقل الكواكب في العالم، زعيم الأرض الروسية وحاكمها المرتقب، ربما تلتفتون أدنى التفاتة إلى محاولتي الضعيفة، وأنا أعرف أنها ضعيفة، لكنها نزيهة لرسم صورة فنية لإحدى أخطر العلل في حضارتنا المعاصرة، تلك الحضارة العجيبة المصطنعة وغير الأصيلة، لكنها لا تزال حتى الآن تتحكم في الحياة الروسية.

واسمحوا لي، يا صاحب السمو الكريم، أن أتقدم لحضرتكم بأسمى مشاعر الاحترام الصادق والامتنان الخالص من خادمكم المخلص المطيع

فيودور دوستويفسكي

---

(1) «الشياطين».



161. إلى ميخائيل بوغودين

بطرسبورغ، 21 فبراير 1873

السيد ميخائيل بيتروفيتش المحترم

قرأت الآن مقالتك عن بيلينسكي. لماذا ترفض توقيع هذه المقالة الرائعة باسمك الحقيقي؟ وما معنى «قارئ المجلات العجوز»؟

أرسلنا المقالة إلى التنضيد رأساً. اليوم هو الأربعاء، وغداً ستستلمها. باللّه عليك اكتبْ لنا ثلاثة سطور حول موافقتك على توقيعها باسمك: م. بوغودين. أقسم لك أن القراء سيظنون أنني أنا صاحب المقالة (إذا بقيت باسمك المستعار) ويتصورون أنني كتبتها لأثبت آرائي بشأن بيلينسكي، فالكثيرون هنا اتهموني في ما يخص هذه المقالة.

ثم إنني حاولت عدة مرات أن أرد على تحياتك بكلمات أدفأ.

لكنني مرضت في الأسبوعين الأخيرين، والأسوأ من ذلك أنني منفعل عصبياً، حتى أنني لازمت المنزل ولم أذهب إلى هيئة تحرير («المواطن») لبعض الوقت. ولذا كنت أنتظر فرصة الكتابة إليك ولم أكتب حتى الآن.

بشأن مقالاتك الموجودة في هيئة التحرير سأكتب لك خصيصاً. والآن أكثر ما أتمناه هو أن تتقبل احتراماتي العميقة ووفائي الصادق لك.

المخلص ف. دوستويفسكي



162. إلى ميخائيل بوغودين

بطرسبورغ، 26 فبراير 1873

السيد ميخائيل بيتروفيتش المحترم. ليس معك حق، عندما تقول إنني «أجبتك بحكم الضرورة». أكرر من صميم القلب: كلا، لقد كتبت لك الحقيقة عندما قلتُ إنني أريد أن أوجه لك كلمات أكثر دفئاً. استجابتك ومصافحتك عزيزتان عليّ، لكنني لم أرد لأنني لم أكن قادراً على الرد.

ليس لدينا سكرتير، وأنا مصر على تعيينه، لأني أرى ضرورة لذلك. وحتى لو كان عندنا سكرتير أنا أعرف بتجربتي الشخصية أن من الضروري أن أتكلم شخصياً مع كتّاب المقالات والذين يحملون لنا دراسات جديدة، وأن أقرأ تلك المقالات، وهذا كثير عليّ، وأطلع على أكداس الكتابات المتروكة من رئيس التحرير السابق. قراءة المقالات تأخذ مني وقتاً هائلاً، وتربك صحتي لأنني أدرك أنها تقتطع من وقت عملي الحقيقي. ثم، عندما آخذ المقالة وأقرر نشرها، فإنني غالباً ما أعيد قراءتها من البداية حتى النهاية.(. . .) ثم لا بد من قراءة سقط المتاع من الصحف. وما يحز في نفسي أكثر من غيره هو الكم

الهائل من المواضيع التي أرغب في الكتابة عنها بنفسي.(. . .) ولا يندر أن أتشبث في ليل الخميس بمقالة جديدة وأكتبها في يوم واحد لأن استلام المقالات عندنا يتوقف في ليل الجمعة. كل ذلك يؤثر فيّ، وأكرر، بشكل أليم. فمتى أستطيع أن أكتب رسالة إذا أردت أن أعبّر عن شيء ما فيها؟

ثمة أمور كثيرة تؤرقني. منها خلو قسم التعريف بالكتب من الموظفين. هذا الأسبوع عاد ستراخوف من القرم ففرحت له، حيث ستكون لدينا مقالات نقدية، لكنه مرض فجأة.

ثم أريد أن أتحدث كثيراً عن أسباب التحاقي بالمجلة. ولكنني أجد صعوبة في التعبير عنها. هدفي وفكرتي يتلخصان في الآتي: الاشتراكية التهمت الجيل كله تقريباً عن عمد وبشكلٍ أخرق لاواعٍ، بشكلِ حذلقة دنيئة. الوقائع جلية وخطيرة. فنقرأ في الصحف أن أبسط ساذج غير متعلم يدلي قطعاً بكلمة حمقاء، لكنها حتماً منتزعة من المعسكر الاشتراكي. لا بد من الكفاح، لأن كل شيء أصيب بهذه العدوى. فكرتي أن الاشتراكية والمسيحية على طرفي نقيض. وبودّي أن أدلل على ذلك في سلسلة مقالات، لكنني لم أبدأ بكتابتها[1].

ومن ناحية أخرى، تتزاحم في ذهني وترتسم في فؤادي صور وشخوص القصص والروايات. أتمعن فيها وأسجلها، وأضيف كل يوم إلى المخطط المسجل مزيداً من الخصال والتوصيفات الجديدة، وأدرك في تلك الأثناء أن وقتي كله يمضي في المجلة، وأنني لن أتمكن من الكتابة أكثر، فأصاب بالإحباط والقنوط.

تلك هي بإيجاز لوحة معيشتي. وبودّي أن أسافر إلى موسكو. عندها سأتحدث معك كثيراً ومن صميم القلب. وقد آتي في الربيع لفترة قصيرة، لكنني لست متأكداً. أنت تسأل عن صحتي. لعلك

سمعت بأنني مصاب بالصرع. نوبات الصرع تنتابني بمعدل مرة واحدة في الشهر ومن عدة سنين، من عهد سيبيريا، مع فارق واحد هو أنني أحتاج الآن إلى خمسة أيام لأعود إلى وضعي الطبيعي بعد النوبة، وليس ثلاثة أيام كما كان الحال طوال العشرين عاماً الأخيرة تقريباً. والغريب أن خمسة شهور تصرمت على آخر نوبة صرع داهمتني. لقد توقفت النوبات. ولا أدري ما السبب. أخشى أن يحصل تأزم.. إلا أنني قليل التفكير في صحتي.

ليست لدي بطاقة شخصية، وسأحصل عليها وأبعثها لك مع روايتي «الشياطين» الصادرة حديثاً. فإذا قرأتها أعطني رأيك، يا ميخائيل بيتروفيتش الموقر.

(تسألني عن بيلينسكي)، تعرفت عليه في يونيو 45، وعلى نكراسوف في الوقت نفسه. سأبلغ مايكوف بما تسأل عنه. أنا لم أره من زمان، منذ أسبوع.

«المواطن» تنتشر بصورة لا بأس بها، نسبياً. عدد المشتركين 1800، أي أكثر من العام الفائت. إلا أن الاكتتاب لا يزال متواصلاً بالانتظام المعهود نفسه. وأظن أن عدد المشتركين لن يكون كبيراً هذا العام، قد يصل إلى 2500 لا أكثر. إيفان سرغييفيتش أكساكوف كان الشهر الماضي في بطرسبورغ، ويقول إن عدد المشتركين في جريدته («النهار») في العامين الأولين لم يكن أكبر من هذا العدد. أما نقاط توزيع المجلة فقد ازدادت خمس مرات، إن لم يكن أكثر، عما كان في العام المنصرم (...) (...)

أنا لا أعرف إطلاقاً كيف سأقضي الصيف.

يخيل إليَّ أحياناً أنني قمت بحماقة كبيرة عندما توليت أمر «المواطن». على سبيل المثال، أنا لا أستطيع أن أعيش من دون

زوجتي وطفليّ. وهم بحاجة إلى الريف في الصيف بعيداً عن بطرسبورغ على قدر الإمكان، فيما يتعين عليّ أن أبقى مع «المواطن»، ما يعني مفارقة العائلة، وهذا أمر لا يطاق. أشد على يدك بحرارة. في أمان الله وحفظه.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) عرض دوستويفسكي في «يوميات الكاتب» عام 1881 فهمه الطوباوي لمفهوم الاشتراكية الروسية: «اشتراكية الشعب الروسي ليست في الشيوعية والأشكال الميكانيكية. فهو يؤمن بأن خلاصه سيأتي في آخر المطاف بالوحدة العالمية الشاملة من أجل المسيح. تلك هي اشتراكيتنا الروسية».



163. إلى ميخائيل فيودوروف

بطرسبورغ، 19 سبتمبر 1873

السيد الفاضل ميخائيل بافلوفيتش.

أرجو المعذرة لأنني لم أرد عليك طويلاً. في البداية، بعد رسالتك الأولى، حددت بعض المواضع في الكوميديا[1] بهدف تعديلها ولو قليلاً، لكنني كنت متردداً أتأمل طويلاً، ولذا تباطأت في الجواب. والآن، بعد رسالتك الثانية، مرضت ولازمت السرير، رغم ضرورة تأدية واجباتي في هيئة التحرير. ولذا لم أجد قبل الآن تقريباً الوقت اللازم للرد عليك. إليك ما أقوله بصورة نهائية: لن أقوى ولا أستطيع أن أقوم بالتعديلات. طوال 15 سنة ما أعدتُ قراءة «حلم العم». وعندما قرأتها الآن وجدت أنها رديئة. ألفتها آنذاك في سيبيريا، لأول مرة بعد الأشغال الشاقة، وبهدف بدء العمل مجدداً في مضمار الأدب لا غير، وكنت أخشى الرقابة لحد الفزع كوني منفياً في السابق. ولذا ألفت تلقائياً قصة بطيبة الحمائم وبسذاجة رائعة. يمكن تحويلها إلى مقطوعة فكاهية، لكن مضمونها لا يكفي للكوميديا، حتى

شخصية الأمير (العجوز) التي تتولى الدور الجدي الوحيد في القصة كلها لا تكفي.

ولذا أترك الأمر لك، فإذا شئت أن تمسرحها على الخشبة فافعل، لكني أتنصل من المشروع ولن أصحح بنفسي ولا سطراً واحداً. وإلى ذلك أرجوك بإلحاح وإصرار أن لا يظهر اسمي على ملصق الإعلانات من قبيل: «مسرحة قصة «حلم العم» للسيد دوستويفسكي» وما شابه. وإذا كان لزاماً الإعلان عن ذلك اكتبوا ببساطة «مسرحة قصة طويلة». المهم من دون اسمي. والأفضل بالطبع عدم عرضها على خشبة المسرح أصلاً. تلك هي نصيحتي. ولكنْ طالما وعدتك في البداية وبذلت أنت جهوداً معينة فليس بيدي حيلة. القرار لك[2]. (. . .) (وأذكر هنا على أية حال) أنني لم أكتب للمسرح، ويفضل التلخيص، فما يصلح للقصة لا يصلح للمسرح. خشبة المسرح ليست كتاباً، ولذا كلما كثر التلخيص جاءت النتيجة أفضل في اعتقادي. (. . .).

ولك مني كل الاحترام والتقدير.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود مسرحة «حلم العم» من قبل كاتب السيناريو فيودوروف

(2) يبدو أن فيودوروف أخذ بنصيحة دوستويفسكي.

164. إلى فلاديمير ميشيرسكي

بطرسبورغ، 3-4 نوفمبر 1873
من المطبعة

حضرة الأمير[1] الموقر. أنا موافق تماماً على تنقيحكم للرد على «وقائع سان بطرسبورغ» (فالصياغة الجديدة) تدل على مهارة فائقة. كل المطلوب وارد فيها بأروع مما في الاتهام المباشر الذي لن يصدق به أحد من القراء، ومن شأنه أن يكون مجرد إطلاقة خلّب من جانبنا.

إلا أنني حذفت 7 سطور حجبتها عن أنظار الرقابة أو ما تسميه أنت جهود الرقابة الحكومية. فأنا أعتز بسمعة الأديب، وإلى ذلك لدي طفلان، ولا أريد أن أروح في داهية.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) الأمير فلاديمير بيتروفيتش ميشيرسكي (1839-1914) كاتب يميني متطرف، مؤسس مجلة «المواطن».

165. إلى أناتولي كوني

بطرسبورغ، (. . .) فبراير 1874

السيد الفاضل أناتولي فيودوروفيتش[1]

اسمحوا لي أن أشكركم من صميم القلب على إرجاء مذكرة اعتقالي أولاً، وثانياً- على كلمة الثناء التي ذكرتموها عني في رسالتكم إلى السيدة الطيبة الموقرة كوليكوفا التي أسعدت بالتعرف عليها بكل ارتياح. إلا أن من الضروري أن تعرفوا متى أستطيع أن أنفذ الحكم. ففي الحال الحاضر أنا أذهب يومياً للعلاج بالهواء المضغوط، فضلاً عن الأشغال الأخرى. وأعتقد أن العلاج سينتهي في مارس. ولذا سأكون على استعداد تام، كما أظن، للتنفيذ في الأيام الأولى من الشهر المذكور، إذا لم يكن ذلك يتعارض مع توجيهاتكم.

كما أنني على استعداد دائم، بلا شك، إذا اقتضى الأمر تنفيذ الحكم قبل ذلك الوقت. وقد حصلت على ما فيه الكفاية لأنني تحررت لعدة أيام بفضل جهودكم، وأكرر شكري لكم على ذلك.

وتقبَّلوا فائق الاحترام والتقدير. خادمكم المطيع

فيودور دوستويفسكي

---

(1) المدعي (النائب) العام. بناءً على أمره دخل دوستويفسكي السجن يومين في 21–22 مارس 1874.



165 (أ-ب) إلى لوبوف دوستويفسكايا



موسكو، 25 أبريل 1874

حبيبتي ليليا. بابا يحبك كثيراً ويكتب إليك من موسكو. اسرحي وامرحي والعبي. أنا أفكر فيك وأقبّلك.

بابا



ابنة دوستويفسكي
(لوبوف دوستويفسكايا)

165 (أ.ب.ج) إلى فيودور ف. دوستويفسكي

موسكو، 25 أبريل 1874

حبيبي فيديا.

ولدي العزيز. أقبّلك بحرارة. اسرح وامرح والعب.

بابا

165 (أ). إلى إيفان تورغينيف

بطرسبورغ، 5 يونيو 1874

سمعت اليوم صدفة، في متجر بازونوف، بوصولكم إلى بطرسبورغ. ولما كنت سأغادرها غداً فقد رجوت الأمير فلاديمير بتروفيتش (ميشيرسكي) أن يسلمكم، عندما يلتقيكم، مبلغ الخمسين تالير التي أقرضتموني إياها عام 64 تلبية لطلبي العاجل من فيسبادن. وأنا إذ أعيد لكم هذا الدين بأعظم قدر من الامتنان لا أجد لنفسي عذراً في تأخير التسديد كل هذه المدة. علماً بأنني حتى وقت قريب لم أتذكر المبلغ الذي استدنته منكم في فيسبادن على وجه التحديد، هل هو مئة تالير أم خمسون. وهذا بالطبع لا يبرر جريرتي، بل على العكس يعمقها. وقبل شهرين كنت أبحث بين أوراقي القديمة فوجدت رسالتكم إليّ آنذاك وفيها إشارة إلى المبلغ وهو 50 تالير.

في كل الأحوال تقبّلوا مني فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع

(دوستويفسكي)

166. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 12 يونيو 1874

ها أنا في أيمس، يا عزيزتي الغالية آنّا، وصلت يوم أمس ظهراً. إلا أنني تعبت من السفر والمشاغل في هذه المدينة حتى عجزت عن الكتابة إليك ليلة البارحة كما كنت أريد. ألمّ بي الصداع والطنين في الأذنين. غادرت بطرسبورغ صباح الجمعة، في يوم بارد مطير. ووصلت إلى أيدكونين (النمسا) منتعشاً نشيطاً حتى تمكنت في الليل أن آخذ قسطاً من النوم مستلقياً أربع ساعات. وكان البرد في أيدكونين أشد مما في بطرسبورغ. استمر الحال على هذا المنوال حتى برلين، حيث كان الجو بارداً في اليوم الأول وأردت أن أرتدي المعطف المبطن. في الليلة الثانية لم أنم تقريباً في العربة. وفي الطريق كانت هناك مغامرات كثيرة، بعضها مضحك. سأحدثك عنها عندما نلتقي. وصلت إلى برلين يوم الأحد، ومكتب مندلسون للصيرفة الذي ينبغي أن أستلم حوالة فينيكن منه مغلق. والأطباء لا يعملون هم أيضاً في الآحاد. وكان عليَّ أن أتحمل الملل والضجر طول النهار. ولم أنم. وصلت في السابعة صباحاً، ومضيت إلى المتحف الملكي لمشاهدة

(جداريات) كاولباخ، ولم أجد هناك سوى لوحة مجازية فاترة. إلا أن باقي اللوحات القديمة من مختلف المدارس معتبرة. وللأسف أننا لم نشاهدها سابقاً عندما كنت معك هنا. يا إلهي ما أشد الملل في مدينة برلين. شعرت بالضجر والحنين الشديد إليكم. طول الوقت أتطلع في صورة لوبا (. . .) الألمان يوم الأحد يملأون الشوارع وهم في ثياب العطل والأعياد. الناس يتميزون بالخشونة وقلة الأدب. أحد الشبان في حانوت المخبوزات نصحني أن أذهب إلى مسرح كروليا وراء متنزه تيرغارتين، حيث توجد حديقة ترفيه ودار أوبرا. وبالفعل كانوا يقدمون أوبرا «فيديليو» (بتهوفن). فرغبت جداً في الذهاب إلى هناك. لكنني شعرت بتعب شديد حينما عدت إلى البيت، فهويت على السرير. في الصباح ذهبت إلى مكتب مندلسون وراجعت فريوريخس. إنه من مشاهير العلماء الألمان ويقيم في قصر عامر. خلال الانتظار سألت أحد المراجعين المرضى كم يدفعون له؟ فقال: «المبلغ غير محدد. أنا أدفع خمسة تاليرات». فقررت أن أدفع ثلاثة. وهو يفحص المريض ثلاث دقائق إلى خمس. فحصني في دقيقتين فقط، حيث لمس صدري بالسماعة ثم نطق كلمة واحدة «أيمس». وجلس صامتاً ليكتب سطرين على قصاصة ورق. «هاك عنوان الطبيب في أيمس. قل له إنك من طرف فريوريخس». وضعت الثلاثة تاليرات على الطاولة وانصرفت. فالمراجعة تستحق. في ذلك اليوم فتحت المتاجر أبوابها، ومضيت لأشتري طرحة لأجل آنّا غافريلوفنا. شغلتني كثيراً. وبحثت عنها طويلاً. (. . .) اشتريتها واشتريت سجائر كثيرة، وبقي لدي وقت فذهبت إلى حديقة كروليا. كان الجو صحواً، والحديقة رديئة للغاية، لكن الناس فيها كثيرون، يتنزهون بارتياح. تذكرة الدخول بـ 10 قروش، وبضمنها زيارة المسرح، ولكن من دون مقعد في قاعته.

فوقفت في الرواق. قاعة المسرح هائلة معتمة، تتسع لألف شخص. خشبة المسرح بطول عشر خطوات، والأوركسترا مؤلفة من 12 شخصاً. وهو عدد ليس قليلاً. تصوري، يقدمون أوبرا «روبرت الشيطان» (جاكومو ميربير). استمعت إلى نصف المشهد الأول وهربت من أصوات المغنين الألمان المرعبة إلى البيت، لأن موعد السفر إلى أيمس قد حان. وأخيراً تحرك القطار في العاشرة مساءً. الليل هنا مظلم كما في الشتاء. في تلك الليلة لم أذق طعم النوم. كنا قابعين كالسردين المكدس في برميل. ولكنْ، يا عزيزتي آنّا، عندما انبلج الفجر رأيت ما لم أر مثله من قبل. حتى سويسرا، حتى فارتبورغ، هل تتذكرين؟، ليست أجمل من النصف الثاني من الطريق إلى أيمس. كل ما يمكن تصوره مما يسر الأنظار من المناظر الخلابة الرقيقة المنقطعة النظير في العالم كله، التلال والجبال والقلاع والمدن مثل ماربورغ وليمبورغ بأبراجها الباهية إلى جانب الالتقاء العجيب بين الجبال والوديان. لم أر في حياتي مثل هذا الجمال. وصلنا إلى أيمس في صباح حار يسبح في أشعة الشمس. المدينة ذات جمال باهر. وكان يوم أمس رائعاً. أيمس مدينة صغيرة في شِعب عميق بين هضاب مرتفعة (. . .) تكسوها الأشجار. وهي تتكئ على صخور جبلية ذات مناظر خلابة هي الأجمل في العالم. وتتكون في الحقيقة من كورنيشين فقط لنهر غير عريض. والتوسعة متعذرة لأن الجبال تضايقها. هناك متنزهات وحدائق، وكلها رائعة. أنا مأخوذ بسحر هذا الموقع. ولكنْ يقال إن الموقع نفسه يتغير عندما تكفهر السماء ويتساقط المطر، فتخيم عليه كآبة حالكة تثير مزاجاً سوداوياً حتى عند الإنسان السليم. إلا أن وسائل الراحة لا تبعث الدهشة أبداً. الأسعار فظيعة. كل ما كنا نتخيله من استئجار شقة خاصة لي في أيمس غير

وارد. فلا وجود لشقق خاصة. ولا واحدة. قبل خمس سنوات لم تكن لأيمس قيمة كبيرة، ولكن الآن حيث اشتهرت المدينة ويتقاطر عليها الأوروبيون من كل حدب وصوب أدرك أصحاب المنازل ما ينبغي أن يفعلوه، بمعنى تحويل منازلهم إلى فنادق. ولذا يوجد نوعان من الفنادق: 10 دور هي فنادق رسمية حقيقية، وباقي المنازل، كلها، تسمى فنادق أهلية. وفيها الحجرات نفسها والخدم أنفسهم، بل وفي جميعها تقريباً مطاعم.

في أصغر منزل قرابة 20 حجرة. وجميعها تقريباً عبارة عن غرف صغيرة. نزلت في «Hôtel de Flandre» جنب سكة الحديد، فأسكنوني مقابل 25 قرشاً حجرة ضيقة تفتقر إلى أبسط الأثاث، من دون خزانة ثياب ولا صوان، وعلى الجدار ثلاثة مسامير لأعلق عليها ثيابي. ثم ما أفظع الخدم. مضيت في الحال أبحث عن غرفة، ودخلت لهذا الغرض 15 داراً تقريباً. الأسعار ذاتها في كل مكان. مقابل 25 قرشاً، ولا وجود لسعر أقل من هذا، ومقابل تالير واحد عرضوا عليَّ غرفاً أوسع وأريح، لكنها، على أية حال، صغيرة أيضاً، والأهم هناك كثير من النزلاء، هذا يغني، وذاك يصفق الأبواب، وأنا أريد أن أكتب رواية[1]. الموائد المشتركة في كل مكان. (. . .) في الساعة الرابعة بعد الظهر، ولم أكن قد تناولت طعام الغداء، مضيت إلى الطبيب لأعرف نهائياً على الأقل كم أسبوعاً يريدني أن أقضي في أيمس؟ ذهبت إلى الدكتور أورت بتوصية بريتسيل، وليس إلى غودينتاغ بتوصية فريوريخس. سلمته رسالة بريتسيل، وهو يقيم أيضاً في شقة فارهة ولديه طابور من المراجعين. قرأ الرسالة وفحصني بدقة وقال إنني مصاب بالتهاب القصبات الهوائية الموقت، وليس هناك مؤشر على التدرن الرئوي. إلا أن هذا المرض مؤثر، ويمكن أن يقود إلى

عسر التنفس وإلى مضاعفات في ارتباك عمل المعدة والحمى وما إلى ذلك إذا لم يتم علاجه (. . .). وقد كتب له بريتسيل أنني ميال إلى الإسهال، بينما أنا ميال إلى الإمساك أكثر. ونسيت أن أبلغه بذلك. أخشى أن يكون هناك خطأ في نوعية منبع الماء الذي أوصاني بشربه. بعد 5 أيام سأذهب إليه مرة أخرى وأوضح هذه المسألة (. . .) وأخيراً استأجرت شقة عند عجوز (حسنة المعشر، لكنها مراوغة. الإيجار 12 تالير في الأسبوع). نسيت أن أخبرك أن أورت قرر أن أتعالج 4 أسابيع وليس 6 (. . .)

في الختام بضع كلمات عن أيمس. الازدحام شديد هنا. والجمهور من مختلف أرجاء العالم بشتى الأزياء. ومع ذلك ثلث غرف الفنادق فارغة. باعة المتاجر في منتهى الدناءة. أردت أن أشتري قبعة فلم أجد سوى حانوت واحد البضاعة فيه مثلما عندنا في الأسواق الرخيصة. وهي معروضة باعتزاز، والأسعار جهنمية، والباعة يسلطون نظراتهم على المشترين.

ملاكي آنّا، اكتبي لي أكثر، أنا المسكين. الرسالة منكم يمكن أن تصل بعد غد. ليتك تصدقين كم أنا قلق وأتشوق لمعرفة أخبار الصغيرين. أعصابي متوفزة من السفر. مساء أمس، عندما بقيت وحدي، كدت أبكي. أتذكر ملاكيَّ الصغيرين لوبا وفيديا. وأخشى عليهما، فاعتني بهما يا عزيزتي، واكتبي لي عن كل شيء بصراحة. حافظي على نفسك كيلا تمرضي. ليلة الأمس كنت أنتفض طول الوقت، ولليلة الثالثة على التوالي أراك في المنام. وداعاً. أعانقك وأقبّلك بحرارة وأبارك ملاكيَّ الصغيرين. غداً سأنهض من النوم في السادسة صباحاً وأذهب لأشرب الماء (من النبع). ولذا سأنام في العاشرة مساءً. فمتى أكتب الرواية يا ترى؟ هل أكتبها في النهار حيث

اللمع وأشعة الشمس وصخب الشوارع يغريني بالتمشي والتجول؟ يا ليتني أبدأ الرواية وأرسم شيئاً من ملامحها. فالبداية نصف العمل. ما يعني أنني يجب أن أعود إليكم قبل المقرر. سأكتب المزيد عن ذلك في الرسالة القادمة، بعد ثلاثة أو أربعة أيام من استلام رسالتك. تحياتي إلى الجميع وإلى الحاضنة. أقبّلك ألف مرة وأحبك بلا نهاية. تصوري، قبل ثلاثة أيام في برلين رأيتك في المنام وكأننا تزوجنا تواً وكأنني أرافقك إلى الخارج وأحبك حباً جماً، ولكن لوبا وفيديا كأنما موجودان في مكان ما، ليس معنا، ونحن نتكلم عنهما.

إلى اللقاء.

محبك دوستويفسكي

---

(1) «المراهق».



167. إلى نيكولاي نكراسوف

ستارايا روسا، 20 أكتوبر 1874

نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

استلام «مذكرات الوطن» في الحال الحاضر فيه إغراء كبير، يكاد يكون من الضروريات. ففي العام الحالي لم أقرأ سوى الأعداد الأولى من المجلة. ثم أردت في مايو أن أشترك فيها، إلا أنني أرجأت المسألة حتى أستقر في الإقامة. والآن أقيم هنا لفترة طويلة، ولن أرتحل طول الشتاء، ولذا أنا ممتن لك على اقتراحك بإرسال المجلة في الحال[1].

لا شك أنني كمؤلف لا أستطيع أن أقول شيئاً عن نجاح أو فشل عملي، من وجهة نظري على الأقل. أنا أكتب، والله يعلم ماذا تكون النتيجة. وسأحاول أن أظهر في عدد يناير[2]. إلا أنني سأخبرك سلفاً، في أواخر نوفمبر، عن سير العمل على أية حال. وسأرسل (الجاهز من الرواية) أو أجلبه بنفسي لا أبعد من 10 ديسمبر.

أشكرك على تمنياتك لي بالصحة وطيب المزاج. وأعترف لك أن

سوء الصحة يؤذيني أكثر من تعكر المزاج. نوبتان متواليتان من الصرع يعتكر لهما المزاج بشدة حالياً على وجه التحديد.

أتمنى لك أنت أيضاً كل خير وكثرة المبادرات. هل تعد شيئاً للعدد الأول؟ سيكون ذلك مبعث سرور كبير إذا جاء في العدد الأول[3].

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) في رسالة إلى دوستويفسكي وعد نكراسوف بإرسال مجلة «مذكرات الوطن» إليه اعتباراً من بداية 1875 أو قبل ذلك.

(2) في عدد يناير 1875 نشرت المجلة الفصول الخمسة الأولى من «المراهق».

(3) افتتحت المجلة عددها الأول لعام 1875 بقصيدة نكراسوف «الكآبة».



168. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ[1]، 6 فبراير 1875

عزيزتي آنيا

أول ما فعلته أمس أنني مضيت إلى نكراسوف. كان ينتظرني على أحر من الجمر، لأن القضية لا تقبل الانتظار. استقبلني بمنتهى المودة والترحاب. وهو راضٍ جداً على الرواية، مع أنه لم يقرأ الجزء الثاني بعد. إلا أنه ذكر رأي سالتيكوف الذي قرأه وامتدحه كثيراً[2]. نكراسوف يقرأ في العادة البروفة الأخيرة بعد التصحيح. صحة سالتيكوف متدهورة جداً. يقول عنه نكراسوف إنه يحتضر تقريباً. تصفحت قسماً من البروفة عند نكراسوف وأخذت الباقي معي إلى البيت. الرواية في البروفة لم تعجبني كثيراً. وعدني نكراسوف بالدفع مقدماً وأعطاني حتى الآن 200 روبل، أردت أن أرسل لك منها 75 روبلاً، وسأفعل غداً أو بعد غد، ولكنْ ليس لدي وقت على الإطلاق.. ذهبت إلى (الدكتور) سيمونوف وأخذت كوبوناً لسبعة أيام. جلسات العلاج (بالهواء المضغوط) من الثالثة حتى الخامسة.

وهو وقت غير مناسب تقريباً. تلك هي ساعات العمل بالنسبة لي، وبدلاً منه عليَّ أن أتعالج. ثم عرجت على هيئة تحرير «المواطن»، وعلمت بأسف شديد أن الأمير (ميشيرسكي) سافر إلى باريس في 4 فبراير بعد أن استلم برقية بوفاة أخيه الضابط المرافق. وقد يقضي هناك قرابة شهر. وبالتالي لم يبق لدي في بطرسبورغ معارف تقريباً. عرفت من بوتسيكوفيتش من الذي يكتب في «وقائع بطرسبورغ» بالاسم المستعار Sine ira[3] تصوري: من هو؟ إنه فسيفولود سيرغييفيتش سولوفيوف! ثم عرجت على بازونوف ولم أجده، وأخذت من هناك «البشير الروسي». وبعد الغداء مضيت في الساعة السابعة إلى مايكوف. (زوجته) آنّا إيفانوفنا ذهبت إلى المسرح. وقد استقبلني بترحاب حسب الظاهر، لكنني سرعان ما لاحظت تغضن جبينه. وجاء ستراخوف أيضاً، ولا كلمة منهما عن روايتي ربما كيلا يسببا لي خيبة أمل.[4] كما دار كلام قليل عن رواية تولستوي[5]، إلا أن كلامهما عنها جاء بإعجاب يبلغ حد الضحك. حاولت أن أقول إذا كان تولستوي قد نشر (مقالته عن التعليم العام) في «مذكرات الوطن» فلماذا يلومونني (وحدي)؟. إلا أن مايكوف عبس وحوّل مجرى الحديث. ولم أواصل أنا الموضوع. باختصار، أرى أن شيئاً ما يحدث هنا، وهو تحديداً ما تحدثنا عنه أنا وإياك، أي أن مايكوف نشر هذه الفكرة عني[6]. عندما انصرفت قال لي ستراخوف إنني يمكن أن أمر على مايكوف ثانية فنلتقي، إلا أن مايكوف الموجود معنا لم ينبس ببنت شفة ولم يقل إنه سيكون مسروراً لرؤيتي. وعندما قلت لستراخوف أن يأتي إليّ في فندق زنامينسكايا لنحتسي الشاي يوم الجمعة قال سنأتي أنا وأبولون نيكولايفيتش (مايكوف)، إلا أن الأخير

اعتذر في الحال قائلاً إنه لا يستطيع الجمعة وإننا يمكن أن نلتقي السبت عند (الكاتب إيفان) كورنيلوف. باختصار، النفور مني واضح للعيان. كما أن أفسيينكو انتقد «المراهق» (بتحيز شديد) في «العالَم الروسي». إلا أن مايكوف قال إن هذا الانتقاد أحمق. وأنا لم أر مقالات «العالم الروسي».

تصحيحات البروفة كثيرة. أويت إلى النوم في ساعة متأخرة، لكنني أخذت قسطاً من الراحة. الآن الساعة الثانية بعد الظهر، ويجب أن لا أتأخر على الطبيب. كما ينبغي أن أعرج على «المواطن» لأستلم رسالتك. جلبوا لي الآن بقية البروفة، الفصلين الأخيرين بكاملهما، سالتيكوف لم يقرأهما، وعليّ أن أراجعهما بكل التفاصيل. ولذا لن أذهب اليوم إلى أي مكان ما عدا الحمام. إلى اللقاء، يا عزيزتي، أعانقك مع طفلينا. لا تأملي في بلاغة الرسالة، ليس لدي وقت، ولا أدري هل سيكون لدي وقت في ما بعد.

إلى اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

تصوري، بورفيري لامانسكي مات منتحراً، طعن نفسه بخنجر في القلب. دفن، على فكرة، وفقاً للطقوس المسيحية.

---

(1) زوجة الكاتب تقيم مع طفليها في شقة مستأجرة بضاحية ستارايا روسا (نوفغورود)، حيث الطقس أدفأ بعض الشيء مما في بطرسبورغ. وكانت المراسلات بين الزوجين يومية تقريباً.

(2) سالتيكوف شيدرين غيَّر رأيه فيما بعد ووصف الرواية «بالجنونية».

(3) وتعني باللاتينية «بلا غضب». نشر الروائي فسيفولود سولوفيوف، شقيق

الفيلسوف فلاديمير سولوفيوف، بهذا الاسم المستعار مقالتين في «وقائع بطرسبورغ» عن رواية «المراهق» بإطراء وتقويم رفيع.

(4) يرى الباحثون أن سبب ذلك البرود هو نشر دوستويفسكي رواية «المراهق» في مجلة نكراسوف «مذكرات الوطن» ذات التوجه الديمقراطي.

(5) «آنّا كارينينا» التي نشرت في«البشير الروسي» عام 1975.

(6) ربما المقصود «فكرة المساومة» بشأن التقارب بين دوستويفسكي ومجلة «مذكرات الوطن».



169. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 9 فبراير 1875

عزيزتي آنيا، مساء أمس استلمت رسالتيك دفعة واحدة. ويبدو أن الرسالة الأولى قضت يوماً زائداً في بريد ستارايا روسا. اطلبي من دائرة البريد أن لا يؤخروا الرسائل، وإلا سأشعر بالقلق من دون موجب. خبر انهيار (إفريز) سقف الشقة أفزعني. فالطفلان كان يمكن أن يتواجدا تحته. ثم إن صاحبة البيت لن تصبر علينا حتى مايو، ستنتظر حتى أبريل فقط، ولن يخيفها تهديدنا بإخلاء الشقة، نظراً لكثرة المستأجرين في بداية الصيف. ولن يكون الأمر على غير ذلك. لأن شقتها المرممة تقع قرب السوق وإيجارها لن يكون أقل من 200 روبل لفصل الصيف. اكتبي لي، يا آنيا، كل يوم، لأنني لا أستطيع أن أتحمل الكآبة هنا من دون أخبارك وأخبار الصغيرين. أمس، حالما فرغت من كتابة الرسالة إليك دخل عليَّ نكراسوف. جاء، كما قال، «ليعبّر عن الإعجاب العميق بخاتمة الجزء الأول... انهمكت طول الليل بقراءته مع أن أشغالي وحالتي الصحية لا تسمح بذلك. ما



منزل دوستويفسكي في ستارايا روسا

أجمل الطراوة والجدة عندك يا شيخ. هذه الطراوة لم تعد موجودة في مثل سننا، وهي ليست موجودة لدى أي كاتب آخر. رواية ليف تولستوي الأخيرة[1] مجرد تكرار لما قرأته له سابقاً، بل إن السابق أفضل». هكذا تكلم نكراسوف. وقد أعجبه بخاصة المشهد الأخير مع ليزا، كما يعتبر مشهد انتحار (أوليا) وحديث (المراهق عنها) «ذروة الروعة». وأضاف: «أضعف ما في الرواية الفصل الثامن، ففيه أحداث عادية كثيرة». والحقيقة أنني عندما قرأت البروفة لم يعجبني الفصل الثامن بالذات، فحذفت منه الكثير. عموماً نكراسوف راضٍ عن الرواية تماماً، وقال: «جئت لأتفق معك على ما تبقى. باللّه عليك لا تستعجل، فتفسد الباقي، ذلك لأن البداية أكثر من جيدة». وعرضت عليه خطتي بالمناسبة: نفوّت مارس ثم ننشر الجزء الثاني في أبريل ومايو، ثم نفوّت يونيو وننشر الجزء الثالث في يوليو وأغسطس وهلمجرا[2]. وقد وافق على الخطة بارتياح. (كما حُلت المسائل المالية بالتراضي). وتأكد لي أن المجلة تقدرني كثيراً، وأن نكراسوف

(صديق الطفولة) يريد أن يبدأ علاقات ودية تماماً. تحدثنا ساعة ونصفاً، وكدت أتأخر على الطبيب. طوال نهار أمس كنت كالمريض متوتر الأعصاب بسبب قلة النوم. (. . .) مساء أمس كنت عند كورنيلوف (رئيس الاتحاد السلافي) ودفعت له بدل عضويتي في الاتحاد (. . .) استقبلني الرجل بترحاب مدهش، وسألني عن أحوالي وحدثني عن الكثير وعرّفني على الكثيرين، بمن فيهم شقيقه الأكبر. كان الحضور قرابة عشرين شخصاً من مختلف الشرائح الاجتماعية، ومايكوف لم يحضر. كان هناك ستراخوف، وقد طلب مني أن آتي إليه مساء الاثنين (. . .) أنا قلق عليكم، إلى اللقاء، يا ملاكي، أحبك، وإلى ذلك أشعر بحاجة ماسة إليك. أقبّل الصغيرين وأباركهما. أفكر في الرحيل من هنا في الخامس عشر من الشهر، بل وربما قبل ذلك إنْ أمكن. أعانقك يا عزيزتي، وأتمنى لك موفور الصحة. خبريني عن كل شاردة وواردة.

تحياتي للجميع.

المخلص زوجك الذي يغرقك بالقبل

ف. دوستويفسكي

---

(1) «آنّا كارينينا»

(2) الجزء الثالث من «المراهق» نشر في أعداد «مذكرات الوطن» لأشهر سبتمبر وأكتوبر ونوفمبر 1875.

170. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 12 فبراير 1875

عزيزتي آنيا، استلمت رسالتك المؤرخة في العاشر من الشهر، الاثنين، وفيها خوف شديد (من التيفوئيد في بطرسبورغ). لا تقلقي بشأني، باللّه عليك. إذا كنت أشعر بسوء فالسبب هو الأعصاب، لأنني في الفندق، ولست في مكاني، والمشاغل القادمة تمنعني من النوم بما فيه الكفاية. فلا تخافي. كل شيء سيكون على ما يرام. أنا بالطبع لن أبقى هنا يوماً واحداً إلا بمقتضى الضرورة. مشفى سيمونوف التهم كل أوقاتي. ولا يمهلني لأنجز أي عمل. أكتب لك على عجل، وسأمضي الآن إلى نكراسوف، وآخذ منه نقوداً إذا كان ذلك بالإمكان. تطلبين أن أرسلها، أقسم لك أنني لا أمتلك دقيقة واحدة من الوقت. كل ما سأستلمه من نكراسوف سأبعثه إليك رأساً. وحتى ذلك الحين اقترضي من القسيس. يوم أمس عندما كان معي (أخي) كوليا دخل علينا كورنيلوف، في زيارة جوابية، وكان لطيف المعشر جداً، وبقي عندنا أكثر من نصف ساعة. يا له من إنسان مهذب. ثم مضيت بعد الطبيب إلى مايكوف لتناول طعام الغداء.

والقضية أنني أعربت أمام ستراخوف، عندما كنا عند كورنيلوف، عن رأيي بأن مايكوف استقبلني بمنتهى البرود، ولذا أظن أنه زعلان، والأمر سواء بالنسبة لي. فدعاني ستراخوف عندئذٍ لزيارته يوم الاثنين، وجاءت رسالة مايكوف ودعوته لي نتيجة لما أبلغه به ستراخوف. كان مايكوف وآنّا إيفانوفنا والآخرون مستبشرين، إلا أن ستراخوف كان عبوساً لسبب ما. ثم إن مايكوف، عندما أخذ يتساءل عن نكراسوف وحدثته عن مجاملة الرجل لي اكتأب، فيما ظل ستراخوف في برود شديد. نعم، يا آنيا، إنه تلميذ خبيث ولا شيء آخر. تركني مرة في حياتي عندما احتجبت «العصر» ولم يعد إلا بعد نجاح «الجريمة والعقاب». مايكوف أفضل منه بكثير. وسيشعر بالأسف ويبدأ بالتقارب من جديد. فهو، على أية حال إنسان طيب، وليس تلميذاً خبيثاً. الآن، بعد أن تركت مايكوف، مضيت إلى عائلة سنيتكين، ولم أجد ألكسندر نيكولايفيتش في البيت، ثم جاء (. . .) وقضيت الوقت عندهم بكل ارتياح حتى الحادية عشرة. وسأذهب مرة أخرى من أجل الطرحة النسائية.

إذا لم أتمكن من السفر إليكم يوم السبت فسأحاول جهدي يوم الأحد. إلى اللقاء يا عزيزتي، لن أكتب الكثير، فسأحدثك بنفسي فيما بعد. أعانقك وأقبّلك بحرارة، أنا بحاجة ماسّة إليك.

أعانق الصغار جميعاً وأقبّلهم وأباركهم.

المخلص المحب

ف. دوستويفسكي

(. . .)

لم أستلم جواز السفر حتى الآن. لا تقلقي بخصوصه.

171. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 24 مايو 1875

حماتي العزيزة آنيا، وصلت أمس على أية حال (من ستارايا روسا) ولا أدري هل سأتمكن من المغادرة غداً، الأحد، أم لا. هناك قطار يتوجه إلى برلين في الحادية عشرة من صباح الغد ويصل إليها الاثنين، في منتصف ليل اليوم التالي. وهذا هو الأفضل، لكنني أخشى أن يؤخروني غداً، وإلى ذلك قد لا آخذ كفايتي من النوم هذه الليلة. في محل خياطة شارمر[1] أرجأوا البدلة يوماً واحداً للتعديلات الأخيرة، ولم يجلبوها اليوم حتى الآن كما وعدوني. وإلى ذلك بادروا بأنفسهم لخياطة صديري لي بـ 8 روبلات، على أن ينجزوه مساء اليوم أو صباح الغد. وإذا جاؤوا غداً بعد التاسعة لن أتمكن من السفر لأن القطار يتحرك في الحادية عشرة. أخذت الجزمة. وزرت بوتسيكوفيتش وميشيرسكي. ولم يحضر مايكوف مأدبة الغداء، فقد اعتذر سلفاً وقال إنه مدعو لتناول الطعام في مكان آخر. من الواضح تماماً أنه لا يريد اللقاء معي. ولذا لن أمر عليه[2]. زرت الزوجين كاشبيريف، فاستقبلاني بالترحاب وأعربا عن إعجابهما الشديد

«بالمراهق». (. . .) مررت على (ابن أخي) ميشا في البنك، ليس لديه جديد. إنه مستعد لعدم رهان الضيعة وموافق على الانتظار. ألكساندرا ميخائيلوفنا قدمت من جديد طلباً وتريد المرافعة وفقاً لتعليمات المحكمة. ولا أحد يعلم لماذا سافر بولياكوف إلى محافظة ريازان (حيث تقع إحدى ضياع كومانين)[3].

بالأمس كنت متعباً جداً ومع أنني نمت هذه الليلة جيداً، ولكنْ حبذا لو غفوت ساعة إضافية أو ساعتين. الشمس ساطعة هنا، لكن الجو بارد. كل النساء هنا، يا آنيا، بلا استثناء تقريباً، يرتدين السواد، وهو منظر جيد. ولا أدري هل هي الموضة أم شيء آخر غيرها. خبري فيديا بأنني كنت أنظر إليه طويلاً من على متن الباخرة. وكذلك ليليا وهي تنحني لي مودعة. حقاً رأيتكم جميعاً وأنتم تتركون الرصيف. عزيزتي آنيا، باللّه عليك احرصي عليهم وصونيهم. وأنا أحبك بلا نهاية. رأيتك في المنام ليلة البارحة. اكتبي لي عن أحوالك حتى أصغر التفاصيل (. . .) إلى اللقاء يا عزيزتي، سأكتب لك في المرة التالية من إيمس. من المحتمل جداً، ربما بخمسين في المئة، أنني لن أغادر غداً، وسيحتجزونني (في العمل)، وعندها سأكتب لك من هنا. الشقق الفارغة هنا كثيرة جداً، لكنّ إيجارها جميعاً باهظ الثمن. اشتريت سوفورين[4]، مطالعته في الطريق متعبة. وسيبعثون لي «البشير الروسي»[5] إلى أيمس. أقبّل عينيك، وكل أطفالنا.

المخلص زوجك الأبدي الذي لا يتغير
ف. دوستويفسكي.

الأصح الذي يتغير نحو الأفضل.

---

(1) شارمر خياط مشهور في بطرسبورغ ورد اسمه عند دوستويفسكي في «الجريمة والعقاب» و«الشياطين»، وفي مسودة «المراهق».

(2) يبدو أن ميشيرسكي كان ينوي في مأدبة الغداء عنده أن يصلح ما بين دوستويفسكي ومايكوف.

(3) دوستويفسكي يتحدث في هذه السطور عن تقسيم تركة خاله كومانين.

(4) المقصود على الأرجح كتابه «لمحات وصور» الذي صدر بمجلدين عام 1875.

(5) كانت هذه المجلة تواصل آنذاك نشر «آنّا كارينينا» لتولستوي.



172. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 10 يونيو 1875، الثلاثاء

عزيزتي آنيتشكا، استلمت رسالتك الرقيقة يوم الأحد، أقصد الرسالة التي كتبتِها يوم الثلاثاء الثالث من يونيو، في السابعة صباحاً كما أشرت فيها. إلا أنها لم ترسل من ستارايا روسا في اليوم نفسه، لأن على الظرف ختم بريد المنشأ ليوم 4 يونيو، ذلك لأن دائرة البريد عندكم تتعمد تأخير الرسالة ليوم واحد لتتمكن أولاً في 3 من الشهر من إرسال الرسالة السابقة المؤرخة في 28 مايو والتي ظلت تنتظر في دائرة البريد خمسة أيام. ولو أنهم بعثوا الرسالتين في وقت واحد لافتضح إهمالهم. عاتبيهم، يا آنيا، بحدة كيلا يكرروا هذه الحماقات. يقلقني جداً أنك تكتبين عن توتر أعصابك وحدّة انفعالك، فإلامَ يقودنا ذلك؟ أنا هنا أشعر بالقلق من كل شيء. لأنني نفسي سريع الانفعال. باللّه عليك لا تنظري إلى الأمور بمنظار قاتم. هناك من هم أسوأ منا بألف مرة. فيما يمكننا أن نفرح للأطفال على الأقل. لقد سررت عندما قرأت ما تكتبينه عنهم. لكنني مشغول البال

بهم ليل نهار، وبنا جميعاً. كل شيء على ما يرام، ما عدا المصادفات. أخشى ما أخشاه هو المصادفات.

سنلتقي قريباً على أية حال. ولا أظن أنني سأمكث هنا طويلاً. ومع أنني لن أتمكن من كتابة شيء من («المراهق») فسآتي قبل الأوان. ولا أدري هل سيعود العلاج عليَّ بالنفع هذه المرة؟ حتى الآن لا أرى مؤشراً على ذلك. صحيح أنني لا أزال في اليوم العاشر فقط من العلاج.

القشع يتجمع أكثر مما في ستارايا روسا. وأتلمس بوضوح أن الجرح لا يلتئم. ثم إن الطقس يتقاطع مع العلاج تماماً. المطر يهطل مدراراً وبلا انقطاع منذ رسالتي الأخيرة حتى هذا اليوم. فما نفع العلاج في مثل هذا البلل؟ وأنا مستبرد قليلاً طول الوقت. لعن اللّه الرطوبة والملل. أظن أنني سأجن من الضجر في آخر الأمر أو أقدم على تصرف أحمق. لا يمكن تحمّل ما أتحمله. إنه العذاب بعينه. إنه أسوأ من السجن. ولو كنت أعمل لانشغلت عن ذلك بالكتابة. لكنني لا أستطيع، لأن الخطة لم تنتظم، وما أراه هو الصعوبة البالغة. وما لم تختمر الفكرة يتعذر الشروع بالكتابة، ثم إن الإلهام غائب في جو الملل والضجر. وهو الأهم. (. . .)

ما عدا المطالعة لا توجد هنا أية وسيلة للترفيه. لا شيء سوى الموسيقى تعزف مرتين في اليوم عند منابع المياه (المعدنية). وقد تعطلت هي أيضاً، فنادراً ما يعزفون شيئاً ممتعاً. كل ما يعزفونه هو ألحان خليطة أو «مسيرة الأمجاد الألمانية» أو شتراوس أو أوفينباخ وحتى رقصة بولكا «أقراص أيمس»، ولذا تعاف النفس الاستماع إليها. وإلى ذلك تزعجني الجموع الغفيرة، قرابة خمسة آلاف، في مساحة ضيقة نسبياً. يتزاحمون ويتمشون بلا انتظام كالدجاج. وهم

أكثر تحاشكاً في هذه الأيام المطيرة، ويتدافعون مبللين حاملين مظلاتهم المنقعة ملتجئين إلى رواق ما. والمهم أنهم يأتون دفعة واحدة، لأنهم جميعاً يشربون ماء (الينابيع) في مواعيد محددة. في تلك الأثناء تعزف الأوركسرا بولكا «أقراص أيمس». ولا جرائد روسية هناك سوى اثنتين. استلمت «البشير الروسي» وهي مليئة بالترهات. عدد الروس قليل، وكلهم، كما في المرات السابقة، ليسوا من معارفي. قرأت في (أنباء المنتجع) أن البروفيسور إيلوفايسكي وصل من موسكو مع ابنته، وهو البروفيسور نفسه الذي ترأس اجتماع جمعية عشاق الأدب الروسي عندما تلي فيه فصل عن رحلة آنّا كارينينا في القطار. فهتف إيلوفايسكي أن أعضاء الجمعية ليسوا بحاجة إلى الروايات الكئيبة مهما كانت موهوبة، وهو يقصد رواياتي، بل هم بحاجة إلى نتاجات خفيفة الظل مرحة مثلما عند الكونت تولستوي. أنا لا أعرفه شخصياً، ولا أعتقد أنه يرغب في التعرف عليّ. وأنا بالطبع لن أبادر بنفسي. (. . .) أنا قلق جداً (بخصوص مواصلة كتابة الرواية). لأني وحدي هنا. كنت في ستارايا روسا منزوياً وحدي أيضاً، لكنني أعرف على الأقل أن في الغرفة المجاورة أولادي ويمكنني أن أخرج من غرفتي إليهم أحياناً، حتى أنني أسفت لعدم سماع صياحهم الذي كان يزيدني قوة وحيوية. والأهم أنني كنت أعرف أن بقربي آنيا التي هي بالفعل النصف الثاني من كياني، ولا يمكن بالفعل مفارقتها، كما تأكد لي الآن، بل يغدو ذلك مستحيلاً أكثر كلما مر الزمن.

هذا كل ما أردت أن أقوله عن نفسي. عدلت عن فكرة الانتقال وبقيت في فندق «Luzern»، وإليك العنوان على أية حال (. . .) أصحاب الفندق أناس مهذبون، كما يتضح لي يوماً بعد يوم. (. . .).

في الطابق التحتاني تقيم عائلة ألمانية نازحة، الأم فيها امرأة بدينة نسبياً وشاردة الفكر لدرجة أنها تصعد أحياناً درجات ثلاثة طوابق بدلاً من طابقين، فترتطم بباب غرفتي مباشرة. تفتح الباب بحدة ثم تقف لثلاث ثوانٍ مشدوهة لا تعرف أين هي. ثم تصرخ «يا إلهي» وتركض إلى غرفتها في الطابق الذي تحت. حصل لها ذلك مرتين، مرة في الصباح والمرة الأخرى في المساء. على فكرة، أنا أيضاً شارد الفكر مثلها. بالأمس دخلت في فندق «Genz» المجاور لفندقي وأخذت مفتاح الغرفة رقم 10 وصعدت إلى الطابق الثالث وأخذت أفتح بابها، وهي تقع في مثل موضع غرفتي تماماً، إلا أن صاحبة الفندق والخادمة هرعتا إليّ وأوضحتا لي أنني أقيم في الفندق المجاور. ومن حسن الحظ أنهما تعرفانني، وإلا كان من الممكن بالطبع أن تعتبراني لصاً.

آنيا، عزيزتي، اكتبي لي كل ثلاثة أيام، وبأكبر قدر من التفصيل. أنا أنتظر الرسائل كنعمة من السماء.

ولا تزعلي مني، يا ملاكي، لأنني سوداوي المزاج في رسائلي. سأعكف على العمل، إن شاء اللّه، وأنسى السوداوية. وعندذاك ربما يسير العلاج بنجاح. الشمس مشرقة اليوم والجو دافئ. الشيء الوحيد الذي أعرف أنني لن أتخلص منه هو الكآبة. إنها بسبب الحنين إليكم. طول الوقت أخشى أن يحصل لكم مكروه. لقد تخنثت، يا آنيا، من ملازمة البيت طوال ثماني سنوات. ولم أعد قادراً على فراقكم حتى لأمد قصير. إلى هذا الحد وصلت. آنيا، عزيزتي، أنا أفكر في المستقبل طول الوقت. المستقبل القريب والبعيد. الشيء الوحيد الذي أتمناه أن يطيل اللّه في عمري وسنبني وإياك عندئذٍ شيئاً ما للأطفال.

حمامتي، عيشي بفرحة ومسرة، تجولي، تنزهي، وأبعدي عنك أفكار السوء. هل لديك طبيب؟[1] ينبغي دعوته ليتردد عليك. (. . .)

أعانقك وأبارك للأطفال. ما رأيك هل نسمي المولود آنّا إذا كانت أنثى؟ فلتكن في العائلة آنيا ثانية. هل توافقين؟ أنا راغب في ذلك جداً.

أعانقك، وأعانقكم جميعاً مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

تحياتي للجميع.

أراك في المنام كثيراً. وقد بدأت تلاحقني الكوابيس، بفعل المياه (المعدنية). أخشى ما أخشاه نوبات الصرع. فهي لم تحدث من زمان بعيد. ما يعني أنها ستتكرر، إذا حدثت، ثلاث مرات في الشهر. هكذا يحصل دوماً بعد الانقطاع الطويل. فماذا سأفعل للرواية عندئذٍ؟

---

(1) آنّا غريغوريفنا حامل.

173. إلى ألكسي بليشييف

ستارايا روسا ، 21 أغسطس 1875

العزيز ألكسي نيكولايفيتش المحترم

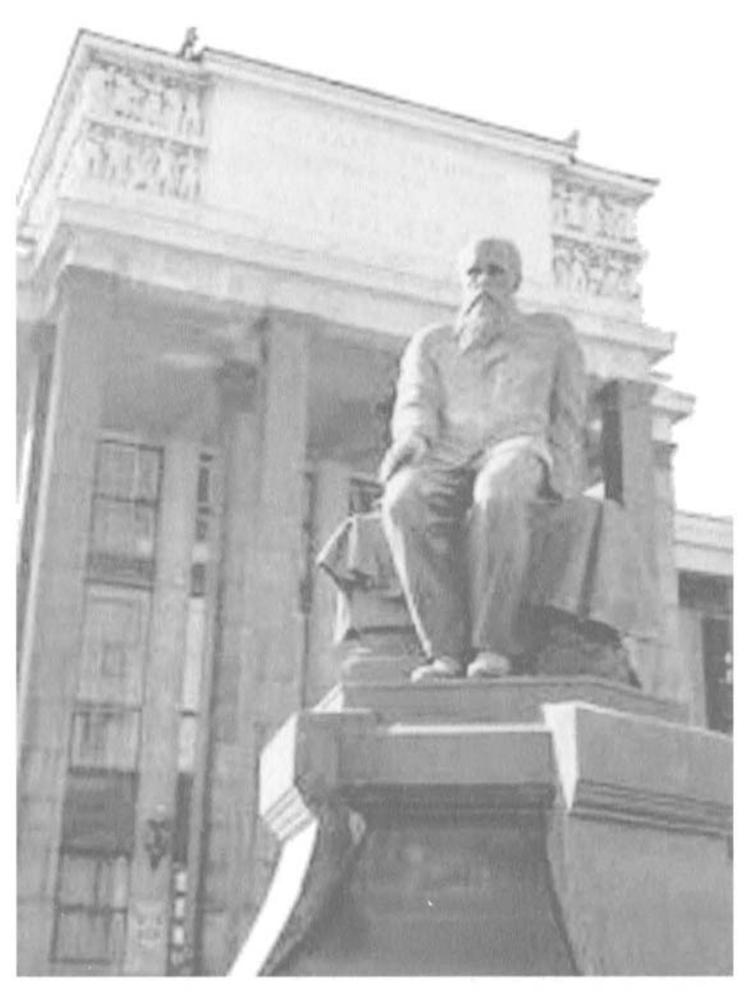
معذرة لإزعاجك. أرسلت 3 فصول من أصل خمسة لعدد سبتمبر ، من الجزء الثالث لروايتي («المراهق»). ولا أدري ما إذا كان نيكولاي ألكسييفيتش (نكراسوف) موجوداً في بطرسبورغ أم لا؟ أظنه غير موجود. ولذا أتوجه إليك كصديق قديم كي تخبر أحداً (من هيئة تحرير «مذكرات الوطن») أن لا يتهاونوا في إرسال البروفة لي إلى هنا بأسرع ما يمكن. أعتقد أنني سأكون في بطرسبورغ في الخامس من سبتمبر. إلا أن إرسال البروفة لن يعيقني. والأهم أن تؤكد على عدم حذف شيء منها. فكل واحد من شخوص الرواية يتكلم بلغته ومفاهيمه. علماً بأن «المتعبد» الذي ينطق من الإنجيل إنما يتكلم بمنتهى الحذر. وقد توليت بنفسي دور الرقابة على كل كلمة يتفوّه بها. باللّه عليك، يا ألكسي نيكولايفيتش، ساعدني ولو قليلاً إذا استطعت.

المخلص ف. دوستويفسكي



تمثال بوشكين في موسكو


سادساً:
ما قبل «الأخوة كارامازوف»
(1880)



تمثال دوستويفسكي في موسكو

174. إلى يعقوب بولونسكي

بطرسبورغ، 4 فبراير 1876

السيد يعقوب بتروفيتش المحترم

أشكرك على التحية ويسرني أنها جاءت منك. كنت أنوي زيارتك منذ ثلاثة أشهر[1]، إلا أن المشاغل التي تبلغ حد العذاب أعاقتني. مجلتي «يوميات الكاتب» لا تعجبني كثيراً. بودّي أن أتحدث فيها أكثر بمئة مرة. كنت ولا أزال شديد الرغبة في الكتابة عن الأدب وعما لم يكتب عنه أحد منذ الثلاثينات، وأعني الجمال الخالص. ولكنني أخشى أن أَغرق في هذه المواضيع وأُغرق المجلة معي. في أربعة أيام بيع منها في بطرسبورغ 3000 نسخة. ولا أدري في ما يخص موسكو وسائر المدن، هل بيعت هناك ولو نسخة واحدة؟ هذه المسألة لا انتظام فيها. وإلى ذلك لا يفهم الجميع تحديداً هل «اليوميات» مجلة أم كتاب[2]. سنتحدث عنها فيما بعد. ولكن قل لي كيف يجوز أن تعاني من المرض طول الوقت؟ أنا لم أرك من زمان، وسأمر عليك حتماً هذه الأيام: والآن أكرر شكري على الرسالة.

المخلص ف. دوستويفسكي.

(...)

---

(1) كان الشاعر بولونسكي طريح الفراش.

(2) أخذ الناقد بوبريكين على دوستويفسكي غموض التسمية والخلط بين اليوميات المعتادة وبين المجلة الأدبية.



175. إلى كريستينا ألتشيفسكايا

بطرسبورغ، 9 أبريل 1876

الفاضلة كريستينا دانيلوفنا الموقرة

أرجو المعذرة لأنني لم أرد على رسالتكم في الحال. عندما استلمتها كنت مشغولاً بالعمل[1]، ومع أنني أنهيه في حدود الـ 25 من الشهر، إلا أن هناك الكثير من المشاغل المتعلقة بالمطبعة والتوزيع وما شابه. وإلى ذلك أصبت بالرشح هذا الشهر، ولم أتعافَ حتى الآن.

قرأت رسالتكم بمنتهى الارتياح، وخصوصاً الفصل المرفق بها من يومياتكم الرائعة. وأستنتجت أنكم من الذين يمتلكون موهبة «رؤية الطيبة وحدها».

بخصوص مدرسة السيدة تشيرتكوفا (للمشردين) أنا لا أعرف شيئاً عنها. وسأستفر في أول فرصة سانحة. وإنني على يقين من صحة ما كتبتموه (. . .) أنا لا أعرف إلى أين سيرسلني الأطباء في الصيف. إلى أيمس أغلب الظن. وقد كنت فيها مرتين، وربما إلى يسينتوكي في القوقاز. وسأعرج على خاركوف في طريق العودة. أنا أنوي من زمان

زيارة جنوب بلادنا الذي لم أكن فيه بعد. وعندها، إن شاء اللّه، سأتعرف عليكم شخصياً إذا شرفتموني باللقاء.

أبلغتموني بالفكرة القائلة إنني انشغلت بصغائر الأمور، في «يوميات الكاتب»، (بدلاً من الروايات). لقد سمعت مثل هذا الكلام من البعض هنا أيضاً. إلا أنني أقول لكم، بهذه المناسبة، إنني توصلت إلى نتيجة لا محيد عنها، وهي أن الكاتب الروائي، بالإضافة إلى الحبكة، يجب أن يعرف بمنتهى الدقة وبأصغر التفاصيل، الواقع التاريخي والمعاصر الذي يصوره. ليس عندنا، في اعتقادي، سوى كاتب واحد يمتلك هذه الميزة وهو الكونت ليف تولستوي. أنا أقدر فيكتور هيغو رفيع التقدير كروائي. حتى أن المرحوم فيودور توتشيف، تصوروا، زعل مني ذات مرة (بسبب هذا التقدير) وقال إن «الجريمة والعقاب»، روايتي، أعلى مستوى من «البؤساء». لقد قدم هيغو، رغم الاسترسال المفرط أحياناً في التفاصيل، مشاهد ولوحات مدهشة ما كان العالم ليعرفها لولاه. ولذا رأيت، وأنا أستعد لكتابة رواية ضخمة[2]، أن أغوص خصيصاً ليس في دراسة الواقع بذاته، فأنا ملم به أصلاً، بل في تفاصيل المجريات. ومن أكبر المهمات بالنسبة لي في تلك المجريات، مثلاً، جيل الشباب، ومعه الأسرة الروسية المعاصرة، التي هي، كما أتلمس ذلك، بعيدة كل البعد عما كانت عليه قبل عشرين عاماً. وثمة أمور كثيرة أخرى بالإضافة إلى ذلك.

في الثالثة والخمسين من العمر (الأصح في الـ 54) يسهل التخلف عن الجيل لدى حصول أبسط تهاون. قبل أيام التقيت غونتشاروف، وسألته بلا مواربة هل يفهم كل ما يجري في الواقع المعاش أم أنه لم يعد يفهم بعض جوانبه؟ فأجابني بصراحة إنه لم يعد يفهم الكثير. بالطبع أنا أعرف بنفسي أن هذا المفكر الكبير يفهم، بل ويعلّم

الفاهمين، إلا أنه بالمعنى الذي تساءلت فيه وفهمني قبل أن أكمل كلامي، لا يريد أن يفهم ما يجري. وأضاف قائلاً: «مُثلي العليا عزيزة عليّ، وأريد أن أقضي ما تبقى من عمري مع ما أحببته في الحياة ومن الصعب عليَّ أن أدرس تصرفات هؤلاء ولا أريد أن أضيع وقتي الثمين معهم». وأشار بيده إلى المارة في جادة نيفسكي. لا أدري هل عبّرت لكم، يا كريستينا دانيلوفنا، عن ذلك بشكل مفهوم؟ إلا أنني مهتم بأن أكتب شيئاً بكامل المعرفة بالموضوع، ولذا سأقضي بعض الوقت في الدراسة إلى جانب تسيير أمور «يوميات الكاتب» كيلا تضيع سدى انطباعات كثيرة. كل ذلك بالطبع في المثال الأعلى المرتجى. هل تصدقون بأنني لم أتمكن بعد من استيضاح شكل «اليوميات». ولا أدري هل أتمكن من تنظيم ذلك في زمن ما. ولذا مع أن «اليوميات» ستستمر عامين، إلا أنها تبقى على أية حال غير موفقة. على سبيل المثال، عندما أشرع بالكتابة يكون في ذهني ما لا يقل عن 10-15 موضوعاً. إلا أن المواضيع التي أحبها أكثر أرجئها عفوياً، لأنها تشغل مكاناً أكبر وتتطلب جهداً أكثر (. . .) وهي تضر بعدد المجلة، حيث يختفي التنوع نظراً لقلة المقالات. ولذا أكتب ليس ما أردت أن أكتب. ومن جهة أخرى، ظننت بمنتهى السذاجة أن تلك ستكون يوميات حقيقية. فاليوميات الحقيقة متعذرة تقريباً. على سبيل المثال، على مدار ثلاثة أشهر أستلم رسائل كثيرة من مختلف الأرجاء، بعضها موقَّع من مرسليها وبعضها مهمل. وكلها تعبر عن المشاطرة. وبعضها مكتوبة بشكل مثير وأصيل. وهي إلى ذلك من جميع الاتجاهات القائمة الآن.

وقد أردت أن أكتب مقالة عن جميع هذه الاتجاهات المتنوعة التي التقت في تحيتها لي. أردت أن أعبّر عن الانطباعات التي خلفتها

تلك الرسائل دون أن أذكر أسماء مرسليها. وإلى ذلك ثمة فكرة تشغل بالي أكثر فأكثر: «فيمَ تكمن وحدتنا، وما هي النقاط التي يمكننا، نحن ممثلي مختلف الاتجاهات، أن نتوافق عليها؟» وفجأة أدركت وأنا أهمّ بكتابة المقالة أنه لا تجوز كتابتها مطلقاً بمنتهى الإخلاص والمصداقية، وإذا كان من دون مصداقية فهل من موجب لكتابتها؟ وإلى ذلك لن تتضمن المشاعر الحماسية المطلوبة. (...)

معذرة إذا كنت قد أسهبت في الكلام. ثم إنني لا أجيد كتابة الرسائل. كما أعتذر عن خربشة خطي، فأنا الآن أعاني من الإنفلونزا والصداع، وهذا اليوم أشعر بألم في العينين، ولذا أكتب دون أن أرى الحروف تقريباً.

اسمحوا لي أن أشد على يدكم، وأتشرف بأن تعتبروني من الكثيرين الذين يكنّون لكم أعمق الاحترام والتقدير.

خادمكم فيودور دوستويفسكي

---

(1) المقصود إصدار مجلة «يوميات الكاتب».

(2) كان لدى دوستويفسكي مخطط رواية بعنوان «الآباء والبنون»، ولم ينفذه، بل نقل مضمونه إلى «الأخوة كارامازوف».

176. إلى صوفيا لوريه

بطرسبورغ، 16 أبريل 1876

الفاضلة صوفيا يفيموفنا[1] المحترمة

يصعب عليَّ جداً أن أبعث إليك في الرسالة مباشرة عدة عناوين للكتب التي تلزمك. ألا تريدين أن تأتي إليّ بنفسك للحظة في أوقات الدوام من الثالثة إلى الرابعة بعد الظهر؟ فمع أنني مشغول، لكنني سأجد بضع دقائق احتراماً لثقتك الغالية بي والتي أجيد تقديرها حق قدرها. اختيار الكتاب، أي كتاب، ينبغي أن يتم طبقاً لطبيعة الذكاء. ولذا الأفضل أن نتعرف بعضنا على بعض.

أنا في الانتظار.

ف. دوستويفسكي

---

(1) شابة من المعجبات بدوستويفسكي في التاسعة عشرة من العمر.

177. إلى فاسيلي ألكسييف

بطرسبورغ، 7 يونيو 1876

السيد الكريم (فاسيلي ألكسييفيتش)[1]

معذرة لأنني أرد اليوم فقط على رسالتكم المؤرخة في 3 يونيو، ذلك لأنني كنت في نوبة الصرع.

أنتم تطرحون سؤالاً حكيماً الإجابة عليه تستغرق وقتاً في الواقع. القضية بحد ذاتها واضحة.

في غواية إبليس تجلت ثلاث أفكار عالمية هائلة. وها قد مر 18 قرناً ولا تزال تلك الأفكار هي الأصعب والأكثر تعقيداً، ولا أحد يستطيع حلها.

«الحجر والخبز»[2] مسألة اجتماعية راهنة من صلب الوسط الاجتماعي. إنها ليست نبوءة، هكذا كان الوضع على الدوام. أليس إطعام الجياع أكثر إلحاحاً من تبشيرهم بملكوت السماء؟

4 : 1 أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئاً من الروح القدس وكان يقتاد بالروح في البرية

4 : 2 أربعين يوماً يهرب من إبليس ولم ياكل شيئاً في تلك الأيام ولما تمت جاع أخيراً

4 : 3 وقال له إبليس إن كنت ابن اللّه فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً

4 : 4 فأجابه يسوع قائلاً مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من اللّه(3)

5 : 2 ففتح فاه وعلمهم قائلا

5 : 3 طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات

5 : 4 طوبى للحزانى لأنهم يتعزون

5 : 5 طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض

5 : 6 طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون

5 : 7 طوبى للرحماء لأنهم يرحمون

5 : 8 طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون اللّه

5 : 9 طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء اللّه يدعون

5 : 10 طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات

5 : 11 طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين

5 : 12 افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السماوات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم

5 : 13 أنتم ملح الارض ولكن أن فسد الملح فبماذا يملح لا يصلح بعد لشيء إلا لأن يطرح خارجاً ويداس من الناس

5 : 14 أنتم نور العالم لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل(4)

«قل لهذا الحجر أن يصير خبزاً»!

تلك هي الفكرة الأولى التي طرحها الروح الشرير على يسوع. ألا توافقونني أنها صعبة التنفيذ؟ الاشتراكية الحالية في أوروبا، بل وعندنا أيضاً، تبعد المسيح وتهتم في المقام الأول بالخبز وتستعين بالعلوم وتؤكد أن سبب جميع مصائب البشرية واحد، هو الفقر، الصراع من أجل الوجود، «فالوسط الاجتماعي التهم كل شيء». وقد أجاب يسوع على ذلك: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». أي أنه ذكر بديهية الأصل الروحي للإنسان. فكرة الشيطان لا تناسب إلا الشخص البهيمة، فيما يعلّم المسيح أنك لن تعيد الإنسان إلى الحياة بالخبز وحده. وإذا انعدمت الحياة الروحية والمثال الأعلى للجمال يكتئب الإنسان، يموت، يجن، ينتحر أو ينساق لخيالات الوثنية. وطالما أن المسيح في ذاته وفي كلمته هو مثالنا الأعلى فقد رأى أن الأفضل أن يُسكن في أرواح الناس المثال الأعلى للجمال، فالجميع، إذا كانت أرواحهم تحتضن الجمال، يغدون أخوة وعضداً بعضهم لبعض، وعندذاك يغدون بالطبع أغنياء يعملون أحدهم للآخر. في حين أنك إذا أعطيتهم الخبز وحده قد يغدون بسبب الضجر أعداء بعضهم لبعض.

ولكنْ ماذا لو أعطيتهم الجمال والخبز معاً؟ عندذاك ينتزع العمل من الإنسان، تنتزع الشخصية والتضحية بالخيرات من أجل الأقربين، باختصار، تنتزع الحياة كلها، ومثالها الأعلى، ولذا الأفضل نشر النورانية الروحية وحدها.

والدليل على هذه الأفضلية هو أن الكلام في هذا المقتطف الموجز من الإنجيل يدور حول هذه الفكرة تحديداً وليس فقط عن كون يسوع جائعاً وإبليس تحداه بأن يحول الحجر إلى خبز. الدليل أن

يسوع أجاب بالكشف عن سر الطبيعة: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» كالبهيمة.

ولو كان الحديث يدور فقط عن سد رمق يسوع فما الموجب للتطرق إلى الطبيعة الروحية للإنسان عموماً؟ ثم إنه كان حتى من دون نصيحة إبليس يستطيع أن يحصل على الخبز قبل ذلك لو أراد. تذكروا، على فكرة، نظريات داروين والآخرين الحالية بشأن أصل الإنسان من القرد. يسوع لم يبحث عن النظريات عندما أعلن مباشرة أن في الإنسان عالماً روحانياً إلى جانب العالم الحيواني. (. . .) والمزعج أن الإنسان بخطاياه يمكن أن يتحول إلى بهيمة من جديد.

خادمكم المطيع ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) عازف أحادي في مسرح مارينسكي (بطرسبورغ).
(2) فكرة «الحجر والخبز» من الأفكار الأساسية في «الأخوة كارامازوف».
(3) إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع.
(4) إنجيل متى، الإصحاح الخامس.

178. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 15 يوليو 1876، الخميس

صديقتي العزيزة آنيا، استلمت أمس رسالتك المقتضبة الثانية المؤرخة في 9 يوليو، وأجيبك عليها في الحال من دون انتظار مواعيدنا المعتادة. فالرسالة تركت في نفسي انطباعاً أليماً. بمعنى أن من الصعب عليك تحسين صحتك. وإلا لماذا تكتبين أن من اللازم الاستحمام 15 مرة فقط. ولربما لا يستغرق الحيض 10 أيام، بل يسير بالشكل الطبيعي في الجو الجيد وفي ظروف المعيشة الجديدة، وبالتالي يبقى لديك أكثر من شهر للاستحمام، فهل تستحمين بين يوم ويوم؟ ألا يجوز الاستحمام كل يوم؟ يا ملاكي أنا هنا أحلم بأن تتحسن صحتك أخيراً في (ضاحية) روسا[1] بعد عام من الوضع والرضاعة والعمل المضني في «يوميات الكاتب». آه، يا عزيزتي، فؤادي يتألم لك، فكرت هنا في كل معاناتك في عملك، ومن أجل ماذ؟ يا ليتنا، على الأقل، نستلم نقوداً أكثر. لكنها ليست متوفرة، وإذا كنا نأمل أن تتوفر ففي العام القادم. وذلك عصفور من العشرة التي على الشجرة. لقد وقعت في غرامك، يا آنيا، لدرجة لم تبق في

ذهني أية فكرة سواك. أحلم بالشتاء القادم، وعندما تتحسن صحتك في روسا وننتقل إلى بطرسبورغ لن تعملي كاتبة اختزال ولن تستنسخي كتاباتي بعد الآن. هكذا قررتُ. وإذا اكتتب عدد كبير من المشتركين يجب أن تجدي لك معاونة، حتى ولو (صديقتك) نيكيفوروفا. إلا أنني سأعرض عليك تفاصيل أفكاري عندما نتحرك. سأكون مسروراً لصحة الأطفال، لو كانت جيدة. أحبي ليوشا، وأنا أتوق إلى رؤية فيديا. ولا تهملي ليليا، علميها القراءة شيئاً فشيئاً إن أمكن. أعتقد أن طباعها من طباعك. وستكون طيبة القلب وفطينة ونزيهة، وواسعة الصدر في الوقت ذاته. أما فيديا فطباعه طباعي. وبساطته بساطتي. وهذا، ربما، هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أتباهى به، مع علمي بأنك ربما ضحكت مع نفسك أكثر من مرة على سذاجتي. أليس كذلك، يا آنيا؟ على أية حال، كل شيء مسموح به لك. فأنت سيدتي الآمرة الناهية، ويسعدني أن أنصاع لك. بمعنى أنني أترك لك ما هو لي، وأنا عاجز عن التخلص من تقلب الأطوار والاكتئاب، إلا أنك ما كنت تعرفين أبداً مدى حبي لك رغم ذلك. أما الآن فأنا أشعر وكأنني تجددتُ وبدأت أحبك ثانية، ولم يكن حبي قد بلغ في أي وقت مضى مستوى ما هو عليه اليوم. تمهلي يا ملاكي، وسأكرس نفسي لك، ولعلك تجدين فيّ حينئذٍ شيئاً جيداً.

ليس لدي تقريباً أي جديد أكتبه لك عن نفسي. يقتلني الملل هنا، ويقتلني أكثر لأنني من دونك. علاجي يسير حتى الآن بشكل رديء. أعصابي مضطربة جداً. يصادف عندي تشنج في الحنجرة. وكان ذلك نادراً جداً في السنوات الأخيرة، ما عدا حالات الانفعال العصبي الشديد. يوم أمس وقبل ثلاثة أيام شعرت بمؤشرات نوبة الصرع، أي انقباض الصدر كما يحصل في اللحظات الأخيرة قبيل الصرع.

احتمال النوبات يرعبني. ماذا سيحصل «اليوميات الكاتب» التي لم أبدأها بعد؟[2] وهل سأكتب شيئاً وأنا أشعر بالانفعال والتراخي؟ على أية حال، أنا أتمشى وأتنزه، وشهيتي جيدة. لكن نومي قليل. ثلاث أو أربع ساعات في الليلة الواحدة، لأن العرق يتصبب مني طول الوقت. كما أنه يتصبب كثيراً في النهار أيضاً. وليس ذلك بسبب الحر، بل بسبب أزمة المياه (المعدنية). أنا أعرف ذلك. من يدري، ربما لن تفيدني المياه هذه المرة، ذلك لأن مفعولها الجيد لا يتم إلا بشرط هدوء الأعصاب. في الليل، عندما أتصبب عرقاً، يتابني سعال جاف مزعج للغاية. ورغم روعة النهار هنا هذه الأيام لا يمر يوم من دون عاصفة مباغتة بكل معنى الكلمة تستمر ساعات. وقبل ثلاثة أيام اجتاحتنا زوبعة رهيبة. الاستبراد أثناء هذه العواصف مع التبخر الشديد من السهولة بمكان.

في سياق التحضير للكتابة أعيد قراءة مقالاتي السابقة في الأعداد المطبوعة، وإلى ذلك أقرأ كل المكاتبات التي جلبتها معي. سجلت اسمي في المكتبة العامة البائسة واستعرت زولا[3] لأنني في السنوات الأخيرة استهنت كثيراً بالأدب الأوروبي. تصوري، وجدت صعوبة في قراءته لرداءة السرد، بينما يعتبرون زولا عندنا كاتباً شهيراً من أساطين الواقعية.

أما بخصوص حياتي المعيشية فالطعام سيئ، وليس بوسعي أن أقول إنني أعيش في هدوء. النزلاء لا يتحلون باللياقة مطلقاً، يطرقون على السلالم ويصفقون الأبواب ويتصايحون. لا أدري ماذا سيقول (الدكتور) أورت؟ كل همه أن يتخلص من المريض بأسرع ما يمكن. وهو لا يفحص المرضى تفصيلاً إلا في المرة الأولى (. . .). على أية

حال ربما سأتعافى. المهم أن تهدأ الأعصاب، وعندها يكون العلاج ناجعاً (. . .)

أبارك الأطفال وأقبّلهم وأقبّلك. حدثيهم عني، يا آنيا. أقبّلك مرة أخرى، وفي كل لحظة، حتى رسالتك الثانية هذه قبَّلتها 50 مرة.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) في هذه الضاحية حمامات للمياه المعدنية.
(2) المقصود عدد يوليو - أغسطس.
(3) رواية «أحشاء باريس» لإميل زولا.



179. إلى فسيفولود سولوفيوف

أيمس، 16 يوليو 1876

العزيز الغالي فسيفولود سرغيفيتش. بالأمس فقط استلمت هنا، في أيمس، رسالتك الودية المؤرخة في 3 يوليو من بطرسبورغ. لقد كنا في ستارايا روسا، ولكي نصدر عدد يوليو من «يوميات الكاتب»، جئنا، أنا وزوجتي، إلى بطرسبورغ وتركنا الأولاد هناك في عهدة جدّتهم. بقينا في شقتنا ببطرسبورغ حتى الخامس من يوليو نعمل لإصدار العدد. وكانت الأعمال يومها كثيرة، وإلى ذلك انشغلت آنّا غريغوريفنا بتجهيز مستلزمات سفري إلى الخارج. وارتحلتُ في 5/ 7. (تم تحويل رسالتك إليّ في أيمس). وأقول لك، كلمة شرف، إنني كنت، كما وعدتك، أنوي زيارتك في بيترهوف قبل أن أغادر ستارايا روسا إلى الخارج. إلا أنني لم أتمكن من الإيفاء بوعدي لانشغالي الفظيع في مختلف الأمور الطارئة، فضلاً عن إصدار المجلة. وقد غادرت دون أن أحل بعض المسائل الملحّة المتعلقة بي شخصياً. أما الآن، هنا في منطقة المياه المعدنية، فقد أنعشتني رسالتك الرقيقة ومسَّت شغاف فؤادي، وإلا لكنت أغرق في الضجر،

ذلك لأني لا أعرف لماذا أتعذب من الملل والمزاج السوداوي حالما أصل إلى أيمس، وفي بعض الأحيان لا لسبب ملموس. ولا أدري هل السبب هو العزلة بين ثمانية آلاف متعالج متنوعي اللغات، أم هو طقس المنطقة. إلا أن الملل ينتابني هنا أكثر من أي شخص آخر. تقول إنك تريد أن تلقاني، فما أشد رغبتي أنا أيضاً في لقياك.

إذن، أعجبك عدد يونيو من «اليوميات» كما تقول. أنا مسرور جداً لإعجابك به، ولدي سبب وجيه بهذا الخصوص. أنا لم أسمح لنفسي مرة في كتاباتي أن أسير ببعض معتقداتي حتى نهايتها، فأقول آخر كلمة فيها. وقد لامني أحد المراسلين الأذكياء من مدينة أخرى على أنني أتناول الكثير من الأمور وأتطرق إلى العديد من المسائل في «اليوميات» دون أن أتحدث عن خواتيمها وعواقبها. وها أنا أقول كلمتي الأخيرة من معتقداتي، وأعني أمنياتي فيما يخص دور روسيا ورسالتها بالنسبة للبشرية، وقد ذكرت أن ذلك الدور سيتحقق في المستقبل القريب، بل هو بدأ يتحقق. فما كانت النتيجة؟ لقد حصل ما كنت أتوقعه. حتى الجرائد والمطبوعات التي تربطها مودة بي أخذت تتشدق بأن المفارقات تتوالى عندي بلا نهاية، مفارقة إثر مفارقة، في حين أن المجلات الأخرى لم تُبدِ أي اهتمام بالموضوع، مع أنني تناولت أهم مسألة، على ما أعتقد. ذلك هو ما يعنيه السير بالأمور إلى خواتيمها ! فأنت إن طرحت أية مفارقة دون أن تسير بها إلى خاتمتها تحصل على نتيجة حصيفة عفيفة معتبرة، (في رأيهم) إما إذا سرت بكلمة (أو عبارة) غير موثوقة إلى منتهاها، كأن تقول، مثلاً، بكل صراحة وبلا أدنى تلميح: «هذا هو المهدي المنتظر» فإن أحداً لن يصدقك لسذاجتك ولأنك سرت بالأمور إلى خواتيمها وقلت كلمتك الأخيرة. على فكرة، من ناحية أخرى، لو أن الكثيرين من مشاهير

النابهين، مثل فولتير، رأوا أن يقولوا كل ما يؤمنون به، من دون مزاح ولا تلميح ولا تورية، لما حققوا، صدقني، عشر معشار ما حققوه من نجاح وتأثير. والأكثر من ذلك، ربما سخر منهم الساخرون وضحك عليهم الضاحكون. الإنسان عموماً لا يحب الكلمة الأخيرة، ولا الفكرة «المنطوقة» ويرى أن «الفكرة المنطوقة شهادة زور»[1].

احكم بنفسك، إذن، هل تعز عليَّ أم لا كلمة الثناء منك على عدد يونيو؟ ذلك يعني أنك متفهم لكلمتي ومتقبل لها بالشكل الذي كنت أحلم به عندما كتبت مقالتي تلك. شكراً لك على ذلك، وإلا كنت محبطاً بعض الشيء وأخذت ألوم نفسي على التسرع. وإذا تواجد بين الجمهور عدد من المتفهمين مثلك وإن كان قليلاً فقد بلغت مبتغاي وكلي قناعة، ما يعني أن الكلمة المنطوقة لم تتبدد سدى، فيما تعالت الشماتة من «توالي المفارقات»، وبين الشامتين تحديداً أولئك الذين تخلو أدمغتهم دوماً من الأفكار.

على فكرة، محطة القطار هنا تستلم من الصحف الروسية «الوقائع الموسكوبية» و«الإنفاليد» و«الصوت» و«Journal de St. Pétersbourg»، وليس بينها «العالَم الروسي». ولو كنتَ قد كتبت صدفة شيئاً ما «في العالم الروسي» عن عدد يونيو (من اليوميات) أرجوك أن تسعدني، في ظلامي الحالك هنا، بإرسال المقالة في مظروف عادي، وستصلني على عنواني (. . .) أنا باقٍ هنا حتى السابع من أغسطس بتقويمنا. أشرب المياه (العلاجية)، وإلا ما كنت سأتحمل عذاب المعيشة هنا أبداً لو لم يكن العلاج بالمياه ناجعاً حقاً. لا شيء في أيمس يستحق أن أصفه لك. إطلاقاً. وعدت القراء بإصدار عدد أغسطس من «اليوميات» مزدوجاً وبعدد مضاعف من الصفحات (عن يوليو أيضاً). لكنني لم أبدأ بالتحضير له بعد. ثم إن

الملل قاتل، والعزوف عن العمل يجعلني أنظر إلى الكتابة بتقزز كما أنظر إلى مصيبة لا مفر منها. وأتوقع أن يأتي العدد رديئاً. على أية حال اكتبْ لي إلى هنا، يا عزيزي. أعانقك بحرارة قلبية.

المخلص ف. دوستويفسكي

تحياتي لزوجتك وتمنياتي الصادقة لها بكل خير.

---

(1) استشهد دوستويفسكي مراراً، في «الأخوة كارامازوف» و«المراهق» و«يوميات الكاتب»، بهذا البيت من قصيدة «محراب الصمت» للشاعر الروسي فيودور توتشيف (1803-1873).



180. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 21 يوليو 1876 الأربعاء

عزيزتي آنيتشكا. استلمتُ أمس رسالتك المؤرخة في 15 يوليو. أولاً، وقبل كل شيء، قبِّلي فيديا وهنئيه بعيد ميلاده. أنا لم أكتب لكم بهذا الخصوص قبل الآن، لكنني هنا تذكرت عيد ميلاد الصبي مع نفسي وهنأته به غيابياً. ثانياً اكتبي للوالدة واشكريها بالنيابة عني على مكاتيبها والتهنئة (بعيد ميلاد فيديا).

عزيزتي إذا كانت الوالدة سافرت وليس لديك حاضنة لحد الآن فأنا أتصور مدى صعوبة بقائك وحيدة مع الأطفال ومع خادمة رديئة (. . .) ذلك يقلقني كثيراً، صدقيني يا آنكا. سررت جداً لأنك قررت أن تقيمي القداس[1]. فهذا هو الواجب. أحن طول الوقت إلى المزيد من رسائلك التي أستلمها مرة واحدة فقط كل ثلاثة أيام، بل وأربعة. أمر صعب. ألا يمكنك، يا حمامتي، أن ترسليها بين يوم ويوم؟ حتى وإن كانت الرسالة لا تحتوي على جديد، حتى ولو بسطر واحد. فعندما أقرأ عبارتك «نحن بصحة جيدة» أطمئن وأشعر بالاستقرار (. . .) صرت ألاحظ أنني ملتصق بكم أكثر ولم أعد أتحمل فراقكم

مطلقاً كما في السابق. (. . .) في ليلة 18 على 19 رأيت في المنام كابوساً فظيعاً وكأنما فقدتك. ليتك تعلمين، يا آنيا، بمدى عذابي. تذكرت كل حياتك معي، ووبخت نفسي على تقصيري تجاهك. هل تصدقين أن الكابوس استمر طول النهار منذ أن استيقظت من النوم وظل يرافقني حياً. طوال يوم الـ 19 كنت أفكر فيك وأحن إليك. ولكنت سعيداً بلا حدود لو أني استطعت أن أراك ولو لعشر دقائق. اكتبي لي حتماً هل حصل لك شيء في 18 أو 19 من الشهر؟ وفي الليلة التالية، في الخامسة فجراً، عندما نهضت من الفراش، أصبت بدوار شديد ولم تقو قدماي على حملي، فهويت على الأرض لثلاث دقائق. ثم استمر الدوار طول النهار رغم خفوت حدته. كنت في النبع ثم حضرت صلاة الظهر، لكن الصداع ظل يلازمني. وعندما أخذت أقرأ كانت الحروف تومض خافتة مع أنني أستطيع أن أقرأ. وفي المساء مضيت إلى الدكتور أورت. وقد غيرت رأيي فيه جزئياً، فهو إنسان لطيف، وعندما تقتضي الضرورة يبدي اهتماماً كبيراً، ولا أحد هنا يرتاب بمعارفه كطبيب، بل إن لديه شهرة. طلبت منه أن يفحصني ويخبرني عن احتمال سكتة دماغية. ففحصني بأدق صورة (. . . ونفى أي احتمال). كما نفى تدفق الدم إلى الدماغ، وقال إن ما حصل هو بسبب مرض الرئتين. والحادث عرضي مؤقت (. . .) وأضاف أن المياه تفعل فعلها هذه المرة بأشد من السابق بعض الشيء. والدوار سينتهي بعد يومين أو ثلاثة. وأعطاني مستحضراً للأعصاب والمعدة، وأمرني أن أستعمله من دون عشاء. وأضاف: «ستغط في النوم وينتهي كل شيء» وفعلت بما أوصاني، فنمت جيداً، واليوم الـ 21 من الشهر أشعر بأن حالي كالعادة. الدكتور ضحك عندما سألته عن مضاعفات مرضي وهل سأموت قريباً؟ وقال ستعيش ليس 8 سنوات، بل 15،

«إذا كان الطقس جيداً وإذا لم تستبرد ولم تسئ استثمار طاقاتك، وإذا لم تخالف عموماً الحمية والحذر». أكتب لك كل هذه التفاصيل، يا ملاكي وعزيزتي، كيلا تقلقي بخصوصي، كما يتضح لي من رسالتك. إذن، كل شيء يبقى كما في السابق، ومع أن المرض لن يتلاشى، إلا أن مفعوله سيكون بطيئاً، بشرط التقيد ببعض المحظورات المعتادة. وسيكون ذلك بالإمكان رويداً رويداً.

التقيت هنا أمس في منطقة الينابيع معقب الشؤون الداخلية في «مذكرات الوطن» يليسييف. وهو هنا مع زوجته، يتعالج. بادرني بالتحية وتقدم إليَّ بنفسه. على أية حال، أنا لا أعتقد بأني سأعود إليهم. «فالرافض» العجوز لا يثق بأحد، ويرد على الجميع بالتساؤلات والمجادلات، والأدهى من ذلك تعاليه وغروره الشبيه بغرور تلاميذ الثانويات. (. . .). هذا اليوم لم أصادف يليسييف وزوجته عند الينابيع، وقد يكون زعل مني لأنني غمزت أمس تلاميذ الثانويات (في إشارة إلى رئيس تحرير المجلة). زوجته أكيد زعلت مني. فقد دخلت في جدال معي عن وجود اللّه، فيما قلت لها إنها تكرر آراء زوجها ولا شيء آخر. وقد أغاظها هذا الكلام كثيراً (. . .).

عزيزتي، لم أباشر العمل بعد. وأقسم لك، يا آنيا، أنك أنت جزء من السبب. فأنا طول الوقت أفكر فيك وأتمناك، وأنتظر رسائلك، ولا رغبة لي في العمل. هل يمكن العمل في الكآبة التي انتابتني في التاسع عشر من الشهر؟ باللّه عليك، اكتبي لي عن كل ظروفك ولا تخفي عني شيئاً في رسائلك مما يؤذيك ولا يسرك. وإلا سأتعذب وأبالغ في التصورات. هل استأجرت حاضنة أخيراً؟ يا ملاكي، ما أصعب الأمر عليَّ هنا من دونكم. بالمناسبة أنا أتقيد

بكل التوصيات: أشرب الماء (العلاجي) وأتنزه. لكنني لا أستطيع أن أذلل الطعام: أطباقهم رديئة للغاية. عبثاً، يا عزيزتي، إنك لم ترسلي لي رسالة الشخص الذي يلومني من مدينة أخرى. فهي ضرورية جداً «لليوميات». سيكون في المجلة ركن للرد على الرسائل التي تصلني. ولذا أرسليها في أول بريد إن أمكن، ولا تبخلي بطوابع البريد ولا تختصري رسالتك.

اكتبي لي بوضوح وبدقّة عن معطفي: أين سأجده إذا وصلت إلى بطرسبورغ؟ إلى اللقاء، يا ملاكي، أقبِّلك حتى آخر ذرة، وخصوصاً قدميك الرائعتين. أنت سيدتي الآمرة الناهية، أنا لا أستحقك، لكنني أؤله زوجتي الحبيبة ولن أتنازل عنها لأحد، مع أنني لا أستحقها. أقبِّل الصغار، فيديا ولوبا وليوشا بخاصة، وأباركهم.

المخلص لك بكل شغاف الفؤاد

ف. دوستويفسكي.

---

(1) لمناسبة عيد ميلاد فيديا وشراء منزل في ضاحية ستارايا روسا.

181. إلى لوبوف غولوفينا

أيمس، 23 يوليو 1876

الفاضلة لوبوف فاليريانوفنا المحترمة

أكتب إليك في مدينة غادياتش[1]، ولست واثقاً بأنك حددت لي هذه المدينة بالضبط عندما سمحت لي بمراسلتك. تلك هي ذاكرتي الضعيفة. عولت عليها ولم أسجل عنوانك آنذاك. فيا للمصيبة فيما لو أخطأت العنوان، خاصة وأنني عندما وجدت نفسي وحيداً في أيمس شعرت بحاجة فعلية أن أذكّر بشخصي جميع الذين تلمست فيهم مشاطرة صادقة لي وعزيزة عليّ. أنا هنا من أسبوعين. أما في بطرسبورغ، وخصوصاً في الشهر الأخير، فقد كنت مشغولاً ولدي من الهموم ما يجعلني حتى الآن أتذكرها باكتئاب. بالمناسبة، الحال هنا ليست أفضل. ولا أستطيع أن أعتكف. الجمهور الصاخب بآلافه المؤلفة تقاطر من كل حدب وصوب لتلقّي العلاج. ومع أن الروس بينهم كثيرون، حتى أني وجدت معارف لي منهم، إلا أن ذلك ليس هو المطلوب. ولذا أشعر بملل قاتل، حتى أن المناظر الطبيعية الخلابة والمناطق والمدن الرائعة تزيد من وحشتي وضجري. أمتع أنظاري معجباً ولا أحد أتقاسم معه انطباعاتي.

إنني أتحدث عن نفسي طول الوقت، ولكن كيف صحتك؟ هل أنت في مرح وحبور؟ عندما كنت أحدق وأتبحر فيك طويلاً تأكد لي أنك أم حنون، تحبين بيتك، وإلى ذلك تحبين «مالايا روسيا»[2]. حدثتِني بارتياح وسرور عن الصيف الذي ستقضينه في غادياتش. ولا أفضل من ذلك، أقصد لا أفضل من هذه المشاعر والميول. ولكن هل يعقل أنك حقاً لست سيدة من علية المجتمع؟ لو كنتُ بدلاً عنك لاتخذت لنفسي، ولو لحين من الوقت، موقعاً في المجتمع الراقي، مع أن ذلك بالفعل شغلة مملة. وحتى لو كانت في ذلك تضحية لاعتبرت نفسي ملزماً بتقديمها. على أية حال لن أواصل هذه المسألة، ثم إنني أعتبر مقارنة نفسي بسيدة من المجتمع الراقي شيئاً مضحكاً، مع أن هذه الفكرة خطرت في بالي فعلاً.

أنا أيضاً أتمنى لك أكبر قدر ممكن من السعادة، يخيل إليَّ أن السعادة ترافقك أكثر من أي شيء، وهي تليق بك تماماً. أنا رغم انطوائيتي أعرف عدة نساء، بل ليس قليلاً من النساء، يثقن بي في صدق وإخلاص. وطالما أنا أحب الصدق والإخلاص أكثر من أي شيء آخر فغالباً ما أتذكر بصورة عفوية أصدقائي عندما أفارقهم، كما هو الحال الآن مثلاً.

وأتصفح في الذهن وفي القلب كل هذه الوجوه المعروفة المليحة وأتمنى لكل منهن شيئاً ما كل مرة، أتمنى للواحدة منهمن ما يناسبها ويليق بها أكثر من غيره في اعتقادي. وقد تمنيت لإحداهن أن تمر بهزة شعورية شديدة قد تقرب من المصيبة، حيث خيل إليَّ أنها بحاجة ماسة إلى هذا الشعور، ولكن للحظة عابرة بالطبع. أما أنت فقد تمنيت لك في تصوراتي عدة مرات سعادة لا حدود لها، من دون أدنى سحابة، مدى العمر. هكذا أتصورك. وعندما أتذكر صورتك

ومحياك، لا يمكنني إلا أن أراك ترفلين في السعادة. فهي تليق بك وترافقك تحديداً، ولا أدري لماذا؟ لكنني أدري أنني أتمنى لك السعادة ليس فقط لأنها تليق بك وتناسبك، بل وكذلك بدافع من صميم قلبي الصادق، أتمنى لك الكثير الكثير، وليباركك اللّه.

التقيت هنا البارون غان، هل تتذكرينه؟ جنرال المدفعية الذي تعالج معنا في ردهة الهواء المضغوط. كان من المحتمل أن لا أعرفه. فقد جاء بالزي المدني. وبادرني قائلاً: «كيف لا تعرفني وقد جلسنا معاً نتنشق في ردهة الهواء المضغوط؟». بعد هذا الكلام تذكرته بالطبع. وحدثني أن (الدكتور) فريوريخ حَكم عليه بالموت مشدداً أن مرضه عضال لا علاج له. فسافر في الحال إلى «السيدة الخارقة» في ميونيخ. وأنت تعرفين أنها تعالج بسر خصوصي ويتقاطر عليها المرضى من كل أنحاء العالم، وأنها أسعفته تماماً وأضاف: «كان ذلك في العام الفائت. أما في هذا العام فقد طردتني، تصور، ولم ترغب في علاجي. وها أنا هنا من جديد». وقد تعالج هنا، في أيمس، ليس بالهواء المكثف، بل المخفف، وأكد أن «الساحرة» ساعدته. وقلت له أنا أيضاً محكوم عليَّ ومرضي عضال، وشعرنا بالأسف على مصيرنا، ثم قهقهنا. وبالفعل، كلما حرصنا على البقية الباقية من الحياة، متوقعين النهاية الوشيكة، أمكن بالفعل تجويد الحياة وتحسين الذات، أليس كذلك؟ ومع ذلك أنا متعنّت صامد لا أصدّق الأطباء. ورغم ما أجمعوا عليه وقالوه من أني مصاب بمرض عضال، إلا أنهم كانوا يطيّبون خاطري بأنني سأعيش طويلاً نسبياً بشرط أن أتقيد بالحمية طول الوقت وأتحاشى الإفراط وأهتم قبل كل شيء بتهدئة الأعصاب ولا أنفعل أبداً ولا أجهد دماغي وأسعى إلى أقل قدر من الكتابة، أي التأليف، ولا أخذ برداً، والعياذ باللّه.

حينئذٍ، وبالتقيد بكل هذه التوصيات، «يمكنك أن تعيش فترة طويلة أخرى»، على حد قولهم. وهذا ما أنعش آمالي بالطبع.

على فكرة، البارون غان لا ينوي أن يموت بالمرة. بدلته المدنية رشيقة للغاية، وهو يرتديها بارتياح واضح. وكنت قد لاحظت أن جنرالاتنا يرتدون البدلات المدنية بزهو كبير عندما يسافرون إلى الخارج. وإلى ذلك نرى هنا الكثير من «الحسناوات» من شتى أرجاء العالم يرتدين أزهى الثياب. أظن أنه سيلتقط صورة هنا في بزته المدنية ويهديها إلى أصدقائه في بطرسبورغ. إنه إنسان في منتهى اللطف.

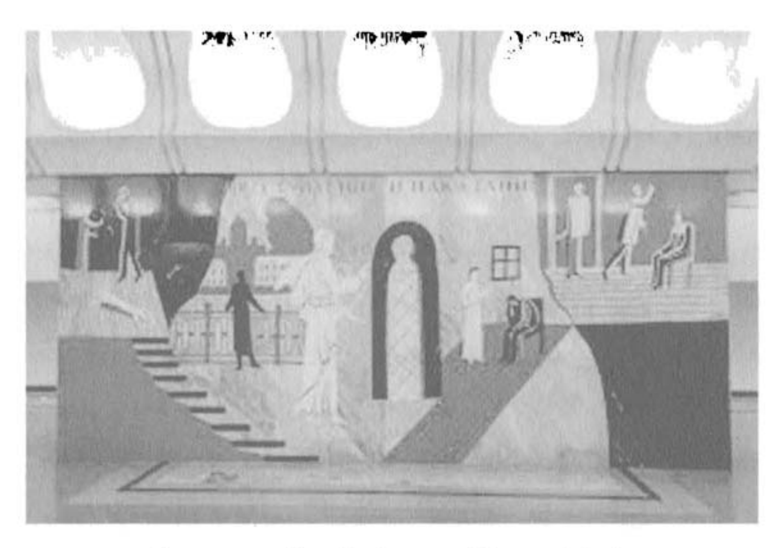
أنت تحبين الأسرة والمنزل والوطن، ما يعني أنك وطنية. وطالما أنت وطنية أحبي، إذن، القضية العزيزة على روسيا، القضية الروسية الصرف لتحرير السلافيين. هنا، في صالة المنتجع، كثير من الصحف، وبينها بضع جرائد روسية. ساعةُ وصول البريد مناسبة ترفيهية كبيرة نتلقف خلالها الجرائد في الحال وننكب على المطالعة، بخصوص السلافيين في المقام الأول طبعاً. وإذا كنت تتابعين ملحمة السلافيين هذه أنصحك بقراءة «الوقائع الموسكوبية»، فهذه الجريدة تقدم كل ما يتعلق بالمسألة الشرقية بوضوح أكثر مما في سائر الجرائد. وفيها الفهم الأسمى والأمثل للقضية. ها أنا أحبّر أربع صفحات، بينما أردت أن أقول لك الأفضل نوعاً، وليس الأكثر كماً. وكالعادة، أنا لا أجيد كتابة الرسائل إطلاقاً. فلا تلوميني، يا لوبوف فاليريانوفنا الطيبة الموقرة، وتيقني من احترامي العميق لك ومن المشاعر الرقيقة التي تنبعث من صميم قلبي كلما أتذكرك.

المخلص لك كل الإخلاص فيودور دوستويفسكي

---

(1) أوكرانيا. تعرَّف دوستويفسكي على غولوفينا وهي تتعالج في مشفى التدرن الرئوي في بطرسبورغ. وكتبت في مذكراتها فيما بعد عن لقاءات مؤثرة بينهما.

(2) «روسيا الصغرى» مصطلح أطلق على أوكرانيا في العهد القيصري..



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

182. إلى قسطنطين ماسليانيكوف

بطرسبورغ، 5 نوفمبر 1876

السيد الكريم ك. إ. م.[1] المحترم

أخشى أن أكون قد تأخرت في الرد عليك، وأنك لن تأتي مرة أخرى إلى متجر إسحاقوف لتأخذ رسالتي (التي تنتظرك هناك).

أشكرك، أولاً، على استحسانك لمقالتي (في «يوميات الكاتب»)، وثانياً على رأيك الطيب بخصوصي أنا.

على فكرة، أنا نفسي أرغب في زيارة كورنيلوفا[2] من دون أمل في تقديم مساعدة لها. فيما وجهتني رسالتك في الطريق المستقيم. مضيت في الحال إلى المدعي العام فوكس. استمع إلى طلبي بشأن مقابلة كورنيلوفا وبشأن رفع التماس إلى صاحب الجلالة (الإمبراطور) للعفو عنها وأجابني أن ذلك بالإمكان، ودعاني للحضور إلى الديوان في اليوم التالي، وسيتدبر الأمر حتى ذلك الحين. في اليوم التالي بعث كتاباً إلى مدير السجن ليسمح لي بمقابلة كورنيلوفا عدة مرات، ووعدني بالمساعدة فيما بعد أيضاً. إلا أن المشكلة في عدم جواز تقديم التماس العفو حالياً، لأن محامي دفاع كورنيلوفا قدم قبل يومين

طلباً إلى مجلس السينات بشأن تمييز الحكم، ولذا لم تتخذ الدعوى شكلها النهائي. ولن يكون بالإمكان رفع التماس العفو إلى المقام السامي إلا بعد أن يصدر رفض من المجلس.

ولما كان وقت زيارة السجن في ذلك اليوم قد تأخر، مضيت في اليوم التالي. وكان رأيي الذي استحسنه المدعي العام أن أتأكد في البداية مما إذا كانت كورنيلوفا راغبة في العفو أم لا؟ بمعنى العودة إلى زوجها وما إلى ذلك. رأيتها في مستوصف السجن في اليوم الخامس من الوضع. وأعترف لك بأنني دهشت أشد الدهشة لنتيجة الزيارة. فقد اتضح أنني، في مقالتي، حزرت بكل شيء تقريباً. زوجها يتردد عليها، ويبكيان معاً. حتى أنه أراد أن يصطحب البنت، «لكن الميتم لا يسمح بخروجها» كما أبلغتني كورنيلوفا حزينة. إلا أن ثمة اختلافاً طفيفاً عن اللوحة التي رسمتها في المقالة، فهو فلاح حقيقي لكنه يرتدي سترة ألمانية طويلة ويعمل موظفاً في (دائرة حكومية متواضعة) براتب قدره 30 روبلاً في الشهر. هذا هو الفارق الوحيد على ما أظن.

تحدثت مع كورنيلوفا على انفراد قرابة نصف ساعة. وهي لطيفة للغاية. في البداية أوضحتُ لها عموماً أنني أتمنى أن أساعدها. وسرعان ما محضتني ثقتها، وذلك بالطبع لقناعتها بأن المدعي العام ما كان سيسمح لي بمقابلتها لغرض تافه. ذهنها يتميز بالصفاء والعزم. إلا أن عقليتها روسية ساذجة، بل وسمحاء. كانت خيّاطة، وعندما تزوجت واصلت هذا العمل لأجل الكسب. محياها يبدو فتياً يافعاً. وهي مليحة. تعلو وجهها مسحة من الهدوء النفساني الرائع. ولا يخيل إليّ أنها تنتمي إلى تلك الفئة من النساء المرحات الأريحيات. إنها الآن هادئة تماماً، لكنها «تشعر بالضجر» راغبة في «البت السريع»

بقضيتها. وسألتها قبل أن أتناول حالة الحمل التي كانت فيها: كيف حصل ذلك؟ فأجابت بصوت خانع حزين إنها لا تعرف. «شعرت بأن إرادة غريبة عليَّ كانت في داخلي». وثمة نقطة أخرى تسترعي الانتباه. قالت: «عندما ارتديت ثيابي ما كنت أنوي الذهاب إلى دائرة الشرطة. وما إنْ خرجت إلى الشارع حتى جئت إليها ولا أدري كيف». ورداً على سؤالي هل تريد العودة إلى زوجها مجدداً، أجابت: «آه. نعم». وانتحبت. ثم أضافت بصوت مؤثر وبتلميح إلى أن زوجها رجل طيب القلب: «زوجي يأتي إليَّ ويبكي عليها». وأجهشت في البكاء من جديد عندما تذكرت إفادة مأمور السجن ضدها، حيث زعم أنها قالت له: من بداية الزواج كانت تكره زوجها وابنته. «هذا كذب. أنا لم أقل له مثل هذا الكلام مطلقاً». «في الأخير شعرت بمرارة العلاقة مع زوجي، فكنت أبكي دوماً، وهو يقرعني». وفي صباح الحادث ضربها زوجها.

لم أخفِ عليها إمكان رفع التماس إلى المقام السامي بشأن العفو إذا فشلت دعوى الاستئناف. استمعت إليَّ بمنتهى الاهتمام وطغت عليها مسحة من المرح: «ها أنت الآن تؤملني، وإلا فما أشد الضجر».

وسألتها بشيء من التلميح: هل هي بحاجة الآن إلى شيء؟ ففهمتني بكل بساطة ومن دون غيظ، وقالت بصراحة إن كل شيء متوفر لديها، وعندها نقود، وهي ليست بحاجة. على السرير بجانبها ترقد رضيعتها. اقتربت منها قبل أن أغادر وألقيت عليها نظرة وامتدحتها. وكان ذلك مبعث سرور كبير للمرأة. وعندما ودعتها بعد ذلك بادرتني قائلة: «بالأمس عمدناها، وسميناها يكاترينا» (...)

باختصار، ليس بالإمكان توصيف كل شيء، ولا التفريق بين

الأشياء. ولكنني الآن واثق أكثر من السابق بأن سبب الحادث هو المرض (النفساني). ورغم أنني لا أمتلك حقائق نهائية، إلا أن مقابلتي معها كأنما أكدت لي كل تصوراتي.

إذن، لا يمكن التفكير في رفع التماس العفو قبل أن صدور قرار محكمة الاستئناف. ولا أدري متى يصدر. فيما بعد، وفي حال صدور قرار ليس في صالحها، سأكتب لها نص الالتماس. وقد وعدني المدعي العام بالمساعدة. وأنت أيضاً وعدت. ما يعني أن ثمة أملاً.

5: 2 وفي أورشليم عند باب الضان بركة يقال لها بالعبرانية بيت حسدا لها خمسة أروقة

5: 3 في هذه كان مضطجعاً جمهور كثير من مرضى وعمي وعرج وعسم يتوقعون تحريك الماء

5: 4 لأن ملاكاً كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه

5: 5 وكان هناك إنسان به مرض منذ ثمان وثلاثين سنة

5: 6 هذا رآه يسوع مضطجعاً وعلم أن له زماناً كثيراً فقال له أتريد أن تبرا

5: 7 أجابه المريض يا سيد ليس لي إنسان يلقيني في البركة متى تحرك الماء بل بينما أنا آتٍ ينزل قدامي آخر

5: 8 قال له يسوع قم احملْ سريرك وامشِ

5: 9 فحالاً برئ الإنسان وحمل سريره ومشى. . . (إنجيل يوحنا، الإصحاح الخامس).

فهمت من مغزى رسالتك أنك تريد أن تكون ذاك الإنسان الذي يساعد مريضتنا أن تبرأ. فلا تفوت لحظة تحريك الماء. وسيجزيك

اللّه على ذلك خير جزاء. وأنا أيضاً سأعمل (لهذا الغرض) حتى النهاية.

وتفضل بقبول فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) قسطنطين إيفانوفيتش ماسليانيكوف موظف في مديرية الإستئناف بوزارة العدل.

(2) أم حامل رمت ربيبتها الصغيرة من نافذة الطابق الرابع وحكم عليها بالأشغال الشاقة. أطلق سراحها بفضل جهود ماسليانيكوف.



183. إلى أ. غيراسيموفا

بطرسبورغ، 7 مارس 1877

الفاضلة الكريمة غيراسيموفا.[1]

رسالتك آذتني لأنني لم أتمكن من الإجابة عليها فترة طويلة. فما سيكون رأيك فيّ؟ بالنسبة لمزاجك النفساني العصيب لعلك تعتبرين صمتي إهانة.

لكنني غارق في العمل. فبالإضافة إلى الأشغال العاجلة المرتبطة بإصدار «يومياتي» تكاثرت عليَّ أكداس المكاتبات. ففي كل يوم تحديداً تصلني عدة رسائل مكتوبة كما تكتبين. ولا يمكن الرد عليها بسطرين. لقد تحملت ثلاث نوبات من الصرع لم أشهد مثلها في السنوات الأخيرة من حيث الشدة والكثرة. إلا أنني بعد النوبات لا أعمل يومين أو ثلاثة، فلا أستطيع أن أكتب، ولا حتى أن أقرأ لأنني منحلّ بدنياً ونفسياً. ولذا أرجوك، وقد عرفت ذلك الآن، أن تسامحيني على تأخر الرد.

لا يمكنني أن أعتبر رسالتك طفولية أو حمقاء كما تصفينها. المهم أنها تعبّر عن المزاج العام، وثمة كثير جداً من الفتيات اللواتي يعانين

مثلما تعانين. إلا أنني لن أكتب لك الكثير في هذا الموضوع، بل أكتفي بأفكاري الأساسية المتعلقة بهذه المسألة عموماً وبك خصوصاً.
فلو طلبت منك أن تهدأي وتظلي في بيت أبيك وتشغلي نفسك بعمل ذهني، في تخصص تعليمي وما إلى ذلك، لن تعيريني أذناً صاغية على ما أظن. ولكن، لماذا أنت مستعجلة لهذا الحد؟ تريدين أن تكوني نافعة بأسرع ما يمكن. والحال فإن المرأة التي في مثل طموحاتك الروحية، وأتصور أنها صادقة، يمكنها أن لا تتسرع في التوجه إلى المجهول، بل تهتم بتعليمها الشخصي على نحو صحيح وتهيئ نفسها لنشاط أكثر نفعاً بمئة مرة من الدور الغامض التافه الذي تؤديه الممرضة أو الصيدلانية أو القابلة. أنت تستعجلين في دخول الدورة الصحية المحلية. وأنا أنصحك، واثقاً، بعدم الدراسة في مثل هذه الدورة. فهي لا توفر أدنى قدر من التعليم، بل وهي أسوأ من ذلك. فما الفائدة مما إذا صرت قابلة أو صيدلانية؟ هذا التخصص المزعوم، إذا كنت تريدينه بإصرار، يمكنك أن تحصلي عليه فيما بعد. أليس الأفضل الآن السعي إلى مقاصد أخرى والحصول على التعليم العالي؟ انظري إلى جميع اختصاصيّينا، حتى أساتذة الجامعات، مم يعانون وكيف يلحقون الضرر بقضيتهم ورسالتهم بدلاً من تقديم المنفعة؟ ذلك لأن معظم اختصاصيّينا يفتقرون إلى التعليم، إنهم أميّون، خلافاً لما في أوروبا. هناك تجدين غومبولت وكلود- برنارد وغيرهما من ذوي التفكير الشامل والتعليم الهائل والمعارف الجمة ليس في مجال اختصاصهم فقط. أما عندنا، فحتى الأشخاص من ذوي المواهب الهائلة إنما هم أناس غير متعلمين في الواقع، ولا يعرفون إلا القليل خارج اختصاصهم. سيتشينوف، على سبيل المثال، لا يعرف شيئاً عن خصومه الفلاسفة، ولذا يلحق من خلال استنتاجاته العلمية ضرراً أكثر

مما يحمل من فائدة. وأغلبية الطلبة والطالبات من دون أي تعليم. فما نفعهم للبشرية؟ كل ما يشغل بالهم أن يحصلوا بأسرع ما يمكن على وظيفة براتب.

هنا، في بطرسبورغ، في حي جزيرة فاسيليفسكي، وبجهود بعض المتنفذين بدأت في إحدى الثانويات دورة جامعية للنساء. ويسعى العديد من هؤلاء المتنفذين بلا كلل إلى جعل الحكومة تمنح هذه الدورة حقوقاً تضاهي، على قدر الإمكان، الحقوق التي تقدمها الجامعة للذكور بعد أداء الامتحانات، أي فرصة القبول والخدمة وما إلى ذلك. وقد تكلمت بخصوصك مع إحدى السيدات المتنفذات كثيراً والساعيات لتأمين الحقوق الجامعية لهذه الدورة. فتقبلت طلبي بحماس ووعدتني بقبولك في الدورة بعد حين من الزمن إذا إستطعت الإنتقال إلى بطرسبورغ، ولكن ينبغي الانتظار قليلاً. صدقيني بأنك سوف توسعين وترفعين تعليمك هنا، ولربما تستفيدين من الحقوق التي يسعى من أجلها رعاة الدورة. وعندذاك يكون بإمكانك أن تختاري اختصاصاً أو وظيفة بعد أداء الامتحان. أنا لم أتمكن، من خلال رسالتك، أن أفهم وضعك العائلي، ولا أدري كيف أفسر عبارتك بشأن الفرار من الوالد، لأنني لا أفهم لم لا يوافق والدك ولن يسمح لك بمواصلة تحصيلك العلمي في الدورة الجامعية التي افتتحت في جزيرة فاسيليفسكي. إنها ليست أكاديمية طبية، ولا دورة لتدريب القابلات يمكن أن تخيفه تماماً، كما تخيفني على ابنتي، لأنني أريد لها تعليماً عالياً متسامياً ونشاطاً نافعاً للبشرية، وليس مكانة وضيعة متدنية. ثم إن والدك يستطيع أن يستفسر بنفسه عن هذه الدورة من إحدى راعيات المشروع، وأعني السيدة الفاضلة الطيبة القلب التي ناشدتها أن تزكيك. إنها آنّا بافلوفنا فيلوسوفا، عقيلة المستشار

الحكومي فيلوسوف. ومن ناحيتي أعدك بأنها سترعاك تماماً وتعمل بصدق ومودّة من أجل جميع الشباب التواقين إلى التعليم، وخصوصاً الإناث.

ليس من الإنصاف طبعاً أن تكوني، بميولك وآرائك، زوجة لتاجر ما. ولكنْ أن تكوني زوجة طيبة وأماً حنوناً فإن تلك هي قمة رسالة المرأة (. . .) تقولين إنك لا تحبين خطيبك. لا يجوز أن تشوهي حياتك مهما كان الهدف. فلا تتزوجيه إذا كنت لا تحبينه. اكتبي لي مجدداً إذا أردت. وهذه السيدة التي أرجو أن يبقى اسمها سراً بيننا، ويمكنك أن تخبري والدك به على أية حال، ستساعدك أيضاً. لا مؤاخذة إذا كانت رسالتي هذه لا تطابق ما كنت تتوقعينه، فأنت طرحت أسئلة كثيرة جداً، وليس من السهل الإجابة عنها.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) ابنة أحد كبار التجار.

184. إلى صوفيا لوريه

بطرسبورغ، 11 مارس 1877

العزيزة صوفيا يفيموفنا المحترمة

الحقيقة أنني لا أعرف ولا أستطيع أن أتصور ما ستظنينه بي نظراً لصمتي وعدم الإجابة عن سؤالك المهم. والحال أنني واجهت مصادفة غريبة. عندما جاؤوني برسالتك كنت على الغداء. جلبت الخادمة حزمة فيها أربع رسائل، فأنا الآن أستلم رسائل كثيرة. وأمرتُها بأن تحملها إلى مكتبي وتضعها في الصينية التي على الطاولة، حيث توضع كل الرسائل والوثائق التي تصلني. وبعد الغداء رأيت رزمة الرسائل وقرأتها، فكانت ثلاثاً. والآن فقط أتصور أنها كانت أربعاً. إلا أنني لم ألمسها عندما جلبتها الخادمة أثناء الغداء. وقد تكدس في الصينية قرابة خمسين رسالة، وكنت قد قرأتها جميعاً. ثم مرضتُ. تكررت عليّ نوبات الصرع ثلاث مرات. وبعد ذلك حل موعد إصدار «اليوميات» فتأخرتُ عليه. والآن فقط أخذت أقلّب الرسائل التي قررت أن أرد عليها في هذا الشهر. أما الرسائل الملحّة فأنا أرد عليها في الحال. وفجأة رأيت رسالتك بين كومة

الرسائل الأخرى. وهي غير مفتوحة وقد ظلت مركونة شهراً كاملاً. يبدو أنها اندسّت على نحو ما في وسط الكومة وظلت هناك وقتاً. أما الآن، وقد قرأت رسالتك، فإنني في حيرة. فما أجمل هذه الرسالة. سأستفيد من (قضية) طبيبك (المرحوم) غيندينبورغ ومن رسالتك حتماً في «اليوميات»، من دون ذكر الاسم. ففيها ما يستحق الكلام.

أتصور ما تشعرين به من ملل. اكتبي عن مسألة الدكتور، فهي مهمة. واصمدي، يا عزيزتي، ولا تتزوجي من دون حب. ولكنْ فكّري وتأملي، ربما هو من الأشخاص الذين يمكن أن يستحقوا الحب فيما بعد. فإليك نصيحتي: حاولي لبعض الوقت أن تتجنبي الجواب القطعي. اطلبي من أمك مهلة للتفكير ولا تعدي بشيء تحديداً. وتابعي سلوك هذا الشخص. باختصار، اعرفي عنه كل شيء. وإذا اقتضت الحاجة تقاربي معه بمزيد من المودة، على أن تلمّحي له، بنزاهة، أن لا يأمل في الكثير. وبعد عدة شهور من التحليل الدقيق اتخذي قرارك سلباً أو إيجاباً. الحياة مع شخص غير محبوب وغير لطيف هي التعاسة بعينها. ها قد مر شهر، ولعلك حزمت أمرك من زمان، فتأتيك نصيحتي متأخرة. فارق السن بين الـ 35 والـ 19 لا يبدو لي كبيراً. بل هو ليس كبيراً على الإطلاق. ولا أدري لماذا أرغب شخصياً أن يعجبك هذا الرجل حتى تتزوجيه. لكنك لم تكتبي لي إلى أي (شريحة اجتماعية) ينتمي؟ وهل هو يهودي؟ إذا كان يهودياً فكيف يتولى منصب المستشار المدني؟ يخيل إليَّ أن اليهود حصلوا من وقت قريب جداً على حق التوظيف، بينما تتطلب وظيفة المستشار خدمة 15 عاماً في أقل تقدير.

إلى اللقاء يا صديقتي.

أتمنى لك موفور السعادة بكل أنواعها. لا تنسيني، ولا تلوميني، وبلغيني عن أحوالك. أنا مشغول جداً، ومهموم جداً لنوبات الصرع.

أشد على يدك بحرارة.

المخلص دوماً فيودور دوستويفسكي



185. إلى صوفيا لوريه

بطرسبورغ، 17 أبريل 1877

الفاضلة الطيبة صوفيا يفيموفنا المحترمة

صحتي لا تزال متدهورة وقد خارت قواي، وأنا غارق في المشاغل. ظننت أنني سآخذ قسطاً من الراحة بعد إصدار عدد المجلة وأجيب على رسائل الجميع، وأنت في مقدمهم. ولكن ما أكثر الرسائل الجديدة التي تتطلب رداً عاجلاً لمختلف الأسباب التي لا تتحمل أي تأخير، وما أكثر المراجعين الجدد، وبعضهم غريبو الأطوار لدرجة تعذر معها الفكاك منهم سريعاً، فصرفت جل وقتي عليها وعليهم، وجازفت بصحتي، والآن فقط تحينت الفرصة لدقائق معدودات كي أرد عليك. فشكراً، في المقام الأول، على تواصلك معي. وثانياً- كتبتُ عن (الدكتور) غيندينبورغ وفقاً لرسالتك، فهل ألحقتُ ضرراً بسمعتك في الوسط الاجتماعي الذي تعيشين فيه؟ خطر في بالي هذا التساؤل الآن فقط. عندما كتبتُ المقالة ونشرتها كنتِ أنت وحدك في تصوراتي. والآن صرت أفكر في وسطك الاجتماعي كله. بلغيني، وإذا كنتُ قد أزعجتك في شيء أو أغضبتك فسامحيني.

رسالتك مثيرة ومؤثرة. والأهم أنك تتساءلين ماذا عليك أن تفعلي في ظل الخلافات العائلية، وخصوصاً بشأن الامتحانات. رأيي أن لا تكوني قاسية مع الوالدين ولا تقاطعيهما، فلن تستطيعي في كل الأحوال أن تصمدي بوجه آرائهما. ثم إنهما أبواك على أية حال ولا يمكنك أن تقسي على الأم والأب وتفطري قلبيهما. إذا كنت تحبين الفقراء التعساء وتريدين أن تخدمي من أجل الرأفة ومحبة الإنسان فاعلمي أن أفظع تعاسة تكمن في كون الناس الطيبين الأريحيين لا يفهمون أو لا يعودون يفهمون، بسبب من بيئتهم الاجتماعية وحياتهم السابقة، تلك الأفكار التي لا جدال فيها، ويدخلون في تقاطع واضح مع الذين يرغبون في حبهم وإسعادهم. ويلاحظ ذلك، أكثر ما يلاحظ، بين الآباء والبنين. ثم إنك، ولا شك، لا تستطيعين أن تضحي بكل ما لديك وبأعز الأفكار عليك، ومع ذلك يجب أن تكوني متسامحة ومتعاطفة مع الوالدين لأقصى حدود التسامح والتعاطف. وفي ذلك تكمن المأثرة الحقيقية للرأفة بالإنسان. ولا موجب للذهاب بعيداً من أجل الرفق بالإنسان إذا كان جنبك وأمام ناظريك في البيت والدان يستحقان الرأفة. أنا لا أعرف طبيعة علاقاتكم الحالية، أفلا تستطيعين أن تلتزمي المزيد من اللين تجاههما؟ هذا أولاً، وثانياً- ألا تستطيعين أن تعديهما بشيء ليس الآن، وتقنعيهما بأنك في حاجة إلى البقاء وحيدة عاماً آخر على الأقل (...) فبعد عام تتغير أمور كثيرة (...) والمهم هل يعجبك (خطيبك) وهل تتوافق آراؤكما أم لا؟ إذا كان العكس فلا تتزوجي منه طبعاً، ولكنْ تذكّري أن في مثل عمرك يصعب ويستحيل الحكم على الناس من دون خطأ.

بخصوص فيكتور هيغو أعتقد أنني حدثتك. إلا أنني أرى أنك لا تزالين في مقتبل العمر طالما أنت تضعينه في خانة واحدة مع غوته

وشكسبير. أنا نفسي أحب «البؤساء» كثيراً. وقد صدرت في الفترة نفسها التي صدرت فيها «الجريمة والعقاب». بالتحديد قبل عامين من صدور روايتي. ورأى شاعرنا الكبير المرحوم فيودور توتشيف وكثيرون غيره آنذاك أن «الجريمة والعقاب» أرقى من «البؤساء» بما لا يقاس. إلا أنني تجادلت معهم بصدق، ومن صميم القلب، ولا أزال واثقاً حتى الآن برأيي الذي يخالف رأي جميع حكمائنا (بهذا الخصوص). إلا أن إعجابي بـ«البؤساء» لا يحول دون رؤيتي للنواقص الكبيرة فيها. شخصية (جان) فالجان رائعة، وثمة الكثير جداً من المواضع المميزة والممتازة. وقد كتبت عنها العام الماضي في «يومياتي». إلا أن العشاق في الرواية يثيرون الضحك. وهم من البرجوازيين الفرنسيين بكل ما في الكلمة من خزي ودناءة. وما أكثر ما تثيره من ضحك تلك الثرثرة المتواصلة واللهجة الخطابية في بعض ثنايا الرواية. والأكثر مثاراً للضحك بخاصة شخوصها الجمهوريون المزيفون المنتفخو الأوداج. النصّابون عند الكاتب أفضل بكثير. وعندما يكون هؤلاء الساقطون صادقين نتلمس لدى فيكتور هيغو نزعة إنسانية وحباً وشهامة. وحسناً فعلتِ حين لاحظت هذه الجوانب وأحببتِها. وخصوصاً حبك لشخصية l'abbé Myriel فقد أعجبني ذلك كثيراً من جانبك. (. . .)

أتمنى لك أن لا تشعري بالضجر، وأن تصمدي لبعض الوقت، ومن ثم قد ترتحلين إلى بطرسبورغ مجدداً أو إلى موسكو التي فيها دورة دراسية أيضاً. أنا واثق بأن في الوقت متسعاً أمامك، لأن لديك عزيمة.

في منتصف مايو أنتقل من بطرسبورغ إلى الريف، ولعلك تكتبين لي حتى ذلك الحين. وعندها أخبرك بعنواني الصيفي.

المخلص بكل صدق ف. دوستويفسكي

186. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 6 يوليو 1877

صديقتي وعزيزتي آنيا. أعانقك وأقبّلك. كما أقبّل الأطفال فرداً فرداً. كيف كانت سفرتكم (إلى كييف)؟ أنتظر رسالتك بفارغ الصبر. لا همّ لي إلا التفكير فيكم.

وصلت أمس منهكاً من وعثاء الطريق. ولن أكتب لك التفاصيل، لأنني في عجلة من أمري كالمسعور. تراكمت الأعمال والمشاغل عليّ أكثر من المستطاع. وصل القطار في الحادية عشرة صباحاً. وعندما دخلت الشقة كانت بروخوروفنا قد غادرتها تواً بعد أن انتظرتني من يوم أمس. وبعثت في طلبها...

حالما وصلتُ توجهت إلى المطبعة دون أن أنتظر بروخوروفنا بعد أن أرسلت الكناس في طلبها. وقال لي ألكساندروف إنهم فرغوا من تنضيد العدد، لكنهم لم يطبعوا شيئاً منه، لأنه لم يمر عبر الرقابة. راتينسكي سافر في إجازة إلى محافظة أورلوف، فيما ذهب ألكساندروف إلى بوتسيكوفيتش ليرجوه أن يتوسط لي في لجنة الرقابة

لاختيار رقيب. ثم ذهب بنفسه إلى اللجنة. استمع إليَّ السكرتير ولم يتحدث طويلاً، بل اكتفى بالقول إنه ما دامت الرقابة عليّ شخصياً قد رُفعت، فالمفروض أن أصدر «اليوميات» أيضاً من دون عرضها على الرقابة. (. . .) واتضح بعد مراجعة البروفة أن خمس صفحات بقيت خالية، ما يعني لزوم الكتابة لملئها. (ثم وجدنا مادة منسية) وفرحت لأنني لن أكتب شيئاً لملء الفراغ. وبعد ذلك مضيت مسرعاً إلى اللجنة الرقابية (. .) تراكمت عليَّ التصحيحات. راجعت أمس ملزمة واحدة، ولم أتمكن أكثر (. . .) ليس لدي وقت إطلاقاً.

سأذهب الآن إلى المطبعة وإلى الرقابة. ثم أنكبّ على المراجعة والتصحيح وما إلى ذلك. لم ألتق أحداً. نيكولاي عرج عليّ أمس، ولم أكن موجوداً، كما جاءني قبل ثلاثة أيام. الكل يظنون أن لديّ متسعاً من الوقت، وينبغي أن أتردد عليهم من أجل الثرثرة (. . .)

بعد غد، وربما غداً، سأكتب لك بمزيد من التفصيل. أما اليوم فلا أدري كيف سيكون القرار بشأني. وذلك ما يشغل بالي ويؤذيني. أقبِّلكم جميعاً. رأيتك في المنام وأنا في عربة القطار. كما رأيتك ليلة البارحة. أقبِّلكم جميعاً ألف مرة.

المخلص الأبدي الثابت على العهد
ف. دوستويفسكي

تحياتي للجميع.

ملاحظة: جاءني الآن عامل التجليد. من أين لهم أن يعلموا بأنني وصلت؟ وهو يمارس العمل رغم مرضه. وقلت له إنني سأبلغه عندما أحتاج إليه. ثم دخل عليَّ أحد الراغبين في الاشتراك، واشترك. فكم

كان عدد الذين جاؤوا لهذا الغرض عبثاً في غيابي؟ وقبل فترة طرق الباب بإصرار فتى أرسله أحد التجار مع نقود ليشتري له نسخة من «مذلون مهانون» أيقظني من النوم، ولم ألب طلبه.

اكتبي لي بالتفصيل عن الأولاد. واصبري عليهم. أقبِّل قدميك، وباقي جسدك، أي كل موضع فيه. أنا أفكر في ذلك كثيراً.



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

187. إلى آنّا دوستويفسكايا

بطرسبورغ، 15 - 16 يوليو 1877

15 يوليو 77

صديقتي العزيزة آنيا. غداً، الـ 16 من يوليو، أنوي مغادرة بطرسبورغ بالقطار السريع مساءً. منذ الـ 8 من يوليو حيث استلمت رسالتك المؤرخة في 6 يوليو من كييف، لم أستلم ولا سطراً واحداً غيرها. فماذا حصل لكم؟ لا أستطيع أن أفهم ماذا حدث. هل ضاعت الرسالة في البريد؟ (إذا كان الأمر كذلك) فلم لم تضع ولا رسالة واحدة منك لا إلى الكناس ولا إلى كوليا ولا ماريا نيكولايفنا طول الصيف. كيف لا أفكر ولا أرتاب؟ من ثلاثة أيام أسير كالمصعوق. أنام في الليل لا أكثر من 4 ساعات تعج بالكوابيس. سفرتي كانت عجيبة، حالما وصلت تراكمت عليَّ المشاغل، والإخفاقات، ونوبة الصرع الآن. وفي هذه الحالة المرضية كان ينبغي إصدار عدد المجلة. وحالما صفا ذهني بعض الشيء انهال عليَّ عذاب التفكير فيكم، فيك وفي الأولاد. لم أعد أتحمل، وغداً سأركب القطار إليكم. سأنتظر حتى الثانية بعد الظهر. فإن لم تصل

منك رسالة فسأبعث برقية مع توصيل، فيما لو قبلوا مني برقية يتم توصيلها إليكم (. . .) في «مالي بريكول». (وإذا لم أستلم منك برقية جوابية أتوجه إليكم مباشرة عبر موسكو). فماذا عساي أن أفعل، يا آنيا؟ الأمر صعب عليَّ الآن. هذا اليوم بدأ خفقان القلب منذ المساء ولم يهدأ. وأنا أفكر وأطيل التفكير، واللّه وحده يعرف ماذا يدور في خاطري. يخيل إليَّ طول الوقت أن فيديا أو ليليا سقطا على القضبان تحت العربة وأنت في أسوأ حال.

وهكذا ربما تصلك هذه الرسالة معي، في وقت وصولي، ولذا لن أكتب لك عن تفاصيل إصدار عدد المجلة وما إلى ذلك، لا سيما وأننا سنلتقي قريباً، ونتحرك على أية حال.

قبيل المساء هذا اليوم عرجت على ماريا نيكولايفنا لأسلمها أعداد «اليوميات». وقالت لي إنك كتبت لها عن نيتك في السفر إلى خاركوف بالإضافة إلى كييف. ففكرتُ في أنك يمكن أن تكوني قد سافرت إلى خاركوف فعلاً، لا سيما وانك، على ما أتذكر، كنت راغبة في زيارتها. وهكذا كنت مشغولة في السفر مع الأولاد، فتعبت، وتعبوا هم أيضاً، ولم ترغبي في الكتابة إليَّ من خاركوف. ثم عدت إلى بريكول في وقت متأخر (. . .) ولذا لم تصلني الرسالة الموعودة منك يوم السبت، وينبغي أن تصل الاثنين أو الثلاثاء. ولكنها كان يجب أن تصل حتى بهذا التأخير. سأنتظر ليوم غد، كما سأبقى في موسكو أنتظر برقيتك، وأقتني كل ما هو ضروري، أي سأبقى حتى يوم الاثنين (. . .) وأشتري 8 قنان من مياه «يسينتوكي» كما نصحني ميخائيل سنيتكين. وإذا استلمت برقيتك في موسكو أعرج ليوم واحد على داروفويه (لأشاهد أماكن طفولتي)

وإذا كنتِ في خاركوف فليس في ذلك أي خير، لأنك تصرفت، كعادتك، خفية عني. نعم، يا آنيا، لقد كنتِ طوال عشر سنوات من حياتنا لا تثقين بي. ولا أدري هل أنا المذنب في ذلك؟ لا أعتقد. فالريبة كامنة في طباعك. أما بخصوص السفرة إلى خاركوف فأنت تعرفين أنني لن أعترض. كل ما تفعلينه جيد. وأنا من زمان أثق لحد كبير بفطنتك وحساباتك. لكنك أنت لا تثقين بي. ولو كنت تثقين لكتبت لي من خاركوف من دون انتظار العودة إلى بريكول. ولما تعذبتُ أنا كل هذا العذاب. لا أدري لماذا، ولكني أرغب جداً في تصديق رواية ماريا نيكولايفنا بشأن سفرك إلى خاركوف. وإلا فلا محيص عن افتراض وقوع مصيبة، افتراض وفاة أحد الأطفال. (. . .)

(. . .) غداً، الـ 16 من الشهر، عيد ميلاد فيديا. قبِّليه وباركيه، هو وليليا وليوشا. أنا أهنئهم جميعاً، وأهنئك بخاصة. يا ملاكي العزيز آنيا، أركع أمامك مستعطفاً وأقبِّل قدميك. أنا زوجك المتيم بك، وأنت (رفيقة حياتي). منذ عشر سنين وأنا مغرم بك أكثر فأكثر. ورغم أنني تشاجرت معك أحياناً، إلا أنني أحبك حتى الموت. والآن أفكر طول الوقت كيف سألقاك وأعانقك. فهل تفكرين أنت فيّ ولو قليلاً؟ إلى اللقاء القريب. لن أذهب إلى كنيسة الثالوث لو استلمت برقية منك. فأنا أريد أن أراكم بأسرع ما يمكن. أما داروفويه فبودّي أن أذهب إليها، فيما لو استلمت برقيتك، ليوم وليلة لا أكثر. وإلا أخشى أن لا أستطيع أن أرى هذه الأماكن بعد الآن. أعانقكم جميعاً مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

السبت، 16 يوليو، الساعة الثانية بعد الظهر.

انتظرت الرسالة حتى الثانية بعد الظهر. رسالتك من كييف وصلتني تلك المرة في الظهر. ولم أستلم هذه المرة شيئاً. وها أنا عرضة للشكوك، فقررت أن لا أسافر اليوم.، بل غداً، لسبب واحد هو أن إرسال البرقية الآن قد تأخر في اعتقادي. لأنها يمكن أن تصلك في منتصف الليل، فتوقظك من النوم، فتزعلين مني. والأفضل أن أرسلها غداً. (...) إذا تحركتُ غداً أصل إلى موسكو الاثنين ويتسع الوقت لأزور سالايف وأشتري قناني يسينتوكي، بل ولربما ألتقي أكساكوف. وإذا لم أستلم البرقية أتحرك صباح الثلاثاء إذا لم أتمكن من السفر مساء الاثنين. الأمر يتوقف على القطار. وأكون عندكم الأربعاء. وإذا استلمت البرقية وعرفت أنكم بخير، أتوجه إلى داروفويه. عزيزتي، اليوم هو الثامن وأنا لم أستلم منك خبراً. وهو العاشر منذ أن كتبت لي من كييف. تلك مدة طويلة جداً، ولا أستطيع أن أنفض الهواجس. ففي هذه الفترة كان يمكن أن تصلني رسالتان، وليس رسالة واحدة[1]. إلى اللقاء، يا ملاكي، في أمان اللّه وحفظه. سأتعذب اليوم من جديد. عسى ولعل الرسالة ستصل في ما تبقى من النهار أو غداً. أقبّلك وأقبّل الأولاد، أقبّلك بكل حرارة. وأهنئ فيديا.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) كانت عائلة دوستويفسكي بخير. إحدى رسائل زوجته ضاعت، فيما تأخر وصول الأخرى.

188. إلى دميتري أفيركييف

بطرسبورغ، 5 نوفمبر 1877

الفاضل دميتري فاسيليفتش المحترم[1]

عندما قرأت رسالتك رغبت بكل ارتياح في تلبية طلبك بخصوص الكتابة عن الملهاة. فما قلتَه عنها، وأعني موضوع «عفة» الأثرياء حديثي العهد بالنعمة و«مستواهم الثقافي الرفيع» والحسد الذي يتآكل المحامين وما إلى ذلك، بدا لي أمراً في منتهى الحيوية، لأن ظهوره على خشبة المسرح الآن ضروري للغاية.

ولم أرد عليك لحد الآن لسبب وحيد هو أنني أردت أن أجيب بعد النتيجة، أي بعد أن أذهب إلى هناك وأستشف المسرحية. إلا أنني لازمت الفراش مصاباً بالحمى، ولم يُسمح لي بمغادرة المنزل، وأتناول الكنين وغيره. ولكنني أعتقد أن الإقامة الجبرية ستنتهي قريباً وسأذهب إلى سالتيكوف شيدرين (بخصوصك)، لا سيما وأنني ملزم أصلاً بأن أرد على زيارته لي. علماً بأنني لا أعرف جميع العاملين في هيئة تحرير «مذكرات الوطن». أنا أعرف فقط نكراسوف وشيدرين وبليشييف، أما الباقون فمعرفتي بهم تقتصر على المجاملة ونادراً ما

ألتقيهم. وبسبب مرضه يساهم نكراسوف قليلاً جداً في إدارة شؤون المجلة. وبليشييف ليست له أية مشاركة، ما يعني أن سالتيكوف يتولى كل مهام التحرير. وهو، في اعتقادي، الشخص الوحيد الذي يصدر المجلة، ويتمتع بصداقة نكراسوف وثقته اللامحدودة، وأعتقد أنه من المساهمين في رأس المال. والقرار بيده. على فكرة، أقول لك صراحة إن ثمة مسألة واحدة لا غير، بالإضافة إلى مزايا الكوميديا، ألا وهي «إلى أي مدى يعتبر اسمك رجعياً حتى ليرفضوا نشر مسرحيتك؟» هذا هو رأيهم حتى لو جاءهم موليير، ويمكن أن يرفضوه إذا ارتابوا في توجهاته. وهكذا كشفت لك السر. بالطبع أنا لا أستطيع أن أبت في المسألة، لكنني سأتكلم مع شيدرين في أقرب فرصة، وأعرض عليه مسرحيتك بالنيابة عنك بحيث لا تتضرر سُمعتك. وسأكتب لك عن النتيجة.

فتقبَّل مني، أنت وعقيلتك، فائق الاحترام والتقدير. وأشد على يدك.

ف. دوستويفسكي

---

(1) مؤلف مسرحي يميني.

189. إلى دميتري أفيركييف

بطرسبورغ، 18 نوفمبر 1877

الفاضل دميتري فاسيليفيتش المحترم

قبل ثلاثة أيام التقيتُ نكراسوف وسالتيكوف وتحدثتُ معهما عن (مسرحيتك). نكراسوف يلازم السرير وكأنه جثة هامدة. ونادراً ما يهمس بكلمة. سيموت قريباً. إلا أنه يدير شؤون «مذكرات الوطن». وقد وجدته مع سالتيكوف في اجتماع مخصص لإصدار العدد الجديد. وخلال الكلام معهما سألتهما، كأنما من دون قصد، عن رأيهما فيك ككاتب. فقال نكراسوف صراحة، ومنذ الكلمة الأولى: «أي رأي في شخص يجأر ويتكلم من سنين ضدنا وضد الاتجاه الذي نخدمه في كل ما يكتبه؟» قال ذلك بحدة وحزم. ولما أيده سالتيكوف رأساً في قوله هذا رأيت أن لا أتطرق إطلاقاً لا إلى مسرحيتك ولا إلى الاقتراح الذي بقي مجهولاً بالنسبة لهما.

وأظن أني لم أشوه سمعتك. فأنت ترى أن الحكم الذي طرحاه لا يمتّ بصلة إلى الأدب، وإنما يخص التوجهات.

وأنا، إذ أبلغك بذلك، أنصحك أن لا تبتعد عن «البشير

الروسي»، لكنني أعرف أن الرأي في ذلك رأيك والإرادة إرادتك، وأنك ستتصرف، بالطبع، كما يحلو لك.

وفي الختام تقبَّل مني فائق الاحترام والتقدير، لك ولعقيلتك الكريمة. أشد على يدك بحرارة.

ف. دوستويفسكي



190. إلى نيكولاي أوزميدوف

بطرسبورغ، فبراير 1878

السيد الطبيب الكريم نيكولاي لوكيتش[1]

أولاً، أرجو المعذرة على تأخري المستهجن في الرد على رسالتكم، نظراً لتدهور صحتي ومختلف المشاغل. وثانياً- كيف لي أن أجيبكم؟ وأي رد يمكنني أن أقدمه على السؤال المصيري الأبدي الذي تطرحونه (عن خلود الروح)؟ وهل تتسع سطور الرسالة لقضية كهذه؟ لو كنا قد تحدثنا أنا وإياكم بضع ساعات لاختلف الأمر. وحتى في هذه الحال يمكن أن لا نصل إلى نتيجة، فمن الصعب على غير المؤمنين أن يقتنعوا بالكلمات والمحاجحات. أليس الأفضل لكم أن تقرأوا بمزيد من الانتباه كل رسائل بولص الرسول (الأربع عشرة)؟. ففيها كلام كثير جداً عن الإيمان لا أحد يستطيع أن يقول أفضل منه. وحبذا لو قرأتم الإنجيل كله مترجماً (إلى الروسية). فهذا الكتاب يترك على العموم انطباعاً مدهشاً. وستخرجون من دون شك بالفكرة التالية على سبيل المثال: إن البشرية لا تعرف ولا يمكن أن تعرف كتاباً آخر كهذا الكتاب، بصرف النظر عما إذا كنتم من المؤمنين أم لا.

لا موجب هنا للتلميح. وأكتفي بقول كلمة لا غير: كل كائن عضوي على وجه البسيطة موجود لكي يعيش لا لكي يبيد نفسه وينقرض.

هذا ما حدده العلم. وقد استنبط قوانين دقيقة لإثبات هذه المسلَّمة. البشرية، بمجملها، إنما هي كائن (حي). ولهذا الكائن بلا ريب قوانينه المعيشية. العقل البشري يبحث عنها ويجدها. فتصوروا الآن عدم وجود الإله وعدم خلود الروح. الخالق وخلود الروح يمثلان وحدة (متداخلة)، ويشكلان فكرة واحدة. فما حاجتي إلى حياة النعيم وعمل المعروف إذا كنت سأموت على هذه الأرض وأقضي نهائياً؟ من دون الخلود لا يبقى لي إلا أن أستنفد عمري، وليكن من بعدي الطوفان. إذا كان الأمر كذلك فما الذي يمنعني من أن أطعن شخصاً أو أسلبه وأنهبه إذا كنت واثقاً بشطارتي وفطنتي وقدرتي على التملص من القانون؟ ما الذي يمنعني من أن أعيش وأعتاش مباشرة على حساب الغير، إنْ لم أقتله؟ فأنا سأموت وتموت معي كل الموجودات. وبالتالي فإن الكائن البشري هو الوحيد الذي لا تشمله تلك المسلَّمة العامة ويعيش ليبيد نفسه وليس ليبقى ويسلم بجلده. فما قيمة المجتمع إذا كان أفراده أعداءً بعضهم لبعض؟ تلك حماقة مرعبة. أضف إلى ذلك (دور) الأنا الشخصية التي أدركت كل هذه الأمور. فإذا كانت الأنا قد أدركت كل الأمور، بمعنى أنها أدركت الأرض وما عليها من مسلَّمات، فذلك يعني أن أناي أعلى من كل تلك المسلَّمات، أو أنها، في أقل تقدير، لا تنحصر فيها وحدها، وكأنما تقف عن كثب، فوق كل تلك الأمور، وتدركها وتحكم عليها. وفي تلك الحالة لا تخضع هذه الأنا لمسلَّمة المعمورة، لقانون الأرض، بل تتجاوزهما، ويكون لها قانون أعلى منهما. فأين هذا

القانون يا ترى؟ إنه ليس على الأرض التي انتهى كل شيء فيها ومات من دون بعث أو نشور[2]. أليس في ذلك تلميح إلى خلود الروح؟ ولو لم يكن الخلود وارداً على العموم فهل كنتم، يا نيكولاي لوكيتش، ستشغلون بالكم به وتحررون الرسائل بحثاً عنه؟ ما يعني أنكم لا تستطيعون أن تسيطروا على أناكم. فهي تضيق بنظام الأرض وتبحث عن شيء آخر، غيره، لتنتمي إليه. على أية حال، لن نصل إلى نتيجة مهما كتبنا عن ذلك. أشد على يدكم بحرارة، وأودعكم. لا تقللوا من اهتمامكم، ابحثوا، فلعلكم تجدون المبتغى.

متمنياً لكم كل خير

خادمكم ف. دوستويفسكي

---

(1) مزارع من المعجبين بدوستويفسكي وليف تولستوي.

(2) أبدى دوستويفسكي اهتماماً كبيراً بهذه المسائل طوال حياته، وجسّدها بخاصة في الكتاب الثاني من «الأخوة كارامازوف».

191. إلى فلاديمير ميخائيلوف

بطرسبورغ، 16 مارس 1878

السيد فلاديمير فاسيليفيتش المحترم[1]

كنتُ قد استلمت رسالتك الرقيقة الذكية الرائعة في الـ 19 من نوفمبر العام الماضي، ونحن اليوم في 16 مارس 1878. الآن فقط نويت أن أرد عليها، فهل ستسكت على ذلك؟ صحيح أنني وجهت إليك بضع كلمات في عدد ديسمبر من «يوميات الكاتب» الذي صدر في يناير، إلا أن ذلك لا يخفف من المسألة ولا يبرر تقصيري. وأورد هنا سببين على الأقل. حالة المرض والارتباك الشديد حتى العدد الأخير من «اليوميات» جعلتني آنذاك لا أرد على أحد ما لم أصدر العدد. وبعد ذلك ولحد اليوم تقريباً تدهورت صحتي أكثر. تواترت نوبات الصرع وما يرافقها من سوء المزاج. هذا هو السبب الأول. أرجو أن تصدقه. والسبب الثاني هو نفوري الشديد البغيض من كتابة الرسائل. أنا نفسي أحب استلام الرسائل لكنني لا أطيق كتابتها وأعتبر تحبيرها عملاً لا جدوى منه، فأنا لا أجيد التعبير عن أفكاري في رسالة. أكتب رسالة ما أحياناً فيأتيني رأي أو اعتراض على آراء

كأنما كتبتها في تلك الرسالة لكنني لا أتصور مطلقاً أنني يمكن أن أفكر فيها. وإذا دخلتُ الجحيم فسيكون حسابي عسيراً على خطاياي في كتابة ما لا يقل عن عشر رسائل يومياً. هذا هو السبب الثاني، وأرجو أن تصدقه أيضاً.

رسالتك تركت في نفسي انطباعاً طيباً للغاية وبعثت شعوراً بالمودة تجاهك. أنا أستلم الكثير جداً من الرسائل الودية، إلا أن المراسلين من أمثالك قليلون. ولدي شعور بأنك شخص قريب لي، واللقاء مع القريب يبعث الفرح ويقوي الأمل في زماننا، حيث العمر يمر وتزداد الرغبة في الحياة والعمل. ما يعني أن في روسيا العريقة أناساً يشكلون قوّتها الحقيقية، وهم الذين سينقذونها (إذا دارت عليها الدوائر)، ولا يبقى أمامهم سوى أن يوحدوا الكلمة. ومن أجل توحيد الكلمة أرد عليك وأشد على يدك بحرارة من صميم القلب.

قرأت رسالتك عدة مرات، وقرأتها، لا مؤاخذة، على آخرين، وسأقرأها على غيرهم. لأنني أريد أن أنقل هنا وجهة نظرك، وأضخ أنفاسك الروسية الحقيقية في قلوب البعض عندنا. بالمناسبة، قرأت رسالتك على أبولون نيكولايفيتش مايكوف، وهو شاعر، فأبدى إعجاباً كبيراً بها، حتى أنه أخذها مني مؤقتاً. وأنا متفق مع هذا الإنسان في الكثير من أفكاره.

أنا لن أكتب عن التفاصيل الواردة في رسالتك (. . .) ومما أثار اهتمامي فيها أنك تحب الأطفال كثيراً. عشت معهم طويلاً، وتتواجد الآن أيضاً بينهم. ولذا عندي رجاء إليك، يا فلاديمير فاسيليفيتش. فقد فكرت في كتابة رواية مطولة[2]، سأبدأها قريباً، ومن شخوصها أطفال عديدون في سن مبكرة، من السابعة حتى الخامسة عشرة على وجه التقريب. أنا أدرس الأطفال، دأبت على ذلك طول عمري.

وأحبهم حباً جماً. ولدي أطفال أيضاً. إلا أن متابعات إنسان مثلك ذات قيمة بالغة بالنسبة لي. وأنا أفهم قيمتها. فاكتبْ لي، إذن، ما تعرفه عن الأطفال. عن أطفال بطرسبورغ الذين ينادونك «عمو»، وعن أطفال يليزافيتوغراد، كل ما تعرفه عنهم: الأحداث والعادات والأجوبة والكلمات والتعابير والخصال والأحوال العائلية والإيمان والشرور والعفة والطباع والمعلمين والموقف من اللغة اللاتينية وما إلى ذلك. وسيكون هذا عوناً كبيراً من جانبك لي. وسأكون شاكراً جداً لك، وسأنتظر على أحر من الجمر. سأبقى في بطرسبورغ ربما حتى الـ 15 من مايو، ثم سأكون على الأغلب في ستارايا روسا مع أولادي. عنواني يبقى من دون تغيير حتى ذلك الحين.

أرفق طياً صورة فوتوغرافية لي. وأعتذر منك مجدداً (على التأخير). إنني أحبك، رغم قلة اللياقة التي بدرت مني تجاهك.

والآن إلى اللقاء، وتقبَّل موفور إخلاصي القلبي وفائق احترامي وتقديري.

المخلص فيودور دوستويفسكي

---

(1) أحد المربّين المتعاونين مع الصليب الأحمر في رعاية الأطفال المشردين.

(2) «الأخوة كارامازوف».

192. إلى نيكولاي بيترسون

بطرسبورغ، 24 مارس 1878

السيد الكريم نيكولاي بافلوفيتش[1]

بخصوص الكتب لمكتبة (مدينة) كيرينسك أوعزت بإرسالها من زمان، ولعلكم استلمتموها الآن بالطبع. أما بخصوص المخطوطة في رسالة ديسمبر غير الموقعة فلم أرد بشيء في «اليوميات»، ذلك لأنني أردت أن أبحث عن عنوانك في سجل المشتركين، لأتراسل معك شخصياً، إلا أنني كنت أرجئ المسألة يوماً بعد يوم بسبب الانشغال والمرض. وأخيراً وصلت رسالتك المؤرخة في 3 مارس، فوضعت النقاط على الحروف. ولم أجب على الفور، لأنني مرضت من جديد. ولذا أرجو مسامحتي على التأخير.

في المقام الأول أسألك: مَن هذا المفكر الذي كتبت لي عنه؟[2] أعطني اسمه الثلاثي إن أمكن. فقد أثار اهتمامي كثيراً. أو على الأقل أخبِرني شيئاً مفصلاً عن شخصه إن أمكن.

ثم أقول لك إنني موافق على هذه الآراء تماماً. وتصورتها آرائي عندما قرأتها. وقد تلوتها هذا اليوم، مهملة الاسم، على فلاديمير

سرغييفيتش سولوفيوف، فيلسوفنا الشاب الذي يلقي محاضرات عن الدين يحضرها جمهور يكاد يبلغ الألف. انتظرته خصيصاً لأقرأ عليه آراء المفكر التي لخصتها في رسالتك، لأنني وجدت الكثير من التشابه مع آرائه. وأمضينا ساعتين من الوقت الرائع. وهو يشاطر مفكركم بعمق، ويريد أن يطرح الآراء نفسها تقريباً في المحاضرة التالية، وقد بقيتْ أمامه 4 محاضرات من 12. ثم إليك السؤال المحدد الأكيد الذي أردت أن أطرحه عليك في ديسمبر الفائت:

أهم ما في ملخص آراء المفكر، من دون ريب، هو وجوب البعث والنشور أو القيامة، ذلك الوجوب الذي لو تحقق لآل بالأمور إلى وقف التناسل ومجيء من وصفه الإنجيل وسفر الرؤيا «بالأول والآخر الذي كان ميتاً فعاش». إلا أن الملخص في رسالتك لا يشير إلى نوعية فهمك لقيامة الأموات والشكل الذي تتصورها فيه وهل تؤمن بها؟ بمعنى هل تفهمها ذهنياً، مجازياً، كما يفهمها (إرنست) رينان (في كتابه «حياة يسوع»)، على سبيل المثال، باعتبارها الوعي الإنساني الذي يتجلى في نهاية حياة البشرية لدرجة يغدو فيها واضحاً منتهى الوضوح في أذهان بشر المستقبل، وما مدى تأثير هذا السلف، مثلاً، على البشرية وكيف فعل فعله فيها وبأية وسيلة، وما إلى ذلك، وإلى أي مدى سيتجلى دور أي شخص متوفى واضحاً بحيث يستشف الناس أعماله من خلال العلم أو قوة القياس والمقارنة، وبحيث ندرك نحن بالطبع مدى تأثير الأموات علينا، وقد تجسد كل واحد منهم فينا وتقمص كياننا، وبالتالي كيان أولئك البشر النهائيين المتطورين العارفين بكل شيء والذين ستنتهي بهم البشرية؟

ثم إن مفكركم يتصور مباشرة وبالمعنى الحرفي للكلمة، مثلما يلمح الدين، أن البعث سيكون فعلياً، شخصياً، وأن الهوة التي

تفصلنا عن أرواح أجدادنا ستردم، وستقهر تلك الأرواح الموت المندحر، وتقوم ليس في وعينا فقط، ليس بصورة مجازية، بل فعلياً، شخصياً في الواقع، في الأبدان. بالطبع ليس في أبدان البشر الحاليين، لأن حلول الخلود وتوقف الزواج والإنسال بحد ذاته يدل على أن الأبدان في البعث الأول المقرر على الأرض ستكون غير الأبدان الحالية، بمعنى أنها ستكون مثل بدن المسيح أثناء صعوده (. . .).

الجواب على هذه المسألة ضروري، وإلا فلن نفهم شيئاً. وألفت هنا إلى أننا، أنا وسولوفيوف على الأقل، نؤمن بالبعث الفعلي، الشخصي بكل معنى الكلمة، وبأنه سيتحقق على الأرض.

بلّغني إذا أردت، وإذا كنت تستطيع، يا نيكولاي بافلوفيتش، ما رأي مفكركم بهذا الخصوص، وبالتفصيل إن أمكن.

أما بشأن المهمات والدور الذي ينبغي أن تؤديه المدرسة الشعبية فأنا بالطبع متفق معك تماماً.

عنواني باق على حاله (. . .) لحين 15 مايو، وبعده أيضاً، لأن الرسائل ستحول إليّ.

مع فائق الاحترام والتقدير.

ف. دوستويفسكي

---

(1) باحث من ثوريي الستينات.

(2) الفيلسوف الطوباوي الروسي نيكولاي فيودوروفيتش فيودوروف (1828-1903).

193. إلى سيدة مجهولة

بطرسبورغ، 27 مارس 1878

السيدة الفاضلة

الآن فقط، أي بمرور شهر، أجيب على رسالتك المؤرخة في 20 فبراير، وذلك بسبب الانشغال والمرض، ولذا أرجوك كل الرجاء أن لا تزعلي.

أنت تطرحين أسئلة يقتضي الجواب عنها كتابة دراسات بدلاً من الرسائل. ثم إن الأسئلة لا تحل إلا من خلال الحياة بمجملها. حتى لو كتبت لك عشر صفحات قد تبقى نقطة غير مفهومة، إلا أن بالإمكان توضيحها حالاً في الحوار وجهاً لوجه، وتبقين غير متفهمة لرأيي ولا توافقينني عليه، فترفضين الصفحات العشر برمّتها. فهل يجوز تناول هذه المواضيع من قبل أناس غير متعارفين من خلال المراسلات؟ أعتقد أن ذلك متعذر تماماً، بل هو يضر بالقضية.

لقد استنتجتُ من رسالتك أنك أم طيبة حنون مشغولة البال بطفلك الذي يترعرع. إلا أنني لا أفهم ما حاجتك إلى حل الأسئلة التي بعثتِها إليّ. أنت تطرحين الكثير بشيء من الألم والقلق. بينما يمكن معالجة

الأمور بشكل أبسط. ما الموجب لطرح سؤال كهذا: «ما هو الخير وما لا خير فيه؟» مثل هذه الأسئلة إنما هي أسئلة بالنسبة لك فقط، كما بالنسبة لأي إنسان من الباطن، ولكن ما علاقتها بتربية إبنك؟ كل القادرين على إدراك الحقيقة يتحسسون من خلال ضميرهم ما هو الخير وما لا خير فيه. فكوني أماً طيبة وليفهم ابنك من تلقاء ذاته، ومن دون تلقين، أنك أم طيبة وليتذكر أنك كنت أماً طيبة، وبذلك، صدقيني، تؤدين واجبك تجاهه مدى العمر، لأنك ستعلمينه مباشرة على أن الطيبة خير. وسيظل مدى حياته يتذكر محياك باحترام فائق، ولربما بإعجاب كبير. ولو أنك اقترفت الكثير من المساوئ، أو على الأقل الحماقات الأليمة بل والمضحكة، فإنه سيسامحك عليها من دون ريب في ذكرياته آجلاً أم عاجلاً جزاء الطيبة التي يتذكرها عنك. واعلمي أنك لن تستطيعي أن تفعلي له أكثر من ذلك. وهذا بحد ذاته كثير. إن تذكر الطيبة عند الوالدين، تذكر الخير والحقانية والنزاهة والمشاطرة والمواساة وغياب الخجل الزائف وانعدام الكذب قدر الإمكان، كل ذلك يجعل من الابن إنساناً آخر عاجلاً أم آجلاً، كوني على ثقة بذلك. ولا تظني، على أية حال، أن ذلك قليل. فالأغصان الصغيرة تتبرعم على الشجرة الكبيرة، والثمار تتغير.

ابنك في الثامنة من العمر. عرِّفيه على الإنجيل، علّميه الإيمان باللّه وفقاً لقانونه. هذا شرط لا بد منه. وإلا فلن يكون إنساناً طيباً، وفي أحسن الأحوال يغدو تعيساً متألماً، وفي أسوأها يتحول إلى مخلوق لاأبالي مترهل، بل وأردأ من ذلك. ولن تجدي سبيلاً أفضل من درب المسيح، صدقيني.

تصوري أن ابنك عندما يبلغ الـ 15 أو الـ 16 من العمر يأتيك، من شلة أصحاب السوء في المدرسة مثلاً، ويطرح عليك أو على أبيه

السؤال التالي: «ما الذي يجعلني أحبك؟ وما فائدتي من اعتبار ذلك واجباً عليّ؟» صدقيني، لن تسعفك آنذاك أية معارف أو تساؤلات، ولن يكون لديك ما تردّين به على سؤاله. ولذا ينبغي أن تعملي على أن لا يطرح مثل هذا السؤال أبداً. ولن يكون ذلك بالإمكان إلا إذا أحبك مباشرة بحيث لا يخطر في باله سؤال كهذا. وإذا خطر على أية حال بفعل تقبل مختلف العقائد والمفارقات في المدرسة فمن السهل التفريق بين الحقائق والمفارقات، ولا يبقى عليك إلا أن تبتسمي، رداً على سؤال الصبي، وتواصلي عمل المعروف لأجله.

ثم إن الإفراط الموجع في الوصاية على الأطفال يمكن أن يحطم أعصابهم ويجعلهم يملّون ويضجرون من الآباء، رغم المحبة المتبادلة. ولذا ينبغي الإحساس الدقيق بالحدود وعدم المغالاة. ويخيل إليَّ أن إحساسك بها ضعيف. تقولين في رسالتك إنك لو لم تعيشي من أجل زوجك وابنك لكانت حياتك الشخصية مفعمة بالإنانية. وإنك لا تملكين الحق في حياة كهذه ما دام هناك من يحتاج إلى مساعدتك. هذه فكرة عجيبة غريبة لا موجب لها. فمن يمنعك من العيش لأجل الآخرين وأنت زوجة وأم؟ بالعكس، فلأنك تعيشين أيضاً من أجل الغير، المحيطين بك، وتمنحينهم طيبة قلبك، تتحولين إلى قدوة نيرة بالنسبة لابنك، وتصبحين أعز مرتين بالنسبة لزوجك. ولكنْ طالما خطر في بالك مثل هذا السؤال فذلك يعني أنك تعتقدين بلزوم الالتصاق والتعلق بالزوج والابن ناسية الدنيا كلها، أي بإفراط ومن دون شعور بالحدود. والحقيقة أنك بذلك تجعلين الطفل يمل منك حتى وإن أحبك. ثم لاحظي أنك قد تتصورين مجال فعلك ضيقاً، فترغبين في توسيعه حتى يكاد يغدو عالمياً. ولكن هل يحق لكل فرد أن يبدي مثل هذه الرغبة؟ صدقيني أن بالإمكان تحقيق القدوة الحسنة حتى

في المجال الضيق من الأعمال، وذلك أمر نافع للغاية لأنه يؤثر في عشرات ومئات الناس. الرغبة الثابتة في تجنب الكذب وفي العيش السليم إنما تخجل الطائشين من المحيطين بك دوماً، وتؤثر فيهم إيجاباً. وفي ذلك مأثرة. هنا أيضاً يمكن فعل الكثير. فلا يجدر بالمرأة أن تسافر إلى بطرسبورغ وتتسكع في معهد الطب أو الدورات النسائية بحثاً عن أجوبة عن الأسئلة التي تخطر في بالها. أنا أرى هؤلاء النسوة هنا كل يوم. فيا لها من حماقة، واللّه العظيم. (. . .)

أنا في الحقيقة لا أدري كيف أجيب عن الأسئلة التي طرحتِها. ذلك لأنني لا أفهمها. بالطبع تقع مسؤولية مساوئ الطفل في الوقت ذاته على سوء ميوله الطبيعية طالما يولد الإنسان معها بالفطرة من دون ريب، كما تقع على المربين الذين عجزوا أو تهاونوا في التحكم بالميول الطبيعية السيئة في الوقت المناسب ليوجهوها الوجهة الصحيحة الخيرة بالقدوة الحسنة. وثانياً، تؤثر في الطفل الصغير، كما في الإنسان الراشد في معظم الحالات، البيئة الاجتماعية التي يتواجد فيها، ويؤثر فيه أشخاص معينون لحد التحكم الكامل في تصرفاته. وليس في ذلك أي غموض. والأمر هنا يتوقف على الظروف والملابسات، فيما يتعيَّن عليك أن تسيطري على تلك الملابسات لأنك أمٌّ هذا من واجبها، ولكن ليس بالآلام وحدّة المشاعر والحب الثقيل، بل بالقدوة النموذجية الحسنة. أما مسألة العمل فلا أريد الكلام عنها. اغرسي المشاعر الطيبة في نفس الطفل وسيحب العمل. ولكنْ كفاية. كتبت الكثير حتى تعبت، لكن ما قلته قليل، ولذا لن تفهميني بالطبع.

مع فائق الاحترام والتقدير.

خادمك فيودور دوستويفسكي

كان بوسع بطرس الأكبر أن يقيم في قصره العامر في موسكو، فيعيش حياة دسمة مستقرة، وعائداته من خزينة الدولة تبلغ مليوناً وخمسمئة ألف. إلا أنه كان يمارس العمل طول حياته ويدهَش للعاطلين.



194. إلى إدموند آبو

بطرسبورغ، 2 أبريل 1878

سيدي الرئيس[1]

دعوتكم لحضور المؤتمر الأدبي العالمي الذي يقيمه إخوتنا أدباء باريس شرف عظيم لي. والهدف الذي تطرحونه قريب من مصالح الأدب لدرجة لا يسعني فيها إلا أن ألبي دعوتكم الكريمة[2]. وإلى ذلك يجتذبني شخصياً إلى هذه الاحتفالية الأدبية كونها تفتتح برئاسة فيكتور هيغو، الشاعر الذي تركت عبقريته أثراً عميقاً في نفسي منذ الطفولة.

ومع ذلك ينبغي لي أن آخذ بالاعتبار أن حالتي الصحية يمكن أن تخلق لي مشاكل. فيجب عليَّ أن أتلقى وجبة علاج بالمياه المعدنية ولا أعرف حتى الآن ما سيقرره أطبائي بخصوص المكان والزمان.

وسأبذل قصارى جهدي للتوفيق بين هذه الضرورة ورغبتي الشديدة بالمشاركة في المؤتمر. وبما أنني لا أمتلك حرية التصرف الكامل فعليَّ أن أحيطكم بذلك لكي تقرروا ما إذا كان من اللازم إرسال بطاقة مندوب المؤتمر في ظل هذا المجهول.

وتفضلوا، أيها السيد الرئيس، بقبول فائق الاحترام والتقدير لشخصكم الكريم.

فيودور دوستويفسكي

---

(1) إدموند آبو كاتب فرنسي (1828–1885). رسالة دوستويفسكي في الأصل بالفرنسية. والنسخة الأصلية مفقودة.

(2) دوستويفسكي لم يحضر المؤتمر لوفاة ابنه أليوشا. تورغينيف ألقى كلمة في إحدى جلسات الافتتاح 30 مايو 1878، كما حضر المؤتمر عن روسيا بوبريكين وكوفاليفسكي وغيرهما.



195. إلى فيودور راديتسكي

بطرسبورغ، 16 أبريل 1878

عزيزنا جميعاً، نحن الروس، وصديقنا القديم الذي لا ينسى الجنرال فيودور فيودوروفيتش.

ربما أنت لا تتذكرني كرفيق قديم في ثانوية الهندسة الرئيسية، كنتَ أنت في الصف الثاني عندما التحقت أنا بالثانوية، بعد أداء امتحانات الصف الثالث. لكنني أتذكرك وكأنما لم يمر على ذلك خمسة وثلاثون عاماً بالتمام والكمال. وعندما بدأت مآثرك في العام الماضي، والتي أذاعت اسمك أخيراً في عموم روسيا، كنا نحن، رفاقك القدامى، وبعضهم من أمثالي تركوا الخدمة العسكرية من زمان، نتابع من هنا نشاطاتك العزيزة على قلوبنا، والتي تمسنا شخصياً، ليس فقط لأننا روس. وعندما التقيت مرة هذا الشتاء ألكسندر إيفانوفيتش[1] المحترم وتطرق الحديث إلى الحرب تذكرناك بإعجاب كبير وتذكّرنا انتصاراتك. وأصر ألكسندر إيفانوفيتش عليَّ أن أكتب إليك حتماً عندما أخبرته أنني أنوي مراسلتك. وفجأة اتضح أنك، أنت الإنسان الروسي العزيز علينا جميعاً، تتذكرنا أيضاً. ونحن

شاكرون لك على ذلك جزيل الشكر. نحن هنا نرتجف من الهلع بخصوص مآل الحرب، نرتجف أمام «الغربويين» الذين بيننا. كل الآمال معقودة على القيصر وعلى الرجال من أمثالك. وفقك اللّه وجزاك خيراً. ومن ناحيتي أزف إليك تحية روسية حارة مع أعمق الاحترام والتقدير. حالياً نحن في عيد الفصح المنير. المسيح قام، حقاً قام. ولتعد الروح إلى القبيلة السلافية العظيمة، المكدودة المرهقة، ولتقم مرفوعة الرأس بفضل الرجال الصناديد من أمثالك الذين يخدمون القضية الروسية العظيمة المشتركة.

ومعها فليسلك «الغربويون» الروس طريق المسيح الجديد الأرثوذكسي الوضاء. ولا جدال أن أفضل جزء من روسيا يقف إلى جانبكم الآن، هناك في (الحرب) وراء البلقان. وعندما يعود إلى الديار مكللاً بالأمجاد سيحمل معه من المشرق نوراً جديداً. الكثيرون هنا يؤمنون بذلك الآن وينتظرونه.

تقبَّل مني، يا فيودور فيودوروفيتش الموقر، هذه التحية مع فائق الاحترام والتقدير تعبيراً قلبياً صادقاً عن المشاعر من رفيق قديم ومن روسي ممتن هو

خادمك المطيع

ف. دوستويفسكي

---

(1) سافيليف، أستاذ دوستويفسكي في ثانوية الهندسة.

197. إلى نيكولاي دوستويفسكي

بطرسبورغ، 16 مايو 1878 الثلاثاء

عزيزي وأخي الكريم نيكولاي ميخائيلوفيتش. اليوم توفي (ابني) أليوشا بنوبة مفاجئة من الصرع لم تكن قد أصابته من قبل. بالأمس كان مرحاً مستبشراً، يتراكض ويغني، واليوم مسجى على الطاولة. بدأ الصرع في التاسعة والنصف صباحاً، وفي الثانية والنصف بعد الظهر قضى أليوشا الحبيب نحبه. سنواريه الثرى في مقبرة أوختينسكويه الكبرى يوم الخميس الـ 18 من الشهر. إلى اللقاء يا كوليا، ترحم على أليوشا، فأنت كثيراً ما رعيته. هل تتذكر كيف كنت تمثل أمامه شخصية فانكا السكلان (السكران)؟ ما أشد حزننا. الجميع يبكون[1].

أخوك ف. دوستويفسكي

ملاحظة: هل تعرف عنوان (ابن أخينا) فيودور ميخائيلوفيتش. لا بد من تبليغه.

---

(1) معاناة دوستويفسكي المفجوع بابنه أليوشا انعكست في «الأخوة كارامازوف».

198. إلى بافل عيسايف

بطرسبورغ، 16 مايو 1878 الثلاثاء

عزيزي بافل ألكساندروفيتش

اليوم توفي أليوشا بنوبة صرع مفاجئة لم تكن قد حصلت له من قبل. صباح هذا اليوم كان مرحاً بشوشاً، وقد نام جيداً. وفي التاسعة والنصف ضربه الصرع، وفي الثانية والنصف بعد الظهر قضى أليوشا نحبه. سنواريه الثرى في مقبرة أوختينسكويه الكبرى يوم الخميس الـ 18 من مايو. ترحم على ابني أليوشا، يا بافل. الصحة والعافية لابنتيك والتحية لزوجتك.

المخلص دوماً ف. دوستويفسكي

199. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 20 - 21 يونيو 1878 مساء الثلاثاء

مرحباً عزيزتي آنيا. كيف حالك؟ صحتك هي الأهم. وهل فيديا وليليا بصحة جيدة؟ باللّه عليك، راقبيهما. ها أنا أكتب إليك الأهم، دون أن أخوض في التفاصيل التي سأتطرق إليها عندما نلتقي. في الطريق تعبت كثيراً، ولا أزال متعباً حتى الآن، وإلى ذلك انتابني سعال شديد في عربة القطار لا أتذكر له مثيلاً. الريح تهبّ من كل الشقوق. وصلنا إلى موسكو في الثانية عشرة ليلاً. أخذت عربة إلى «فيكتوريا» على ستراسنوي بولفار. وسألت الحوذي: «هل الفندق جيد؟» فقال: «كلا، يا سيدي، إنه سيئ». دهشت لهذا الجواب القطعي النادر. «وما السبب»؟ - «ليس هناك ضيف يحترم نفسه وينزل فيه»- «كيف؟» - «المظهر الخارجي جيد فقط، ولا أحد ينزل فيه، إلا الذين لا يعلمون. غرفه كحجرات الحمامات. وحالما يحل الظلام يأتي القوادون ببنات الهوى من ستراسنوي بولفار لساعة من الزمن، فيمارسن ما يمارسن. الجميع يعرفون ذلك، والفضائح كثيرة». وسألته: أي فندق أفضل؟ فامتدح كثيراً فندق «أوروبا» مقابل مسرح

مالي تياتر، ليس بعيداً عن ستراسنوي بولفار. فتوجهت إلى «أوروبا». وبالفعل نزلاؤه من العوائل المحترمة على ما يبدو. أفردوا لي غرفة بروبلين وخمسين كوبيكاً، باهظة الثمن بعض الشيء وعلى الطابق الثالث. تصورت أن من الصعب عليَّ أن أصعد إلى الطابق الرابع، فاستأجرت هذه الغرفة. لم أنم الليل كله بسبب السعال المتقطع الخانق. ونهضت في العاشرة صباحاً. وكان السعال قد انتهى، إلا أنه سيعود في المساء.

في الساعة الواحدة ظهراً مضيت إلى كاتكوف، فوجدته في هيئة التحرير. وهو يقيم في المنزل الصيفي، ويتردد على المجلة بين الحين والآخر. استقبلني بترحاب، وبشيء من الحذر. أخذنا نتحدث عن الأمور المشتركة، وهبَّت فجأة زوبعة شديدة. وفكرت أنه سيرفض لو تحدثت عن أموري، في حين أن العاصفة لن تهدأ قريباً، وسأضطر إلى البقاء هناك مذلاً مهاناً إلى أن يتوقف المطر المدرار. لكنني مضطر إلى الكلام في موضوع (البدء بنشر «الأخوة كارامازوف»). فأعربت عنه ببساطة وصراحة. تفتحت أسارير الرجل منذ الكلمات الأولى عن رغبتي هذه، ولكن ما إنْ تكلمت عن الـ 300 روبل للملزمة وعن مبلغ الدفع مقدماً حتى تشنج وجهه. وقال: «الحقيقة أننا اجتمعنا الأسبوع الماضي لنقرر ما إذا كنا سنواصل إصدار «البشير الروسي» أم نتوقف في العام القادم. لأنني، ولأسباب صحية، لا أستطيع متابعة الطبعتين: «الوقائع الموسكوبية» و«البشير». ولذا اسمح لي أن أفكر في الرد عليك، لأن ذلك يتطلب المضي في إصدار المجلة والإنفاق الكبير عليها». وحينما علم بأنني سأبقى في موسكو لثلاثة أو أربعة أيام فقط وعدني بالجواب غداً، الأربعاء 21 من الشهر وطلب مني أن آتي إليه في هيئة التحرير لهذا الغرض في الساعة الثانية بعد الظهر.

والآن، في العاشرة من مساء الثلاثاء 20 من الشهر، أظن أنه سيرفض غداً من دون شك. وإذا لم يرفض فسيركز على تقليص مبلغ الـ 300 روبل كثيراً. سأبعث إليك هذه الرسالة (. . .) بعد أن التقي كاتكوف، وسأضيف إليها ملاحظة تفهمين منها كل شيء.

هطل المطر مدراراً لوقت قصير. وبين هطوله في المرة الأولى والثانية تمكنت أن أذهب إلى شقيقتي فيرا، وانتظرت عندها تحسن الجو قرابة خمس ساعات. ثم عدت إلى الفندق. تناولت طعاماً وتوجهت في الساعة السابعة إلى (فسيفولود) سولوفيوف في منطقة متنزه نيسكوتشني. أجرة الحوذي روبلان ذهاباً وإياباً. وجدت سولوفيوف على غير حاله، عابساً متجهماً متهالكاً (. . .) وقررنا أن نسافر معاً يوم الجمعة إلى (الدير) في «خلوة النسّاك أوبتينا» بمحافظة كالوغا على الحدود مع محافظة تولا. غداً سيأتيني سولوفيوف إلى الفندق في الخامسة بعد الظهر.

سأعرّج غداً على موزعي الكتب وعلى يلينا بافلوفنا. وداعاً يا آنيا، أعانقك. غداً أكتب التذييل أو الملاحظة التي تقرر الكثير في مصيرنا. أنا متعب جداً. قبّلي الصغيرين وقولي لهما هذه القبلات من بابا. (. . .)

الأربعاء، 21 يونيو، الحادية عشرة صباحاً

تذييل:

بعث لي كاتكوف الآن رسولاً من هيئة التحرير يحمل اعتذاراً بأنه لا يستطيع اليوم أن يرد عليّ، لأن الملابسات حتمت عليه أن يمضي فوراً إلى الضيعة في الريف، ولذا طلب مني المجيء إليه غداً الخميس لأحصل على الجواب منه في هيئة التحرير. بمعنى أنه سيعود غداً من القرية. وأنا لا أرى في ذلك خيراً. أبداً.

إلى اللقاء يا حمامتي. غداً سأكتب لك عن النتيجة، وأبعثها إليك مساءً. أما الآن فأبعث هذه الرسالة. وسأمر اليوم على موزعي الكتب. أقبِّل الصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي

ملحوظة: هذه الليلة أيضاً نمت أربع ساعات فقط. أعصابي محطمة. ومعدتي أيضاً.



200. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 22 يونيو 1878 الخميس

عزيزتي آنيا. أكتب لك على عجل، المشاغل الكثيرة والتراكض وما إلى ذلك اختلطت عليّ، ولا وقت لي. استلمت منك رسالة الآن، واسمحي لي أن ألومك على قصرها. كان بوسعك أن تكتبي بشيء من التفصيل ولو قليل. قبّلي لوبا، وكذلك بالطبع فيديا. كنت عند كاتكوف اليوم، ولا أدري ماذا أكتب لك. ينبغي أن أعيد عليك الكلام، لكنه طويل جداً، لا تكفي الرسالة لتحتويه. باختصار، هو مسرور ولا مانع لديه من الدفع المقدم والـ 300 روبل (للملزمة) وما إلى ذلك. لكن القرار لم يتخذ بعد، هل ستنشر روايتي في «البشير الروسي»، بل وهل ستستمر المجلة نفسها بالصدور؟ القرار سيتخذ في أكتوبر، وقد وعدتُ بالمجيء إلى موسكو آنذاك.[1] وسيقدم كاتكوف النقود، بل إنه عرض عليَّ مقدماً 2000 روبل الآن، و2000 في أكتوبر أو في أواخر سبتمبر. ولم أرفض العرض. عموماً سأحدثك بكل شيء وجهاً لوجه عندما نلتقي. (. . .)

زرت أكساكوف والتقيت بوتسيكوفيتش. كل شيء ممتع،

وسأحدثك عندما نلتقي. صباح الغد سأتوجه مع سولوفيوف إلى خلوة النساك في أوبتينا. وفي يوم الثلاثاء أكون في موسكو أغلب الظن. (. . .)

خلاصة القول: علاقاتي مع كاتكوف على أفضل ما يكون، في أي زمان.

وقد طلب أن أنقل تحياته إليك بخاصة. تجاذبنا اليوم أطراف الحديث أكثر من ساعتين. بالمناسبة لديه رجاء إليك. في المدرسة العالية تلاميذ من يتامى الطبقة الفقيرة يتمتعون بمنحة لومونوسوف الدراسية. والمدرسة توفر لهم التعليم العالي مجاناً. أحدهم، واسمه ألكساندروف، يعاني من تدرن العقد اللمفية ومن ألم في الساق وما إلى ذلك. الصبي في الخامسة عشرة من العمر. وقد أوصى الأطباء بفصله من المدرسة، فيما تعهد كاتكوف لطيبة قلبه أن يرسله على حسابه الخاص إلى ستارايا روسا (غداً) من دون أن يفصل. إلا أنه لا يعرف إلى من وكيف يرسله. ولذا سيُرسَل كتاب رسمي من المدرسة العالية، وليس من كاتكوف، إلى (الطبيب) روخيل يحيل التلميذ ألكساندروف إلى عهدته ليسهل استضافته ويعالجه ويبعث فاتورة التكاليف. إلا أن كاتكوف يرجوني وإياك خصيصاً أن نشارك في رعاية الصبي، بمعنى أن ندعو روخيل، في اعتقادي، أو أن تذهبي أنت إليه لتبلغيه بلزوم تربية الصبي وتنبهيه كي يأخذ كتاب المدرسة في الاعتبار، فليس من مصلحته أن يغيظ كاتكوف. وما دام الكتاب لا يقتصر على طلب علاج ألكساندروف، بل يؤكد على تأمين إقامته وتغذيته فعليك أن تستفسري من روخيل عن الإيعازات التي سيصدرها لإيواء الصبي ورعايته. وأضاف كاتكوف: هل توجد إمكانية لاستئجار شقة للصبي عند أحد القساوسة ليتولى مهمة مراقبته وما إلى ذلك أثناء

تلقّي العلاج؟ والمهم أن التلميذ ليس أرستقراطياً، بل من الفئة الشعبية الأكثر فقراً. وقال كاتكوف: حبذا لو قدم روخيل فاتورة متواضعة، فلا أحد عند الصبي يدفع بدلاً منه، ما عدا كاتكوف نفسه. وعندما أصل إليكم سأتكلم مع السيد روخيل بهذا الخصوص[2].

هذا كل شيء، يا آنيا. سأعود إلى موسكو يوم الثلاثاء أو الأربعاء، فلدي مختلف الأشغال. أعصابي متوترة. أتوق للعودة إلى ستارايا روسا. وسأحدثك بكل ما تبقى. والآن وداعاً. أقبّلك. أنا أراك في المنام. قبّلي الطفلين، ولتكوني مسرورة.

صليت أمام إيقونة إيفيريا[3].

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

أعانق الصغيرين، وأقبّل يديك وقدميك مع أنك لا تستحقين تلك القبل لقصر رسائلك!

---

(1) جلب دوستويفسكي الكتابين الأول والثاني من «الأخوة كارامازوف» إلى موسكو في 7 نوفمبر 1878.

(2) تعالج ألكساندروف في ستارايا روسا وتعرَّف على دوستويفسكي وكتب فيما بعد مذكرات عن عمل الكاتب في تأليف «الأخوة كارامازوف».

(3) نسخة طبق الأصل من أيقونة «عذراءِ البوابة» في دير إيفيرون في جبل آثوس، جلبت إلى موسكو عام 1648 وظلت محفوظة في كنيسة بوابة الكرملين التي اندثرت فيما بعد.

201. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 29 يونيو 1878 مساء الخميس

حمامتي العزيزة آنيا. عدت تواً من (دير) خلوة النساك في أوبتينا. سافرت إلى هناك مع فسيفولود سولوفيوف الجمعة المصادف 23 من يونيو. الشيء الوحيد الذي كنا نعرفه هو السفر بقطار موسكو - كورسك حتى محطة سيرغييفو، الواقعة على بُعد خمس محطات بَعد (مدينة) تولا، قرابة 300 كيلومتر من موسكو. وهناك قيل لنا إن المسافة من سيرغييفو إلى أوبتينا 35 كيلومتراً، وفي الطريق قيل لنا إن المسافة 60 وليس 35. والمشكلة لا أحد يعرف الموقع على وجه التحديد، فبقي الأمر مجهولاً بالنسبة لنا منذ البداية. وعندما وصلنا إلى سيرغييفو علمنا أن الطريق 120 كيلومتراً وليس 60. ليس بطريق عربات البريد، بل إن نصف الطريق ريفي طويل، بمعنى لزوم ركوب عربة بثلاثة جياد مع توقف لإطعام الخيول. وعزمنا على ذلك وأمضينا في الطريق يومين. كنا نبيت الليل في القرى وتهز المركبة الفظيعة أحشاءنا. وبقينا يومين آخرين في خلوة أوبتينا. ثم توجهنا في طريق العودة على تلك الخيول نفسها وقضينا يومين آخرين، وبلغ المجموع سبعة أيام بلياليها. ولذا لم أكتب لك فترة طويلة (. . .) وسأحدثك

بالتفصيل عندما أعود.[1] حينما رجعت إلى موسكو نزلت في فندق «أوروبا» نفسه ومضيت في الحال إلى يلينا بافلوفنا لأستلم رسائلك. ولم أجدها هي طبعاً. والرسائل حسب الاتفاق عند البواب. هكذا استلمت رسائلك الثلاث وأنا شاكر لك عليها، وأقبّلك. ليس ثمة ما يبعث السرور ما دامت النقود ليست في الجيب حتى الآن. الأمور هناك، عند كاتكوف، غير واضحة تماماً. فهو لربما غيّر رأيه خلال الأسبوع المنصرم. غداً سأذهب إليه. حينما أستلم النقود أترك مبلغاً منها عندي، وأطلب من فيرا أن تخيطه في باطن القميص على الصدر، والباقي أحوله إليك بالبريد. إلا أنني، حسب تقديري، لن أتمكن من إنهاء كل الأشغال قريباً، ولذا سأرتحل إلى ستارايا روسا على الأرجح في الثامنة والنصف من صباح الأحد، وأصل إليكم الاثنين المصادف 3 يوليو، الساعة الواحدة بعد الظهر. وإذا لم أستلم النقود آتي إليكم قبل ذلك. عموماً، يا عزيزتي، هناك الكثير من الأمور غير المفهومة بالنسبة لك، أقصد غير المعروفة. إلا أنني أترك كل التفاصيل لحين مجيئي. أقبّلك مع الصغيرين. ربما ستستلمين هذه الرسالة يوم الأحد، مع أنني ذاهب الآن، في مساء الخميس، لأضعها في صندوق البريد. أقبّلكم جميعاً من جديد وبحرارة، تحياتي إلى آنّا نيكولايفنا. وأقبّلك مرة أخرى، وخصوصاً يديك وكل الباقيات.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

أشعر بإنهاك شديد. لم تحصل نوبات صرع، لكنني أخشى أن تحصل، فقد حان وقتها.

---

(1) ألَّف دوستويفسكي الكتاب الأول من «الأخوة كارامازوف» بتأثير مباشر من انطباعات الرحلة إلى خلوة النساك.

202. إلى سرغي يوريف

ستارايا روسا، 11 يوليو 1878

السيد الكريم سرغي أندريفيتش

استلمت رسالتك من ثلاثة أيام. كنت تعرفت عليك وأخذت أحترمك منذ أن صدرت «الحديث» التي تتولى تحريرها. ومنذ ذلك الحين سمعت من البعض أنك أنت أيضاً تعرب عن مودتك لي. وسيكون من دواعي سروري أن أتعرف عليك شخصياً. كتبت في رسالتك تقول إنني احتفظت برأيي عنك «على الرغم من أننا لم نلتق من زمان». فهل كنا قد التقينا وتعارفنا في زمن ما؟ أنت لا تصدق بمدى تأثير هذا النوع من التذكير بالأحداث عليّ أحياناً. المشكلة أنني منذ ربع قرن أصبت بمرض الصرع المكتسب في سيبيريا. وقد انتزع هذا المرض مني شيئاً فشيئاً ذاكرة الأشخاص والأحداث لدرجة جعلتني أنسى بالمعنى الحرفي للكلمة كل حبكات وتفاصيل رواياتي، وطالما أنني لم أعد قراءة بعضها من زمن صدورها فقد بقيتْ مجهولة تماماً بالنسبة لي. ولذا لا تزعل لأنني نسيت الملابسات والأوقات التي كنا نلتقي فيها ونعرف بعضنا بعضاً. هذا كثيراً ما يحدث لي مع

أشخاص آخرين. فتكرم عليَّ بتذكيري، إذا توفرت الفرصة، بزمان وظروف تعارفنا سابقاً. أما بخصوص روايتي فإليك الحقيقة كاملة رداً على دعوتك المشكورة:[1]

شرعت في تأليف الرواية وأواصل كتابتها، ولكن العمل لا يزال في بدايته. والحال معي هكذا دوماً. أبدأ بكتابة رواية مطولة، أحجام رواياتي تتراوح بين 40 و45 ملزمة، في منتصف الصيف، وأصل بها إلى النصف تقريباً مع بداية العام الجديد حيث يظهر الجزء الأول منها في هذه المجلة أو تلك اعتباراً من شهر يناير. ثم أنشر الرواية في تلك المجلة طول العام على فترات حتى شهر ديسمبر. وكل مرة أختتم الرواية في السنة التي يبدأ فيها نشرها. ولم يحصل ولا مرة واحدة ترحيل الرواية إلى عام آخر من أجل طباعتها.

عندما نشرت روايتي «المراهق» في مجلة نكراسوف («المعاصر»)، نزولاً عند طلبه، بعد تعاون طويل الأمد مع مجلة «البشير الروسي» التي كان (صاحبها) ميخائيل كاتكوف ينتظر أن أنشر «المراهق» أيضاً في مجلته، أبلغته بأنني أعتبر نفسي، رغم ذلك، من منتسبي مجلة «البشير» على الأكثر. وهذا ما جعلني أتفاهم معه فيما يخص روايتي الحالية، حتى أنني استلمت مقدماً من هيئة تحرير «البشير» 2000 روبل، مثلما كنت أفعل دائماً بخصوص الاتفاق على الدفع مقدماً. ورغم ذلك لم نبتّ نهائياً في شأن نشر روايتي لأسباب يصعب شرح تفاصيلها في رسالة، وهي في الحقيقة تتوقف على ملابسات جانبية لا علاقة لها بالجوهر الأدبي للرواية، لكنها يمكن أن لا تتوضح إلا في نهاية سبتمبر من العام الحالي، 1878.

وبالتالي لا يمكنني أن أعطيك جواباً دقيقاً على اقتراحك بنشر

الرواية في «الفكر الروسي» إلا في شهر أكتوبر إذا كنت ستتواجد في موسكو آنذاك. حينئذٍ يتضح أين سأنشر روايتي.

وفيما يخص مجلة «الفكر الروسي» ذاتها فإن نبأ البدء بصدورها أثلج صدري وأثار في نفسي شعوراً من الاستحسان والمشاطرة الفائقة، لكوني أتذكر مجلتك «الحديث» (1871-1872)، وسيشرفني أن أخدمها مستقبلاً على قدر المستطاع[2].

إذا أردت أن تبلغني بشيء فأنا باق هنا، في ستارايا روسا، حتى الـ 25 من أغسطس.

/ ف. دوستويفسكي /

---

(1) لنشر رواية «الأخوة كارامازوف» في مجلة «الفكر الروسي».

(2) استمرت هذه المجلة بالصدور من 1880 حتى 1892.

203. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 9 نوفمبر 1878

حمامتي العزيزة آنيا. يوم أمس، وبعد أن بعثت إليك الرسالة، مضيت إلى موزع الكتب إ. سولوفيوف، فوجدته في البيت. وكان قد هيأ فاتورة الحساب والنقود. قال لي شيئاً لم أفهمه عن الفاتورة، فطلبت منه أن يكتب إليك أفضل، وسلمني 109 روبلات و90 كوبيكاً. علما بأن حصة «الجريمة والعقاب» وحدها من المبلغ 87 روبلاً. أما بخصوص «الشياطين» فلا تزال لديه حوالى مئتي نسخة وبودّه لو أعاد لنا مئة نسخة. كما أن لديه 300 نسخة من «منزل الأموات» مما آل إليه (بعد إفلاس متجر) بازونوف. وسألني هل هنأت كاتكوف (بعيد شفيعه الملاك ميكائيل)، فأجبت كلا (. . .) ومضيت إلى هناك. (كان في منزل كاتكوف عدد كبير من أقربائه المتقدمين في السن، وليس بينهم سوى سيدتين). ثم توجهت إلى لوبيموف في حوالى الخامسة. ولم أجده في البيت. (فتحدثت إلى زوجته)، ثم جاء هو، وقد احتفى بي كثيراً. وتحدثنا عن «الأخوة كارامازوف». كاتكوف رغب في قراءة الرواية بنفسه ولم يسلم المخطوطة إلى

لوبيموف رغم إلحاح الأخير، بل احتفظ بها لنفسه. وقد عرض كاتكوف على لوبيموف خطة الرواية وكل ما أبلغته به عنها باختصار أثناء لقائي معه، ما يعني أنه مهتم بها كثيراً. ووعدني لوبيموف بتنظيم تلاوة علنية بناءً على طلبي. وقال: «سألح عليه». ثم دعاني بإصرار لتناول طعام الغداء «مما مَنَّ اللّه به على عباده» (ويقصد الموجود، من دون تحضير مسبق) فوافقت. ولا أدري هل يتناولون الطعام على هذا النحو دوماً، أم أنه كانت لديهم وليمة قبل ذلك. تناولتِ الطعام معي سيدتان من الضيوف وكذلك البروفيسور أرخيبوف. على المائدة متبلات ونبيذ و5 أطباق بينها حفش طازج مطهي على الطريقة الموسكوبية. إذا كانوا يقتاتون على هذا النحو يومياً، فذلك يعني أنهم في نعيم. كان الجو منعشاً ومنتعشاً حول المائدة. وأكد لوبيموف أن كاتكوف لم يدعُ أحداً خصيصاً على الغداء.(. . .). تلك هي أخباري لحد الآن. غداً ربما أكتب إليك مرة أخرى. الآن الساعة الثانية ولا رسالة منك (. . .) يوم غد أنوي زيارة مسرح «مالي تياتر» (العرض الأول لمسرحية ألكسندر أوستروفسكي «عروس بلا مهر»).

أنا قلق عليكم. كيف حالك أنت يا عزيزتي، وكيف حال الصغيرين؟ يا ليتني أستلم منك رسالة بأسرع ما يمكن. لا أدري هل سأتوجه إليكم يوم السبت؟ كلا، على الأكثر. ولا أعتقد أنهم سيؤخرونني إلى ما بعد الأحد. أعانقكم وأقبِّلكم جميعاً. وأنت بخاصة، والصغيرين بخاصة. رأيتك في المنام من جديد. إلى اللقاء، يا ملاكي.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

204. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 10 نوفمبر 1878

عزيزتي الغالية آنيا، استلمت رسالتك الرقيقة في السادسة من مساء أمس، فأفرحتني كثيراً وهدأت من روعي. الحمد للّه على سلامتكم.

قبّلي الصغيرين واشكري ليليا على رسالتها وفيديا على اجتهاده (. . .) وقتي ضيق جداً. بالأمس جاءني لوبيموف في الساعة السادسة ليرد الزيارة ويتجاذب أطراف الحديث. قال إن مسألة النقود محلولة. وإن كاتكوف سلمه مخطوطة (الكتابين الأول والثاني من «الأخوة كارامازوف») دون أن يتسع له الوقت لإكمال قراءتها. فيما قرأ لوبيموف نفسه ثلث المخطوطة ويرى أن كل ما فيها مبتكر تماماً. إلا أن المزعج أن تسليم النقود يتوقف أساساً على أمين الصندوق عندهم، شيرمان، الذين يتصرف شخصياً بكل الأمور حتى أن إيعازات كاتكوف بشأن الصرف تتوقف عليه بالكامل. فإذا قال: «الصندوق خال» لن يتمكن أحد من الاعتراض. على أية حال سيدفعون لي ألفاً، ولكنني لا أريدهم أن يؤخروني لكي أسافر السبت، إن لم يكن غداً،

أو الأحد في أبعد تقدير. وإلى ذلك توعكت صحة كاتكوف، كما يقول لوبيموف. الآن الساعة الواحدة بعد الظهر. وسأذهب إليه لأعرف قراره النهائي (. . .) كنت ذهبت إلى فيرا، فوجدت جميع الأهل عندها، وجلست معهم حتى منتصف الليل. فيرا في منتهى الطيبة واللطف. لم تكن تعرف بنبأ وفاة (ابننا) أليوشا. تلك هي كل أشغالي. بالأمس أقدمت على حماقة، اقتنيت تذكرة للمسرح حيث يقدم العرض الأول لمسرحية أوستروفسكي («عروس بلا مهر»). إذن، يا ملاكي الحبيب، ربما سأغادر يوم الأحد رغم رغبتي في السفر غداً، السبت. أقبّلك بحرارة، لا تكتبي رسائل أكثر. كما أقبِّل ليليا وفيديا. أعانق الجميع، وأرغب في رؤيتك بأسرع ما يمكن إضافة إلى كل الأسباب الأخرى. على أية حال أشعر هنا بضجر شديد. قبلاتي من جديد. كيف حالكم؟ هل أنت في صحة جيدة، يا ملاكي؟

المخلص الأبدي ف. دوستويفسكي

204 (أ). إلى نيكولاي دوستويفسكي

بطرسبورغ، 17 ديسمبر 1878

أخي العزيز، أبعث إليك الـ 7 روبلات (الشهرية المعتادة)، ويؤسفني جداً أنك مريض طول الوقت. أنا أيضاً. في حين يتكاثر عليّ القلق والعمل من جديد. أقبِّلك. أتمنى لك الشفاء. تعال إلينا. إلى اللقاء.

أخوك ف. دوستويفسكي

204 (ب). إلى نيكولاي دوستويفسكي

بطرسبورغ، 1 يناير 1879

أهنئك بالعام الجديد وأرسل ما أستطيع إرساله. فأنا في ضائقة شديدة. إلى اللقاء، أتمنى لك الصحة والعافية. أنا نفسي أسعل كاليهودي (المسلول).

طياً 7 روبلات.

المخلص ف. دوستويفسكي

205. إلى فيكتور غايفسكي

بطرسبورغ، 10 مارس 1879

السيد فيكتور بافلوفيتش المحترم

أنا مستعد ببالغ الارتياح لتلاوة يوم الجمعة إذا كنتم بحاجة إليّ. ولذا أبلغكم. ولكن ماذا عليَّ أن أقرأ (في الأمسية)؟ لم أقرر بعد، لم يتسع الوقت لذلك. على فكرة إذا كان جمهوركم جديداً فهذا يعني أن أشخاصاً آخرين سيقتنون التذاكر، فلمَ والحال هذه لا نكرر ما تلوته في التاسع من مارس؟ أم أن من الضروري تقديم المادة إلى الرقابة مسبقاً إذا قرأت شيئاً آخر؟ وإذا لم تكن هناك ضرورة لعرض مادة التلاوة على الرقيب، ولا بد من تقديم التسمية الدقيقة لتلك المادة لأجل النشر فيمكن أن أكتب أقصوصة أو أقدم مقتطفاً من رواية أو أي شيء من هذا القبيل من دون تحديد دقيق لحين من الوقت. عموماً القرار لكم. وسأحاول اختيار شيء مما هو منشور. أما إذا كان بالإمكان تكرار فصل «القصة السرية» الذي سبق أن قرأته (من «الأخوة كارامازوف» في 9 مارس) فسيكون الأمر أهون.

وتقبّلوا فائق الاحترام والتقدير.

خادمكم المطيع ف. دوستويفسكي

206. إلى فيكتور بوتسيكوفيتش

بطرسبورغ، 12 مارس 1879

السيد فيكتور فيوفيلوفيتش المحترم

استلمت رسالتك أمس. معنوياتك متردية، فلا تسمح للملابسات أن تفرض نفسها عليك. صدقني: كل شيء سيهون، ويكون على ما يرام.

ما تكتبه عن ميخائيل نيكيفروفيتش (كاتكوف) غير معقول. ولا بد أن يكون السبب سوء تفاهم. فلو أنه غيّر رأيه ولم يرغب في قبول طلباتك ومقترحاتك لأبلغك بذلك دون أن يتملص. ولذا يصعب التكهن بشيء حتى استيضاح الأمر (بشأن استئناف إصدار «المواطن»).

«الأخوة كارامازوف» تحظى بإعجاب الجميع، في القصر ولدى الجمهور وفي أمسيات التلاوة، بحسب كتابات «الصوت» و«النداء» وغيرهما. إلى اللقاء، فأنا مستعجل جداً، ومشغول جداً. حاول أن تستشف جواب كاتكوف. الآن يمكنك بالطبع أن تعود قريباً. وإذا استلمت نقوداً من (موزع كتبي) بتروف وكنت بحاجة إليها، من أجل العودة، فيمكنك أن تستخدمها. أنا أقدمها لك كقرض وقتي.

المخلص ف. دوستويفسكي

207. إلى الأمير قسطنطين رومانوف

بطرسبورغ، 15 مارس 1879

صاحب السمو الإمبراطوري

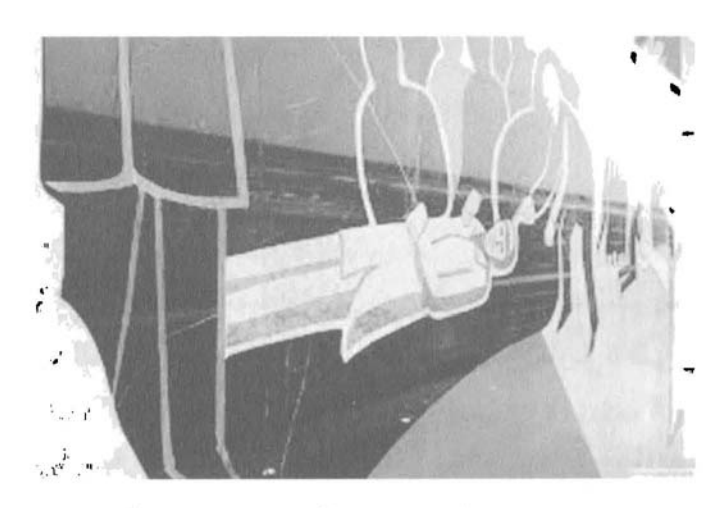
أنا في منتهى التعاسة لعجزي عن تلبية رغبة سموّكم والتشرف بدعوتكم الكريمة للحضور غداً الجمعة الـ 16 من مارس. ففي الساعة الثامنة مساءً، ولسوء الصدف، عليَّ أن أقدم تلاوة لمنفعة الصندوق الأدبي.

وقد اقتنى الجمهور التذاكر حتى قبل الإعلان عن الأمسية في الجرائد. وإذا لم أحضر للتلاوة المعلنة في برنامج مؤسسي الصندوق فإنهم سيضطرون، بسبب امتناعي عن الحضور، إلى إعادة أثمان التذاكر لمقتنيها.

وأكرر هنا يا صاحب السمو أنني أشعر بالتعاسة البالغة. وكنت أتذكر طول الوقت وبمنتهى السرور الدعوة التي وجهتموها لي، في ضيافة صاحب السمو الإمبراطوري سرغي ألكساندروفيتش، للمجيء إليكم. وها هي الصدفة المؤسفة تباغتني بهذه المفاجأة الأليمة.

فسامحوني ولا تلوموني. وتقبَّلوا مني فائق مشاعر المودة، وسأبقى إلى الأبد الخادم المطيع المخلص لسموّكم الإمبراطوري

فيودور دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

208. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 10 مايو 1879

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أرسلت اليوم على عنوانك في هيئة تحرير «البشير الروسي» ملزمتين ونصفاً في أقل تقدير من نص «الأخوة كارامازوف» لعدد مايو المنتظر من المجلة.

هذا النص يمثل الكتاب الخامس المعنون «مع وضد»، إلا أنه ليس الكتاب بكامله، بل نصفه فقط. النصف الثاني سأوافيكم به في حينه لأجل عدد يونيو، ويتكون من ثلاث ملازم طباعية. كنت مضطراً إلى تقسيم الكتاب الخامس من روايتي إلى كتابين لأنني حتى وإنْ كرست له كل طاقاتي فلن أتمه قبل نهاية مايو، لكوني تأخرت كثيراً بسبب التهيئة للانتقال إلى ستارايا روسا وبسبب الانتقال نفسه، وذلك يعني أنني ما كنت سأستلم البروفة لتصحيحها، وهو الأهم بالنسبة لي. هذا أولاً، وثانياً- الكتاب الخامس في اعتقادي يمثل ذروة الرواية، ولذا لا بد من إنهائه على أفضل ما يكون من حيث دقة السرد. فكرته،

كما سترى من النص الذي بعثته إليكم مؤخراً، هي تصوير الكفر والتجديف المفرط بحق الخالق وبذور التهديم الفوضوي المعاصر في روسيا لدى الشباب المنقطعين عن الواقع، إلى جانب التفنيد الذي أعده حالياً على لسان شيخ الدين المحتضر زوسيما، وهو أحد شخوص الرواية، في آخر كلماته قبيل الموت[1]. ولما كانت صعوبة المهمة التي أخذتها على عاتقي لا جدال فيها فإنك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، ستفهم بالطبع وتسامحني لأنني آثرت الإطالة وتقسيم السرد إلى كتابين كيلا أفسد فصل الذروة بالتسرع. عموماً سيكون هذا الفصل مفعماً بالحركة. وفي النص نفسه الذي بعثته إليكم أنا أصور فقط طباع أحد أهم شخوص الرواية وهو يعبّر عن معتقداته الإساسية التي تتلخص ليس في إنكار الخالق، بل في رفض مغزى ما خلق. وأنا أعتبر تلك المعتقدات تركيبة مختلطة للفوضوية الروسية المعاصرة. فالاشتراكية كلها انبثقت وانطلقت من إنكار مغزى الواقع التاريخي، حتى وصلت إلى منهاج الفوضوية الهدامة. وكان كبار الفوضويين، في حالات عديدة، من ذوي المعتقدات الصادقة. بطلي، على ما أظن، يتناول موضوعاً لا جدال فيه، وهو لاجدوى آلام الأطفال، ويستنتج من تلك اللاجدوى لامعقولية الواقع التاريخي بمجمله.

ولا أدري هل جاء أدائي جيداً أم لا. لكنني أعرف أن شخصية بطلي واقعية إلى أبعد الحدود.

في «الشياطين» كثير من الشخوص الذين تعرضتُ للملامة بسببهم على اعتبار أنهم من نسج الخيال. وهل تصدق أن الواقع فيما بعد دلل على وجودهم، بمعنى أنني كنت مصيباً في تشخيصهم. (فالحقوقي)

قسطنطين بوبيدونوستسيف، مثلاً، أبلغني عن حالتين أو ثلاث من حالات اعتقال فوضويين يشبهون لحد مدهش الشخوص الذين صورتهم في «الشياطين». كل ما يقوله بطل روايتي في النص الذي بعثته إليكم قائم على الواقع. النكات المتعلقة بالأطفال حصلت، وهي منشورة في الصحف، وأستطيع تحديدها، فأنا لم أبتدع شيئاً. الجنرال الذي أطلق الكلاب على الطفل حادث وقع بالفعل، ونشرته هذا الشتاء «الأرشيف»، على ما أتذكر، وتناقلته صحف عديدة أخرى. تجديف بطل الرواية على المقام الإلهي سيلقى تفنيداً علنياً في عدد يونيو المرتقب. وأنا أعمل عليه الآن بخوف وتوجس وإجلال، معتبراً مهمتي هذه، في تقويض الفوضوية، مأثرة وطنية. فتمنَّ لي النجاح، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر.

أنتظر البروفة بفارغ الصبر، على العنوان التالي: ستارايا روسا، ليد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

في النص الأخير، على ما أظن، لا توجد ولا كلمة نابية واحدة. ما عدا معاقبة طفلة في الخامسة من العمر لُطخ وجهها بغائطها لأنها خرئت في الفراش ليلاً. أرجوكم كل الرجاء أن لا تشطبوا كلمات هذا المشهد. إنه مقتبس من مرافعة جنائية في إحدى المحاكم. وفي كل الجرائد، قبل شهرين،(. . .) وردت كلمة «الغائط». ولا يجوز تهذيب التعبير، يا نيكولاي ألكسييفيتش. فذلك من شأنه أن يكون مبعثاً للحزن. نحن لا نكتب لأطفال في العاشرة من العمر. إلا أنني واثق بأنك ستبقي السرد على حاله حتى من دون رجائي (. . .)

كيف حال ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف). هلا تكرمت بنقل احتراماتي العميقة له؟

واحتراماتي لعقيلتك.

وتقبَّل، يا نيكولاي ألكسييفتش، أجمل مشاعري الصادقة تجاهك.

خادمك المطيع ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) فيما بعد أفرد دوستويفسكي الكتاب السادس من «الأخوة كارامازوف» لشيخ الدين زوسيما.



209. إلى قسطنطين بوبيدونوستسيف

ستارايا روسا، 19 مايو 1879

السيد الكريم عزيزنا المحترم قسطنطين بيتروفيتش[1].

مع أن اليوم هو الـ 19 من مايو، إلا أن رسالتي لن تصلك قبل الـ 21 من الشهر، ولذا أسارع لتهنئتك بعيد ملاكك الشفيع. وأتذكر أنني كنت قبل عام من هذا التاريخ في ضيافتك في صباح اليوم نفسه، ويخيل إليّ أن ما مر على ذلك لا يزيد عن أسبوعين أو ثلاثة، أو شهر في أبعد تقدير. لهذا الحد الرهيب يسرع الزمن مبتعداً عنا.

أنا هنا منذ شهر في عزلة تامة مع عائلتي، ولم ألتق أحداً تقريباً. الطقس جيد على العموم، وقد انتهت من زمان فترة ازدهار بطمة الشمال والتفاح، فيما يواصل الليلك ازدهاره البهيج. عكفت على العمل، لكنني لم أنجز الكثير. ومع ذلك أرسلت إلى «البشير الروسي» نصف النص اللازم لعدد مايو، ملزمتين ونصفاً. أنتظر البروفة، ولا أعرف النتيجة، ذلك لأن الكتاب الحالي (الخامس من«الأخوة كارامازوف») هو الذروة في الرواية، وعنوانه «مع وضد». ويتناول

التجديف بالألوهية وتفنيده. أنجزت التجديف وأرسلته إلى المجلة، أما التفنيد فسأرسله لعدد يونيو. تناولت التجديف كما أتلمسه وأفهمه، بصورة أشد، أي كما يجري عندنا في روسيا لدى الطبقة العليا بأسرها تقريباً، وخصوصاً الشباب، وأقصد أن الدحض العلمي والفلسفي لوجود الخالق بات مهملاً، لا يهتم به الاشتراكيون الحاليون الجادون، كما كانوا يهتمون به طوال القرن الماضي وفي النصف الأول من القرن الحالي. إلا أنهم ينكرون بكل ما لديهم من قوة ما خلقه الخالق، أي دنيا اللّه ومغزاها. فالحضارة المعاصرة تعتبر الخليقة لغواً فارغاً. وأنا أعلل نفسي بالآمال في كوني لم أتنكر للواقعية عموماً حتى في موضوع تجريدي كهذا. ذلك لأن تفنيد هذه التصورات يأتي ليس بصورة مباشرة عبر خطاب بين شخصين، بل في آخر كلمة لشيخ الدين قبيل مماته. وقد لامني العديد من النقاد مدّعين بأنني أتناول في رواياتي عموماً موضوعات ما أنزل اللّه بها من سلطان، موضوعات غير واقعية وما إلى ذلك. فيما أنا، على العكس، لا أعرف موضوعات أكثر واقعية من هذه. . .

لقد أرسلت المادة، ولكنْ يخيل إليَّ أنهم في «البشير الروسي» قد لا ينشرونها لسبب ما.[2]

ولكن يكفينا الكلام عن ذلك. كلٌّ يغني على ليلاه.

أنا أقرأ الصحف هنا ولا أفهم شيئاً.

بالأمس قرأت في «العصر الجديد» توجيه وزير التعليم العام بأن يتولى الأساتذة تفنيد الاشتراكية. ألا يعني ذلك دخولهم في جدال مع الطلبة؟ تلك فكرة تنطوي على خطر يفوق التصور.

عندما وصلت إلى هنا كان حديث الناس يدور عن الضابط

دوبروفين الذي أعدم شنقاً حتى الموت. يقال إنه تظاهر بالجنون، حتى وصل إلى عمود المشنقة، وما كانت به حاجة للتظاهر بالجنون طالما هو مجنون أصلاً. عندما نحكم على الأمور من الحوادث الماثلة أمام الأنظار ندهش للمرة المئة من حقيقتين لا يريد أحد عندنا تغييرهما. فإذا تناولنا الفوج الذي يخدم فيه دوبروفين من جهة والرجل نفسه من جهة أخرى نرى الفارق الهائل بينهما وكأنهما كائنان قادمان من كوكبين مختلفين. فيما عاش دوبروفين وتصرف في اعتقاد راسخ بأن الفوج كله سيغدو مثله في نمط التفكير والمحاججة. إلا أننا نقول صراحة إن ذلك جنون. لكن لدى هؤلاء المجانين منطقهم الخاص وتعاليمهم وقوانينهم الخاصة، بل وحتى إلههم الخاص، ويؤمنون بهذا أرسخ إيمان. ولا أحد يلتفت إلى ذلك، بل يعتبره الجميع تفاهة ما بعدها تفاهة. نحن، يا عزيزي قسطنطين بيتروفيتش، نفتقر إلى الثقافة في كل مكان. وسبب افتقارنا إليها يعود إلى العدمي بطرس الأكبر. لقد تم اجتثاث الثقافة من الجذور. وطالما ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان فإن الأمي المسكين عندنا يضطر مكرهاً إلى ابتداع شيء يغوص في الخيال وبمزيد من التفاهة الخرقاء بحيث لا يتضمن أي قدر من المعقول، ذلك لأنه رغم تبنيه الاشتراكية الأوروبية بقضّها وقضيضها، إلا أنه غيّرها لحد اللامعقول.

ها قد حبّرت أربع صفحات، ولكنني، تصور يا عزيزي قسطنطين بيتروفيتش، كتبت لك فيها ما لم أكن أرغب في كتابته! ولا حيلة في الأمر. أشد على يدك بحرارة، وأتقدم إليك بأصدق التمنيات في العمر الطويل وبكل خير. ومن دواعي سروري أنك ستسلتم كلماتي هذه وتقرأها.

ولو كتبت لي، حتى نصف كلمة، فستكون دعماً كبيراً لمعنوياتي الروحية، وكنت قد جئت إليك في الشتاء أيضاً لتعالج الروح الأسيانة.

فليهبك اللّه هدوء الفكر والبال. ولا أدري هل ثمة أمنية أكبر من هذه لأتمناها للإنسان في زماننا هذا.

أخلص التحيات لعقيلتك المحترمة.

خادمك المخلص دوماً

ف. دوستويفسكي

عنواني: ستارايا روسيا. ف. م. دوستويفسكي

---

(1) مسؤول كبير في الدولة بسط حمايته على دوستويفسكي إعجاباً بأدبه.

(2) سبق للكاتب أن اختلف مع الناشر المحافظ كاتكوف حينما طلب الأخير تعديل روايتي «الجريمة والعقاب» و«الشياطين».

210. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 25 مايو 1879

. . . .

جميع ملاحظاتك على البروفة أخذتها بالاعتبار ونقحت كل شيء وفقاً لها، وبالمقابل أرجوك أن تلتفت إلى التوضيحات الواردة في أدناه.

(لست أنا المتمادي في المبالغة والإفراط في الأصباغ والتلاوين). فذلك يعود إلى بطل الرواية إيفان كارامازوف، تلك كلماته وليس كلماتي، حماسته وليس حماستي. إنه شاب انفعالي متشائم، ميّال للصمت في معظم الأحيان. وما كان سيتكلم أبداً لولا تعاطفه الفجائي مع أخيه ألكسي. (. . .) أما أنا فقد أردت أن أرسم صورته بحيث يلاحظ القارئ وجه الغرابة في تصرفه (. . .)

ثم إنك لا ترى ضرورة لتفاصيل حادثة الطفلة التي لم تتعلم الذهاب إلى المرحاض ليلاً. ربما لا موجب لهذه التفاصيل لو كانت صادرة عني. إلا أنها عبارة عن لمسة في رسم طباع شخصية الشاب في الرواية. فما أكثر الطباع المماثلة لهذه، ولا ضرورة لها. (. . .) إلا أن صاحبنا، وهو في الثالثة والعشرين من العمر، أعلن ذلك بشكل

بداية للدفاع عن الأطفال (المظلومين). ومهما كان إيفان يتظاهر بغياب العواطف إلا أن مؤاساته القلبية للأطفال أقوى من حب الآخرين لهم. إيفان هذا يقترف في الرواية، فيما بعد، جريمة ضمنية غير مباشرة ليس بدافع من الطمع في التركة، بل من أجل المبدأ إن صح التعبير، من أجل الفكرة التي يعجز عن التحكم بها لاحقاً ويفضح نفسه ربما لأنه لم يفوّت تفاصيل ذلك الحادث القذر الطفيف على ما يبدو، (حادث البنت الصغيرة في الفراش). تلك التفاصيل بحد ذاتها ليست قذرة، لأن كل ما يتعلق بالأطفال طاهر نظيف، ورائع وضاء. تذكر الملاك الصغير آمور الذي يبول على رؤوس الأشهاد. ذلك المشهد الكلاسيكي الشهير (. . .)

أما بخصوص الجنرال فقد عدلت الصياغة حسبما طلبتَ.

حقاً، فهي عندي كأنما تنسحب على جميع الجنرالات. فخففت تلك الواقعة. ولعلك تتذكر أن هذا الجنرال، والي سيبيريا، أراد أن يعلن عن استقلاله سياسياً. ثم ماذا؟ تلك قضية باتت طي التاريخ.

أنا متفق معك بشأن قاطع الطرق قاتل الأطفال. فالصورة غير واضحة. وقد باتت واضحة تماماً بعد التصحيح. رجائي إليك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، أن تلتفت مستقبلاً في الحالات المشكوك فيها، إن وجدت، إلى المتكلم، إلى عائدية الخطاب. لأن بعض الشخوص لا يستطيعون الكلام على نحو غير النحو الذي يتكلمون به، وذلك لأسباب تعود إلى طبيعتهم. أما أنا فسأحاول إبداء المزيد من الانتباه.

ثم إن عائدية القول بأن الذنوب موجودة والمذنبين غير موجودين واضحة تماماً. فهو لبطل الرواية وليس لمؤلفها.

. . . .

211. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 11 يونيو 1879

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

منذ ثلاثة أيام أرسلت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» بقية «كارامازوف» لعدد يونيو. وهي خاتمة الكتاب الخامس «مع وضد». وفيها نهاية ذاك (الوحش) الذي «أعطي فماً يتكلم بالعظائم والتجديف. . .»[1] العدمي الرافض المعاصر المسعور يعلن عما ينصح به الشيطان ويزعم أن ذلك أصلح من المسيح لسعادة البشر. ذلك توجيه نشيط، على ما يبدو، إلى اشتراكيتنا الروسية الحمقاء، والفظيعة في الوقت ذاته، لأن الشباب منضوون تحت رايتها. العدمي الملحد المستميت يجد السبيل إلى الخبز وبرج بابل، أي مملكة الاشتراكية المرتقبة، والتقييد التام لحرية المعتقد، ذلك ما يتوصل إليه العدمي الملحد المستميت من خلال هذا التوجيه. والفارق في كون اشتراكيينا، وأنت تعرف أنهم لا يقتصرون على العدميين السريين، جزويتيين مغرضين وكذابين لا يعترفون بأن مثالهم الأعلى هو مثال العنف المسلط على الضمير البشري والهبوط بالبشرية إلى مستوى

قطيع البهائم، بينما بطل روايتي الاشتراكي إيفان كارامازوف إنسان صادق يعترف صراحة بأنه موافق على رأي «الجلاد الكبير» بخصوص البشرية وأن الإيمان المسيحي كأنما رفع الإنسان إلى أعلى مما يستحق. ويطرح السؤال نفسه: «هل تزدرون البشرية أم تحترمونها يا منقذيها المرتقبين؟»

إنهم يفعلون ذلك كأنما حباً بالبشرية وحرصاً عليها زاعمين «أن الشريعة المسيحية ثقيلة وتجريدية يصعب على الضعفاء تحمّلها». وبدلاً من شريعة الحرية والتنوير يحملون لهم شريعة السلاسل وعبودية الرغيف.

في الكتاب التالي يقضي شيخ الدين زوسيما نحبه، ونستمع إلى كلامه مع الأصدقاء قبيل الممات. تلك ليست موعظة منه، وإنما حديث عن الذات وقصة الحياة. وإذا وفقت فسأفعل حسناً، سأرغم (القارئ) على الاعتراف بأن المسيحي التقي النقي ليس ظاهرة تجريدية، بل صورة واقعية ممكنة ومرئية بأم العين، وأن المسيحية هي الملاذ الوحيد للأرض الروسية من جميع شرورها. وأبتهل إلى اللّه أن يوفقني. وستكون الرواية ملحمة وطنية حماسية إذا كان الإلهام يكفيني لجعلها بهذا التوصيف. المهم أن موضوعها لا يخطر في بال أحد من الكتّاب والشعراء المعاصرين أبداً، وبالتالي، يعني أنه مبتكر وفي منتهى الأصالة. الرواية بكاملها مكرسة لهذا الموضوع، وكل ما أريده ويقلقني الآن أن تأتي موفقة ناجحة. سأبعث (الوجبة التالية) حتماً لعدد يوليو، وكالعادة في موعد لا يتعدى العاشر من الشهر المذكور. سأوظف كل طاقاتي لهذا الغرض.

استلمت رسالتك، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم، بشأن تحويل المبلغ، وأنتظر بفارغ الصبر الألف الموعود. أنا من دون نقود تقريباً،

ولا أرغب في الاقتراض من أحد. لذا أرجوكم كل الرجاء تحويل الألف روبل بأسرع ما يمكن، ومن دون إبطاء، لأنني في حاجة ماسّة إليها.

أين ميخائيل نيكيفوروفيتش؟ هل هو في موسكو أم في الضيعة؟ وكيف صحته؟ بلغه تحياتي الحارة واحتراماتي.

والآن، يا نيكولاي ألكسييفيتش المحترم، ألا تقدم لي خدمة، إن استطعت، وإذا كان لديك شيء من المودة تجاهي؟ ذات مرة كتبت لك في السياق عن بوتسيكوفيتش، ناشر مجلة «المواطن» السابق. وقد كتب لي أن ميخائيل نيكيفوروفيتش وعده بأن يبعث له مبلغاً شهرياً إلى برلين لقاء المراسلة، وقد اشتدت به الحاجة في برلين وبات، كما كتب لي، في فقر مدقع.

وهو إنسان طيب جداً. وقد استقر رأيه الآن على فكرة فيها مخاطرة، كما تبدو للوهلة الأولى، إلا أنها فكرة جيدة بشأن إصدار «المواطن» في برلين بأعداد شهرية. وينوي المجازفة بإصدارها على سبيل الاقتراض، لأنه لا يملك نقوداً حتى للطعام. وهو لن يكتب أبداً ما فيه دناءة، في حين أن صدور مطبوعة روسية إضافية بالاتجاه المنشود ولو في الخارج أمر يستحق التقدير. ولو كان بالإمكان عونه بأصغر مبلغ، حتى مئة أو مئتي روبل، لأصدر العدد الأول، فتتضح النتيجة بعد ذلك. ويمكن بالتالي توجيهه وإرشاده. وهو يأمل في اكتتاب للاشتراك وإن كان قليلاً في البداية. فأرجوك كل الرجاء أن تفاتح كاتكوف في الموضوع وتبلغني برأيه عن بوتسيكوفيتش وهل وعده فعلاً بمبلغ شهري لقاء المراسلة من برلين؟ فهو، على الأقل، كتب لي ذلك مؤكداً. في انتظار أخبارك بهذ الخصوص. أرجوك،

يا نيكولاي ألكسييفيتش الطيب القلب، أن تنتزع لحظة من وقتك وتكتب لي كلمتين عن ذلك. أنا أشفق على بوتسيكوفيتش هذا، بل وأوده أيضاً. فهو على وشك أن يهلك، وقد استولى عليه القنوط.

وتقبّل فائق الاحترام والتقدير.

المخلص ف. دوستويفسكي

تذييل: احتراماتي إلى عقيلتك الموقرة.

عنوان بوتسيكوفيتش:

Berlin, Dorotheen-Strasse, 60, Victor Putzykovitch

---

(1) سفر الرؤيا، الإصحاح 5: 13.



212. إلى يلينا شتاكينشنيدر

ستارايا روسا، 15 يونيو 1879

الفاضلة يلينا أندرييفنا[1] المحترمة

أشكرك من صميم القلب على رسالتك الرقيقة المؤرخة في 23 مايو. ولم أرد عليها حتى الآن بسبب المشاغل والاكتئاب. الطقس معتكر طول الوقت والبرد والعواصف والمطر الفظيع. وإلى ذلك أصاب السعال الطفلين، وهذا ما يقلقنا أشد القلق. نخشى من السعال الديكي.

أشغالي تتلخص في تأليف الرواية. العمل عليها يجري بطيئاً. كل شهر أسلم ما لا يزيد عن ملزمتين طباعيتين ونصف.

إلا أن الجهد صعب وأليم، وأنا أتألم دوماً عندما أكتب. أبعث الناتج (إلى المجلة) في العاشر من الشهر. كل شهر.

اليوم هو الخامس عشر، ما يعني أنني يجب أن أعكف على العمل غداً، وبالنتيجة لم آخذ قسطاً من الراحة والتنزه في الشهر الحالي إلا لخمسة أيام. وأي تنزه هو؟ الريح العاتية المصحوبة بالأمطار تعول اليوم بالمعنى الحرفي للكلمة وتقتلع الأشجار المعمرة

مقابل النوافذ. ومع اجتثاث الغابات سيتغير مناخ روسيا جذرياً، فلن يبقى هناك ما يحتجز الهواطل ولا ما يقف في وجه الرياح.

صحتي عموماً ليست على ما يرام. وأفكر في السفر إلى أيمس. وإذا عزمت على السفر فسأسافر ليس قبل منتصف يوليو القادم. حينئذٍ سأبقى هناك حتى سبتمبر. ولن يعيقني ذلك عن العمل. هذا كل ما أردت أن أقوله عن أموري، ما عدا المشاعر الروحية الباطنية، فالرسالة لا تصلح للتعبير عنها. ولذلك بالذات أكره كتابة الرسائل.

أوصيك أن تحافظي على صحتك أنت أيضاً وتتهيئي للشتاء بموفور العافية. وفي الشتاء لعلنا نلتقي، فعمَّ سنتكلم؟ وعن أيٍّ من المسائل الملحة؟

أتوقع أن نكون جميعاً مشتتين فكرياً أكثر مما في أي وقت مضى. كلٌّ لحاله. بودّي أن أعمل أيضاً، لكن قواي تخونني.

أقرأ الجرائد يومياً وأرى فيها العجب العجاب أكثر فأكثر. حفر الأنفاق تحت البنوك، جنون لاندسبيرغ وأمثاله. وجريمته التي لا تصدق وينسبونها إلى جنونه. إذا كتب شخص عن ذلك تقوم القيامة عليه فيتهمونه بالافتراءات والميول المريضة وما شاكل. والحقيقة أن المرض والميول المريضة قابعة في أصل مجتمعنا، ومن يلاحظ ذلك ويشخصه يتعرض لغضبة الجميع.

على فكرة، أنت تكتبين عن انتقاد يفغيني ماركوف (لرواياتي). أمامي على الطاولة كلا مجلدي أعداد «الخطاب الروسي»، لكنني لم أقرأ ذلك الانتقاد. أشعر بالتقزز منه. وكل ما أعرفه عن مغزى مقالات الرجل آخذه من الجرائد. أفضل رد عليه هو أن أنهي «الأخوة كارامازوف» كما يرام. وبعد الفراغ من الرواية في العام القادم سأرد

على جميع النقاد دفعة واحدة. فلا بد لي من توضيح الأمور في الأخير، بعد 33 عاماً من النشاط الأدبي.

بخصوص يفغيني ماركوف: في العام الماضي جاءني نافروتسكي ينشد النصح بشأن إصدار المجلة المرتقبة وأبلغني بأنها تعول على ماركوف، فقلت له دون أن أتقيد بالحذر إن ماركوف فستان عتيق من الشيت تعرض للغسيل مرات وفقد رونقه من زمان.

ولما كان نافروتسكي غير ملزم بحفظ الأسرار فقد نقل رأيي إلى ماركوف على ما أعتقد. (. . .). تلك تفاهات، والمهم، أكرر، هو اكتناز الصحة. وأوصيك يا عزيزتي، مجدداً، أن تفعلي ذلك قبل كل شيء. سنلتقي في الخريف. آنّا غريغوريفنا تبعث تحياتها إليك وإلى ذويك جميعاً. وأنا أيضاً أبعث تحياتي العميقة. وانقلي عني كلمة طيبة إلى بوكروفسكي[2]، إلا أن إهداءه مؤلفاتي لك بمناسبة عيد الملاك شفيعك شرف عظيم لي. أشد على يدك بحرارة. اكتبي لي، لا تنسيني.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) صاحبة صالون أدبي في بطرسبورغ.

(2) ميخائيل بوكروفسكي زميل دوستويفسكي من عهد النشاط الثوري.

213. إلى فريدريك توماس

ستارايا روسا، مطلع يوليو 1879

السيد الكريم[1]

مؤتمر رابطتكم الأدبية الدولية شرفني بانتخابي لعضوية لجنتها الفخرية. وأنا شاكر لكم من صميم القلب. كيف لا أفتخر واسمي بات من بين الأسماء المكللة بالأمجاد، بين أبرز مشاهير الأدب المعاصر؟

من نافل القول إنني متحمس بكل حرارة لدفع القضية التي تخدمها الرابطة بكل ما أستطيع من قوة. وآمل أن تسمح لي حالتي الصحية في هذا العام أن أكون بينكم وأشارك في أعمالكم.

فتفضلوا، يا سيدي الكريم، وزميلي المحترم، بتبليغ مندوبي المؤتمر امتناني الخالص على إجماعهم على الاعتراف الذي شرفوني به، كما أرجوكم شخصياً أن تتقبلوا مني فائق الاحترام والتقدير.

(دوستويفسكي)

(1) في الأصل بالفرنسية. رداً على رسالة الرابطة الأدبية الدولية ورئيسها الفخري فيكتور هيغو بتاريخ 3 يوليو 1879. في الوقت ذاته انتُخب ليف تولستوي عضواً فخرياً للجنة، فيما كان إيفان تورغينيف قد انتُخب لعضويتها قبل ذلك.



214. إلى آنّا فيلوسوفا

ستارايا روسا، 11 يوليو 1879

العزيزة الغالية آنّا بافلوفنا المحترمة.

قبل شهر استلمت رسالتك الرقيقة ولم أرد عليها حتى الآن، فلا تلوميني ولا تقرعيني. ثم هل ستحكمين عليّ أنت الطيبة المتفانية بلا حدود، بقلبك الكبير الذكي الرائع؟ كنتُ طول الوقت هنا، في (ستارايا) روسا، في حالة نفسانية عصيبة لا تطاق. ورغم توفر الوقت للحديث إليك، إلا أن حالتي كانت متدهورة لدرجة جعلتني أرجئ الحديث كلما هممت بالتقاط ريشة الكتابة. المهم صحتي تدهورت والصغيران مريضان. في البداية أصيب الصبي بالتيفوئيد، والآن كلاهما يعانيان من السعال. والطقس فظيع لا يطاق، المطر يهطل مدراراً من الصباح حتى المساء، والبرد شديد في الليل، والجو رطب يسبب الاستبراد. طوال شهر كف المطر لثلاثة أيام فقط، ولم نشهد سوى يوم مشمس واحد. في هذه الحالة النفسانية وفي هذه الظروف واصلت الكتابة طول الوقت، وعملت ليلاً، وأنا أسمع فحيح الريح وهي تطيح بالأشجار المعمرة. كتبت القليلَ القليل، ولاحظت من زمان أن العمل يزداد صعوبة كلما تقدمت في العمر. وبالتالي كل

الأفكار كئيبة لا سلوى فيها، بينما أريد أن أتحدث معك في مزاج غير هذا المزاج.

شعرنا، أنا وزوجتي، بمنتهى الارتياح لأنك تنوين السفر إلى القوقاز. فالفائدة من العلاج هناك لا ريب فيها، أنا واثق من ذلك، بشرط أن لا تراجعي طبيباً رديئاً. واحذري الأطباء المشهورين، فقد جُنوا جميعاً بسبب الغرور والغطرسة. وهم يقودون إلى الهلاك. اختاري دوماً طبيباً من الفئة المتوسطة، ألمانياً متواضعاً على سبيل المثال. لأن الألمان في الطب، أقسم لك، أفضل من الروس. أقول ذلك وأنا من دعاة السلافية. هذا أولاً، وثانياً - الرحلة البعيدة إلى مكان مميز كالقوقاز تروّح عنك كثيراً وتصرفك عن التفاهات المملة والابتذال الرتيب في واقعنا في بطرسبورغ رغم المظاهر الباهرة على ما يبدو للوهلة الأولى. وتأخذين قسطاً من الراحة، ولكن ينبغي أن تتمكني من نسيان الماضي القريب ومن الاسترخاء المباشر والانسياق للانطباعات أمام الطبيعة والأماكن الجديدة عليك. وبعد ذلك، في أغسطس، تعودين إلى الأطفال الرائعين في الريف. فما أجمل وجودهم لديك. إنهم يضفون مسحة إنسانية على الوجود بأسمى معنى للكلمة. الأطفال وجع لا بد منه، ومن دونهم ينتفي هدف الحياة.

في حين يروّج الاشتراكيون الأوروبيون دوماً لدور الرعاية والتربية. أنا أعرف أشخاصاً رائعين أريحيين متزوجين ولا أطفال لديهم. وماذا بعد؟ إنهم بمثل هذا الذكاء وهذه الأريحية يفتقرون إلى شيء ما، إنهم واللّه لا يفقهون في مهمات الحياة وقضاياها السامية، وكأنهم يتعكزون.

كتبتِ سطوراً مريزة عن قساوة الناس ووقاحة أولئك الذين ضحيت من أجلهم حباً لهم ربما طول عمرك من خلال نشاطك كله. هذا الكلام ينطبق عليك تماماً. ولكن لا تندهشي ولا تتأسفي، فليس

بالإمكان انتظار أكثر من ذلك من أي كان. ولا تلوميني على لهجتي المهنية المتحمسة على ما يبدو. فأنا نفسي مهان من طرف كثيرين، صحيح أن لا جريرة لي في الإهانة من بعضهم، وصحيح أيضاً أن الإهانة من طرف البعض الآخر ناجمة عن طباعي. ذلك لأنني قلت لهم كلمتي الصريحة، نزولاً عند طلبهم، فجاءني الجزاء منهم أليماً على تلك الكلمة الصادقة. ثم ماذا؟ أنا ربما تألمت وغضبت أكثر منك. صحيح أن ما تحمَّلتِهِ أنت من أولئك وهؤلاء يندر أن يحصل مثله، فأنا نفسي كنت شاهد عيان وسمعت اسمك يتردد كثيراً في تهم زور وبهتان على لسان أولئك وهؤلاء. ومن حسن الحظ أن ثمة شلة من الناس الذين يقدّرون دوماً ويتمعنون ويشاطرون الآخرين حتماً وعلى الوجه الصحيح. ولديك أناس يشاطرونك ويتفهمون نشاطك ويحبونك بصراحة تقديراً لهذا النشاط. لقد صادفتهم وأشهد أنهم موجودون. أما أنا فأرجو أن تعتبريني من أكثر المتحمسين احتراماً لك والمقيّمين لقلبك الرائع الحكيم والعزيز علينا جميعاً. في حين أن زوجتي أحبتك رأساً مع أنها أقل مني معرفة بك.

أشعر بتدهور كبير في الصدر، فقررت أن أسافر إلى أيمس في السابع عشر من يوليو لمدة ستة أشهر، حتى سبتمبر. فما أفظع أن أتحمل كل ذلك الملل في عزلة العلاج. اكتبي لي عندذاك ولو سطراً واحداً على عنوان أيمس (. . .)

احتراماتي العميقة لزوجك، وإلى اللقاء يا آنّا بافلوفنا العزيزة. أشد على يدك وأقبّلها. آنّا غريغوريفنا تحبك حباً جماً وتعبّر لك عن فائق الاحترام.

المخلص ف. دوستويفسكي

ذكّري أولادك الأعزاء بي.

215. إلى نيكولاي لوبيموف

أيمس، 7 أغسطس 1879

السيد الكريم

نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أبعث إليكم طياً الكتاب السادس من «الأخوة كارامازوف» كاملاً لكي تنشروه في عدد أغسطس، الثامن، من «البشير الروسي». عنونت هذا الكتاب السادس بـ «الراهب الروسي»، وهو عنوان جريء مشحون بالتحدي، وسيزعق كل النقاد الذين يكرهوننا: «هل الكاهن الروسي هكذا؟ وكيف يجرؤ على وضعه فوق قاعدة تمثال كهذا؟». فليزعقوا، سيكون هذا أفضل، أليس كذلك؟ أنا أعرف بالطبع أنهم سيفقدون صوابهم. وأعتقد أنني لم أتقاطع مع الواقع. فذلك حق ليس فقط كمثال أعلى، بل إنه حق كواقع أيضاً.

إلا أنني لا أدري هل وفقت. أعتقد أنني لم أعبّر عن عشر معشار ما أردت أن أعبّر عنه. لكنني أعتبر هذا الكتاب السادس ذروة الرواية. طبيعي أن الكثير من مواعظ شيخ الدين زوسيما، والأصح أسلوب التعبير عنها، يعود إلى صورة الشيخ نفسه، أقصد التصوير

الفني لشخصيته، ومع أنني أدين تماماً بالأفكار نفسها التي يطرحها، لكنني لو عبّرت عنها باسمي شخصياً لجاءت بشكل آخر وبلغة أخرى. أما هو فما كان يستطيع أن يعبّر عنها لا بلغة أخرى ولا بروحية أخرى غير التي أضفيتها عليه. وإلا لما ارتسمت الصورة الفنية الروائية لشخصيته. تلك هي، على سبيل المثال، محاججات شيخ الدين عن هوية الكاهن وماهيته، وعن العبيد والأسياد، وعما إذا كان يجوز للمرء أن يحكم على غيره وما إلى ذلك. وقد اقتبست شخصيته وملامحه من صور الكهنة والرهبان والقديسين الروس القدماء بما يميزهم من تسامح عميق وآمال ساذجة غير محدودة بشأن مستقبل روسيا وبخصوص رسالتها الأخلاقية وحتى السياسية. ألم يضع القديسون المطارنة سرغي وبولص وألكسي روسيا في محط أنظارهم من هذه الناحية؟

أرجوك كل الرجاء، يا نيكولاي ألكسييفيتش، وأستعطفك أن تكلف مصححاً أميناً بمراجعة البروفة، لأنني نفسي لا أستطيع أن أصحح الكتاب لعدم توفره تحت يدي هنا. وأرجوك بخاصة أن تلتفت إلى تصحيح الصفحات من 10 إلى منتصف 17، الفصل الفرعي بعنوان «الكتاب المقدس في حياة الأب زوسيما». هذا الفصل شاعري حماسي قائم على بعض مواعظ (القديس) تيخون زادونسكي، فيما اقتبست سذاجة السرد من كتاب رحلات الراهب بارفينيوس. راجعه بنفسك وستكون بمثابة الأخ العزيز عليّ. وعندما يتم فحص كل تصحيحات الكتاب بلّغ ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف). بودّي لو قرأ الكتاب وأبدى لي رأيه فيه، فأنا أعتز برأيه كثيراً.

آمل أن لا تجد في هذا الكتاب ما يستدعي الشطب أو التعديل أثناء المراجعة. لن تجد ولا كلمة واحدة. أتعهد لك.

كما أرجوك كل الرجاء أن تبقي على توزيع الكتاب بشكل فصول وفصول فرعية كما وزعتها أنا. وأذكر هنا أنني أدرجت ضمن الرواية نصاً كأنما غريباً عليها، وهو لألكسي كارامازوف، وطبيعي أن يأتي مكتوباً كأنما بخط الرجل. كما ألاحظ باستياء ما يلي: في فصل «الجلاد الكبير» بعدد يونيو ورد إخلال في توزيع الفقرات وتشويش في 10 صفحات متوالية. وهذا ما يزعجني كثيراً، ويجعلني أتشكى لك بأسف شديد.

وسوف أبعث إليكم الكتاب التالي، السابع، المعنون «غروشينكا» والذي ينتهي به خلال هذا العام الجزء الثاني من «الأخوة كارامازوف» في العاشر من سبتمبر على وجه التقريب. سأرسله حينئذٍ من ستارايا روسا. وقد خصصت هذا الكتاب السابع لعددين من «البشير الروسي» في سبتمبر وأكتوبر. ويضم الكتاب إجمالاً 4 ملازم، ما يعني أن عدد سبتمبر لن يحتوي أكثر من ملزمتين. ولا حيلة في الأمر. ففي هذا الكتاب السابع مشهدان منفصلان وكأنهما قصتان مستقلتان (. . .)

أشكرك جزيل الشكر على تنفيذ طلبي بشأن كيفية إرسال النقود إلى زوجتي في ستارايا روسا. وقد أبلغَتني بهذا الخصوص.

وأتقدم إليك سلفاً بطلب آخر هو أن توعز لمن يهمه الأمر أن يبعثوا لي عدد أغسطس من «البشير الروسي» إلى ستارايا روسا. فأنا سأعود إلى منزلي هناك عندما يصدر العدد المذكور.

وتقبَّل مني فائق الاحترام وخالص التقدير.

خادمك الدائم

فيودور دوستويفسكي

(. . .)

215 (أ). إلى لوبوف دوستويفسكايا

أيمس، 7 أغسطس 1879

ملاكي وحبيبتي ليليتشكا. أقبّلك وأبارك لك وأحبك كثيراً. أشكرك على ما تكتبينه إليّ، سأقرأه وأقبله، وسأفكر فيك كلما استلمت منك شيئاً. أشعر هنا بالضجر من دونكم، وليس لدي معارف. لذا أنا صامت طول الوقت، وأخشى أن أنسى الكلام. سأعود إليكم بعد ثلاثة أسابيع تقريباً. عزيزتي ليليا، أطيعي ماما ولا تتشاجري مع فيديا. لا تنسيا كلاكما التعلم والدراسة. أدعو اللّه أن يحفظكم جميعاً ويعطيكم الصحة والعافية. بلّغي تحياتي للأب (روميانتسيف) وقبّلي فيديا بالنيابة عني. رجاءً أطيعا ماما في كل شيء ولا تغيظاها. إلى اللقاء يا عزيزتي ليليتشكا، أحبك كثيراً جداً. قبّلي ماما.

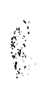
أبوك ف. دوستويفسكي



ابنة دوستويفسكي (لوبوف) وابنه (فيودور)



لوبوف وفيودور وبينهما الوالدة آنّا



215 (ب). إلى فيودور ف. دوستويفسكي

أيمس، 7 أغسطس 1879

ولدي العزيز وحبيبي فيديا. أقبِّلك وأبارك لك، وكثيراً ما أفكر فيك. ماذا تفعل الآن؟ بمَ تلعب؟ إذا كنتم ستسافرون إلى (دير) نيل ستولبينسكي أطيعا ماما في الطريق. صغيري فيديتشكا، أرجوك تعلم واستمع لماما. لا تتشاجر مع ليليتشكا. أحبا أحدكما الآخر كما أحبكما. قبّل ليليا وماما بالنيابة عني. تعلم القراءة. هنا أولاد كثيرون يترددون على المدرسة. كل يوم أصادفهم. بعضهم في الخامسة من العمر ويدرسون. الصبية هنا أيضاً يصطادون السمك في النهر. فهل اصطدت شيئاً يستحق الذكر، يا فيديا؟ أقبِّلك وأحتضنك وأبارك لك.

أبوك ف. دوستويفسكي

216. إلى آنّا دوستويفسكايا

أيمس، 13 أغسطس 1879

صديقتي العزيزة آنيا. استلمت الآن رسالتك الرقيقة المؤرخة في 8 أغسطس، وها أنا أرد عليها بالترتيب. تقولين إنك قلقة عليّ، على علاجي. لا أدري ماذا أقول عن نجاحه. غداً ينتهي الأسبوع الثالث للعلاج. وبقي أسبوعان. هذا ما قرره (الدكتور) أورت اليوم. بمعنى أن العلاج سينتهي في 28 أغسطس حسب تقويمنا، وفي الـ 29 أغادر. الطريق 5 أيام، وسأصل إلى ستارايا روسا، أغلب الظن، في الثالث، وربما الثاني من سبتمبر. الثالث منه على الأرجح. ولذا يمكنك أن ترسلي آخر رسالة في 23 أو 24 أغسطس، وإلا لن تجدني رسالتك هنا. على أية حال، أمامنا أسبوعان، ويمكن أن تطرأ تبدلات. حالياً، في هذه المرحلة من العلاج، أشعر بمزيد من القوة والنشاط. النعاس، مثلاً، زايلني تماماً. والسبب يعود من دون ريب إلى المياه (المعدنية). إلا أنني لم أكتنز بدنياً، ولا زيادة في الوزن. السعال المتقطع الحاد خفت كثيراً، بل انتهى تقريباً. ومع ذلك أسعل مع وخز شديد في الحلق، لكن القشع خفيف جداً، وإلى ذلك بدأ

السعال العادي بالخفوت. نومي مضطرب في الليل، أستيقظ عدة مرات، ولا يزال العرق يتصبب مني، ولكن ليس بالقدر السابق. شهيتي لا بأس بها. إلا أن المعدة ليست على ما يرام. هذا كل ما أستطيع أن أخبرك به عن أحوالي، سوى أن العلاج يسير، على ما يبدو، بنجاح. إلا أن ذلك مسكّن وقتي، فالمرض يبقى ملازماً لي، فيما أنفقت (لحد الآن) 700 روبل. ثم إن الطقس المحلي يعيق العلاج. فالجو رطب رغم الدفء الكبير، والشمس الساطعة، إلا أن المطر يتساقط ثلاث مرات في اليوم، وخصوصاً أثناء الليل. ويصادف أن يهطل طول الليل بلا انقطاع، بينما الرطوبة هي عدوي الأول. ولو كان الطقس أفضل لكان العلاج أنجع.

خبرُ المسكينة إميليا فيودوروفنا أحزنني جداً. صحيح أنها كانت تسير نحو تلك النهاية. مرضها ما كان ليسمح بعمر طويل. وبوفاتها انتهى بالنسبة لي كل ما بقي على الأرض من صلة بذكرى أخي. لم يبق سوى (ابنه) فيديا، فيودور ميخائيلوفيتش، الذي رعيته واحتضنته صغيراً. فيما ترعرع باقي أبناء أخي كأنما بغيابي. اكتبي لفيديا عن أسفي الشديد، فأنا لا أعرف إلى أين أكتب له، وأنت لم تذكري لي عنوانه. لا تنسي كتابة العنوان في الرسالة القادمة. تصوري أي حلم رأيت في الخامس من الشهر: رأيت أخي راقداً في الفراش مقطوع الحنجرة والدم يسيل، وهممت مرتعباً أن أهرع إلى الطبيب، لكنني توقفت لفكرة أنه سينزف كل دمائه قبل وصول الطبيب. حلم فظيع. والمهم أنه حصل في الخامس من أغسطس، عشية وفاتها.

لا أعتقد أنني كنت مذنباً جداً بحقها، فقد ساعدتها حيثما أمكن، وكففت عن المساعدة الدائمة حينما ظهر لديها معاونان، ابنها (الراشد) وصهرها. وفي سنة وفاة شقيقي ضحيت بعملي من أجلهم

دون تردد ولا أسف، ضحيت بـ 10000 إضافة إلى طاقاتي وشهرتي الأدبية، وتجللت بالعار بعد فشل المجلة وعملت كالحصان، حتى المرحوم أخي ما كان ليستطيع أن يلومني من العالم الآخر. ولكن كفاية في هذا الموضوع. أنا نفسي، يا عزيزتي، أفكر دوماً في الموت، أفكر فيه جدياً هنا. وأفكر كيف أتركك مع الطفلين. الكل يتصورون أن لدينا مالاً، ولا مال لدينا. وعلى كاهلي الآن «الأخوة كارامازوف»، ولا بد من إنهائها جيداً وصقلها كما يفعل الصاغة، فيما هي صعبة ستستنزف الكثير من القوى وفيها مخاطرة كبيرة. إنها عمل مصيري أيضاً يجب أن يعيد إليّ اسمي وشهرتي، وإلا فلن يكون هناك أمل. سأنهي الرواية وأعلن في آخر العام القادم عن اكتتاب الاشتراكات في «يوميات الكاتب»، وسأشتري بعائدات الاكتتاب ضيعة، فيما نعيش على أية حال وأواصل إصدار «اليوميات» حتى الاكتتاب التالي اعتماداً على مبيعات الكتب. لا بد من اتخاذ إجراء نشيط، وإلا لن نحصل على نتيجة. ولكن يكفي الآن، سيكون لنا متسع من الوقت للخوض في الموضوع وسنتجادل أنا وإياك لأنك لا تحبين القرية، بينما أنا مقتنع بأن القرية رأسمال سيتم تنظيمه عندما يكبر الصغيران. هذا أولاً، وثانياً- أن من يمتلك قطعة أرض يشارك أيضاً في التسلط السياسي على الدولة. في هذا ضمانة مستقبل الصغيرين وتحديد ما سيكونان عليه: هل سيكونان مواطنَين مستقلين يعتمدان على النفس، ليس أسوأ من الآخرين؟ أم تافهين تركبهما الموجة ولا يركبانها[1]. ولكن كفاية. تقولين إن فيديا يتردد طول الوقت على الصبيان. إنه في السن التي تحدث فيها أزمة الانتقال من الطفولة الأولى إلى الوعي والتفكير. وأنا ألاحظ في طباعه الكثير جداً من السمات العميقة، ومنها شعوره بالضجر الذي لا يشعر به الطفل

العادي في تلك المواقف. المشكلة هي السن التي تستبدل فيها المشاغل والألعاب والميول السابقة بغيرها. كان ينبغي من زمان أن يأخذ الكتاب ليهوى المطالعة المتأملة شيئاً فشيئاً. أنا في سنه كنت أقرأ. والآن وبسبب غياب المشاغل يمكن أن يتهاوى في الحال. لكنه سيبدأ قريباً في البحث عن وسائل أخرى للهو ستكون رديئة إذا ظل الكتاب غائباً. وهو لحد الآن لا يجيد القراءة. ليتك تعرفين كم أفكر في هذا الأمر هنا، وكم يقلقني. ومتى سيتقنها؟ إنه يتعلم ويتعلم دون أن يجيد القراءة!(. . .) (. . .)

إلى اللقاء يا عزيزتي، ولا تزعلي من إرشاداتي. أقبّلك بحرارة، أنت و«الاثنين». أقبّلك 1000 مرة، لا أكثر. غداً يبقى أسبوعان من صمتي هنا. ذلك ليس مجرد عزلة، بل هو الصمت بعينه. لقد نسيت الكلام تماماً. حتى صرت أتكلم مع نفسي كالمجنون. ما أشد أحزاني هنا. بدأتُ الكتابة كيفما اتفق، إلا أن الملل يقتلني ويقتل كل شيء.

إلى اللقاء.

المخلص لك دائماً وأبداً ف. دوستويفسكي

آنيا، تقولين إن المصروفات كثيرة، اكتبي لي كم لديك من النقود حالياً. أريد أن أعرف المبلغ المتبقي فقط، وليس تقريراً عن النفقات. لن أقطع المراسلة، سأواصل الكتابة إليك مرة كل ثلاثة أيام.

تحياتي للجميع. بوتسيكوفيتش أصدر أخيراً عدد «المواطن الروسي» (في برلين) وبعث لي نسخة. وهو ينتظر اكتتاب الاشتراكات ووعد بتسليمي الـ 40 ماركاً. سيغدو هذا العدد طبعاً من نوادر المطبوعات. وينبغي الاحتفاظ به. الرسالة (التي خصصتها لهذا العدد وهي منشورة فيه) كتبتها بلهجة يخيل إليّ أنها ستجعل السلطات تمنع

دخول المجلة إلى روسيا. وعندها لن يسدد بوتسيكوفيتش الـ 40 ماركاً.

أقبِّل الصغيرين وأبارك لهما، وأشكر ليليا (لوبوف) على ملاحظتها الرقيقة (في رسالتك)، كما أتمنى على فيديا أن يبعث السلوى في نفسي ويتعلم القراءة. ثم أريد لكما يا صغيريّ أن تطيعا ماما. أقبِّلكم بحرارة.

---

(1) ابن دوستويفسكي فيديا تخصص في تربية الخيول الأصيلة وجمع مالاً، فيما غدت لوبوف من أدباء المهجر تكتب باللغة الألمانية. ولها مذكرات عن أبيها، مترجمة إلى الروسية ولغات أخرى، رغم أنها كانت في الثالثة عشرة من العمر عندما توفي.



217. إلى قسطنطين بوبيدونوستسيف

أيمس، 24 أغسطس 1879

السيد الكريم قسطنطين بيتروفيتش المحترم. استلمت رسالتيك هنا، وأنا شاكر لك من صميم القلب عليهما، وبخاصة على الرسالة الأولى التي تتحدث فيها عن حالتي النفسانية.

فأنت على حق تماماً، وأفكارك سند وعون لي. إلا أنني وسواسي مريض نفسانياً. وقد استولى عليَّ الاكتئاب عفوياً وأنا قابع هنا في عزلة مؤسفة تامة. بيد أني أتساءل هل يمكن للمرء أن يبقى هادئاً في زماننا هذا؟ انظر إلى ما تشير إليه بنفسك في رسالتك الثانية من وقائع لا تطاق تجري على الساحة. أنا مشغول الآن بالرواية، ولن أفرغ منها إلا في العام القادم، لكن ما يؤرقني هو الرغبة الشديدة في مواصلة «اليوميات»، ذلك لأن لدي حقاً ما أستطيع أن أقوله، كما تريد أنت، من دون جدالات تعميمية عقيمة، بل من خلال الكلمة الصامدة التي لا تخشى في الحق لومة لائم. والمهم الآن حتى الذين لديهم ما يستحق الكلام يخشون التفوّه به. فماذا يخشون يا ترى؟ يخشون الشبح لا غير. أفكار العلوم والتعليم «الأوروبية العامة» تهيمن على

الجميع عنوة. فلا يتجرأ أحد على إبداء رأيه. وأنا أفهم تماماً لماذا لقي غرادوفسكي، من خلال مقالاته الأخيرة التي اعتبر فيها الطلبة جزءاً من فئة المثقفين، استحساناً بالغاً لدى الغربويين عندنا. فالقضية، كل القضية، في كونه يرى علاج جميع فظائع الارتباك الحالي لحياتنا في أوروبا وحدها.

وضعي الأدبي، وأنا لم أحدثك عنه يوماً، إنما يشكل باعتقادي ظاهرة نادرة تقريباً، كشخص يكتب أصلاً ضد التوجهات الأوروبية وقد «أساء» إلى نفسه طول عمره «بالشياطين»، أي بالرجعية والانهزامية. فكيف اعترفَ بهذا الشخص شبابنا، خلافاً لجميع الغربويين ومجلاتهم وجرائدهم ونقادهم؟ كيف اعترف به هؤلاء الشباب العدميون المتأرجحون المتذبذبون؟ لقد أعربوا لي شخصياً عن ذلك زرافات ووحداناً من مختلف الأرجاء. وأبلغوني بأنهم ينتظرون مني وحدي كلمة صادقة جميلة، وأنهم يعتبرونني وحدي كاتبهم ومرشدهم. تصريحات الشباب هذه معروفة لدى رجالات الأدب عندنا، لدى قراصنة الكتابة ولصوص الصحافة، وقد أثارت دهشتهم إلى أبعد الحدود، وإلا لما كانوا يسمحون لي بحرية التأليف، ولكانوا سينهشونني كالكلاب، لولا خوفهم الذي يدفعهم إلى ترقب ما سيحصل في حيرة وارتباك. أنا هنا أقرأ «الصوت» المتجلدة. يا إلهي، ما أكثر الحماقات والتكاسل المقرف والتحجر المتحشف في ما يكتبون. هل تصدق بأن الغضب يتحول عندي أحياناً إلى قهقهة عالية كما حصل لي عندما قرأت، مثلاً، مقالات يفغيني ماركوف، المفكر الذي يتأمل من 11 عاماً بخصوص المسألة النسائية. فما قرأته حماقة ما بعدها حماقة. تقول في رسالتك إن العدد الذي أصدره بوتسيكوفيتش لم يعجبك. نعم، صحيح. فهذا الإنسان لا يتقبل

الكلام ولا النصيحة، إنه واثق بنفسه لحد الغيظ على الآخر. لكن المهم بالنسبة له هو الاكتئاب. وفيما عدا ذلك سيقوم بكل شيء دون وازع من ضمير. رأيك عما قرأته في «الأخوة كارامازوف» أثلج صدري بخصوص الشحنة والزخم في الرواية. إلا أنك تطرح في الحال السؤال الأهم، ألا وهو غياب الرد على كل هذه الأحكام الإلحادية، ولا بد من وجوده. تلك هي الآن وجهة اهتمامي ومبعث قلقي. ذلك لأنني افترضت أن يكون هذا الكتاب السادس «الكاهن الروسي» رداً على كل الجوانب السلبية. وسينشر في 31 أغسطس. ولذا أخشى عليه أن لا يمثل رداً شافياً. لا سيما وأن الرد غير مباشر وغير قائم على الأحكام المذكورة سابقاً، في فصل «الجلاد الكبير» وقبله. فهو سيأتي في صورة فنية مجازية، إن صح التعبير. وهذا ما يقلقني. بمعنى هل سأكون مفهوماً وهل سأتقدم ولو شبراً من الهدف؟ وإلى ذلك ثمة واجبات الإبداع الفني. فقد دعت الحاجة إلى رسم صورة لشخصية متواضعة وجليلة، فيما الحياة ملأى بالمضحكات، وهي جليلة رصينة فقط بمعناها الباطني، ولذا كنت مضطراً بسبب المتطلبات الفنية، ومن دون حرية الإختيار، أن أتطرق في سيرة حياة كاهني إلى أكثر الجوانب تفاهة كيلا أسيء إلى الواقعية الفنية. ثم هناك عدة مواعظ للكاهن سيستقبلها البعض بالنعيق مدّعين أنها عبثية لامعقولة، لأنها تثير الإعجاب والاستغراب. وهي بالطبع عبثية بالمعنى العادي للكلمة، لكنها تبدو ذات مصداقية بالمعنى الآخر، بالمعنى الباطني. على أية حال أنا قلق جداً وأرغب كثيراً في سماع رأيك لأنني أقدره وأحترمه تماماً. وقد كتبتُ بولع كبير.

إلا أنني أرى الإسهاب والإطناب في روايتي. سأكون في بطرسبورغ في الأول أو الثاني من سبتمبر، فأنا مسرع إلى عائلتي في

ستارايا روسا. وسأعرّج عليك، لا أدري في أي ساعة، وإذا حالفني الحظ سأجدك ولو للحظة. إلى اللقاء يا قسطنطين بتروفيتش الطيب الذي أحترمه بكل صدق وإخلاص. يعطيك اللّه طول العمر، ولا أفضل من هذه التمنيات في زماننا، لأن الرجال من أمثالك يجب أن يعيشوا. تخطر في بالي أحياناً فكرة حمقاء هي الخطيئة بعينها: ماذا سيحصل لروسيا إذا متنا نحن البقية الباقية من العشيرة؟ إلا أنني أضحك من نفسي حالما تتبادر إليَّ تلك الفكرة. ومع ذلك يجب علينا أن نعمل من دون كلل. ألست أنت من العاملين من دون كلل؟ على فكرة: بوتسيكوفيتش عندما سمع مني محتوى رسالتك بخصوص تسفير المجرمين إلى سخالين ألح عليّ أن أسلمه رسالتك لينشرها في «المواطن». ولم أسلمها طبعاً.

المخلص ف. دوستويفسكي

218. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 16 نوفمبر 1879

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أرسلت إليكم يوم أمس خاتمة الكتاب الثامن من «الأخوة كارامازوف»، ولعل هيئة التحرير قد استلمتها الآن. وأعتذر مرة أخرى على التأخير. في هذا الكتاب الثامن ظهرت شخوص عديدة، جديدة تماماً، على غير المتوقع. ومع أنها ظهرت لفترة عابرة، إلا أن من اللازم رسم كل شخصية منها بأكمل ما يمكن، ولذا بات الكتاب أكبر حجماً مما ارتأيت له في بادئ الأمر، واستغرق وقتاً أطول، فجاء تأخري هذه المرة مفاجئاً لي أنا أيضاً. وأرجوك كل الرجاء، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، أن يكون تصحيح البروفة رائعاً كما هو لحد الآن.

كتبت لك أنني سأنتهي في نوفمبر، وأتوقف عن العمل حتى العام القادم، إلا أن الملابسات اقتضت غير ذلك. لأنني سأرسل لأجل عدد ديسمبر كتاباً آخر هو التاسع في التعداد وبه ينتهي هذا الجزء. وقد ظهر الكتاب التاسع فجأة وعلى غير المتوقع. ففي البداية كنت أريد أن

أكتفي بمرافعة واحدة في المحكمة. لكنني استشرت أحد المدّعين العامين من ذوي الممارسة والاختصاص واتضح لي أن موضعاً متعثراً في مرافعات محاكمنا لم ينعكس في روايتي نهائياً. ولذا رأيت أن أتطرق إليه في الكتاب التاسع بعنوان «التحقيق الأولي». وسأوافيكم به في ديسمبر، وربما قبله إن أمكن. وإلى ذلك سأركز على طباع ميتيا كارامازوف القوي الشكيمة، فهو يغدو بقلب طاهر وضمير حي في مواجهة المصيبة وتهمة الزور. ويتقبل العقوبة نفسانياً ليس جزاءً على ما فعل، بل لأنه كان على درجة من سوء التصرف بحيث يحتمل أن يقدم على اقتراف الجريمة التي اتُّهم بها زوراً نتيجة لخطأ قضائي. تلك طباع روسية صرف، فالروسي لن يتحرك ما لم تحل المصيبة بالفعل. وتبدأ طهارة البطل الأخلاقية خلال ساعات التحقيق الأولي الذي كرست الكتاب التاسع له. وذلك شيء عزيز جداً عليّ كمؤلف للرواية. والشيء الوحيد غير المريح أن الكتاب التاسع لن يملأ سوى ملزمة طباعية ونصف[1]، لكنه سيأتي مكتملاً تماماً.

وهكذا سأبعث إليكم الكتاب التاسع في ديسمبر، كما سأوجه آنذاك رسالة اعتذار إلى هيئة التحرير لتنشر في المجلة بخصوص ترحيل خاتمة الرواية إلى العام القادم. وأنا أريد أن أنشر هذه الرسالة (التوضيحية) التي كتبت إليك عنها في الصيف، فهي لا تزال ديناً في رقبتي (...)

إذن، سأرسل ما وعدت به في ديسمبر.

وتقبَّل، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، خالص احترام

عبدك المطيع ف. دوستويفسكي

(...)

---

(1) في صيغته النهائية جاء هذا النص بخمس ملازم تقريباً.

219. إلى فاسيلي صامويلوف

بطرسبورغ، 17 ديسمبر 1879

السيد الكريم

فاسيلي فاسيليفيتش[1] المحترم

أشكرك جزيل الشكر على رسالتك الرائعة. وأنا مسرور جداً لمراسلة شخص مثلك. رأيك بخصوصي أعز وأثمن من جميع الآراء والتقاريظ التي تسنى لي أن أقرأها بشأن مؤلفاتي. فأنا أستمع إلى رأي خبير نفساني عظيم حظي بإعجابي منذ سني فتوتي وشبابي حينما كنت أنت ذلك الخبير في بدايات مأثرتك الفنية. وكان لموهبتك العبقرية بالطبع وبالتأكيد تأثير غير قليل عليّ، على روحي وعقلي. ويسرني وأنا في نهايات مسيرة حياتي أن أشهد لك بهذا الفضل. فليمنحنا اللّه أنا وإياك عمراً مديداً. أشد على يدك بحرارة.

وتقبَّل مني خالص الاحترام وعميق التقدير لك ولموهبتك الرائعة.

ف. دوستويفسكي

---

(1) من أبرز ممثلي مسرح ألكسندرينسكي في بطرسبورغ.

220. إلى أ. كورنوسوفا[1]

بطرسبورغ، 15 يناير 1880

بداية أرجو أن تسامحيني على تأخير الجواب (...) وبماذا عساي أن أجيب على رسالتك؟ أسئلتك لا يمكن الإجابة عنها في رسالة. أنا أغلب الأحيان في البيت من الثالثة حتى الخامسة بعد الظهر. أغلب الأحيان وليس كل يوم.

فتعالي إليَّ إذا أردت وسنتحدث وجهاً لوجه بأكثر مما في الرسالة المجردة رغم ضيق وقتي. رسالتك متهيجة ساخنة. وأنت تعانين حقاً ولا يمكن أن تتخلصي من المعاناة، ولكن لمَ تفقدين معنوياتك؟ فلست أنت الوحيدة التي فقدت إيمانها، ثم وجدت طوق النجاة فيما بعد. تقولين إنهم قوضوا إيمانك بالمسيح، فلمَ لمْ تسألي نفسك قبل كل شيء: من هم هؤلاء الذين ينكرون المسيح المخلّص؟ أنا لا أقصد هل هم أخيار أم أشرار. بل أقصد هل يعرفون المسيح على حقيقته؟ صدقيني إنهم لا يعرفونه. لأنهم لو عرفوه ولو قليلاً لرأوا فيه كائناً استثنائياً لا يشبه خيرة الناس وأطيبهم. ثم إن كل هؤلاء الأشخاص لا وزن لهم، ولا يمتلكون أي تحصيل علمي في معرفة ما

ينكرونه. إنهم ينكرون على قدر عقولهم. فهل لهم عقول صافية نقية؟ وقلوب نيرة وضاءة؟ وأنا لا أقصد هنا أيضاً ما إذا كانوا أخياراً أم أشراراً. وإنما هم مصابون بعدوى المرض العام الراهن لجميع المثقفين الروس، عدوى الموقف المستهتر بالأمور والغطرسة البالغة التي لا تتقبلها أذكى العقول في أوروبا، إلى جانب الجهل المطبق بما يحكمون عليه. في اعتقادي أن هذا بحد ذاته كان يمكن أن يمنعك من الرفض والإنكار، أو، على الأقل، يحملك على التأمل والتفكير والارتياب في ما يقولون. أنا أعرف الكثيرين من الروافض الذين توجهوا بكل كياناتهم نحو المسيح في آخر الأمر. بيد أنهم كانوا يتعطشون إلى الحقيقة غير المزيفة، حتى اكتشفوها. فمن جد وجد.

أشكرك كثيراً على كلماتك الدافئة تجاهي. أشد على يدك، وإلى اللقاء إنْ كنت ترغبين في اللقاء.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) لعلها من مستمعات الدورة النسائية العليا.

221. إلى يكاترينا يونغيه

بطرسبورغ، 11 أبريل 1880

السيدة الكريمة يكاترينا فيودوروفنا[1] المحترمة

معذرة لتباطؤي في الجواب على رسالتك الودية الرائعة. فلا تعتبري ذلك التباطؤ إهمالاً مني. كنت أريد أن أرد عليك بصدق وأريحية، إلا أن حياتي تمر، واللّه، في غليان واضطراب، بل في تشويش نادراً ما يسمح لي أن أعود إلى نفسي وأهتم بأموري. والآن أيضاً، حيث انتهزت الفرصة لأكتب إليك، لا أعتقد أنني أستطيع أن أكتب ولو جزءاً ضئيلاً مما يريد الفؤاد أن أنقله إليك. ولا يسعني إلا أن أقدّر رأيك بخصوصي. فالسطور التي عرضتها عليّ والدتك الكريمة من رسالتك إليها مست شغاف قلبي، بل وأدهشتني. أنا أعرف أن لدي، ككاتب، كثيراً من العيوب والنواقص، لأنني نفسي أول من لا يرضى عن نتاجي دوماً. ويمكنك أن تتصوريني في حالات المحاسبة الذاتية المتشددة وأنا أدرك غالباً أنني لم أعبّر عن عشر معشار ما أردت، وما أستطيع أن أعبّر عنه على الأرجح. ولا ينقذني سوى أملي اليوم بأن اللّه قد يمنحني في وقت ما قدراً من الإلهام

والطاقات لكي أعبّر أكثر، والأصح لكي أعبّر عن كل ما في فؤادي وخيالي. في المناقشة الأخيرة لرسالة (الدكتوراه) للفيلسوف الشاب فلاديمير سولوفيوف ابن المؤرخ (المعروف) سمعت منه العبارة التالية: «إن البشرية باعتقادي تعرف أكثر بكثير مما عبّرت عنه حتى الآن في علومها وفنونها». وهذا ما يحصل لي. فأنا أشعر أن في داخلي أكثر بكثير مما استطعت أن أعبّر عنه ككاتب حتى الآن. ومع ذلك أقول بلا تواضع متكلف إن في ما عبّرت عنه كثيراً من الصدق النابع من القلب. وأقسم لك أنني تلقيت مشاطرة واستحساناً كبيرين، ربما أكثر مما أستحق. إلا أن المقالات المنشورة في النقد الأدبي، حتى وإن كانت تمتدحني، في حالات نادرة، إنما تتحدث عني بسطحية واستخفاف وكأن أصحابها لم يلاحظوا مطلقاً ما تمخض عنه فؤادي وروحي بصدق وألم. ويمكنك أن تستخلصي من ذلك مدى ارتياحي للتقويم الرهيف العميق لنتاجي ككاتب في رسالتك عني إلى والدتك الموقرة.

ها قد أطلت الكتابة عن نفسي، مع أن من الصعب عدم الكتابة في هذا الإطار عندما أتكلم مع ناقدة عميقة مليحة لأدبي، كما هي عليه أنت. ثم إنك تكتبين عن حالتك النفسية الراهنة. أنا أعرف أنك رسامة ممارسة. فاسمحي لي بنصيحة من صميم القلب: لا تتركي محراب الفن، بل انهمكي فيه أكثر من الآن. وأنا أعرف، وسمعت لا مؤاخذة، أنك لست سعيدة جداً. فعندما تعيشين في عزلة وتثقلين على روحك بالذكريات قد تجعلين حياتك كئيبة تماماً. والملاذ الوحيد، والعلاج الناجع هو الفن والإبداع. واعترافك الذي لا تنوين كتابته، الآن على الأقل، قد يكون صعباً جداً عليك. اعذريني على نصائحي، ولكن بودّي أن أراك وأقول لك كلمتين وجهاً لوجه. فبعد الرسالة التي

كتبْتِها إليّ صرتِ بالطبع إنساناً عزيزاً عليّ، وكائناً أقرب لي روحياً، وأختاً شقيقة في الفؤاد لا بد أن أواسيها وأشاطرها مشاعرها.

تكتبين عن الازدواجية في حالتك النفسانية، وهي سمة عادية لدى الأشخاص... غير العاديين.

إنها سمة ملازمة للطبيعة البشرية عموماً، لكنها لا تصادف في طبيعة كل إنسان بالشدة التي لديك. ولذا أنت عزيزة عليّ، لأن انفصام الشخصية الذي عندك هو تماماً مثلما عندي. وكان يلازمني طول حياتي. ذلك أذى كبير، ولكنّه مبعث ارتياح كبير أيضاً. إنه وعي معمق وحاجة إلى مراجعة الذات واحتياج في طباعك إلى الشعور بالواجب الأخلاقي تجاه نفسك وتجاه البشرية. هذا ما تعنيه الازدواجية والانفصام (...) ومع ذلك تنطوي الازدواجية على أذى كبير. عزيزتي يكاترينا فيودوروفنا المحترمة، هل تؤمنين بالمسيح ووصاياه؟ إذا كنت تؤمنين، أو تتوقين جداً إلى الإيمان، فكرّسي نفسك للمسيح، وعندها يخفت ألم الانفصام كثيراً. وتحصلين على متنفس لخلجات الروح، وهذا هو الأهم.

معذرة على هذه الرسالة المشوشة والتصحيحات على النص. يا ليتك تعلمين مدى عدم إجادتي كتابة الرسائل وصعوبة تحبيرها. لكنني سأرد على رسائلك دوماً إذا واصلت الكتابة لي. فأنا لا أريد التفريط بصديق مثلك بعد أن كسبته. والآن إلى اللقاء مع التمنيات القلبية من الصديق المخلص لك والقريب منك روحياً

ف. دوستويفسكي

---

(1) رسامة وناقدة أدبية، زوجة طبيب العيون الذي عالج دوستويفسكي.

222. إلى ألكسي سوفورين

ستارايا روسا، 14 مايو 1880

الفاضل ألكسي سيرغييفيتش[1] المحترم

أشكرك على رسالتك الكريمة. قبيل سفري من بطرسبورغ استلمت من يوريف بصفته رئيساً لجمعية «عشاق الأدب الروسي»، وكذلك من الجمعية نفسها دعوة رسمية للمجيء إلى موسكو لإلقاء «كلمة»، على حد تعبيرهما، في جلسات أعضاء الجمعية في يومي 27 و28 مايو، فيما تقام مأدبة غداء يوم 26 مايو تلقى فيها أيضاً كلمات ويحضرها تورغينيف وبيسيمسكي وأوستروفسكي وإيفان أكساكوف وكثيرون غيرهم على ما يبدو. وإلى ذلك انتدبتني «الجمعية الخيرية السلافية» لأحضر احتفالات إزاحة الستار عن التمثال[2] والمشاركة كممثل عنها في جلسات جمعية «عشاق الأدب الروسي». وقررت أن أغادر ستارايا روسا في 23 من الشهر. ولا أستطيع أن آتي إلى بطرسبورغ مجدداً من أجل التذكرة، وإذا لم أحصل على تذكرة للقطار الخصوصي (إلى موسكو) في محطة تشودوفو فسأقتني تذكرة للقطار العادي. وأشكرك على اقتراحك باقتناء تذكرة لي، إلا أن الأسهل

والأهون أن أقتني التذكرة بنفسي. ويؤسفني جداً أنك ربما لن تحضر، فقد كان من الأريح أن نجتمع نحن الضيوف من بطرسبورغ في شلة أكثر تلاحماً ومرحاً. ولذا ألا يمكنك أن تحاول المجيء؟ حاول رجاءً. ولم يعجبني نبأ سفر بورينين إلى منطقة الفولغا، كنت أتوقع أن يكتب شيئاً عن الجزء الأخير من «الأخوة كارامازوف»، فأنا أعتز برأيه (. . .)

مع فائق الاحترام والتقدير

المخلص ف. دوستويفسكي

تذييل: أين ستنزل فيما لو قررت المجيء إلى موسكو؟ أنا سأحاول الإقامة في «الفندق الأوروبي» مقابل مسرح مالي تياتر، أو في فندق ديوسو إذا لم أحصل على غرفة هناك. وهو قريب جداً من «الفندق الأوروبي». وسأكون في موسكو على الأرجح مساء 24 من الشهر.

---

(1) رئيس تحرير صحيفة «العصر الحديث».

(2) تمثال بوشكين في موسكو (للنحات ألكسندر أوبيكوشين). للشاعر العبقري حالياً أكثر من 400 تمثال في روسيا وفي 40 دولة أخرى، بما فيها مصر (الإسكندرية 2011، للنحات الروسي غريغوري بوتوتسكي).

223. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 23-24 مايو 1880

صديقتي العزيزة آنيا، لا يمكنك أن تتصوري كم تألمت وأنا في الطريق لوفاة الإمبراطورة[1] رحمها اللّه. صلّي على روحها. بلغني النبأ من الركاب وأنا في عربة القطار حالما غادرنا نوفغورود. وخطر في بالي حالاً أن احتفالات بوشكين ستلغى، ففكرت أن أعود إليكم من (محطة) جودوفو، لكنني امتنعت بسبب المجهول: «فإذا ألغيت الاحتفالات يمكن إزاحة الستار عن التمثال من دونها، من خلال الجلسات الأدبية والخطب». وعندما غادرنا تفير في 23 من الشهر اشتريت «الوقائع الموسكوبية»، وقرأت فيها إشعاراً من الحاكم العام دولغوروكي بأن الإمبراطور أرجأ إزاحة الستار «لحين آخر». ما يعني أنني قادم إلى موسكو بلا موجب. وأنوي مغادرتها في التاسعة من صباح الثلاثاء المصادف 28 مايو. وحتى ذلك الحين سأنتهز فرصة تواجدي في موسكو لأستوضح بعض الأمور وألتقي لوبيموف وأتكلم عن مواصلة نشر «الأخوة كارامازوف»، كما ألتقي كاتكوف وأطوف على موزعي كتبي وهلمجرا. المهم أن يتسع الوقت لذلك. كما

سأطلع على حقيقة الدسائس الأدبية (. . .) كان النهار قائظاً. وأنا لم أذق طعم النوم. فوصلت إلى موسكو متعباً محطماً في العاشرة حسب التوقيت المحلي. وفي المحطة كان في انتظاري يوريف ولافروف وكل أفراد هيئة التحرير ومستخدمي «الفكر الروسي»، أكثر من 10 أشخاص مبتهجين، وبينهم نيكولاي أكساكوف وبارسوف. تعرفت عليهم، ودعوني في الحال إلى تناول طعام العشاء على مائدة أعدها لافروف خصيصاً. إلا أنني كنت مرهقاً من متاعب السفر ولم أكن قد اغتسلت ولا بدلت ثيابي، فرفضت الدعوة. غداً، 24 من الشهر، سأذهب إلى يوريف في الثانية بعد الظهر. قال لي لافروف إن أفضل وأريح فندق في موسكو هو «لوسكوتنايا» على شارع تفيرسكايا قرب الكنيسة التي تحنو على أيقونة عذراء إيفيريا. ومضى في الحال وأحضر حوذياً وصفه بالسائس، إلا أنه، كما خيل إليّ، لم يكن سائساً، بل هو حوذيه الخاص أو شخص جسور آخر. أوصلني إلى الفندق ورفض استلام الأجرة. فأعطيته قسراً 70 كوبيكاً. كل غرف الفندق محجوزة، لكنهم هيأوا لي حجرة بـ 3 روبلات. مؤثثة جيداً، لكن نوافذها لا تطل على الشارع، بل ترتطم بجدار الباحة، وأظن أنها ستكون معتمة نهار غد.

أتوقع أن لا تنشر مقالتي[2] لحين من الوقت. لأن من الغريب أن تنشر الآن. وبالتالي لن أستعيد تكاليف السفرة حالياً. الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل. الأمر صعب جداً عليَّ من دونكم، ثلاثتكم، من دونك ومن دون الصغيرين الجميلين. أقبِّلكم جميعاً بحرارة، أنت في البداية، ثم ليليا، ثم فيديا. قبِّليهما بدلاً مني بكل حرارة، وقولي لهما إنني أحبهما حباً جماً. ربما لن أتمكن من استلام شيء من موزعي الكتب. فلن يتمكنوا من التسديد في يومين. إلى

اللقاء، إذن. لا أدري هل سأستلم منك رسالة. (أظن أن الوقت لن يتسع لرسالة) فأنا أريد أن أصل إلى روسا في الـ 29 من الشهر (. . .) لو حصل مكروه، لا سمح اللّه، ابعثي لي برقية على عنوان الفندق (. . .)

مرة أخرى أعانقكم ثلاثتكم، وأقبّلكم بحرارة.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) ماريا ألكساندروفنا، عقيلة القيصر ألكسندر الثاني، توفيت في 22 مايو 1880، ما أسفر عن إرجاء مراسم إزاحة الستار عن تمثال بوشكين.

(2) المقصود خطاب دوستويفسكي عن بوشكين.



224. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 25 مايو 1880

الأحد. فندق «لوسكوتنايا» على شارع تفيرسكايا.

صديقتي العزيزة آنيا. صباح أمس جاءني في زيارة مجاملة كلٌّ من لافروف ونيكولاي أكساكوف[1] والدكتور زفيريف الأستاذ المساعد في الجامعة. وكان عليّ في ذلك الصباح نفسه أن أرد الزيارة لثلاثتهم. وتطلّب ذلك وقتاً وتنقلات كثيرة. ثم مضيت إلى يوريف، وقد احتفى بي وقبّلنا بعضنا بعضاً. وعلمت أنهم يريدون أن يطلبوا سماحاً بإزاحة الستار عن التمثال في الخريف، في أكتوبر، وليس في يونيو ويوليو كما تصر الرئاسة، على ما يبدو. وعندها ستكون الاحتفالات مجتزأة لحد الصفر، لأن أحداً لن يأتي لحضورها في هذا الخريف. ولم أفهم من يوريف شيئاً على وجه التحديد بخصوص المسألة، فالرجل مرتبك مشوش الأفكار وكأنه صورة جديدة للسيد ريبتيلوف[2]، ولكن بشيء من الدهاء والدسائس. وعندما تطرقت إلى مقالتي قال إنه لم يطلبها مني، فيما أتذكر جيداً أنه طلبها في رسائله إليّ. والقضية أن ريبتيلوف الداهية لا يريد أن يأخذ المقالة ويدفع ثمنها الآن، بينما يقول لي: «في

الخريف لا تعط المقالة لأحد غيرنا، فنحن أول من يطلبها، وسيكون لديك وقت لتنقيحها». ما يعني أنه يعرف أن المقالة غير منقحة بعد. وبالطبع أنهيت الكلام في الموضوع حالاً ولم أعط للخريف سوى وعد غير إلزامي. لم يعجبني ذلك على الإطلاق. ثم مضيت إلى نوفيكوفا، فاستقبلتني ببشاشة وترحاب، ثم قمت بالزيارات (الجوابية)، ثم ذهبت إلى كاتكوف ولم أجده في البيت، كما لم أجد لوبيموف. ومضيت إلى موزعي الكتب. اثنان منهم غيّرا مكان سكناهما. ووعدوا جميعاً أن يقدموا شيئاً يوم الاثنين. ولا أدري هل سيقدمون فعلاً. ومع ذلك سأذهب إليهم الاثنين، وسأحاول تسجيل العناوين الجديدة. ثم عرّجت على إيفان أكساكوف. لا يزال في المدينة، لكني لم أجده في البيت. كان في البنك. عدت إلى الفندق، وتناولت طعام الغداء، ثم مضيت إلى كاتكوف في السابعة مساءً. فوجدته ووجدت لوبيموف واستقبلاني بكل ترحاب. تحدثت مع لوبيموف عن توصيل «الأخوة» إليهم، وكانوا مصرّين على شهر يونيو، وسأضطر إلى العمل كثيراً حينما أعود. ثم ذكرت مسألة المقالة فألح كاتكوف على طلبها. في الخريف على أية حال. فوعدته تقريباً، وأنا أشعر بالغيظ الشديد على يوريف. وبالتالي إذا أرادت «الفكر الروسي» المقالة فسأنتزع منهم مبلغاً باهظاً، وإلا سأسلمها إلى كاتكوف. علما بأنني يمكن أن أوسعها حتى ذلك الحين.

بعد كاتكوف الذي انسكب قدح الشاي على ثيابي عنده فتبللت كثيراً، مضيت إلى بربارة، فوجدتها في البيت، ومع أن الوقت متأخر، حوالى العاشرة، فقد ذهبت معها إلى يلينا بافلوفنا. وكانت بربارة قد استلمت تواً رسالة من أخينا أندريه ومعها وثائق (تسجيل) لقب النبيل، لكي تسلمها إليّ. وأخذت منها رسالة أندريه أيضاً. واتضح أن يلينا بافلوفنا تركت فندقها وانتقلت إلى شقة أخرى. فمضينا إلى هناك

ووجدنا في ضيافتها ماشا ونينا إيفانوفا التي تصالحت يلينا بافلوفنا معها، وكذلك خميروف (. . .) جلسنا قرابة ساعة، وعندما عدت إلى الفندق وجدت رسالة حملها لي نيكولاي أكساكوف شخصياً مع لافروف. وهما يدعوانني لتناول طعام الغداء في 25 من الشهر، أي اليوم، وسيأتيان ليرافقاني في الساعة الخامسة. المأدبة يحييها منسوبو «الفكر الروسي»، كما سيحضرها آخرون. أعتقد سيكون هناك ما بين 15 إلى 30 شخصاً كما لمّح يوريف حينما كنت عنده. أظن أن المأدبة تقام في أحد المطاعم لمناسبة وصولي، أي تكريماً لي. كل أدباء موسكو الشباب هؤلاء يتوقون إلى التعارف معي. الآن الساعة الثالثة، وسيأتون بعد ساعتين. ولا أدري هل يتعين أن أرتدي السترة الطويلة أم سترة السهرة. إلى هنا ينتهي تقريري. لم أطلب نقوداً من كاتكوف، لكنني أبلغت لوبيموف أنني قد أحتاج إليها في الصيف. فأجابني أنه سيرسلها حال الطلب إلى أي جهة أريد. غداً سأطوف على الموزعين، وأعرج على يلينا بافلوفنا، عسى أن تكون قد وصلت رسالة منك. (. . .) وبعد غد الثلاثاء، 27 من الشهر، أتوجه إلى روسا، لكنني لا أعرف حتى الآن بقطار الصباح أو قطار الظهر. أخشى أن لا تسمح لي الأشغال بالسفر غداً. يوريف يزعق طول الوقت أنه يريد أن يتحدث إليّ، وهلمجرا. عموماً أشعر بملل شديد، وأعصابي منهارة. ربما لن أكتب لك أكثر، إلا إذا حصل شيء خارق للعادة. إلى اللقاء، يا عزيزتي، أقبّلك والصغيرين بحرارة، وأنت قبّلي بدلاً مني ليليا وفيديا. أحبكم كثيراً.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) أمين سر جمعية «عشاق الأدب الروسي».

(2) بطل كوميديا غريبويديف «ذو العقل يشقى».

225. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 26 مايو 1880
فندق «لوسكوتنايا» على شارع تفيرسكايا، غرفة 33

صديقتي العزيزة آنيا، هذه رسالة أخرى إليك، أكتبها في الثانية بعد منتصف الليل.

وقد تصلك بعد مغادرتي. لأنني عازم على المغادرة إليكم، على أية حال، يوم الثلاثاء المصادف 27 من الشهر. ولذا أكتب إليك تحوّطاً لما قد يستجد. فالملابسات قد تقتضي أن أبقى لبعض الوقت. ولكن فلأتحدث بالترتيب. في الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم جاءني لافروف ونيكولاي أكساكوف واصطحباني في عربتهما الخاصة إلى (مطعم فندق) «أرميتاج». كانا في سترتين طويلتين، وأنا أيضاً جئت في سترة طويلة (وليس في بدلة السهرة) مع أن المأدبة أقيمت تكريماً لي. وكان ينتظرنا في المطعم 22 من الأدباء والبروفيسوريين والعلماء. وأبلغني يوريف أول ما التقاني في المأدبة المهيبة أن الكثيرين أرادوا حضورها، ولو كان الوقت يكفي ليوم آخر لحضرها مئات الضيوف، لكنهم استعجلوا في إحيائها، ولذا يخشون من ملامة

الكثيرين عندما يعرفون بها ولم يدعُهم أحد لحضورها. كان هناك 4 من كبار أساتذة الجامعة، وكذلك بوليفانوف (. . .) صديق عائلة بوشكين، وإيفان سرغييفيتش أكساكوف ونيكولاي أكساكوف ونيكولاي روبنشتين الموسقوفي وغيرهم. كانت المائدة تنوء بما لذ وطاب من طعام وشراب. وقد شغلت قاعة بكاملها، وأكيد أنها مكلفة. أسماك السلمون لا أطول منها، وأسماك طويلة أخرى من الجودة نفسها، وحساء السلاحف وتوت الأرض وطيور السمان، وخضار الهليون اللذيذ والبوظة والكثير من النبيذ الممتاز والشمبانيا. رفعت من أجلي وقوفاً (سبعة) أنخاب رسمية، بعضها خطب عصماء. تكلم يوريف وأكساكوف الأول والثاني وثلاثة من الأساتذة الجامعيين ونيكولاي روبنشتين. ووصلت أثناء تناول الطعام برقيتا تهنئة إحداهما من بروفيسور محترم جداً أضطر لمغادرة موسكو فجأة. ودار الحديث عن أهميتي «العظيمة» كفنان «ذي أريحية عالمية» وككاتب اجتماعي ومواطن روسي. ثم توالت الأنخاب، وكان الجميع ينهضون ويقتربون مني ليقرعوا كؤوسهم بكأسي. سأحدثك بباقي التفاصيل عندما نلتقي. كان الجميع في أحسن مزاج. وجاء ردي عليهم في خطاب موفق تماماً، كان له تأثير كبير، علماً بأنني تطرقت في كلمتي إلى بوشكين خصيصاً، وكان لذلك وقع عميق.

هنالك صعوبة أخرى لا تطاق. زار وفد من جمعية «عشاق الأدب الروسي» اليوم الأمير دولغوروكي، فأعلن له أن إزاحة الستار عن التمثال ستتم ما بين الأول والخامس من يونيو. ولم يذكر الموعد بالتحديد. وها هم في سرور، بمعنى «أن الأدباء وبعض أعضاء الوفود لن يتفرقوا. ومع غياب الموسيقى والعروض المسرحية ستعقد على أية حال جلسات للجمعية، وستلقى خطب، وتقام ولائم». وعندما أعلنت

أنني مسافر في الـ 27 من الشهر ثارت ضجة صاخبة: «لن نسمح بالسفر». وأعلن بوليفانوف، وهو عضو في «لجنة الاحتفالات بإزاحة الستار»، وكذلك يوريف وأكساكوف على الملأ أن كل أهالي موسكو يقتنون تذاكر الجلسة وجميع الذين يقتنون تذاكر جلسات جمعية «عشاق الأدب الروسي» يتساءلون مراراً وتكراراً: هل سيتكلم دوستويفسكي؟ ولما كان من المتعذر تحديد الجلسة التي سأتكلم فيها، هل هي الأولى أم الثانية، فقد أخذ الناس يشترون تذاكر الجلستين. وقال لي ثلاثتهم: «إن موسكو كلها ستشعر بالمرارة والغضب علينا إذا غادرتَ». وتحججتُ بضرورة كتابة «الأخوة كارامازوف» فصاحوا جادين بأنهم سيرسلون وفداً إلى كاتكوف ليمدد لي موعد التسليم. وقلت لهم إنكِ مع الصغيرين ستقلقون عليَّ إذا بقيت هنا كل هذه الفترة الطويلة فاقترحوا جادين بأن يبعثوا إليك برقية ووفداً إلى ستارايا روسا ليطلبوا منك السماح ببقائي (في موسكو). وأجبتهم بأنني سأبت في الأمر غداً، الاثنين.

وها أنا قلق أواجه إحراجاً كبيراً: فمن جهة تعزيز موقعي في موسكو، فضلاً عن بطرسبورغ، يعني الكثير، ومن جهة أخرى يواجهه فراقكم وتعقيدات «الأخوة كارامازوف» والنفقات وما إلى ذلك. ثم إن «خطابي» عن بوشكين سينشر حتماً، لكنني لا أعرف تقريباً أين سينشر. يوم السبت وعدت كاتكوف أن أسلمه الخطاب، ما يعني أن «عشاق الأدب الروسي» ويوريف سيكونون في حزن عظيم. وإذا أعطيتهم الخطاب يزعل كاتكوف. أفكر في الرحيل يوم الـ 28 أو الـ 29، إن لم يكن في الـ 27 من الشهر، حين يأتي إشعار بالموعد الدقيق من دولغوروكي لإزاحة الستار. ربما سأضطر إلى الانتظار حتى معرفة ذلك الموعد. من جهة ثانية دولغوروكي يتكلم عن نفسه، ولم

يستلم الموعد الدقيق بعد من بطرسبورغ. وهو نفسه، كما عرفت، سيسافر إلى بطرسبورغ لبضعة أيام. ولذا فلو افترضنا أنني سأبقى حتى الخامس من يونيو فقد يصدر أمر بإرجاء الاحتفالات حتى العاشر أو الخامس عشر من الشهر، فهل يتعين عليَّ أن أنتظر كل هذه الفترة؟ سأبلغ يوريف غداً بأنني مسافر في 27. وإذا بقيتُ فلأسباب وجيهة ودقيقة. على أية حال أنا الآن في قلق شديد. بعد الغداء مضيت إلى يلينا بافلوفنا، ولم أجد رسالة منك. بالطبع لا يزال الوقت مبكراً لوصولها من ستارايا روسا. وأخشى أن لا أستلمها غداً. ذهبت مع يلينا إلى ماشا إيفانوفا، وحدثتها عن مأدبة الغداء مع روبينشتين، فدهشتْ إعجاباً (. . .)

علماً بأنني انتخبت لعضوية جمعية «عشاق الأدب الروسي» قبل عام، إلا أن أمين السر السابق بيسونوف، وبسبب الإهمال، لم يبلغني بانتخابي، فقدموا اعتذارهم لهذا التقصير. أعانقك، يا عزيزتي، بحرارة، وأقبِّل الصبي والصبية. في المنام أرى أحلاماً غريبة وذات مغزى.

(. . .)

ألقيت كلمة جيدة. أعانقك من جديد. قبِّلي الصغيرين وحدثيهما عن بابا.

(. . .)

تذييل: أفكر في الإصرار على المغادرة يوم 27. صحيح أن الخطاب لن ينشر والحال هذه. فستكون له أهمية ليس كخطاب، بل كمقال. ولا بد من تعديله لهذا الغرض.

كانت المأدبة فاخرة لدرجة أنهم أحضروا مئتين من السيجار الرائع

الثمين على القهوة وشراب الليكور بعد الغداء. ولائمهم أكثر أناقة من ولائم بطرسبورغ.

تذييل:

25 مايو، الثانية بعد الظهر.

عزيزتي آنيا، فتحت مظروف رسالتي إليك بعد أن أغلقته أمس لأضيف إليه ما يلي: صباح اليوم جاءني إيفان سرغييفيتش أكساكوف وألح عليَّ في طلب البقاء حتى الافتتاح، لأنه سيتم، كما يتوقع الجميع، قبل الخامس من الشهر. وقال إنه لا يجوز لي أن أغادر ولا يحق لي أن أفعل، لأن لي تأثيراً على موسكو، والأهم على الطلبة والشباب عموماً، لدرجة أن رحيلي يسيء إلى انتشار معتقداتنا، وإنه عندما سمع على الغداء أمس الأفكار الأساسية في خطابي تيقن من ضرورة مشاركتي وما إلى ذلك. ومن ناحية أخرى أبلغني بأنني لا أستطيع المغادرة لأنني مندوب عن الجمعية الخيرية السلافية، وقد قرر جميع المندوبين الانتظار والبقاء نظراً للشائعات حول قرب موعد إزاحة الستار. وحالما انصرف جاءني يوريف الذي سأتناول طعام الغداء عنده اليوم وقال لي الشيء ذاته. هذا اليوم، الـ 25، سافر دولغوروكي إلى بطرسبورغ ووعد بإرسال برقية من هناك بشأن الموعد المحدد لإزاحة الستار عن التمثال. والمنتظر أن تصل البرقية لا أبعد من يوم الأربعاء، 28 من الشهر، وربما غداً. فقررت أن أبقى في انتظار البرقية، وإذا كانت إزاحة الستار ستجري فعلاً بين الأول والخامس من يونيو، فلن أغادر. وإذا كان الموعد أبعد من ذلك فسأتوجه إلى ستارايا روسا في الـ 28 أو 29 من الشهر. وقد أبلغت يوريف بذلك. والمهم أنني لم أتمكن من معرفة مكان تواجد زولوتاريوف، المندوب الثاني للجمعية الخيرية السلافية. ووعدني

يوريف بالبحث عنه. وعندها أستطيع أن أغادر فيؤدي زولوتاريوف وحده مهمة حضور الاحتفالات. على فكرة، الأكاليل التي ستوضع عند قاعدة التمثال تصنع على حسابنا، ثمن الإكليل الواحد 50 روبلاً. . . ثم ألح عليّ يوريف أن تنشر المقالة في (مجلته) «الفكر الروسي». فأبلغته بكل شيء، وبأنني وعدت كاتكوف تقريباً بتسليمه المقالة. فانفعل كثيراً وشعر بأسف شديد، واعتذر مشدداً أنني فهمته خطأً، فحصل سوء فهم. وعندما لمحت له بأنني أتقاضى أجوراً على عملي قال مهتاجاً إن لافروف قرر أن يدفع لي كل ما أطلب، ولو 400 أو 500 روبل. وعندها قلت ليوريف إنني وعدت بتقديم المقالة إلى كاتكوف مقابل تأجيل «الأخوة كارامازوف» بحيث تنشر مقالتي عن بوشكين بدلاً من «الأخوة» إرضاءً للجمهور. وإذا سلمتُ المقالة إلى «الفكر الروسي» أكون قد طلبت التأجيل من كاتكوف لأجل العمل في مصلحة منافسه يوريف. تصوري موقفي. إلا أن يوريف هو المذنب. وسيزعل كاتكوف لو فعلت. صحيح أنه لن يدفع، على سبيل المثال، 400 روبل، بل ولا حتى 300 روبل، فهو يعطيني هذا الأجر مقابل «الأخوة كارامازوف» ولن يعطيني مثله على المقالة. ولذا فإن المئة وخمسين روبل الإضافية من يوريف يمكن أن تغطي مصروفاتي على مكوثي هنا حتى إزاحة الستار عن التمثال. باختصار: التعقيدات والإشكالات كثيرة للغاية. ولا أعرف ماذا سيحصل، وكيف. لكنني رأيت أن أبقى حتى الـ 28 من الشهر. وإذا لم يقرروا إزاحة الستار قبل الخامس من الشهر القادم فسأعود إلى روسا في 29 أو 30 بعد أن أحاول نشر المقالة. فاكتبي لي بضعة سطور حالاً. أكرر رجائي من جديد. هل يعقل أنني لن أستلم منك ولا سطراً واحداً؟ اكتبي لي حتماً (. . .)

أنا ذاهب الآن إلى الموزعين، فإلى اللقاء. أقبّلكم جميعاً مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

يوريف استلم مقالة إيفان أكساكوف عن بوشكين. ولذا تهرّب مني، على ما يبدو، قبل ثلاثة أيام. وعندما سمع ما قلته عن بوشكين في مأدبة يوم أمس رغب في اقتناء مقالتي أيضاً. تورغينيف هو الآخر كتب مقالة عن بوشكين.



226. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 27 مايو 1880 الثالثة بعد الظهر

صديقتي العزيزة آنيا. إليك الأخبار من جديد. عندما وصلتُ رافقني يوريف ولافروف إلى فندق «لوسكوتنايا» (الذي أكتب إليك منه). فحجزت الغرفة رقم 32 بـ 3 روبلات. (وفي اليوم التالي عرض عليَّ صاحب الفندق أن أنتقل إلى الغرفة 33 وهي أفضل بما لا يقاس. فدهشت وتصورتها بثلاثة روبلات أيضاً). وعندما تناولت طعام الغداء في 26 من الشهر عند يوريف قال لي على غير المتوقع إن مجلس البلدية سجلني في الغرفة رقم 33 في الفندق. وسألته مستغرباً: «من أين تعرف البلدية بذلك؟» فقال: «أنت ضيف عليها». فهتفت ممتعضاً، فاعترض يوريف بأنني لا أستطيع أن أرفض الإقامة على حساب البلدية. كل الضيوف وحتى أولاد بوشكين[1] (. . .) يقيمون على حساب البلدية، وإنني إذا رفضت ضيافتها سأهينها وستكون تلك فضيحة كبيرة، في حين أن البلدية تفتخر بأن دوستويفسكي بين ضيوفها. وقررتُ أخيراً أن أتقبَّل الإقامة فقط من البلدية وأرفض الصرف عليّ. (وعندما أبلغت صاحب الفندق برفض الصرف عليّ)

قال: إنك بهذا تهين موسكو كلها وليس البلدية وحدها. فماذا عليَّ أن أفعل يا آنيا؟ إذا رفضت أتحول إلى أضحوكة، إلى فضيحة، وسيقول القائلون إنه لم يتقبل حسن الضيافة من مدينة موسكو بكاملها، وما إلى ذلك. وفي المساء سألت لافروف ويوريف، فأبديا استغرابهما من استنكافي وقالا صراحة إنني أهين موسكو كلها وهذه الإهانة تبقى عالقة في الأذهان وستسري عنها الأقاويل. وبالتالي أرى بوضوح أن عليّ أن أتقبّل حسن الضيافة كاملاً. لكنني متضايق جداً من ذلك. من الآن فصاعداً سأتناول الطعام في المطاعم عمداً، لكي أقلل على قدر الإمكان فاتورة الحساب التي سيقدمها الفندق إلى البلدية (. . .) أنا متضايق جداً. ومهما بقيت في موسكو لن أتعود على الإقامة فيها.

استلمت البارحة من ثلاثة موزعين إجمالاً 170 روبلاً (. . .).

عُلم في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم أمس، من أقوال دولغوروكي الأكيدة، أن إزاحة الستار ستتم في 4 يونيو. على هذا الموعد يصر المسؤولون في بطرسبورغ. البرقية النهائية من دولغوروكي بشأن الموعد الدقيق لإزاحة الستار لن تصل قبل يوم غد. إلا أن الجميع هنا واثقون من الرابع من الشهر كموعد نهائي. وإلى ذلك وصلت رسائل من بطرسبورغ بهذا الخصوص. وفود كثيرة من مختلف المدن والمؤسسات تنتظر ولا تتفرق. ويعم الانتعاش البهيج في كل مكان. لا يسمحون لي بالمغادرة أبداً. لذا رأيت أن أبقى على الأرجح، وإذا بدأت الاحتفالات في الرابع من الشهر فسأغادر إلى روسا في الثامن منه وأكون عندكم في اليوم التاسع. جاءني هذا الصباح غريغوروفيتش ثم يوريف وقالا إن موسكو ستعتبر غيابي تصرفاً غير سوي، وإن الجميع سيستغربون، ذلك لأن موسكو كلها تتساءل هل سأحضر، وإن سفري سيطلق المسخرة والنكات، وإن البعض سيقولون إنني أفتقر إلى

أبسط شعور وطني ولم أستهن بشؤوني الخاصة من أجل هذا الهدف السامي، لأن الجميع يرون في إعادة الاعتبار لبوشكين في روسيا كلها وسيلة لانعطاف جديد في المعتقدات والاتجاهات، والعقول والميول. هناك سببان يقفان حجر عثرة أمامي ويمعنان في إيلام روحي. أولهما، «البشير الروسي» والوعد الذي قطعته على نفسي قبل شهر أن أسلم مادة من «الأخوة كارامازوف» لعدد يونيو. فإذا عدت في 10 يونيو ماذا أستطيع أن أكتب في العشرة أيام المتبقية لموعد التسليم؟ فيما أجابني لوبيموف قبل أربعة أيام أن التأجيل حتى شهر يوليو يتوقف على ماركيفيتش إذا قدم فصولاً من روايته، وإلا فالتأجيل غير ممكن. جواب ماركيفيتش لن يأتي قبل العاشر من يونيو. وهكذا أنا الآن قلق في مواجهة المجهول. فكرت أن أواصل كتابة «الأخوة كارامازوف» هنا. إلا أن العمل متعذر تقريباً نظراً الزيارات والدعوات وما إلى ذلك. والسبب الثاني الذي يقضّ مضجعي هو الحنين إليكم والقلق لأني لم أستلم منك ولا سطراً واحداً حتى الآن، بينما اتفقنا أن تكتبي لي على عنوان يلينا بافلوفنا. فماذا حدث؟ خبريني، باللّه عليك، لماذا لا تكتبين؟ هل أنتِ في صحة جيدة؟ وهل الصغيران سليمان؟ كنت سأشعر بالاطمئنان لو كتبت لي عما إذا كان يتعين عليَّ أن أنتظر هنا حتى بدء الاحتفالات أم لا. أنت تعرفين من الصحف بوفاة الإمبراطورة، فكيف لا تكتبين متوقعة الصعوبات التي سأواجهها حتماً؟ كل يوم، ويوم أمس كان مطيراً، أقطع مسافة رهيبة إلى يلينا بافلوفنا في انتظار رسالة منك. أجرة الحوذي إلى هناك ذهاباً وإياباً روبل كامل. اكتبي لي، اكتبي من كل بد.

أظن أني سأبقى هنا بالتأكيد. يا ليتني أعرف الموعد الدقيق. ماذا لو أرجأوه من جديد؟ بالأمس حضرت أمسية عند لافروف بدعوة

وإلحاح منه. لافروف معجب بي ومتحمس لي جداً. وهو يتغذى على مؤلفاتي من سنين. إنه ناشر وممول «الفكر الروسي». وهو تاجر ثري لا يمارس البيع والشراء، وله شقيقان يتاجران بالحبوب، وقد انفصل عنهما ويعيش على رأس ماله. إنه شخص أريحي لطيف في الثالثة والثلاثين، متيم بالفن والشعر. حضر الأمسية عنده 15 شخصاً من العلماء والأدباء المحليين وكذلك عدد من أبناء بطرسبورغ. وأثار حضوري أمسيته أمس إعجاب الجميع. لم أكن راغباً في البقاء لتناول طعام العشاء، إلا أنني بقيت لعلمي بأن انصرافي سيخيب أمل الحاضرين. العشاء وليمة فاخرة مع الشمبانيا (...) أفاد غريغوروفيتش أن تورغينيف عاد من ليف تولستوي مريضاً، وأن تولستوي نفسه أصيب بالجنون تقريباً، ولربما جن نهائياً.[2] كما وصل آنينكوف. وسيكون لي معه لقاء عسير. ينبغي لي أن ألتقي كاتكوف ولوبيموف مجدداً لنتفق. أما يوريف فقد جاءني الآن طالباً المقالة واستعطفني أن أوافق على نشرها في «الفكر الروسي». ورد خبر بأن زولوتوريوف سيصل. ولا أخبار منكم وحدكم. اكتبي، يا آنيا، لوجه المسيح، على العنوانين اللذين ذكرتهما لك. هل استلمت كل رسائلي؟ كتبت إليك يومياً حتى الآن. أنت، يا آنيا، تحبين أن تتساءلي: هل أنا أحبك؟ وليس لديك ذرة من الحنين والشوق إليّ. بينما أنا أحن وأتشوق إليك. كيف حال الصغيرين؟ يا ليتني أسمع عنهما شيئاً. لا يزال هناك أسبوعان من الفراق، فهل هذا قليل؟ إلى اللقاء يا عزيزتي، أقبّلك بحرارة. وأقبّل الصبيّة والصبي وأبارك لهما. سأكتب لك غداً أيضاً إذا استجد ما يستحق الكتابة.

المخلص ف. دوستويفسكي

(...)

---

(1) حضر احتفالات إزاحة الستار عن تمثال بوشكين في موسكو أولاده الأربعة ماريا (متزوجة من هارتونغ) وألكسندر (على اسم أبيه) وغريغوري ونتاليا (على اسم أمها، متزوجة من ميرينبيرغ). أحفاد الشاعر العبقري وأبناؤهم يقيمون حالياً في روسيا (82) وفرنسا (24) وبريطانيا (20) وأمريكا (12) وبلجيكا (10) وسويسرا (6) وجزر الهاواي (6) وإيطاليا (3) والمغرب (3)، (نقلاً عن الإنترنت لعام 2016).

(2) أخفق تورغينيف في إقناع تولستوي بحضور احتفالات بوشكين.



227. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 28 مايو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

صديقتي العزيزة آنيا. استلمت منك أخيراً، مساء اليوم، خمسة أسطر بالقلم الرصاص مؤرخة في 24 من الشهر. طريق الرسالة طويل. استلمتها مساء الـ 27. وفرحت لها جداً، واكتأبت لأنها من خمسة أسطر لا أكثر، مكتوبة بلغة جافة: «العزيز فيودور ميخائيلوفيتش». سامحك اللّه! آمل أن أستلم رسالة أرقّ في المستقبل. أنت الآن تعرفين كل شيء من رسائلي. ويخيل إليَّ أنني سأبقى من كل بد حتى إزاحة الستار عن التمثال. أمس كنت عند كاتكوف. استمع إليّ، وكان قد سمع من الآخرين عن مدى انتظار «موسكو» لي، وقال مؤكداً إنني لا يجوز أن أغادر. وغداً ستصل برقية من دولغوروكي تحدد موعد الاحتفالات. إلا أن الجميع يتحدثون عن الرابع من الشهر. وإذا أزيح الستار في الرابع من يونيو فسأغادر على الأغلب في الثامن منه، بل وربما السابع. وسأكون عندكم في روسا في التاسع من الشهر. كنت قد عرّجت على كاتكوف لأتفق بخصوص تأجيل «الأخوة كارامازوف» إلى عدد يوليو. استمع إليّ بمودة،

وعموماً كان لطيف المعشر معي أفضل مما في أي وقت مضى. إلا أنه لم يذكر شيئاً محدداً عن التأجيل. كل شيء يتوقف على ما إذا كان ماركيفيتش سيبعث بقية روايته. وحدثته عن تعرفي على شخصية سامية (من أفراد عائلة القيصر) عند الكونتيسة مينغدين ثم عند (الأمير الكبير) قسطنطين قسطنطينوفيتش، فدهش مسروراً، وتفتحت أساريره. هذه المرة لم ينسكب قدح الشاي على ثيابي عنده، لكنه أكرم وفادتي بسيجار ثمين. وعندما انصرفت رافقني إلى المدخل وأثار استغراب هيئة التحرير التي رأت المشهد من نافذة الغرفة المجاورة، ذلك لأن كاتكوف لا يرافق أحداً إلى الباب. عموماً أعتقد أن لا مشكلة مع «البشير الروسي». ولم أتطرق أبداً إلى مقالتي عن بوشكين. فلعله ينساها، وعندئذٍ أسلمها إلى يوريف الذي سيدفع أكثر على ما أظن. أتمنى أن أحصل على قليل من وقت الفراغ حتى الثامن من الشهر لكي أكتب هنا شيئاً من «الأخوة كارامازوف» على سبيل الاحتياط. إلا أن ذلك مستبعد. وإذا نجح خطابي في الجلسة الاحتفالية فسأكون لاحقاً في موسكو، وفي روسيا بالتالي، معروفاً أكثر ككاتب، على مستوى القمة التي يتربع عليها تورغينيف وتولستوي. الناس هنا، على سبيل المثال، يعرفون غونتشاروف الذي لا يغادر بطرسبورغ، لكن معرفتهم به سطحية فاترة ومن بعيد لبعيد. ولكن كيف سأعيش من دونك ومن دون الطفلين كل هذه الفترة؟ اثنا عشر يوماً بلياليها. ليست هينة. أنا طول الوقت أحلم برؤية الصغيرين. والكآبة لا تفارقني. هل عادت الجدة؟ كيف تبقين وحدك؟ ألا تخشين شيئاً؟ ألست قلقة؟ باللّه عليك اكتبي لي أكثر. إذا حضل شيء، والعياذ باللّه، أبرقي لي حالاً. على فكرة، اكتبي لي مباشرة على عنوان الفندق. فلا وقت لي للذهاب يومياً إلى يلينا بافلوفنا. وأخشى أن تمل هي مني، كما أخشى أن

أضيع الوقت. فمتى أواصل «الأخوة كارامازوف»؟ اليوم ذهبت إليها، بعد كاتكوف، واستلمت رسالتك (. . .) الجو عندنا فيه مطر خفيف مع إشراقات من الشمس، والرياح شديدة نسبياً والهواء طلق عليل (. . .) إلى اللقاء، إذن. أعتقد أني كتبت كل ما يلزم. إذا استجد شيء غداً فسأكتب لك عنه، وإلا سأكتب بعد غد. بخصوص ليف تولستوي حتى كاتكوف أكد ما يشاع من أنه أصيب بالجنون.[1] وقد حثني يوريف أن أتوجه إليه في (ضيعته بضاحية) ياسنايا بوليانا. الطريق إلى هناك ذهاباً وإياباً مع الاستضافة أقل من يومين. ولكنني لن أذهب مع رغبتي الشديدة في ذلك. اليوم تناولت طعام الغداء في «مقصف موسكوفسكي»، خارج فندق «لوسكوتنايا»خصيصاً، لكي أقلل فاتورة الحساب (للبلدية) (. . .) إلى اللقاء، قبلاتي إلى «العزيزة آنّا غريغورينا»! عانقي الصغيرين بحرارة أكثر. وقولي لهما: هذا بناءً على طلب بابا.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

---

(1) لم يزر دوستويفسكي الكونت ليف تولستوي من موسكو، كون تورغينيف نصحه بعدم زيارته في تلك الأيام نظراً للحالة النفسانية التي هو فيها. وفي عام 1908 كتب تولستوي أنه لم يحضر احتفالات تكريم بوشكين لأنها بدت له يومها غير طبيعية ولا تتجاوب مع مشاربه الروحية.

228. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 29 مايو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

عزيزتي آنيا. لا جديد، سوى أن برقية وصلت اليوم من دولغوروكي بخصوص إزاحة الستار في الرابع من الشهر، ما يعني أنني أستطيع أن أغادر موسكو في الـ 8 منه، بل وحتى في الـ 7. وسأستعجل السفر إليكم بالطبع. لكنني ملزم بالبقاء هنا، وقررت أن أبقى. لأن الحاجة إليّ لا تقتصر على «عشاق الأدب الروسي» وحدهم، بل الكل في حاجة إليّ، كل فريقنا ومجمل فكرتنا (السلافية) التي نناضل من أجلها منذ 30 عاماً، ذلك لأن الفريق المعادي، تورغينيف وكوفاليفسكي والجامعة بأسرها تقريباً، يسعى متعمداً إلى التقليل من أهمية بوشكين بوصفه المعبّر عن الأمة الروسية، بل وإلى إنكار وجود الأمة ذاته. ولا يقف في وجههم من جانبنا سوى إيفان سرغييفيتش أكساكوف، ولا وزن ليوريف والباقين. إلا أن أكساكوف «شاخ» وملت منه موسكو. أما أنا فهي لم تسمعني ولم ترني، لكن اهتمامها منصبّ عليّ. وسيكون لصوتي وزن، ما يعني أن جبهتنا ستتفوق. كنت طول عمري أسعى إلى ذلك، ولا أستطيع الآن الفرار

من ساحة المعركة. عندما قال كاتكوف، وهو ليس من أصحاب النزعة السلافية: «لا يجوز لك أن تغادر، ولن تستطيع أن تغادر» فليس لي بعد هذا الكلام أن أنسحب.

في الساعة الثانية عشرة هذا الصباح، وكنت لا أزال نائماً، جاءني يوريف بهذه البرقية. أخذت أرتدي ثيابي بحضوره، وأخبروني في تلك اللحظة عن مجيء سيدتين، ولم أكن قد ارتديت الثياب، فطلبت أن يستوضحوا مَن هما. فجاؤوني بقصاصة من سيدة اسمها إيلينا، تريد مني أن أسمح لها باختيار مقتطفات من جميع مؤلفاتي بخصوص الأطفال تناسب مداركهم لتنشرها في كتاب لمطالعة الصغار. يا سلام! هذه الفكرة نفسها كان علينا، أنا وإياك، أن نداريها وننفذها من زمان، ونصدر كتاباً للأطفال لا بد أن يحظى بالإقبال ويعود علينا ربما بـ 2000 روبل. أما هذه المرأة فتريدني أن أهديها 2000 روبل. يا للجرأة والوقاحة! مضى إليها يوريف في الحال، ولعله بسبب طيشه هو الذي نصحها بالمجيء إليّ، وأوضح لها أنني غير موافق ولذا لا أستطيع استقبالها. وحالما انصرف جاءت (شقيقتي) بربارة ميخائيلوفنا، على غير المتوقع، وحالما دخلت تبعها فيسكوفاتوف. انصرفت بربارة حالما عرفت بوجود ضيوف لدي. وعاد يوريف وقال إن السيدة الثانية التي لم تذكر اسمها لا علاقة لها بالأولى، وقد جاءت لتعرب عن احترامها اللامتناهي ودهشتها وامتنانها على كل ما قدمته لها من خلال مؤلفاتي وما إلى ذلك. ثم انصرفتْ ولم أرها. وجلستُ مع الضيفين نحتسي الشاي، فدخل علينا غريغوروفيتش. جلسوا عندي قرابة ساعتين. وعندما انصرف يوريف وفيسكوفاتوف بقي عندي غريغوروفيتش، ولا نية له بالانصراف. أخذ يحدثني عن

كيت وكيت، وعما حصل طوال ثلاثين عاماً متذكراً الماضي وما إلى ذلك. وكانت نصف أقواله بالطبع كذب في كذب، إلا أن فيها كثيراً من المتعة. ثم، في حوالي الخامسة، أعلن أنه لا يريد أن يفارقني وراح يقنعني بأن أتناول طعام الغداء معه. ومضينا إلى «مقصف موسكوفسكي» ذاته، وأمضينا وقتاً طويلاً على الغداء وهو يتحدث بلا انقطاع. وفجأة جاء أفيركييف مع عقيلته. التحق بنا أفيركييف، فيما أعلنت زوجته أنها ستمر عليّ فيما بعد، وكأنني بحاجة ماسة إليها! واتضح أن اثنين من أقارب بوشكين، هما (ابن أخته) بافليشيف و(ابن أخيه أناتولي لفوفيتش) بوشكين، يتناولان مع شخص آخر طعام الغداء جنبنا. وجاءني بافليشيف معلناً أنه هو أيضاً سيزورني فيما بعد. باختصار، أنا هنا، كما في بطرسبورغ، لا أعرف الهدوء. بعد الغداء ترجاني غريغوروفيتش أن أذهب معه إلى المتنزه «لتنشق الهواء الطلق». لكنني امتنعت وتفارقنا، فعدت إلى الفندق ماشياً، وبعد عشر دقائق مضيت إلى يلينا بافلوفنا لاستلام رسالتك. لكنني لم أجد لديها رسالة منك (. .) وبقيت عندهم حتى الحادية عشرة، ثم عدت إلى الفندق وشربت الشاي، وها أنا ذا أكتب إليك. هذا هو مجمل تقريري.

أكثر ما يزعجني أن رسائلنا تأخذ في الطريق ثلاثة أو أربعة أيام. وطالما أنني أبلغتك بعودتي فلن تكتبي لي بالطبع، بل تنتظرين وصولي في الـ 28 من الشهر. فمتى تصل إليك رسالة الأمس ورسالة اليوم، وفيهما القرار الجديد؟.أخشى أنك ستتحيرين وتقلقين. ولكن لا حيلة في الأمر. والشيء المؤذي أنني ربما لن أستلم منك رسالة طوال يومين، بينما يعتصرني الحنين إليكم. أنا أشعر بالكآبة هنا رغم

الضيوف والولائم. آه، يا آنيا، أسفي لأنك لم تتمكني، وما كان بوسعك طبعاً، أن ترافقيني. حتى مايكوف، كما يقال، غيّر رأيه وقرر أن يأتي. ستكون هناك مشاغل كثيرة، وينبغي الذهاب إلى المجلس البلدي بصفة مندوب، ولا أدري متى، لاستلام تذكرة حضور مراسم إزاحة الستار. نوافذ المساكن المحيطة بالساحة معروضة للإيجار مقابل 50 روبلاً للنافذة الواحدة. وتقام مدرجات خشبية للجمهور بتذاكر باهظة الثمن أيضاً. كما أخشى سوء الطقس والمطر في ذلك اليوم، يحتمل أن أصاب بالاستبراد. أنا لن ألقي كلمة في المأدبة يوم إزاحة الستار. وأعتقد أنني سأتكلم في جلسة جمعية «عشاق الأدب» في اليوم الثاني. وإلى ذلك يفكرون في استبدال العرض المسرحي بتلاوات من نتاجات بوشكين، حسب الاختيار، يؤديها أدباء معروفون، مثل تورغينيف وأنا ويوريف. طلبوا مني أن أتلو مشهد الراهب المدوِّن (من دراما «بوريس غودونوف») ومونولوج البخيل من (تراجيديا) «الفارس البخيل». وإلى ذلك سيلقي كلٌّ من يوريف وفيسكوفاتوف وأنا مراثي الشعراء بوفاة بوشكين. يوريف يلقي قصيدة غوبر («وفاة بوشكين») وفيسكوفاتوف يلقي قصيدة ليرمونتوف («مقتل الشاعر»)، وأنا ألقي قصيدة توتشيف فاجعة («العشرين من يناير 1837»).

الوقت ضيق. وثمة معوقات. لم أتمكن حتى الآن من مراجعة متجر التسويق المركزي ولا متجر موروزوف. ولم أزر تشايف، وعليّ أن أذهب إلى بربارة، كما أريد أن أتعرف على الأسقف نيكولاي يابونسكي والأسقف ألكسي، وهما من الشخصيات المهمة. نومي متقطع، ولا أرى في المنام سوى الكوابيس. أخشى أن أصاب بالرشح في يوم إزاحة الستار، كما أخشى من السعال أثناء الإلقاء.

أنتظر بفارغ الصبر رسالة منك. كيف حال الصغيرين العزيزين؟ يا إلهي، ما أشد رغبتي في رؤيتهما. كيف صحتك؟ وهل أنت مسرورة أم زعلانة؟ الأمر صعب عليَّ من دونكم. فإلى اللقاء. لن أذهب غداً إلى يلينا بافلوفنا. وعدتني أن تجلب الرسالة بنفسها فيما لو استلمتها منك. أعانقكم جميعاً بحرارة، وأبارك للصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي

(...)



229. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 30-31 مايو 1880

عزيزتي آنّا. أكتب إليك مع أن الرسالة لن تصل إلى البريد اليوم. لا شيء جديدٌ تقريباً. لا شيء سوى المشاغل الكثيرة جداً ومختلف الإجراءات الرسمية، ومنها الذهاب إلى البلدية واستلام التذاكر لمواقع الوقوف والجلوس أيام الاحتفالات وما إلى ذلك. والمهم مسألة الأكاليل. من الضروري وجود إكليلين لجمعيتنا (السلافية)، يقال إن البلدية تزودنا بهما مقابل 30 روبلاً لكليهما. تلك حماقة. زولوتاريوف لم يصل بعد. إلا أنه سيأتي، وسألقي على عاتقه كل مهام جمعيتنا أمام التمثال. يحتمل أن أستبرد في بدلة السهرة وحدها من دون قبعة. بالأمس جاءني أفيركييف وزوجته وكذلك بافليشيف ابن أخت بوشكين وأناتولي ابن أخيه لأجل التعارف. ثم ذهبت إلى يوريف بخصوص التذاكر والمراسم ولم أجده في البيت. تناولت الغداء في الفندق، ثم جاءني فيسكوفاتوف وأعرب لي عن مشاعر المودة وتساءل لماذا لا أحبه وما إلى ذلك. على أية حال كان أفضل مما في العادة. وقال لي، بالمناسبة، إن صبوروف، وزير التعليم،

وهو من أقاربه، قرأ بعض مواضع «الأخوة كارامازوف» ودموعه تسيل بالمعنى الحرفي للكلمة من شدة الإعجاب. وفي التاسعة ذهبنا إلى يوريف، ولم نجده هذه المرة أيضاً. وذكر فيسكوفاتوف أن آنّا نيكولايفنا أنغيلهاردت موجودة هنا، واقترح أن نزورها. فذهبنا إلى فندق دوسو في الساعة العاشرة، وكانت (الكاتبة) قد أوت إلى الفراش، لكنها سرت كثيراً لمقدمنا. وجلسنا عندها ساعة تحدثنا خلالها عن الجمال والكمال. وكانت قد وصلت ليس لحضور الاحتفالات، بل للقاء قريبات لها، لكنها متوعكة الآن بسبب انتفاخ في الساق. صباح اليوم عندما كنت لا أزال نائماً جاءني إيفان سرغييفيتش أكساكوف، ولم يطلب إيقاظي. ثم مضيت إلى بوليفانوف أمين سر جمعية («عشاق الأدب») ومدير الثانوية (ورئيس اللجنة التحضيرية لاحتفالات بوشكين). وأوضح لي كل الخطوات اللازمة في البلدية واستحصال التذاكر وأوعز لأحد الشباب أن يرافقني إلى هناك لتيسير الأمور. وعرّفني على عائلته. وإجتمع حشد من المعلمين والطلبة وذهبنا لنتفقد، في البناية نفسها، حاجيات بوشكين وصوره النصفية المحفوظة مؤقتاً في مبنى المدرسة. ثم عدت إلى الفندق ووجدت قصاصة من غريغوروفيتش يدعوني فيها لتناول الغداء في (مقصف) تيستوف في الساعة السادسة. ولا أدري هل سأذهب أم لا. فقد جلست لأكتب لك «تقريري». في الساعة الثامنة سأجرجر قدمي إلى يلينا بافلوفنا من أجل رسالتك. يوم أمس، الـ 29، لم أستلم شيئاً. ثم أعود إلى الفندق وأعكف على مقالتي (عن بوشكين) لتنقيحها. عموماً حياتي بائسة، الطقس رائع، والجميع بين أهلهم، وأنا الوحيد الذي أتسكع في المضائف. سأكمل الرسالة ليلاً.

30/ 31 مايو، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

لم أجد غريغوروفيتش في مقصف تيستوف، فعدت أدراجي إلى الفندق وتناولت الغداء في مطعمه. ثم مضيت إلى يلينا بافلوفنا، ولم أجدها في البيت. قال لي أولادها أن لا رسالة منك. آمل أن أستلمها ربما غداً. وفهمت الآن أنك استخلصت من رسائلي السابقة أنني سآتي إليكم في الـ 28 من الشهر. والآن، أكيد أنك استلمت الرسائل التي كنت فيها متردداً هل سأبقى هنا أم لا. وبالتالي ستردّين عليّ. والمؤسف أننا، عندما غادرتكم، لم نتفق على أن تكتبي لي في كل الأحوال، حتى عندما تتوقعين بأنني سأعود، كيلا أبقى أمام المجهول بخصوصك وبخصوص طفلينا. كما آمل بأن أستلم في الثاني من الشهر رسالة منك على عنوان الفندق مباشرة (. . .) كيلا أتحمل مشقة الذهاب كل مرة إلى يلينا بافلوفنا، لا سيما وأن المتاعب الكبيرة ستبدأ اعتباراً من 2 يونيو، حيث ينبغي أن أستيقظ مبكراً وأنشغل طول النهار فلا يبقى وقت للذهاب إليها. ثم إنني لن أكتب إليك حينئذٍ رسائل تفصيلية للسبب ذاته. في الثالث من الشهر تستقبل البلدية الضيوف، وتُلقى خطب ويتعالى تصفيق، ونرتدي بدلة السهرة مع ربطة عنق بيضاء. ثم يرفع الستار، وتقام مأدبة مجلس البلدية، وبعد ذلك، في الخامس والسادس من الشهر تعقد في الصباح جلستان، وفي المساء تلاوات أدبية. وقبل ذلك، في الثاني من يونيو تعقد جلسة مسائية لجمعية «عشاق الأدب الروسي» يتم خلالها توزيع المهمات وتحديد مواعيد التلاوات. الأرجح أن ألقي خطابي في اليوم الثاني من الاحتفالات، أي السادس من الشهر (. . .) في السابع منه عليّ أن أقوم بزيارات جوابية كثيرة، ولذا سأغادر في الثامن من الشهر وليس قبله. وسأبلغك بأي قطار. سأحاول السفر في الثامن من الشهر

بالتأكيد. عرّجت على فاريا (أختي بربارة) وحدثتني كثيراً عن أحفادها وطلبت النصح. وهي امرأة ذكية وطيبة القلب. في المساء راجعت المخطوطة. كيف حال الصغيرين؟ أحنّ إليهما بشدة. ولا أسمع صوتهما. وأفكر طول الوقت، عسى أن لا يحصل لديكم مكروه. أبرقي لي حالاً إذا حصل والعياذ بالله. إلى اللقاء، يا عزيزتي. ليتني أستلم منك شيئاً يوم غد. أعانقك مع الصغيرين وأقبِّلكم ثلاثتكم بحرارة. أما «الأخوة كارامازوف» فما أدراك ما «الأخوة كارامازوف»! آه، كيف تورطت في هذه الهموم؟ على أية حال، أنا مشغول البال الآن بإزاحة الستار: خصومنا (الفكريون) أقوياء. أعانقك مراراً وتكراراً.

المخلص ف. دوستويفسكي

أمس انفرط الإبزيم الذهبي (. . .) في ردن قميصي. بقي نصفه في الردن، والنصف الآخر ضاع في الشارع على ما يبدو.

230. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 1 يونيو 1880 الساعة الواحدة بعد منتصف ليل 31 مايو

عزيزتي آنيا، لم أكن أريد الكتابة إليك اليوم، فلا شيء تقريباً يمكن أن أكتب عنه. لكنني حينما استلمت أخيراً رسالتك المؤرخة في الـ 29 من الشهر، ولأن الأيام القادمة ستشغلني كثيراً ولن أتمكن من الكتابة إليك، أو أنني سأكتب سطرين أو ثلاثة لا أكثر، فقد قررت أن أكتب الآن. مسرور جداً لأنكم جميعاً في صحة وعافية، مسرور للصغيرين ولك. حتى لكأن الكآبة زايلت الفؤاد رغم الضجر المتبقي فيه. أزعجني أن الجدة لن تنتظر وصولي. أكساكوف وعدني بتوقيع غوغول، ولا أدري هل سيتسع الوقت لاستلامه منه (. . .) زارني اليوم غريغوروفيتش. ثرثر متشفياً وكذب كثيراً. يبدو أن ثمة بالفعل محاولات للاعتراض علينا في الجلسات والمآدب. غريغوروفيتش أيضاً مندوب عن الصندوق الأدبي مع ثلاثة آخرين، هم تورغينيف وغايفسكي وكرايفسكي. وقد منح الصندوق كل واحد منهم 150 روبلاً لتغطية النفقات. جمعيتنا السلافية هي الوحيدة التي لم تدفع لأحد، وما كان بوسعها أن تدفع. يقول غريغوروفيتش متشكياً إن

الـ 150 روبلاً قليلة. حقاً فالنقود تتبخر هنا. ومع أنني لن أدفع الكثير في الفندق، إلا أنني سأنفق كثيراً في كل الأحوال على الحوذية والتبغ والمصروفات الشخصية وشراء الإكليلين وما إلى ذلك (. . .) تناولت طعام الغداء في «مقصف موسكوفسكي»، ثم ذهبت إلى يلينا بافلوفنا واستلمت رسالتك (. . .) وبعد ذلك مضيت مع فيسكوفاتوف إلى آنّا أنغيلهاردت التي تلازم المنزل بسبب انتفاخ ساقها، فوجدنا عندها الطبيب. قال إن المرض خطير إذا أهمل. وعدنا إلى الفندق سيراً على الأقدام. في الصباح هبّت زوبعتان وهطل المطر مدراراً. أما الآن فالليل رائع. ذلك هو ملخص مغامراتي. سألقي خطابي على أية حال. أكساكوف يقول إن خطابه مماثل لخطابي. وهذا أمر سيّئ إذا كنا متقاربين في أفكارنا لهذا الحد. وسألقي في أمسيات التلاوة الأدبية فيما بعد نص مشهد بيمين ونصاً من الفارس البخيل (لبوشكين) وكذلك قصيدة توتشيف في رثاء الشاعر، وهي الأهم. يثير فضولي كيف سألتقي آنينكوف؟ هل سيمد يده لمصافحتي؟ ليس بودّي الاصطدام معه. إلى اللقاء، يا عزيزتي آنيا. قبلي الصغيرين بحرارة، وذكريهما بي (. . .) ينبغي لي أن أمر على كاتكوف. وداعاً، أعانقك بحرارة. وأبارك للصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي

(. . .)

231. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 2 على 3 يونيو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

صديقتي العزيزة آنيتشكا. مساء أمس ذهبت إلى يلينا بافلوفنا لأستلم رسالتك، ولم أستلم شيئاً، فيما وصلت منك اليوم رسالتان على عنوان الفندق. إحداهما في الرابعة بعد الظهر والأخرى في المساء. باختصار يبدو أن الرسائل على عنوان فندق «لوسكوتنايا» تصل بأسرع مما على عنوان يلينا بافلوفنا. فما أعظم فرحتي بكونكم جميعاً في صحة جيدة وتتذكرونني. قبّلي الطفلين بحرارة مقابل الكلمات الرائعة التي كتباها لي، واشتري لهما حلوى من كل بد، هل تسمعين يا آنيا؟ الطب يوصي بالحلوى للأطفال. وبخصوص ملاحظتك بأن حبي لك قليل أقول إنها في منتهى الغباء، فأنا لا أفكر إلا فيك وفي الطفلين. وأراك في المنام.

اختلط الحابل بالنابل عندنا من جديد. يوم أمس أرجئت الاحتفالات مرة أخرى. وبات معروفاً تماماً أن إزاحة الستار ستجري في السادس من الشهر. البلدية تعد الأكاليل بسعر 8 روبلات للإكليل. ولا بد لنا من شراء إكليلين. سأحجز عليهما غداً.

زولوتاريوف لم يصل بعد. القطار الذي يقل مختلف الوفود من بطرسبورغ سيصل بعد غد. ثم إن اجتماعاً عقد قبل ثلاثة أيام عند تورغينيف لجميع المشاركين، ما عداي، لتحديد ما ينبغي أن يُتلى، وكيف سيكون الاحتفال، وما إلى ذلك. قيل لي إنهم التقوا عند تورغينيف من دون سابق إنذار. ذلك ما أكده غريغوروفيتش ليخفف عليّ. بالطبع أنا نفسي ما كنت سأذهب إلى تورغينيف بلا دعوة رسمية منه. إلا أن يوريف بسذاجته المعهودة، ولم أكن قد رأيته من أربعة أيام، فضح لي آنذاك سر اجتماعهم عند تورغينيف. فيما قال فيسكوفاتوف صراحة إنه تلقّى قبل ثلاثة أيام دعوة لحضور الاجتماع. ما يعني أنهم استبعدوني عمداً. لا أعني يوريف بالطبع. فذلك من فعل تورغينيف وكوفاليفسكي. أما هو فقد اختبأ، وهذا هو سبب غيابه عني على الأرجح. حالما استيقظت صباح الأمس جاءني غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف ليبلغاني بأن الاجتماع عند تورغينيف صاغ البرنامج الكامل للاحتفالات وأمسيات التلاوة. وطالما سمح بالموسيقى وبعرض «الفارس البخيل»، ويلعب دوره الممثل سامارين، فقد ألغيت تلاوتي لمشهد من «الفارس البخيل» وكذلك إلقائي لمرثية مقتل بوشكين، وكنت راغباً جداً في إلقاء تلك القصيدة تحديداً. وبدلاً من ذلك تقرر أن ألقي قصيدة بوشكين «النبي». أنا بالطبع لن أرفض «النبي»، ولكن كيف يجوز أن لا يبلغوني رسمياً؟ ثم أعلن لي غريغوروفيتش أنهم يرجونني أن أحضر غداً في قاعة مجلس النبلاء، على مقربة من فندقي، حيث سيتم تدقيق كل الفعاليات. وحالما انصرف الرجلان جاء لوباتين، الشاب الذي كلفه رئيس اللجنة التحضيرية بوليفانوف بمرافقتي. وقال لي، عكس ما قاله غريغوروفيتش، من أن كل الإجراءات قد أعدت ونظمت. وأنهم

يدعونني للحضور في مجلس النبلاء لأجل التدرب على البروفة النهائية أمام الجمهور، (وخصوصاً تلاميذ المدارس. . .). وهكذا أحرجوني كل الإحراج. فقد قرروا من دوني، من دون موافقتي على تلاوة النصوص التي حددوها لي. في حين لا يجوز التخلف عن البروفة والامتناع عن التلاوة أمام الشباب، وإلا سيقال إن دوستويفسكي امتنع عن التلاوة من أجلهم. وإلى ذلك أنا لا أعرف ما ينبغي أن أرتديه غداً، بدلة السهرة أم السترة الطويلة؟ كنت بالأمس منزعجاً جداً. تناولت الطعام وحدي. وفي المساء عرجت على آنّا أنغيلهاردت، وكان عندها الطبيب، وهو من معارفها وأقاربها، جلست نصف ساعة ثم ودعاني إلى الفندق. وفي صباح اليوم جاءني من جديد غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، وألحّ الأول على أن نتناول ثلاثتنا طعام الغداء في (مطعم فندق) «أرميتاج» ثم نقضي الأمسية في حديقة «أرميتاج». وعندما انصرفا مضيت إلى كاتكوف ولم أكن عنده من ثلاثة أيام. وجدت لوبيموف هناك، وكان قد استلم تواً رسالة من ماركيفيتش يعده فيها بتسليم (قسم من) روايته لعدد يونيو. ولذا سأكون مطمئناً من هذه الناحية. فهذا شيء رائع. وعند كاتكوف علمت بأن يوريف، بوصفه رئيساً لجمعية «عشاق الأدب الروسي»، بعث إليه، وهو العضو القديم في الجمعية، إشعاراً بأن دعوة التمثيل في الاحتفالات أُرسلت إلى «الوقائع الموسكوبية» (جريدة كاتكوف) خطأً، وأن مجلس الجمعية يعتبرها لاغية. جاءت تلك الرسالة بصيغة خشنة جافة. وحاول غريغوروفيتش أن يقنعني بأن من أرغم يوريف على توقيع تلك الرسالة هو كوفاليفسكي، وكذلك بالطبع تورغينيف. انفعل كاتكوف على ما يبدو. وقال لي وهو يعرض عليَّ الرسالة: «أنا ما كنت سأذهب إليهم أصلاً». وهو ينوي نشرها في «الوقائع». تلك،

بالطبع، دناءة ما بعدها دناءة. لا سيما وأنهم لا يمتلكون حقاً للتصرف على هذا النحو. حقارة. ولو لم أكن قد تورطت لهذه الدرجة في الاحتفالات لربما أعلنت القطيعة معهم. سأعرب عن رأيي إلى يوريف بكل حدة. (عرجت على طبيب الأسنان. . .) ومنه عدت إلى الفندق، ثم توجهنا أنا وغريغوروفيتش وفيسكوفاتوف إلى «أرميتاج». تناولنا طعام الغداء بروبل للفرد الواحد. وبدأ المطر حينذاك. وحينما هدأ خرجنا من المطعم وركبنا عربة أوصلتنا إلى حديقة «أرميتاج». وفي الطريق تساقط المطر من جديد، فوصلنا إلى الحديقة مبللين. وطلبنا شاياً في المطعم. قطعنا تذاكر بقيمة روبل تخولنا أيضاً دخول مسرح «أرميتاج». والمطر مدرار. وحدثنا غريغوروفيتش مختلف القصص من أكاذيبه. ثم دخلنا المسرح على الفصل الثاني من أوبرا «بول وفرجيني». لا بأس بالمسرح نفسه والأوركسترا والمغنين، إلا أن الموسيقى رديئة. هذه الأوبرا عرضت في باريس مئات المرات. الديكورات في الفصل الثالث رائعة. وانصرفنا دون أن نستمع للعرض حتى النهاية. في الفندق وجدت رسالتك الثانية. أنا قلق جداً لبروفة يوم غد. غريغوروفيتش وعد أن يمر عليّ، لنذهب معاً. وقد تبللت قليلاً. قبل ذلك أخذت استبراداً في الطريق أدى إلى خدر طفيف في يدي اليسرى. صباح أمس عرجت على معاون الأسقف ألكسي والأسقف نيكولاي يابونسكي. وكان التعرف عليهما مبعث ارتياح كبير. أمضيت عندهما قرابة الساعة ثم انصرفت عندما جاءت إليهما إحدى السيدات من علية القوم. كلاهما تحدثا معي بمشاطرة روحية. وقالا إنني كرمتهما بزيارتي، فكانت مبعث سعادة. إنهما مطلعان على مؤلفاتي، وبالتالي فهما يقدران من يخدم الرب. وبارك لي ألكسي بحرارة. وأعطاني من خبز المناولة. إلى اللقاء يا عزيزتي. سأكتب

لك غداً أيضاً إن أمكن. أحبك حباً جماً. وأقبِّل الصبي والصبية بحرارة. تحياتي الخالصة إلى (والدتك) آنّا نيكولايفنا وقبِّلي يدها بالنيابة عني.

المخلص لك بالكامل

ف. دوستويفسكي

(. . .)

زرت إيفان أكساكوف في المنزل الريفي. تشايف أيضاً يقيم في الريف. وسأزور مورافيوف إذا اتسع الوقت. مرة أخرى محبك المخلص.



232. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 3 على 4 يونيو 1880 الساعة الثانية بعد منتصف الليل

عزيزتي الغالية آنيتشكا. اليوم أيضاً استلمت رسالة ثمينة منك، وأنا شاكر لك كل الشكر لأنك لا تنسين المخلص لك فيديا (فيودور). منذ أن أخذت أستلم رسائلك المتكاثرة صرت أكثر هدوءاً وأفضل صحة. كما أنني مسرور للصغيرين. صباح اليوم جاءني لوباتين وجلب لي جدول الأيام والفعاليات. وأعطيته 17 روبلاً ليحجز لي إكليلين في مجلس البلدية. زولوتاريوف لم يصل بعد (. . .) ثم جاءني غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، ثم يوريف، فهاجمناه بشدة على الرسالة التي بعثها إلى كاتكوف، وأشبعناه تقريعاً. وبعد ذلك تناولت الغداء في «مقصف موسكوفسكي» مع غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، وهناك تعرفت على الممثل المسرحي سامارين، وهو عجوز في الرابعة والستين، أطنب في الثناء عليّ، وسيمثل دور الفارس البخيل في احتفالات تكريم بوشكين في بزة (مدنية). وكان المفروض أن أتلو أنا هذا الدور. «مقصف موسكوفسكي» مزدحم دوماً بالرواد، ونادراً ما يمر أحد دون أن يلتفت إليّ، الجميع

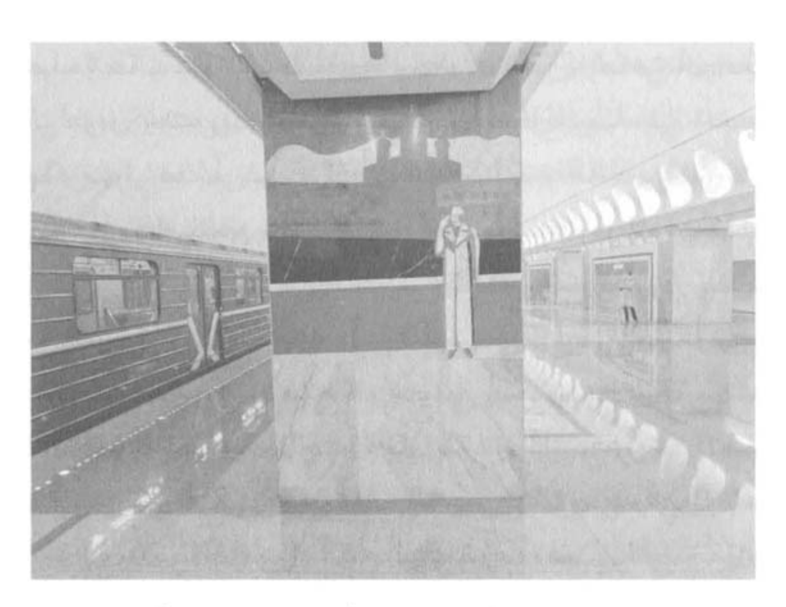
يعرفونني. حدثني سامارين الكثير من النكات عن حياة الطبقة الأرستقراطية في موسكو. وبعد ذلك مضينا فور انتهاء الغداء كي نحضر الجلسة العامة لجمعية «عشاق الأدب» وهي تصوغ البرنامج النهائي للجلسات الصباحية والاحتفالات المسائية. وكان هناك تورغينيف وكوفاليفسكي وتشايف وغروت وبارتينيف ويوريف وبوليفانوف وكالاجيف وسواهم. جرى ترتيب كل الأمور لأجل الإجماع والتوافق. تورغينيف كان لطيف المعشر معي، فيما راح كوفاليفسكي يحدق في وجهي، بجسمه البدين المترهل وعدائه السافر لاتجاهنا الفكري. أنا سأتلو النصوص المخصصة لي في اليوم الثاني من الجلسات الصباحية المصادف 8 يونيو، وفي مساء السادس من الشهر أتلو خلال الاحتفالات مشهد بيمين من (رائعة بوشكين) «بوريس غودونوف» بعد أن سمحوا بالموسيقى. الكثيرون يتلون نصوصاً، الجميع تقريباً: تورغينيف وغريغوروفيتش وبيسيمسكي وغيرهم. وفي الأمسية الثانية يوم 8 يونيو سألقي ثلاث قصائد لبوشكين، اثنتان من (المجموعة الشعرية) «أغاني السلاف الغربيين» و«حكاية الدبة». وفي ختام الجلسة الاحتفالية ألقي قصيدة بوشكين «النبي»، وهي قصيدة متعبة للغاية في الإلقاء رغم قصرها، وقد وضعوني في الختام لأترك انطباعاً عميقاً في الجمهور، ولا أدري هل سأوفق أم لا؟ في تمام العاشرة عدت إلى الفندق، فوجدت بطاقتين شخصيتين من سوفورين مع كتابة تقول إنه سيأتي في العاشرة. كانت البطاقتان متلاصقتين خطأً، فظننت أنه جاء إليّ مرتين ولم يجدني. فذهبت إلى «البازار السلافي» الذي نزل فيه، ليس بعيداً عن فندقي، فوجدته يحتسي الشاي مع زوجته. استقبلني ببالغ السرور. وهو مغضوب عليه في جمعية «عشاق الأدب الروسي» بسبب مقالاته، مثل

كاتكوف. حتى إنهم لم يعطوه تذكرة لحضور الجلسات الصباحية. وكانت عندي تذكرة بربارة التي لم ترغب في استلامها، فأعطيتها له، وتقبّلها بارتياح. وسوف يقرعهم فيما بعد أشد تقريع. وقال لي إن بورينين موجود هنا أيضاً. واتفقنا أن نلتقي في الساعة الواحدة بعد الظهر غداً عند تشايف في متحف الأسلحة (بالكرملين)، وسيعرض علينا محتويات المتحف. كما أعرب غريغوروفيتش وفيسكوفاتوف عن رغبتهما في زيارة المتحف، ولا أدري هل سيأتيان أم لا. بعد الجلسة انطلقا في حوالي العاشرة إلى «أرميتاج» وألحّا عليَّ أن ألحق بهما، لكنني ذهبت إلى سوفورين. عندما عرف بأننا ذاهبون غداً إلى متحف الأسلحة طلب أن نأخذه وزوجته معنا، ثم حاول إقناعي أن نتغدى معاً، هو وزوجته وأنا وغريغوروفيتش وفيسكوفاتوف، في «مقصف موسكوفسكي»، ثم نذهب إلى «أرميتاج». يبدو أنه المسكين يشعر بالملل وزوجته. وسيحضر بالطبع أمسيات التلاوة، فتذاكرها تباع بحرية. بروفة التلاوة لتلاميذ المدارس ألغيت. وبعد غد، في الخامس من الشهر، تبدأ المتاعب، حيث ينبغي حضور جميع المندوبين في مجلس البلدية ببدلات السهرة، وأخشى أن لا يتسع الوقت لأكتب إليك. غداً سيصل إلى فندقنا ركاب قطار بطرسبورغ من المندوبين. وفي الثامن من الشهر تختتم الاحتفالات، وسأقوم بزيارات (وداعية) في التاسع منه، وأغادر في اليوم التالي، وسأكتب لك فيما بعد بأية ساعة. مايكوف أرسل برقية بأنه سيحضر. وكذلك بولونسكي. هذا كل شيء يا فرحتي! فانتظريني، إذن، يوم 11 يونيو. أعتقد أن ذلك موعد أكيد. سوفورين طلب مقالتي (عن بوشكين). وأنا لا اعرف إطلاقاً لمن سأسلمها وكيف. فليستمعوا إليّ في التلاوات.

أعانقك بحرارة، يا عزيزتي آنكا. أقبّلك بكل حرارة مقابل حبك

«الأكثر من حبي بألف مرة»، كما تقولين. وأقبِّل الصغيرين وأبارك لهما. تكتبين أنك ترين في المنام أحلاماً وكأنني لا أحبك. فماذا عساي أن أقول؟ أنا أرى في المنام كوابيس فظيعة كل ليلة وكأنما أنت تخونينني مع آخرين. واللّه، أنا أتعذب أشد عذاب. أقبِّلك ألف مرة. قبِّلي الصغيرين.

المخلص ف. دوستويفسكي



جدارية في محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو

233. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 5 يونيو 1880 الثامنة مساءً

عزيزتي آنيوتكا. استلمت الآن رسالتك الرقيقة المؤرخة في 3 يونيو، وأكتب لك على عجل قدر ما يتسع الوقت. كلا، يا حمامتي، لا تطالبيني برسائل مستفيضة الآن، فحتى الرسالة العادية مستبعدة حالياً. كل أوقاتي محجوزة، دقيقة بدقيقة، وهي لا تكفي حتى لمشاغلي الملحة، وليس للكتابة فقط. فلأكتب لك إذن بالترتيب: صباح أمس كنت مع سوفورين وزوجته وبورينين وغريغوروفيتش في الكرملين، بمتحف الأسلحة. تفحصنا كل التحفيات، عرضها علينا تشايف ناظر المتحف. ثم دخلنا غرفة ثياب البطاركة. وبعد أن تفقدنا كل الموجودات ذهبنا إلى مقصف تيستوف لتناول الغداء. ثم مضيت لدقائق إلى آنّا أنغيلهاردت، وتجولت لشراء بعض الحاجيات. ثم ذهبت حسب الاتفاق إلى حديقة «أرميتاج»، وكان هناك سوفورين وغريغوروفيتش والآخرون. التقينا في الحديقة معظم المندوبين الذين وصلوا في هذه الأيام من بطرسبورغ. وحيّاني أشخاص كثيرون لم أعد أتذكرهم، ومنهم غايفسكي ولينتوفسكي والمغني ميلنيكوف

وغيرهم. كنت جالساً أحتسي الشاي (. . .) عندما شاع فجأة نبأ تأجيل الاحتفالات مرة أخرى. أشاع النبأ ميلنيكوف. كان ذلك في الساعة الحادية عشرة، فمضيت إلى يوريف، ولم أجده، فأكد لي ابنه أن النبأ غير صحيح. واتضح فعلاً أنه غير صحيح. عدت إلى الفندق وأخذت أتهيأ لتلاوة مساء السادس من الشهر. وتلك مشكلة، يا آنيا. تصوري: إزاحة الستار في السادس منه، وسأكون على قدم وساق من الساعة الثامنة صباحاً. وفي الثانية بعد الظهر تنتهي مراسم إزاحة الستار وتبدأ حفلة الجامعة، والله لن أذهب إليها. ثم مأدبة الغداء في مبنى البلدية. في اليوم نفسه، وسأكون متعباً مكدوداً بعد طعام وشراب، عليّ أن أتلو مونولوج المدون في التاسعة مساءً، وهو النص الأصعب الذي يتطلب هدوءاً وتعمقاً في الحبكة والموضوع. أشعر بأنني لست مستعداً له بعد. وإلى ذلك عليَّ أن أتلوه في بداية الأمسية تقريباً، أي في الموقف الأقل ارتياحاً. بقيت حتى الرابعة بعد منتصف الليل. وفي الساعة العاشرة صباح هذا اليوم أيقظني فجأة زولوتاريوف الذي وصل أخيراً. مدة نومي خمس ساعات ونصف فقط. ثم جاء فيودور بيتروفيتش كورنيلوف، وبعده لوباتين مع الإكليلين. ثمنهما 14 روبلاً، وليس 17، ولكن من دون أشرطة. وألقيتُ مسؤولية اقتناء الأشرطة وكذلك هموم الغد على كاهل زولوتاريوف. وذلك يعني أنني سأدفع وحدي الـ 14 روبلاً مقابل الإكليلين. صحيح أن بقية الاحتياجات ستكلف زولوتاريوف لا أقل من هذا المبلغ. في الساعة الثانية بعد الظهر ذهبنا إلى مجلس البلدية. وحضر جميع المندوبين، قرابة 100 شخص.(. . .) ليس من السهل وصف المراسم والمشاغل والهرج والمرج. رأيت، بل وتكلمت مع ابنة بوشكين (الصغرى نتاليا زوجة الأمير ناساوسكي). وحياني أوستروفسكي الذي يعتبرونه بمثابة

جوبيتر موسكو. وتقدم إليّ تورغينيف متفضلاً. أما باقي الليبراليين، ومنهم بليشييف، بل وحتى الأعرج يازيكوف، فهم متحفظون وبشيء من التعالي، وأنا في اعتبارهم رجعي، وهم تقدميون. عموماً الصراعات بدأت تستعر هنا. وأخشى أن يحصل شجار بينهم في هذه الأيام بسبب اختلاف التيارات. مسألة استبعاد كاتكوف عن الاحتفالات تثير سخط الكثيرين. عدت إلى الفندق وتغديت في مطعمه على أمل أن أستلم منك رسالة وأرد عليها، ثم أراجع مشهد بيمين ومقالتي، ثم أعد قميصي وبدلة السهرة لاحتفالات الغد، ثم أنام قبل المعتاد. ولكنْ جاءني غايديبوروف، ثم جاء مايكوف على غير المتوقع، ثم فيسكوفاتوف. مايكوف وصل ليتلو أشعاره. وهو لطيف، لا بأس به. يستفسر عن كل شيء. تحدثت إليهم، ومع ذلك جعلتهم ينصرفون. وها أنا الآن أكمل كتابة هذه السطور. لم يأت إليّ زولوتاريوف، والإكليلان اللعينان غير مرتبين حتى الآن. هذا الصباح كنت عند فاريا، فغداً أنا مشغول طول اليوم حتى المساء. وبعد غد جلسة جمعية «العشاق». لكنني لن أقرأ شيئاً في هذه الجلسة، وبعد ذلك مأدبة غداء لـ 500 شخص تقريباً، وقد يحصل فيها شجار. ثم في صباح الثامن من الشهر خطابي في جلسة «عشاق الأدب الروسي»، وفي المساء خلال الحفلة الثانية للجمعية سألقي مع آخرين عدة قصائد لبوشكين وأختمها «بالنبي». تطلبين مني أن أغادر في الثامن من الشهر، بينما لا أستطيع أن أرد الزيارات إلا في التاسع منه. سأغادر إذن يوم 10 وأصل إليكم في الـ 11 منه. هذا إذا لم يحتجزوني ليوم آخر. وهو احتمال وارد تماماً. عندها سأبلغك. والأنسب لي أن أغادر بقطار الساعة الواحدة بعد الظهر، وليس بقطار الصباح. ففي قطار الظهر لا أنام ليلة واحدة، بينما في قطار الصباح

ليلتين (. . .). لا موجب للكتابة لك عن مشاركتي في الاحتفالات، لأنها ستتم في الثامن من الشهر، وفي السادس منه سأتلو فقط مشهد بيمين. فكّري: ينبغي لي أن أدبر أمر نشر المقالة. فرغم وجود ثلاثة طلبات عليها، إلا أن يوريف يتقاعس من جديد. وكاتكوف، بعد استبعاده عن المشاركة في الاحتفالات، سيبدي، على ما أعتقد، شيئاً من اللامبالاة تجاه كل ما يجري فيها. أما سوفورين فلربما لن يكرر رغبته في اقتناء المقالة. سيكون الحال سيئاً عندئذٍ. ولذا يحتمل تماماً أن أتأخر يوماً آخر (. . .) إلى اللقاء، يا عزيزتي. بالطبع لم يتسع الوقت لكتابة الكثير من الأمور. فماذا تستطيع الرسالة أن تستوعب؟ من الآن لن أتمكن من كتابة الرسائل مطلقاً. ثم إنني في هذه اللحظات منهك مستنزف القوى، بينما عليّ أن أستعد طويلاً. فمتى سأنام يا ترى؟ أعانقك بكل حرارة، وأقبّل الطفلين بكل حرارة أيضا، وأبارك لهما.

المخلص ف. دوستويفسكي

لا أريد أن أكتب لك عن الحب، فالحب أفعال لا أقوال. وقد أقتربُ من تلك الأفعال في وقت ما. لقد حان الوقت من زمان.

ومع ذلك سأكتب لك عموماً، ولو بضعة سطور.

234. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 7 يونيو 1880 منتصف الليل

عزيزتي الغالية آنيا. أكتب إليك على عجل. أزيح الستار عن التمثال يوم أمس، فأين أصف لك ما حدث؟ عشرون صفحة لا تكفي. ولا وقت لدي. من ثلاث ليال لا أنام سوى 5 ساعات، وهذه الليلة أيضاً. ثم أقيمت مأدبة ألقيت الخطب خلالها، ثم التلاوة في الأمسيات الأدبية، في دار مجلس النبلاء بمصاحبة الموسيقى. أنا تلوت مشهد بيمين. ورغم إشكالات هذا الاختيار، بيمين لا يمكن أن يزعق لتغطية القاعة كلها، ورغم التلاوة في قاعة صماء تماماً، بل في أكثر القاعات صمماً، يقول البعض إنني قرأت المشهد بأروع صورة. لكنهم يقولون أيضاً إن الصوت كان خافتاً وما كاد يسمع. استقبلني الجمهور على أروع ما يكون، وكانوا يهتفون منادين طويلاً فتعذر عليَّ البدء. وبعد التلاوة استدعوني ثلاث مرات. إلا أنهم استدعوا تورغينيف أكثر، وقد قُرأ بشكل رائع. ووراء الكواليس الهائلة في العتمة لاحظت قرابة مئة شاب يهتفون بأعلى الأصوات عندما ظهر تورغينيف على المنصة. وفكرت الآن أنهم من المتصايحين

المأجورين بتكليف من كوفاليفسكي. وهذا ما كان. فبعد هذه الهتافات اليوم امتنع إيفان أكساكوف عن إلقاء كلمته بعد تورغينيف. لأن الأخير أهان بوشكين بتجريده من لقب أمير الشعراء. وقال لي أكساكوف إن إعداد الهتّافين تم من زمان على يد كوفاليفسكي، وكلهم من تلاميذه الغربويين، لتصوير تورغينيف بمثابة رائد اتجاههم الفكري، ولإهانتنا إذا اعترضنا عليهم. ومع ذلك كان استقبال الجمهور لي يوم أمس مدهشاً، مع أن التصفيق صدر فقط عن الجالسين على الأرائك. وإلى ذلك جاءتني جموع من الرجال والنساء وراء الكواليس ليشدوا على يدي. وفي الاستراحة سرتُ في القاعة فهرع إليّ عدد غفير من الناس بين شباب وشيوخ، نساءٍ ورجال وقالوا فيما قالوا: «أنت نبينا، جعلتنا أفضل عندما قرأنا كارامازوف». باختصار: تيقنت أن «للأخوة كارامازوف» أهمية بالغة. هذا اليوم، عندما خرجت من الجلسة الصباحية التي لم أقرأ فيها نصوصاً، حصل الشيء ذاته. على السلم وفي المشلح أوقفني رجال ونساء. وعلى الغداء أمس قدمت لي اثنتان من السيدات باقتين من الزهور. بعضهن كنت أعرفهن بالاسم. ومنهن تريتياكوفا وغولوخفاستوفا وموشنينا وغيرهن. بعد غد سأزور تريتياكوفا زوجة صاحب جاليري للوحات الفنية. هذا اليوم أقيمت مأدبة ثانية، أدبية، حضرها قرابة 200 شخص. استقبلني الشباب حالما نزلت من العربة وأكرموا وفادتي واهتموا بي وعبّروا عن آيات الثناء والإعجاب. كان ذلك قبل المأدبة. وخلالها تكلم الكثيرون ورفعوا الأنخاب، أما أنا فلم أكن أريد أن أتكلم. ولكن البعض نهضوا قبيل الختام وحملوني على الكلام. تفوّهت بضع كلمات متحمساً (في الثناء على بوشكين). وبعد ذلك، في القاعة الأخرى أحاط بي جمع غفير وتحدثوا كثيراً وبحرارة ونحن

نحتسي القهوة وندخن. وعندما نهضت متوجهاً إلى الفندق في التاسعة والنصف، وكان ثلثا الضيوف لا يزالون عند المائدة، هتفوا لي مودعين، وشاركهم في الهتاف الجماعي، رغماً عنهم، أولئك الذين لا يتعاطفون معي. ثم رافقتني تلك الجموع على السلم وخرجت إلى الشارع من دون مماطر ولا قبعات حتى ركبت العربة. وقبل أن تنطلق هرع البعض لتقبيل يديّ، لا واحد ولا اثنين، بل عشرات الأشخاص. ليس من الشباب فقط، بل ومن الذين وخط الشيب شعورهم. كلا يا آنيا، مع تورغينيف هتّافون مأجورون، ومعي مشجعون حقيقيون. كان مايكوف هنا، وكان شاهداً على الحدث. ولعله دهش لما رأى. ثم اقترب مني عدة أشخاص لا أعرفهم وهمسوا في أذني بأن داهية ستستهدفني أنا وأكساكوف في جلسة غد الصباحية. غداً، الثامن من يونيو، يوم مصيري بالنسبة لي. في الصباح ألقي خطابي، وفي المساء ألقي (شعر بوشكين) مرتين، مرة قصيدة «الدبة» والمرة الثانية قصيدة «النبي». وأنوي إلقاء «النبي» جيداً. فتمنّي لي النجاح. الحركة هنا مزدحمة والانفعالات متقدة. يوم أمس، في مأدبة البلدية، جازف كاتكوف بإلقاء خطاب مطول، كان له مع ذلك تأثيره في قسم من الجمهور على الأقل. كوفاليفسكي جاملني بغير مودة، وذكر في أحد الأنخاب اسمي إلى جانب أسماء أخرى. كذلك كان موقف تورغينيف. آنينكوف حاول أن يميل إليّ، لكنني أشحت بوجهي عنه. لاحظي، يا آنيا، أكتب إليك ولم أكن قد راجعت خطابي بالكامل. في التاسع من الشهر سأقوم بالزيارات، ولا بد أن أقرر نهائياً لمن أعطي الخطاب (كي ينشره). كل شيء يتوقف على الانطباع الذي سيتركه. أقمت هنا طويلاً، وأنفقت الكثير، لكنني أرسيت أساس المستقبل. وعليَّ أن أنقح الخطاب وأعد

ليوم غدٍ الثياب. ففي الغد ظهوري الرئيسي على الساحة. وأخشى أن لا أخذ قسطاً كافياً من النوم. أخشى نوبة الصرع. المتجر الرئيسي لتوزيع (مؤلفاتي) لا يدفع مهما حاولت معه. إلى اللقاء، يا عزيزتي، أعانقك، وأقبِّل طفلينا. في العاشر من الشهر سأغادر، أغلب الظن، وأصلكم في الحادي عشر منه ليلاً. تهيئي واستعدي. أعانقكم بحرارة وأبارك لكم جميعاً.

المخلص دائماً وأبداً ف. دوستويفسكي

ملاحظة: هذه آخر رسالة من هنا على الأرجح.



235. إلى آنّا دوستويفسكايا

موسكو، 8 يونيو 1880 الساعة الثامنة مساءً

عزيزتي آنيا. بعثت إليك اليوم رسالة الأمس، السابع من الشهر. ولا يسعني الآن إلا أن أرسل إليك هذه السطور القليلة، مع أنني مرهق جداً، معنوياً وبدنياً. ولذا قد تستلمين هذه الرسالة مع رسالة الأمس. صباح اليوم ألقيت خطابي في جلسة «عشاق الأدب»، والقاعة مكتظة عن آخرها. كلا، يا آنيا، لا يمكنك أن تتصوري الأثر الذي تركه الخطاب في النفوس. لا قيمة لنجاحاتي في بطرسبورغ بالمقارنة معه. إنها صفر إلى اليسار. عندما ظهرتُ على المنصة هدرت القاعة بالتصفيق، ولم أتمكن من الكلام طويلاً. كنت أنحني للحاضرين ملوحاً بيديّ، راجياً أن يتيحوا لي فرصة الكلام، من دون جدوى. ما أشد تلك الحماسة المدهشة، إعجاباً «بالأخوة كارامازوف» (على ما أظن). وعندما شرعت بالإلقاء أخيراً، أخذوا يقاطعونني بعاصفة من التصفيق في كل صفحة، وأحياناً بعد كل عبارة. ألقيت بصوت مرتفع وبحماسة ملتهبة. وقوبل بمنتهى الحماس

كل ما كتبته عن تاتيانا (بطلة ملحمة بوشكين «يفغيني أونيغين» الرافضة لبناء سعادتها على تعاسة الآخر). وكان ذلك نصراً مبيناً لأفكارنا بعد 25 عاماً من الضلال. وعندما أعلنتُ في الأخير عن الوحدة العالمية للبشر قامت القاعة وكأنها في هستيريا جائحة. وعندما ختمت لا أستطيع أن أصف لك صيحات الإعجاب التي اختلطت بالنحيب. كان بين الجمهور أناس لا يعرفون بعضهم بعضاً، إلا أنهم تعانقوا باكين منتحبين يعاهدون أحدهم الآخر بأن يكونوا أفضل مما هم عليه، وأن يحبوا بعضهم بعضاً ويبتعدوا عن الكراهية والبغضاء. واختل انضباط الجلسة، وهرع إليّ الجميع على المنصة: سيدات مبجلات وطالبات ومسؤولون حكوميون وطلاب، كل هذا الجمع الخليط يعانقني ويقبّلني. كل أعضاء جمعيتنا الذين كانوا على المنصة عانقوني وقبّلوني، والجميع، فرداً فرداً، يبكون من الإعجاب. واستمرت المناداة عليّ والتلويح بالمناديل نصف ساعة. وفجأة أوقفني شيخان لا أعرفهما: «كنا متخاصمَين 20 عاماً، لا يكلم أحدنا الآخر، والآن تصالحنا وتعانقنا. أنت أصلحت ما بيننا. أنت قديسنا، أنت نبينا!». وصاحت الجموع: «نبي، نبي!». وهرع إليّ تورغينيف الذي ضمنت خطابي عبارة طيبة عنه يعانقني ودموعه تسيل. كما أسرع آنينكوف وشد على يدي وقبّل كتفي. وقال كلاهما: «أنت عبقري، أكثر من عبقري!». وسارع إيفان أكساكوف إلى المنصة راكضاً وأعلن للجمهور أن خطابي حدث تاريخي، وليس مجرد خطاب. وأضاف: الغيوم حجبت الآفاق وجاءت كلمة دوستويفسكي لتبددها وتنير كل شيء كإشراقة الشمس. من الآن فصاعداً تحل الأخوة، ولا يبقى مجال لسوء التفاهم. وتصايح الجميع: «نعم، نعم!». وراحوا يتعانقون من

جديد. وتسيل الدموع ثانية. واختُتمت الجلسة، فأردتُ أن ألوذ بالفرار وراء الكواليس. إلا أن من في القاعة اقتحموا الكواليس، وفي مقدمهم النساء. راحوا يقبّلون يديّ ويثقلون عليّ لحد الألم. كما هرع إليّ الطلبة باكين، وهوى أحدهم أمامي مغمياً عليه. ذلك هو النصر المبين. إنه نجاح ما بعده نجاح. قرع الرئيس يوريف الجرس الصغير وأعلن أن جمعية «عشاق الأدب الروسي» انتخبتني بالإجماع عضواً فخرياً فيها. وتعالت الهتافات والصيحات من جديد. وبعد استراحة لمدة ساعة تقريباً استمرت الجلسة. لم يعد الجميع راغبين في إلقاء كلمات. دخل أكساكوف وأعلن أنه لن يلقي خطابه لأن كلمة عبقرينا دوستويفسكي العظيمة وضعت كل النقاط على كل الحروف. إلا أننا جميعاً دفعنا أكساكوف إلى إلقاء خطابه. واستمر إلقاء الخطب. في حين أن «مؤامرة» حيكت ضدي آنذاك. شعرت بالإرهاق وأردت أن أنصرف، إلا أنهم أبقوني عنوة. وفي فترة الاستراحة تمكنوا من شراء إكليل هائل من الغار قطره أكثر من مترين. وفي ختام الجلسة صعدت نساء كثيرات، أكثر من مئة سيدة، إلى المنصة وكلّلنني بذلك الإكليل على مرأى من القاعة كلها: «تكريماً للمرأة الروسية التي امتدحتَها». وبكى الجميع في موجة جديدة من الهياج والحماس. وشكرني رئيس البلدية تريتياكوف نيابة عن مدينة موسكو. ألا توافقينني، يا آنيا، أن ذلك يستحق البقاء. إنه ضمانة المستقبل، ضمانة كل شيء، حتى وإن قضيت نحبي. عندما عدت إلى الفندق وجدت رسالتك عن (شراء المهر (الصغير). إلا أنك تقولين بخشونة إنني تأخرت كثيراً (في موسكو). بعد ساعة سأذهب للتلاوة في الأمسية الأدبية الثانية. سألقي (قصيدة) «النبي». وغداً أقوم بالزيارات، وبعد غد، العاشر من الشهر

أغادر، وأصل في الـ 11 منه إذا لم يؤخرني شيء هام جداً. ينبغي أن أنشر المقالة، ولا أدري عند من؟ الجميع يطلبونها بإلحاح شديد، بل وفظيع! إلى اللقاء يا عزيزتي. يا حبيبتي الغالية. أقبِّل قدميك... أعانق الصغيرين وأقبِّلهما وأبارك لهما. كما أقبِّل المهر الصغير. أبارك لكم جميعاً. دماغي ليس على ما يرام. والرجفة في الساقين واليدين. إلى اللقاء القريب.

المخلص لك جملة وتفصيلاً دوستويفسكي



236. إلى صوفيا تولستايا

ستارايا روسا، 13 يونيو 1880

حضرة الكونتيسة صوفيا أندرييفنا[1] الموقرة

بالأمس فقط عدت من موسكو إلى ستارايا روسا ووجدت برقيتكم الجماعية الرائعة[2]. فما أطيب ما فعلتم عندما تذكرتموني جميعاً. الصدر ينشرح لشعوري بوجود أصدقاء طيبين مثلكم.

تعرفون من الصحف طبعاً بما لقيته في موسكو. إلا أن الجرائد لا تستطيع، حتى وإن أرادت، أن تنشر كل الوقائع، لأن مراسليها لم يكونوا شهوداً على الكثير من الأحداث. فهل تصدقون، يا أصدقائي الأعزاء، أن الكثيرين بين الجمهور أخذوا، بعد خطابي، يعانقون بعضهم بعضاً باكين واعدين بأنهم سيكونون أفضل في المستقبل؟ وأن تلك ليست الواقعة الوحيدة، فقد سمعت الكثير من الأحاديث من أشخاص لا أعرفهم تحلّقوا حولي متدافعين وكلّموني بتأثر شديد عن الانطباع الذي خلّفه خطابي في نفوسهم. واقترب مني شيخان وخط الشيب شعرهما وقال لي أحدهما «كنا عدوين من عشرين عاماً يسيء أحدنا للآخر، وبعد خطابك تصالحنا وجئنا لنعلن لك ذلك». لم أكن

على معرفة بهما. وكانت هذه التصريحات كثيرة، فدهشتُ وتعجبت حتى كدت أن يغمى عليّ مثل ذلك الطالب الذي جاء به إليّ زملاؤه في تلك اللحظة، وهوى أمامي على الأرض مغمياً عليه من شدة الإعجاب. تلك واقعة ربما لا تصدق. إلا أنه (أدلى بشهادته فيما بعد) إلى «الإزفيستيا المعاصرة»، جريدة غيلياروف - بلاتونوف الذي كان بنفسه شاهداً على الحادث. أما السيدات فقد تحلقن حولي جميعاً، وليس الطالبات فقط، وأمسكن بيديّ بشدة كيلا أفلت منهن وأخذن يقبّلنهما. كان الجميع يبكون. حتى تورغينيف ذرف دمعة. صاح بي تورغينيف وآنينكوف الذي هو خصمي (الفكري) وقالا معجبيَن إن خطابي عبقري، أقرب إلى النبوءة. وأضاف تورغينيف: «أقول لك ذلك ليس لأنك امتدحت بطلتي ليزا»[3]. لا مؤاخذة، يا أصدقائي الأعزاء، لا تسخروا مني لأنني أذكر لكم كل هذه التفاصيل وأتحدث عن نفسي كثيراً. أقسم باللّه ليس ذلك زهواً ولا تباهياً. فأنا أعيش هذه اللحظات بحذافيرها. ومن أجلها يولد الإنسان. الفؤاد مفعم بالمشاعر، فكيف لا أنقلها إلى الأصدقاء؟ أنا لا أزال مشدوهاً لحد الآن. لا تقلقوا، سأسمع قريباً «الرعاع يقهقهون ببرود أعصاب»[4] فلن تسامحني على ذلك مختلف الأزقة والعطفات والتوجهات الأدبية. خطابي سينشر قريباً. أظن أنه نشر يوم أمس الثاني عشر من الشهر في «الوقائع الموسكوفية». وسيبدأ أولئك بانتقاده، وخاصة في بطرسبورغ. من خلال كتابات الصحف أرى أنها تجاهلت، في عرض مضمون خطابي، كل ما هو أساسي فيه. وأقصد النقطتين المفصليتين: 1) أريحية بوشكين العالمية وقدرته على التحول تماماً إلى عبقري للأمم الأخرى، وهي قدرة لم يشهدها بعد أعظم الشعراء العالميين، و2) كون هذه القدرة انطلقت تماماً من روح

شعبنا، ما يعني أن بوشكين هو الشاعر الأكثر شعبية. علماً بأن تورغينيف، في خطابه الذي ألقاه قبل خطابي، جرد بوشكين من صفته شاعراً للشعب كله. ولم يلاحظ أحد حتى الآن خاصية بوشكين العظيمة تلك في التحول إلى عبقري للأمم الأخرى.(5) والمهم أنني قدمت في ختام خطابي صيغة وكلمة مصالحة لجميع أحزابنا وأشرت إلى الطريق المؤدي إلى عصر جديد. هذا تحديداً ما تلمَّسه الجميع، أما مراسلو الصحف فلم يفهموه أو لم يرغبوا في فهمه.

فلنترك هذه المسألة. خطابي نشر أمس أو اليوم في «الوقائع الموسكوفية»، وللأسف الشديد على عجل، من دون مراجعتي. في الأول من يوليو سأصدر العدد الجديد من «يوميات الكاتب»، أعني العدد الوحيد لعام 1880. وفيه سأنشر خطابي كاملاً، دفعة واحدة، بعد مراجعة دقيقة. آنذاك سأرسله لكم، يا حضرة صوفيا أندرييفنا الموقرة. راجياً أن أتلقى نقداً دقيقاً وصارماً، لا أخشاه، بل أحبه دوماً حتى وإن كان مؤذياً بالنسبة لي.

في موسكو تعرفت على عدد من الشخصيات، فهل تعرفون أو سمعتم بالسيدة فيرا نيكولايفنا تريتياكوفا؟ ما أروعها من امرأة!

وما أكثر النساء اللواتي جئن إليَّ في فندق «لوسكوتنايا»، وبعضهن لم يذكرن أسماءهن، لكي يعبّرن عن الاحترام ويقبّلن يديّ بعد الخطاب. فيما تحدثت عن نفسي كثيراً وتباهيت لدرجة جعلتني أشعر الآن بالخجل. العزيزة الطيبة القلب صوفيا أندريفنا، بودّي أن أستلم رسالة بخطكم الرائع العريض، ولو في صفحة واحدة. والله ستكون مبعثاً لفرحي وسروري. خلال اللقاء الشخصي سأحدثكم عن الكثير الكثير. يوليا فيودوروفنا (أباظة) كانت في ضيافتكم. أعمق تحياتي وأجمل تمنياتي إليها، فأنا أحبها حباً جماً.

كما أقبّل فلاديمير سيرغييفيتش (سولوفيوف) بحرارة. حصلت في موسكو على ثلاث صور فوتوغرافية له، إحداها في فتوته، والأخرى في شبابه والثالثة في شيخوخته![6]. فما كان أجمله في الشباب!

وصلت وسأعكف على كتابة «الأخوة كارامازوف» ليل نهار حتى شهر أكتوبر. ولن أسافر إلى أيمس. تقبّلوا أيتها الكونتيسة الموقرة أعمق التحيات القلبية وأنا أقدر رفيع التقدير موقفكم الودي تجاهي، ولذا سأبقى المخلص لكم دوماً

(ف. دوستويفسكي)

---

(1) صاحبة صالون أدبي في بطرسبورغ. زوجة الأديب الكونت ألكسي قسطنطينوفيتش تولستوي (1817-1875) وليس عقيلة الكونت ليف تولستوي (1828-1910) التي تحمل الاسم الثلاثي نفسه.

(2) البرقية بتوقيع صوفيا تولستايا ويوليا إباظة وفلاديمير سولوفيوف.

(3) رواية «عش النبلاء».

(4) من قصيدة لبوشكين بعنوان «إلى شاعر».

(5) نكرر هنا هامش الرسالة رقم 222: للشاعر العبقري أكثر من 400 تمثال في روسيا و40 دولة أخرى، بما فيها مصر (الإسكندرية).

(6) كان الفيلسوف فلاديمير. سولوفيوف آنذاك في الثلاثين من عمره!

237. إلى يلينا شتاكينشنيدر

ستارايا روسا، 17 يوليو 1880

الفاضلة يلينا أندرييفنا المحترمة

أنا بأمسّ الحاجة إلى حبك للبشر وتسامحك العقلاني في معاملتك للناس كي تصفحي عني لتأخري الطويل في الرد على رسالتك الودية الرائعة المؤرخة في 19 يونيو. تمعني في الوقائع على أية حال، وقد تجدين في نفسك القوة الكافية لمسامحتي أنا أيضاً. في الـ 11 من الشهر عدت من موسكو إلى ستارايا روسا في أشد حالات الإرهاق. لكنني واصلت كتابة «الأخوة كارامازوف» فوراً، فحبّرت ثلاث ملازم دفعة واحدة. وبعد أن أرسلتها (إلى المجلة) قرأت كل ما كتبته الصحف عني وعن الخطاب الذي ألقيته في موسكو، ولم أكن قد قرأت تلك الصحف في حينه لانشغالي بالرواية. ورأيت أن أرد على (انتقادات) غرادوفسكي (لخطابي)، ولا أعنيه هو شخصياً، قدر ما أقصد الكتابة عن معتقدنا وإيماننا بخصوص روسيا كلها. ذلك لأن الجانب الرائع المشهود والجديد تماماً في حياة مجتمعنا والذي ظهر على الساحة في مهرجان بوشكين بموسكو قد تعرَّض عمداً للتشويه

والمحو والتزوير. صحافتنا، وخصوصاً في بطرسبورغ، ارتعبت بكل معنى الكلمة من الجديد الذي شهدته موسكو ولم تكن قد شهدت له مثيلاً من قبل. ما يعني أن المجتمع لا يريد المسخرة والتهكم على روسيا وازدرائها، لا يريد البصاق عليها، كما هو الحال حتى الآن. أي أنه يريد بإلحاح وإصرار شيئاً مغايراً. أولئك يسعون إلى شطب ذلك الجديد وإتلافه والسخرية منه وتزويره وإقناع الجميع بأن أي جديد لم يحصل، وكل ما حصل هو سماحة القلوب بعد ولائم موسكو، بمعنى أن المدعوين تناولوا الكثير من الطعام والشراب. وأنا منذ أن كنت في موسكو قررت بعد نشر خطابي في «الوقائع الموسكوبية» أن أصدر حالاً في بطرسبورغ عدداً من «يوميات الكاتب»، وهو العدد الوحيد من المجلة لهذا العام، يتضمن الخطاب مع توطئة تبادرت إلى ذهني على المنصة حينما هرع إليّ تورغينيف وآنينكوف، مع أكساكوف والآخرين، وراحا يقبّلانني ويشدان على يدي بإلحاح قائلين إنني كتبت خطاباً عبقرياً. فهل يفكران الآن أن الخطاب هو كذلك حقاً؟ لا أظن، للأسف الشديد. وسيتناول موضوع التوطئة موقفهما الآن، بعد أن تخلصا من دهشتهما. لقد بعثت التوطئة مع الخطاب إلى المطبعة في بطرسبورغ واستلمت البروفة. إلا أنني قررت أن أكتب فصلاً جديداً في «اليوميات» موجهاً هذه المرة إلى غرادوفسكي. فجاء في ملزمتين، صببت فيهما كل خلجات الروح، وأرسلت الفصل هذا اليوم إلى المطبعة. يوم أمس كان عيد ميلاد ابني فيديا[1]. حل علينا ضيوف، فيما انزويت جانباً لأنهي ما بدأته من الكتابة. (بمعنى أنهم سامحوني). ولذا أرجوك أنت أيضاً، يا يلينا أندرييفنا، أن تسامحيني ولا تزعلي مني لتلكؤي في الرد. أنا أحبك، وأنت تعرفين ذلك.

لا أستطيع أن أعرض في رسالة انطباعي عن موسكو وما إلى ذلك، وأيضاً مزاجي الحالي تقريباً. أنا غارق في العمل، كما في الأشغال الشاقة. أريد وأنا مصمم أن أنهي في سبتمبر الجزء الرابع والأخير من «كارامازوف»، وعندما أعود في الخريف إلى بطرسبورغ سأكون لبعض الوقت متفرغاً نسبياً، فأستعد «ليوميات الكاتب» التي سأستأنف إصدارها على الأرجح في العام القادم 1881[2]. أنتِ في المنزل الريفي؟ من أين تصلكم أخبار موسكو؟ لا أدري كيف نقل لكم غايفسكي قضية كاتكوف. فهي لم تكن على هذه الصورة. كاتكوف تعرَّض لإهانة من جمعية «عشاق الأدب الروسي» التي نظمت الاحتفالات عندما سحبت منه دعوة كانت قد وجهتها إليه قبل ذلك. أما الخطاب الذي ألقاه في مأدبة مجلس البلدية فقد كان بطلب من المجلس وبصفة ممثل له. وما كان تورغينيف يخشى أبداً أن يتعرض شخصه للإهانة من قبل كاتكوف، إلا أنه تظاهر بالخوف من تلك الإهانة، أما كاتكوف فبالعكس هو الذي كان يخشى الأذى. كان لدى تورغينيف فريق هائل جنَّده ودرَّبه كوفاليفسكي مع الجامعة، ولذا ما كان هناك شيء يمكن أن يخشاه. تورغينيف هو أول من أهان كاتكوف. وبعد أن فرغ كاتكوف من إلقاء خطابه وهرع إليه أناس مثل إيفان أكساكوف لتهنئته بقرع الكؤوس، حتى خصومه قرعوا كؤوسهم معه، ومد كاتكوف بنفسه يده ليقرع كأس تورغينيف سحب هذا الأخير كأسه ولم يهنئ الرجل. هذا ما ذكره لي تورغينيف نفسه.

كتبت تطلبين مني أن أرسل إليك خطابي. ولكنني لا أمتلك نسخة منه. النسخة الوحيدة التي كانت لدي موجودة في المطبعة التي تطبع «اليوميات». سيصدر عدد «اليوميات» في الخامس من أغسطس على الأغلب، فانتبهي إليه وبلّغي الزميل العزيز أندريه أندريفيتش[3]، لأنني

أريد رأيه. وانقلي تحياتي القلبية إلى ماريا فيودوروفنا وصوفيا إيفانوفنا (شتاكينشنيدر) وأولغا أندرييفنا (أيسلر)، وذكّري جميع ذويك بي. أنا لا أقول شيئاً عن الخريف، غير أنني أتمنى لك موفور الصحة لفصل الشتاء. زوجتي تبعث إليك وإلى الجميع تحياتها القلبية. اكتبي لي، رجاءً، مرة أخرى.

المخلص ف. دوستويفسكي

---

(1) فيودور فيودوروفيتش دوستويفسكي (1871-1922) اختصاصيّ في تربية الخيول، تعرض للتنكيل بعد ثورة أكتوبر 1917 وكاد يعدم رمياً بالرصاص في القرم. نظم الشعر وخابت آماله في مضمار الأدب. ظلت محفوظتين رسالتان فقط من فيودور دوستويفسكي الأب إلى ابنه فيودور (تجدونهما في موضع آخر من الكتاب. رسالة رقم 165(أ.ب.ج) ورسالة رقم 215 (ب).

(2) فرغ المؤلف من رواية «الأخوة كارامازوف» في بداية نوفمبر 1880 وأصدر العدد الوحيد من «يوميات الكاتب» لعام 1881 في شهر يناير.

(3) أندريه شتاكينشنيدر حقوقي استشاره دوستويفسكي عندما استعصت عليه بعض المرافعات الجنائية أثناء تأليف «الأخوة كارامازوف».

238. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 10 أغسطس 1880

السيد الكريم

نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

مع هذه الرسالة بعثت إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» ما هو مخصص لعدد أغسطس من مجلتكم، وأعني خاتمة الكتاب الحادي عشر من «الأخوة كارامازوف» في 72 صفحة نصفية من صفحات البريد، أي ثلاث ملازم طباعية ونصف تماماً.

أرجوك كل الرجاء أن تبعث لي البروفة في وقتها. من دون إبطاء. الكتابان الثاني عشر والأخير سيصلان هيئة التحرير تباعاً في الـ 10 أو الـ 12 من سبتمبر القادم على وجه التقريب. وهما أيضاً بحجم ثلاث ملازم أو ثلاث ونصف لا أكثر. وبعد ذلك تبقى «نهاية» الرواية في ملزمة طباعية ونصف.

والآن أتناول ما أرسلته لكم.

أنا نفسي أعتبر الفصول 6 و7 و8 موفقة. لكنني لا أدري كيف ستنظر أنت، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، إلى الفصل التاسع. قد

تعتبره نموذجياً جداً من حيث الطباع. لكنني، والله، ما أردت أن أبدو متحذلقاً. وأرى من واجبي أن أحيطك علماً بأنني أخذت من زمان رأي الطبيب، وأكثر من طبيب. وهم يؤكدون أن هذه الكوابيس، بل وحتى الهلوسة ممكنة قبيل الهذيان الرعاشي (عند السكارى). بطل روايتي يواجه الهلوسة طبعاً، لكنه لا يخلطها بكوابيسه. وتلك ليست فقط خاصية بدنية مرضية، حيث يفقد المرء في بعض الأحيان القدرة على التفريق بين الواقعي والوهمي، وهو أمر يحصل لكل إنسان تقريباً ولو مرة في العمر. بل هي أيضاً خاصية نفسانية تتوافق مع طباع البطل. فهو إذ ينكر واقعية الشبح الوهمي إنما يعترف بوجوده عندما يختفي. إنه يتعذب لغياب الإيمان ويرغب لاشعورياً في الوقت ذاته أن يكون الشبح واقعاً لا خيالاً.

على أية حال، ما من موجب لكلامي هذا. فسترى كل شيء بنفسك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، عندما تقرأ النص. ولكن، لا مؤاخذة على شيطاني، إنه مجرد شيطان صغير (متواضع) وليس إبليس كبيراً «بجناحين ملتهبين». ولا أظن أن هذا الفصل سيكون مملاً جداً رغم طوله. كما لا أظن أن فيه مفردات بذيئة سوى «زعيق الملائكة الهستيري». أرجوك أن تمرر النص في هذا الموضع كما هو، فالشيطان يقول إنه لا يستطيع الكلام على نحو آخر. وإذا تعذر ذلك فاكتب «تهاليل الفرح» بدلاً من «الزعيق». ولكن أرجو إبقاء «الزعيق»، لأن النص سيكون والحال هذه سردياً لا شاعرية فيه خلافاً للجو العام.

لا أظن أن شيئاً مما يهذر به الشيطان هنا مخالف للآداب (. . .) فما أكثر أكاذيب مفستوفيلس في كلا جزئي «فاوست».

أعتقد أن الفصلين العاشر والأخير تضمّنا توضيحاً وافياً لحالة

إيفان النفسية، وبالتالي يكون الكابوس في الفصل التاسع واضحاً أيضاً. وأكرر أنني تأكدت من تلك الحالة بعد استشارة الأطباء.

ومع أنني نفسي أرى أن هذا الفصل التاسع كان يمكن أن لا يوجد، إلا أنني كتبته بارتياح لسبب ما، ولا أتخلى عنه بالمرة.

الهذيان الرعاشي ينتاب بطلي في نوبة شديدة في اللحظة التي يدلي فيها بإفادته في المحكمة، في الكتاب الثاني عشر المرتقب.

وهكذا أعربت لك، يا نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، عن كل شكوكي. وأنتظر البروفة بفارغ الصبر.

كيف أحوالك؟ ألا تزال تقيم في المنزل الريفي؟ هل أنعم عليكم اللّه بطقس جيد؟ الطقس عندنا لا أروع منه. عين الحسود فيها عود. بينما في بطرسبورغ مطر مع أنها لا تبدو بعيدة. هنا (في ستارايا روسا) تتحسن صحتي، رغم انكبابي على العمل. وسيكون من دواعي سروري أن أبعث إليك عدد «يوميات الكاتب» الذي سيصدر في بطرسبورغ في 12 أغسطس، وهو العدد الوحيد لهذا العام.

تحياتي الخالصة لعقيلتك.

أرجو التكرم بنقل احتراماتي العميقة إلى ميخائيل نيكيفيروفيتش (كاتكوف).

طياً إيصال بتسلمي ألف روبل منكم. وأنا شاكر لكم كل الشكر على تلبية طلبي في حينه.

أرجوكم أن ترسلوا لي عدد أغسطس من «البشير الروسي» إلى ستارايا روسا. عدد يوليو استلمته مع الشكر والامتنان.

وتقبَّل فائق الاحترام والتقدير من خادمك المخلص دوماً

ف. دوستويفسكي

239. إلى آنّا دوستويفسكايا

ستارايا روسا، 11 أغسطس 1880 منتصف الليل

صديقتي العزيزة آنيا، كيف وصلت (إلى بطرسبورغ)؟ بودّي أن أستلم منك ولو سطراً واحداً على جناح السرعة. كيف أمورك المعيشية؟ أين تنامين؟ أين تقتاتين؟ كيف (يجري إصدار) «اليوميات»؟ عندما مضينا لتوديعك أنا وفيديا ذهبت لوبا مع صونيا وأنفيسا وماريا إلى الأب (رومیانتسوف). وعلمنا منه بشأن النزهة العامة في حديقة المدينة على ضفة نهر كراسنايا جنب متنزه القصر، فركبنا، أنا وفيديا، العربة إلى هناك. كان ثمة جمهور غفير و(ألعاب) ومنشدون عسكريون. فيديا استمع جيداً. ولما كان الجو رطباً فقد عدنا وعرجنا (على القسيس) لنأخذ لوبا، ثم مضى الصغيران للنوم. بينما عملت أنا طول الليل. استيقظت في الـ 12. وكان فيديا ولوبا قد ذهبا لإرسال الرسالة إليك. تصرفهما على العموم جيد جداً. فيديا همَّ بالذهاب لصيد السمك على شاطئ النهر، لكنني وجدته على منحدر الضفة فأمرته بالعودة إلى البيت، فعاد فوراً من دون اعتراض. صباحاً جلست أنفيسا عند لوبا طول الوقت، ثم ذهب الجميع إلى الأب، فيما مضيت

أنا للتمشي. يبدو أن القس مهتم بالأطفال، فهو غالباً ما يدعوهم إليه. ليسهّل الأمر عليّ بالطبع. فيديا لا يفترق الآن عن سيرغوشا، فقد ظهرت لدى هذا الأخير بندقية تطلق كريات كالبازلاء. بعد التمشي أخذت الصغيرين وتغدينا معاً، وتحدثنا عنك «وعما أنت فيه هناك». بعد الغداء مضى الصغيران إلى القسيس من جديد. ثم، وبعد التمشي، أخذتهما ثانية. وفي الطريق سأل فيديا عنك: «بابا، متى سافرت ماما؟ يوم أمس، أليس كذلك؟ فهل ستعود غداً؟ أو بعد غد؟». وحينما وصلنا إلى البيت شربنا الشاي وانطلق الاثنان، فيما جلست لأكتب إليك. تلك هي كل مغامراتنا. باختصار، كل شيء تمام وفي هدوء. تصرف الصغيرين محمود، وهما يريدان التصرف بشكل محمود. إنهما ملتزمان بالوعد الذي قطعاه لك. الطقس عندنا رائع. فيديا من دون قبعة. طاقيته الصيفية تهرأت. وقد رقعتها ليليا. وهي غير مناسبة للموسم، لا سيما وأن حافتها انفصلت عنها بعد أن اكتست بطبقة دهنية. حبذا لو جلبتِ له واحدة جديدة. في «غوستيني دفور» قرب الكنيسة حانوت للعب الأطفال عند ركن الشارع كانت فيه طاقيات ضباط للأطفال مزينة بشعار الجيش وتباع بسعر روبل واحد.

حبذا لو عدت سريعاً. فقد تتعبين هناك. وأخشى أن تمرضي. هل ستصدر «اليوميات» هذا اليوم؟ أعلنت «العصر الجديد» اليوم للمرة الثانية عن موعد صدور العدد الجديد من «يوميات» دوستويفسكي. ولا كلمة في أي صحيفة أخرى، حتى في شريط الأخبار. في حين لو حزق غونتشاروف لصاحت جميع الصحف أن أديبنا البارع قد حزق. أما أنا فهي تتجاهلني وكأنما أجمعت على ذلك. أكيد أن (مطبعة الأخوين) بانتيلييف متلكئة (في طبع «اليوميات»). حبذا لو أسرعتْ. لتعودي أنت إلينا من دون تأخير. بلّغي تحياتي إلى ماريا نيكولايفنا

(سنيتكينا) واطلبي منها أن تخبرنا أكثر بسير إصدار «اليوميات» لحد الـ 25 من أغسطس على الأقل. أنا لا أعتقد بأن الأمر على ما يرام. إلا أن العدد سينفد في الأخير. إلى اللقاء إذن، إلى اللقاء القريب. ربما سأكتب لك مرة أخرى غداً، على أية حال. المهم أن لا يحصل لك مكروه. فقد أخذتِ على عاتقك مهمات كبيرة (في إصدار وتوزيع «اليوميات»). غداً ستكتب ليليا إضافة شخصية منها لك على هذه الرسالة. وحتى فيديا يريد أن يخربش عليها بضع كلمات. وسيحملان الرسالة إلى البريد. الآن يغطان في النوم. ماريا تنام في الغرفة التي فيها الغسال. والجرسون ينام في الباحة. إلى اللقاء، أعانقك.

المخلص ف. دوستويفسكي



240. إلى ماريا بوليفانوفا

ستارايا روسا، 16 أغسطس 1880

الفاضلة ماريا ألكساندروفنا[1] الموقرة

اعذريني، بسماحة روحك وقلبك الكبير، لأني لم أرد عليك في الحال. إذا كنتُ في زمن ما، في حياتي كلها، غارقاً في عمل يفوق طاقتي ومرهقاً لهذا الحد، فذلك هو ما حصل هذا الصيف. وإضافة إلى انكبابي على خاتمة الرواية فقد أصدرت في بطرسبورغ تواً العدد الكبير من «اليوميات» بعد أن كتبته طوال الآونة الأخيرة بحماس وبجهد جهيد. وأظن أن هذا التراكم غير الطبيعي للعمل سيترك أثره كذلك في صحتي. وسيرسل إليك هذا العدد من «اليوميات» غداً. فاقرأيه واكتبي لي شيئاً عنه. فأنا دوماً، ومن أجل الدعم المعنوي، بحاجة ماسّة إلى آراء الذين أحترمهم وأثق بعقولهم وقلوبهم. فما أكثر ما كتبتِه لي من أمور جيدة وطيبة حول الانطباعات التي تركها في نفسك العدد السابق من «اليوميات». ولا يسعني، وأنا أتذكر لقاءنا في بطرسبورغ، إلا أن أثق بفطنتك وبمشاعرك الطيبة الصائبة. في ذلك اللقاء وحده تعلمت تقديرك واحترامك، بل وتصديقك، علماً بأنني إذا

صدقت بأحد فإلى الأبد. تقولين إنك تريدين كتابة المزيد لي. فاكتبي من كل بد. وأكرر أن القلوب البصيرة الصادقة كقلبك هي وحدها القادرة على إسناد الإنسان.

في رسالتك تطرحين عليّ سؤالاً عصياً على الحل، وهو للأسف عمومي تماماً. فهل هناك كائن بشري في زماننا لم يحزن لمثل هذا السؤال؟ الإنسان بالطبع يمكن أن يتعرض لانفصام الشخصية طول الوقت. ويعاني من ذلك دون ريب. إذا لم يكن هناك أمل في مخرج طيب ومقبول فينبغي العثور على مخرج باطني جديد دون إجهاد الذات على قدر الإمكان، ينبغي ممارسة نشاط ثانوي قادر على تغذية الروح وإرواء تعطشها. أظن أن ذلك هو الأفضل. لا سيما وأن سؤالك عمومي تماماً وأنت تطرحينه بصورة عمومية. لا بد من معرفة الكثير فيما يخص التفاصيل والمبطنات. فهل تعلمين أنني أقل الناس قدرة وأهلية للبت في مثل هذه المسائل؟ ذلك لأن موقفي، ككاتب، خصوصي جداً بشأن هذه المسائل. فلدي دوماً نشاط تأليفي متواصل أنهمك فيه بارتياح وأبذل فيه كل جهودي، كل أفراحي وآمالي وأوفر لها المخرج والمنطلق بهذا النشاط. ولذا فلو واجهني هذا السؤال شخصياً لوجدت في الحال نشاطاً روحياً يبعدني رأساً عن الواقع العصيب وينقلني إلى عالم آخر. وبسبب توفر مثل هذا المخرج من المسائل الحياتية العصيبة أبدو وكأنني متحيز مأجور، لأنني مؤمّن ويمكنني حتى أن أحكم على الأمور بتحيز انطلاقاً من وضعي الشخصي. ولكن ما أصعب الأمر على أولئك الذين لا يمتلكون هذا المخرج وذلك النشاط الجاهز الذي ينجدهم دوماً ويبعدهم عن المشكلات التي لا مخرج منها، والتي تغدو أحياناً في منتهى الإيلام

بالنسبة للوعي والفؤاد، وتتطلب حلاً بإلحاح، وإلا تظل تعاكسهما وتؤذيهما.

سأبقى في ستارايا روسا على الأرجح حتى منتصف سبتمبر. ثم أنتقل إلى بطرسبورغ. ولا أدري هل سأتمكن من المكوث في موسكو خلال الخريف أو في بداية الشتاء؟ حتى ولو كان بمقتضى الأعمال وحدها. لا أدري. اعتباراً من يناير القادم ربما سأستأنف إصدار «يوميات الكاتب».

أشد على يدك بحرارة، مع فائق الاحترام والتقدير

المخلص تماماً ف. دوستويفسكي

---

(1) زوجة الكاتب ليف بوليفانوف، رئيس اللجنة التحضيرية لاحتفالات إزاحة الستار عن تمثال بوشكين في موسكو.



241. إلى نيكولاي أوزميدوف

ستارايا روسا، 18 أغسطس 1880

السيد الكريم نيكولاي لوكيتش

قرأت رسالتك بكل اهتمام، وماذا عساي أن أرد عليها؟ أنت نفسك ذكرت، بحق، أن الرسالة تعجز عن احتواء كل شيء. وأنا أظن أن من المتعذر كتابة أي شيء فيها بشكل مقبول، ما عدا الصيغ العمومية. ثم إن مجيئك إليّ من أجل النصيحة مضيعة للوقت بالنسبة لك، لأنني لا أعتبر نفسي على الإطلاق مرجعية مؤهلة لحل مشكلاتك. تقول إنك لم تعط ابنتك لحد الآن نتاجاً أدبياً لتقرأه، خشية أن تتطور تخيلاتها. أظن أن ذلك ليس صحيحاً تماماً. فالتخيل قابلية طبيعية في الإنسان، لا سيما عند الطفل أياً كان. وهي على الأغلب القابلية الأكثر تطوراً بالمقارنة مع جميع قابليات الطفل الأخرى منذ نعومة أظفاره، وتتطلب تطميناً وإشباعاً. وإذا جرى قمعها وتمويتها وعدم إشباعها، أو، على العكس، المبالغة في تطويرها بالجهود الشخصية المفرطة، ففي ذلك ضرر، لأنه يقود إلى استنزاف الجانب الروحي قبل الأوان. الانطباعات الجمالية ضرورية في

الطفولة تحديداً. عندما كنتُ في العاشرة من عمري شاهدت في موسكو مسرحية شيلر «قطاع الطرق»، بطولة موتشالوف. وأؤكد لك أن الانطباع العميق الذي تركته في نفسي آنذاك أثَّر على الجانب الروحي لدي بشكل مثمر للغاية. وفي الثانية عشرة قرأت، وأنا في الريف أيام العطل، كل مؤلفات والتر سكوت، وتطورت لدي القدرة على التخيل الفنتازي والتأثر بالانطباعات، إلا أنني وجهتها إلى الجانب الخيّر وليس الشرير، لا سيما وأنني احتفظت من هذه المطالعة بأروع الانطباعات السامية التي شكلت في نفسي بالطبع قوة كبيرة للتصدي لانطباعات الغواية والتهتك والتفسخ. وأنصحك أنت أيضاً أن تعطي والتر سكوت لابنتك، لا سيما وأنه بات منسياً تماماً عندنا نحن الروس. عندما تعيش ابنتك فيما بعد بصورة مستقلة لن تجد الإمكانية ولا الحاجة للتعرف على هذا الكاتب العظيم. ولذا انتهز الفرصة لتعريفها عليه طالما هي لا تزال في منزل الأبوين. لنتاج والتر سكوت أهمية تربوية كبيرة. ولتقرأ ابنتك كل مؤلفات ديكنز بلا استثناء. عرّفها على آداب القرون الخوالي (. . .) والأفضل أن تبدأ بالشعر. ينبغي لها أن تقرأ بوشكين كاملاً. شعره ونثره. وكذلك غوغول وتورغينيف وغونتشاروف إذا أردت. ولا أعتقد أن جميع مؤلفاتي تصلح لها. حبذا لو قرأت تاريخ شلوسر بكامله، وتاريخ روسيا (تأليف سرغي) سولوفيوف. حبذا لو لم تتجاهل كارامزين. ولكنْ، لا تعطها (مؤلفات) كوستوماروف. كتابا بريسكوت «غزو بيرو» و«غزو المكسيك» ضروريان. عموماً، للمدونات التاريخية أهمية تربوية بالغة. وينبغي (لابنتك) أن تقرأ كل مؤلفات ليف تولستوي. مؤلفات شكسبير وشيلر وغوته موجودة في ترجمة روسية جيدة جداً. هذا يكفي للمرحلة الراهنة. وسترى بنفسك أن بالإمكان الإضافة إلى

القائمة بمرور الزمن. ويفضل استبعاد الكتابات الصحافية، في المرحلة الحالية على الأقل. لا أدري هل سترضيك نصائحي أم لا؟ كتبتها إليك انطلاقاً من بعض الاعتبارات ومن التجربة الشخصية. وسأكون مسروراً لو رضيتَ بما أنصح. وأعتقد أن اللقاء الشخصي الآن لا حاجة إليه، لا سيما وأنني حالياً مشغول جداً. وأكرر من جديد أنني لا أعتبر نفسي مرجعية متضلعة في هذه المسائل. عدد «اليوميات» أرسلناه لك، سعره مع البريد 3، 5 روبلاً، وأبقى مديناً لك بـ 65 كوبيكاً. ودمتم

للمخلص ف. دوستويفسكي



242. إلى إيفان أكساكوف

ستارايا روسا، 28 أغسطس 1880

العزيز إيفان سيرغييفيتش المحترم. كنت أريد أن أجيب على رسالتك الأولى في الحال، والآن وقد استلمت الرسالة الغالية الثانية منك أرى أن أكتب الكثير وبالتفصيل.

لم أشهد في حياتي أبداً ناقداً صادقاً صدوقاً يتعاطف تماماً مع نشاطي مثلك. بل إنني نسيت ولم أعد أفكر في وجود، وإمكان وجود، نقاد مثلك. ذلك لا يعني أنني متفق معك في كل شيء من دون قيد أو شرط، إلا أن الحقيقة تقول إن لدي نفسي، على العموم، شكوكاً كبيرة مع أنه كانت لدي تجربة عامين (متواليين) في إصدار «اليوميات». وهي شكوك تدور تحديداً حول كيفية الكلام ولهجته، وما لا يجوز الكلام فيه أصلاً. رسالتك وصلتني وأنا أغوص في هذه الشكوك، ذلك لأنني عزمت جاداً على مواصلة إصدار «اليوميات» في العام القادم، ولذا يخامرني القلق، وأبتهِل إلى من يُبتهَل إليه أن يمنحني الطاقة والقدرة على الكتابة. ولذا شعرت بالفرحة العارمة لوجودك، لأنني أرى الآن أنني أستطيع أن أعرض عليك ولو بعض

شكوكي، في حين أنك تقول لي دوماً كلمتك الصادقة العميقة التي تدل على بُعد نظر. أرى ذلك وأفهمه من رسالتيك. إلا أن مصيبتي هي أن أكتب لك الكثير، في حين أنني لست حراً طليقاً ولا أستطيع الآن أن أكتب كل ما أريد. قد لا تصدق إلى أي مدى أنا مشغول، أعمل ليل نهار كما في الأشغال الشاقة. ذلك لأنني أختتم «الأخوة كارامازوف»، وبالتالي أستعرض حصيلة نتاج أعتز به في أقل تقدير لأن فيه الكثير مني ومن كياني. ثم إنني عموماً أعمل بعصبية وعذاب وهموم. وعندما أعمل بإجهاد أمرض بدنياً أيضاً. فيما أستعرض الآن حصيلة ما فكرت فيه وخططت له وسجلته طوال ثلاثة أعوام. ولا بد أن أقوم بذلك على أحسن وجه، بقدر المستطاع على الأقل. أنا لا أفهم العمل بتسرع من أجل المال. ولكن حان الوقت لإنهاء الرواية من دون تسويف. فهل تصدق بأنني، رغم التسجيلات التي واظبت عليها 3 أعوام، أكتب أحياناً فصلاً ثم أرميه وأكتبه من جديد، وأعيد الكرّة مراراً؟ ولا تأتي دفعة واحدة وبالتوالي إلا المواضع والمقاطع الوليدة التي يتمخض عنها الإلهام. وكل ما عداها ثمرة جهد جهيد. ولذا، ورغم رغبتي الشديدة، لا أستطيع الآن أن أكتب إليك. معنوياتي غير مناسبة، وإلى ذلك لا أريد أن أتوزع (على عدة جبهات). سأكتب إليك عندما أتفرغ في حدود العاشر من سبتمبر القادم. وسأفكر في الأمر ملياً حتى ذلك الحين. فالمسائل صعبة، على أية حال، ويجب عرضها بوضوح. فلا تزعل، ولا تعتبر ذلك استهانة مني، وإلا ستكون على خطأ. والآن أعانقك وأشكرك من صميم القلب. أنا بحاجة إليك وهذا يكفي لكي أحبك.

المخلص ف. دوستويفسكي

243. إلى نيكولاي لوبيموف

ستارايا روسا، 8 سبتمبر 1880

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

مهما حاولتُ أن أنهي الكتاب الثاني عشر والأخير من «الأخوة كارامازوف» وأرسله إليكم لتنشروه دفعة واحدة أرى أخيراً أنني لن أستطيع. توقفت في موضع يمكن للسرد أن يشكل فيه وحدة متكاملة حقاً، رغم قلة تأثيرها، وإلى ذلك يتوقف الحدث نفسه وقتياً في هذا الموضع بالذات. وأعني «المحكمة». لا أظن أنني أخطأت في السرد من الناحية التقنية، فقد استشرت مسبقاً اثنين من المدعين العامين في بطرسبورغ. توقفت عن السرد لفترة استراحة قبيل «المرافعات». وبقيتْ كلمة المدعي العام وكلمة محامي الدفاع. هنا لا بد من العمل بشكل أفضل على قدر الإمكان، لا سيما وأن المحامي والمدعي العام يمثلان عندي، فيما يمثلان، نموذجاً لمحاكمنا الراهنة بكل ما يلازمها من أخلاقيات وليبرالية ونظرة إلى مهماتها، مع أنني لم أستنسخهما من شخصيات واقعية. وسأعمل الآن على هذين الخطابين. وبهما، إلى جانب قرار «الحكم»، أنهي الكتاب الثاني عشر والأخير من الرواية.

وتبقى «الخاتمة» بملزمة ونصف. ولكنني أنوي وأرغب مصمماً في إتمام ونشر نهاية الجزء الرابع مع «الخاتمة». وسيكون ذلك من أجل عدد أكتوبر من «البشير الروسي». أما الآن فأرسل إليكم، لعدد سبتمبر، قسماً من الكتاب الثاني عشر، وهو كبير في 5 فصول وحجمه في حدود ثلاث ملازم. وأرجوك كل الرجاء أن ترسل لي البروفة في حينها الآن أيضاً، كما في المرة السابقة. وسأبقى هنا، في ستارايا روسا، إلى الـ 25 من سبتمبر في أقل تقدير. فالصيف رائع. بلّغ احتراماتي العميقة لعقيلتك. زوجتي تبعث لكما تحياتها القلبية وأفضل التمنيات. احتراماتي العميقة وتحياتي إلى ميخائيل نيكيفوروفيتش (كاتكوف).

وتقبَّل مني، يا عزيزي نيكولاي ألكسييفيتش الموقر، فائق الاحترام والتقدير

خادمك الدائم ف. دوستويفسكي

(. . .)

244. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 8 نوفمبر 1880

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

أبعث إلى هيئة تحرير «البشير الروسي» طياً «خاتمة» «الأخوة كارامازوف» التي أنهي بها الرواية، في 31 ورقة نصفية بريدية، بما لا يزيد عن ملزمة وثلاثة أرباع الملزمة من قياس «البشير».

وأرجوك كل الرجاء خصيصاً أن تبعث لي البروفة بنسختين، وليس بنسخة واحدة. فالنسخة الثانية تلزمني هنا للتلاوات المرتقبة بعد العشرين من نوفمبر. ذلك لأنني تلوت كل ما عندي، بينما في هذه البروفة جديد. سأتلو الفصل الأخير: تشييع إيليوشيتشكا وخطاب أليوشا. أنا أعرف من تجربتي الخاصة أن مثل هذه المواضع في التلاوة تترك انطباعاً معيناً.

ها هي الرواية قد تمت. اشتغلت عليها ثلاث سنوات، واستغرق نشرها عامين. تلك فترة مشهودة بالنسبة لي. كما أنني أنوي إصدارها في طبعة مستقلة قبيل أعياد الميلاد[1]. الطلب عليها كثير هنا. وموزعو الكتب في روسيا أخذوا يبعثون إلينا حوالات مالية.

اسمح لي أن لا أودعك. فأنا أنوي العيش والكتابة 20 عاماً أخرى. فلا تُسئ الظن بي.

كان بودّي أن أزور موسكو الآن، بعد الفراغ من «الأخوة كارامازوف»، إلا أنني لن أتمكن على ما يبدو. أشد على يدك بحرارة، وأشكرك على المشاطرة، بل وعلى «معقمات» المراجعة التي هي ضرورية للنص أحياناً.

العدد الأخير من مجلتكم جاء في حلة رائعة. ولكن هل هناك بقية (لمقالاتك) المعنونة «بعكس التيار»؟ فهي ذات حضور مشهود. حبذا لو نشرتموها في نوفمبر وفي ديسمير. إذ إنها ضرورية، صدقني. كونها تؤمن النجاح الأكيد.

احتراماتي العميقة لعقيلتك الموقرة. وتكرم بتبليغ تحياتي الخالصة إلى ميخائيل نيكيفوروفيتش المحترم.

زوجتي تبعث إليكم خالص تحياتها.

وتقبَّل فائق الاحترام والتقدير من

المخلص دوماً ف. دوستويفسكي

سانت بطرسبورغ

زقاق كوزنيتشني، دار رقم 5، شقة رقم 10. قرب كنيسة فلاديميرسكايا.

ليد ف. م. دوستويفسكي

---

(1) في بداية ديسمبر 1880 صدرت «الأخوة كارامازوف» في أول طبعة مستقلة بمجلدين عليهما تاريخ عام 1881 وبثلاثة آلاف نسخة بيع نصفها في أيام معدودات.


سابعاً:
رسائل الأيام الأخيرة



قبر دوستويفسكي في بطرسبورغ

245. إلى ألكساندرا تولستايا

بطرسبورغ، 5 يناير 1881

الآنسة الفاضلة الكونتيسة ألكساندرا أندرييفنا[1]

الأحد القادم يشرفني أن أزور حضرتكم ما بين الـ 3 والـ 4 (بعد الظهر)[2].

مع فائق الاحترام والتقدير

خادمكم الدائم ف. دوستويفسكي

---

(1) عمة ليف تولستوي، (ابنة أخ جده)، تكبره بـ 11 عاماً. وصيفة ومربية في البلاط القيصري.

(2) حصل اللقاء فعلاً، ولكن ليس في ذلك الموعد، بل قبيل وفاة الكاتب بخمسة أيام. سلمت الكونتيسة دوستويفسكي نسخة من رسالة ليف تولستوي إليها، مؤرخة في 2- 3 فبراير 1880، وفيها يرفض تولستوي المعتقدات الكنسية.

246. إلى نيكولاي لوبيموف

بطرسبورغ، 26 يناير 1881

السيد الكريم نيكولاي ألكسييفيتش المحترم

طالما كنتَ دوماً تلبي جميع طلباتي الكثيرة فهل يمكنني أن أعوّل مرة ثانية على حسن رعايتك وآمل في مساعدتي لتلبية طلبي الحالي وربما الأخير؟[1]. بموجب فاتورة الحساب التي بعثتها لي هيئة تحرير «البشير الروسي» لا تزال في ذمتها 4000 روبل أو يزيد من مستحقاتي. أنا الآن بحاجة ماسّة إلى النقود. فتكرم بإبلاغ ميخائيل نيكيفوروفيتش الموقر بذلك. ألا يمكن الإيعاز بتحويل المبلغ إليّ كاملاً؟ وسأكون مديناً لك بكل الشكر والامتنان. أريد أن أنفق على أمر قد يفلت من أيدينا، ولذا فأنا في أمسّ الحاجة إلى المال.

معذرة لأنني لم أنتظر إيعاز مكتب «البشير الروسي» من تلقاء ذاته بدفع المبلغ، وأستعجلكم في التحويل. ولو لم تكن هناك ضرورة قصوى لما طلبت.

أتقدم بآيات الاحترام العميق لعقيلتك الموقرة، كما أرجوك أن تنقل احترامات مماثلة مني إلى ميخائيل نيكيفوروفيتش.

وتقبَّل فائق الاحترام والتقدير من

المخلص حقاً وصدقاً

ف. دوستويفسكي

(1) هذه آخر رسالة بخط دوستويفسكي. قالت له زوجته مازحة آنذاك: «ستكتب «كارامازوف» أخرى وستطلب منهم مقدماً مبالغ أخرى». وبعد أيام كتب ميخائيل كاتكوف في نعي دوستويفسكي أن كلمة «الأخير» هذه كانت نذير شؤم بالنسبة لنا جميعاً. كانت هاجساً بقرب الرحيل.



247. إلى يليزابيتا غيدين

مسودة

بطرسبورغ، 28 يناير 1881

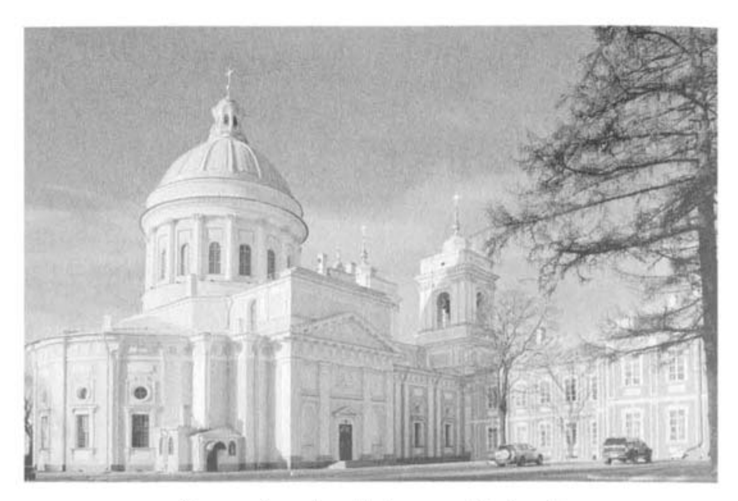
(رداً على رسالة قلقة من الشخصية الاجتماعية المعروفة الكونتيسة يليزابيتا نيكولايفنا غيدين إلى آنّا غريغوريفنا. أملاها دوستويفسكي على زوجته في يومه الأخير وأجرت هي تعديلات عليها).

في الـ 26 من الشهر انفجر الشريان الرئوي وغمر الرئتين بالدم. وفي المساء تكرر النزيف غزيراً جداً مع عسر في التنفس. في الثانية عشرة والربع كان فيودور ميخائيلوفيتش على يقين بأنه سيموت. ثم تحسن التنفس شيئاً فشيئاً، وخف النزيف وتوقف. إلا أن الشريان الممزق لم يلتئم، ولذا يمكن للدم أن ينزف مجدداً. ساعتها يكون الموت محققاً بالطبع. وهو الآن في كامل ذاكرته وقواه، إلا أنه يخشى انفجار الشريان الرئوي من جديد.

...

من مذكرات آنّا غريغوريفنا:

«طلب مني أن أُحضِر الإنجيل وأُشعِل شمعة وقال: «سأموت اليوم». فتح



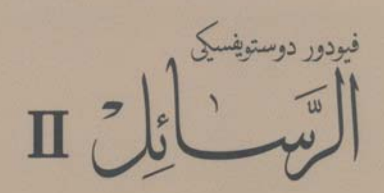
كنيسة القديس نيفسكي في بطرسبورغ

الإنجيل لا على التعيين وأعطاني إياه، فقرأت: «وإذا السماء قد انفتحت له فرأى روح اللّه نازلاً عليه مثل حمامة وآتياً عليه» - «متى»، الإصحاح. 3 : 13. فكرر مما قرأت «وإذا السماء قد انفتحت له» وأضاف: «ألم أقل لك يا حبيبتي إنني سأموت اليوم؟»... وفي مساء 28 يناير انتفض فجأة من دون سبب واضح ورفع رأسه، فشخب الدم على وجهه من جديد. ولم تسعفه مكعبات الجليد. أغمي عليه وشعرت أن النبض يكاد يضيع... وفي الثامنة والدقيقة الثامنة والثلاثين أسلم الروح».

«في الأول من فبراير 1881 شيع جثمان فيودور دوستويفسكي إلى مثواه الأخير بمقبرة كنيسة نيفسكي في موكب عفوي مهيب لم تشهد بطرسبورغ مثله إلا في مقتل الإمبراطور ألكسندر الثاني بعد شهر من ذلك التاريخ!»

جداريات «دوستويفسكي»

في محاولة غير مسبوقة في الإصدارات العربية تنشر دار سؤال بين دفتي الكتاب بانوراما مكتملة للجداريات المستوحاة من مؤلفات الكاتب، 16 جدارية نفيسة تزين بهو محطة «دوستويفسكي» في مترو موسكو.



أخشى أن تكون على علم بحكم الإعدام علينا. رأيت من نافذة العربة التي نقلونا فيها إلى ساحة الاستعراضات جمهوراً غفيراً. ولربما وصلك النبأ أنت أيضاً. فكنتَ متألماً عليَّ. الآن سيكون الأمر بشأني أهون عليك. أنا لم أكتئب، يا أخي ولم تضعف معنوياتي. فالحياة هي الحياة أينما كانت. الحياة في داخلنا، في الباطن وليس في الظاهر.

سيكون على مقربة مني أناس، وأن يكون الشخص إنساناً بين البشر ويبقى إنساناً أبداً، مهما كانت المصائب، ولا يكتئب ولا يسقط، ذلك هو مغزى الحياة ومهمتها. لقد أدركت ذلك. هذه الفكرة تسربت في مسامات كياني، في دمي. نعم، تلك هي الحقيقة. فالدماغ الذي كان يبدع ويحيا حياة الفن الراقية، والذي أبدع وتعوّد على احتياجات الروح السامية، دماغي ذاك قطع من العنق. وبقيت الذاكرة والصور المرسومة وغير المتجسدة من قبلي في واقع الحال. صحيح أنها قروح في داخلي، لكن القلب باق لدي ونفس الدم ونفس النطفة التي تستطيع أن تحب وتتألم وتتوق وتتذكر. وهذا كله حياة على أي حال. السجين أيضاً يرى الشمس. وداعاً، إذن، يا أخي. ولا تحزن عليَّ.







dar_soual@outlook.com



Dar Soual